
حاضر العالم الإسلامي

تأليف

الامريكي

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق احوال الامم الاسلامية وتطورها الحديث

وضعها

نقله الى العربية

الجزء الثاني

القاهرة
١٣٤٣

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان
كل نسخة يجب أن تكون مختومة بختم المعرب

ملتزم نشر هذا الكتاب
نجيب متري
صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

فهرس الموضوعات

للجزء الثاني

الفصل الثالث

في

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكاناً خطيراً في تطوّر الشرق في هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر ، لا بل تتدفق على كل بلاد وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التغرب[1] من أكبر عوامل التبدل والانقلاب في العالم الاسلامي ، حتى وفي الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة . وسنبسط الكلام في موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الاوروبية من التأثير الشديد في تطوّر مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحترازَ الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الاوروبية هي السبب والعامل في جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة في العالم الاسلامي . فقد سبق لنا الكلام مبسوطاً ، مبينا فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامي ما انفكت طيلة القرن الاخير ينفعل بعضها ببعض انفعالاً شديداً ، فيدثر منها مايدثر ، ويستجد فيها ما يستجد ؛ وتتلاشى قوىً وتتولد اخرى ، وذلك جميعه ، على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، انما هو بحد ذاته تجددٌ قائم في الباطن ؛ فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك

(١) مرادنا « بالتغرب » *Westernism* التخلق باخلاق الفرنجة والتشبه بهم وأخذ اخذهم في طراز المعيشة واساليب الحياة . ويشمل ذلك المحسوس كاستعمال صنوف الادوات والمستحدثات ، والمعنوي كاقتباس الافكار والآراء الاجتماعية والسياسية . والتغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة . « المعرب »

المزاج وعناصره مما لا مندوحة لسنة النشوء والتجدد عنه . وعلى ذلك فما هو واقع مشهود في العالم الاسلامي اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب ألا يعتبر مجرد محاكاة للغرب وتشبه به فحسب ، بل انما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلاً مكوناً لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذاً مفرغاً في بوتقة شرقية وفي قالب اسلامي . ويجب فوق ذلك ألا يغيب عن الاذهان ان الشعوب الاسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين ليست ، كما يقول بعضهم ، شعوباً متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالي ، حضارة هي نتاج اسلامي صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم . ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالي ، وفروع ذروات المجد فيما مضى ، أمنا الخطل بقولنا الآن اننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل في العالم الاسلامي تجدداً حقيقياً ، صحيحا رائعاً ، ولاغرابة في ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران .

ان سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث العظامة والخطورة ، والمدى والمجال . فما كان لليونان ورومية من قبلُ من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم ، لايعدُّ بالاضافة الى سيطرة الغرب اليوم شيئاً مذكوراً . والغريب في حديث هذه السيطرة الغربية انها بنت خمسة عقود من السنين لا اكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل وسائلها واسبابها تنتشر وتعم ؛ ذلك كالطرق ، والمسالك الحديدية ، والبرُدُ ، والبرق ، والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوع جديد الآراء والافكار المتوالية الازدياد في كل مصر شرقي . وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق وترسو في كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفرَ البضاعات والارزاق

الغربية في كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيراً سريعاً . فالام والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الحالي تحيا حياة الثلاثين قرناً التي كرت من قبلُ ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائي في مغداها ومراحها ، وانتسخت العادات والافكار والتقاليد الشرقية القديمة انتساخاً كاد يكون تاماً ، وتبدلت صور الحياة واساليبها تبدلا كبيراً . وسنفصل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوهها ، جاعلين الكلام في هذا الفصل تمهيداً لما سيجيء فنقول :—

ان عوامل التغرّب هي اكثر تغلغلاً وانبثاثاً في الاقطار الاسلامية الطويلة العهد في الحكم الاوروبي ، منها في سائر الاقطار . وهذا الأمر ظاهر مثاله فقد كان انتشار الحكم المعروف بحكم « الراجا » في المقاطعات الهندية السحيقة ضرباً من العجائب ، فسيادة الحكم والادارة في الهند قاطبة انما كان على يد مسكوكات النقود ، والبرد ، والقطر الحديدية ، ومحاكم القضاء ، والمساعدة على نشر التعليم والتهذيب ، والاغاثة عند نشوب المجاعات وغير ذلك . ولم يكن انتشار عوامل التغرب في الأقاليم حيث السلطة الاوروبية اسمية بطيئاً ، فلذلك لم يمض غير اليسير من الزمن حتى بدلت العادات القديمة تبديلاً ، وشاعت أسباب الرفاهية الغربية ووسائل التبسط في شؤون الحياة كمصابيح الغاز والمطارز وما أشبه شيوعاً عاماً ، ونشأت بطبيعة الحال على أثر ذلك حاجات اقتصادية حديثة لم تكن تعرف من قبل ، وتحسنت حالات المعيشة تحسناً مذكوراً ، وعلى الجملة فقد كان التطور كبيراً شاملاً .

وكان الارتقاء العقلي والخلقي والتهذيبي مشرباً روح التغرب ، وقد سبق لنا الكلام فأبنا مبلغ ما كان للآراء وروح الحضارة الاوروبية من التأثير العميق في نفوس الاحرار من المصلحين المسلمين . غير ان الام الاسلامية في الشرق على العموم لم تقبل على انتحال الافكار والآراء الغربية انتحالا شديداً مأخوذاً به الى حد امتزاجه بطبائعها واخلاقها ، مثل إقبالها على استعمال

الادوات المادية للحضارة الغربية ، ولاسيما ما كان شأنه من هـذه الادوات لتوفير الرفاهية والرخاء ، فشيوع التبغ مثلا انما كان سريعاً في كل أمة شرقية وفي مدة نصف قرن باتت مصابيح الغاز مستعملة في كل صقع اسيوي ، حتى في اواسط آسية والصين . وأما العادات الغربية كتلك التي في ازياء الملابس والتعليم وما أشبه فقد كان الاقبال عليها قليلا ، الا عند طبقة معروفة . وما اتخذ واقتبس من هذه العادات لم يتلق بحذفاره على صورته الأصلية بل كانت مقتضيات البيئة تغير منه ما تغير حتى تذهب بصفاته وخواصه الغربية وتجعله على ايلاف للبيئة . وما زال الشرق الاسلامي يعترف بتفوق الغرب ومبلغ ما بلغه من ضروب التفنن والاكتناه ، لكن قابلية الامم الاسلامية للأخذ عن الحضارة الغربية قد ونت وضعفت ، وكاد الميل الى اقتباس مبتكرات الغرب من الآراء والافكار يضمحل ، فتلا ذلك روح عدائية شديدة للحضارة الاوروبية وابنائها .

وأظهر ما يكون التغرب في الطبقتين العليا والوسطى ، ولا سيما في اولئك المتهذبين على الطراز الغربي ، وهم الاقلون في كل بلد من بلدان المسلمين ، وعددهم ومبلغ ما لهم من السلطة ونفاذ الكلمة فعلى تفاوت في موضع موضع: يقولون باقتباس الافكار والآراء الغربية ، ولكنهم يختلفون في القدر الذي يقتضي الحصول عليه . فمنهم من يقول باقتباس الفضائل الغربيـة الصحيحة مضافة الى ما في تراث آبائهم واجدادهم من الفضائل العليا والفلسفة السامية بحيث يكون لهم من هذا وذاك مزيج جامع بعناصره ومواده لاحاسن الحضارتين الشرقية والغربية ، ومنهم من يقول باهمال هذا التراث ولو كان شأنه حسناً مهما كان ، وبالاندفاع للتغرب والانكباب عليه بأوسع نطاق . ومنهم من يتظاهر بالتغرب تظاهراً من ورائه المقت والشنأة للحضارة الغربية .

. يؤخذ من هذا التغرب ان غالبه هو في الظواهر. فالهندي مثلا ، والتركي والمصري الحائز اجازة جامعة غربية والذي يفصح التكلم بعدة ألسنة اوروبية

والأمير والباشا والمثري المقتني عدداً من السيارات ومن عادته ان يؤم حمامات اوروبة كل عام ، جميع هؤلاء انما يبدون للعين في أول الامر كأنهم غربيون ، فيرتدون الاثواب الغربيـة ، ويتناولون على موائدهم الاطعمة الغربية . ولـكن وراء هذه المظاهر والاعراض تفاوتاً في أسلوب الحياة ، تفاوتاً تظهر عنده الخواص والميزات الخلقية ، فتبتدىء هذه المظاهر باهرة مغشاة بتعشق التغرب ، ثم تأخذ بالتلاشي حتى تنتهي عند مقته وكرهه .

على ان هذه الصور المختلفة للتغرب لاترى مستقلة متمايزة في طبقة معينة ومكان معلوم ؛ بل انها في كل طبقة من طبقات الامـة وفي كل بلد شرقي . فلذلك ترى الشرق من اقصاه الى اقصاه سائراً في سبيل تحول عجيب ، عظيم الماهية ، سريع الحصول حتى حد الطفرة ، مما لم ير الغرب له مثيلا في جميع ما مضى من الادوار. ان حضارتنا الغربية قد نشأت ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها . نشوءاً طبيعياً متدرجاً ، مجتازة الادوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء . أما الشرق فهو في كثير من مواضع الانقلاب يطفر في تحوله طفوراً ، اذ ان ما يأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحـدة قد تقضت على تكامله عندنا الاجيال والقرون ، فكانت النتيجـة ان غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقي على تطور الشرق هـذا التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني وغير ذلك . فاختلطت الجواهر بالاعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدت أمور وشؤون بعضها قبل اوانه وبعضها الآخر بعد اوانه : وفي مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلي والخلقي تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . فصارت الآباء لا تفهم اغراض ابنائها والابناء تتنكر لآبائها . وأنشأ التناحر يشتد بين القديم والجديد ؛ بين المولّي الفاني والحديث الطريف ، وربما قام الفرد على نفسه فقاتلت سجيته سجيته وخاقه خلقه. وقد وصف السر ڤالنتين تشيرول هـذا العراك الهائل في الهند بقوله : « امواج وغمار تتلاطم وتتكسر بعضها على بعض ومتناقضات تتناحر ، وآراء وافكار

غريبة تتدفق من الغرب الحديث على حضارة قديمة بنت اجيال طوال · فبعض يأخذ ولايحسن الاخذ ، وبعض يُعرض ويلعن ،وعقائد تتبدد ثم تعود فتحيا ونظم صناعية مضطربة ، ومناهج تعليم وتهـذيب غير مستمسكة ، ومبادىء غربية في أفق الادارة والتدبير والقضاء تنتشر في مجتمع متنافر الوحدات ، وسنن الاقتصاد الحديث تندفع بتيارها الهائل على بلاد ما برحت صناعتها وتجارتها على الحالة الاولى من السذاجة ، وتصادم عنيف مستمر لابد منه بين اقوام السكان ، والحـكام الغرباء ، وحروب مسـتديمة الاتقاد · وبعد جميع هذا يتلو نهوض شعب شرقي جبار في الشرق الاقصى .

ان هذه الـكلمات وان كان قائلها قد عنى بهـا وصف الحالة في الهند على الخصوص ، فهي تصح ان تتخذ تمثيلا لصـفة الحال في كل بقعة من بقاع الشرقين الادنى والاوسط . قال أحد كتاب الفرنسيس في هذا الشأن : « الحق أن الشرق على العموم ، والعالم الاسلامي على الخصوص ، لفي دور من الانتقال عظيم . يجوز الشرق اليوم برزخاً فيه يعارك المـاضي الحاضر ، وتتنازع العادات القديمة والجديدة الدخيلة ، فبدت صور غريبة ومشاهد عجيبة . »

هذا هو السبب في تنكر اخلاق الـكثير من متغربة الشرقيين « كالبابو » الهندي و «الافندي » التركي . ولا جرم ، فكل انقلاب عظيم وتحول كبير لابد من ان يرافقه قدر من المفاسد والسموم ، فتغرّب الشرق اليوم هـذا التغرب الذي سيقف بالضرورة عندحد ، انما فيه حسنات وسيئات . والاصلاح والانقلاب في امة ، ولواقتضتهما الضرورة أشد اقتضاء ، ان هما في الواقع الا القضاء على القديم وادخال الجديد الذي لايخلو من البذور الفاسدة التي لم تكن من قبل . وقد قال اللورد كرومر في هذا الصدد : « انه ليرتاب فيما اذا كانت هذه الشعوب الشرقية المتدلية تعترف بالثمن الذي ينبغي أن يؤدى لقاء ما هو منقول اليها من الحضارة الغربية . أما المنافع المـادية التي اصابها أهل الشرق من الحضارة الغربية فهي عظيمة بلا جدال . وأما المنافع المعنوية فلايستطاع

حتى اليوم الوقوف على مبلغ تأثيرها في الفرد والمجموع » .

وسيئات التغرب وحسناته ظاهرة ظهوراً بيناً في طبقة الاقلين الذين يعرف فيهم التهذيب الراقي . أما هؤلاء فبعضهم يرتاحون كل الارتياح الى الروح الغربية ، والبعض وهم أكثر عدداً ، قد ادركوا بوزخ التنازع بين القديم والجديد فذهبوا فريسة القوتين المتناصرتين . قال اللورد كرومر يصف متغربة المصريين : « انهم مسلمون وليس فيهم خواص اسلامية ، واوربيون وليس فيهم خواص اوروبية » . وقال كاتب انكليزي واصفاً ما هو منتشر في الهند من مظاهر التغرب : « قصور مغولية فخمة مزدانة بالمتاع والأثاث المجلوب من بريطانية . . . . . . هذا جميع ما استطعنا عمله في الهند ، فاننا لم نحمل الهندي على ان يمقت حضارته الشرقية وينبذها نبذاً فحسب ، بل حملناه فوق ذلك على اتخاذ الاعراض والغث من حضارتنا بديلا منها ، فبات الهندي وحالته العقلية تمثل مزيجاً من مجموع عناصر ضارة ، بعضها اسيوي باق وبعضها الآخر أوروبي مجلوب . وليس ذلك بالمستغرب وقد أصبحت حضارة الهند خليطاً لا مثيل له في العالم ماضياً وحاضراً ، بحيث انقلب الهندي اليوم متطوحاً واستمسك بامور عدها فضائل وليست من الفضائل بشيء ، وغرته الخدع وأخذت بلبه الاعراض . . . نحن حاولنا ان نرقى بالعقل الشرقي الى مستوى الكمال الغربي والبيئة الغربية ، فخبطنا دون ذلك شرحبوط ، اذ قد افضينا به الى حالة عقلية أدبية الفساد يغشاها وعوامل الخلل والدخل ضاربة فيها » .

فهذه المفاسد الناشئة عن تيار التغرب انما هي من الاسباب الكبرى في انتشار روح البغضاء والكره في اصقاع الشرق لكل شيء غربي ، وقد عمت هذه الروح حتى شملت الكثير من اولئك الواقفين على طبائع حضارة الغرب وعمرانه حق الوقوف ، فساعد ذلك كله على ازدياد الروح الرجعية المقاومة لسيطرة الغرب السياسية .

حقاً ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق لهي الامر الشاغل من الخطورة والشأن اكبر مكان . وقد أتينا فيما اسلفنا من الكلام على بيان موجز فى فتح اوروبة للشرقين الادنى والاوسط خلال القرن الماضي ، وكيف كان العالم الاسلامي اذ ذاك متدلياً لاحول له ولا قوة حيال ذلك السيل من الفتح السياسي والاقتصادي . وفي الواقع ، فان ذلك الفتح الاقتصادي قد كان العامل الاكبر في سرعة تقدم اوروبة وبلوغها اوج الكمال وقنة العظمة ، أما أمر اخضاع البلدان الشرقية فقد كان بعضه يتم على يد القوى العسكرية كحملة فرنسة على الجزائر ، وفتح روسية لأواسط آسية ، وغزوة ايطالية لطرابلس الغرب ، وبعضه الآخر على يد الوسائل الاقتصادية الصرفة وذلك ما هو معروف بـ « الفتح السلمي » أعني به القبض على خناق بلاد شرقيـة مستقلة استقلالا مخترق السياج ، برؤوس الاموال الغربية تمد بها الدولة الفاتحة تلك البلاد على شكل القروض والامتيازات ، ومتى ما تم ذلك أخذت السـيطرة السياسية تبدو شيئاً فشيئاً حتى تنتشر انتشاراً يطبق البلاد ، وعلى هـذه الطريقة تم فتح مصر ومراكش وبلاد العجم ، بينما كانت الهند من قبل ذلك تستعمرها « شركة الهند الشرقية » بوسائل تجارية بحتة . على ان خطورة هذا الفتح السلمي لا يعتبر قدرها على الغالب حق الاعتبار .

فلننظر في شيء من وسائل هذا الفتح وهو امتيازات القطر الحديدية ، فقد قال الدكتور ا . ج . ديولون الرجل الخبير بالسـياسة الدولية في هذا الشأن : « القطر الحديدية اليوم باتت من أفضل الوسائل لانتشار الاستعمار وامتداده ، اذ متى ما انشئت هذه الشرايين في جسم بلاد منحطة وتغلغلت في احشائها واطرافها ، لاتلبث ان تنقلب اذرعاً حديدية خناقة حول عنق البلاد ، ممتصة من دماها وسالبة من قواها ما استطاعت » .

ليس من غرضنا في هذا الكتاب ان نخوض في البحث هل كان الغرب على حق أو باطل في تسـلطه على الشرق هذا التسلط الاقتصادي الهائل ، فقد

بحث الباحثون في هذا الموضوع واستقصوه من جميع وجوهه ، والقارىء الكريم مطلع على مثل هذه المباحث مما نحن بغنى عن ذكره . غير ان هناك أمراً لا يحتمل الجدال ، وهو ان هذا التسلط انما كان مما لا بد منه ولا حيدة عنه . فقد طلع القرن التاسع عشر على العالم والشرق والغرب شتان ما هما تقدماً وعمراناً ، وبأساً وقوةً . الغرب جبار عنيد ، شديد البأس ، مجدول الساعدين ، يتدفق قوة ونشاطاً ونمواً ، يتخطى حاملاً على منكبيه أكبر حضارة عرفها الانسان سائراً بها نحو معقل الغاية العليا ، والشرق متثاقل متحامل ، قليل المنة ، سليب العزم . فكان المتوقع انقضاض الاول على الآخر وإنشاب مخالبه في كل موضع من مواضعه . وما يعنينا جد العناية بهذا المقام الا اعتبار ماهية التأثير الذي كان للسيطرة الغربية السياسية في مجرى انقلاب الشرق على العموم ، ومبلغ تأثر الشرق بتلك العوامل المتسلطة عليه . ومما لا شك فيه ان السبب الاكبر في مبلغ هذا التأثر انما هو التغرب على ما سبق وصفه . وقد كان من ديدن الحكام والمتسلطين الغربيين انهم متى قبضوا على اعنة الحكم في بلاد شرقية يشرعون بمقتضى الضرورة في نشر المؤثرات والعوامل الغربية جاهدين في تقريب متناولها وفي ذلك أسباب . ففي المقام الأول كانت الدولة المتسلطة ترى من مصلحتها ان تحمل السكان على طأطئة رؤوسهم لها وانقيادهم الى حكمها وأمرها ، وان تسعى في توفير اسباب العمران المادي ، وصيانة السلم والأمن ، لكيما يتسنى لها بذلك كله الانتفاع واستدرار الخيرات وابتزازها ، وذلك لا يتم لها الا بالقضاء على الحكومة الاهلية المستبدة ، القليلة الحول والطول ، وأن تقيم مقامها حكومات استعمارية منيعة الجوانب ، شاكية السلاح ، شديدة الشكيمة ، فتقوم هذه بتثبيت النظام وتمهيد سبل الصناعة ، وانشاء اسباب العمران كقطر الحديد والبرد والمعاهد الصحية وغير ذلك . ولكن هذه الحكومات الغربية لم تقصر همها

على الترقية المادية فحسب ، بل سعت في سبيل ترقية الامم الداخلة في حكمها الترقية الاجتماعية والعقلية والادبية .

فبهذا الاعتبار قد عرفت في الدول الغربية التي شيدت ممالك الاستعمار خلال القرن التاسع عشر روح أرقى من تلك التي عرفت من قبل في الدول الاستعمارية السابقة من اسپانية والبرتغال وهولندة وشركة الهند الشرقية الانكليزية وهي روح الجشع والنهم والاستنزاف . ففي القرن التاسع عشر كانت جميع الدول المستعمرة أخذت تشعر شعوراً حقيقياً عميقاً بالغاية الفضلى المثلى وهي « واجب الانسان الابيض » ، وكان بناة الممالك الاستعمارية في القرن الماضي يشتملون في نفوسهم على عواطف حب المصلحة وابتغاء المعالي والمطامح في سبيل اعلاء شأن الوطن ، وفوق ذلك على شعور أنبل وأشرف الا وهو الشعور بالواجب الكبير ، واجب ترقية الشعوب والامم التي دانوها لهم وأدخلوها في حكمهم ؛ يحملهم على ذلك سبب كونهم حملة مصابيح العلم والعرفان ، فشرعوا ينشرون اسباب الحضارة الغربية ويعممون طرق فوائدها ، معتقدين الاعتقاد الراسخ كله ان امتداد السيطرة السياسية الغربية انما هو الذريعة الفضلى ، وربما الوحيدة ، لانهاض الجانب المنحط المتدلي من العالم ، وللأخذ بنصرته في سبيل التجدد والارتقاء .

وقد وصف العلامة « رمسي موير » وهو من كرماء أرباب مذهب التوسع الامبراطوري ، هذه الحقيقة بقوله : « من الحق الذي لا يمارى فيه ان توسع الامم الاوروبية التوسع الاستعماري ، كاد يكون الذريعة الوحيدة التي انتشرت على يدها الحضارة الغربية في جميع رقاع العالم المعمور ، فبات على أثر ذلك وحدة اقتصادية كالحلقة المفرغة ، وامست جميع شعوبه وأممه تسير على نظم سياسية أدناها صائر الى مماثلة ارقاها . وهذا مما يحملنا على الاعتقاد أن العالم باسره هو مسوق الى الانضواء تحت نظام عالمي عامّ ، قائم على طراز شامل لم يحلم بمثله المتقدمون . فلولا الفتوح الاستعمارية الغربية لظلت

الاميركتان واسترالية وجنوب أفريقية بلداناً مقفرة يضرب في أرضها شتات الهمج ، ولبقيت الهند وغيرها من بلدان منابت الحضارات القديمة ومناشيء العمران السالف ، عرضةً لدواهي الاجتياح والتدويخ ، ومستقراً للبغي والاستبداد على نحو ما كانت الحال عليه في الحقب المتطاولة في القدم ، ولكان العدل والقسط والقانون والحرية السياسية شيئاً غير مذكور ، ولأمست الشعوب التي كانت متدلية تتخبط حتى اليوم في معاثرها ، مستغرقة في حالة البربرية . فاذا غدونا نرى اليوم في الشرق هذه العقائد السياسية الغربية ، عقائد الجنسيات والاستقلال والحكم الذاتي هائجة غالية المراجل ـ مما هو في الواقع من خير نتاج الحضارة الغربية وثمراتها الطيبة ـ فما ذلك لعمري الا نتيجة من نتائج فتح أوروبة الاستعماري » .

وقد أصاب اللورد كرومر في وصفه أدب الاستعمار الحديث بقوله : « يجب ان تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة . ويجب ان تكون اصول احكامنا التي هي الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة في حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسيّ والاقتصادي والأدبي ، قواعدَ صحيحةً سليمةً منزهةً عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية في بناء الامبراطورية . ان المبرّر الاكبر للاستعمار يجب ان يظهر جلياً في حسن التصرف بما في أيدي هذه الامبراطورية من القوى . فان استطعنا ذلك فكنا فيه من الحكماء ، ولينا وجوهنا شطر المستقبل رفيعي الجباه لا نخشى ان يعرونا ما عرا الامبراطورية الرومانية من قبلُ من الفساد والدخل ، وان لم نستطعه فكنا فيه من الجهلاء الاغبياء ، فقد استحقت الامبراطورية البريطانية الانهيار من علٍ ، ولسرعان ما تتناثر حلقاتها وتتبدد بعد الاجتماع » .

على هذه القواعد قامت مبررات الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر. وسواءٌ أكان مقدراً لهذا الاستعمار البقاءُ طويلا أم التلاشي فالاضمحلال ،

فما لاريب فيه ان امتداد سيطرة الغرب السياسية وانتشارها في آفاق الارض قد ساعدا على انتشار المؤثرات الغربية مساعدة كبيرة . على ان الامر الذي يُتساءل فيه هو هذا : هل كان الشرق يستطيع بنفسه ، فيما لو ترك حراً من هذا الخناق الشديد والسلطان القاهر والسيطرة المكرهة ، ان ينهج مناهج الغرب ويأخذ إخذهُ في النهوض والارتقاء ؟ فعلى التسليم بهذا ، يجب ألا يغرب عن البال ان الشرق لو ترك وشأنه لكان حتى اليوم ما برح بطيء التحدي والأخذ عن الغرب متثاقل النهوض . زد على هذا أن الزمان ليأبى كل الاباء ان يوسع أمة في يومها على حساب غدها ، فعلى هذا من قال انه كان على الغرب الشديد النامي ، الآخذ سلطانه في الامتداد والانتشار مشرقاً ومغرباً في القرن التاسع عشر ، ان يربأ بنفسه فيتنكب طريق التسلط على الشرق ، بل يتركه وشأنه ينفعل كيف شاءَ قدر ما شاءَ بالمؤثرات والعوامل الغربية ، فيقبل ويرفض ، يجذب ويدفع ، يحب ويكره ، يتقبل الارزاق والبضاعات غير مؤد لاثمانها ، يستقرض القروض المالية ويبذرها تبذيراً ، يدعو الغربيين اليوم الى دياره وغداً يهب لطردهم أو حز غلاصمهم ، فمن قال هذا ، فانما قوله لا تجيزه المنبآت الصادقات من حقائق التاريخ ، ولا تؤيده سنة العمران البشري .

فالحق ان الضغط الغربي انما كان من احكام الزمان القاضية بسيطرة القوي على الضعيف . وهذا الضغط العميم العنيف الذي طال عهده قد دك اسوار جمود الشرق دكاً ، وحطم سلاسل رق الشعوب الشرقية تحطيماً ؛ وهز المشرق من أقصاه الى أقصاه فاهتز وتناثرت منه بأليات أثوابه ، وأخرجه من الظلمات الى النور ، وساقه في طريق العمل ، وأراه من الحقائق في اليقظة غير ما كان يراه من أضغاث الاحلام في الهجعة . واننا سنفصل الكلام في الفصول التالية على ما كان لسيطرة الغرب على الشرق من التأثير في نفوس الامم الشرقية فاخذت تنفعل وتتبدل وتتحول طيلة جميع القرن الخالي . ولكننا في

هذا المقام نسير في مجمل المراد من القول قاصرين الكلام على السيطرة الغربية في دورها الحديث الذي وليه انقلاب الشرق بعامل رد التأثير مقاوماً معادياً للغرب .

ان الضلالة الكبرى والمزاعم الباطلة التي اشتملت عليها نقود النقدة في شأن سيطرة الغرب على الاقطار الشرقية ، انما هي ناجمة بجملتها عن عدم التمييز والفرق بين ماهية استعمار القرن التاسع عشر واستعمار القرن العشرين . أما استعمار الاول فقد كان ضرورة لا بد منها ولا منتدح عنها ، وقد أتى غالبه بنفع وخير كما قدمنا الكلام على هذا . وأما استعمار هذا القرن فلا يمكن ان يحمد مسيره ولا مصيره . ما كادت تطلع سنة ١٩٠٠ حتى كانت الشعوب الشرقية كافةً قد نفضت عنها خلقانها ، وبددت غيهب جهلها وتعصبها ، وحطمت عقال خمولها ، وخرجت عن تلك الدائرة المغلقة التي لم تحو غير آثار حضارات مندرسة ومدنيات منقرضة ، وأنشأت تمهد لها مهيعاً مفضياً الى التجدد الصحيح والارتقاء . وكان الشرق قد اكمل تلقي دروسه ، وأنهى أخذها عن الغرب ، فشرع من بعد ذلك في تطبيق العلم على العمل لا ايهاب ولا بوجل ، فكان يجب على الغرب ، من قِبل العقل والمنطق ، ان يوقن ان هذه الشعوب الشرقية ذات التواريخ المجيدة الحافلة بصور المجد والمعالي ، والتي قد استيقظت الآن فهبت تواقةً متعطشةً لاستعادة ماضي شأنها وغرر سالف أيامها ، يجب الرفق بحالها ، واقامة الوزن لنهضاتها ، وانتهاج المناهج الفضلى في مراعاتها ، واعتبار الفرق بين بارحتها ويومها وكراها ويقظتها ، وان شئت فقل كان يجب على الغرب من حسن النظر والحكمة ان يبدل موقفه على مقتضى تبدل الاحوال ، فيزيد في توسيع نطاق الحرية الصحيحة لامم الشرق وشعوبه فيكون لهن في سيرهن وجهادهن نصيراً ، لا حائلاً دون مبتغاهن وعدواً لآمالهن .

ان الشرق قد تبدلت شؤونه ، غير ان سياسة الغرب الجائرة لم تتبدل .

بل ان مبادىء الحرية التي سادت في الغرب ، ونودي بها غالب القرن التاسع عشر ، هبت عليها ريح هوجاءُ من المطامع السياسية والاقتصادية فزقتها شر ممزق وبددت صورها كل مبدد . اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب الكونية العظمى . وكانت قد اشتدت نهمة أوروبة وجشعها للتوسع في الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الاسواق الاقتصادية ، اشتداداً وحشياً غير مسبوق المثيل . فنجم عن ذلك أن باتت سيطرة الغرب على الشرق في صدر القرن العشرين غاية ما بعدها غاية في الارهاق وشد الخناق ، من حيث يجب اللين والرهو ، وطفقت أوروبة تتجهم في وجه الشرق المستيقظ الناهض ، وتستبيح لنفسها مناهضته وتسميم عواطفه الثائرة وروحه الهائجة ، فأساءت اليه بذلك في سنوات معدودات اساءة تفوق جميع ما ناله منها من الشر والهوان طيلة مئتي سنة خلت . وكانت السياسة التي جرى عليها ساسة أوروبة الحدثاءُ في مناجزة نهضات الاقطار الشرقية المجاهدة في سبيل الاصلاح والذود عن حياض استقلالها كتركية وبلاد فارس ، عاراً وشناراً على الساسة الاحرار السابقين الذين كانوا منذ جيل مضى ، وجنايةً كبيرةً على الاحرار المعاصرين ، كما تشهد بهذا كلمات خالدات قالها الكاتب الانكليزي الشهير « سدني لو » سنة ١٩١٢ وهي :—

« ما اشبه غالب الدول النصرانية في سلوكها هذا الذي ما برحت سالكته منذ عدة سنوات ازاء الامم الشرقية ، بعصابة من اللصوص يهبطون على الحلل الآمنة ، أهلها ضعفاء عزل ، فيثخنون فيهم ثم ينقلبون بالغنائم والاسلاب . ما بال هذه الدول لاتنفك تدوس حقوق الأمم المجاهدة في سبيل النهضة ، وعلام هذا العسف الذي تضرب به الشعوب المستضعفة ، وهذا الجشع الكابي لانتياش مابين أيديها وما خلفها . انهذه الدول الغربية النصرانية هي بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة أن القويّ الشاكي السلاح يحق له الانقضاض على

الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على ان مكارم الاخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المساحة . أجل ، ان هذه الدول قد تجردت عن كل حسنة في معاملة الشعوب الشرقية تجرداً لم يسبق له مثيل حتى بين أشد الجيوش الشرقية همجية في الزمن القديم .

« ان أعجب ما رآه تاريخ العالم خلال الخمس والعشرين سنة الماضية هو يقظة آسية هذه اليقظة الكبرى ، بعد رقدة استغرقت فيها قروناً . قد استفاق الشرق مذعوراً فأخذ يجهد الغرب ويزحمه في حلبة العمران ، وكانت اليابان أولى الامم الشرقية المنبرية الى هذا الميدان ، فكان انبراءوها هذا — لحسن طالعها — في عهد ما بلغ فيه الجشع الاستعماري مبلغه اليوم ، وكانت حقوق الامم والمعاهدات مابرحت تحترم بعض الاحترام . فعلى ذلك لما هب ساسة اليابان الدهاة في القرن التاسع عشر يشيدون ويبنون ، ويذودون ويزاحمون [1] لم تذعن اوروبة لهم ولم تبادر لسد السبل في وجوههم ، بل اننا نحن الغرب رأينا الى النهضة اليابانية بعين الرضى والارتياح ، والاعجاب والاعظام ، فتركنا أبناء « نيون » وشأنهم يغامرون الصعاب ويذللونها في سبيل الحياة . غير انه لمن اليقين الثابت لو استأخرت ثورة النهضة اليابانية ثلاثة عقود من السنين ، لكان نبأ اليابان لدينا اليوم غير نبأ ، ولكانت اليابان الحديثة وهي اذ ذاك في ابان مخاضها ، قد احاطت بها من كل جانب الدول الغربية العظمى المسلحة احاطة السوار بالمعصم ، ومدت كل منها يدها الى شيء من المتاع تغتصبه اغتصاباً . حقاً انه قد كتب لليابان السلامة والنجاة من مخالب الاستعمار الذي انتشب في العالم بعيدئذ ايما انتشاب . ثم لما أخذت الاقطار الشرقية الاخرى تهب جاهدة لاقتفاء أثر اليابان واحتذاء حذوها ، طفقت تلقي جداً عاثراً وحظاً منحوسا ، وفي خلال العشرين سنة الخالية ثارت

(١) اقرأ ماحررناه في الرد على مقالة « مجلة باريز » في عرض الاستشهاد من كلام ذلك الوزير الياباني لعثمان نظامي باشا مما يؤول الى كون الغرب لايعرف سوى القوة . (ش)

ثأرة الاستعمار في اوروبة ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضاً ، وخلعت وزارات المستعمرات العذار تريد التهام العالم التهاماً ، فأحدث ذلك رد فعل أسوأ ما يكون في الامم الشرقية المجاهدة مشتعلة بنار اليأس لانشاء النظم الدستورية واقامة سلطان الشورى . وما كان ذنب هذه الامم التي انهالت عليها حملات اوروبة المنكرة سوى أنها أخذت تسعى في ان تقوم بالارشادات والتعاليم التي ظل المستشارون والحكماء الغربيون النصارى يلقنونها الشرق تلقيناً طيلة سلسلة من الأجيال .

« وان الفرد ليخال عند الوهلة الاولى أن متى ما أخذت هـذه الشعوب والامم الحافظة لتعاليم اوروبة عن ظهر القلب ، تسير في سبيل الاصلاح والترقي مع الشدائد الصعاب تسارعت الحكومات الاوروبية للأخذ بنصرتها وشد أزرها والارتياح الى نهضتها ، أو على الأقل تركها وشأنها تغالب ما تغالب وتجاهد ما تجاهد في سبيل تشييد بنائها بايديها ، غير أنه ما كان ابعد هـذا عن الواقع ، اذ انشأت الدول الغربية الواحـدة تلو الاخرى تنقض عندما تلوح لها سانحة الشقاق بين أمة وأمة شرقية فتنتاش بلاداً ثم تجعلها حانية عنقها الى نير الاستعمار » .

وقد أسلفنا كلاماً في موضعه بينا فيه كيف كانت تتوالى حملات الاستعمار على العالم الاسلامي آخذاً بعضـها برقاب بعض ، وكيف محت دول الحلفاء الظافرة استقلال ما كان لم يزل باقياً من الممالك الاسلامية عند ختام الحرب العامة ، وكيف أشعلت اوروبة بذلك نار غضب المسلمين فباتت قلوبهم مكتواة تحتدم غيظاً وحنقاً ويأساً من الغرب ومقتاً له . وقد تقدم الكلام مسهباً في الفصل السابق على نشوء الجامعة الاسلامية وعملها وتأثيرها في نفوس المسلمين. وفي الفصول التالية سنبسط الكلام على نشوء العصبيات الجنسية الشرقية . غير انه يجب ألا يتبادر الى الذهن ان هذه الحركات السياسية الدينية انما هي جميع الصورة التي تتجلى فيها روح عداء الشرق للغرب ؛ اذ ان هناك غير ما

ذكرنا تطورات اقتصادية واجتماعية ، ونشوء حركات قومية ذات تأثير عميق . ولبيان طبائع عداء الشرق للغرب هذا العداء المسوق اليه الاول بعامل رد التأثير نأتي للكلام على هذا موجزاً فنقول :

ظلت روح العداء للغرب طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت . ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام فما برح الكره للغرب شائعا عميا ، بيد انه — على توالي الايام — صار موقف بعض الطبقات من الامم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان . وقد كان الأحرار المسلمون في بادىء الامر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول. وقد أسلفنا الكلام في الفصل الاول من هذا الكتاب كيف اعتزم المسلمون الاحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساساً للقيام بما أنشؤوه من الاصلاح الاسلامي باعتبار جهتيه الدينية والمدنية فقد جهد ساسة تركية الاحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الأخير من القرن الماضي جهداً كبيراً للقيام بالاصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد احرار غيرهم مثل جهدهم في الاقطار الاسلامية الاخرى في سبيل الغاية عينها . وخير مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا في سبيل اصلاح تونس ، والى القارىء الكريم لباب الخبر : ان هذا القائد المقدام ، الجركسي الأصل قد استطاع ان يكسب ثقة مولاه الباي ، ويتمكن عنده تمكناً كبيراً ، فاستوزره وسلم اليه مقاليد الامور . وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياحة الى اوروبة فطاف في ممالكها وشاهد صور عمرانها وحضارتها ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه ، واذ اقتنع بتفوق اوروبة وسيادتها شاء من صميم قلبه ان ينقل الى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد واسعادها ، واعتقد ان هذا العمل سهل القيام به قياماً يتلوه تجدد تونس في عهد قريب . ولم يكن خير الدين بغيضاً للغرب ، غير انه قد ايقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل

الذي سيحيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدفقين من الغرب اذا توانت الممالك الاسلامية في الاصلاح الصحيح ، فراح خير الدين يبتغي شديد الابتغا ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكله عزم أكيد ، أن يسوق أهل بلاده وبني قومه في طريق التجدد والعلى والارتقاء ليبلغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها وتقوم بالذياد عن حياض حريتها واستقلالها .

واقتنع الباي كل الاقتناع بآراء خير الدين وخطط مشروعاته ، ففوض اليه تنظيم شؤون البلاد . وأطلق يده لا تعلوها يد في القيام بضروب الاصلاح. فظل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل مذللا جميع ما لقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين ، غير ان منيته عاجلته باكراً فانتقل الى جوار ربه تاركاً مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسة فبسطت سيطرتها على تونس . وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها انه ألف كتاباً قيما موسوما بـ « اقرب المسالك في معرفة احوال الامم والممالك » [1] استنهض فيه همم ابناء بلاده واستفزهم الى التجدد والترقي ، وحذرهم من سوء عقبى

(١) يوجد شيء من النقص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسى الذي كان من اوائل المصلحين الاسلاميين في القرن الماضي . وكتابه اقوم المسالك هو من خيرة ما ألف لكسر قيود الجمود الضار القاتل وحطم سلاسل التقليد الاعمى المنهى عنه في الشرع وايقاظ المسلمين الى أنهم ان لم يبادروا الى التسلح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل . فجاءت دعوة خير الدين متأخرة ، اذ كان تكالب اوربا شديداً وضربها وحياً وسبات الاسلام لا يزال عميقا فتم جميع ماتكهن به خير الدين . ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين الى الاستانة وولاه السلطان عبد الحميد الصدارة العظمى منتدبا اياه لاصلاح المملكة الا انه لم يعمل برأيه فانتهى الامر باقالته وبقى في الاستانة الى ان توفي وذلك في نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك وهو من الادباء الافاضل وصالح باشا الدماد الذي شنقه الاتحاديون بتهمة الكون بمؤامرة قتل المرحوم محمود شوكت باشا وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم لكونه زوج ابنة اخيه أى صهر الاسرة المالكة فلم تثمر شفاعته . ولخير الدين باشا أيضا ولد سمه محمد بك وهو واخوه طاهر الآن بتونس . (ش)

التواني . فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في نفوس الاحرار ورجال الاحزاب الوطنية في الشرق الادنى عامة وافريقية الشمالية خاصة حيث كاد الكتاب يقدس عند أهل تونس والجزائر اذ كان باعثاً قوياً على استيقاظ العصبية الجنسية. ففيه استصرخ خير الدين بني قومه لتحطيم الاغلال القديمة ، وبسط لهم ضرورة الاقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضي افتخاراً بالغاً حد القعود بهم عن استئناف طلب العلى طريفاً ، ودعاهم للوقوف على ما في العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران ، ومما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء اوروبة وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفواً بلا نصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لاسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم واكتناه اسرارها اكتناهاً توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الارض واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا انما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما في آفاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامي في الاجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران ، لأنه كان في بحبوحة من الحرية ، سالكا سبل الترقي والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجنات ، ومازال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل — روح الحرية والعمل والارتقاء .

اننا قدآثرنا ايراد ذكر خير الدين باشا التونسي على ذكر غيره من احرار الترك وسائر المسلمين مثالا لكلامنا لأن في هذا المثال تتجلى الصفة العامة التي كان عليها سائر احرار المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر للأخذ عن الغرب ، وقد كانوا حتى عهدئذ بمعداء من البغض له . غير انه على توالي الايام انقلب كثير من الاحرار اعداء أشداء للغرب لاسباب عديدة أهمها توالي الاعتداء الاوروبي السياسي ، فباتوا بسبب ذلك يكرهون ويمقتون روح الحضارة الغربية بامرها .

وقد اشتدت روح العداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول

القرن الحالي . قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة [١] في هذا الصدد :
« ان هذه الدواهي التي دهتنا والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خـلال العشر السنوات الاخيرة . قد جددت في اعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتوائق الاسلامي ، من حيث أشعلت صدورنا مقتاً وكرهاً وعـداء للبغاة المعتدين علينا »

وللدلالة على مبلغ الـكشاحة والعـداوة اللتين اتقدت نارهما في قلوب المسلمين نورد كلمة قالها أحد كبار كتاب الترك بعيد ان وضعت الحرب البلقانية اوزارها : « أجل ! اننا قد بؤنا بالكسرة والحيف ، بعد ان هب العالم باسره يجالدنا ويقاتلنا ، والسبب في ذلك انما هو لأننا قد صرنا ألف التأني في آرائنا نبتغي تهذيب عقائدنا متقربين من الحق معرضين عن الباطل في سبيل الحضارة والانسانية . ان الجيش البلغاري قد علمنا درسا لا ننساه ، وهو انه يجب على كل جندي في ساحة الحرب ان يقاتل مقاتلة البربرية والوحشية ، ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تذبيحاً ، ويسلب وينهب السكان الآمنين ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق ارواحهم ، وعلى ذلك فلنبح هراقة الدماء والبغي ، ثم نصرخ من بعد ذلك : الوحشية الوحشية ! كما فعل جيش الملك فردينـاند . لسرعان ما يلتفت العالم المتمدن الينا [٢] ويرعى من كرامتنا ويعلي من مقامنا ويحبنا حباً جماً [٣] !!»

(١) حزيران سنة ١٩١٤

(٢) ارسلت احـدى الجمعيات الاميركية بعثة الى البلقان للفحص عما روي من الفظائع التي ارتكبها البلغار واليونانيون والصرب بالمسلمين سنة ١٩١٢ فثبت لديها كل ماقيل بل زيادة على ماشاع وحررت خلاصة الفحص وقررت ان الترك كانوا ارحم جداً وارأف وأشرف في حربهم من الامم البلقانية المسيحية . لـكن الصحف الاوربية لم تنشر هـذا التحقيق ولا اشارت اليه وكان اكثر الاوربيين ينظرون الى ماحـل بمسلمي الروملي بنظر شماتة ونادر منهم من قبح تلك الفظائع أو احتج عليها. (ش)

(٣) احمد امين كتابه « ارتقاء تركية الجديدة مقيساً بارتقاء صحافتها » نيويورك ١٩١٤
The Development of modern Turkey as measured by its press

ولما نشبت الحرب العامة هلل كثير من المسلمين وكبروا فرحاً وابتهاجاً بأن الدول الغربية قد ادركت اليوم الذي فيه انبرت تفني بعضها بعضا ، وتلقى جزاء عجبها وغطرستها ، وتجبرها وبغيها ، ولقد وصفت صحيفة من كبرى الصحف التركية الدول الاوروبية فقالت : « ان الدول الاوروبية لا يحلو لها ان تتفقد معايبها وشرورها ومفاسدها فتصلحها . ولكنها غيور علينا حتى التناهي ، فلا قلب يطيب لها الا بمعالجة شؤوننا ولا عين تقر لها الا بالقيام على طرق اصلاحنا ، فلذا نجدها على الدوام تتدخل في كل حال من أحوالنا وأمر من امورنا ، بل لاتني تأمرنا وتنهانا ؛ وفي كل يوم تنشب مخالبها في حق من حقوقنا وشطرمن مملكتنا وتغرس مباضعها في لحوم أجسامنا الحية وتقتطع منها ما شاءت كيف شاءت ، ونحن حيال ذلك نكظم غيظنا ونحبس على ما في نفوسنا من روح الثوران والجيشان ونثني بعض سواعدنا على بعض وندمدم والنار تكوى جوانحنا : عسى الله يسلط بعض هذه الدول على بعض شر التسليط ! فتتذابح وتتناجز ! وها انظروا — ها هي الدول الغربية النصرانية تنهش بعضها بعضاً كما ابتغى التركي » . (١)

وليس الساسة ورجال الصحف هم وحدهم المتضرمة صدورهم عداء للغرب ولسيطرته السياسية ، بل إن هذا العداء عميم في كل أمة اسلامية على اختلاف الطبقات من الامراء حتى السوقة . وكل طبقة على أسباب في هذا ، أما الأمراء والحكام الوطنيون فانهم وان استبقوا على عروشهم ومناصبهم ، وأعطيت مظاهر كرامتهم ومنزلتهم ، وحفظت مرتباتهم ومخصصاتهم فانهم مع ذلك كله لم ينفكوا يحنون الى سابق عهدهم وسالف حالهم ، ويندبون خسارة خسروها هي ذهاب ما كان في أيديهم من أزمة الرق والعبودية والاستبداد .

(١) مجلة « ليتراري ديجست *The Literary Digest* » ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٤ نقلا عن جريدة (طنين) التركية الصادرة في القسطنطينية . والحق يقال انهذه الحال التي تمثلت فيها جميع صور المقت والكره للغرب عند شبوب الحرب العامة لم تكن مقصورة على المسلمين فحسب ، بل شملت العالم وجميع الشعوب غير البيضاء .

قال أحد « راجوات » الهند آسفاً منفعلاً بألم الذكرى : « أتعلم ياصاح ! اني لقد فقدت جميع ماكان في يدي من السلطة ، فبت اذا شئت اليوم ابتياع قلم لدواتي أو نصل لرمحي وجب علي ان أستأذن المندوب المقيم عندنا في هذا الأمر » . وحقاً ما أشبه هذه الكلمة بأخرى قالها ذات يوم الخديوي توفيق باشا الى أحد وزرائه في أوائل عهد الاحتلال ، وكان يشهد استعراض الجنود البريطانية : « أتحسبني أني مرتاح الى هذا المشهد ؟ اني والله ما رأيت قط خفيراً بريطانياً في سوق من اسواق هذه المدينة الا حدثتني نفسي بالوثوب من مركبتي خارجاً والانقضاض عليه فلا أنفك عنه حتى أخنقه بكلتا يدي خنقاً »

وأما أهل الطبقة العليا فهم على مذهب أمرائهم وملوكهم ، ولا جرم فانهم يأسفون للعهد المنقضي وقد كانوا فيه أصحاب الكرامة والمناصب والخطط في الحكومة والدولة . وأما المتهذبون تهذيباً غربياً وهم أهل الطبقة الراقية فانما يشاركون غيرهم في العداء للغرب ، لأنهم يعتقدون أنهم أنفسهم أرباب الحق الجدُر بتولي مناصب الحكومة ، فلذلك يمقتون شر المقت ان يروا المناصب الادارية الكبرى يشغلها الغربيون الأجانب ويتقاضون عنها فاحش المرتبات . وهناك عدد من الاحرار العارفين الذين يعتبرون قيمة التدريب المكتسب من السيطرة الأوروبية حق الاعتبار ، ويتلقونها مع فقدان الاستقلال الى أجل ما ، على أمل انه متى ما رسخت أصول الادارة والتدبير في الحكومة ، واستقامت مجاريها ، واتسق سننها اتساقاً يكفل معه رد الفعل والفوضى ، انتهت هذه السيطرة وانقضى عهدها فحلت محلها الحكومة المنتظمة المقتدرة وسدت جميع فراغها . غير ان هؤلاء الاحرار هم الأقلون فلا يستطيعون امتلاك الكلمة النافذة في المجموع ، وهم فوق جميع هذا مكروهون ومعيرون انهم عشاق الزلفى من الأجانب ببيع الشمم والاباء ، دائرون مع الأيام كيف دارت دون استقرار على حال ، ولذلك باتوا على شقة خلاف متسعة بينهم وبين الكافة والسواد الاعظم .

وربما يتبادر الى الأذهان عند أول وهلة ان الكافة من المسلمين ليرتاحون ويطمئنون الى السيطرة الغربية ، ولا سيما عند ما يقارنون بين عهد ماض وعهد حاضر، بيد ان الواقع على خلاف هذا ، اذ انه مع ما أتت به السيطرة من الفوائد الاقتصادية فنجا أهل الطبقة العاملة في الاقاليم والمدن من استبداد الامراء والطبقة العليا ، فاصبحوا امن بعد ذلك في بحبوحة من الدعة والامن ، والنظام والعدل ، بحيث عادوا لا يخشون أحداً ينازعهم مافي أيديهم وثمرات تعبهم ، فانهم مع كل هذا ينفرون من الغربيين وينظرون اليهم شزراً . على انه ليس من العدل ان يقال ان المسلمين أجمعين لا يقدرون قدر شيء من فوائد السيطرة . فالواقع انهم يفعلون ذلك ولكنهم عند ما يراد اعتبار صلاتهم المعنوية بارباب السيطرة فهم لا يعدون حد احترام الحكام الغربيين الذين بين ظهرانيهم احتراماً قليلا ، وهم عن حبهم حباً بعداء كل البعد مالاح صبح وذر شارق . زد على جميع هذا ، فان الأيام تذهب على التوالي بأهل الجيل الذين كانوا على نعم في العهد الماضي ، ثم يخلف من بعدهم خلف يتناولون خيرات العصر على غير ما نصب ، ثم يشكون من نقائص النظام الحالي ، ويعيرون الوطنيين الهائجين آذاناً صاغية ، ويتشاركون ويتواثقون جميعاً على طلب الاستقلال ، ويندبون عزاً غاب ومجداً فات .

وحقيقة الأمر ان الشرقي على العموم لم يزل يحن الى منهج حياته القديم ، وعلى كونه يعترف بحسنات العصر الحديث وفوائد مستحدثاته ، فانه ليتوجد للماضي ويحيي ذكرياته ما استطاع . فالمثل المشهور عند المسلم من هذا القبيل هو : الحاكم المسلم ظالماً خير من الحاكم الاجنبي « الكافر » عادلاً . فعلى هذا لابد لكل حكومة استعمارية ، ولو كانت منورة مهما كانت ، من ان تصطدم اصطداماً عنيفاً بمقت المسلمين للحكم النصراني . قال أحد الحكام الروسيين في أواسط آسية ينبه الحكام الأوروبيين عامة الى أمر : ان المسلم

الورع لا يطيق حكم الكافرين [1].

زد على هـذا ان الكثيرين من الشرقيين قد يعترفون بفائدة تذكر من الحكم الاوروبي ، واذا اعترفوا بذلك حسبوه أشـبه بالغرم يفوق الغنم اضعافاً . على ان الاشياء التي كثيراً ما تفخر باعطائها للشرق ـ راحة ونظاماً وعدلا وامناً ـ لا يعتبر الشرقي قيمتها حق الاعتبار ، وما ينزلها المنزلة العليا من الشأن كما نخال نحن . ذلك ليس لانه لا يبالي جد المبالاة بهذه الامور ، بل لأنه يؤثر نيل الأقل منها على يد الحكام الوطنيين من ابناء قومه الذين يشاطرونه سراءه وضراءه ، وبؤسه ونعيمه ، على الكثـير منها بنيله على يد المتسلطين الأجانب . ولنعتبر شأن « العدل » وهو أساس الحكم : قال كاتب انكليزي بهذا الصدد : ان الاسيوي لاتطيب نفسه بالعدل من حيث ان العدل تطيب به النفوس ، فهو لا يعبأ بهذا كثيراً متى ما استطاع ان ينال عوض العدل عطف الحاكم عليه ، عطفاً مفهوماً عنده كالعدل غير المفهوم . . . . هذا هو السبب الحقيقي في كون الاسيوي يؤثر كل الايثار حكم حاكمه الوطني وان سيئاً على حكم الاجنبي وان بالغاً حد الكمال . فانه متى ما كان في حكم أبناء وطنه شعر بكونه محكوماً من قبل حكام يحسنون تفهم شؤونه وأحواله عن كثب ، ويعتبرون بعين العطف الاسباب والدواعي التي حملته على ارتكاب الذنب والجناح وان أنزلوا به أليم القصاص .

ولننظر في شأن النظام أيضاً ، ان الشرقي على العموم لا يعتبر ما في حياتنا هذه من السير المنظم المنسق ، بل هو ينفر من ذلك نفوراً . والسبب في ذلك انما العهد الذي ظل طيلته فيما مضى الفا لحياة التواني والكسل والفتور ، تلك الحياة التي وان كان فيها الظلم والجور فقد كان فيها العطف والشفقة .

---

(١) لم يصادف الى الآن ان امة غـير مسلمة تولت امور امة مسلمة بالعـدل والاحسان لنعلم كيف يكون شعور المسلمين بازائهـا ؟ ونظن انه لو وفقت امة غير مسلمة الى ذلك لهان الامر جداً وساد الوئام وتحابت هاتان الامتان تحاباً تاما فان العدل يغلب كل الموانع ولـكن اين هذا العدل . . . (ش)

بسبب ذلك هو لم يبرح حتى اليوم يكره النظم المستحدثة كقوانين الصحة والامن العام كرهاً غريزياً ، بل يريد أن يبقى على منهجه القديم العهد ، وان ناله من ورائه ما ناله من الضرر ، ضرر يستطيع دفعه عنه بالرشوة والاستعطاف تارة والمكابرة والاستقصاء طوراً. قال أميركي مرة لاحد أهل الفيلپين في عرض حديث جرى بينهما في شأن الاستقلال :

ـ ماذا ترى تستطيع عمله مستقلا مالا تستطيع عمله الآن تابعاً محكوماً ؟

فاجابه : ـ لو أردت ان أبني بيتي في وسط هذه الجادة لاستطعت ذلك مستسهلا .

ـ واذهب جارك لمعارضتك في مرادك واستطاع ان يحول بينك وبينه ؟

ـ لأوقعتُ به .

ـ وان أوقع بك ؟

فاجاب بهز منكبيه .

فسواد الشرقيين ما برحوا ، بالرغم مما يتدفق على الشرق من الغرب منذ أول القرن الماضي من الافكار والآراء والمناهج والاساليب والمؤثرات والعوامل المختلفة ، يرتاحون الى البقاء على القديم البالي ، وانهم يعتقدون فوق هذا أن من أكبر مبتغيات الحكم الغربي حملهم على التغرب عادات ومجتمعاً ، وعلى تبديل الموروث من منازعهم وأساليب معايشهم ، الامر الذي يحملهم على مقاومة التيار الغربي ما استطاعوا الى المقاومة سبيلا . وكلما أتت الحكومات المستعمرة اليهم بشيء جديد وأمر مستحدث قاموا في وجهها يفسدون ذلك عليها بالعناد والمشاقة . من ذلك على سبيل المثال أمر التلقيح الاجباري الذي ظل أهل الجزائر يقاومونه عدة سنوات، وقد كانت الحكومة الفرنسية تبسط لهم منافع التلقيح وفوائده اتقاء من سريان وباء الجدري فيهم ، فكانوا يجيبونها انها انما تريد بتلك الحيلة المصطنعة تعقيمهم لا تلقيحهم ، بحيث يتناقص عددهم على التوالي ويكثر سواد المستعمرين الفرنسيين . فاخذت

الحكومة تبين لهم فساد وهمهم مستدلة بارتفاع مستوى المواليد الاهلية ارتفاعاً غير مسبوق المثيل ، ومستعينة بارقام الاحصاء ، فهزوا منا كبهم مستهزئين ، وظلوا على المقاومة مثابرين[1].

وقد وصف الكاتب الفرنسي «لويس برتران» [2] ، العالم الخبير بشؤون الاقطار الاسلامية ، مثل هذه الحالة بقوله : ـ

« ان جميع هذه الشعوب ، ولها من شعائرها الموروثة وعاداتها وفواعل البيئة كثير من المنفرات التي تحملها على استنكار فضائلنا الاجتماعية ، فلا تطيقن احتمال شيء من أعباء أنظمتنا وادارتنا ولا من أي نوع من أنواع الحكومة المنظمة ولو كانت عادلة وشريفة مهما كانت . وظاهر السبب في ذلك ان الشعوب هذه قد أنقذت فجأة من عهود المظالم والشقاء والفوضى فما برحت باعتبار صفاتها النفسانية على مستوى ليس أرفع من مستوى سوقة بلادنا ، وما زالت تنفر من النظام وتحاول ان تلوذ بالفرار من رجال الدرك والضابطة . فانه لضرب من العبث كلما حاولنا اقناع عرب افريقية الشمالية أن الفضل في انجائهم من عمال الترك المستبدين القاهرين انما هو عائد للحماية الفرنسية اذ بأتوا في ظلها من بعد ذلك لايخشون منهبة ولامذبحة ولانار نزاع تورث فيما بينهم ، أعرضوا عنا وأساءوا ظنهم فينا . والامر الذي يحارون عند فهمه اكثر من سائر الامور هو : دفع الضرائب فى سبيل أمور وشؤون لا يعرفون لها من قيمة . وما كان أعظم السخط الذي اشتعلت ناره في المدن الجزائرية عند ما أصدرت دائرة الصحة قانونها الموجب القاء الكناسات في مواقيت مضروبة . وقد لاحظت شيئاً من حال على هذه الصفة في القاهرة عند ساقة الحمير والعجلات المسوقين بقوانين الشرطة البريطانية .

على انه ليست أنظمتنا البلدية والادارية هي جميع مالا قبل لهذه الشعوب

---

(١) هذا شأن كل عامة جاهلة ولا اظن الا أن عامة الافرنج لاول عهد حضارتهم قد قاوموا هذه التدابير النافعة كما قاومها الجزائريون في هذا العصر. (ش)

(٢) كتاب : « السراب الشرقي » (باريس ١٩١٠)

Louis Bertrand, " Le Mirage Oriental,,

باحتماله ، بل ينطوي تحت ذلك جميع عاداتنا ، بل جميع النظام السائد في حياتنا المدنية . مثال هذا : يسير القطار بين يافا والقدس ويقف في مسيره عند محطة بالقرب منها قبر أحد الأولياء . والقطار لا يستطيع بحكم القانون ان يطيل موقفه عند هذه المحطـة اكثر من دقيقة . فلما وصلنا اليها دهشنا اذ رأينا جميع الركاب المسلمين قد هبطوا من القطار فافترشوا البسط فأخذوا في السجود والركوع . فأخذ مدير المحطة يناديهم بصفارته ، وتلاه مسير القطار يستصرخهم مشيراً اليهم انه سائر بدونهم ، فلم يبالوا بجميع ذلك أقل المبالاة ، فاضطر نفر من عملة القطار الى النزول مستشاطين غضباً وأرجعوا المصلين الورعين قسراً الى القطار . فدام الامر ربع ساعة على عناء ومشقة (١) .

« هذا مثال شوهد اتفاقاً . فالغريب في أمر هـذه الشعوب انها لم تفقه معنى رقابة النظام ولا ألفت فى حياتها سيراً منظماً بعد » .

ان هذا الكلام انما لوصف السواد الجاهل ، ولكنه يدل على تلك الصورة العقلية النوعيـة التي ما برحت ترى في سائر الطبقات من الشعوب الشرقية على تفاوت . لأن العادات التي عرفت قروناً عديدة لا يستطاع تبدلها سـهلا . ويجب ألا يغرب عن البال ، ان الطبقات العليا كانت مستطيعة ، في الادوار السابقة قبل ان أخذ الشرق ينقلب ويتحول ، ان تستمتع حق الاستمتاع بالحرية الذاتية «أو الحرية الشخصية» المملوءة تخيلات ووساوس. فلذلك وان كان أهل هذه الطبقات اليوم اكثر من غيرهم استعداداً لاعتبار قيمة ما يجب أخذه عن الغرب ، فهم من حيث اضافة حاضرهم الى ماضيهم ، يحسبون انهم خاسرون شيئاً كثيراً .

فالشرقيون كافة على اختلاف الطبقات ، ما برحوا اذا ماجرت على السنتهم ذكريات المـاضي السعيد ، أسفوا لفواته وتوجدوا على انقضائه ، وقالوا نعمة

(١) في هـذه الحكايات مبالغات واطلاقات لاصحة لها وانما يتفنون بها تبرير سياسة تسلطهم على الشرقيين . ولكن من الجهة الاخرى لها أصل كاف لأن ينفر منه ذوو الاسلام الصحيح الذى ينهى عن العبادة عند القبور لاسيما اذا كان القطار على وشك المسير . (ش)

فاتت وسعادة طويت . فكل من الامير والباشا والنديم يعد الحياة على نحو ما كان يستلذها فردوساً شرقياً . وفوق جميع هـذا كان الامير على الدوام معرضاً ليحوق به بلاء سلطانه القاهر أو ملـكه العاتي قتلاً أو ذبحاً ، وكان الباشا لا يعلم متى يصدر أمر مولاه بان تنتزع روحه من بين جنبيه ، وكان النديم يلقى شر التعذيب عند ماتهب في رأس سيده عاصفة الهوى . ومع كل هذا فقد كانت «الحياة الشرقية» حياة غبطة وحبرة وكان كل فرد من هؤلاء متميز المرتبة عن سواه باخلاقه وصفاته وبما له من الذكر في ابناء بلاده ، فكان من على هذه المرتبة التي لا شـبيه لها في أوروبة باستطاعته أن ينتهك حرمة القانون ، فيركب رأسه في كل ما اشتهى وابتغي أخيراً أم شراً ، ودأبه الملق والمداجنة والمداهنة الاسيوية ، والخنوع المقرون بالطاعة العمياء لعات كبير لا يرى لنفسه من سعادة غير سعادة التحكم بالرقاب واستـذلال النفوس . وكان حول كل متسلط قاهر لفيف من العشراء والجلساء يشاطرونه في نعمه وترفه ، ومستلذاته ومنغمساته . وكانت سلطة السيد على المسود والحاكم على المحكوم سلطة معلقاً بها حبل الموت العاجل أو الحياة المنعمة قلقاً وجزعاً . وكان اقتناء الخطايا من أشيع ضروب مشتهيات الحياة ، وكان تقبيل الذيول وحنو الاعناق ، والتذلل وبذل ماء الوجوه مما لا حد له ولا قياس .

ولرب سائل يسأل كيف كانت حال الطبقة الدنيا ، الفقيرة المسكينة ، بين أيدي هؤلاء المستبدين الجائرين ؟ كان الفقير الضعيف في غالب أحواله على لاشيء ولكنه كان يستطيع ان ينال كل شيء ، اذ أن الحياة الماضية في الشرق كانت ماتأتي به القرعة ويجود به البخت والطالع ، فكان كل فرد وان صعلوكا يستطيع ان ساقه الجد والحظ لاسترضاء سيد غطريف ، ان يصيب نعمة بعيدة الضفوة وشهرة جوابة . وهذا في الواقع مما يتقبله الشرقي تقبلا ملائماً لطبائع مزاجه . ولا جرم فالحظ وسرعة تقلبه ودوران دولابه في الشرق انما هو أمر مألوف شائع مرغوب فيه ، وله من الشأن ما ليس للثبات والاقدام

الموقن فيه والطمأنينة في الغرب [1] .

وأحب السير في الشرق تلك التي تقص فيها أحاديث السعود والنحوس التي نجمت أو غابت على حين غرة ودارت دورتها في ليلة وضحاها ، كصعلوك استوزر أو وزير تصعلك . وما برحت الكثرة الغالبة في الشرقيين تعتبر ان الحياة انما هي تقلبات الأيام ، والزلفى من ذوي الجاه ، وسعود الحظوظ ونحوسها ، وليس المعول فيها على الاعتماد على النفس وحسن القيام بالامور على أمانة وكفاية . هذه هي صور الحياة التي كان يغتبط بها الشرقيون من قبل ، غير انه بعد انتشار التغرب بدأت الحياة الشرقية تنتقل من دور البخت والحظ الى دور العمل الذي لا يصح فيه الا الصحيح . قال أحد كتاب الانكليز عانياً شأن مصر الحديثة : « قد يمكن ان يكون حكمنا وافياً بيد ان الشرقيين يستثقلونه ويتبرمون منه . كان الحكم القديم أشبه بثوب خلق بال من أي موضع جذبته تناثر قطعاً ، ولكن الشرقيين كانوا يحسبون نفوسهم انهم به مختالون ، وكان متقلباً كريشة في مهب العاصفة ولكن كانت فيه قوى سحرية تأخذ بالالباب ، مرة قال مصري لأحد حكام الانكليز : « نعم ! ولكن في الدور الماضي كان المتسول يقف على باب أحد العظماء فان رأته سيدة ذات شأن ومال فهويته ، جعلته في اليوم التالي أميراً يجر مطارف النعم الكبرى والسعادة العظمى ، فالماضي ـ ماضي التملق والمداهنة ـ كانت تحل فيه المراعاة محل العدل ، وكانت الحياة كثيرة النحوس والسعود في مصر ، بلاد يوسف وهرون الرشيد واسماعيل باشا » [2] .

واذ قد بات كثير من الشرقيين يخشون ضياع جميع ما في أيديهم من العزيز الغالي ، فليس من الغرابة في شيء ان نرى المحافظين وهم كثر يندبون

(١) مع الاسف نقول ان اكثر مايصفه المؤلف هنا صحيح وهو السبب الاول في انحطاط الشرق عن الغرب واستيلاء الغرب على الشرق . (ش)

(٢) هـ . سبندر : « انكلترة ومصر وتركية » تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦

H. Spender, " Contemporary Review "

الماضي ويكون « عصراً ذهبياً » ودوراً كان فيه من الخير أكثر من جميع ما أتاهم الغرب به ، وان تراهم وقد ارتبطت عروتهم بعروة فريق الاحرار ، فباتوا جميعاً ناقين على التغرب أشدّ النقمة ، فهبوا الى قتاله ومقاومته ومناهضته بسلاح الرجعية واسباب رد التأثير . فكانت النتيجة استقواء روح العداء لكل شيء غربي ، وظهور هذه الروح احياناً مظاهر الغلو والتشدد البالغ الحد . قال « لويس برتران » الآنف الذكر : « حضرت يوماً مجلساً من مجالس أهل القاهرة فسمعت فيه خطيباً يقول في الناس ان فرنسة هي مدينة للاسلام بثلاثة أمور ذات شأن : (١) بحضارتها وعلومها ، (٢) بنصف مواد معجمها ، (٣) بجميع ماهم عليه الفرنسيون من الفضائل الخلقية والعقلية ، اذ يحتمل ان يكون جميع المصلحين الذين جاهدوا في سبيل الحرية منذ الاجيال الوسطى حتى عهد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ـ مثل الالبيجيين والكلفينيين وسواهم ـ من نسل عرب الاندلس . وعلى ذلك فلم يبق سوى ان تلحق فرنسة بمراكش . وقد بات غلاة الوطنيين من أهل مصر مشغوفين بزيارة اسپانية للطواف في حدائق قصور اشبيلية وقصر الحمراء في غرناطة والبكاء على عز الاسلام الدفين ومجد العرب الفقيد في ربوع هاتيك البلاد » .

أضف الى ذلك ان شأن الهندويين (الهندوس) في هـذا الامر كشأن المسلمين . فهم أيضاً يتفجعون حزناً على « عصرهم الذهبي » الفائت ، بل يفوقون جيرانهم مغالاة واغراقاً في هذا . اذ يعتقدون الاعتقاد الراسخ كله ان هندستان انما هي منشأ جميع الأديان الصحيحة ، وموطن ضروب الفلسفة والتهذيب والحضارات والعلوم والاختراعات وغير ذلك ، ويحتمون القول بانه متى ما انقضى عصر الانكساف الحالي في الهند (هذا الانكساف الناشيء بطبيعة الامر عن الحكم البريطاني) عادت الهند مشرقة الشموس وهاجة الضياء رافلة بحلل المجد الزاهر ، مجاهدة في سبيل تنجية العالم بأمره ، وانه مامن شيء جديد تحت الشمس . أما السبب في هذا الغلو فهو انهم على مازعموا

قد عثروا في الكتب الڤيدية المقدسة وغيرها من كتب الهنود الدينيـة على بينة لا تدحض ولا تنقض ما لها أن حكماء الهند الأقدمين قد سبق لهم فأنبئوا بمستحدثات هذه العصور الجديدة . ومن ذلك ما هو حديث الانشاء كالطيارات التي تلقي القنابل المفرقعة من عل ، وكعصبة الامم الممثـلة لجميع شعوب الدنيا وأممها .

على ان جميع هذا التبجح بفخر زائل وعز منقض ليس من شأنه ان يجدي أهل الشرق نفعاً وان يعود عليهم بطائل . فالشرق مثل الغرب ، له فضائل وحسنات ، وشرور وسيئات ، غير ان هذه الأخيرة قد ظلت طيلة الف سنة الاخيرة تمتد بأفقها فوق أفق الأولى حتى أمسى الشرق متعثراً متخبطاً في مهاوي الانحطاط . أما اليوم ، وقد تغلغلت فيه المؤثرات الغربيـة من كل صوب أبعد متغلغل فانتشى ريح الحياة ثانية . فاخذ يستيقظ وينهض . على ان نتيجة هذا لن تكون ان الشرق سيتغرب تغرباً تاماً مشتملا على التحدي الكلي والانقلاب المطلق العام . فليعلم العلم اليقين ان الشرق شرق ثم شرق ، متميز بما في أمزجة شعوبه من الطبائع والعناصر ما كر الملوان وتعاقب الجديدان . غير انه لا بد لهـذه الامزجة من التطور تطوراً مؤالفاً لروح العصر والبيئة وذلك بالضرورة لما هو متسلط عليها من الطوارىء الغربية ذات الفواعل والعوامل والمؤثرات . فعـلى ذلك اذا ما برح الرجعيون على حالهم من الرد والمقاومة للافكار الغربية ، كانوا بعملهم هـذا كأنهم يطيلون عهد انحطاط الشرق ووهنه ، ويجذبون باطراف الامم الشرقيـة الى الوراء فيوقفونها عن السير والتقدم .

ليس أمر هـذه الروح الرجعية بالغريب . فان عوامل التغرب ، أعني عوامل التجدد التي في عالم الفعل لا عالم القوة لتتغلغل في بيئات فيها الداثر والبالي مرغوبين فيهما ، والخلق والمتلاشي مستمسكا بهما ، فالرجعية لا بد منها في دور مثل هذا الدور ، حتى ولو كانت السيطرة الغربية خيراً كل الخير

وكان الغربيون المتسلطون ملائكة من نور. غير ان التغرب له سيئات تصاحبه لأن ذلك من طبيعة الانقلاب . أضف الى هذا ان الفساد قد تسرب وانتشر في تلك البواعث التي كانت تحمل حملة الالوية للحضارة الغربية على خدمة الانسانية والأخذ بنصرة المستضعف . وهذا الامر مما قوى ساعد الرجعيين فزادوا في ادلاء الحجة الادبية قائلين هـذه معايبكم مكشوفة تكذبكم فيما تدعون . وفوق جميع هـذا فان الانتقال من دور الى دور لا بد له من أن يجتاز مخاضاً شديداً ، ولا سيما متى ما كان التطور اقتصادياً واجتماعياً . وقد يطرأ عليه من الاسباب والقواعد الخارجية ما ليس في الحسبان فيزيد ذلك ألماً وشـدة . ان مجرد وجود الغربي في الشرق متسلطاً بغاشم قوته وباهر تقدمه وعجيب آلاته وأدواته ، لداعية دائمة تنغص على الشرق عيشه ، وتغضبه وتثير منه ما تثير ، فينقلب يريد لنفسه المزة ، وكيف ينالهـا وهو كيف ما دار دارت معـه اغلال الذل وقيود الاستعباد . هذا هو الواقع . ولكن لعل وجود الغربي هكذا هو من شروط الضرورة في تجدد الشرق كما ان ذلك ممـا لا منتدح عنه بسبب انحطاط الشرق وقلة ما هو عليـه من القوة والحول . على ان السيطرة بجملتها لم تبرح علة النقمة والهياج والاضطراب ولو كان فيها من نفع وفائدة وخير مهما كان . واليك السبب : ان الاوروبيين في الشرق من شأنهم ان يشوبوا كل شيء ويغيروا صورته ، ويبدلوا العادات تبديلاً متدرجاً ، ويرقوا المعايش فيرتقي مستوى الحيـاة ، ويبنوا المنازل والمساكن في النواحي المعتزلة عن سائر المدائن والحواضر ويقيموا فيها متنعمين ولهم من قوانين الاستثناء والامتيازات والاعفاء ما يكسبهم الميزة العليا على أهل البلاد . ففي قلب القاهرة مدينة انكليزية ، وفي الجزائر المزدانة بالنقوش المغربية الشرقيـة « باريس الصغرى » ، « وبيرا » الاوروبية في القسطنطينية تباهي القسم المعروف باسلامبول التركية . فلم لا يكون ذلك من أسباب التبرم فالنضب فالانفجار ؟

وأما الهند فرصعة ترصيعاً بالضواحي البريطانية ، وما الحواضر الكبرى مثل كلكتة وبومباي ومدرس سوى مدائن أوربية مختطة في بلاد هندية فيها جميع الابنية الفخمة الغربية الطراز والاسلوب ، دون بعض الابنية الحديثة التي أخذ يظهر فيها الاسلوب العربي الهندي • وأما الشوارع والجواد فجميعها معروف باسماء انكليزية ، أسماء نواب الملك ومن سلف من الحكام والمتسلطين ، والقواد الذين شهدوا فتح البلاد [1]، والذين اشتركوا في اخماد الثورة ـ ابطال تقع العين على تماثيلهم المنصوبة في كل ساحة ومنعطف وثنية • والبيوت التجارية هي انكليزية وجميع مَن فيها من المدبرين من الانكليز والاوراسيويين (مزيج الاوربيين والاسيويين) يتجرون بالبضاعات الانكليزية • والمركبات والسيارات الانكليزية تنساب رائحةً جائيةً في اسواق المحل المعروف « بانكلترة القديمة » • وحيثما بحث المستقصي في سائر دوائر الحياة وجد مساعي الانكليز وافرة وجهودهم كبيرة لاحداث اسباب الانقلاب الاجتماعي على حسب ما يستصلحون لشؤونهم ويريدون لحياتهم • وأما الهنود فكلهم الا القليل يقيمون في النواحي القديمة القذرة ، كتلك المعروفة في مدرس « بالمدينة السوداء » • أضف الى هـذا ان ليس هناك من الوسائل والاسباب ما يسهل الاختلاط الاجتماعي بين الانكليزي الغريب والهندي الوطني ، سوى القليل الذي لا كبير شأن له كاندية الرياضة البدنية حيثما يتلاقى هذان كلاهما على مستوى واحد من المنزلة الاجتماعية • أما غير هذه الاسباب النزرة فيكاد يكون معدوماً • وقليل من الغرباء من يلذ له التجوال في الاسواق الوطنية اللهم سوى المبشرين ورجال جيش الانقاذ والسياح الذين مرادهم رؤية كل غريب • وأما سواد الغربيين المقيمين في الهند فقـد أمسوا لا يحفلون البتة برؤية تلك الاقوام الهندية السمراء .

(١) كما سموا شوارع بيروت باسم المارشال فلان والجنرال فلان ممن غلب على البلاد العربية وابتزها استقلالها ، وهذا منتهى الحقارة لاهل البلاد . (ش)

وهذه الحال في الحواضر والمدن تشاهد على صفتها هذه في جميع الأقاليم وسائر المقاطعات بنطاق أضيق ولكن مع قيام الميزة واعتبار الفروق • فعلى ذلك ، الاوربي في أي قطر من أقطار الشرق انما هو غريب أجنبي دخيل ، حياته مختلفة عن حياة أهل البلاد • وفي الامر موضع للنكاية وهو ان هذا الاوروبي المختلف باسلوب حياته وطراز معيشته ، المنفرد بمنزله ومجتمعه ، غريب دخيل وحاكم متسلط معاً ، وظاهر أبداً مظهر السيد المطاع والآمر الناهي • ومن تدبر الامر وجد ان ذلك ناشيء عن طبيعة الحال ولا مرد له • ومن المعلوم ان هناك كثيراً من الاوروبيين الذين يعدون من فسدة الاخلاق واردياء الطباع والسجايا ، ولكن أمر هؤلاء لا يحمل على الرجوع عن تقرير السبب الحقيقي وهو : ان الاوروبي قد استطاع ، وان كانت الليالي حبالى يحملن من الأجنة ما يحملن ، أن ينشيء سيطرته وسلطانه في الشرق لهبوط هذا عن مستوى الغرب وقصوره عنه قصوراً كبيراً ، وما دامت هذه حال الشرق فالاوروبي في ربوعه لا يبرح الحاكم فيه المتسلط عليه • ولكن يجب على هذا المتسلط الغريب ان يحكم حكماً حكيماً عادلاً ويقيم وزناً سياسياً حقاً لارتفاع مستوى الشرق في التقدم والعمران والارتقاء ، وأن يدأب في نفث القوة فيه وشد أزره حتى تكتمل قوة شعوبه وأممه ، الى حد تمسي عنده جديرةً باطلاق حبلها على غاربها ، والقيام على شؤون حكم نفسها بنفسها • فالغربي ما دام في الشرق فهو فيه الحاكم السياسي المسيطر والا فليس له سوى أحد الأمرين اما الحكم حكماً صالحاً هذه صفته واما زم الحقائب والرحيل • زد على هذا يجب على الغربي ما دام في الاقطار الشرقية ان يحكم بحسب حكمته الخالصة ومداركه الصحيحة ونيته الصالحة ، راعياً لشعور أهل البلاد الشعور القومي المزداد ، معتبراً للعاطفة الجنسية ومنزلها المنزلة اللائقة • فكلمة اللورد كرومر التي قالها في هذا الصدد وتجاوبت اصداءها في جميع آفاق الحكومات الاستعمارية لن تنسى وهي : « في حال حكم الشعوب الشرقية

يجب في المقام الأول اتباع ما هو خير وصالح لهذه الشعوب ، ولكن ليس من الضرورة على الدوام اتباع ما تخاله هي لنفسها خيراً ومصلحةً » .

أجل ، لم يكن بدٌّ مما كان وهذه الحقيقة لا تحتاج الى زيادة ايضاح . ومع هذا فان كثيراً من متهذبة الشرقيين لا يعدون السيطرة الغربية سوى دواءٍ مر المذاق تعافه النفس وتنقبض منـه شديداً ، بينما كثير سواهم لا يحسبون السيطرة سوى أداة للاذلال والهوان والاصغار ، والحكم القاهر الذي لا يطيقون النزول عليه . وليعتبر في هذا المقام ان بعض ما هو عليه الغربي من الفضائل انما هو من جملة الاسباب التي تحمل سواد الشرقيين على استثقال وطأته والنفور منه . قال مرديث طونسند [1] : « ان مثل الغربي في آسية مثـل رجل شأنه ابداً ان يدعو جاره ليعمل على أثر تناول الطعام ، وليكون شديد اليقظة عند اشتداد الوسنة ، وليقوم على شؤون واجبه ميقات الطرب ونهب اللذات ـ هذا هو الغربي في آسية وهو مع ذلك الحاكم المتسلط » .

أضف الى ما تقـدم من الاسباب التي من اجلها يلقى الغربي في الشرق كرهاً ومقتاً ، سبباً آخر هو من الخطورة بمكان : ان هذا المسيطر الغريب الدخيل الحالّ بين ظهراني القوم هو المتسلط القاهر من حيث كونه غريباً عنهم جنساً ودماً وعرقاً . ان لهذه القضية الجنسية شأناً كبيراً لا يستهان به ، وهي على خطورتها التي لا ريب فيها مستعجمة المذاهب الى حد بعيد . اذ ان غالب شعوب الشرق الأدنى والاوسط التي نعنى بشأنها في هـذا البحث هي على الجملة من الصنف المعروف « بالصنف الاسمر » من اصناف البشر . ولـكن هذا ليس بالصحيح كل الصحة عند من يريد التعمق والاستقصاء في علم الاجناس البشرية ، لأنه لا يسعنا باعتبار حقائق هذا العـلم ان نعد جميع العروق التي يتألف منها النوع الاسمر عروقاً سمراء من حيث الارومة والاصل ، متمايزة بفوارقها وخواصها ، ونطلق عليها اسم « الجيل الاسمر » ، كما يسعنا ان نفعل

(١) *Meredith Townsend*.

ذلك في قضية العروق التي يتألف منها « الجيل الابيض » أو تلك التي يتألف منها « الجيل الاصفر أو المغولي » في الشرق الأقصى ، والسبب في ذلك ان اقطار الشرقين الادنى والاوسط لم تبرح على كرور الازمنة المضطرب الكبير الذي أخذت تختلط فيه عروق الأجيال المختلفة اختلاطاً متوالياً شديداً ، لأن كثرة الفتوح والهجرات كانت على الدوام سبباً في تدفق العناصر الجديدة الغريبة على هذه الاقطار والامصار ، فكثرت تباينات الاصول واختلطت عروق الانساب ، وتعددت طبائع الأمزجة ، المكتسب بعضها عن بعض ، فعلى ذلك غدت شعوب الشرقين الأدنى والأوسط اليوم متشابهة الالوان. فنها ما غالب لونه اسود كالهنود الجنوبيين وعرب اليمن ، ومنها ما غالب لونه أصفر كشعوب بلاد هملايا وأواسط آسية الذين يجرى في عروقهم كثير من دم الشعوب الصفراء في الشرق الاقصى ، وقد كان من شأن هذا الاختلاط المتباين انه نفى نشوء مثال جامع لتمام الحقيقة والاوصاف التي ينبغي ان تشاهد في عروق « الجيل الاسمر » الضاربة في الشرقين الادنى والاوسط ، كما يشاهد مثل ذلك في عروق الشعوب البيضاء والصفراء ، ولما كان المثال على هذه الصفة معدوماً في هذه العروق ، ومثله كائناً في الجيلين الآخرين ، فلم ينشأ بطبيعة الحال مثال من الحضارة ونموذج من التهذيب جامعين للعناصر والفوارق التي تتميز بها العروق السمراء عن سواها . على ان هناك نزعة عصبية قد قامت مقام ذلك المثال العنصرى المعدوم ، نزعة دينية رابطة لجميع الشعوب السمراء بعضها مع بعض انما هي الاسلام وجامعته المتماسكة وعروته الوثقى . ولكن الاسلام في الهند وهي اكبر مضطرب للشعوب السمراء لا يدين به هناك أكثر من خمس السكان . ولما كانت حدود العالم الاسلامي قد ماشت في الغالب الحدود الاثنولوجية لعالم الشعوب السمراء ، فقد أخذت من بعد ذلك أمواج بحر الاسلام تمتد الى جهات غير تلك فطما الاسلام على بعض الشعوب البيضاء الصرفة في شرقي أوروبة وكثير من الشعوب الصفراء

البحتة في الشرق الاقصى ، وأقوام لا عداد لها من زنوج أفريقية .

بيد ان قولنا على الاصطلاح « الجيل الاسمر » أو « العالم الاسمر » لا يبرح دالا على حقائق ثابتة من حيث أصلية هذه الشعوب ومنحدرها ، حقائق يعترف بها العلم وتقر بها السياسة على ما هناك من تكاثر الامتزاج والاختلاط . اذ انه لمن المقرر ان هناك صلة امتزاج متبادلة فيما بين هذه الشعوب السمراء ، صلة ترد الى أصلها الأول ومنشأها الأقدم ؛ وهي وان كانت مستعجمة الصفات لبعد متغلغلها ومستسرة الآثار لتنكر مسالكها ، فكائنة حية متى ما تهيأت لها الاسباب بدت بارزة عن ظل الاشكال وظهرت آذنة بالجلاء . وأوضح مظاهر هذه الصلة في جميع شعوب الشرقين الادنى والاوسط انما هو انسياق جميع هذه الشعوب بفعل الطبع والغريزة الى الاعتقاد في نفسها والتبادل فيما بينها انها مؤلفة من سلسلة من الشعوب الاسيوية متصلة الحلقات متواثقة الأجزاء . ولوكان هناك ما كان من التعادي بين قبيل منها وآخر . وما برح هذا الشعور الاسيوي الذي بات من العوامل المستقرة في عناصر الامزجة يراقبه المؤرخون ويشيرون اليه منذ اكثر من عشرين مئة من السنين ، وهو ما انفك حتى اليوم كما كان في الامس صحيحاً ثابتاً ، حياً نامياً .

فهذه الاختلافات الكبرى في عروق الاجيال البشرية انما هي الاختلافات التي هي أعرق قدماً وأبعد اساساً ومنشئاً ، وأبقى عهداً وتاريخاً ، وأشق استئصالاً اذا أريد استئصالها وأرشد مقاومة لكل طارىء عليها ، في جميع هذا الوجود الانساني والعمران الاجتماعي . وليس امرها مقصوراً على اختلاف الوان البشرة فحسب ، فان السحنة وطول القامة وتكوين الشعر وغير ذلك انما هي اختلافات ظاهرة مرئية وليست عند الاعتبار حق الاعتبار الا رموزاً الى الاختلافات العقلية والذهنية والنفسانية الباطنة ، الدالة على اختلاف في الطبائع والامزجة والمدارك والآراء ، ذلك الاختلاف الذي

غدا بسببه كل جيل مكتسباً من الفوارق والخواص ما يتميز به عن سواه تميزاً ترى معه شقة البون والفرق قصية بين هذا وذاك .

اذاً فالفوارق التي تفرق بين الشرق والغرب انما هي فوارق عرقية جيلية عنصرية دموية . وعلى الجملة فان الشرقين الادنى والاوسط اللذين يتألف منهما « العالم الاسمر » هما يختلفان اختلافاً هذه صفته عن « العالم الابيض » ما من سبيل البتة لازالته ومحوه . اما محاولة القضاء على هـذا الاختلاف بوسائل الاختلاط الدموي والالتحام النسبي كما يتوهم بعضهم فهو ضرب من الجنون والمستحيل الذي لا يدرك . ان الشرق والغرب ليستطيعان تقارض المعاونة والأخذ بنصرة بعضهما بعضاً وأمر ذلك متيسر بالمفاهمة وحسن الوقوف على الآراء والمقاصد والغايات . الشرق والغرب كلاهما قد خـدم بني الانسان والحضارة فيما مضى من الدهر خدمة جليلة باقية ، وكلاهما مستطيع بعد خدمة أوفى وأجل في المستقبل. غير ان ذلك ليس بالمستطاع الا اذا روعيت الشريعة الـكبرى وهي ان يظل الشرق شرقاً والغرب غرباً ، عنصراً ومزاجاً . فان الاختـلاط الاثنولوجي النسبي مفسدة لنفسانية كل منهما فيتلو ذلك فساد دموي هائل لابد من أن يعقبه انحطاط فسقوط .

ان الشرق والغرب كلاهما يعلم هذا الامر حق العلم بسائق الطبع والغريزة ، والدليل المؤيد لهذا هو هذا الاستهجان الذي يظهره كل منهما لما هو مشاهد بعض المشاهدة اليوم من اختلاط الجيلين الشرقي والغربي الاختلاط الدموي المعروف نسله بالنسل « الاوراسيوي » . قال مرديث طونسند : « ان شقة الاختلاف بين الانسانين الاسمر والابيض لتفوق القياس والحد ، وقد كانت طيلة جميع ما كر من العصور فارقاً عظيماً ومابرحت هكذا حتى اليوم . فالرجل الابيض لا يتزوج المرأة السمراء والاسمر لا يتزوج البيضاء مالم يكره على ذلك اكراها لا قبل له بدفعه » .

وما تقدم من موجز الكلام على الاختلافات السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والجيلية بين الشرق والغرب كاف لتمثيل الفوارق المتباينة الناشيء عنها التباين في العلاقات بين العالمين ، والتي من شأنها ان تعمل عملها حائلة دون الاقتباس من الغرب ، الاقتباس الذي ما انفك سائراً سيره . واننا سنبين في الفصول التالية مجال هذا الاقتباس ومبلغ ما وصل اليه حتى اليوم . غير ان عوامل الاختلافات المذكورة تدل عند تدبر ماهيتها حق التدبر على امكان حصول الرجعية ورد الفعل شديدين بحيث يستطاع بهما الوقوف على مبلغ ما يؤخذ عن الغرب ويقتبس منه بعض الوقوف .

بقيت الحقيقة الثابتة يجب ان تقال : ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق ، وان طال أمدها ما طال وتبدلت صورها واشكالها ما تبدلت ، هي قائمة على اساس متداعي الاركان متضعضع الجوانب سريع التقوض والتزلزل. وما دام المتسلطون الغربيون في الشرق فهم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئاً من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئاً من الود والمحبة والاخلاص، ولاغرابه في الامر ماظلت منزلتهم ابداً منزلة الدخيل الغريب ، الممقوت المكروه . زد على هذا يجب بالضرورة ان يأخذ الحكم الغربي والسيطرة الغربية يتناقصان ويتقلصان ظلاً ويخفان وطأة ، بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتقاء . ولا يغربن عن البال ان الذي كان عند أهل جيل سالف داعية للرضى والارتياح ، قد غدا عند أهل الجيل التالي ، سبباً للتجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبديله والانتقال الى ما هو خير منه وأفضل . هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق .

على ان السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهي ، واخذت أوصالها تتفكك ، وبناؤها يتداعي ، وضعفها الكامن فيها يبدو مزداداً ، وفسادها يظهر ، جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية . فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشارقة قاطبة من التأثير المعنوي الشديد مالا يستطاع

وصفه ولا يعلم حده . وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لا حول له ولا قوة حيال أوروبة المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لا مناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المساحة خضوعاً مشؤوماً . غير انه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الاول، وخضدت شوكتها ودقت عنقها دقاً، كان لذلك دوي هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب المشارق ورقعة من رقاعها ، فمادت آسية وأفريقية من اقصاهما الى اقصاهما طرباً ، وجرت في عروقها نشوة الظفر وحميا النصر ، وعدوا الانتصار الياباني العجيبة العظمى والآية الكبرى [1] ، وصف مبشر اسكتلندي ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحاً وابتهاجاً ، وترنحت ترنح الثمل الجذلان ، وبات القرويون فضلاً عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم ويرتلونها ترتيلاً ، طوافين الليل كله حول المعابد والهياكل. وقد قال لي أحد شيوخهم في تلك الغضون : لم تتلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية . وأخبرني قنصل عثماني أقام طويلاً في آسية الغربية ان الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم وجعلوا لا يهتمون بأمر سوى ارتقاب الانباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة محافل الافراح لها . أجل ! مادت آسية من أقصاها الى أقصاها ، وانقلبت هجعة القرون استيقاظاً فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق تواقة لمغامرة الاهوال في سبيل بقائها ،

---

(١) للاطلاع على ما كان للحرب الروسية اليابانية من شديد التأثير العجيب في نفوس الشرقيين على العموم والمسلمين على الخصوص اقرأ : ـ

«اليابان والاسلام» تشرين الثاني ١٩٠٦ *F. Farjanel, "Le Japon et L'Islam"*
(Revue du Monde musulman)

« اليابان والعالم الاسلامي » نيسان ١٩٠٥
A, Vambéry ,"Japan and the Mohammedan World"
(Nineteeinth Century and After)

وهبت آسية هبة أخرى لتسطر لها في التاريخ ذكراً جديداً ونبأ حديثاً » .

ومما لا يحتاج الى برهان ان الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها الى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه انما كانت وسيلة عارضة لا علة في تنبه آسية وافريقية تنبه الاعتزاز ، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدّان جد الواثق بنفسه ، الساعي في مطلب امر لا يلوي على شيء دونه ، وبسبب هذه الحرب طفقت الافكار التي كانت تتمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضاً لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة الى عالم الفعل ، فدل جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابراً انكارها على اختمار الاسباب والعوامل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة في الشرق — هي حركات التجدد الكبير والانقلاب العظيم .

أضف الى ما تقدم ان هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيراً عميقاً في قضية الشرق وتطورها ازاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروبي التي استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافاً شديداً . ومن الغريب العجيب انه بعيد ان ظفر الشرق الاقصى في رد عادية الاعتداء الأوروبي عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الأوروبي تتوالى على الشرقين الادنى والاوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شر ممزق . وقد وصفنا في ما تقدم من الكلام تلك الزأرة الهائلة التي زأرها العالم الاسلامي متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الادبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الأوروبية الحديثة تنقاب غاية في الجشع والنهم . فلذلك جدير بنا الآن ان نعلم علماً صحيحاً مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة في جميع الاقطار الشرقية. من المعلوم ان الشأن الخطير الذى مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعماري بين سنة ١٩٠٤و١٩١٤ ، انما كان في دور عصيب. قال ارمينيوس

ڤامباري بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولاً سديداً : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب في العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثاقة ، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة احكاماً بين الامم والشعوب الاسيوية على اختلافها ، ورسخت روح التعصب على أوروبة والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك في قرارات صدور المشارقة أيما توغل . أمن العدل والحصافة في شيء يا ترى أن ترى نار العداء تزاد تأريثاً وايقاداً بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وان نستعجل العالمين الشرقي والغربي للاشتباك في نضال هائل ومعمعان رائع ، وان ننفث سماً زعافاً في برعم الحضارة الاسيوية الجديدة ، هذا البرعم الذي أخذ يتفتح عن اكمامه في اقطار المشرق كافة ؟ »

ومما لا مشاحة فيه ان الحرب الكونية العظمى قد أفضت بالحالة الى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، اذ التفت الشرق سنة ١٩١٤ فرأى الامم الاوروبية التي كانت ما برحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية ، قد انبرت تتناحر في سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتتناجز مدفّعة بعضها بعضاً نحو المجزرة الهائلة والنيران الجهنمية . ورأى وحدة الجيل الابيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية والنقائص الادبية فزعزتها وهدمتها تهديماً ، فوقفت كل أمة من الأخرى وبينهما غور سحيق وهوة بعيدة . ولم يكن لدى الامم الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الجائحة الكبرى سوى ذلك البيان الحر الذي نقش ساسة الحلفاء حروفه في اعلام دولهم ورايات جيوشهم . ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الاسرار تنفضح ، فذاع للملأ كافة انه في الحين الذى كان فيه اقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطيرون الى انحاء العالم قاطبة خطبهم الحرة المعربة عن الغاية التي في سبيلها آثرت دولهم الانغماس في الحرب الزبون ، غاية تحرير الشعوب المستعبدة

واطلاق الامر للامم المستضعفة في اختيار حكمها وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الاقطاب والساسة في الوقت عينه يتفاوضون ويعقدون ويبرمون فيما بينهم سلسلةً من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الادنى ، مدفوعين الى ذلك بروح الجشع الكلبي ، تلك الروح الاستعمارية التي لم يسبق لهـا من مثيل في تاريخ الانسان [1] . ولما حان انعقاد مؤتمر الصلح الذي ولي الحرب ، أتي بطائفة تلك المعاهدات ، لا بالخطب الحرة التي أذاعها الاقطاب والساسة ، وجعلت أساساً بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤداها (حبر على ورق) اخضاع الشرق الادنى والاوسط اخضاعاً تاماً ، واقتيادها بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظعها .

فاشتعل الشرق حنقاً وغلت مراجل غضبه غلياناً هائلا ، وطفق يهتاج اهتياجاً جاوز فيه في وقت قليل حدود الشكوى الاسمية الكلامية التي كانت من شأنه قبل الحرب ، الى المقاومة العملية الفعلية ، وشق عصا الطاعة على المستعمرين ، وعمد الى الوقوف في وجههم موقفاً ما سمع بمثله من قبل . وما هي الا فترة حتى انقلب ثوران الشرق قتالا وجداله جلاداً قد أكرها الدول الاوروبية على التقليل من غلوائها ومطامعها الاشعبية ، ومما لا ريب فيه انها ستكره من جراء هذا القتال أيضاً للاقلاع عن سائر مطامعها عما قريب . واننا سنفصل الكلام على هذا الثوران المتأجج النار اليوم في الشرق في ما يتلو من الفصول ، مجتزئين بصفوة القول في هذا المقام ان الحرب الكونية العظمى قد مزقت السيطرة الاوروبية في ربوع المشرق شر ممزق ، وكشفت عن عيون الشرقيين فرأوا تضعضع الغرب ووهن عظمه . حقاً قد اقتبس الشرق من الحرب العامة طائفة من بليغ الدروس والعظات . نذكر على سبيل المثال أمراً واحداً وهو ان قد جندت الملايين من المشارقة والزنوج من كل صقع من

(١) من جملة هذه المعاهدات اتفاق فرنسا وانكلترة سراً على اقتسام سورية وفلسطين بينما انكلترة تعاهد صاحب الحجاز على استقلالهما من جملة البلاد العربية . (ش)

اصقاع آسية وأفريقية ، وسيقت مقاتلة وعملة الى ميادين الحرب التي أشعل نارها ابناء الجيل الابيض . ومع ان غالب هذه الكتائب قد استخدم للقيام باعمال في المستعمرات ، فقد أتي باكثر من مليون منها الى ساحات الحرب في أوروبة ، حيثما اشتركوا في تقتيل ابناء الجيل الابيض ، وهتكوا حرمات النساء البيضاء ، وذاقوا لذة الشرف الوطني الذي يتنعم به ابناء أوروبة ، ووقفوا على مواطن الوهن والضعف فيهم ثم قفلوا الى أوطانهم يخبرون أبناء قومهم عما شاهدوا وخبروا ؛ ويتلون عليهم النبأ العظيم من أوله الى آخره [1].
وقد عرفت آسية وأفريقية اليوم ما كانتا لا تعرفانه من قبل ، ومن الثابت الذي لا يرتاب فيه انهما ستحسنان كل الاحسان الانتفاع من هذه المعرفة الثمينة . والامر الاعظم شأناً وخطورة في جميع القضية ان الشرق قد بات يوقن شديد الايقان ان سلم مؤتمر فرسايل ، تلك السلم الموهومة التي من مزاعمها انها بسطت الطمأنينة والراحة فوق أوروبة ، ليست بسلم البتة ، ولكنها الجشع وحب الذات والأنانية والطمع يتبرأ منها العدل وتنكرها السياسة الرشيدة ، جميع ذلك مما أبقى الجروح القديمة على فسادها فلم ينلها برء ولا شفاء ، وفوق ذلك كله جرح الشرق جروحاً جديدة راحت أم الشرق وشعوبه من بعدها نزفى ترى بعينيها دماءها سيالة . فأوروبة اليوم وهي على حالها هذه مضطجعة على فراشها مسلوبة القوة ، متململة من شدة الآلام والبرحاء ، وآسية وأفريقية واقفتان حيالها موقفاً كثرت فيه العوامل

---

(١) من أراد التوسع في الاطلاع على ما كان للحرب العامة من التأثير في شعوب آسية وافريقية فليطالع :ـ

«انحطاط اوروبة» (باريس ١٩٢٠) *A-Demangere, "Le Déclin de L'Europe"*

«يقظة آسية» (نيويورك ١٩١٩) *H. M. Hyndman, "The awakening of Asia"*

«الثورة الصامتة في الهند» (نيويورك ١٩١٩) *A.B. Aishes, "India's Silent Revolution"*

كتاب المؤلف :

"Rising Tide of colour against white world soupremaecy,,

والاسباب التي تحملهما على تمزيق ما هو حائق بهما من الاطماع الاوروبية ، واقصاء البلاء النازل المنتشر والداهية الحالة الشاملة .

هذه هي الحالة اليوم : الشرق يهتاج ويتنازعه عاملا القديم والجديد ، مواجهاً الغرب المتقطع المتقسم المتعثر في اذيال خزيه وعاره . وربما ما اجتازت علاقات العالمين الشرقي والغربي في يوم سالف مأزقاً حرجاً كانت فيه معرضة مستهدفة لخطر عميم مثل هـذا المأزق المجتاز اليوم وهو منذر بالنوازل اذا قدر لها النزول لا سمح الله كانت البلاء العام طباق الدنيا . والامر الذي يجب ألا يغرب عن البال بعد جميع ما تقدم ان هذا الشرق الجديد العجيب القائم في وجهنا اليوم انما غالب السبب في قيامه هذا هو السيطرة الغربية المنتشرة فيه انتشاراً لم يسبق له مثيل منذ مئة سنة خلت . ولبيان العوامل الكبرى في انتشار هذه السيطرة ونتائجها ننتقل للكلام على ذلك في الفصل التالي .



الفصل الرابع

في

التَّطَوُّر السِّياسيّ

سنن الشرق وتقاليده السياسية الفاسدة انما هي الآفة التي كانت وما برحت ناخرة في عظمه . فلم ينفك الاستبداد منذ العصور الأولى والحقب القدمى أغلب صفة ، وابرز صورة في آفاق الحكومات المشرقية ـ أعني به استبداد الحاكم الفرد ، والسلطان المطلق ، مسترقاً للرعية ، متصرفاً في شؤون الناس ومتاعهم وحطامهم وجميع ماملكت أيديهم ، وممتهناً لشرف نفوسهم وكرامتهم ، وجاسوساً على حياتهم حركاتها وسكناتها في مغداهم ومراحهم ، كما شاء وبغى . ولم يكن هناك غير الدين زاجراً للاستبداد ومنهناً عن التمادي في بعض المواضع . وبعض النقدة من أهل العلم يضيفون العادة الى الدين ويعتبرونها عاملا مشتركا معه في كف المستبدين وردعهم ، غير ان ذلك ولو لم يخصص بالذكر فانه مما ينطوي تحت الدين ، لأن العادة في الشرق من شأنها دائما ان تتخذ لها من الدين كنفاً ومتقى ؛ ومن المعلوم ان المقصود برجال الدين هم جميع الوزعة والخدمة الدينيين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم ، بحيث يتألف من مجموعهم طبقة من الناس لها امتيازات ، وحقوق مستثناة ، . ولكن الاستبداد الشرقي ، مع كل ماكان للدين من قوة حائلة دون طغيانه ، لم يقف عند حد وما عرف له قياس ، اذ كان في استطاعة العاتي المستبد مادام خاضعاً لمعتقد الدين ومحترماً لرجاله ، ان يفعل ما شاء متى ما شاء من الافاعيل على غير حساب . هذا ، واننا نرى فرعون في فجر التاريخ يرهق المصريين اشد الارهاق كيما تطيب نفسه وتقرعينه برؤية قبور الاهرام الضخمة العظيمة . ومابرحت الحياة الشرقية في جميع ادوار التاريخ حياة الذل والاستعباد والرق السياسي .

على ان الاختبار البشري قد افاد الافادة التامة ، الجامعة المانعة ، أن

الاستبداد لشر مطية تمتطيها الحكومة المستبيحة لنفسها التطوح في البغي والجور والعتو . ولكن بعضهم يقول هناك « المستبد العادل » النازل من الرعية منزلة الأب من الأسرة، يحيط به المشيرون الحكماء والاعوان الحصفاء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بكلمة تجري على لسانه أو يجري بها قلمه انما جميع ذلك وهم وخيال لا ظل لهما من الحقيقة. اذ قليل ثم قليل هو « المستبد العادل » الذي صدق خبره خبره ، وأقل منه من يخلفه خلافة نعمت الخلافة. فالمستبد العادل له في الغالب ولد فاسد الخلف والتربية لا يروقه شيء في جميع ملك أبيه سوى الفخمية والعجب والزهو ؛ وحفيد اسوأ خلقاً وأشد فساداً ركبت فيه طباع الذأم والمنكر، فيأخذ كل منهما بدوره في ارهاق الرعية وسومها ضروب الذل والهوان حتى يوردها بالتالي موارد الدهورة والتهلكة . وكثيراً ما شوهدت الثلاثيات المشؤومة ـ داود فسليمان فرحبعام ـ تتكرر تالياً بعضها بعضاً في جميع العصور التاريخية .

زد على ذلك فان المستبد العادل ، ولو كان على حسن عمل واستقامة مسلك فلا يكون خالصاً من طائفة من العيوب والشوائب . والبلية في جميع المستبدين ، الصالحين والطالحين ، ان أعز مراد يملكه كل منهم هو أن يحكم فرداً مطلقاً سيداً مطاعاً ، منه العفو اذا شاء ، وله الأمر والنهي في جميع الأمور . وربما افتتن بغانية أو حبيب ممشوق في ليلة تهب في رأسه سورة الهوى ، أو أصابه سوء هضم أفسد عليه تصوره ، أو عرته سويداء ذهبت بصفوه وحبرته فراح راكباً رأسه في متطوح فاسد ، تاركا عرشه ومملكته عرضة للسقوط والانهيار .

الحق أننا معشر الغربيين ، لم نذق شيئاً من مر الاستبداد كالاستبداد الشرقي ، في عصر من عصورنا الخالية ، حتى ولا ذاق أجدادنا القدماء شيئاً من مثل ذلك في عهد الامبراطورية الرومانية . فلذلك يصعب علينا أن نتصور الاستبداد بجميع طبائعه تصوراً تاماً ونتمثل أهواله تمثلا كاملا . اننا في

جاري العادة متى ما ذكرنا سير المستبدين العادلين ، جئنا على ذكر الحكام المطلقين المنورين الذين حملت أوربة عروشهم في القرن الثامن عشر مثل فردريك الكبير وانداده . غير أن هؤلاء لم يكن طراز استبدادهم على نحو ذاك الذي كان عليه مستبدة الشرق ، فان فردريك مثلا كان ملكا مطلقاً ولكنه لم يستعبد رعيته ويسترق شعبه ، اذ الشمم والاباء كانا ملء نفس كل ضابط وأمير ونائب من الخاصة حتى وكل فرد من أفراد العامة ، فلم تكن طاعتهم العمياء لفردريك انما لسبب كونه ملكا عليهم فحسب ، بل لأنه كان أبعد أهل بروسية همة وأشدهم عزماً وأنفذهم حزماً وأبلغهم مناداة في سبيل الذياد عن سياج الوطن والدولة . فلو اعوج يوما من الايام والتوى عن القصد بحيث انقلب ملكا مستبداً كسولا ، عاتياً باغياً ، لهب البروسيون الأباة الطائعون ، ومشوا اليه يقوّمون اعوجاجه بسيوفهم ويقيدون سلطته وسلطانه .

انما الحالة في الشرق على خلاف هذا . ففيه قد كتبت شريعة موجزة في جبهة كل شرقي ، شريعة ليس لها مثيل « في الوصايا الأوربية العشر » وهي : « عليك أيها الشرقي أن تجلّ الرجل الذى يقيمه الله عليك ملكا ، وتقدسه وتعبده . فاذا أحبك احبه ، واذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهاد فأحبه على ذلك أيضاً ، واياك أن تحول عن هذا له لأنه سيدك وأنت عبده ، ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الأداة بأداته [1] . ان الملك الشرقي من شأنه أن ينقبع في زاوية من زوايا قصره على كثير من حرمه ، تاركا شؤون الدولة واعباءها على كاهل وزير من وزرائه مطلق اليد والمشيئة ،

(١) الشريعة المحمدية لاتعرف شيئا من هذه الاوصاف للملوك ولا للخلفاء . ومثال الخلفاء الراشدين كاف لبيان احكام هذه الشريعة . وان كون السلطان هو ذاتا مقدساً غير مسؤول ليس هو من اوضاع الاسلام في شيء بل اخذه الترك عن الافرنج . وان الامة العربية خليقة هي من فطرتها : لا تقيم على الضيم ، ولا تعرف الذل للملوك والسلاطين ، ولا يبهر اعينها التاج والصولجان . وقد اوضح كل ذلك ستردارد فيما يلي . (ش)

فاعل ما شاء في مصالح الرعية وحياة أفرادها . وقد يحدث في ذات ليلة أن يتمنى الملك أو السلطان استرضاء راقصة من الراقصات الواقفات بين يديه في مقصورة من مقاصير حرمه ، فيبعث الى وزيره زنجياً خصياً شاكي السلاح ، واذ يصل هذا الى الوزير ويبلغه أمر مولاه لسرعان ما يهب الوزير فيخلع عنه رداء الوزارة ويمد بعنقه ليرشف كأس حمامه خنقاً أوغير ذلك من ضروب الموت . هذا هو الاستبداد الذي عرفه الشرق .

بل هذه هي سنن الشرق وتقاليده السياسية التي حالت دون انتظام حكوماته واستقرار دوله ، فأقصته عن كل سبيل من سبل الارتقاء والعمران ، فتاريخه في الواقع انما هو تاريخ السعود والنحوس ، والصعود والهبوط ، والظهور والاختفاء ، ما بين غمضة عين وانتباهتها . فالرجل المقدام هو الذي كان يقارع غيره في ساعة يشتد فيها الاضطراب والقلق ، لنيل منصب يستطيع به القبض على وسائل السلطة ، فان أحجم جبانا هياباً ، سبقه خصيمه الى نيل ماقصر هو عنه . ثم يأخذ هذا الفائز الظافر يقوم بشؤون الحكومة والدولة على أساليب مضطربة فاسدة ، مستحثاً من كان في أمره من العمال والموظفين على حسن العمل منذراً اياهم بشديد العقاب عند وقوع شيء من التفريط أو الخيانة ، عقاب كسرى فارس الذي أتي بأحد مرازبته الظلمة حياً فسلخ جلده ثم جعل الجلد شيئاً من فراش الأريكة التي دعا مرزباناً آخر عادلا للجلوس عليها وأمره بأن يقضي في مصالح الرعية .

وما دام الملك حياً فالأمور سائرة هذا المسير . ولكن بعد موته يخلفه من يتظاهر في أول أمره بأنه مقتف لآثار أبيه اقتداراً وعدلا ، وهمة وحسن سيرة ، ثم لا يلبث ان يبرح خفاؤه عن صريحه فيكون فاسد التربية والخلق . ولا غرابة في شأنه اذ قد ربي وترعرع في مقاصير الحرم ومن حوله حاشية من أذلاء العبيد وسيدات الغواني ، فألفت نفسه العجب والزهو ، وأطلق لهواه العنان ، فنشأ رضيع الاستبداد منغمساً في المآثم والمفاسد ، فولد هذه

خلاقه وطراز تربيته وتثقيفه أيستطيع خلافة والده وانتهاج منهجه في تدبير الامور وسياسة شؤون الدولة ؟ اذ بُعيد مايطبق الموت جفني والده ثم يستولي هو على العرش الموروث لن يلبث ان يدهم الملك فساد يفضي به الى الوهن والتفكك . والأمر طبيعي لا يمكن ان يكون بخلاف هذا ، لأن الملك الراحل لم ينشيء حكومة صحيحة منتظمة متماسكة القوى ، سائرة بذاتها بفعل نظامها ، نامية نمو الجسم السليم الأعضاء ، كما هو شأن الحكومات في الغرب . فضباط الجيش مثلا كانوا يؤدون خدمتهم عهد الملك السابق يحملهم على ذلك داعي الخيفة والرهبة ، أوالود والاخلاص ، لسبب ما قد يكون بين سيد ومسوده ، ولكن ليس قياماً بواجب يحمل عليه الشعور القومي والروح الوطنية . ومتى جاء دور الحفيد بلغت الأمور منتهى الفساد ، فذهبت بقية السلطة من بين يديه الواهيتين ، وخرج عليه كثير من الأمراء المستبدين في أنحاء مختلفة وتقدم أعظمهم وأشدهم بأساً للجلوس على كرسي الملك المتضعضع المتزلزل ، وتقلد أزمة الاحكام ، مدعياً ان ذلك هو خير للملكة وأفضل من ان تتلاشى كل التلاشي فتغدو عرضة لجائحة غارة أجنبية ، وهكذا دواليك ، حلقات تكر الواحدة تلو الأخرى ، وكل مؤلفة من داود فسليمان فرحبعام .

هذا هو تاريخ الشرق السياسي على الايجاز . غير أن الشؤون والأحوال أخذت تتبدل وتستقيم ، والاعوجاج يقل ويقوّم . ذلك نتيجة فعل العوامل السياسية الناحية منحى الحرية ، وثمرة الصدمات الضاربة في مقاتل الاستبداد . وهذه الصدمات المقاومة بعضها بعضاً ناشئة عن عوامل داخلية وبعضها ناشيء عن عوامل غريبة طارئة من خارج .

على أن الواقع أحرى بأن يعلم ، فالشرق لم يكن جميعه في يوم من ماضيه مستقراً للاستبداد ومنبتاً للظلم والجور . بل ان بعض شعوبه وأممه في بعض الأصقاع (وغالبهم بدو ومن أهل الجبال) قد عافت نفوسهم الضيم وأبت الخنوع لحكم الاستبداد . وقد كان العرب دائماً هم الأمة الشرقية الحرة التي

احتفظت حريتها وصانتها بدماء مهجها على توالي العصور .

وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتملون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدها الأول على أساس الشوروية والشريعة الدينية ، وأوضحنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على الدول ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامي ، وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشوروية ملكا عضوضاً ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب ـ عشاق الحرية والاستقلال ـ يعودون أدراجهم الى الصحراء غضاباً متجهمين ، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية وعفت آثارها ، غير أنه على كل هـذا بقي معظم ذكريات خلافة الراشدين ، والمعتزلة الحرة ، حية في زوايا الأدمغة وألواح الذاكرة ، مستعدة استعداداً طبيعياً غريباً للظهور ثانياً . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يذود عنه كل عزبى ذياد قُرَّح الأبطال بالسلاح والأرواح والدماء . وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والاسلام اسلاماً . فمن تُرى يستطيع أن يتعامى عن القول الذي قاله صاحب الرسالة : «انما المؤمنون اخوة » و « المسلمون أحرار » وعما هو مدوّن في صحف التاريخ الاسلامي في غرر أنباء صدر الاسلام العجيب المعروف « بزمن السعادة » . أو لم يظل المسلمون الأحرار النازعون نزعة الاستقلال ، حتى في أشد الليالي حكما ، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبي بكر التي خطبها في العرب بعيد مبايعته بالخلافة :

« قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيرِكم فاذا استَقَمْتُ فأَعينُوني واذا زُغْتُ فقوّمُوني » .

فالاسلام في عهده الأول انما كان شمس الحرية مشرقة وهّاجة ، ودينًا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة ، وليس ما طرأ على العالم الاسلامي فيما بعد من الوهن والتدلي بحاجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفاته . فالشريعة

الاسـلامية كما قال العلامة ليسبار : « انما هي ديموقراطية شوروية جوهراً واصلا ، وعدو شديد للاستبداد» . وقد أجمل ڤامباري هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله : « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسية الغربية الى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون ، ولـكن السبب كل السبب في ذلك انما هو استبداد امراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي ، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا في انتحال التآويل القرآنية انتحالاً منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية ، وتشددوا في الدين تشدداً باطلا بروءمنه الاسلام[1] وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء فقضوا على جميع ذلك قضاء ، فخالوا

(١) من اكبر المسؤولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هم هـذه الطبقة التي يقال لها العلماء ، فانهم الا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا وجعلوا ديدنهم التزلف الى الامراء بتسويغ جميع موبقاتهم بالادلة الشرعية والافتاء عليها من الدين ، وقلما اتى أحد الملوك أو الامراء المستبدين عملا منكراً الا أتواله من الآيات والاحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها وتحريف الكلم عن مواضعه ورواية الضعاف والموضوعات الى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلفى والجائزة . وما زالوا يتمادون في غيهم هذا ـ والمسلمون غاضون النظر عن لعبهم هذا ـ حتى صاروا يتقربون بهذه الاشياء نفسها الى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها خراب الاسـلام وهلاكه ، فكلما سقطت مملكة اسلامية في يد دولة اجنبية أو نهضت أمة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الاجانب ، وجدت الدولة الاجنبية من هؤلاء العلماء اسرع الخادمين لاغراضها المفتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها . وحسبك ان عـدداً عديداً من علماء سورية افتوا أثناء الحرب العامـة ببغي الشريف حسين امير مكة تقرباً الى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء في الحرب واحتلوا سورية بايعت هذه الفئة نفسها الشريف حسيناً الذي كان عندها من قبل باغياً خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيس الشام نفضت ايديها ثانية من صاحب الحجاز وجعلت تفتي بحسب هوى فرنسا ، وعدت الملك حسينا اجنبياً . اكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلون وكلما عاتبهم الانسان على هذا التبذبذب اجابوه : انما هـذه تقية نبتغي بها النجاة من الظلام . والصحيح ان عذرهم غير مقبول وان عملهم هذا مخالف للشرع مناف للـكتاب والسنة ، وان دعواهم مداراة الظلام هي باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفاسف ، وطلاب وظائف . هذا يريد ان يكون قاضيا وذاك مفتياً وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض اجرة امضائه نقداً دراهم معدودة ، ولا نعلم الى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعممين ، وينظرون الى العزائم لا الى العمائم . (ش)

دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية (١) » .

وقد أبنا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقي ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه في القرن التاسع عشر ، وبسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصوراً على الاصلاح الديني فحسب ، بل تناولت الاصلاح السياسي أيضاً ورامت تخليص العالم الاسلامي بأسره من استبداد امرائه وملوكه وسلاطينه المسفة الظالمة . ونقول الآن : انه بينما كان الاصلاح السياسي الحر سائراً مسيره على اتساع في الحركة والانتشار فاذا بتيار سياسي جديد قد هب عليه من جو أوروبة فاعترض سبيله وقام في وجهه . وكان أهل الفكر والرأي من المسلمين ، وقد ايقنوا بحال تضعضع الشرق الاسلامي وتشتت أمره حيال تقدم أوروبة وشدة حولها وبأسها ، طفقوا يسعون وراء الاصلاح متذرعين بأنجز الذرائع للوصول اليه ، واذ راموا صدق المسعى وابتغوا التجدد الحقيقي فلم يغرب عن بالهم أن بلوى الشرق الاسلامي انما غالبها مستقرٌ في حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم . وشارك الأمراءُ الحكامُ ، أهلَ الفكر وطلاب الاصلاح في هذا ، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية واكتناه أساليبها والوقوف على جميع اسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقاً انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها وتنجيتها من شر المهالك ، ثم سوقها في سبيل التقدم والارتقاء . وقد كان السلطان العثماني محمود الثاني في تركية ومحمد علي في مصر خير مثالين ظهرا بالطراز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه ، وكلاهما كان حكمه في أوائل القرن التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه الى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطاً بين حالة المستبدين

(١) سنة ١٩٠٦

العادلين الأوروبيين والمستبدين الشرقيين . وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين ، طالبي التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة في الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك تنظيماً صحيحاً خالياً من المفسدة والعيب ، كيما يتسنى للحكومة هذه أن تسير - بنفسها وفعل نظامها - سيراً مطرداً كسير الحكومات الغربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئاً من رقابة النظام ، ولا يقومون بواجب الا خشية العقاب .

وثابر محمود الثاني ومحمد علي ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج هذه السياسة الرشيدة الحديثة ، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذي بديء بعاليه وظاهره قبل اساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح . ولا جرم ، فانه قد كان في استطاعة السلطان أو الأمير ابتناء القلاع وانشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبي ، وحشدها بالجند ورجال الوظائف والأحكام المتزيين بازياء غربية ؛ غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يعلمون شيئاً من اسرار تقدم الغرب وارتقائه وأسباب حضارته وعمرانه ، فلذلك كانوا عجزة عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة ، لأنه ليس فيهم الكثير الكافي من روح الاقدام والمضي في العمل ، ولا هم يقبلون من أنفسهم غيراً على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ولا ألفوها بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الأعمال الاصلاحية عن فتور وتراخ ، وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم . هكذا كانت الحالة في بدء الأمر . بيد انه على توالي الأيام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثتين . وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلاً ، فظل أمرها مقصوراً على اكتساب المظاهر الغربية

من خارج ، لأنها لم تنل كثيراً من اسرار المعاصرة والجدّة التي هي شرط لازم في حال كل حكومة منظمة راقية .

أضف الى هذا أنه في غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهباً وطرازاً عمن سبق ذكرهم يقومون احزاباً مؤلفة ، وغايتهم انما هي اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال . وكان عـدد هؤلاء يزداد ازدياداً متوالياً من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكاراً وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، وبعضها الآخر تلقوه باسباب التعلم والتهذيب في المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربي . وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركية نشوءاً محسوساً . وفي سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عالياً وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور .

بيد انه قد عقب هذا الفلاح الذي نيل على يد الأحزاب الاسلامية السياسية الحرة ، دور ظهر فيه رد الفعل ، اذ بات الحكام المسلمون الجالسون على أرائك عروشهم يخشون كل الخشية عقبى انتشار المنازع الحرة في رعاياهم ، فوطنوا نفوسهم على استبقاء سلطتهم المطلقة في أيديهم ، لا ينزلون عنها ، ولا يرغبون فيما دونها . فلهذا لما ارتقى السلطان عبد الحميد العرش لم يلبث أن فض البرلمان العثماني وقوض بناءه تقويضاً ، ثم طفق يضطهد الاحرار ويتناولهم بكل ضرب من ضروب التعذيب ، حتى تسنى له استرداد معظم السلطة المطلقة فعض عليها بالنواجذ . وظهرت في بلاد العجم حركة سياسية حرة فأضمر الشاه لها المناهضة فخنقها وليدة في مهدها ناهجاً بذلك منهج عبد الحميد . وفي مصر كان حكم الخديوي اسماعيل اسرافاً وتبذيراً ، فجاء خاتمة للحياة السياسية الوطنية في مصر ، فآل الأمر الى التدخل الأوروبي في شؤون البلاد ، ثم بسط

الاحتلال الانكليزي ، وظلت حتى ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ ، اماوات المنازع السياسية الحرة تظهر ظهوراً بيناً في هذه الأقطار الاسلامية التي كانت بعد محتفظة استقلالها ، وكانت الحركات الاصلاحية سائرة سيراً حسناً وراء ستار من الخفاء . وأخذ الشبان المسلمون المتمشية في عروقهم روح الوطنية يفرون الى ديار الغربة سعياً وراء غرضين : طلب العلم ، وانشاء الدعوات السياسية الحرة المنظمة . فلجأوا الى أكناف عديدة مثل سويسرة ، واتخذوا فيها ملاذاً لهم . ثم شرعوا ، وفيهم شبان «تركية الفتاة» و«ايران الفتاة» يصدرون مئات النشرات والكتب الأدبية الثورية ، ويبعثون بها خفية الى أبناء أوطانهم المسومين الذل والهوان ، فيتلوها هؤلاء باشتياق ملتهب .

وما انفكت أصوات طلب الحرية تتعالى على توالي الايام ، وتشتد قوة وبأساً ، وتجوب البلاد وتخترق الآفاق ، وتعم طبقات الناس . فقد قال أحد شعراء الترك ، شادياً باسم الحرية في ذلك العهد : « ان ما نجلّ ونعظم من جميع ما نراه من نتاج التهذيب الأوروبي والحضارة وثمرة العلوم والفنون انما هو الحرية . كل شيء يستمد نوره من كوكب الحرية المنير . الأمة المسلوبة الحرية فلا حول لها ولا أمل في ارتقاء معارج العمران . السعادة بلا الحرية مستحيل لا يدرك والوجود الانساني والحياة الصحيحة بلا سعادة تكفلها الحرية انما هي وهم باطل وخيال خادع . عش أبداً يا كوكب الحرية ماالتهبت القلوب شوقاً اليك وتزاحمت أنفس عشاقك على فدائك » .

ومنذ ختام القرن التاسع عشر أخذ كبار أهل الرأي الصحيح والنظر السديد من الاوروبيين يراقبون الحركات السياسية الحرة تضطرب كالبحر جاشت غواربه من جانب الى جانب ، تحت وجه الاضطهاد وسطح الاستبداد . ولما زار المستشرق الكبير ارمينيوس ڤامباري القسطنطينية ثانية سنة١٨٩٦ دهش دهشاً عظيماً لما استبانه من التطور السياسي الحر الذي حصل خلال الحقبة المنقضية بين زيارته الأولى منذ أربعين سنة من قبل ، وهذه . ومع ان القسطنطينية كانت مباءة الاستبداد الحميدي ، فقد كتب ڤامباري في شأنها

ما يأتي : « قد انقضى المنزع القديم الذى كانت عليه تركية من قبل للحكم المطلق . كانت تبلغ مسامعنا ونحن في أوروبة اشياء عديدة عن حزب تركية الفتاة ، وعن حركة دستورية ، ونضال سياسي ونفي وابعاد ، ونشرات وكتب ثورية . ولكن الامر الذي يفوق خبره خبره هو هذا الاضطراب الهائل والتطور العظيم المنتشر اليوم في جميع الطبقات الاجتماعية المختلفة ، مما يحملنا على الايقان ان التركي قد شرع يسير سير التقدم والارتقاء ، بعد ان انقضى الدور الذي كان فيه كل فرد من افراد الرعية طينة بين يدي الخزّاف العاتي المستبد ، وحزب « تركية الفتاة » وما أدراكه ؟ انما هو الشعب باسره والملة قاطبة [1] » .

وجدير بنا في هذا الصدد ان نلاحظ بعين الاعتبار شأن الاضطراب الذي كان في هذه الآونة يشتد اشتداداً سريعاً في الاقطار الشرقية الخاضعة للسيطرة السياسية الأوروبية . عند ختام القرن التاسع عشر كانت الممالك الاسلامية الكبرى ــ المستمتعة بشيء من الاستقلال بمنجاة من السيطرة الغربية ــ اربعاً : تركية ، والعجم ، ومراكش ، وافغانستان . اما هاتان الاخيرتان فقد كانتا على جانب من الانحطاط والتدلي بحيث كادتا لا تعدان في مصاف البلاد المتمدنة . وأما الأوليان فكانتا أرقى حالا ، ولذلك غدتا المضطرب الوحيد الذي يتوقع فيه نشوء الاضطراب وحركات الانقلاب السياسية الحرة المقاومة للاستبداد والجور . وأما البلدان الاسلامية الأخرى الخاضعة للحكم الأوروبي مثل الهند ، ومصر ، والجزائر ، فقد كانت بلغت من التهذيب والثقافة والارتقاء مستوى عالياً فيه من الكفاية ما يبعث على القيام بالحركات السياسية الحرة المنتظمة ، والسعي وراء تحقيق المطامح الوطنية والآمال القومية ، ولكن يرافق جميع ذلك كره الاجنبي الشديد الشائع في جميع الطبقات على السواء .

---

(١) سنة ١٨٩٨

وقد كان من أمر الحركات التي كانت قائمةً يومئذٍ في تركية والعجم مقاومةً للاستبداد أنها هاجت المطامح الحرة وأشعلتها اشعالاً في نفوس المسلمين . بيد انه يجب الفرق التام بين أفقين كبيرين ظهرا في العالم الاسلامي ابانئذٍ ، فرقاً هو من حيث اعتبار ماهية الحركات الوطنية والاطوار التي اجتازتها والغايات التي اتخذتها اهدافاً لها . أما جوهر السبب ومرماه في الاضطراب السياسيّ الناشيء يومئذٍ في تركية والعجم فقد كان حركات وطنية غايتها الاصلاح الحرّ . وأما جوهر السبب ومرماه في اضطراب الهند ومصر والجزائر فقد كان حركات وطنية غايتها الاستقلال . ولكن لم يكن هناك من خطةٍ معينة مقررة تبين شكل هذا الاستقلال والصورة التي يراد ان يكون عليها بعد ما يتم الحصول عليه . وقد كانت هذه الحركات الأخيرة بحقيقة الواقع أقرب الى ان تكون قوميةً جنسيةً منها الى أن تكون مكتسبةً لصفة الاصلاح الحر كما في الأولى ، فلذلك سنتكلم عليها مسهباً في فصل العصبية الجنسية التالي . فجميع ما يجدر بنا ان نعلمه ونعتبره في هذا المقام هو ان القائمين بهذه الحركات هم في الواقع احزاب مؤتلفة متفقة على حطم النير الاجنبي ، والتحرر من رق الغرب . وكان رجال هذه الاحزاب على مذاهب سياسية عديدة متشعبة ، يشتملون على الاحرار ، ودعاة العصبية الجنسية ، والجامعة الاسلامية ، والرجعيين ، حتى وعلى زعماء من العامة صلاب العود ، يؤثرون الرجوع الى عهد الاستبداد على البقاء في حكم الاجنبي . ومن المعلوم أن أتباع مذهب العصبية الجنسية ما فتئوا ينادون بالكلمة المألوفة « الحرية ! الحرية ! » المعنيّ بها عندهم التحرر من « ربقة الأجنبي » ، أو ان شئتَ فقل « الاستقلال » . وفي هذا الموضع من البيان يجب ألا يغرب عن بالنا ان ليس هناك من صلةٍ جوهرية تصل بين مذهب « الوطنية » ومذهب « الحرية » صلةً قريبة الجوار منهما. فاهل الطبقة العامة من الاسبان الذين صاحوا : الحرية الحرية ! لما هبوا يقاتلون جيوش نابليون ، عادوا فرحبوا بملكهم الطاغية

المزدري ترحيباً ملؤه الحماسة والغيرة المشتعلة ، واستقبلوه ، وهو يبجل الاستبداد ، بصراخ بلغ عنان السماء « لتحي السلاسل ! لتحي الأغلال ! »

واستمرّ دور ردّ الفعل الاستبدادي الذي اناخ بساحة تركية والعجم منذ أول الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٨ اذ انتهى سنتئذٍ آخرقسم من هذا الدور الذي اشتمل على ضروب الارهاق وصنوف البلايا . فانفجر في كلا البلادين بركان الثورة ، فخلع الترك عبد الحميد المستبد ، وخلع أهل فارس محمد علي شاه الطاغية الذي « جمع كثيراً من مشائن الفساد والجبن والحطة ، ولطخ عرش العجم بمناحش العار » . وحطمت الثورة في البلادين اغلال الجور وقيود الاستعباد ، فانطلقت قوة الاحرار التي كانت تمتد وتشتد على التوالي تحت سطح الاستبداد في الدور المنقضي ، وانتقلت كل من تركية والعجم الى دور جديد بزغت فيه شموس جديدة ، فأنشيء الدستور ومجلس النواب وسائر الأجهزة السياسية اللازمة لكل من الدولتين على الطراز الغربي الحديث .

أما التساؤل فيما يمكن ان يكون لهذين الانقلابين من حقيق الأمر وصحيح العمل في تبديل الحال والانتقال بها من دور الى دور ، والقيام بتدبير شؤون الدولتين والنهج بهما على المناهج الحديثة التي يقدر لها ان تكون في جاري الحال خالية من مفاسد الاضطراب الضار وطواريء الحدثان، فهو ضرب من الجدال الفارغ لا يفضي بصاحبه الى ادراك حقيقةٍ يصح الاطمئنان اليها ، والسبب في ذلك انه منذ شبوب نار الثورتين التركية والفارسية ، وقلب النظام الاستبدادي واعلان الدستور فيهما ، أخذ جوّ السياسة العامة يعتكر ويربد بالسحب السوداء ، وترا كم فيه منذرات السوء، وما زال هكذا كالح الجبين حتى قصفت الرعود فأخذت نيران الصواعق تتساقط من سماء الحرب الكونيه العظمى مطبقة العالم بأسره. فلم يكن لتركية ولا للعجم بعد انقلابهما السياسي متسع تستطيعان فيه مراس التطور السياسي

مراساً حقاً ، ومؤالفة الحياة الجديدة . وفوق ذلك فقد وقف لها الدهاة الغربيون بالمرصاد يتحينون عثارهما الذي لا جرم اذا عثرتاه ، والدور دور جديد يقتضي كثرة المران عليه . فكان غرض هؤلاء الدهاة المتنكرين بأثواب الساسة ان يرقبوا زلة الدولة بعض الشيء ، حتى اذا كان ذلك انقضوا عليها بنفوس شرهة ، وافسدوا عليها عملها ما استطاعوا .

فلما فتقت الحرب العامة كان فتوقها في الواقع انما هو تتمة للاعتداء والجور الغربيين اللذين كان قد بدىء فيهما منذ عدة سنوات .

فلذلك اذا اعتبرنا عدم استقرار الحال ، وأقمنا الوزن لتوالي الطوارىء العدائية على غير انقطاع ، أصبح البحث بدون قيمة جوهرية له تكشف عن حقيقة المسألة الكبرى التي أمعن البحثة فيها وقلبوا وجوهها ، وهي : أجديرة شعوب الشرق الادنى والأوسط ياترى ، أو ليست بجديرة بنيل الحكم الذاتي ، أعني بأن تنشيء النظم الدستورية وتحيا الحياة السياسية الحرة ؟ وقد اختلفت آراء البحثة في هذا اختلافاً كبيراً . أما نحن فلم نذهب الى أن نبسط رأياً خاصاً ، بل آثرنا ايراد طائفة من الآراء والأقوال النافية والمثبتة ، دون ان نجنح الى تقرير خلاصة ما . بيد اننا قبل الشروع في ايراد مانورده من الآراء المختلفة علينا ان نسترعي شديد الانتباه الى اعتبار ما هناك من الفرق والاختلاف بين حال الشعوب الاسلامية والشعوب الهندوية غير الاسلامية في الهند . فان المسلمين قاطبة ، في كل قطر من اقطارهم ، مثالهم في الديموقراطية والشورى السياسية مثال أهل بلاد العرب ، اذ لهم دينهم الاسلامي الديني ، باعتباره على الأقل فيما يختص منه بابنائه ، دين منير يشتمل على المنازع الحرة العديدة . أما الهندويون فلا شيء من هذا في دينهم ، فان تقاليدهم السياسية لم تبرح الى اليوم منغمسة في حمأة الاستبداد الشرقي ، وخير ماسطره التاريخ بين وقتية لهم هو قيام بعض الدول فيهم في الازمنة الخالية ، وهي دول استطاعت ان تحكم نفسها بنفسها حقبة قصيرة على نطاق ضيق محدود

السلطان والسيطرة ، ثم ما لبثت هذه الدول الهندوية ان ذهبت ريحها ، وأدال الله لغيرها منها ، فادركها التلاشي والاضمحلال . وأما البرهمية ، أعني دين الهندويين فالراجح انها أضر معتقد نشأ في الارض ، بعيداً من الحرية الصحيحة التي يجب ان يكون عليها الانسان منفرداً ومجتمعاً ، وقصياً عن المساواة الاجتماعية ، فكان بلية حلت ببني الانسان ، قاسماً المجتمع الى سلسلة لانهاية لهامن الطوائف والطبقات المتقاطعة بفوارق لا تحصى ، المحرم على جميعها الاختلاط والامتزاج بعضها مع بعض فباتت كل طائفة تعد من دونها من الطوائف الأخرى غاية في الدنس والرجس تكاد لا تفرق بينها وبين الأنعام السائمة . فالمعتقد الهندوي اذاً هو عائق كبير من شأنه ان يجعل أمر الحكومة الذاتية أصعب انشاء ومنالا في الشعوب الهندوية منه في الشعوب الاسلامية. فعلى القارىء الكريم ان يستوعب هذه الحقيقة ذاكراً لها في سياق ما يأتي من الكلام .

نعتبر الآن في المقام الاول مقالات الذين يعتقدون أن شعوب الشرقين الادنى والاوسط ليست بجديرة اليوم ولا في المستقبل القريب بنيل الاستقلال والحكم الذاتي على صحيح ما لهما من المعنى عند أهل الغرب . واللورد كرومر في طليعة الفريق الذاهب في الاعتقاد هذا المذهب ، لأنه يرى ان التقاليد الاستبدادية القديمة متأصلة في الشرق ، صعب أمر استئصال شأفتها ، ولا سيما اذا ابتغي ذلك تاماً وريم حصوله في مدة قريبة من الزمن ، فقال : « ما برحت السياسات الشرقية منذ فجر التاريخ تعتورها الآفات القاتلة وينخر فيها سوس الفساد ، فلذلك لا يسعنا القول بامكان تلاشي الاستبداد واضمحلال طبائعه وأصوله في مدة قليلة ، لشدة تمكن ذلك في تربة الشرق قروناً وعصوراً . فبعيد هو اليوم الذي تصبح فيه عقائد الحرية المنظمة ، الواسعة النطاق ، حالة حلولا راسخاً في شعوب الشرق وأممه . لأن التطور والانقلاب لا يمكن ان تجنى ثمارهما الناضجة في عدة عقود من السنين بل في قرون . . . . فالواجب علينا

اذا في المقام الاول ان نجتنب الاتيان بالانظمة والقوانين الحرة ، الرحبة المجال ، الواسعة المدى ، لشعوب لا تستأهل جميع ذلك ، فتتمكن بسببه الفئة القليلة في كل شعب من الاستئثار بالحكم الجائر الفاسد ، فتعود الحالة شراً من اقبل ، بل يجب علينا ان ننشيء نظاماً فيه من الخير والكفاية ما تستطيع كل طبقة ان تنال منه قسطها ، نظاماً قائماً على قواعد شريعة الاداب النصرانية . فلو افترضنا انه من الممكن انشاء مجلس نواب مصري ، اعضاؤه منتخبون انتخاباً حراً ، لكان من الغالب ان هذا المجلس لا يتناول فيما يتداول من لاعمال اشتراع القوانين وسنّ الانظمة لمنع الاسترقاق على جميع ضروبه [1] .

(١) ان هذا الرجل المسمى باللورد كرومر يصح ان يكون مثالا للاوربي المستعمر المتسلط الذي تنحصر سياسته في تذليل جميع العقبات القائمة في وجه استيلاء امته على قطرمن الاقطار الشرقية ، ولما كان ميدان عمله مصر وكان لا يمكن ان يجري فيها من ضروب الاستبداد الاستعماري بقوة السلاح ما يجري في السودان أو الصومال مثلا ، لجأ في الاستئثار بامر مصر الى الجدل واقامة الادلة على كون مصر وكل بلاد شرقية أو اسلامية لا تصلح للحكم الذاتي ، ولا يجوز ان تخلو في يوم من الايام من السيطرة الاوربيه . ولاجل ان يعلل وجوب هذه الديمومة الاستعمارية التي لانهاية لها ، حال كون كثير من المستعمرة الاوربيين يجعلون الامد بينهم وبين حرية البلاد التي استولوا عليها وصول هذه الى درجة الكفاية والاهلية للحكم الذاتي كان يزعم هو انه لا يمكن وصول شعب مسلم الى درجة كهذه ابداً لموانع قائمة في طبيعة الاسلام نفسه ، وكان مقام اللورد كرومر في انكلترة بسبب كونه هو الآخذ بزمام مصر يجعل له كلمة نافذة وقولا مسموعا ، فكان كل سنة يصدر تقريراً ينطف سما على مصر وعلى الشرق وعلى روح الاسلام ، ويتلقى الناس ذلك منه انه نتيجة خبرة طويلة ومعاركة دهر في بلاد الشرق ، ويحفلون بكلامه ويتخذونه دستوراً . والحق انه لم يكن الا عبارة عن رجل مستعمر مستبد عدو للشرق عموما وللاسلام خصوصا يتأجج بغض الاسلام في قلبه نظير ما كان عليه غلادسطون ، واخيراً ظهر عدوانه هذا بكل جلاء في حادثة « دنشواي » التي تغلب فيها هواه على مهارته ، فكانت سبب سقوطه وصرفه عن مصر ، فانتقم لنفسه بتأليف كتاب خاطرات حمل فيه على الاسلام حملة شديدة . وان جميع مايدعيه هذا الرجل وأمثاله من عدم قابلية الشعوب الشرقية للرقي ، ان هو الا من الاستدلالات الاستعمارية التي مرماهم فيها معروف ، وهو ان يجعلوا حكمهم لهذه الشعوب سرمداً ، لانه صار يصعب عليهم ترك هذا الحكم برضاهم بعد ان ذاقوا لذته وجنوا ثماره . جاءني مرة وانا منذ سنتين في برلين اثنان من سفارتين من سفارات الانكليز الكبرى في اوروبا يريدان ان يباحثاني في المسائل الشرقية ، فكان من جملة ما قال لي احدهما : قل لنا بشرفك هل تعتقد كون هذه الشعوب الشرقية القائمة كلها بطلب الاستقلال هي أهلا له .

ولو افترضنا أيضاً انشاء مجلس « الراجپوت» في الهند، فهذا المجلس لا يكون من شأنه الاهتمام بالقضاء على العادة الكريهة، عادة اقدام الارامل على الموت في نار ذات لهب، قياماً بعهد الوفاء لازواجهن . يؤخذ من هذا انه يجب على الحكومة الصالحة ان تمتهد الطريق وتقوّم السبيل امام الشعوب الشرقية للوصول الى غايات واغراض ممكن الحصول عليها على توالي الأيام . فعلى

فاجبته : قل لي بشرفك هل بلاد اليونان منذ قرن والبلغار منذ ٤٠ سنة والجبل الاسود والصرب كانت ارقى مما هي مصر وسورية وتونس الآن ؟ فلماذا يطلب لتلك الاستقلال مع مساعدة جميع اوروبا واثناء تضفيقها وابتهاجها وينكر على هذه بحجة أنها لم تصل الى درجة الكفاءة . . . .

قال الانكليزي : افلا تعترف بكوننا اقدر على ادارة مصر من أهلها وان وجودنا فيها اضمن لمرافقها المادية . قلت له : أفلا تعترف بأن النمسا اقدر على ادارة يوغوسلافيا من الصرب وانها ارقى بدرجات من الصرب ؟ أفلا تعترف بأن النمسا هي التي هذبت ورقت مستوى جميع تلك الامم التي انسلخت عنها بمساعدتكم ؟ أفلا تسلم بكون الرومان الذين كانوا في المجر هم أرقى من رومان نفس رومانيا وان حكومة بودا بست هي أعلى مراراً من حكومة بخارست ؟ أفلا تقر بكون الالمان هم أقدر من البولونيين على ادارة سلزيا العليا ؟ وان مرافق سيلزيا العليا تكون تحت ادارة المانية مضمونة اكثر مما تكون تحت ادارة بولونية ؟ فلماذا اذاً سلختم يوغوسلافيا عن اوستريا وترانسيلفانيا عن المجر وقسما من سيليزيا عن المانية ؟ ربما تقولون لملاحظات اخرى وطنية واعتبارات قومية لابد منها اذ كل امة لها حق في أن تدير نفسها بنفسها فلماذا هذه الاعتبارات القومية والوطنية تبقى مرعية مادامت في اوروبا فاذا كانت المسئلة في الشرق لم يبق هناك من سبب يجب اعتباره سوى حسن الادارة ؟ قلت له : أنا لا أشك في انه لو استولت المانيه على استونيه أو ليتوانيه أو لتونيه لادارتها أحسن مما يديرها أهلها اليوم، ولو استوليتم انتم على البرتغال لكانت حال البرتغال المالية والادارية أحسن منها في أيدي البرتغاليين وهلم جرا ، أفتسمح اوربا لالمانيه بحجة علوية الادارة ان تستولى على بلاد البلطيك أولكم بأن تستولوا على البرتغال ؟ لا أظن ذلك . فلماذا بحجة أفضلية الادارة تتمسكون بالبقاء بمصر ولا تنظرون الى ماهنالك من العوامل القومية والوطنية ؟ ولماذا جهورية اريفان الارمنية تستحق الاستقلال وكرجستان هي أهل للحرية، ومصر وسورية لاتستحقان الاستقلال ولا الحرية ؟ اترى اريفان هذه بل كرجستان أرقى من مصر أو سورية أوالعراق أو تونس، كلا . فلماذا تحللونه عاما وتحرمونه عاما . وأغرب من هذا ان آذربيجان التي هي ارقى جداً من اريفان لم تجد دولة من دول اوربا طلبت لها الاستقلال وهن باجمعهن يطلبنه لاريفان . مع ان اذربيجان اربعة ملايين واريفان اربعمائة ألف وأذربيجان متمدنة واريفان بجانبها تعد متوحشة . وكذلك جميع الدول مهتمة بدفع البولشفيك عن اريفان وكرجستان وليس من واحدة تطلب دفعهم عن اذربيجان و الطاغستان هل

الشرقيين ان يجتازوا كثيراً من التطور الصحيح المتدرج في ادوار الحياة السياسية ، قبلما يقتربون من أفق الحكم الذاتي التام ، مدركين غاياته وفضائله ومثله العليا حق الادراك » . وقال اللورد كرومر متشائماً : « يصلح الشرق للحكم الذاتي متى صلحت خيوط العنكبوت لتتخذ نسيجاً يلبس » .

وبعد الثورتين التركية والفارسية ، كتب الكاتب الانكليزي الشهير الدكتور « ديلون [1] » يبين من الآراء ما يشبه كل الشبه تلك التي بينها اللورد كرومر في هذا الشأن ، فأعرب عن قليل أمله في أن تينك الثورتين آتيتان بثمار طيبة ، وسخر بالمتفائلين قائلا : « كأن الروح القدسية ستهبط على الحكومتين الدستوريتين الجديدتين من الملأ الاعلى » ثم قال « ترى أتستطيع دساتير الحرية ولو سنتها أعظم قوة بشرية في بلاد لا أثر للصناعة فيها ، ان تزحزح شيئاً من جبلات أهل تلك البلاد وتغير من غرائزهم واخلاقهم وتقاليدهم الموروثة منذ الحقب المتطاولة تغييراً ذاهباً بالقديم الفاسد وآتياً بالجديد الصحيح ؟ اللهم لا . فجميع ما في الأمر ان هذا الانقلاب في تركية وفارس لم يشتمل بحقيقة واقعة على شيء سوى تبادل طليّ الأقوال وبهرج الكلام وأنيق الخطب ، الامر الذي ليس به تنقلب الحال الراسخة منذ القديم انقلاباً لامراء في حصوله بالحقيقة والفعل . وتدل الدلائل الظاهرة على ان

في ذلك سبب الا كون الاولين مسيحيتين والآخريين مسلمتين ؟ افبمثل هذا العدل وهذه المساواة تطمع اوربا أن يكون بينها وبين الاسلام سلام ؟ فلما لم يجد على كلامي جوابا يليق برجل عاقل دخل في واد آخر وقال : طالما قيل لنا عن ذكائك وقوة حجتك الخ (وأخذ بالتقريظ والاطراء) فالآن صدق الخبر الخبر . وبالجملة فلا يظنن ظان أن كلام اللورد كرومر وأمثاله هو كلام ناقد خبير مجرب في ادارة الشرق يتكلم بخلوص نية ونقي للغرض بل هو كلام ناقد خبير بادارة الشرق على الاسلوب الذى يضمن بقاء السلطة الاوربية ويزيد دخل الاستعمار المالي ويقتل العواطف الوطنية ، ويقوي حس الافتتان بالتفرنج ، ويصرف الشرقيين عن المطالب القومية . والذى يقال دائما هو اللورد كرومر خدم امته اجل خدمة وانا أقول انه مهما جلت خدمته بالاخلاص لقومه فخدمته للشرقيين عما ظهر من تعصبه وسوء نيته كانت اجل واعظم (ش)

(١) نيسان ١٩١٠ *E. T. Dillon*

فارس ليست على شيء من الخلقة والجدرة لنيل الحكم الذاتي» ثم قال في موضع آخر : « وصفوة القول ان غاية ما حصل انما كان مقصوراً على اتخاذ طائفة من الاسماء الجديدة بديلا من غيرها لبعض الاشخاص والمسميات بحيث يتراءى للناظر ان هناك شيئاً جديداً وما هناك في الواقع سوى القديم المعهود . اما الفوضى فما برحت ضاربة اطنابها الى ما شاء الله . واما قضية القيام باعانة الحكومتين الجديدتين الاعانة المالية فليس بالمستطاع ، لأن المتمولين الاجانب لا يرون من الحكمة في شيء ان يقرضوا اموالهم ليبذرها العابثون الذين هم في بلاد غير مستقرة الحال كتركية وفارس أشبه بفقاقيع الماء تطفو لحظة ثم لا تلبث ان تختفي وتتلاشى . »

وكتب موظف استعماري من الفرنسيين [1] يصف أهل الجزائر وغيرهم من المسلمين في مستعمرات افريقية الشمالية الخاضعة للحكم الفرنسي يقول : « ينبغي لهذه الشعوب التي في مستعمراتنا ان يحكمها غيرها ، لأنها صبية دون اليفاع فلا تستطيع ادارة شؤون نفسها بنفسها . فيجب علينا ان نقودها السبيل قيادة ثابتة شديدة ، وألا نتخلى عنها تاركينها وشأنها لئلا تعثر عثرة كبيرة ، وألا نتوانى لحظة في سحق من فيها من المفسدين وأهل الكيد والدس ، من حيث يجب علينا أيضاً أن نحميها ونذود عنها ونقوم على تدريبها قيام الوالد على شؤون اولاده فنتناولها بالسطوة والسيطرة بيد ، وبالترقية والتعليم بالاخرى ، ونكون لها مثالاً حسناً في التفوق الأدبي الصحيح . وفوق كل هذا يجب علينا الاقلاع عن التمويه الباطل والمزاعم الفارغة الخلابة . فليكن رائدنا الاخلاص في سبيل مصلحة فرنسة ومصلحة أهل البلاد كذلك . »

وقد استاء كثير من أهل الرأي ، وجلهم من الموظفين الاجانب في الحكومات المستعمرة مما شاهدوه من النهج المختل الذي ينهجه الشرقيون في

(١) أ . مرسيه . كتابه « القضية الوطنية » باريس ١٩٠١

E. Mercier - " La question indigène "

الطور الاول من الحكم الذاتي ، طور المران والمراس على يد التجربة ، وذلك كالمجالس الاستشارية التي تجيز الحكومات الاوروبيــة لأهل البلاد انشاءها ، فيتخذونها ميادين سياسية يتذرعون بها لانتياش السلطة من ايدي المسيطرين انتياشاً مجاوزين في ذلك حدود نطاق ما أعطي لهم. قال اللورد كتشنر في تقريره الموضوع ســنة ١٩١٣ في شأن مصر : « ليس في المستطاع تنشئة الهيئات النيابية وترقيتها خير مايكون ، مالم تؤكد صفة الحال الراهنة ان هذه الهيئات هي من الاقتدار الصحيح بحيث تستطيع القيام بوظائفها التي بين يديها حق القيام ، وان هناك كبير رجاء في انها كلما اتسع نطاق الاعباء الحكومية امامها وانفسح لهـا مجال لمراس الشؤون الخطيرة الحيوية ، ازدادت حنكة وخبرة واقتداراً ، فلذلك اذ وجدت الحكومات النيابيــة وهي على أبسط اشكالها وفي أول اطوارها غير مقتدرة على العمل والاجراء ، وغير متنكبة المداحض والمعاثر ، قل الامل اذ ذاك في ان تكون من الجدارة بحيث تحسن القيام بمهمتها الكبرى ، متى ما غدا مجال شؤونها اوسع ونطاق المهمات ابعد مدى . فعلى هذا الاعتبار ليس من حكومــة وفيها مسكة من العقل تعتزم توسيع نطاق المجالس الاستشارية وتخويلها سلطة أقصى أمداً وأبعد نفاذاً من بعد ما بدا من قصور هذه المجالس عن احسان القيام بمـا قلدته من الوظائف والاعمال احسانا داعياً للرضى والارتياح » .

اما الذين يقومون باشعال الاضطرابات الوطنيــة في بدء الأمر فأهل الطبقات العالية من أهل البلاد والمتهذبون على الطراز الغربي ، ثم يأخذ الجمعان معاً يهيجون سواد الشعب الجاهل ويلهبون صدوره الهاباً ، في حين انه كثيراً ما يكون على حال من الهدوء والسكينة ، راضياً عن شأنه مكتفياً بما يتناوله من المرافق والمنافع في ظل الحكم الاوروبي [1] . منذ سنوات

(١) لا والله قلما يكون هذا الشعب راضيــا عن الحال التي هو فيها تحت الحكم الاوربي ولكن العامة لاتقدر ان تقوم بشيء من نفسها مالم يتقدمها النبهاء والطبقة الراقية . فمن عادة الاوربيين المستعمرين ان يزعموا في مثل هذه الحالة ان الشعب كان راضياً ساكتاً ساكتاً مغتبطاً

معدودات قال أحد كبار المبشرين الاميركان[1] في الهند بعد اختبار طال معظم حياته في تلك البلاد : « يغلب ان يكون الشعب الهندي اليوم أكثر ارتضاء بحكومته منه في أي يوم خال . اما العلة الحقيقية في استثارة روح السخط والغضب انما مصدرها الطوائف والطبقات العليا . فلو ترك المستثيرون عامة الشعب وشأنهم ، وكفوا عن هياجهم وتحريضهم ، وحملهم واستصراخهم ، لبات أهل الهند أشد شعوب الأرض إخلاصاً ووفاء . غير ان أهل الطبقات الراقية المتهذبة المشتعلة صدورهم بنار المطامح السياسية الحديثة ، الذين لن يناموا بعد على ماناموا عليه من قبل ، ولن يكونوا لهم قبل باحتمال الضعة والاكتفاء بالمراتب الدنيئة الحقيرة التبعة ، وبالوظائف القليلة الشأن والمنفعة . . . . فهم يكادون لا يعتبرون شيئاً من قدر الحكومة التي تسلم اليهم مقاليدها ويولون مناصبها وكراسيها على التوالي . بعد جميع ذلك فليس من مرادهم الوقوف عند حد الاكتفاء بنيل الانظمة الدستورية النيابية التي توسع نطاق اشتراكهم في حكومة بلادهم ، بل انهم اذ ذاك لطلاب الاستقلال بشؤون حكومتهم بأسرها استقلالا تاما لا يعتريه نقص ولا يشوبه شائبة . فالبرهمي (والبراهمة خمسة في المئة من مجموع السكان) كان يعتقد انه هو ذو المقام الأعلى وابن الطائفة التي اختيرت من لدن الاله لتحكم البلاد ، فيحمله ذلك على ان يمسك عن الآخرين حريتهم وما لهم من الحقوق على اختلافها .

لايطلب سوى استمرار الادارة التي هو تحتها ، فجاء نفر من الاعيان افسدوا قلوب العوام والفلاحين وحملوهم على الثورة أو النفرة ، فان كان هؤلاء الاعيان من شيوخ الدين أو الطبقة المسلمة المتدينة ، كان هذا من أثر التعصب الاسلامي ، والحرب المقدسة وتعاليم القرآن أودعوة الشيخ السنوسي أو التيجاني أو الشاذلي الخ ، وان كانوا من طبقة المتعلمين باوربا والناشئة الجديدة الذين لايمكن اتهامهم بالدعوة الدينية كانوا من اولئك الطامحين المتطالين الى الوظائف ذوي الاغراض الشخصية ، أو من الوطنيين الذين قد « قرأوا اشياء اساءوا هضمها » تلك الجملة المخصصة — في لغة الاستعمار — لكل فئة شرقية متعلمة على النسق الاوربي لكنها متمسكة باستقلال وطنها . (ش)

(١) سنة ١٩١٠

و « السودرا » (أهل الطبقة الرابعة الدنية) كانوا لا يرضون بأن ينتخبوا أحداً من أهل طبقة « البارياه » (سفالة أهل الهند) . وما زالت الحال هكذا حتى جاءت الحكومة البريطانية فقضت بالتساوي في الحقوق والواجبات وجعلت أهل الهند عامة وخاصة دون اعتبار الطوائف والطبقات على مستوى اجتماعي متماثل ، هذه هي الحالة حتى اليوم » . عند هذا تبدو المحاذير جمة باعثة على الاختشاء . ذلك ان يعود الاستبداد الاوليفارقي (١) فينشر في الهند متى ما حررت من الحكم البريطاني تحريراً تلاه قيام البراهمة وقبضهم على أزمة الأحكام . ولم ينفرد أرباب الرأي الغربيون في تصديق هذه المحاذير ، بل شاركهم في ذلك عدد كبير من أبناء الطبقات الهندوية الدينية المعروف مجموعها « بالطبقات المضطهدة » فاخذوا يقاومون الحركة الوطنية الهندية خشية ان يضيعوا ماهم متمتعون به اليوم من الحماية والرعاية في ظل حكم « الراجا » البريطاني ، وهم على اعتقاد ان الهند لم تبرح قاصرة عن نيل الاستقلال الصحيح ، فيجب عليها ان تدأب اجيالا في سبيل التعلم والتهذيب والارتقاء والاصلاح الاجتماعي دأباً متوالياً حتى تغدو من بعده جديرة بنيل الحكم الوطني « هوم رول » (٢) ، وقد أنشأوا لهم جمعية كبيرة سموها « الناما سدرا » غايتها موالاة التاج البريطاني ومقاومة الحركة الوطنية .

قال الدكتور « ناير » (٣) زعيم هذه الجمعية مبيناً غايتها وغرضها : « الديموقراطية باعتبارها كلمة سائرة وعبارة مألوفة ، قد ذاعت في الهند قاطبة وجرت على لسان كل انسان ، غير ان مدلول الكلمة ، أعني روح الديموقراطية الصحيحة ، لم يزل مجهولا في هذه البلاد جهلا شديداً . فلذلك ليس من المتوقع ان نرى في مدة قليلة الديموقراطية بحق معناها قد نشأت في الهند نشوءها في الغرب ، لأن تعصب الطوائف ذلك التعصب القاتل هو حائل دونها الى

(١) حكم تستأثر به فئة مخصوصة من الامة (٢) Home Rule
(٣) تشرين الاول ١٩١٨ Dr. Madavan Nair

ما شاء الله . . . ليس من مرادي ان اتهم طائفة مخصوصة دون أخرى بمضايقة الطوائف الوضيعة والازدراء بها ، بل جميع الطوائف والطبقات العليا انما هي في هذا الامر المستنكر سواء . فالبرهمي لن ينفك يضايق كل من ليس برهمي ، وكذلك شأن كل فرد من أهل الطبقات العليا غير البراهمة الذين لم يعدلوا عن مقت جميع من دونهم طائفة وطبقة . . . نحن نبتغي ديموقراطية صحيحة لا حكم طبقة ممتازة مستبدة ، اذ عن هذه الاخيرة نحن معرضون ، ولها مقاومون ؛ ولو رفلت ما رفلت بحلل من مزخرفات الاقوال والعبارات . فان قيض لها ان تعود فتنشأ ثانياً فهي باقية من بعد ذلك الى الأبد . . . انما وايم الحق لنؤثر الديموقراطيـة الآجلة البعيدة على نيل هذه الاوليغارقية العاجلة . ونحن اكثر ثقة بالحكم البريطاني منا بالاوليغارقية المستبدة التي شأنها معروف في أهل الطبقات العليا الذين كانوا على الدوام قائمين على مضايقتنا والنيل منا ، وهاهم اليوم يسعون في سبيل الرجوع الى ماضيهم لولا الحكومة البريطانية . فوقفنا هذا اليوم هو موقف دفاع عن كياننا ، وذياد عن بقائنا ، لا يخدعنا عنه أمل كاذب ولا مرتجى خير بعيد المنال » .

وهناك كثير من المسلمين والهندويين الذين يعلمون ان الهند لم تغـد للآن نضيجة للحكم الذاتي ، وانه اذا ما أخذ ظل السلطة البريطانية يتقاص ، سواء في المستقبل البعيد أم في المستقبل القريب ، لأصاب الهنـد من جراء ذلك شر بلوى . فلذلك لا يتردد المسلمون الموالون للتاج البريطاني في الدعاء على القائمين بالحركات الوطنية بالويل والثبور ، لاسباب جلاها أحد زعمائهم السيد « خوجه بوخش »[1] بقوله : « سواء كنت أحسنت صنعاً أم أسأت ، فانى لم أبرح معتزلا مزاولة الشؤون السياسية لهذه المدة الاخيرة . غير اني لم أحل عن اعتقادي قيد شعرة انه يجب علينا ان نجهد في سبيل ترقية مستوانا الاجتماعي والعقلي والأدبي أضـعاف ما نجهد في سبيل تحقيق ما نبتغيه من

(١) محاضراته : « الهند والاسلام » لندن ١٩١٢

الغايات والمطامح السياسية . اني لشديد الاعتقاد ان في انصرافنا عن السياسة الى ترقية سائر أحوالنا وشؤوننا الضرورية لنا بطبيعة هذا العصر ، لخدمةً جليلة في سبيل مصلحة بلادنا . . . . ليست جميع قضيتنا مقصورة على أن يكون في الهند فئة قليلة هي وحدها مسلحة بسلاح العلوم والتهذيب الغربي ، بل قضيتنا بجملتها تقتضي أن يكون سواد الشعب على مختلف المراتب والدرجات من العلم بماهية مصالح البلاد والشعور بخطورة أمرها بحيث يكون له من ذلك حامل صحيح على خدمتها والمفاداة في سبيل صيانتها وترقيتها . فان الفئة المتهذبة الراقية ، وهي أقل من القليل ، لا يتألف منها ذلك السواد الذي يجب علينا أن نقوم بترقيته وتهذيبه ، وتدريبه وتثقيفه ، ورفعه الى المستوى الذي تصبح عنده عقائد التضحية الوطنية راسخة في النفوس . اننا ، وأمرنا ظاهر ، لم نبلغ هذا المستوى بعد ، وما دمنا دونه وغير والجبن أبوابه لجميع ما في صدورنا من الآمال ، وما نجهده في المواضع الأخرى ، هو طلب باطل وسعي على غير ما جدوى . زد على هذا أن الفئة القليلة المتهذبة فينا لم تبرح وليدة في المهد من حيث ما هي عليه من المران السياسي الحديث . أجل ، يجب علينا أن نتعلم قدسية المبادىء الوطنية وتسديد الخطى في نهج المناهج الصادقة . وليس لنا من مرتجى في ترقية مستوى آدابنا الخاصة والعامة ، ما دمنا لا ربأ بنفوسنا عن افناء المصلحة العامة ، وتضحيتها في سبيل المصلحة الخاصة » .

لحري بمثل هذه الاقوال والتصريحات التي يوافق عليها كثير من أهل البلاد أن تسترعي سمع عدد كبير من رجال الرأي ، حتى من عظماء الاحرار الانكليز المزاولين للشؤون السياسية الهندية ، وأرباب الاعتقاد الراسخ ان الهند تزداد استعداداً متوالياً للحكم الوطني ، حتى يأتي يوم تغدو فيه جديرة بنيل الاستقلال التام . قال أحد هؤلاء الاحرار ، « ادوين بيڤان [1] » :

(١) E. Bevan من مقال له « الاصلاح في الهند » ١٩١٠

« متى ما قام أرباب الحركة الوطنية من أهل الهند يطالبون بالحرية فما يعنون بهذا الا الحكم الذاتي الذي يبتغون على يده التحرر من ربقة الاجنبي . فينبغي أن نجيبهم كما أجبناهم [1] : نعم حكما ذاتياً ستعطون وبه ستتمتعون ، انما ذلك على شريطة واحدة ، هي ان تكون الديموقراطية مصاحبة للحكم الذاتي . اننا لنتخلى لكم عن الحكم عند ما نرى فيكم شعباً هندياً يستطيع ان ينزل أمراءه وحكامه الوطنيين على أمره وكلمته . ولكننا لن نتخلى لكم عن الحكم هذا ما دمنا نعلم ان من ورائه نشوب الاوليفارقية وانتشارها . هذه علة الخلاف بين من يقولون بوجوب منح الهند الحكم الذاتي عاجلا ، ومن يقولون بأن الهند غير نضيجة له حتى اليوم ولكنها آخذة بالاستعداد المتزايد لتصبح يوماً جديرة كل الجدارة بنيل الحكم الذاتي والاستقلال التام . أما الفريق الأول فيعني بالحكم الذاتي ان يحكم الشعب الشعبَ وهو يرى من الواجب ان تمنح الهند حكما ذاتياً في المستقبل القريب . ويقول الفريق الآخر : اذا ارتفع الحكم الاجنبي وزال بالحال ، نشأت عدة حكومات على أثر ذلك على جانب من العيوب والنقص ، فتعود الفوضى والاضطراب منتشرين في الهند ، وفوق ذلك لن تكون هذه الحكومات ديموقراطية بل استبدادية يجور فيها القوى على الضعيف »

هذه صفوة آراء النقدة الغربيين والشرقيين الذين لا يقولون باستئهال شعوب الشرقين الأدنى والاوسط اليوم ، ولا في المستقبل القريب ، للحكم الذاتي . ثم نأتي الآن على ايراد آراء الفريق الآخر وأربابه من أهل الانصاف والتفاؤل ، الذين يقولون ، مؤيدين قولهم بالحجة والبرهان : ان المنازع الحرة في الاسلام انما هي خير أساس يصح أن تبنى عليه الأنظمة السياسية الحديثة قامة الأجهزة وافية بمقتضيات الحضارة والعصر . قال الحجة الثقة أرمينيوس

(١) أي توسيع نطاق الحكومة الذاتية الممنوح للهند على مقتضى تقرير « مونتاغو — شلمز فورد » .

ڤامباري : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية — الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فان كان العالم قد شهد حقاً ، منذ أول عهد العمران البشري الى اليوم ، حكومة شوروية دستورية فهي لعمري حكومة الخلفاء الراشدين »

وقال محقق انكليزي كبير [1] خبير في شؤون الشرق الأدنى :

« ان بلاد العرب التي يضرب فيها البدو الرحل هي البلاد الفذة في العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم [2]

---

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) ليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع لملوكهم وامرائهم كما تتخاضع لامرائها وملوكها سائر الامم ، بل تراهم لا يخاطبونهم بالالقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم الا بمجرد اسمائهم . وانما كانوا في ايام الخلفاء بدأوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لاغير . فكل مادخل في العربية والعرب من القاب التعظيم والتفخيم انما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال البادية — الى يومنا هذا — ينادون شيوخهم وامراءهم بمجرد اسمائهم ، فاذا ارادوا ان يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين : ياابا فلان . هكذا يخاطبون السلطان ابن سعود والامير ابن الرشيد وكل امير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل بن الحسين مؤخرا وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : ياأبا غازي . كما يعرف ذلك كل اهل الشام . فهذه هي الديموقراطية الصحيحة . وكانوا في العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب وهو يخطب : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » . وكان الاحنف يقول لمعاوية : « والله يامعاوية ان السيوف التي قاتلناك بها لهي في اغمادها » . وخطب ابو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال : أيها الناس اتقوا الله . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له : اذكرك الذي ذكرتنا به . فاجابه الخليفة : سمعا سمعا لمن ذكر بالله

نعم ان كان في الدنيا شرقها مع غربها قوم ديموقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لايزالون فرقاً وحزقاً ليس لهم امر جميع ولا ملك ضخم ، اجابه النعمان : ان الاعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها واما العرب فانها اعز نفوسا واحمى انوفا من ان تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الاصلية في تحاسد هذه الامة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض مما آل الى فقدها الملك العظيم الذي كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التي كانت آفة على سلطان العرب في كل مكان ، والسبب في وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الأندلس وغربي اوربا

يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار [١] في شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ : « قال بعضهم ان تركية لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة . انما ذلك وهم شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقة الى انشاء الحكومة النيابية وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل ثم أجل ، ان النظم الشرعية والمدنية التي كانت عليها تركية انما هي أفضل اس يشيد عليه الحكم النيابي . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج ومابرحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترئي بعضهم بعضاً في شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هي ديموقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد . وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها اذاً أن تمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعدها اغراقاً في التدلي من ادراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابي » . ثم بين العلامة ليبيار

ان العرب لم تجتمع كلمتها الا بدعوة دينية هي دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديموقراطية بما في الاسلام من سنن المساواة والاخاء والحرية . قال عمر بن الخطاب : لسنا في كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الاصفر قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا ، بل نحن في نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، واثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ

واما المشاورة فالى اليوم لا يعمل أمير من امراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملا الا برأي شيوخ القبيلة . وهو امر مشروع لا بل فرض اوجبه الله في كتابه قال تعالى : « وشاورهم في الامر » . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبي (ص) والخلفاء الراشدون يعملون كل شيء عام بالشورى . وقال ابو بكر الصديق (رض) في احدى خطبه : « ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر » . لذلك جميع الحكومات الاسلامية هي شورية ديموقراطية فطرة وخلقة والاستبداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة . (ش)

(١) *A. H. Lybyer* من مقال له سنة ١٩١٠

في موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام في مواقيت معلومة لمناقشة السلطان في شؤون الدولة ، وامداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلا حتى أنشيء في العهد الأخير مجلسان الأول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء [1] ، زد على هذا فقد أنشيء مجلس نواب مرتين الأولى في سنة ١٨٧٧ والأخرى في ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا اذ قضى عليهما الاستبداد الحميدي ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانوني والمراس الشرعي على نظام الدستور والحكم النيابي . وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب الا يعتبر اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثاً مما لم يسبق له مثيل في بلاد اسلامية بل يجب اعتباره من النظام الاسلامي المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن الى نطاق واسع ومجال أرحب »

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شوسطر الأميركي ليقوم بتنظيم الشؤون المالية في بلادها فلم يطل مقامه في فارس الى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الاداري الكبير مبيناً استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسي لانشاء النظام الدستوري وهو متفائل في ذلك كل التفاؤل :

« اني اعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيباً لامة مثل

---

(١) كنا مرة نطوف في قصر طوب قبو (مقر السلاطين في الاستانه قبل بناء طولمه بغجه ويلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراؤه كل يوم للنظر في أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم في هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كاحدهم . فدخل مرة زعيم قادم من الاناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكارمز كيمدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان دكة مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لا تزال الى الآن . (ش)

ما يحوى من ذلك للامة الفارسية التي انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة الى دور الحكم الدستوري النيابي ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاماً يدل على أن أمة ذات مقام عال في الحكمة السياسية وفي معرفة أصول الاشتراع الى حد يكاد لا يصدق [١] أما أعضاء المجلس النيابي الاول فقد شرعوا منذ يوم أنشيء المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً في تثبيت دعائمه ورفع بنيانه وجعله في حرز حريز من طواريء الاستبداد . . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع ما يسنونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء .

« وأما المجلس الثاني وهو الأخير الذي اعرف اعضاءه معرفة شخصية صحيحة ، فما كان على كل حال ليعد في رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الاميركي • ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، في بلاد استطالت رقدتها اجيالا ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدبير أمورها على نمط تضاهي به الحكومات التي انقضى على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقاً • لا ينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج الى كثير من المعارف الاكتناهية في كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة ، بيد ان الأمر الذي يقف عنده الحكم المنصف معتبراً هو أن هذا المجلس النيابي الفارسي يمثل حقاً رأى الأمة الفارسية ، وبه نوطة جميع أمانيها ومبتغياتها التي تصبو اليها • أما أعضاؤه من حيث ما هم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوي العقل الثاقب والخلق الكريم والرأي السديد والشجاعة الحقة • يحنون أضلاعهم على قلوب تتضرم اخلاصاً ووطنية ، يبحثون بجد وعزم في كل مقترح وطني وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص في الخبرة الكافية لتدبير الشؤون المالية

(١) ومن في الدنيا ينكر مزايا الامة الفارسية واستعدادها للرقي ، وهي الامة المتمدنة منذ آلاف من السنين التي اوتيت في العلم والصناعة مواهب قلما وهبها الله امة من الامم (ش)

واذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخلص ، يمحضونهم الود ويحلونهم موضع ثقتهم ومحققي آمالهم ويفوضون اليهم أمور التنظيم ، هذا اذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقاً مقاومة المكايد السياسية والرشوة ومبادلة الأمة الفارسية الود والاخلاص ، والصدق في الأقوال والأعمال

« وليس من العدل ولا الانصاف في شيء ان يقال ان المجلس النيابي الفارسي قاصر عن المجاراة الحقة في ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الازر وامته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يبتغي جواز نطاقها بغير حق ، واعضاؤه أبداً على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة في سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها واعلاء شأنها .

« اما الأمة الفارسية فليست على مستوى نتداوله صفة عامة : فالسواد الاعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وانما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة في الممالك الراقية فيعدون بالمئات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والاخذ عن الحضارة الاوروبية . وهم هم الذين قاموا بدك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديموقراطية خفاقاً ، بعد ان ذللوا الصعب وركبوا الهول . وعلى ايدي الحكومة التي انشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضي على المحاباة ، وغدت ابواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفي من أهل البلاد . وبرهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائز على استعداد منقطع النظير لارتشاف العلوم والترقي خلال السنوات الخمس الأخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وانشئت الصحف الحرة فانبرى حذق الكتاب شارعين اقلامهم يهدون الأمة خير هداية ، ويكافحون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر في الامة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشي على مستحدث

الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والادبية وفوق جميع هذا فقد اشتملت الأمة باسرها بتلك الروح الاسيوية التي ألهبت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة الى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعاً في انشاء الجمهورية الصينية »

ثم انهى المستر شسطر كلامه قائلا : « قد صاح الكاتب الاشهر (رديارد كپلنغ) ناصحاً مراراً ان الشرق لن يطيق بعد المناخس معملة في جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوماً مقاومة رجمية عظيمة . ولكن باستطاعة رجال الغرب ، اذا تذرعوا بالفضائل الغربية وغايات الحضارة الاوروبية الصحيحة ان يستسرعوا الشرق في سبيل التقدم والارتقاء على شريطة ان يوقن الشرقيون ان ذلك هو لخيرهم ومصلحتهم . على ان الحق الذي لايمارى فيه ان روح التضامن الادبي والعزة القومية والعصبية الجنسية جميع ذلك قد غدا شديداً في الشرق شدته في الغرب ، فبات الشرقيون بسبب ذلك صعاب المقادة اقوياء الشكيمة وهم هكذا مادامت اوروبة سائقة لهم في سبيل واحد غايته ابتزازهم لملء بطنها وتسخيرهم لري كبدها [1] »

حقاً ، يعتقد كثير من الاحرار الغربيين ان التسلط الاوروبي ليس من شأنه ان يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتي والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيراً وكافياً مهما كان [2] بل تعتقد طائفة هؤلاء الاحرار ان الطريقة الوحيدة المثلى التي أهل الشرق أحرى بتعليمها والتدرب عليها ، هي ان تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرّج ذاتها

(١) shuster كتابه : « خنق العجم » *The Strangling of Persia*

(٢) جميع المسيطرين الاوربيين في الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادي والاستثمار الدنيوي وان يجتزئوا من التعليم بتدريس لغاتهم فقط دون الفنون التي فيها . وان ما جاهدته مصر في أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف وتكثير المدارس يعلمه الخاص والعام ، ومع هذا فكان المحتلون يقيمون في وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . اما في الجزائر فابقاء الاهلين في الجهل وحرمان اطفالهم من الكتاتيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك . (ش)

بذاتها عليه ، وقد اجاد « ليونل كرتس[1] » الكاتب الانكليزي الذائع الصيت ايما اجادة في جلاء هذا القول وتصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهذيب ، والثمرات والخيرات ، التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الامر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطراً كبيراً وبلية ايجابية ، ما لم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً . ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية الا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لا في حيز النظر والتصور والخيال.

« قد يقول بعضهم اني لجوج في طلبي الذي بينت فيه انه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلا صحيحاً لا غش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية الى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد ان يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطلب منهم هذا بحق . ثم يجب عليهم ان يسدوا كل حسنة الى هذه الحكومة الفتية وان يعطفوا عليها عطف الام الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا عطف الظئر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ما أريد حقاً تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي وجب ان تكون حرة من كل جانب لا مطلقة من ناحية ومصفدة بالاغلال من ناحية أخرى . فان لم يكن هذا ، فليس من سبيل اذاً لهذه الحكومة الفتية لان تشعر حق الشعور بانها مسؤولة لدى الشعب الذي هو من ورائها حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال ان يعلم ويوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه .

(١) كتابه : « رسائل الى اهل الهند في شأن الحكومة النيابية » (لندن ١٩١٨)
Lionel Curtis, " Letters to the People of India on Responsible Government ,,

نعم ان السبيل شاقة ولـكن الشعب الذي يبتغي بملء ارادته حكماً ذاتياً لا يتسنى له الوصول الى غرضه السامي وغايته الـكبيرة الا في الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التي تشق عندها الانفس وتركب الاهوال وربما الى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا ان يذوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطاب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملـكة السيادة على نفسه.

« اني لا نخر نخراً كبيراً بما جلبته بريطانية العظمى الى الهند من الخير والنفع ، من انشاء النظام وتثبيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بان الحـكومة المنتظمة ما أعظم شأنها واخطر مكانتها في عمران البلاد • غير أني على كل هذا لا اعتقد ان النظام الذي انشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد ، دون ان ينقاب الى مجلبة الضرر على اخلاق الشـعب كما كان مجابة الخير من قبل • يجب علينا وقد حان لنا ان نشرع في تأدية هذه الامانة الـكبرى الى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص •

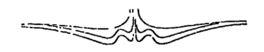
« يجب أن يكثر سواد الهنود في دواوين الحـكومة من حيث يجب علينا أن نقوي ساعدهم ونزيد حولهم ونعلي من منزلتهم • وذلك لا يتم الا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التي تنقل الى نطاقهم نقلا مزداداً • لأن مران الشعب على الحـكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبـة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوساً على المقاعد.

لا وصـول الى الغاية التي بينها حديثاً وزير الهند [1] الا بركوب المشقة ومعاناة الصعب في سبيل وعرة ، الأمر الذي يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول الى هذا الدور الحالي من مهمتنا في الهنـد ، بعد العناء الـكبير ، والانتهاء الى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الالتئام مع ما

(١) اشارة الى الغاية المبينة في تقرير مونتاغو ـ شلمز فورد من منح الحـكم الذاتي

هو معروف لنا من التقاليد . وان ما بقي أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان في ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا » .

ان كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية . ان الحرب العامة قد الهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديداً ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال فغدا مقبض أوروبة على الشرق مسترخياً استرخاء متوالياً يدل على قرب الزوال . وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً ام شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لامردّ له ولامدفع ، مما يدل على انه لن ينقضي منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية في الشرقين الادنى والاوسط متمتعاً بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه . اما التساؤل أتسيء هذه الشعوب التي ستصبح حرةً ، اغتنام الفرصة ، فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى ، أو تفلح حقاً عالية الجبين في انشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء ، ذلك أمر سيكشفه المستقبل . واذ قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق التطور السياسي ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقة في مجراها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمر في هذا الدور دور التحول . وننتقل للكلام على العصبية الجنسية .



الفصل الخامس

في

العصبيّة الجنسيّة

العصبية الجنسية أعظم مظهر من مظاهر المجتمع البشري في هذا العصر ولا مراء في ذلك . نشأت في أوروبة أول منشأها خلال القرن التاسع عشر ، ولما اشتد دبيب فعلها في العروق ، وبلغت أعظم مبلغ من التأثير في الامزجة ، لم تلبث ان غدت عامل التغيير والتبديل والانقلاب في القارة الاوروبية ، حتى بات القرن الحالي يعرف على الغالب بعصر القوميات أو العصبيات الجنسية . غير ان العصبية الجنسية ليست بالظاهرة الاجتماعيـة التي نشأت في الأفق الاوروبي ولزمت حدود هذا الافق لا تجوزها ولا تتعداها ، بل انها التيار العجيب الذي بدأ في أوروبة ثم أخذ ينتشر في الارض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة في الشرق والغرب ، وما زال على جدّ في مسراه ومتغلغله في الشعوب والأمم ، يفتح طريق الانقلابات الكبرى ويمّهد سبيل التطورات العظمى في هذا المجتمع الانساني .

واذا غدت العصبية الجنسية على ما هي عليـه من بعد الخطورة وعظم الشأن ، وأصبح عاملها أكبر عامل في تطور الأمم ومسيرها ومصيرها ، كان لابدّ للباحث ان يسأل ، ما هي العصبية الجنسية ؟ سؤال لم يبرح مبحثاً واسع المجال لأهل العلم والاستقصاء ، فتعددت في ذلك آراؤهم ، وتنوعت اقوالهم ، واختلفت مذاهبهم . فحددت طائفة منهم العصبية باللغـة ، وطائفة أخرى بالتهذيب متناولا الطباع والسجايا ، وغيرها بالجنس والعرق ، وغيرها بالوحدة السياسية ، وغيرها بالاقليم الجغرافي ، وغيرها بالوحدة الاقتصادية ، وغيرها بالدين . فجميع هذه التحديدات على اختلافها ، وربما ينطوي تحتها غير ذلك ، يمكن اعتبارها على الجملة عوامل ممهدة ، واسباباً وتحليلاً تُعد بفعلها وتأثيرها

ما تعد ، مفضية الى خروج العصبية من عالم القوة الى عالم الفعل ، ولـكن من رام اكتناه سر هـذه العصبية رآها تبدو في أفق أعلى وأسمى ، أفق تتجلى فيه صورتها مزاجاً معنوياً جامعاً لمفعول جميع العناصر التي تتكون منها تلك العصبية . فالعصبية الجنسية ليس في شأنها غامض لايستبان او سر لا يدرك ، وذلك على مختلف المذاهب التي ذهبها أهل العلم في تحديدها وتبيين ماهيتها ، فهي بحقيقة معناها حالة وجدانية عقلية ؛ انما هي معتقد مشترك عند عدد كبير من الناس يعقدون عليه قلوبهم وضمائرهم انهم يؤلفون « جنسية » متمايزة عن سواها ؛ انما هي شعور بكيانهم أمةً متضامنة متماسكة [1] وهذه الامة ، باعتبار ما هو قائم من معناها بفكر ابنائها ، ومتصور من شخصها بعين العقل والذهن لديهم ، هي شعب افراده مشتركون مجتمعاً ومنظمون حالا في ظل حكومة واحدة ، ويسكنون معاً بلاداً معينة . ومتى ما أدركنا ماهية العصبية ومرماها وغايتها ، وتقرر ذلك جلياً ، حصل ما هو معروف عنـد أهل العلم « بالجسم السـياسي » أعني به الدولة . غير انه لايندنّ عن البال بتة ان هذه « الدولة » ان هي الا المظهر المادي الذي تجسمت فيـه غاية سامية ومنزع شريف ليسا بحديثي النشأة بل هما على الغالب ذلك المطمح القومي الذي ما انفكت نفوس القوم تشره اليه حقباً وعصوراً متطاولة ، وهو اذ ذاك في عالم القوة مجرداً عن شرطه المحسوس وصفة المادة كالعرش والسلطان والحدود الجغرافية . وأيضاً لايندن عن البال أمر آخر ، وهو ان الدولة ليس من شرطها ان تكون أمة . وشاهدنا على ذلك امبراطورية « أوسترية هنغارية »

---

(١) الفيلسوف رنان يقول ان الامم لاتجتمع باللغة لأنه طالما اتحدت امم باللغة ولم تشأ ان تجتمع في الحكومة . ولا بالدين لأن امماً كثيرة متحدة في الدين هي مختلفة في السياسة . ولا بالجغرافية لأنه قد توجب مواقع البلادوحدة اقوام تراهم متفرقين دولاً متعددة . ولا بالمرافق لأنها ليست جامعة في كثير من الاحيان . ولا بالجنس لأنه كم من امة مركبة من عدة اصول تجدها متحدة واخرى اصلها واحد من جهة الدم تجدها متجزئة . انما الرابطة الوحيدة بين الناس هي ارادتهم ان يتحدوا . (ش)

الهبسبرغية ، التي كانت مجموعاً من الجنسيات المتنافرة الاجزاء المتضاربة المنازع ، فلما فتقت ريح الحرب العامة مزقت من هذه الجنسيات مجموعها شر ممزق ، وفككت جملة اوصالها ، وقوضت بنيانها ، ونثرت حلقاتها .

على ان الحرب العامة كانت درساً بليغاً كشف عن كثير من الحقائق في ماهية ظواهر العصبيات الجنسية في هذا العصر ، ولاسيما العصبيات الاوروبية ، الأمر الذي نقض كثيراً من فاسد المذهب وباطل القول مما شاع من قبل في تحديد طبائع العصبية . ولنا مثال على هذا سويسرة البلاد التي يدحض اعتبار شأنها تلك المذاهب والاقوال المختلفة ، في جعل نصاب العصبية الدين أو التهذيب أو الاقليم الجغرافي وغير ذلك ، اذ قد هاجت روح العصبية الجنسية في سويسرة هياجاً شديداً رائعاً بسبب الحرب العامة ومحنها واهوالها .

هذه حقائق جلية شائعة ، تعلمها الخاصة ولا تجهلها العامة ، مما لسنا بحاجة الى تقريره واقامة الادلة عليه . غير ان هناك أمراً جوهرياً حرياً بالتقرير والتبيين ألا وهو : الفرق بين العصبية وبين الجنس أو العرق . اذ من اسباب الاشكال وعلل الالتباس ان قد استعملت هاتان الكلمتان في غير مواضعها بلا تدبر ولا احكام ، بل ربما استعملت الاولى في موضع الأخرى مع اعتبار العكس ، فغدا معناهما على جانب من الاشتباه والاستبهام عند ما يراد التعبير عنها في جاري العادة ومطلق البيان . وفي الحقيقـة والواقع ان كل كلمة منهما لتدل على معنى بعينه لا تدل عليه الاخرى . فالعصبية انما هي مزاج معنوي ، وشعور وجداني نفساني « پسيكولوجي » ؛ والجنس انما هو شيء جسماني كائن محسوس « فسيولوجي » ، يحدده العلم تحديداً محكماً ، ويعرفه تعريفاً صحيحاً ، ويفرق بين انواعـه واجناسه وصفاته ، كما هو الأمر في شكل الجمجمة وتركيبها ، وتكون الشعر ، ولون العينين والبشرة وغير ذلك . ذلك بعبارة أخرى ، فالجنس انما هو الشـعب أو الأمة المقرر الأصل والحقيقة تقريراً علمياً انثروبولوجياً ، والعصبية هي ما تعتقده ذلك الشعب أو الأمة

في شأن حقيقة أصله ومتسلسل تحدره اعتقاداً سياسياً .

وفي هذا الموضع من الاعتبار يبدو لنا تناقض بالغ منتهى الغرابة بلا ريب . فما لا يحتمل الجدال انه عند اعتبار شأن الجنس والعصبية ، فالأول هو ما ينبغي عدّه الأساس المعوّل عليه والذي يصح الركون اليه ؛ لأنه الا بعد عرقاً واصلاً ، والاشد شأناً وخطورة على كل حال وطور . اذ ليس بمستور بعدُ ان ما يكون في الانسان من الاستعداد النفساني الفطري انما هو ما يتحدر اليه بالوراثة من آبائه وأجداده ، وينتقل اليه من متواصل الأرحام وتسلسل الانساب ، ولا مذكور أمر للبيئة مهما كانت فواعلها شديدة ؛ فالانسان هو ابن الوراثة ، ذلك الواقع لامراءَ فيه ؛ لا ابن البيئة ولا ابن الوسط الذي ينشأ فيه . غيران الناس قلما يعتبرون شأن الجنس حق الاعتبار وقليل ما يقيمون له من الوزن الصحيح ، بل تراهم على الضد من هذا يقومون ويقعدون للعصبية الجنسية الهائجة منها نفوسهم حتى أعماقها . والسبب الاكبر في هذا ـ على ماهو ظاهر ـ هو ظهور علم الاجناس البشرية حديثاً ، بعد استسراره عهداً طويلاً حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، العهد الذي منذ تاريخه شرع اقطاب العلم يوقنون بماهية حقيقة الجنس وخطورة شأنه وأصله ومبلغ ماله في الواقع من بالغ التأثير في حال المزاج . زد على هذا ان الحقائق التي يكشف عنها العلم ، ويثبت دعامتها ، يقتضي لها مدة من الزمن ليست بالقليلة لتندرج في مستقر موسوعات علم الكافة ، وتلابس أفق الجمهور والعوامّ من الناس . وما من سبيل لارتسام هذه الحقائق في اجرياء الأفراد وطبائعهم ، مؤثرةً في مناهج سلوكهم وتعاملهم ، الاّ بعد ان ينقضي على تقريرها العلميّ ردح طويل من الدهر . واعتبر فوق هذا ان عقيدة العصبية ، وهي أقدم عهداً وأبعد منشأ وأصلاً ، قد تغلغلت في آفاق الانفس من الناس كافة ، وانتقشت في اذهانهم ، ودارجت طباعهم ، ولابست حالات أمزجتهم ، حتى غدت مرئية الآثار المحسوسة في جميع

ما يأتونه من الأعمال والحركات . فلذلك ما برحت حياتنا السياسية على الجملة اليوم خاضعة خانعة لعوامل العصبية الجنسية لا لحقيقة الدم والجنس ، وأيضاً ما انفكت السياسة العملية الواقعة مسيرة تسيرها المشهود هـذا بعوامل العصبية ، أعني ليس بعامل العلم بحقيقة الاصل . بل بعامل ما يعتقده القوم من حقيقة أصلهم اعتقاداً سياسياً لا أكثر .

انما لنا عبرة في الحرب العامة ، الحرب التى عرفت على الغالب « بحرب الاجناس » ، الامر الذي كان يزيد حقاً في انبعاث الأقران لقتال الاقران ، وهول المجزرة وانتثار الاشلاء في المعمعان الاكبر. ومع هذاكله فان الحرب لم تكن في الحقيقة و الواقع مقصورة على شيء من معنى حرب الاجناس فحسب ، بل على شيء اكثر من ذلك . فقد أجمع أئمة البحث في علم اصول الاجناس البشرية على ان أوروبة انما يسكنها اليوم ، ما خلا بعض الاقوام المتخلفة من العصر الحجري القديم وبعض بقايا المجتاحين الاسيويين في زمن التاريخ ، ثلاثة عروق : (١) العرق الشمالي الأصهب اللون المستطيل الرأس . (٢) العرق الجنوبي المدوّر الرأس . (٣) العرق المتوسط المفلطح الرأس أسمر اللون أوحنطيه . غير انه قد انتشرت هـذه العروق وتفرقت ، واختلط بعضها ببعض اختلاطاً رحمياً ، فتوشجت متحدرات الأنسال جيلاً بعد جيل ، بحيث غدت كل أمة من هذه الأمم الأوروبية اليوم مؤلفة على الأقل من عرقين من هذه العروق الثلاثة ، فضلاً عن ان كثيراً من هذه الأمم أيضاً مؤلف من العروق الثلاثة معاً ، جامع لها في جيل واحد . فبهذا الاعتبار لم تكن الحرب العامة في أوروبة ، عند احكام القول وتحرّيه ، حرب اجناس كما قال القائلون فحسبُ ، بل حرباً أهلية بين عيال وأسر ذات قربى واشجة وصلات رحمية مشتبكة .

وقد عرف كثير من الأوروبيين أهل العلم الصحيح هذه الحقيقةَ حق المعرفة وأيقنوا بها وانتحلوا عقيدتها قبل سنة ١٩١٤ بعهد طويل . بيد ان

ذلك لم يكن له شيء من التأثير في تدارك الجائحة الكبرى ودرئها، أو على الأقل في التخفيف من هولها بعد وقوعها. والسبب في ذلك ان الكثرة الساحقة والسواد الاعظم من أهل أوروبة ما برحوا يعتقدون انهم انما متسلسلو العروق من أجناس مختلفة وأصول صحيحة الأرومة، سليمة من الاختلاط. فهذا الجنس يقول بانه متحدر من أصل «توتوني»، وذاك من أصل «لاتيني»، وآخر من أصل «سلافي»، وآخر من أصل «انغلوسكسوني». والحقيقة ان هذه الاصول المعروفة بهذه الاسماء ليست بكائنة كيانا صحيحا كما يزعم الزعمة الأوروبيون، لاختلاط انسابها اختلاطاً ذهب بسلامة العرق وصحة أصله، وما هذه الفوارق الظاهرة سوى اختلافات تاريخية ناشئة عن اختلاف اللغات والتهذيب فقط. ولكن من لنا بمؤمن بهذه الحقيقة ايماناً صحيحاً. فالأوروبي يمكنه ان يدرك هذه الحقيقة المقررة ادراكا عقلياً نظرياً، ولكنه مادام لا يتعدى بذلك حدود هذا الحيز الوهمي التصوري، الى الحيز الفعلي العملي، فليس اذاً لادراكه هذه الحقيقة شيء من عامل التأثير المحسوس في نفسه. وهو لذلك ما برح يعتقد من صميم قلبه انه يتحدر من أصل «لاتيني» أو «توتوني» أو «انغلوسكسوني» أو «سلافي»؛ بحيث انك اذا استفززته بداعي دمه الجنسي، الدم الجاري في عروقه والمتحدر اليه من اصلاب أجداده الأولين، واسلافه الاقدمين، لم يبد لك سوى الزراية والمهزأة؛ وليس هو كذلك اذا استفززته بداعي عقيدة عصبيته فانه ليقتحم الموت اقتحاما مستعذباً ورد الردى. وأيضاً فانك اذا استفززته بداعي نصرة بني أصله الشماليين ذوي الرؤوس المستطيلة، أو الجنوبيين ذوي الرؤوس المنلطحة، فلا تهيجه من ذلك هيعة ولا ينفر له صيد. ولكن الامر يكون على الضد من هذا اذا استنصرته للذياد عن حمى «التوتونية» أو «السلافية» فانه يهتاج ويثور ويشتعل ويهرق دم مهجته مستبسلا. وصفوة القول، ان الشعوب والامم اليوم هي عصبية لعوامل حقيقة أصلها وماهيته،

من حيث هي طيعة لعوامل ما تعتقد من حقيقة ذلك الأصل وماهيته اعتقاداً.

قد يستغرب القارىء بداهة أن أوروبة اليوم تسودها عقيدة الجنس النظرية، وتقتادها اقتياد الراعي للسائمة، من حيث أن لا شأن مقيداً ما كان لعقيدة الأصل وحقيقته المقررة بالعلم الصحيح وللأرومة الجنسية الثابتة بالدم المتحدر من أصلاب الأسلاف الأولين. انما في ذلك أسباب جمة وجيهة فان عقيدة الجنس النظرية لم يقصر أمرها على كونها بحد ذاتها أكبر عامل في تطور أوروبة الحديث فحسب، بل قد طغى سيلها وطبق تيارها الأعمى حتى جرف في سبيله تلك العقيدة الوليدة التي كشف عنها العلم حديثاً أعني حقيقة أصول الأجناس، وكاد يخنقها خنقاً قاضياً. واعتبر أيضاً أن عقيدة الجنس النظرية قد ظلت حتى عهد قريب عقيدة مستقلة واسعة المضطرب رحبة الحيز، تدل غالباً على متقارب الوحدة في التهذيب والثقافة واللغة والماضي التاريخي. وقد كان ذلك بجملته نتيجة منطقية ناشئة عن ضيق وقصر في مرمى المدارك الأوروبية وأفهام أهل النظر. ولا بدع فان منشأ هذه العقيدة الجنسية النظرية يمتد الى حقب بعيدة المهد، حقب الأجيال الوسطى، حيث كانت الحدود الجغرافية والاقطاعية والاختلافات في اللهجات اللغوية تعتبر من أسباب التمييز بين أمة وأمة ودواعي الفرق بين شعب وشعب. ومابرحت هذه العقيدة الجنسية حية نامية حتى منتصف القرن التاسع عشر، فاذ ذاك تطورت حالها، واتسع مضطربها، وامتد أفقها، حتى طما على القارة الاوروبية لا بل العالم بأسره. فباتت وقد انتقلت من دور الى دور، أبعد مرمى وأوسع مدى ومجالاً، يقصد بها تماسك الأقوام التي يجمع بعضها مع بعض أواصر القربى اللغوية، وصلات التهذيب والتقاليد التاريخية، ولوكانت هذه الاقوام على شقة بعيدة ما بين الطرفين ماكانت. فاقتضى الأمر عندئذ أن يختار تعبير يؤدي المعنى ويدل دلالة كافية على متألب العروق المتحدرة من أصل واحد، المتماسكة بعصبية جنسية شاملة، فقيل « الجامعة الجرمانية » و « الجامعة السلافية »، و « الجامعة الانكليزية » و « الجامعة اللاتينية »

وغير ذلك من الجامعات الجنسية المتعددة . على أنه من المعلوم المقرر ، كما قدمنا ذلك ، ان هذه الجامعات ليست بجامعات جنسية صحيحة باعتبار انها ترجع الى أصل صحيح الارومة ، خالص من الاختلاطات ، وبريء من شوائب الالتحامات النسبية ، اذ ما هي في الواقع سوى عصبيات قومية عنصرية ، متطورة ظاهرة مظهراً عصرياً . ولكن ما دامت أمم أوروبة وشعوبها مشتعلة بنار هذه العصبية فانى لها أن تعرف كون هذه الجامعات ليست هي الجامعات الجنسية الخالصة التي لا ريب فيها . فلذلك ترى السياسة العملية قد أصبحت فى هذا الدور الجديد للعصبية ، مغشاة الظاهر باغشية جامعات يخالها أربابها أنها مشتملة على عروق سليمة التحدر من الأورمة على حين أن هذا ليس بالصحيح ، ولن تزال هذه السياسة جارية هذا المجرى ماقيض للعصبية البقاء .

وهذا الدور الجديد للعصبية الجنسية (دور تألب عروق الجنس) كان أفقه في بدء التطور شاملاً للبلاد الاوروبية المعدودة انها المواطن القديمة للحضارة ، ثم ما لبث أن أخذ أفق هذا المضطرب يمتد ويتسع بانتشار الأفكار والآراء والروح الغربية ، حتى غدا بالغاً أقصى الأقطار الأرضية مشرقاً ومغرباً . فلما وصل الى البلقان مثلا تولدت في هذه الاقطار للحال الدعوات النزّاعة العرق الى الأصل ، الراقية الى التألب العنصري والاستمساك بعصبية الجنس ، فنشأت الجامعة الاغريقية أو اليونانية ، والجامعة السربية وغيرها . فغدت البلاد البلقانية قاطبة من بعد ذلك مربدة الجواء بقاتم السحب لا يسمع فيها سوى قاصفات الرعود ، ولشدّ ما انقلبت بعد ذلك معمعاناً رائعاً ومثاراً هائلا .

ونحو منتهى القرن التاسع عشر جازت العصبية الجنسية حدود أوروبة وبلغت الأقطار الاسيوية ، وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً ، فنشأت حركة « تركية الفتاة » و « مصر الفتاة » وحركات وطنية أخرى في أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزائر وايران والهند ، وجميع هذه النهضات

الوطنية العنيفة انما كانت ادلة صادقة بينة على أن آسية قد اختمرت شديد الاختمار بعوامل التنبه القومي والعصبية الجنسية . وما كاد يطلع القرن العشرون حتى أبدت صادقات الأدلة وواقعات الحال أن العصبية الجنسية في آسية كما في البلقان من قبل ذلك ، قد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثاني أعني دور عصبية التئام العروق وتألبها الجنسي ، فنشأت جامعات جنسية عديدة «كالجامعة الطورانية» و « الجامعة العربية » وأخرى غاية في الخطورة هي « جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية » التي ترمي الى وحدة المعمور الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وانضوائه تحت لواء اسلامي عام .

— ١ —

ونشرع الآن في الكلام على كيفية نشوء العصبيات الجنسية وقيام النهضات القومية في الشرقين الأدنى والأوسط ، متتبعين ماقد اجتازته هذه العصبيات من مختلف الحالات والأدوار ، وجاعلين البيان في هذا الفصل الذي أمامنا متناولا شأن كل عصبية في رقاع العالم الاسلامي رقعة رقعة ، ماعدا الهند ، اذ أننا قد أفردنا للعصبية الهندية فصلا مستقلا بذاته . والسبب في هذا الافراد هو أن رجال العصبية في الهند غالبهم من غير المسلمين ، أضف الى هذا أن النهضة الوطنية في تلك البلاد لمشتملة على عناصر وفواعل وصفات لم تشتمل على مثلها عصبية في قطر آخر من الأقطار الاسلامية .

كان العالم الاسلامي ــ قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصراني الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر ــ هاجعاً هجعته التي قد تقدم الكلام عليها ، بعيداً من التنبه القومي وثورة العصبية الجنسية وكان غالبه منقسما الى امارات متناثرة ولكن قوية المراس شديدة الشكيمة . وان ما كان في نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية انما كان متجهاً نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التي كان عليها سلاطين الترك العثمانيين . غير انه كانت مظاهر العزة

القومية ، ومبادىء الشمم والاباء جلية في غالب العناصر كالأمة العربية ، «أمة الرسالة» اذ في العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان في الظهور وقوة في الانفعال والنمو ، ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيما كافلا لائتلاف المزاج الذى تغدو به العصبية عاملة فعالة . أما الشعب الاسلامي الفذ الذى كان حقاً يتمشى في عروقه ما ينبغي لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة فهو الشعب الفارسي حبيب بلاده وعاشق موطنه القديم . وأما سائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شيء من مبادىء الشعور الوطني واليقظة الجنسية ، والروح النزاعة الى الوحدة والتضامن، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة .

على ان في الامر اعتباراً آخر . ان الاسلام قد نهى في مواضع عديدة عن العصبية [1]، فلما انتهت الشعوب الاسلامية الى هذا العصر عصر العصبية

---

(١) ان الشريعة الاسلامية تعرف للعرب امة الرسول (ص) خصوصيات وفضائل ولكن هذا لايخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية التامة بين جميع الامم ، العربي منهم والعجمي ، والاحمر والاسود . وترى صورة الاسلام كلها في هذه الآية « يأأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله اتقاكم » يقول تعالى انه خلق البشر كلهم من اب وام وما جعلهم شعوباً وقبائل لتمييز بعضهم على بعض كلا بل ليعرف كل من أى قبيل هو، اما المزية فهى للتقوى فقط . وبهذه الآية انتشر الاسلام ، وفتح العرب تحت ظل رايته الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور ، ودخلت الامم في الاسلام ، ولا تزال تدخل فيه الى يومنا هذا . وقد جاءت الاحاديث النبوية مؤيدة للآية الكريمة فنها « ليس منا من دعا الى عصبية » ومنها « ليس لعربي فضل على عجمي ولا لعجمي فضل على عربي الا بالتقوى » . ومنها قوله (ص) « سلمان منا آل البيت » وذلك انه عد سلمان الفارسي نظراً لتقواه من آل البيت النبوي اكرم البيوت . ومنها قوله (ص) لفاطمة ابنته : « اعملي يافاطمة فلن أغني عنك شيئاً يوم القيامة » . اوكما قال . وهذا في معنى قوله تعالى « لاانساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وهناك حديث شريف أطلعنا على اسانيده حضرة الامام الكبير بقية السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسنى المغربى نزيل دمشق وهو قوله (ص) : « الا ان بعض اهل بيتى يرون انفسهم اولى الناس بي وليس الامر كذلك انما أوليائي المتقون من كانوا وحيث كانوا . الا اني لاأحل لاهل بيتي ان يفسدوا ما اصلحت » أوكما قال . وليس في هذه الآيات والآثار ما يتصادم مع شيء من الاحاديث الصحاح الواردة في فضل العرب ، ووجوب حب العرب ، وكون كلام الله القديم جاء باللسان العربي المبين . كما انه وردت احاديث اخرى

الجنسية ، بات الفرض الذي يفرضه الاسلام على المؤمنين ان يكونوا اخوةً متضامنين متساوين لا فرق بين عربهم وعجميهم ، واضحت الغاية السياسية

في فضل غير العرب مثل « لو علق العلم بالثريا لنالته رجال من فارس »

ولا يكون الدين الهيا سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الامم المختلفة ، احمرها واسودها ، وادناها وابعدها ، الا اذا كان مؤسسا على مثل هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة . وليس التضامن الاسلامي الذى حار في امر قوته نطس الاطباء الاجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الاوربيين ، الا نتيجة قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » وقد ظهرت في هذه الايام الاخيرة فرق من الامم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لا يريدون ان يعرفوا هذا الاصل العظيم ولا ان يقيموا له وزناً ، بل زعموا انه هو الذي كان منشأ ضرر هذه الامم . فالذين هم من العرب يعلنون انه لولا اخوة العرب مع الترك بالاسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه الاخوة الاسلامية التي فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها في الذب عن القضية الاسلامية ، بل كانت حصرتها في الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون مالنا وللعرب والترك ، كل من الامتين عدوة لنا فلولا الاسلام لم يكن لنا بهما ادنى رابطة ، فيجب ان نعود فرساً كما كنا . والجواب على الفئة الاولى ، أنه لولا تلك الاخوة الشرعية ماامكن العرب ان يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة في صدر الاسلام ، ولا دانت بدينهم الامم ، ولا اتخذت كتابهم دستورها ، ولا نبيهم نبيها . فان كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفقدوه الا بتنازعهم وتنافسهم والفتن المستمرة بينهم مما مثاله امام عيننا الآن ، فلا يلوموا بذلك الا انفسهم ، ولعل الاخوة الشرعية التي يشكون ضررها قد لطفت الضرر الذى أصابهم من اثر السقوط ، بحيث ان الامة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى عليهم بسبب جامعة الاسلام . فلما اديل منها بدول غير اسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الاسلامية والدول الاجنبية التي خلفتها في الحكم على العرب . والجواب على الفئة الثانية ان الاواصر الاسلامية لم تضر الترك في شيء بل اعطتهم ملكا طويلا عريضا ، وجاها كباراً لبثوا يستطيلون به على الامم مدة قرون واحقاب ، من ايام الاتابك والطولونيين الى السلاجقة الى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الاسلامية ، أي على الرئاسة العليا على ثلاثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها . وكانت الدولة العثمانية قد طوت جناحيها على جميع البلدان الواقعة بين تلمسان غرباً ، وايران شرقاً ، والصومال جنوبا ، والقريم شمالا ، فانضوى تحت هلالها نحو ١٢٠ مليون نسمة من عرب ، وبربر ، ونوبة ، وحبش ، وكرد ، وطاغستانيين ، ولاز ، وارناؤط ، هذا عدا الامم المسيحية كالروم ، والارمن ، والبلغار ، والصرب ، والمجار ، والفلاخ ، والبغدان ، والخراوت ؛ فانت ترى ان الترك اصبحوا بعد هذا بالنسبة الى المجموع جزءاً يسيراً في المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الاجزاء لولا الوحدة الاسلامية التي جمعت بينه وبين العرب والاكراد والجراكسة والارناؤط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة . ولولا كونه قائما بحياطة الدين الاسلامي تلك الحياطة التي هي عنوان الدولة العثمانية . وليس بصحيح

المقصودة في الاسلام من وحدة « الامامة » الكبرى ، أو الشورى الشرعية العامة ، أمراً مقاوماً بطبيعة الدور والزمن بسبب انشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة في الملة الاسلامية ، كما كانت الحال في مبدإ عصر النهضة

مايذهب اليه بعض الطورانيين من كون الترك لم يحتاجوا لعصبية الاسلام في فتوحاتهم هـذه ، بل كانوا قادرين ان يقوموا بها سواء كانوا مسلمين ام لم يكونوا . وكذلك ليس بصحيح ان فتوحات السلطان سليم انما اتسقت بحد السيف وحده ، و ان الدولة العثمانية لبثت هي الدولة الحاكمة في بلاد العرب بآسية وافريقية بحدالسيف ايضا . بل لم تتسق تلك الفتوحات للسلجوقيين ولا للعثمانيين الا بقوة الرابطة الاسلامية ، واتخاذهم الدفاع عن حوض هذه الملة شعاراً لهم . اما استشهادهم بفتوحات جنكيز وهولاكو وكونها طبقت الآفاق بدون دعوة اسلامية ، فهذه كانت اشبه بسيل طمى مدة قصيرة ثم قر وما اسرع ماذهب ، وقدعلموا هم انه لماشعر اعقاب جنكيز بقلق مركزهم واضطراب حبلهم التجأوا الى الاسلام ودخلوا فيه ، وجعلوا انفسهم حماته وكفوا به انفسهم كرة المسلمين عليهم ولولا ذلك لم تثبت في بلاد الاسلام دولة مغولية . ونحن نعلم ان بعض غلاة الطورانيين شارعون في تعليم الناشئة التركية تاريخ الشرق على وجه لم يؤرخه عربي ولا تركي ولا فارسي ولا اوربي ، ولكن على الوجه المطابق لسياستهم الجديدة ، مع ان التاريخ علم كسائر العلوم ليس له شغل بالسياسة ، بل لابد فيه من تمحيص الحقائق فقط. وجوابنا على الفئة الثالثة ان الاسلام لم يضر فارس بشيء في دين ولا في دنيا ، اما من جهة الدين فانه نقلها من عبادة النار الى عبادة الواحد الاحد . واما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الاسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل الا قليلا ، لابل استولت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هي روح تلك الدولة برابطة الاسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها ، ولو جاءت تضع يدها على دولة بني العباس بقوة فارس المجوسية لاصابها ما اصاب الافشين الذي عصى الخليفة العباسي فقتل واحرقت جثته وقال فيه ابوتمام مشيراً الى نارالمجوس :

« صلى لها حيا ومات بحرها وكذاك يدخلها مع الفجار »

هذا مانراه في الجواب على هذه الفرق الثلاث وفيه خطاب لفئة من المصريين ايضا يذهبون انه « ليس فيهم شيء غير مصري » وان المسئلة المصرية ينبغي ان تبقى منفصلة عن كل مسئلة شرقية اسلامية أو غيرها . ولكننا نضيف اليه ان الوقت زعيم باظهار صحة هـذا المنحى في السياسة وعدمها ، فان هذه الفئات انما هي قادمة على تجارب وليس الانسان ان يحكم على الشيء الجديد الا بعد التجربة . فلننتظر نتيجة تجاربهم بسياسة الانفراد ومن رأينا أنه اذا كان مثل هؤلاء لايرون الاستمساك بجامعة اسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم المصرية ، فليعدلوا على الاقل الى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من اية أمة كانوا اذ كان من سنن البقاء ان يتحدالضعفاء في وجه القوى ، فليست الجامعة الاسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدرون ان يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية اذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسية كانت اوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضاً توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب. ومما لامشاحة فيه انه لاأمل باستقلال الشرق مادام مفكك الاجزاء (ش)

في أوروبة اذ كانت النهضات القومية في مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداماً عنيفاً بالعقائد الدينيـة الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية و« المملكة الرومانية المقدسة » .

لهذا ليس من الغرابة في شيء ان نرى المنازع القومية والمطامح الوطنية في الشعوب الاسلامية تنشأ في أول عهدها نشوءاً يعروه الابهام والالتباس خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر. فلم تنجل عقيدة العصبية الجنسية الا في خلال النصف الآخر من القرن ، اذ ظهرت المنازع الجنسية الرامية الى التضامن القائم على الاعتبارات العنصرية في تعاليم جمال الدين الافغاني (وهو من حيث اعتبار فلسفته صلة الوصل بين الجامعة الاسلامية والعصبية الجنسية الاسلامية) وظهرت أيضاً روح العصبية الجنسـية في المصلحين الترك في منتصف القرن المـاضي لتشربهم المباديء الغربية واقتباسهم الآراء والافكار الأوروبية في الجنسية ، مما كان السبب فى ظهور العصبية الجنسية فيهم قبل ظهورها في سواهم من الشعوب الاسلامية . وقد استطاع أولئك المصلحون من رجالات الترك ، بعماناتهم الصعاب وتفانيهم في سبيل خدمة سلالتهم وعنصرهم ، وبظهورهم مظهر المدلين المعجبين بصـفة اعتبارهم العنصر الذي في يده زمام الحـكم والسلطة على غيره من العناصر الخاضعة له من نصارى ومسلمين ، ان يلقوا نجحاً كبيراً في نشر دعوتهم وفلاحاً عظيماً فى القيام بنهضتهم .

وقد بدأت النهضة التركية كما بدأ غيرها من نوعها فى أوروبة ، وذلك على الجملة باحياء الذكريات القومية التاريخية ، والكشف عن اسفار العز والمجد ، وبتجديد اللغة على مقتضى حاجة العصر. فقد ظل الترك العثمانيون حتى نصف القرن الذي خلا يكادون لا يعرفون شيئاً من ماضيهم وتاريخهم ، وأصـلهم ومنتسبهم بل كانوا اذا تذكروا المجد العسكري الذي شيده أجدادهم ، وتلوا صحف تاريخ مُلكهم الضخم الذي قد زال معظمه ، فعـلوا ذلك على غير ما نشوة تصيب مزاج أرواحهم ، وتهيج منهم نفوسهم ، وكانوا بمعزل عن

تصفح تاريخ بلادهم وصحف آبائهم وأجدادهم ، اذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية والاحاديث عن مجمل ماضى الاسلام ، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أنباء انتشار الفتوح العثمانية فى القارات الثلاث . فلما انبرى رُوّاد الاصلاح من أرباب النهضة يوقظون أبناء قومهم ، ويردّدون على مسامعهم أنباء مجدهم التاريخي وذكريات عزهم الخالي ، استيقظت الامة التركية باسرها وأخذت تنتشي رائحة العزة القومية ، وتنظر الى أفق المستقبل بعين طماحة .

وقد كان شأن اللغة التركية منحطاً كشأن الأمة . فلما قام رجال الهمة يبتغون النهضة ابتغاءً صحيحاً ، وجدوا اللغة على شطرين : الاول التركية الرسمية وهي خليط مضطرب جامع بين خشن الالفاظ التركية الاصلية ، وبين مأنوس التعبيرات المأخوذة من اللغتين العربية والفارسية ، فكانت هذه اللغة الرسمية المبرقعة رطينى غير مفهومة عند العامة من الامة . والآخر هو التركية القديمة المحدودة المادة ، المنقسمة الى عدة لهجات تستهجنها الطبقة المتهذبة الراقية وتتجافاها لحوشية الفاظها وخشونة تعابيرها . فلما شرع رجال النهضة فى العمل ، بدلوا هذا تبديلاً ، واذ آثروا السهولة وتوخوا قرب التأدية فى اللسان التركي أخذ العلماء الترك الغير من رجال النهضة الذين حصلوا علم اللغات في أوروبة ، يضعون لسانا تركياً جديداً ، مهذباً مأنوساً ، نهجوا في وضعه نهجا غربياً . فلم ينقض على شروعهم في هذا العمل ما يقرب من ثلاثة عقود من السنين حتى استطاعوا ان أخرجوا للناس لغة تركية ، مشتملة على السلاسة وسهولة المتناول ، فأقبل أرباب الأقلام من الكتاب والشعراء على ارتياد نجعتها وورود شرعتها ، فشاعت فى حقبة قليلة شيوعاً كبيراً عاماً فى المجتمع التركي على اختلاف طبقاته ، وغدت اداةً يتنافس فى اقتنائها ، وحلية ظرف يتجمل بها [1]

---

(١) من اراد زيادة الوقوف على تطور النهضة الوطنية التركية يجدمراده فيكتاب « تركية منذ اربعين سنة حتى اليوم » وكتاب « التهذيب الغربي في الاقطار الشرقية » للمستشرق الكبير ارمينيوس فمباري: *"La Turquie d'aujourd'hui et d'avant Quarant ans,,* .*"Western Culture in Eastern Lands,,*

من المعلوم المقرر ان معظم السبب في النهضة التركية المفضية الى ظهور العصبية الجنسية القائمة على التئام العروق العنصرية ، انما كان جور أوروبة على تركية جوراً سياسياً شديداً . لذا كان الترك كلما ازدادت الحملات الاوروبية على الاقطار العثمانية تقتطع منها ما استطاعت ، ازداد الترك حباً لوطنهم وتفانياً في سبيله ، وذياداً عنه وحرصاً على مستقبله ، كأنما ذلك الاعتداء كان للترك مستحثاً يسوقهم في سبيل الاستماتة لصيانة استقلالهم المهدد . وقد كان من غاية الترك في عصبيتهم الجنسية تتريك جميع العناصر التي تتألف منها الرعية العثمانية على اختلاف النحلة والدين والعرق ، بحيث يكون من ذلك كله مجموع ممتزج بعضه ببعض هو الأمة التركية صبغة ولساناً وتفانياً في الوطنية التركية

فاصطدمت اذ ذاك غاية العصبية التركية اصطداماً كبيراً بالعصبيات الجنسية النصرانية المنافسة لها (وهذه اسبق ظهوراً) في المملكة ، وبالعصبية الجنسية العربية التي كانت قد شرعت تظهر ظهوراً بيناً لامراء فيه في هذا العهد . اضف الى ذلك ان السلطان عبد الحميد كان مقاوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتاً بطبيعته وغريزته مقتاً كبيراً لكل عصبية جنسية اية كانت ماهيتها ، لانه كان يخشى من وراء ذلك خسراناً لسلطانه المستبد المطلق ، أو على الاقل قسراً له ليكون فيه مقيداً ، وكان يرى ان من شأن هذه العصبيات ان تحول بينه وبين الوصول الى غايته الكبرى هي الجامعة الاسلامية التي ولى وجهه شطرها ، واتخذها له قبلة ولسياسته اساساً يقوم عليه ذلك البناء الذي جهد في تشييده . جميع ذلك حمله على ان يكون مرتاباً شديداً في رجال النهضة التركية ، على معالنتهم اياه بالاخلاص وصدق الولاء فنفى واضطهد جميع الذين نادوا بالمنازع الحرة وطلبوا الشورى والديموقراطية .

على ان ثورة سنة ١٩٠٨ قد دكت اركان الاستبداد الحميدي دكاً ، فانطلقت العصبية الجنسية التركية من عقالها وانشأت تشتدّ وتستقوي ، وبات جميع رجال « تركية الفتاة » ، على اختلافهم في شؤون أخرى ، يدعون الى هذه

العصبية وهم في سبيلها مغامرون مستبسلون . غير ان تلك الاستماتة الكبرى التي قام بها الترك لتأييد عصبيتهم كانت السبب الأكبر في حلول ما حل بساحتهم من البلايا التالية وحاق بهم من الفواجع اللاحقة . فقد اندفع رجال « تركية الفتاة » اندفاعاً كانوا فيه بعداء من التروي والحكمة يسوقهم سائق التعصب الجنسي الاعمى ، محاولين تتريك المملكة قاطبة في فترة من الزمن يسيرة . فهاج هذا الامر الهائل ابناء العصبيات الاخرى هياجاً كبيراً حملهم على التنكر لثورة سنة ١٩٠٨ ، وبه سنحت للدول البلقانية النصرانية الفرصة فاهتبلتها فاخذت تكر على تركية المتضعضعة كرات عنيفة مابرحت تتوالى حتى سنة ١٩١٢

وحقيقة الواقع ان العصبية الجنسية التركية انما كانت تنتشر في أفق غير أفقها ، وتبتغي ان تمور في مضطرب غير مضطربها ، فكان بينها وبين سائر العصبيات مصطدم هائل ، فاشتعلت نار العداء بين العنصر التركي من جانب والعناصر النصرانية والاسلامية غير التركية من جانب آخر . وفي هذا العهد كانت العصبية التركية قد بلغت من التطور دورها الثاني ، دور العصبية الرامية الى تألب العروق المنشعبة من أرومة واحدة ، فبعد ان كان مضطربها لا تجاوز حدوده نطاق المملكة ، وغايتها تتريك سائر العناصر غير التركية في المملكة فحسب ، باتت ترمي الى غاية أرحب مجالاً وغرض ابعد مدى : وتنزع الى فروع الجنس وعروق الارومة ، فنشأت على اثر ذلك « الجامعة التركية » ثم وليتها « الجامعة الطورانية » وسنتكلم على شأن هاتين الجامعتين في غير موضع من هذا الفصل ، اما الآن فاننا نسوق الكلام على مناشيء العصبيات الجنسية في الاقطار الاخرى من العالم الاسلامي ، ونتتبع معتبرين كيفية اجتياز هذه العصبيات للدور الأول .

بعيد ان انشأت تباشير اليقظة القومية والعصبية الجنسية تتبدى في الترك ، انشأت أيضاً تباشير مثل تلك تتبدى في العرب ، فيقظوا يقظة كان

شأنها شأن كل يقظة مثلها يبتغيها شعب محكوم ، أعني كان غالبها بطبيعة الحال انتقاضاً على الترك وقياماً في وجههم . وقد عرفنا فيما تقدم من الكلام ان تلك البلاد العربية الصحراوية (نجد) لم تبرح محتفظة استقلالها وحريتها [1] ،

(١) جرى من قبل ذكر الوهابيين وها نحن الآن نسرد زبدة تاريخ هذه الفرقة واخبار أمراء نجد الذين قاموا بنشر دعوتها ملخصة من مصادر عديدة : ولد محمد بن عبد الوهاب في العونية من نجد في العام المائة والسادسة عشرة بعد الألف الموافق ١٧٠٤ للمسيح ويقال ان جده سليمان وكان منسوباً الى آل البيت وناشئاً في بني تميم ، قد رأى فيما يرى النائم ناراً خرجت من سرته فأضاءت البوادي كلها ، فعبر بعضهم هذه الرؤيا بأنه يخرج من صلبه رجل يهدي الأقوام ويؤسس ملكاً كبيراً ، فكان ذلك الرجل هو حفيده محمد بن عبد الوهاب بن سليمان

طلب محمد بن عبد الوهاب العلم في دمشق ، وتشرب مبادىء الامام الحافظ حجة الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وابن عروة الحنبلي وغيرهم من فحول أئمة الحنابلة . ثم رحل الى بغداد والبصرة ، وهناك أيضاً ازداد رياً من موارد المذهب الحنبلي ، وأخذ يفكر في إعادة الاسلام الى نقاوته الاولى ، عقيدة الصحابة والتابعين . فلذلك الوهابية يسمون مذهبهم عقيدة السلف . ومن هناك أنكر الاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات القرآنية والأحاديث المصطفوية ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ما أورده ابن تيمية . وكان في ذلك الوقت رجل يقال له محمد بن سعود قد اعصوصبت حوله قبائل « المتوب » و« عنزه » وهي القبيلة التي ينتسب هو الى أحد أفخاذها ولد علي وتولي زعامتها ولقب بالامير . فتلقى دعوة ابن عبد الوهاب بالقبول وجعلها شعار امارته واتخذ عاصمة امارته قصبة الدرعية ويقال ان ولده سعود كان شيخاً عليها فكتب كتائب سلحها بالحراب وبنادق الفتيل ، وجعل معها طائفة مراديف أي ركاب الذلل ، مثنى مثنى كل خلف الآخر ، وأخذ بعد ذلك يغزو البلاد المجاورة ويبث الدعوة لعقيدة السلف ، ففي سنة ١١٥٩ استولى على العوينة وحريملة ، ولكن عصت دعوته الرياض التي كان فيها دهام بن دواس فقاتل ابن سعود وقصد المنفوحة من بلاده ، وبقي الفريقان يتصاولان عدة سنين حتى غلب ابن سعود على الرياض . وكان محمد بن سعود قد اصيب بمرض فسلم مقاليد الامور الى ولده عبد العزيز ، فجد هذا في غزو جواره وبث الدعوة فكانت الحرب معه سجالا ، وحدث انه وقعت في يده اسرى من اليمن فاساء معاملتهم فزحف اليه أحد امراء اليمن حسن بن هبة الله ، وانضمت اليه عدة زعماء من الاطراف ومن جملتهم ابن دواس الذي انتقض على ابن سعود في الرياض ، فحصروا هذا في الدرعية ، ولكن ابن هبة الله اضطر الى المعاد الى وطنه فلم يقدر ابن دواس على « الدرعية » ، وانتهت الحرب بعقد الصلح . على ان ابن دواس بعد ذلك عانى كثيراً من مقاومة ابن سعود ، حتى اختار الرحيل الى الاحساء ، وتبعه اكثر سكان الرياض فدخلها عبد العزيز بن سعود سنة ١٧٧٢ فوجدها خاوية على عروشها وكانت الغارات مستمرة بين آل سعود وبني خالد أصحاب الاحساء وبني المكرمي أصحاب نجران

وان سائر الاقطار العربيــة من سورية والعراق والحجاز كانت على خضوعها

اليمن وسنة ١٧٦٥ توفي محمد بن سعود تاركا الامارة لولده عبد العزيز الذي كان لا يقصر عن أبيه حزما وعزما وبسالة واقداما ، فاخذ يجبي من أبناء الدعوة الوهابية العشر للانفاق على الكتائب والسرايا ، واستولى على بلاد وارجاء واسعة من جملتها مدينة الدلم ، ووقعت الوقائع بينه وبين حاكم الاحساء سعدون ، فامتنعت مدينة بريدة من القصيم على سعدون وبقيت في يد الوهابي .

وتوفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ٢٩ شوال سنة ١٢٠٦ الموافقة ١٧٩٢ في الخامسة والتسعين من العمر ، وقد كاد يكف بصره ، وكان قد نسل ١٨ ولداً اذ كان تزوج بعدة نساء ولزم الدرعية عاصمة الدعوة الوهابية ستاً واربعين سنة .

وسنة ١٧٩٢ تمكن عبد العزيز بن محمد بن سعود من الاستيلاء على الاحساء وخلص من حمى وقيل كان ذلك سنة ١٧٩٥ فوجه قوته لقتال الشريف غالب امير مكة ، ولما بلغ الباب العالي استفحال أمر الوهابيين امر سليمان باشا والي بغداد بتجهيز حملة عليهم ، فسير جيشاً الى الاحساء فلم يفز منهم بطائل بل زحف الوهابيون نحو العراق ، وفي ٢٠ نيسان عام ١٨٠١ دهم منهم ١٥ الف مقاتل مدينة كربلاء فذبحوا قسما من اهلها ، ونهبوا مشهد الحسين بن علي رضي الله عنه ، وحازوا كل ما كان مجموعا فيه من النفائس التي تأتي من زوار العجم . ولم يثقل ذلك على ضمائرهم لانهم ينظرون الى كل من يعظم القبور نظرهم الى الكافر . وقيل كان ذلك سنة ١٨٠٢ وبالحساب العربي في ١٨ ذي الحجة سنة ١٢١٦ وان سبب هذه النكبة هو تعدي قبيلة الخزاعل الشيعية على قافلة وهابية . فطبق خبر هذه الفاجعة جميع العالم الاسلامي لاسيما فارس وازمع فتح علي شاه تجهيز جحفل عدته مائة الف مقاتل يغزو به الوهابيين في عقر دارهم وكذلك سليمان باشا والي بغداد أخذ في اعداد جيش جرار يتولى قيادته بنفسه ، ولكن فاجأت العجم حرب مع الروس ، وفاجأت سليمان باشا فتنة في بلاد الاكراد ، فانصرفت الهمم عن قتال الوهابي . وفي ذلك الوقت وقعت فتنة بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين على امارة مكة فتغلب غالب على أخيه واستعان عبد المعين بابن سعود ، فزحف هذا الى الحجاز وهزم الشريف غالبا واجتاح الطائف وتقدم الى مكة . وكانت اذ ذاك قافلة الحج الشامي تحت امرة عبد الله باشا والي الشام قد قاربت البلد الامين فارسل عبد الله باشا الى ابن سعود يسأله ماذا يريد ان يفعل فاجابه الامير عبد العزيز ان موكب الحج الشامي له ان يدخل ويقضي مناسك الحج وبعد ثلاثة أيام يمكنه ان يبرح وكان الامر كذلك . فاستنصر الشريف غالب عبد الله باشا على ابن سعود فلم يقدر ان ينصره لقلة ما معه من القوة ، وما فارق عبد الله باشا البلد الحرام حتى دخل ابن سعود فنصب الامير عبد المعين مكان أخيه ، وهدم اضرحة الاولياء ، ورفع التحف والنفائس التي كانت مودعة في الحرم الشريف ، وطرد الباعة من صحنه . ووقع ذلك في ٨ المحرم سنة ١٢١٨ وفق ٣٠ نيسان سنة ١٨٠٣ اما الشريف غالب فانهزم الى جدة عند القائد شريف باشا فصمد ابن سعود اليهما ، فلم يقدر على فتح جدة ، وظهر الطاعون في تلك الجهات فكف عن الحصار وانكفأ قاصداً المدينة المنورة فلم يوفق الى أخذها ، فعاد ادراجه الى نجد ولم يبق بمكة غير ٢٠٠ رجل من جماعته فثار بهم أهل مكة وذبحوهم .

للحكم التركي ، متجهمة في وجه الترك ، نافرة غضبى ، موغرة الصدر عليهم ،

وكان رجل شيعي فارسي وقيل من العمادية قتل اولاده في واقعة كربلاء وعزم على الاخذ بثأرهم فذهب الى ديار ابن سعود وتظاهر بالوهابية وبقي على ذلك سنة وهو يترصد عبدالعزيز ابن سعود ليفتك به . وفي ١٨ رجب سنة ١٢١٨ (٣ تشرين الثاني ١٨٠٣) بينما كان الامير عبد العزيز يصلي العصر طعنه الشيعي بخنجر ارداه قتيلا وكان عمره ٨٢ سنة فقبضوا على القاتل واحتزوا رأسه وقيل احرقوه . فقام بالامارة بعده ولده سعود ، فاقتفى أثر أبيه في الغزو والفتوحات ، فاستولى على البحرين وبلاد الجوازم (١٨٠٤) وغزا بلاد عمان . فراع ذلك الباب العالي ، فصدرت الاوامر الى علي باشا والي بغداد بتجهيز حملة على الوهابيين من عرب وكرد ، وشد أزره بعبد الله باشا والي الشام وشريف باشا قائد جدة . وجاء امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية منضما الى الدولة لمقاتلة الوهابيين الا ان التجهيزات الحربية ابطأت ابطاء سئم منه امام مسقط فآب الى بلاده وفي الطريق صادمه قرصان الجوازم فقتلوه . وخيم العسكر الذي جهزه علي باشا مدة اشهر في الحلة لم يقم الا بمناوشات خفيفة ، ثم استدعي الى كردستان لاخماد نار ثورة شبت فيها . فاهتبل الوهابيون هذه الغرة وعادوا الى الحجاز ودخلوا الحرمين وهدموا قبور الاولياء ، ونهبوا ما في الحرم الشريف النبوي بالمدينة من الجواهر والتحف وباعوها بالمزاد العلني ، واذابوا قناديل الفضة والشمعدانات والآنية الفضية كلها ، ووزعوا اثمانها على حامية البلدة الطيبة ووقع ذلك سنة ١٢٢٠ وفق ١٨٠٥ ، ثم توجهوا صوب مشهد علي رضي الله عنه في العراق وكبسوه بياتا فاحس بهم الخفراء فايقظوا أهل البلد فثاروا بهم ودفعوهم عنه وامتد الصريخ الى الاعراب الذين حول النجف فجدوا في أثر الوهابيين فكسروهم فانقلبوا صوب السماوة ، فلم يكن حظهم فيها اسعد وانصرفوا الى ديارهم ووقع ذلك سنة ١٨٠٧ .

الا انه في السنة التالية اجتاح الوهابيون عانة على الفرات ، ثم زحفوا الى دمشق وعليها يوسف باشا الملقب بالكنج (الشاب) ، فأخذوه على غرة فاضطر الى مصانعتهم ووعدهم بان يقبل الدعوة الوهابية هو وأهل الحاضرة ، وادى اليهم مبلغا من المال على شرط ان لا يعارضوا قافلة الحج في مسيرها ، فقبضوا المال وساروا بخفارة القافلة مسافة ثم لم يلبثوا ان تخاصموا مع الحجاج ، فنهبوا امتعة هؤلاء وعادت القافلة ادراجها وعاد الوهابيون يحاصرون دمشق فكان الوالي في أثناء ذلك اعد عدة الدفاع فلم يقدروا عليها فنهبوا قرى الغوطة وارتحلوا .

وكان الامير سعود بن عبد العزيز رجلا ماهراً في السياسة ، فرأى انه ما دام مقاوماً للسلطنة العثمانية فلا بد له من ان يصافي اعداءها فتودد الى شركة الهند الانكليزية والى العجم وامر جماعته بالمحافظة على قافلة الحج الفارسي تزلفا الى فتح علي شاه ثم كر الوهابيون على العراق فوجدوا من واليها الجديد سليمان باشا غير ما وجدوه من علي باشا من الحزم والقوة وانقلبوا على أعقابهم ، وهزمتهم قبيلة المنتفق في سوق الشيوخ ، وكذلك غزوا سورية ففشلوا عند حلب وبين حماه وحمص . وكان قرصان الجوازم ملأوا خليج فارس عيثاً فسرح اليهم الانكليز من الهند اسطولاً انضم اليه اسطول مسقط ، فدمروهم وازالوا معرتهم ودمروا رأس الخيمة مرسى مراكبهم

لأن أهلها العرب وهم من « أمة الرسالة » ، قد بات من شق الانفس عندهم ان

ولما ضاق ذرع الدولة العثمانية بالوهابيين رمتهم بمحمد علي باشا أمير مصر ، فجهز هذا جيشا عقد لواءه لابنه طوسون باشا ، فساربراً الى ينبع ميناء المدينة ومعه الخيالة ووافته الرجالة بالسفن من طريق البحر . وتقدم الجيش نحو المدينة فوصل الى بدر ثم لقي العدو بالجديدة ، فحمل في البداية حملة صادقة لكنه لم يلبث ان وجد من صعوبة الاماكن وكفاح العدو ما أسأمه فخارت قوته . وانهزم تاركا في يد العدو سبعة مدافع . فارسل محمد علي الى ولده مدداً واستمال طوسون من جهته قبائل البدو ولحق به رجل من قواد الوهابيين اسمه ابن شديد كان سفر الجو بينه وبين ابن سعود ، فزحف طوسون الى المدينة النبوية ودخلها (١٨١٢) بعد حصار ٧٥ يوما . وبعد ان استقر العساكر المصرية بالمدينة صمدت الى قتال الوهابي بمكة ، فانهزم عبد الله بن الامير سعود منها الى بلاده ودخلها الجيش المصري أيضاً وفر ايضاً عثمان المضايفي قائد الوهابيين بالطائف من تلك البلدة ثم أسر . ثم تقدم مصطفى بك قائد الجيش المصري الى طرابه (التي وقعت فيها الواقعة منذ ثلاث أو اربع سنوات بين الامير ابن سعود والامير عبدالله ابن ملك الحجاز وأمير شرقي الاردن اليوم وكانت مشؤومة على عبد الله) فلاقى فيصل بن الامير سعود بجيشه فالتحم الجمعان وخرج الوهابيون وامامهم امرأة شيخ قبيلة صبيح وصدقوا الحملة فهزموا المصريين واستولوا على مدافعهم وعددهم .

فلما رأى محمد علي وعورة التجريدة ركب بنفسه البحر الى جدة فنزلها في ٢٨ اغسطس عام ١٨١٣ وعزل الشريف غالباً من امارة مكة ، ووضع مكانه الشريف يحيى ابن الشريف سرور بحجة ان غالب اساء السياسة فارسلت الدولة غالب الى سلانيك حيث توفى سنة ١٢٣١ (١٨١٦) .

ونشبت الحرب بين المصريين والوهابيين في طرابه ولكن لم يتمكن المصريون من خضد شوكة هؤلاء بالرغم من تحريض محمد علي وانهيال اعطياته وجوائزه للمستبسلين من قواده واجناده وكان الوهابيون قد احتلوا قنفذة بساحل البحر الاحمر فطردهم منها الجيش المصري لكنهم عادوا فاسترجعوها . وفي ٨ جمادى الاولى عام ١٢٢٩ (٢٨ ابريل ١٨١٤) توفى الامير سعود في الدرعية عن ٦٨ سنة ، ويقال انه كان شهماً مقداما عادلا في الحكومة فقام مقامه عبد الله كبير ولده .

وتقدم عابدين بك بقوة مصرية الى زهران (باليمن) فانهزم . وتقدم الوهابيون ثانية وصاروا على وشك أخذ الطائف وتحرج موقف الامير طوسون بن محمد علي فتقدم محمد علي بنفسه وورد فيصل بن سعود الى الوراء ، واسترجعت عساكر مصر قنفذة ، وسار طوسون من المدينة المنورة بالفين وخمسمائة فارس فاستولى على جانب من القصيم ؛ فالتمس عبد الله بن سعود الصلح فاجيب اليه على شرط ان يعترف بسيادة السلطان ، وتم الصلح على ذلك الشرط وعاد محمد علي وولده طوسون الى مصر . الا ان محمد علي طلب من عبد الله بن سعود الذهاب الى الاستانة لعرض طاعته للسلطان فتلكأ ابن سعود عن الذهاب ، فأبى محمد علي الا ان يشخصه فعرف ابن سعود ان لا بد من استئناف الحرب وأخذ يحصن الدرعية بالمدافع ، وشرع محمد

يظلوا خاضعين لنير التركي الغريب ، وهو في عينهم مثال الفظاظة. وقد انقضى

على من الجهة الثانية يتأهب لحملة ثانية يقودها ولده ابراهيم باشا . وفي ٢٨ ايلول سنة ١٨١٦ وصل ابراهيم الى ينبع بحراً وصعد الى المدينة المنورة ، ومن هناك سار بجيشه قاصداً ديار ابن سعود ، فحاصر الرس وفتحها بعد حصار شديد قاتل فيه الوهابيون قتال ابطال ، ثم زحف الى بريدة وعنيزة من القصيم واستولى عليهما ثم على شقرا وبعد ان دوخ جميع هذه الاطراف قصد الدرعية فوافاها في ٦ نيسان ١٨١٦ وبدأ بحصارها فكانت وقائع واهوال تشيب الاطفال ، ولكن ابن سعود بعد دفاع طويل طلب الصلح وقدم بنفسه على ابراهيم فاكرمه وارسله الى ابيه بمصر فارسله محمد علي الى الاستانة وقيل انه اوصى الدولة ان لا تقتله ولكن جرى القضاء بخلاف الوصية فقتل في ساحة ايا صوفيا في ١٧ كانون الاول سنة ١٨١٨ وقتل معه كاتب سره وأمين خزانته . ولما عاد ابراهيم باشا من نجد وثب مشاري اخو عبدالله بن سعود على الدرعية واستولى عليها فارسل محمد على قائداً اسمه حسين بك فظفر بمشاري وقبض عليه وأرسله الى مصر فمات في الطريق . وهدم المصريون اسوار الدرعية ووضعوا فيها حامية وقائداً اسمه اسماعيل باشا ثم صرفوه وارسلوا محله خالد باشا ، وكان هذا عاتيا جبارا افحش في ظلم النجديين ، فثاروا واعصوصبوا حول تركى بن عبد الله الذي كان مخبأ في البصره ، فبرز من مخبأه وتولى القيادة ، وذبح جميع العساكر المصرية التي كانت في الدرعية وجوارها ، ففر خالد باشا الى القصيم ، واقام تركى بن عبد الله بن سعود بالرياض وجعلها كرسي امارته ، وبنى بها قصراً وجامعاً كبيراً وحكم اسوارها وكان الخبر وصل الى مصر عن ثورة نجد الجديدة فسيرت مصر جيشاً بقيادة حسين باشا ، فتسحب الوهابيون الى الوراء ودخلوا صحاري اليمامة ، فتعقبهم حسين باشا الى تلك الفيافي فخانه الادلاء فهلك اكثر عسكره من العطش ، ورجع هو بشرذمة من حاشيته . فلما رأى محمد على ما حل بالعسكر سئم قتال الوهابيين وترك تركي وشأنه فبقي هذا في الرياض اميراً . ونحو سنة ١٨٣٠ ارسل ابنه فيصلا لفتح الاحساء ، فبينما هو سائر اليها ورده الخبران أحد اقاربهم مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود طعن والده تركى وهو يصلي فقتله فعاد فيصل ادراجه فوجد مشاري متحصناً بالقصر فقاتله وشدد الحملة الى ان هجم على مشاري عبدالله الرشيد (جد امراء حائل) فقتله . ولما بلغ الحكومة المصرية ما حدث بالرياض وجدت الفرة لائحة ، فارسلت خورشيد باشا بقوة اغارت على وادي حنيفه وتقدمت نحو الرياض ، ففر فيصل مسرعا وأقام المصريون مكانه خالداً أحد احفاد اخ لعبدالعزيز ابن سعود فلما فارق المصريون البلاد طرده عبدالله بن ثنيان فجاء الى جده . أما فيصل فبعد هذه الهزيمة حج البيت الحرام وجاء الى الشام ينافث علماء الحنابلة وظهر منه انه اقلع عن الامارة وزهد في الحكم الا ان النجديين عادوا فانتدبوه للامر فعاد الى الرياض واراد ان يستقر بها واذا بخورشيد باشا دهم الرياض فقبض عليه (٢٥ رمضان ١٢٥٤) وارسله الى مصر ، فوضعوه في قلعة بقرب السويس ، واقام خورشيد باشا مكان فيصل عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم ثنيان بن سعود .

وبعد ان بقي فيصل نحو خمس سنين في الاعتقال تسنى له الانسلال من القلعة ليلاً لاوائل

ألف سـنة منذ أخذ الترك يدخلون في العرب ويعدون عليهم سلطانهم ، وعلى

امارة عباس باشا الاول ، فجاء الى نجد وثارت معه الاهالي ، وكان خورشيد أصبح لا يقدر أن يعتمد على الحكومة الجديدة بمصر فجلا عن القصيم وعاد كل شيء الى فيصل وردت البضاعة الى أهلها وقبض على ابن ثنيان فات في الحبس واستولى فيصل على الاحساء و القطيف ، وغزا بلاد عمان وكان يقود جيشه ولده عبد الله الا ان المنافسة وقعت بين هذا وبين اخيه سعود على الامارة فضعف بسبب انقسامهما أمر الدولة الوهابية وانتهز هذه الفرصة آل الرشيد من شمر واسسوا امارتهم بحائل ، وجاذبوا آل سعود الحبل وصاروا لهم اقراناً ، ثم غلبوا على آل سعود وانتزعوا منهم ملكهم وكادوا يعفون آثارهم ، ثم عاد آل سعود في هذه السنين الاخيرة فاستأنفوا امارتهم واستردوا جانباً من بلادهم ، فصارت الحرب بين آل سعود وآل رشيد سجالا الى ان ادال الله للسعوديين من الرشيديين اخيراً وعاد الامر كما بدا .

فتاريخ الدولة السعودية الوهابية ينقسم الى ثلاثة ادوار : اولها منذ نشأة حكومة الدرعية الى ان احتلها المصريون سنة ١٨١٦ . الثاني منذ تجديد دولة آل سعود على يدي تركي وولده فيصل الى ايام ابن الرشيد الشمري سنة ١٨٩١ . الثالث منذ استرداد ابن سعود للرياض من يد ابن الرشيد سنة ١٩٠٢ .

ولنتم الكلام على فيصل بن تركي فانه في امارته الثانية احسن التدبير واحسن العلاقات مع الدولة ومع مصر . وفي زمانه كانت سياحة بالغراف الى نجد سنة ١٨٦٢ . وكان مع بالغراف في تلك السياحة رجل من زحلة بلبنان صار فيما بعد كاهناً ثم مطراناً ثم بطريركا على الروم الكاثوليك هو البطريرك بطرس الجريجيري . وقد روى يومئذ انهم دعوا ابن سعود لتأسيس علاقة مع بعض دول اوربا ... على ان هذه تساعده على الدولة العثمانية ، فأجابهم انني وان كنت عدواً لسلطان استانبول فلا ارضى ان استعين عليه بالاجنبي .... روى ذلك من سمعه من فم البطريرك الجريجيري . وكانت وفاة فيصل بن تركي في ١٣ رجب سنة ١٢٨٢ (٢ كانون الاول ١٨٦٥) .

فخلفه ولده عبدالله للمرة الاولى فثار عليه اخوته وطردوه فاستنصر الاتراك فاحتلوا الاحساء والقطيف ، واجتهد اخوته ان يسترجعوهما فلم يفلحوا وبقي سعود اخو عبد الله اميراً على الرياض منذ سنة ١٢٨٧ الى سنة ١٢٩١ (١٨٧١ الى ١٨٧٤) اذ مات وتمكن عبد الله من استرداد ملكه فاستؤنفت العداوة بينه وبين اولاد اخيه سعود ومنذ ١٨٨٣ صار الخطر الاعظم عليه من الامير محمد بن رشيد امير حائل . وسنة ١٨٨٤ وثب على عبدالله اولاد اخيه وخلعوه وتأمر محمد بن سعود بن فيصل فلم يطل امره وخلع ، وقام بالامارة عمه عبدالرحمن ابن فيصل ، فبقي الى عام ١٨٨٦ فطرده الامير محمد بن رشيد واعاد الامير عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة ، فبقي في الامارة الى ١٨٨٨ اذ توفي وضم ابن رشيد الرياض الى امارته . فأخذ عبد الرحمن بن فيصل يقاتل لاسترجاعها فلم يفلح وسنة ١٨٩١ نصب الامير محمد بن رشيد اميراً على الرياض محمداً ثالث اولاد فيصل بن تركي ، فلبث فيها الى ان مات ، فاقام عليها ابن رشيد عاملا من قبله ثم ثار عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل سنة ١٩٠٢ وعاونه الشيخ

هذا كله فقد ظل العنصران على عداء وتفور لتضادّ المزاجين تضاداً بعيداً

مبارك الصباح صاحب الكويت ، وانتزع الرياض من يد آل الرشيد ، ونشبت بين الفريقين الحرب فاستعان آل الرشيد بالاتراك ولكن لم ترض الدولة ان تكسر ابن سعود مع محافظتها على ابن رشيد ورغبت في حفظ الموازنة .

فبقيت امارتا الرياض وحائل متناظرتين لاتكاد الحرب بينهما تخمد وكان اكثر النزاع على بلاد القصيم التي منها مدينتا بريدة وعنيزة . ومما لاشك فيه انه بعد وفاة محمد بن رشيد ، اكبر امير خرج من هذا البيت ، استجد ابن سعود قوته الماضية وصارت امارة حائل تحت خطر ابتلاعه اياها لولا صريخ شمر لابن رشيد والقاء الدولة العثمانية نظرها عليه . وما زال الامير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل يتقوى وينشط حتى وقعت الحرب البلقانية مع الدولة العثمانية فاهتبل هذه الغرة واستولى على الاحساء والقطيف ونواحيهما . وكانت هذه من قبل متصرفية تابعة لولاية البصرة . فانتظرت الدولة ريثما انعقدت السلم ، وشرعت تفكر في أمر استرداد هذه البلاد ، ولو أدى الامر الى استلال الحسام . وقبل الحرب العامة ببضعة أشهر تولى نظارة الحربية المرحوم انور باشا ، وكان برنامج سياسته اتحاد المسلمين كما يعلم كل احد ، فكان يكره سفك الدماء فيما بينهم لاسيما مع الاخطار المحدقة بجميعهم . ولم يكن عنده روح المنافسة لقوة العرب كما كان عند غيره ، فكان يرسل بالاسلحة والعدد الحربية الى ابن رشيد والى الامام يحيي . وقد عذله بعض الاتراك على عمله هذا فقال له : اتسلح رجالاً قد يجيء يوم يستعملون فيه هذا السلاح في قتالنا . قال له انور : أترى لو هاجت اليمن أو نجداً دولة اجنبية تقدر أن ندفعها نحن من هنا . قال : لا . قال انور : اذا كنا لانقدر ان نحافظ عليهم افلا نمكنهم على الاقل من المحافظة على انفسهم . فاخرسه انور بهذا الجواب . ثم استشارني مرة في أمر ابن سعود فابديت له رأيي وهو أن تصافي الدولة ابن سعود وتجعله من أعضادها بدلا من أن يكون من اعدائها فوجدته متشبعاً بهذا الرأي عازما على مصالحة ابن سعود والادريسي ، وكان يريد انفاذ الاستاذ المرحوم الشيخ صالح الشريف التونسي لمخاطبة الادريسي في الصلح على ان تبقى بيده المقاطعة التي كان فيها من بلاد عسير ، ثم اخر سفره الى عسير نشوب الحرب العامة . وقبل نشوب الحرب العامة بقليل اتفقت الدولة بسياسة انور رحمه الله مع الامير عبد العزيز السعودي على اقطاعه الاحساء والقطيف وسائر لواء نجد ، والاعتراف بامارته على ما كان في يده من قبل وما دخل فيها من بعد ، على شرط ان يعترف هو بسيادة الحضرة السلطانية ، واحسن السلطان اليه برتبة المشيرية السامية . ورغب اليّ علي منيف بك مستشار الداخلية يومئذ في تحرير كتاب بالعربية الى الامير عبد العزيز المشار اليه ، توضح فيه الدولة خطة سياستها في نجد وبلاد العرب ، فحررته له فكان كل ما اوصوه به هو اقامة العدل ، وتأمين المسالك ، ورفع المنازعات من بين المسلمين بدون تمييز بعض على بعض ، وان الدولة تمده بكل ما يلتمسه منها لاجل تحقيق هذه المقاصد . ولما اشتعلت الحرب العامة راسلت الدولة الامير ابن سعود في خوض غمراتها الى جانبها ، فلم يجب طلبها لا كرهاً بها بل خوفاً على بلاده من الانكليز لاسيما بعد أن رأى تقدمهم في العراق . على انه من الجهة الثانية لم يأت عملا تقدر ان تعاتبه

لا يستطاع معه تآلف الطباع ولا التقارب ومحض الود . وقد وصف الكاتب

الدولة عليه بالرغم من مساعي الانكليز لديه في ذلك ، فكانت خطته في هـذه الحرب التزام الحياد التام ، وبعد أن وضعت الحرب اوزارها جرت وقائع بينه وبين ملك الحجاز لا نرى حاجة لذكرها نظراً لحداثة عهدها ، وكنا نود ان تكون كلة امراء العرب مجموعة لتمكين هيبة هذه الامة من قلوب أعدائها ، وانقاذها من الورطة التي وقعت فيها بعد الحرب العامة ... هذا وان ابن سعود استولى على حائل وازال امارة الرشيد وتلقب الامير عبد العزيز بسلطان نجـد ع. وهو في الواقع ممن تنعقد بهم آمال الامة العربية ، فعسى انه لا يخيبها وان يوفق الى تحقيقها قبل ان تمتد الايدي الغريبة الى نفس الجزيرة ويتسع الخرق على الراقع .

وحيث أننا سردنا هنا تاريخ آل سعود فلا بأس بأن نردفه بخلاصة أخبار آل رشيد حتى يكون تاريخ نجد الحديث كاملاً فنقول :

عبد الله بن علي الرشيد من بني جعفر من قبيلة شمر الكبرى استولى سنة ١٨٣٥ على مدينة حائل ، وقتل شيخها صالحا من بني علي الذي كان عاملا على جبل شمر من قبل آل سعود ع. ولما كانت سبقت لعبد الله المذكور خدمة عظيمة لفيصل بن تركي من آل سعود بقتله مشاري ابن عمهم الذي قتل تركي غيلة ونزا على ملكهم ، كافأه فيصل باقراره على امارة حائل ، فشرع عبد الله وأخوه عبيد يوطدان دعائم امارتهما حتى أطاعتهما جميع شمر . ولما احتل خورشيد باشا المصري القصيم طرد عبد الله الرشيد من حائل فبقي مطروداً الى سنة ١٨٤١ اذ برح المصريون تلك الارض فرجع عبد الله الى امارته بحائل ، ثم توفي عبد الله فخلفه ولده طلال ع. فاستولى هذا على الجوف ، وتيماء ، وخيبر ، وجانب من القصيم ، وأحسن الادارة وأمن الطرق وكف غارات الاعراب ، وفي أيامه تراخت علائق الطاعة منه ومن قومه شمر لابن سعود . وتوفى طلال في صفر عام ١٢٨٣ وقيل في ١٧ ذي القعدة عام ١٢٨٤ (١١ آذار ١٨٦٨) قيل منتحراً .

وخلف طلالاً أخوه متعب فنزا على هذا ولدا أخيه بندر وبدر فقتلاه في ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٨٥ (٢٣ تموز ١٨٦٨) وقيل بل في ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٥ (٤ كانون الثاني ١٨٦٩) .

وفي ٢٠ رمضان عام ١٢٨٦ ثار محمد بن عبد الله الرشيد على بندر ابن أخيه فقتله وألحق به اخوته وأبناء اخوته كافة ، وانفرد بالامارة وهو واسطة عقد آل رشيد ، وامتد حكمه الى اطراف العراق والى مشارف الشام ، والى نواحي المدينة ، والى اليمامة وما يلي اليمن وغلب على نجد كلها ، وأدخل ابن سعود في طاعته بعد ان كان الرشيد تبعاً لآل سعود . وكل هذا التبسط الذي تبسطه في الملك كان بحزمه وعزمه وسداد رأيه وبعد همته وحسن سياسته ، وكان صارماً في الحكومة لكنه كان عادلاً ، فأمنت المسالك في أيامه بما لم يسبق له مثيل وكانت الأعراب تخشى مجرد ذكر اسمه فأصبح هو سلطان البرية . ومن جملة تدبيره انه تقرب جدا من رضى السلطان عبد الحميد ، وكان من أشد الناس تعلقاً بطاعته ، وكل سنة كان يقدم الى السلطان عـدداً كبيراً من الجياد العراب فحظى عند السلطان حظوة لم تكن

الفرنسي « ڤيكتور برار [1] » مبلغ ما هما عليه العربي والتركي من اختلاف

لاحد من امراء العرب ، وعضدته الدولة العلية عضداً تاماً اتسع به ملكه وقويت شوكته .
وفي أيام محمد الرشيد زار جبل شمر ونجداً عدة من سياح الافرنجة مثل البارون نولده *Nolde* وبلونت *Blunt* وهوبر *Huber* واوتنغ *Euting* وغيرهم . ومات محمد في كانون الاول عام ١٨٩٧ ولم يعقب ولداً .

فخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب وكان سفاكاً للدماء سيء الادارة فوقعت الفتنة بينه وبين جيرانه ، وتألب عليه ابن صباح صاحب الكويت ، وابن سعود ، وأمير المنتفق ، وقاتلوه قتالاً شديداً . وسنة ١٩٠٢ تمكن عبد العزيز بن عبد الرحمن السعودي من استرجاع الرياض وما زال عبد العزيز الرشيد في قتال مع اعدائه حتى قتل في ١٤ صفر عام ١٣٢٤ (١٣ نيسان ١٩٠٦) .

فخلفه ولده متعب ولم يطل أمره اكثر من سنة . وذلك ان سلطان بن حمود بن عبيد ابن علي الرشيد كان متطالاً الى الامارة فذهب الى الاستانة يتقرب الى الدولة ، فارسل الامير متعب يخبر الدولة بمقاصد سلطان هذا ، فاعرضت عن سماع كلامه فقفل الى الشام ، وبينما هو بدمشق التمس الامير متعب من الدولة اعتقال سلطان ، فصدر الامر لناظم باشا واليها يومئذ بالقبض عليه ، فوجد من انذر سلطاناً في الحال ففر مغذاً السير الى جبل الدروز . وأول قرية وصل اليها الصورة الكبرى قرية ابن ظهر الدين من مشايخ الدروز وهي من وادي اللوى على مسافة ٧ ساعات من دمشق . فاسرع ناظم باشا بارسال خيل في أثر سلطان فلم تدركه الا في الصورة في منزل ابن ظهر الدين ، فلما عرف هذا انه هو ابن رشيد طرد خيالة الدولة ، واجتمع الدروز حول سلطان ، وساروا به الى قرية شهبا ، فنزل عند شيخها ابي طلال العامري ومن هناك ذهبوا الى المقرن القبلي عند صاحبنا مصطفى باشا الاطرش شيخ ذلك المقرن ، فاقام بضيافة مصطفى باشا نحو شهر ، ثم رغب في ان يعود الى نجد فزوده بما يلزمه وأرسل معه رفاقا برأسهم الشيخ العيسى رتعان بن ماضي حتى وصلوا به الى نجد . وبعد وصوله بمدة تنزى على متعب فقتله في ذي القعدة سنة ١٣٢٤ وقيل في شعبان من تلك السنة وصار أميراً محله لكنه لم يطل أمره ، وبعد اشهر قلائل طرد من الامارة وقام مقامه أخوه سعود بن حمود . ثم ثار على هذا حمود بن سبهان وجلس مكانه ، وبعد ذلك جاء بنو سبهان بسعود بن عبد العزيز الذي كان قاصراً مخبأ في المدينة المنورة ، فلما بلغ الرشد اجلسوه على كرسي الامارة سنة ١٣٢٦ ، وبقي أميراً الى الحرب العامة فجعلت الدولة عنده البكباشي عزيز بك الكردي معتمداً ، ثم ارسلت المرحوم الشيخ صالح التونسي بمأمورية ، ثم جعلت عبد الحميد بك بن ابراهيم باشا سعيد المصري ، فبقي اكثر سني الحرب في حائل ، يجتهد في منع الدسائس الاجنبية من التأثير على ابن رشيد ، لا سيما وان السبهان كانوا باطنا ممالئين للانكليز ، فبقي سعود بالرغم من مساعي اخواله السبهان معتصما بحبل الدولة وقاتل برجاله جماعة ملك الحجاز الحسين بن علي حليف دول الحلفاء . وما زال كذلك حتى دارت الدائرة على الدولة ففقد النصير وتنزى عليه اخواله السبهان وقتلوه منذ نحو ثلاث سنوات وضم ابن سعود حائل وتوابعها الى ملكه واعتقل كل من بقي من آل رشيد وطوى بساطهم ، والله يرث الارض ومن عليها . (ش)

(١) كتابه : *Le Sultan , l'Islam et le Puissance, 1907*

المزاج والسجية بقوله : « هكذا ترى شقة البون بعيدة بين اللغتين كما بين العنصرين ، كالبون بين ابن رومية وابن الجزائر المغربية . فالتركي من أدرنة أو اطنة يظل بعيداً أقصى البعد شمالا ويظل العربيّ في سائر الاقطار وعلى مختلف الحالات بعيداً أقصى البعد جنوباً ، فهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يأتلفان . فابن العربي الدمث الخلق اللين العريكة ، الرحب المدارك ، المتفنن في شأنه ، النزاع الى الديموقراطية ، المغرق في احتفاظ حريته الفردية الى حد الفوضى ؛ من التركي البطيء المتثاقل ، الميال الى رقابة النظام ، عاشق الروح العسكرية . لذلك ظل التركي الحاكم المتسلط يحتقر على الدوام العربي ويزدريه لما هو عليه هذا من حب الفن والابتكار والرشاقة ، ويكره فيه اباءه لرقابة النظام ؛ من حيث ظل العربيّ يرى التركي هجماً جلفاً ، ويحسب هدوءه واطمئنانه بلادة وجهلا وخمولا ، واحترامه القانون ذلا ، وانغماسه في الرخاء المادي ، فجوراً ووحشية . وما انفك العربي يزرى على التركي وينعي عليه فقدانه الميل للفن والابتداع ، ولا سيما بعد أن أخذ ما أخذ عن الصينيين والفرس والعرب واليونان فظل على كل هذا كما كان أحمق جاهلا غبياً » (١)

أضف الى هذا ان العرب باتوا يحسبون الترك متنكبين عن النهج السوي في ملة الاسلام ، ولذلك لا جرم ان كان شأن العرب على الدوام شأن المتأهب للانتقاض ، المتحفز للخروج على الحاكم الغريب . وقد أسلفنا الكلام في غير موضع كيف نشأت الحركة الوهابية وما كانت تقصده وتبتغيه من تقويض الحكم التركي وتحرير الاماكن المقدسة . ومع ان الوهابيين قد سقطوا دون أمنيتهم فقد ظلت صدور العرب موغرة يريدون الانتقاض والثورة . نحو سنة ١٨٢٠ كتب السائح بركهردت الالماني في شأن بلاد العرب كلمة مأثورة :

---

(١) في كلام فيكتور بيرار هذا مبالغة شديدة زينها له حب الانقسام بين هاتين الامتين ، ومن احب شيئاً تجسم له في خياله ، فلا العرب ينظرون الى الترك ولا الترك ينظرون الى العرب بكل هذا المقت وكل هذا الاحتقار ، وان كان هناك تباين بين الفريقين في خلائق كثيرة (ش)

« متى أخذ الحكم التركي يولي وينحل ويتضعضع في الحجاز يهب العرب آخذين بالثأر [١] » . وبعد ذلك الحين بما يقرب من عشرين سنة قال شريف مكة لسائح فرنسي : « ما أشقها علينا من حال ان نكره اكراها ، ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة ، على حناية رؤوسنا لهؤلاء « الباشوات » الادنياء الذين قد كان غالبهم من قبل عبداناً نصارى ، فما استطاعوا بلوغ كراسي الحكم وتقلد أزمّة الاعمال الا بأحط الذرائع وأشين الوسائل [٢] » . وكانت تركية طيلة القرن التاسع عشر كلما خاضت حرباً في أوروبة وخرجت منها مقهورة مفتوتاً في عضدها ، عقب ذلك ثورة ينفجر بركانها ، أو انتقاض تشب ناره في قطر من الاقطار العربية .

ودامت الحال هكذا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من توالي الثورات غير المنتظمة التي لم تعد نطاق الانتقاضات والاختلافات في موضع موضع ، حملت عليها النعرة الدينية أو عوامل الوراثة والاقليم ، أو شعور ثائر ولكن سببه غير عام ، اذ لم يكن هناك من خطة جلية مقررة عقد عليها الرأي ، ووضعت لتنظيم العمل في سبيل غاية قومية ومطمح جنسي . الا انه في خلال العقود الستة بعد منتصف القرن الخالي طفقت الروح الجنسية والشعور القومي يظهران ويشتدان في العرب . وقد كانت سورية منشأ هذه الروح وذلك الشعور . فلم يكن هذا الامر غريباً بل متوقعاً ، لأن سورية هي القطر العربي الخاضع لتركية عهدئذ ، والاكثر من سائر الاقطار العربية تعرضاً لتلقي الروح الغربية والمؤثرات الأوروبية . بيد ان هذه الحركة الأولى التي قام بها العرب في سبيل جنسيتهم وعصبيتهم لم تأت بالثمرة الطيبة ولا أدركت بها الغاية لأن الذين قاموا بها انما كانوا عصبة قليلة العدد ، والعزم والحزم ، فاستطاعت الحكومة التركية اخماد الحركة والقضاء عليها دون كبير مشقة .

---

(١) برار - كتابه المذكور .
(٢) برار - كتابه المذكور .

فلما نشبت الحرب الروسية التركية عاد العرب ينفخون في الضرم. فظلت الأقطار العربيــة تقوم وتقعد ويستطار منها الشرر عدة سنوات . فانبرى رجال النهضة وأهل العصبية يرفعون عقيرتهم وينادون بتحطيم النير التركي وانشاء مملكة عربية متحدة الاقطار اتحاداً قائماً على اسـتقلال كل قطر في داخله (كونفدراسيون) تشمل جميع الاقطار العربية وعلى رأسها زعيم ديني كبير غاب ان يكون شريف مكة . وأمر هذه الحركة كان ظاهراً ، اذ كان من شأنها ان تسلك مسلكا بين العصبية الجنسية بمعناها الغربي وبين المنزع التقليدي الذي لم يبرح العرب ينزعون اليه منذ القـديم غايته الرجوع الى الشورى الشرعية التي كانت عليها حكومة الخلفاء الراشدين ، وظهرت ثانية في الحكومة الوهابية في نجد .

وقد كانت هذه الحركة العربية الثانية في سبيل النهضــة والعصبية مثل سابقتها نشوءاً ونمواً ، اذ كان السلطان المستوي على العرش العثماني عهدئذ هو داهي الدهاة عبد الحميد الذي اقتضت سياسته في سبيــل الجامعة الاسلامية ان يستميل العرب ويوطىء لهم أكنافه ويحسن اليهم صنعاً ، وقد أفلح بذلك حقاً ، فغدت رجالات العرب تفد على القسطنطينية لاقية من دار الخلافة كل رحب وسعة ، ومنزلةً منزل الاجلال والاكرام ، وطفق عبد الحميد يغدق كثيراً من نعمه وآلائه على أمراء العرب وأشرافهم ، وزعمائهم وسراتهم ، ويجهد كل المستطاع لزيادة ارضاء الأمة العربية وطمئنة بالها وتطييب نفسها ؛ وفي الوقت هذا كانت المسالك الحديدية التي تفي باغراض عسكرية عند الحاجة تنشأ في سورية والحجاز ، فسهل ذلك على الحكومة التركية ان ترسخ قدمها وتعز موقفها وشأنها في الاقطار العربية اعزازاً ماعرفت مثله قط من قبــل ، من حيث كان للعرب في أمر انشاء المسالك الحديدية خير وبركة [1] ، فزادت

---

(١) كانت السكة الحديدية الحجازية من خير ما أنشئ لفائدة العرب لاسيما اهـل سورية ؛ وكانوا يقدرون ماتستفيده دمشق وحدها من هذه السكة بمائة وخمسين الف جنيه سنوياً (ش)

اسباب التواصل بين الاقطار العربية بعضها مع بعض، فتوفرت وسائل الثورة وكثرت عدتها . زد على هذا ان عبد الحميد عند قيامه بالدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية وضع نصب عينيه ايقاظ الشعور الاسلامي لانشاء وحدة اسلامية بين العرب والترك كيما يستطيع بذلك مقاومة الغرب النصراني . وحقاً جاء جهد عبد الحميد هذا الجهد الكبير بثمرة طيبة . فكانت كل حملة من حملات الاعتداء الغربي على الشرق الادنى عبرة كبيرة وعظة بالغة للترك والعرب تحملانهم على أن ينسوا أو على الاقل يتناسوا الأمر الذي يتنازعون فيه ، وينصرفون عنه للوقوف جنباً الى جنب، وجمعاً الى جمع ، ازاء العدو الخارجي المشترك

على انه قد ظل جانب كبير من العرب أهل غضب وتفور ، على ما استطاعه عبد الحميد من التوفيق والاستمالة والارضاء . فعند أواخر القرن التاسع عشر عادت الحركة العربية فظهرت مظهراً جديداً دلّ على شدة سخط العرب وشنأتهم للترك ، فسارعت الحكومة التركية للحال في اضطهاد رجال الحركة الوطنية وأهل العصبية من العرب شر اضطهاد ، وأكثرهم من السوريين فنفتهم وأبعدتهم لتأمن من شرهم ، فاستقر حال بعضهم في مصر (وهي في الحكم البريطاني) وبعضهم الآخر في غربي أوروبة ثم شرعوا جميعهم ينظمون القيام بدعوة ثورية . فانشأوا « الجمعية الوطنية العربية » في باريز سنة ١٨٩٥ وكان ذلك مبدءاً رسمياً لعملهم الذي اعتزموا على انجازه . فانقضى عقد من السنين ودعوتهم تنتشر انتشاراً غامضاً ملتبساً ولكن مؤثراً تأثيراً ظاهراً ، ففي سنة ١٩٠٥ شبت نار الفتنة المسلحة في القطرين العربيين الحجاز واليمن ، الفتنة التي لم يخمد أجيجها كل الخمود مع جميع ما قد تكبدته الحكومة التركية من بالغ العناء والمشقة لتسكين ثائرها وقمعها ، بل ظلت الثورة مضطرمة النار اضطراماً متقطعاً سنة بعد أخرى ، فقدمت تركية خسارات المال والنفوس مما كان له كبير شأن وتأثير في ضعف تركية المالي واستنزاف

قوتها عند ما نزلت بها نازلة طرابلس الغرب والبلقان سنة ١٩١١ ـ ١٩١٢.

ورن صدى الثورة العربية المشبوبة النارسنة ١٩٠٥ رنيناً هائلا في اندية السياسية الخارجية . فانتبه العالم اذ ذاك لشأن « القضية العربية » وعند ذلك افترص رجال العرب المنفيون القائمون بالحركة الوطنية الفرصة فأخذوا يجهدون ما استطاعوا في تقوية دعوتهم ببثها ونشرها في جميع الممالك العربية . ومنذ ذلك الحين بدأت القضية العربيـة تكتسب شأناً خطيراً في عالم السياسة ، اذ وقفت دول أوروبة حق الوقوف على يقظة « الامة العربية الفتاة » وأدركت جلياً آمال العرب والمظالم اللاحقة بهم . وكان من خير الوسائل لاسماع الدول الغربية صوت العرب وايقافهم على حقيقة أمرهم وصفة حالهم ، كتاب قيم موسوم « بيقظة الامة العربية » أخرجه للناس أحد قادة الحركةالوطنية [1] ، فكان له كبير وقع وتأثير في المقامات السياسية الغربيـة . ونشرت « الجمعية الوطنية العربية » في باريس سـنة ١٩٠٦ منشوراً موجهاً الى الدول العظمى بينت فيه الجمعية تبييناً غايات العرب واغراضهم التي يبتغونها ، وقد جاء فيه : ـ

« ان انقلاباً سلمياً هائلا حادث عما قريب في تركيـة . والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين في ارهاقهم وتفريق حزمتهم تفريقاً دينياً ليتسنى لهؤلاء حكمهم ، قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بأئتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافا وطنياً وقومياً وتاريخياً ، وهم يرغبون الآن في الانسلاخ عن الارومة العثمانية النخرة لينشئوا لهم دولةً مستقلةً ، وهـذه هي الامبراطورية العربية التي تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات الى قناة السويس ، ومن بحر الروم حتى بحر عمان ، ويرأسها سلطان عربي ذو حكومة دستورية حرة . واما ولاية الحجاز الحالية ، وفيها المدينة المنورة فيتألف منها مملـكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكاً وخليفـة جميع المسلمين ، وبهذا تحل

(١) وضعه بالفرنسية نجيب عازوري وطبع في باريس ١٩٠٥
" *Le Reveil de la Nation Arabe* "

العقدة الكبرى في الاسلام وهي التفريق بين السلطتين المدنية والدينية » .

وفي المنشور كلام موجه الى العرب هذا بعضه : « بني وطننا الاعزاء ! كل منا يرى بأم عينه عظم ما صار يلقاه العربي الشريف الكريم من المذلة والزراية اليوم حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الاجانب ولا سيما الترك . وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجهل ، في عهد ظلم هؤلاء البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسية الوسطى . فبلادنا ، وهي جنة الله في أرضه، قد أصبحت اليوم خاويةً على عروشها . فلما كنا أمة حرةً فتحنا العالم بأقل من عشرة عقود من السنين ونشرنا في أم الارض مختلف العلوم والفنون والآداب ، وظللنا عدة قرون حماة الحضارة وممهدي سبل العمران . ولكن منذ انشبت مخالب ارطغرل فينا واغتصبت الخلافة منا غدونا نقيم على القهر والذل ، فخربت بلادنا واقفرت أرضنا وتضعضعت حالنا تضعضعاً ما رأى مثله شعب آخر في الارض » [1].

غير ان البلاد العربية لم تنل اذ ذاك استقلالها ، فظلت الثورة لا تعدو نطاقاً معلوما ، وظلت تركية قابضة على ازمة الحكم في غالب الاقطار العربية . ولكن وقوع الاضطراب والاختلال كان يتوالى على غير ما انقطاع . وفي أواخر عهد عبد الحميد كانت الاقطار العربية قد أصبحت على حال من القلق شديدة يتنازع قواها عاملان : عامل الفتنة والثورة في سبيل النهضة القومية والجنسية العربية ، وعامل الجامعة الاسلامية المقتضية جمع كلمة المسلمين لمقاومة الاعتداء الاوروبي .

فلما كانت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تغيرت الحال تغيراً كسب القضية صورة جديدة ، فتهللت الاقطار العربية كسائر اقطار المملكة العثمانية فرحاً وحبوراً بانهيار صرح الاستبداد وتقوضه حتى الآساس . ونظر العرب الى

(١) يمكن الاطلاع على كامل هذا المنشور في كتاب *E.Jung* :
" *Les Puissances devant la Revolte Arabe:*
La Crise mondiale de Demain .. *(Paris 1906)*

المستقبل بعين الرجاء الكبير ابتغاء تحقيق الاماني وصدق الآمال . وكان نواب العرب وممثلوهم في « البرلمان » العثماني ليسوا بالقوم القليل العدد ، فطلبوا ان يمنحوا قسطا معلوماً من الاستقلال الداخلي « اللامركزي » ، فرفض رجال تركية الفتاة مطلب نواب العرب رفضاً باتاً دون ان يجيبوهم الى شيء منه ، ذلك لشدة ما كانوا موطنين أنفسهم عليه من القيام بتتريك العناصر في جميع المملكة . فكانت نتيجة الأمر ان أدرك العرب وايقنوا محق آمالهم واستحالة نيل مبتغاهم ، فاشتد السخط اشتداداً بالغاً في الاقطار العربية ، وعاد الاضطراب يقع ويشتد ، رامياً الى الانفصال . على ان هناك أمراً حرياً بالاعتبار التام وهو ان جميع الحركات والمساعي التي طفق العرب يجهدون في القيام بها في سبيل الاستقلال بعد سنة ١٩٠٨ غدت متمشيةً على خطة أوسع مجالا ونطاقاً ، وأبعد أفقاً ومرمىً ، وأصبح الآن رجال النهضة القومية والعصبية العربية في اقطارهم الخاضعة لتركية على صلة وثيقة تصل بينهم وبين امثالهم من رجال النهضة القومية في مصر وأفريقية الشمالية الخاضعة لفرنسة ، تلك الاقطار العربية التي أقل ما يقال فيها ان بعض ساكنها هم عرب دماً وعرقاً وأصلا . لذلك بعد ان كان ذكر العصبية العربية همسة تقرع في الاذن أو سراً يتناجى ، صار صوتاً عالياً وصرخة جوابة الآفاق رنانة الاصداء ، كيف لا وقد اشتملت خطة العرب على مطمح كبير وهو امبراطورية « الجامعة العربية » مؤلفة من جميع اقطار العالم العربي شاملة شمال افريقية وجنوبي اسية ، وممتدةً من الاوقيانوس الاتلنتيكي حتى الاوقيانوس الهندي . وهنا شرعت العصبية الجنسية العربية كالعصبية الجنسية التركية ، تجتاز دورها الثاني دور العصبية النزاعة الى تألب العروق الجنسية المتحدة الارومة .

وقبل ان نتوسع في الكلام على الجامعة العربية توسعاً تاماً يجدر بنا ان نبسط كلمة نبين فيها المجرى الذي جرته العصبية الجنسية في المملكة العثمانية وذلك انه في الحين الذي اثار فيه الاعتداء الغربي سنة ١٩١٠-١٩١٢ العاطفة

الدينية ، للجامعة الاسلامية ، كان الشعور القومي العربي يهتاج اهتياجاً شديداً متوالياً دون انقطاع بسبب ما انشأت تركية الفتاة تقوم به من مختلف الذرائع والوسائل لتتريك العناصر ، فثار ثائر الاستقلال في العرب ولكن كان رائماً هائلا ، تمثلت فيه عصبيتهم الجنسية أكبر تمثيل . ففي سنة ١٩١٣ عقد مؤتمر عربي في باريز وضع اعضاؤه خطة وشرعوا في القيام على مقتضاها بدعوة ثورية واسعة النطاق . فلما نشبت الحرب العامة السنة التي تلت كانت الاقطار العربية الخاضعة للحكم التركي تقوم وتقعد مضطربة اشد الاضطراب ، فاربد الجو بقاتم السحب المنذرة بزلزال الثورة (١) . فخشيت الحكومة العثمانية شبوب النار فاحتاطت للامر احتياطا تاماً وأعدت له عدته الكاملة ، فسجنت من سجنت وشنقت من شنقت من زعماء العرب وكبرائهم واحرارهم القائمين بالنهضة القومية العربية ، الذين استطاعت القبض عليهم . فعلت ذلك بينما كانت تنفخ في نفير الجهاد مستنفرة المسلمين للذب عن بيضة الاسلام ، ذلك الاستنفار الذي حمل جانباً من الرأي العام العربي على الجنوح الى الترك ، ولا سيما لما كان فتح مصر يحسب متناولا قريباً وممكناً من الممكنات . بيد انه لما طبقت الحرب وأخذت في الاستمرار كالحة الجبين مكشرةً عن الانياب ، عادت عوامل العصبية الجنسية تثور قاذفة حمم السخط والغضب . ففي سنة ١٩١٦ قدح شريف مكة زناد الثورة العربية ، فكانت ثورةً منذرةً بانهيار الحكم التركي فقوضة له تقويضاً ، وقد كانت بريطانية العظمى ظهيرة للثورة العربية هذه تمدها امداداً كبيراً عن سعة وسخاء ، فسارعت الاقوام

(١) بيان واف في مساعي العرب وجهودهم لنيل الاستقلال متضمن فى مقال ممتع نشره الكاتب الثقة في الشؤون الاسلامية «X» موسوماً « بالسياسة الجارية في العالم العربي » في « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية . كانون الأول سنة ١٩١٣

Les Courants politiques dans les monde Arabe, " Revue du Monde musulman ,,

واقرأ كتاب . ج .و . بوري

Arabia Infelix, or the Turks in Yemen. لندن ١٩١٥

العربية العديدة في نصرة الثورة وتأريث نارها قوة وعملا . ولما كانت العرب قدهاجتهم وعود الحلفاء ايما هياج : وعود تقرير المصير ، والاستقلال الداخلي ، والاستقلال التام ، وهي غاية في الاغراء والتغرير ما بعدها غاية ، انبعثوا يقاتلون الترك قتال الاستماتة والاستبسال فكانوا العامل الاكبر في تبدد الجيش العثماني وتلاشيه في خريف سنة ١٩١٨ [1] .

وقبل أن نشرع في تتبع الحوادث المهمة التي حدثت في الاقطار العربية المنفصلة عن تركية منذ سنة ١٩١٨ ، نؤثر أن نسوق الكلام على النهضات القومية والحركات الوطنية في أقطار العالم العربي الغربي ، أقطار شمالي افريقية ، بادئين في الكلام على القطر الأخطر شأنا الا وهو مصر .

ان السواد الأعظم في الشعب المصري لهذا العهد كما في عهد الفراعنة ، متحدرو السلالة من المصريين القدماء ، من الأورومة النيلية [نسبة الى النيل] القدمي . واذ كان هذا السواد من « فلاّحة » المصريين على خلق

(١) الاطلاع الوافي على اعمال العرب خلال الحرب العامة اقرأ : —

« الاستقلال العربي والثورة الواقعة » للكاتب جنغ في « المجلة » الفرنسية آب ١٩١٦

E. Jung, "L'Indérendance Arabe et la Révolte actuelle " La Revue „

« العرب ضد الترك » للكاتب لفين « مجلة المجلات الاميركية » . كانون الاول ١٩١٦

I. D. Levine, "Arabes versus Turks, American Reviw of Reviews„

كتاب أ . موزيل ١٩١٨ (ليبزيك)

A. Musil, " Zur Zeitgeschichte von Arabien

كتاب « الجامعة الاسلامية » لبوري لندن ١٩١٩ " Pan - Islam „

« الحالة السياسية والدينية في بلاد العرب » ميلريا مجلة « العالم الاسلامي » الانكليزية تموز (يوليو) ١٩١٩

S. Mylrea, " The Politico — Religious situation in Arabia „ " The Moslem World „

« لورانس : روح الثورة العربية » ل . توماس مجلة « آسيا » نيسان وايار وحزيران ١٩٢٠

L. Thomas, " Lawrance : The Soul of the Arabian Revolution ," "asia"

البطء والقناعة ، فقد خضعوا لعديد الفاتحين الغرباء الذين ملكوا مصر على التوالي في أدوار مختلفة . وكان يكون خضوع المصريين هذا الخضوع أشبه بسلسلة متصلة الحلقات ، الا ما كان يتخلل ذلك في بعض الفترات من ثورة ينفجر بركانها أو فتنة تشب نارها ، ولكن عجلان ما تعود العاصفة فتهدأ والنار فتخمد ، ثم تبتدىء حلقة من الخضوع جديدة . وهناك فوق سواد المصريين المتحدرين من الأرومة « النيلية » طبقة قليلة العدد أرفع منزلة وشأناً ، أكثرها متحدر من ذراري أواخر الفاتحين الأسيويين ، العرب والكرد والجركس والالبانيين والترك . زد على هذا أن هناك بجانب هذه الطبقة العلية التي ظلت حتى الاحتلال البريطاني صاحبة الحكم والسلطان ، والأمر والنهي ، ومحتجنة جميع السلطة السياسية ، عدداً «من المستعمرات» الأجنبية المتمتعة « بحقوق الاستثناء » ، وأيضاً عنصراً نصرانياً قديم الأرومة هم الأقباط الذين لم يدينوا بالاسلام عند طمو الفتح العربي ، وعددهم اليوم يبلغ العشر من مجموع قطين مصر .

فبلاد مثل مصر، مختلط لمختلف الأجناس والأصول والعقائد وصنوف الثقافة والتهذيب ، كرّت عليها ازمان متطاولة وهي حانية عنقها للغريب حتى لابستها تقاليد الخضوع ورئمت الانقياد ، قد تبدو بادىء الرأي كأنها ليست بالبلاد الصالحة البيئة والمضطرب لنشوء العصبية الجنسية . على أننا اذا اعتبرنا شأن مصر من وجه آخر ، رأيناها البلاد التي ما برحت أكثر أقطار الشرق الأدنى تعرضاً لتيار المؤثرات الغربية ولواقح الحضارة الأوروبية . وقد كان للفتح النابليوني عند ختام القرن الثامن عشر تأثير شديد في وادي النيل . ولما نهض محمد علي ، البطل الالباني المقدام ، وسوّد نفسه على مصر بعد زوال الحكم الفرنسي ، أيقن من ذاته بأن أوروبة فائقة غيرها في عالم العمران بحذق المنهج وحسن الأسلوب ، فشرع يأخذ عنها ويقتبس منها ، وينتهج طرقها انتهاجاً وان كان عرضياً فقد كانت نتيجته انبثاث الأفكار

الغربية وذيوع الآراء والمؤثرات الأوروبية ، وقد سار خلفاء محمد علي على أثره وسننه من بعده في هذه السياسة ، غير أن الخديوي اسماعيل المبذر المنفاق الذي كان اشتطاطه في عقد القروض المالية مع الدول الأوروبية السبب الأكبر في التدخل الأوروبي ، كان فخوراً كبيراً ومختالا عظيما متظاهراً بالروح الأوروبية التي لاتجاوز العرض والقشور ، ومغالياً في ذلك كل المغالاة ، فأكثر من حوله من الأوروبيين حتى بات عددهم كثيراً .

وظهرت الحركة الأولى التي تبدت فيها باديات العصبية الجنسية المصرية ، ظهوراً صورته احتجاج ونقمة على اغراق الخديوي اسماعيل في تشرب « الأوروبية » اغراقاً مشؤوماً يضر البلاد ويرهقها ويفقرها ، وأيضاً على اكثاره من البطانة المضياعة للمال . فبات عقلاء المصريين وحكماؤهم في هذه الحال على اختشاء مزداد لنهج اسماعيل ذلك النهج الوخيم العاقبة ، القائم على رهن استقلال مصر الذي بات معرضاً للمحق والزوال ، بسبب ما عقده الخديوي من القروض المالية الأوروبية الكبرى المستنزفة لدم البلاد بالضرائب الفادحة الباهظة الأعباء . واذ كان أولئك القوم الصادقون قد تشربوا ، على وعي أم غير وعي منهم ، العقائد الأوروبية « كالجنسية » و « الوطنية » ، فقد أزمعوا أن يقفوا اسماعيل عند حد في نهجه الجار لمصر كبير البلاء ، وأن يجعلوا مستقبل مصر في مأمن من طوارق الحدثان ؛ وفوق ذلك فانهم لم يقصروا سعيهم وجهدهم على مقاومة أولئك الأرهاط من الأوروبيين أهل الابتزاز والانتفاع على طرق فيها حذق ودهاء ، أولئك الذين كان دأبهم استغواء الخديوي والتزيين له في تبديد المال واستدراجه من مغرق مالي الى آخر ، بل أراد القوم أيضاً مقاومة « الباشوات » المتملقين من ترك وجركس ، والمرابين من الأرمن والسوريين الذين كانوا جميعاً آلة اسماعيل ومواليه ومصطنعيه . هذا هو مبدأ الحركة الوطنية والنهضة القومية في مصر ، احتجاج « وطني » عنيف وصرخة شعبية شديدة على جميع الذين

كانوا يجرون بالبلاد الى شر المهالك ، سواء أكانوا من الأجانب أم من أبناء البلاد ، وفي مطلع هذه الحركة ظهر شعار مصر ينادي به القوم الحاضّون الوطنيون ، الشعار الذى لم يسمع في مصر من قبل ، الا وهو : « مصر للمصريين ! ».

وفي ابان مثار هذه الحركة الوطنية الوليدة : التي طفقت فواعلها تقوى وتشتد ، ظهر جمال الدين بسلطانه النفساني الهائل وروحه الاجتماعية الكبرى يوقظ مصر ويستثيرها بتعاليمه ، حتى غدت نفوس القوم مترعة بنشوة الانفعال . على أن جمال الدين ، هذا الرجل القطب الفرد ، لم يتجل من سلطانه ويبد من بالغ تأثيره وعظم منزلته ما تجلى وبدا منه في مصر . وليس من المغالاة أن نقول انه هو حقاً أبو جميع ما في مصر اليوم من نهضة وطنية ويقظة جنسية . فهو قد استطاع حق الاستطاعة أن يحكم بسلطانه ويستولي بشدة عارضته ليس على كبراء المحرضين الوطنيين مثل عرابي باشا فحسب ؛ بل أيضاً على المصلحين المحافظين مثل الشيخ محمد عبده المصلح الكبير الذي أدرك وهن مصر وضعف أمرها فانشأ يعمل ويجد ثبت الجنان رابط الجأش في سبيل الاصلاح ، متوخياً وسائل الترقية وذرائع التنشئة على سنن التدرج للوصول الى الغاية المطلوبة وادراك الغرض المنشود .

وفي هذه الآونة ظهر رسل الدعوة الثورية يؤدون واجبهم الذي أخذوا نفوسهم به . ففي سنة ١٨٨٢ انفجر بركان الثورة يرأس القائمين بها عرابي باشا ، وهو ضابط من ضباط الجيش ومن عامة الشعب ، فكان هو أول رجل متحدر من أهل مصر القدماء ، من الأرومة « النيلية » (١) نهض ليسود مقدرات مصر في هذه العصور الحديثة ، وما أسرع ما لبّى نداءه أهل الثورة الهائجون ، وهم يصرخون « مصر للمصريين » يحاولون طرد « الاجانب » من أوروبيين وأسيويين ، من مصر بلاد الفراعنة . لكن حبطوا في مسعاهم

(١) سمعت عن عرابي أنه عربي صميم وانه ينسب الى النبعة الفاطمية (ش)

وسقطوا قبل الوصول الى النهاية المبتغاة ، وحدثت مذبحة الأوروبيين في ثغر الاسكندرية فكانت للحال داعياً للتدخل الأوروبي . فنزل جيش بريطاني الى البلاد وقاتل الثوار فبدد قوتهم في واقعة « التل الكبير » ، وبعد هذه الوقعة التي جرت بين أهل مصر وجيش الاحتلال ، خضعت مصر المشتتة الاحوال الفارغة الخزانة من المال للحكم البريطاني ، الحكم الذي تمثل كل التمثل بأقالين بارنغ أعني اللورد كرومر . وأبقيت السلالة الخديوية على أريكة العرش ، من حيث رومي شكل الحكومة الوطنية ، لكن جميع السلطة النافذة الحقيقية قد استقر نصابها في « المستشار المالي » البريطاني ، الناطق بلسان الامبراطورية البريطانية في مصر والقائم بالغاية الاستعمارية .

وحكم اللورد كرومر مصر خمساً وعشرين سنة . وتاريخ هذا الحاكم المقتدر الحازم يكسبه ابداً مقاماً رفيعاً في مستوى أعاظم رجال الادارة والتدبير وولاية الاحكام في العالم. فانه قد استطاع حقاً ان ينقذ مصر بساعديه القويتين من مأزق الافلاس ويرقي شأنها الى ذروة النجح والفلاح . غير ان الرخاء المادي ، ولو بلغ في مصر مهما بلغ ، ما كان ليطفيء فيها جذوة القومية واعتلاج روح العصبية الجنسية . فاذ كانت بذور النهضة قد بذرت في بلاد الفراعنة قبل الاحتلال البريطاني، فقد أخذت هذه البذور تنمو نمواً بطيئاً ولكن نمواً ماضياً مضياً مستمراً في تربة وادي النيل المرعة الخصبة ، وطفق الشعور القومي في المصريين ، وقد كان عهد واقعة « التل الكبير » وليداً ، يزداد نمواً ويشتد قوة واستقراراً وايغالا في النفوس على توالي الأيام، حتى بات عند نهاية العقد الاخير من القرن التاسع عشر أثراً محسوساً، بيناً جلياً ، يوقن به أهل النظر وأرباب الادراك من المستطلعين الأوروبيين . ولما عاج المستكشف الافريقي « شوينفرت » [1] على مصر سنة ١٨٩٥ ، راعه حقاً ما شاهده من مبلغ التطور النفساني الذي حدث في وادي النيل

(١) *Georg Schweinfurth*

خلال المدة المنقضية منذ زيارته الأولى فما قال : « ان التنبه القومي واليقظة الجنسية ينموان في مصر نمواً بطيئاً ولكن مستمراً . ان المصريين وان كانوا ما برحوا على بعد من العصبية الجنسية الصحيحة فان طلائع ذلك قد بدت ولا تلبث ان تتكامل » .

وفي مطلع القرن العشرين أخذت الواقعات تحقق ما كان قد سبق لأهل النظر الصادق وأولي الالباب الثاقبة فانبأوا به ، فتطورت الحال تطوراً فجائياً كبيراً وانقلبت مصر بثورة تغلي فيها مراجل العصبية الجنسية ، وقد كان في القائمين بهذه الحركة القومية التي بعثت بعثاً جديداً ، حزب معتدل مؤلف من المحافظين مثل الشيخ محمد عبده مصلح جامعة الازهر والصديق الصفي للورد كرومر [1] ، المصلح الذي جاهد حق الجهاد في سبيل تعليم ابناء بلاده وأمته ان أقرب الوسائل وأوفى الذرائع لبلوغ غاية الحرية الصحيحة التي تنشدها الأمة المصرية انما أمرها لا يتم الا بتنوير الأذهان وتثقيف الالباب ، وتربية النفوس التربية الصحيحة ، والترقية العلمية . أما الحركة المصرية الجديدة فقد كانت على الجملة احتجاجاً شديداً عنيفاً على استمرار الحكم البريطاني في مصر ، وطلباً لجوجاً لا منصرف عنه لنيل الاستقلال العاجل . ولعل الامر الاحرى بالاعتبار والاجدر بالتدبر في جميع القضية ، ان المصريين قاطبة كانوا ، وقد تغلغلت في نفوسهم نشوة العصبية ، على اختلاف احزابهم من محافظين وغلاة ، متفقين اتفاقاً تاماً على أن لا يعتبروا مصر قطراً تابعاً للامبراطورية تبعاً دائماً ، وقد كان لرجال النهضة والحركة أساس قانوني ، مشروع صحيح ، يبنون عليه حججهم وبراهينهم في وقوفهم في وجه بريطانية ، وذلك في الواقع ان الحكم البريطاني انما قام على أسس سياسية واهية متضعضعة غير ثابتة باعتبار ان بريطانية قد انبرت تتدخل في شؤون

(١) الذي ظهر فيما بعد من خاطرات كرومر أن المرحوم الاستاذ كان يصانع اللورد مصانعة لينال منه بعض المساعدات لوطنه . والذي يعرفه هذا العاجز من نفس الاستاذ أن قلبه كان يلتهب تحرقاً على حالة مصر . (ش)

مصر من تلقاء نفسها ، جاعلة ذاتها كأنها « منتدبة » لرعاية المصالح المالية الأوروبية . فكان عملها هذا موضوع خلاف بعيد الشقة ، وسبب تشادّ شديد في أوروبة ولاسيما بين بريطانية وفرنسة . فلما أيقنت الأولى باشتداد الامر وتفاقم الخطب عمدت الى تسكين ثائر الحال فاعلنت مراراً وتكراراً ان احتلالها مصر انما كان على صفة موقتة لا صبغة دائمة له . والواقع ان سخط المصريين السخط البالغ الحد ، قدكانت فرنسة من الهائجين لثورته والموقدين لناره وذلك على عمد منها . وما انفك هذا شأنها حتى عقدت عروة الود والمصافاة بينها وبين بريطانية سنة ١٩٠٤ ، مع هذا كان العطف الذى تعطفه فرنسة على الآمال المصرية عاملا كبيراً في ترقي النهضة الوطنية في مصر ، فعظمت مكانة فرنسة في وادي النيل ، من الجهة الادبية التهذيبية ، حتى بات نسيج التعليم الفرنسي في أعين المصريين أجمعين أصلا ، وجميع ما عداه من أنساق التعليم الأوروبي نسخاً عنه ومحاكاة له . فجعلت الناشئة المصرية تأخذ العلوم عن أساتيذ فرنسيين ، سواء أفي مصر أم في فرنسة ، ولما كان هؤلاء الاساتيذ على الغالب من أهل المقت لبريطانية ، كانوا لا يفترون عن اهتبال كل سانحة لبذر بذور الشنأة للانكليز في نفوس الطلبة المصريين وحملهم على ان يقوموا بالمناوئة والمناهضة للمحتلين .

وقد كان رجال النهضة وأهل العصبية من الغلاة يرأسهم فتى من فتيان وادي النيل هو مصطفى كامل . كان هذا الفتى الفرد مقيم مصر ومقعدها ، زعيم المحرضين والهائجين دون منازع ، لوذعياً حديد الفؤاد ، شديد العارضة ، متوقد الجنان وطنية ، خطيباً مصقعاً ساحر البيان ناريّ الكلام ، يقتاد سامعيه وقرّاءه متى شاء وأنى شاء والى ما شاء . وفوق ذلك كان ناشراً مقداماً من الطراز الأول لدعوة العصبية الجنسية ، لا يني له عزم ولا يفل له حزم ، وكان يقوم بتحرير طائفة من الصحف والمجلات معاً حتى اذا ما عطلت له السلطة البريطانية واحدة منها اعتاض عنها في الحال بسواها بحيث لا يقف

سعيه ولا ينقطع جهاده . وعلى الجملة فانه كان لا نظير له في العصبية الجنسية المصرية ، ويمكن الاطلاع على شيء من روحه في ذلك بالوقوف على بعض ما كتبه ، فما دبجه يراعه أوائل سنة ١٨٩٦ ؛ متخذاً شماره « المصريون لمصر ومصر للمصريين » ما يلي : ـ

« ان الحضارة المصرية لن يستوي لها ساق في المستقبل ولن يشيد لها بناء الا اذا قامت على سواعد أهل مصر واشترك فيها كل مصري وعلم الفلاح والتاجر والاستاذ والطالب ان الانسان ذو حقوق معنوية مقدسة ، وانه ما خلق ليكون آلة مسخرة في يد غيره بل ليحيا حياة عقلية انسانية راقية ، وان حب الوطن لأسمى عاطفة تشرف بها النفس وتعتز وتفخر ، وان أمة غير مستقلة لهي والعدم سيان ! انما بالوطنية ارتقت الامم من دركات الانحطاط الى ذروة العلى وسارت سريعة الخطى في سبيل الحضارة والمجد والقوة والسلطان . انما بالوطنية يتكون الدم الجاري في عروق كل أمة حية . انما بالوطنية يحيا كل مخلوق عاقل »

وما كان احتقار الانكليز في مثل هذه المقالات قليلاً . والى القاريء كلمة من احدى فواتح «اللواء» : « نحن المغتصب حقهم والانكليز هم المغتصبون. نحن نطالب حقاً مقدساً والانكليز هم أعداء هذا الحق . لهذا اننا على ثقة بالفوز عاجلا أم آجلا ، ومتى كان امرؤ ذا حق فلابد ان يناله ، وليس بينه وبين ادراكه الاشطر من الزمن» .

على ان مصطفى كامل كان مع رحابة صدره وبعد مطمحه وآماله ، طلاّعاً الى الجواهر لا تأخذ بلبه الاعراض ، درّاكا للحقائق لا يسع نظره الاوهام ، فأيقن وهو الرجل الحكيم بان ليس من المستطاع ولا سيما في ذلك الحين اكراه الانكليز على الجلاء عن وادي النيل ، لهذا هو لم يحاول معالنتهم بالعداء أو مصارحتهم بالمناهضة الامر الذي علم من ورائه جرالبلوى الى نفسه.

وابناء أمته . وانتقل الى جوار ربه في أوائل سنة ١٩٠٨ غضاً رطيباً في الرابعة والثلاثين من عمره ، فوقع رداؤه من بعده على مريده الزعيم محمد فريد بك . أما هذا الرجل فلم يكن ندّ مصطفى طرازاً ، فحاول ان يغني عما كان يعوزه من بلاغة الخطابة وسحر الكلام ، بشدة التنديد ومرارة الطعن [1] ، ويمكن ادراك الفرق والتفاوت بين نسيج الزعيمين بالتنظير بين الفواتح التي حبرها كل منهما في صحيفة « اللواء » فقد جاء في مقال بقلم محمد فريد بك نشر في ايلول سنة ١٩٠٩ ما يلي : ـ

« بماذا نذكرك ايها اليوم ، وفيك تدنست هذه الارض بأقدام الانكليز ، وتلوثت بجرائمهم ، وتلطخت بفظائعهم ؛ فقضوا على دستورنا ، وكموا أفواهنا ، وعقدوا السنتنا ، وحرقوا الأحياء منا ، وشتتوا الأبرياء من أهلنا ، وجاءوا شيئاً اداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً » [2]

ففي هذا الدور الذي بات فيه العنف أشد وأعظم ، ازدادت الاسباب المشجعة لرجال النهضة الوطنية وتضاعفت جرأتهم واشتد اقدامهم ، وذلك لعدة اسباب : منها ان اللورد كرومر زايل كرسيه سنة ١٩٠٧ فخلفه من بعده السر « ألدون غورست » . واذ كان هذا الحاكم الجديد من حزب الاحرار الانكليز الذين كانوا عهدئذ أصحاب الحول والطول والسلطة القائمة في الدولة البريطانية ، أخذ في التمشي على قواعد مذهبه الانكليزي الحر متوخياً دائماً تسكين هائج مصر وتهدئة ثائرها بالرفق والاستمالة والتوفيق ، لا بمثل ما كان

(١) كان المرحوم محمد فريد ممن يشار اليهم بالبنان بين زعماء النهضة الشرقية ، وكانت فيه مناقب عديدة تستحق له حرمة كل من عرفه . (ش)

(٢) هذا مقتبس من مقال نشر في « اللواء » الصادر في ١١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٩ تحت عنوان (ذكرى اليوم العصيب . الحداد أيتها الامة !) بتوقيع « امين الرافعي المحامي » ، وخلاصة المقال دعوة الامة المصرية للحداد احتجاجاً على الاحتلال الانكليزي الذي كان مضى عليه سبعة وعشرون عاماً . (المعرب)

يتمشى عليه اللورد كرومر من الاوتوقراطية غير المتحيزة ، ومنها ان ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ قد كسبت المصريين صولةً هائلة وحدّة شديدة ، فازداد صراخهم وبلغت اصواتهم عنان السماء ، يريدون حكومة دستورية شوروية نيابية . ومنها ان ابرام ميثاق الود والولاء بين فرنسة وبريطانية كان تد حقق أمل المصريين محقاً ، ذلك الأمل الذي كثيراً ما عللوا أنفسهم بتحقيقه وهو ان تكره بريطانية اكراها بقوة السلاح على الجلاء عن وادي النيل ، قياماً بتحقيق عهودها السياسية . وفي هذا الموضع أدرك المصريون حقيقة الحال والواقع ، فازدادوا اعتماداً على نفوسهم ، وانقلبوا يضاعفون جهودهم واثقين ان لا ناصر لهم سوى أنفسهم ولا حاكّ لجلدهم غير ظفرهم .

ولما بلغت الحال هذا المبلغ من اشتداد روح القومية والعصبية الجنسية بات من المتوقع حبوط سياسة التوفيق ، والاخفاق في نهج الاستمالة ، لأن السر ألدون غورست ، وان كان ذا اقتدار على التأليف والاستمالة في فرعيّ الأمور وجزئيّ الشؤون ، فلم يكن يستطيع أمراً واحداً هو غاية الغايات عند رجال النهضة ومرادهم فوق كل مراد ومبتغاهم فوق كل مبتغى ، وذلك ان يقطع للمصريين وعداً باعطائهم الاستقلال ومنحهم الحكومة النيابية الدستورية . قد رفضت بريطانية هذا الامر برمته بل أبت طرحه على بساط البحث والمناقشة ، وغدا الانكليز قاطبة مقتنعين اقتناعاً راسخاً ان مصر مع قناة السويس انما هما الصلة الحيوية بين قسمي الامبراطورية البريطانيـة في الشرق والغرب ، وان بقاء الحكم البريطاني من حيث هذا الاعتبار قد غدا ضرباً من ضروب الضرورة الكلية التي لا منتدح عنها في أي وجه من الوجوه ، فنشأ عن ذلك عقبة سياسية تورطت عندها الامور ، بين سياسة حب التوسع الامبراطوري البريطاني وبين مطلب المصريين الشديد ، لهذا اخفقت سياسة احرار الانكليز التي قد يرجى نيل الائتلاف على يدها ، بل عدت عقيا ما بعده من عقم ، وقد اعترف السر ألدون غورست نفسه بهذا في بياناته الرسمية ان الاذعان في القضية

المصرية من جانب بريطانية انما بات دليل العجز وبرهان الضعف .

ثم باتت الحكومة البريطانية من بعدئذ تتوقع نزول النازلة وسوء العقبى على أثر ما استحال عليها من حوص الشق ، ورأب الصدع ، فاقتنعت ان لا ذريعة لها لدفع الخطر الداهم ودرء الخطب المقبل الا باتخاذ وسائل الاحتياط الشديد لقمع كل حركة تبدو في وادي النيل ، فاستبدلت سنة ١٩١١ بالسر ألدون غورست اللورد كتشنر ــ اللورد الذي جاء نذيراً صارخاً في ملأ رجال النهضة الوطنية في مصر ان الفتنــة ان غلى مرجلها قمعتها تلك اليد الحديدية واستأصلت شأفتها ، اليد التي سحقت الخليفة وجموعه من الدراويش عند « أم درمان » سحقاً . ووصل كتشنر الى مصر معلناً مبيناً انه انما جاء لاقرار الامن والنظام في نصابهما حتى يستتب الامر وتصفو الحال ، وحقاً فان اللورد كتشنر قد أنجز القيام بهذا بدقة واحكام وبلغ المصريون تبليغاً صريحاً ان بريطانية لا تنوي الجلوة عن وادي النيل ولا تعد أهل مصر أهلاً للحكومة الشوروية النيابية حاضراً ولا في مستقبل معلوم الميقات . وأنذر المصريين انذاراً ان الاجدر بهم ان ينصرفوا عن مزاولة السياسة التي ما كانوا فيها على مزعم الانكليز ابناء بجدتها ، الى الزراعة وهي الفن الذي يجيدونه على مهارة . واما الدعوة الى الفتنة والثورة فقد استطاع اللورد كتشنر بما خولته القوانين الجديدة التي سنت في تلك الغضون ان يتناولها بالقضاء عليها متناولا قريباً . زد على ذلك ان الحكومة البريطانية عطلت جميع الصحف الوطنية المجاهدة في سبيل النهضة والاستقلال وشتتت شمل زعماء النهضة وقادة الحركة بزج فريق منهم في غيابات السجون ، واعتقال بعضهم ، ونفي البعض الآخر . وفي الواقع فان الحكومة البريطانية قد جهدت جهداً كبيراً لتصرف الانتباه في الخارج عن أمر مصر ، وأخــذت في تمويه شؤون وادي النيل على العالم ، وقد انبرت الصحف البريطانية تظاهر الحكومة في هذا الامر مظاهرة الاخلاص ، وتمالئها على تلك المزاعم ممالئة النصير المعين ، فامتد رواق السكينة في مصر واستتب

الحال استتباباً ما كان مثله منذ عقود من السنين .

على ان ذلك كان اشبه بسكون العاصفة لا تلبث ان تتناوح ارياحها في الجو المربدّ ، فعادت مراجل الاضطراب في مصر تغلي ما دون اغطيتها غلياناً شديداً ، حمل ارباب التدبر والاستطلاع على الاختشاء البالغ والتشاؤم الشديد . قال سدني لو الكاتب الانكليزي الذائع الصيت سنة ١٩١٣ بعد استقصائه حال مصر مدقق الاستقصاء ما يأتي : « ليس لنا لعمري شيء من مقام الاكرام والاعتبار عند الامة المصرية ، التي بعضها يخشوننا خشية وبعض يحترموننا احتراماً ، وبعض وهم أقل من القليل يحبوننا حباً [1] »

وأكثر من هذا صراحة وبياناً مقال موسوم ب « الظلام المخيم فوق مصر » نشر قبيل انفجار بركان الحرب العامة ، في احدى مجلات العلوم الكبرى [2] التي يدبج فصولها ومقالاتها العلماء الاختصاصيون النحارير في شؤون الشرق ، فكان لهذا المقال كبير وقع وبعيد دوي ، ومما جاء فيه قول الكاتب الضليع صاحب المقال : «ان هذا الامساك الطويل ، والانقطاع المديد في عالم الصحف البريطانية عن كل بحث في جميع ما يتعلق بالشؤون الداخلية في مصر ، ليس دليلا على حسن الحال وصحتها بل على سقمها واعتلالها ، بل هذا السكون الظاهر البادي ما هو الا السخط مضغوطاً عليه أشد الضغط لئلا ينفجر ، انما هو عدم الثقة بالحكومة البريطانية المحتلة ، ووغر الصدور عليها . وقد كان من شأن الواقعات الحديثة انها شددت الاعتقاد والايقان في نفوس المصريين ان الحكومة البريطانية انما تعد العدة كلها لاستلحاق مصر بالامبراطورية استلحاقاً تاماً باقياً . وليس من شأننا في هذا المقام ان نتساءل في مبلغ ما هي عليه هذه الامور المنسوبة الى الحكومة البريطانية من الصحة والوقوع .

---

(١) كتابه « مصر في دور الانتقال » (لندن ١٩١٤.)
Egypt in Transition,

(٢) « المجلة الاسيوية » نيسان ١٩١٤
The Asiatic Review

انما الحقيقة الجوهرية المشهورة ان حكومة الاحتلال لما تفلح في اكتساب الرضى والقبول من لدن المصريين ، بل مابرحت على الضد من ذلك ولم تنفك هي مظنة السوء وشاهد العداء بينها وبين ابناء النيل » ويحمل هذا المقال القيم البين على الارتياب الشديد فيما اذا كانت التدبيرات الجائرة التي اتخذها اللورد كتشنر قد أتت بنتيجة ماسوى ان قد سببت استفحال السخط وغليان مراجله غلياناً هائلا تحت اسداد لا تلبث ان تتخرق. ويوضح هذا المقال أيضاً « ماقد بلغته الروح الوطنية والعصبية من الشدة الكبرى في مصر اليوم ، وذلك على ما هو متخذ من ضروب المحاولة والتذرع للقضاء على جميع الحرية السياسية قضاء تاماً . وكان من شأن كمّ افواه الصحف الوطنيـة هذا الكم الخانق ما قد توقعه ارباب النظر الصادق وهو انه قد حمل سواد المسلمين على الانقلاب الى حال هياج داخلي واضطراب هائل ، بل أوصل الاقباط المخلصين للدولة البريطانية الى المجافاة فالمغاضبة ووغر الصدور . قد يمكن ان تكون الحكومة البريطانية عاجزة عن ان تتذرع بذرائع هي أفضل واحمد مما تذرعت به لاكتساب ثقة الامـة المصرية وحسن نيتها ، فلهذا هي في مثل هذه الحال ترى أن القضاء العاجل على كل حركة تبدو دليلاً على السخط والمغاضبة من أفضل الوسائل وأوفاها للذياد عن حوض الاحتلال ، ولكن اذا كان هذا هو الواقع بعينه فانما هو اعتراف صريح بمنتهى ما وصلت اليه الحكومة من التلاشي والوهن ، بل بتضعضع الحكم البريطاني بين أيدينا وتداعي أركانه تداعياً مآله الانهيار » وختام المقال انذار أن القضية المصرية مزدادة تورطاً واعضالا ، ذلك : « أن قضية مصر وان كانت لتختلف عن غيرها اختلافاً بعيداً في رأي البريطاني ، فان مسلمي الهند مرتقبون مجاريها ارتقاباً شديداً دائماً اذ هم يقومون لها ويقعدون ، وكذلك شأن جميع رعايانا من المسلمين في المغربين الأفريقيين الأقصى والأوسط ، وهؤلاء هم من أشد مسلمي الدنيا عاطفة دينية وبغضاً للاعتداء الأوروبي وملء صدورهم ونفوسهم الارتياب

من جراء الأعمال السياسية التي تقوم بها الدول النصرانية الجادّة في سبيل الفتح والاستعمار . »

الى هذه الحال كانت قد انتهت النهضة المصرية سنة ١٩١٤ فلما فتقت الحرب العامة كان ذلك سبباً في تعاظم الأضطراب واشتداد الهياج ، فغدا موقف بريطانية في مصر وايم الحق صعباً ، ومع أن بريطانية قد تقلدت في الواقع ازمة الحكم تقلداً تاماً ، وتشددت في ولاية سلطانها تشدداً بالغاً ، فان مصر كانت ما برحت باعتبارها ـ من حيث الصفة القانونية ـ تابعة للمملكة العثمانية ، وكانت بريطانية انما تعتبر فيها دولة محتلة احتلالاً موقتاً . وقد بدا من الحال بعد نشوب الحرب أن تركية مائلة الى محالفة أعداء بريطانية لتخوض والدول التوتونية المعمعان الهائل جنباً الى جنب ، ووضح أيضاً اذ ذاك أن المصريين الاشداء العطف على تركية ، حتى أن الخديوي عباس حلمي ما كان قط ليبطن شيئاً من ميوله ونزعته الى الترك . وخلال عدة الشهور الأولى من الحرب العامة ، بينما كانت تركية لم تبرح محايدة في الظاهر ، غدت الصحف المصرية ، على شدة الرقابة البريطانية ، تنفث سم الفتنة نفثاً في تضاعيف سطورها ، وبات موقف الشعب المصري ذلك الموقف المتزعزع المضطرب ، وأضحى انتشار السجس الشديد والقلق في كتائب الجنود المصرية ، دليلا صريحاً على قرب هبوب العاصفة وانفجار البركان ، فخشيت بريطانية أمر مصر الخشية الكبرى ، فلما دخلت تركية في المعمعان في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، لم يكن أعجل من بريطانية في خطوتها الأخيرة في مصر فخلعت عباس حلمي ونادت بابن عمه حسين كامل سلطاناً وأعلنت أن مصر باتت بلاداً محمية تابعة للأمبراطورية البريطانية .

فكان ذلك كالسهم أصاب بعض المقتل ، فاشتعل غضب رجال النهضة ايما اشتعال . أما الفتنة المنظمة فكانت غير مستطاعة لأن البلاد كان قد غمرها طوفان الجيوش البريطانية والاستعمارية التي تدفقت على وادي النيل من كل

جانب ، وعلى جميع هذا فقد اشتد الهرج والمرج ونشبت اضطرابات عديدة غير منتظمة لم يستطع قمعها الا باعلان الحكم العسكري (العرفي) الجائر الشديد . وقد وصف مستقص فرنسي هذه الايام العصيبة في مصر وصفاً محكماً فقال : « ان الجهاد ليهيج روح التعصب على النصارى هياجاً كبيراً ، ذلك التعصب الثائر فى نفس كل مسلم اليوم ، وقد بات المستطلع منذ شهر تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩١٤ يستطيع أن يقرأ تلك السيم التي أخذت تتبدّى في وجوه الطبقة العامة من أهل البلاد المسلمين ، سيم الا مل في ذبح النصارى ، اذ غدا أهل هذه الطبقة ينظرون شزراً الى الأوروبي العابر في أسواق القاهرة ، وبعضهم قد هللوا تهليلاً وفرحوا فرحاً عظيما عند ما بلغهم أن سلطان تركية قد أعلن الجهاد واستنفر المسلمين للقتال في سبيله منضوين تحت راية الخليفة . ومع أن السلطة البريطانية كانت تشدد عقاب الجلد الموجع بكل من جيء به الى مقر من مقارّ الشرط مشكواً انه قد أذاع انباء في شأن الجهاد ، فقد ظلت الحال على أشد ما يكون من الاضطراب . ولم يقصر أمر الهياج بسبب الجهاد على العامة فحسب بل تعداهم الى الأزهر . وقد أخبرت أن الأوروبى الزائر لهذه الجامعة الاسلامية الكبرى بات عند ولوجه أبوابها لا يسمع سوى اطايب المدائح وغرر النشائد الفخرية في شأن العرب والمسلمين والجهاد [1] »

وانبرى رجال النهضة الوطنية الذين في الخارج ينشرون ما لا يستطيع أخوانهم نشره في مصر ، ويجهرون بما لا سبيل الى الجهر بمثله في وادي النيل فأصدر محمد فريد بك زعيم الحزب الوطني وكان في جنيف احتجاجا رسمياً على « التغييرات السياسية غير القانونية ولا الشرعية التي أعلنتها بريطانية في شأن مصر فى ١٨ كانون الأول سنة ١٩١٤ » جاء فيه: «أنه يجب على بريطانية الزاعمة انها انما تحارب المانية دفاعاً عن بلجيكا الا تدوس حقوق مصر بقدميها

(١) « مصر في اوائل الحماية » ـ مجلة العلوم السياسية ١٥ حزيران ١٩١٥

والا تعدّ صكوك المعاهدات في شأن مصر قصاصات من الورق لا شأن لها [١] »

وأخذ هؤلاء القادة الذين خارج مصر يعقدون الصلات الوثقى بينهم وبين ألمانية كما يستبان ذلك من مقال نشره عبد الملك حمزة أمين الحزب الوطني في مجلة ألمانية ذات شأن جاء فيه ما يلي : « ليس من مصري الا ويتوسل الى الله عز وجل أن يديل ألمانية من أعدائها ويكسر بريطانية شر كسرة ويقوض أركان أمبراطوريتها تقويضاً . اني لما كنت لم أزل في مصر في أوائل الحرب قد وقفت على هذا الشعور الذي يكنه المصريون في صدورهم وقوفاً تاماً وشاهدت الحال عن كثب مشاهدة صحيحة . فان أهل البلاد طراً سواء أفي المدن أم في القرى ، من أرفع الخاصة حتى أدنى العامة ليثقون الثقة كلها بصداقة القيصر وولائه للاسلام وخليفة المسلمين ، ويتضرعون الى المولى الكريم أن يمد ألمانية من لدنه بظفر شامل ونصر مبين [٢] »

نعود الآن للكلام على النهضات القومية والعصبية الجنسية في سائر الأقطار الافريقية الشمالية التي لا نرى قطراً منها قد ظهرت فيه روح العصبية ظهوراً بيناً وبرزت فيه المنازع القومية بروزاً ممتازاً كما هي الحال في مصر . على أن البغضاء والشنأة للأوروبيين لشديدتان كل الشدة حدّث عنها ولا حرج ، من حيث أن الحركات الوطنية المشهودة اليوم في المغربين الأقصى والادنى انما هي على الغالب ضروب من الشعور العام المنتشر انتشاراً كبيراً بوجوب التضامن القومي الشامل والالتئام الجنسي العام المعروفين « بالجامعة العربية » و « الجامعة الاسلامية » اللتين نسوق الكلام عليهما الآن .

على أن حقيقة السبب في كون الشعور القومي في الأقطار الافريقية

(١) محمد فريد بك ـ مقاله « مصر والحرب » « المجلة السياسية الدولية ايار ١٩١٥ *L' Egypt et la Guerre*, "*Revue Politique Internationale*".

(٢) تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ "Die agyptische Frage" Aaien

الشمالية أقل منه في غيرها هو أن ليس هناك من بلاد ما عدا مصر كان شعبها فيما مضى أمة تامة الوحدة . وفوق ذلك فليس هناك اليوم من الظواهر الجلية ما يدل على أن أحد هذه الشعوب العديدة سائر في سبيل يصير بها « أمة صحيحة » ، اذ أن معظم سواد الشعوب القاطنة سلسلة البلدان بين البحر المتوسط وصحراء افريقية انما هم من البربر القدماء الأصل والأرومة فهم باعتبار الجنس الى الأوروبيين أقرب منهم الى الاسيويين أو الزنوج ، ويعدون انسباء للشعوب « اللاتينية » عبر البحر المتوسط [1] وأمر هؤلاء البربر شبيه كل الشبه بأمر الالبانيين في شبه جزيرة البلقان ، بسبب كونهم منقسمين انقسامات عديدة متأصلة فيهم متمكنة منهم فغدوا قبائل متفرقة كان من شأنها في بعض الفترات أن آلفت شيئاً من الاتحاد ولكن لم يكن من شأنها ترقية عوامل العصبية القومية الصحيحة [2]

ويخالط البربر في الأقطار الافريقية كلها العرب الذين جاءوها من آسية مخالطة على اقدار مختلفة . فالعرب قد استطاعوا حقاً أن يستعمروا افريقية الشمالية كلها عند الفتح الاسلامي أي منذ أكثر من اثني عشر قرنا ، وأن يجعلوا البربر يدينون بالرسالة الاسلامية ويستعربون تهذيباً وأخلاقاً ، ولكنهم لم يستطيعوا تصيير شمالي افريقية قسما من العالم العربي ومن رسوخ العروبية بمكان سورية والعراق ومصر وان تكن هذه الأخيرة دون القطرين الأولين قليلا في ذلك ، فالجنسان العرب والبربر لم يمتزجا في شمالي افريقية

(١) يكاد يكون محققاً ان البربر من أهل مراكش والجزائر وأهل الزاب في المغرب الاوسط وقسما من أهل تونس وطرابلس واهل جالو من برقة ثم الطوارق في الصحراء واهالي الجزر الخالدات (كناري) المصاقبة للمغرب الاقصى كلهم من أصل واحد وبعض المؤرخين يضم اليهم بربر النوبة والدر الذين بأعلى اسوان ولم يثبت اصلا ان هؤلاء الاقوام هم من اصل أوربي بل تاريخ اصلهم لايزال مجهولا . (ش)

(٢) ويزجربر — تأريخه « بيض افريقية » يشتمل على بيان واف موجز في شأن البربر (باريس ١٩١٠)

H. Weisgerber, " Les Blancs d'Afrique,,

بعضهم ببعض امتزاجاً حقيقياً تاماً ، ولذلك ظل البربر على كرور الف سنة بل أكثر خاضعين للسيادة العربية ، ولكن مختلفين متميزين عن العرب عادات وأخلاقاً ، وهم يحتفظون بلغتهم احتفاظاً شديداً . ولم تقع صلات التزاوج بين العنصرين الا قليلا ، وظل العرب الصرحاء قبائل كبيرة البطون والأفخاذ حتى اليوم ، ولكن غرباء في بعض الأحوال والاعتبارات [١]

لذلك غدت الحياة السياسية في أقطار شمالي افريقية المختلفة العناصر والأصول حياة اضطراب تعتورها الانشقاقات والانقسامات . وكانت مراكش وما برحت أكثر الأقطار الافريقية الشمالية وحدة والتئاماً وثباتاً في مجموعها السياسي ، مع أن سلطة السلطان النافذة حق النفاذ لم تمتد قط يوماً الى الجبال التي تقطنها القبائل المختلفة . وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية ممتدة على طول السواحل ، وأما البلاد الورائية فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام. على هذه البلاد المتبلبلة طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غامراً الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم [٢]. ان فرنسة قد أرخت على البلاد سكينة وكسبتها نظاماً ونجحاً مادياً [٣] غير ان هذه المنافع والفوائد التي أتت بها

(١) للاطلاع على ماهية الفروق بين العرب والبربر اقرأ كتاب « العرب والقبائل » لمؤلفه كاي دي سانت آمور (باريس ١٩٩١)

Caix de Saint Aymour, " Arabes et Kabyles ,,

وكتاب بل " Coup d'aeil sur l'Islam en Berbérie ,,

Paris 1917

(٢) اقرأ « الفتح الاوروبي الثاني في شمالي افريقية » (تموز ١٩١٢)

A. C. Coolidge, " The European Reconquest of North Africa ,, "American Historical Reviw ,,

(٣) بينما انا احرر هذه السطور قرأت في الجرائد الفرنسوية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر ، حيث كانوا ذهبوا للاطلاع على حقيقة احوالها ، فكان من جملة خلاصة تحقيقاتهم ان من الاربعة الملايين ونصف المليون الذين هم مسلمو الجزائر ، اربعة ملايين نسمة لا يملكون شيئاً من الدنيا ، بل هم جميعا مزارعون وأجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والمتملكين من المسلمين . وان هذه الملايين الاربعة يتكففون باجرتهم اليومية وتراهم على اسوأ حال من المعيشة ، ويموت من اطفالهم ٨٠ في المائة من سوء الغذاء .

السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الافريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعاً حديثاً من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعاً على مستوى متماثل في الاجماع على شنأة الفاتح الأوروبي ، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بمعزل عن السيادة الاجنبية بتة . لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء « الجزائر الفتاة » و« تونس الفتاة » وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتي والحرية (١)

ومعلوم انه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر ، وكان جميع فتكها بالمسلمين ، وفي كل سنة تقول الحكومة الفرنسوية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع ويل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئاً ، ولايزال مسلمو الجزائر من سنة ١٩٢٠ الى اليوم يموت منهم الالوف من الجوع ، كأنما ذلك من قبيل مكافأة فرنسا لهم على الاثنين والستين الف قتيل التي سقط منهم في الحرب العامة ... واغرب من ترك المسغبة تعمل عملها فيهم ان الجزائر في حال من اليسر وفيض الموارد التجارية لايقدر الانسان ان يفهم معها كيف اهلها يموتون جوعاً . فقد صرح المسيو ستيغ Steeg والى الجزائر العام في لجنة المكوس ان تجارة الجزائر تزداد بسرعة فائقة ، حتى انها ارتفعت من ٦٠٠ مليون فرنك الى مليار وستمائة مليون فرنك سنة ١٩٢١ ، فصارت واردات جارك الجزائر تفوق واردات المستعمرات الفرنسوية كلها مجتمعة . وصرح الحاكم المشار اليه ايضا ان مستعمري الجزائر الفرنسويين (الكولون) اكتتبوا في قرضى سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٢٠ بمبلغ قدره مليار و ٧٦٦ مليون فرنك . فبعد هذا لاعجب ان يموت الوطنيون جوعاً اذ عند ما يكون ثلاثمائة أو اربعمائة الف فرنساوي قادرين ان يكتتبوا في بعض القروض الفرنسوية بنحو ثمانين مليون جنيه ، أي بمثل ايراد الدولة المصرية السنوي مرتين ، فاذا يكون لعمري مجموع ثروة هؤلاء المستعمرين ! ولا غرو بعد هذه البراهين الحسابية التي لاتقبل ادنى جدال ، ان يبقى اربعة ملايين ونصف مليون نسمة مسلمة هناك لايملكون شروى نقير ويعيشون بأجرة عملهم اليومي أو بالاحرى لايعيشون ... (ش)

(١) لزيادة الاطلاع على النهضات الوطنية في الاقطار المغربية الخاضعة لفرنسة اقرأ : —

« العصبية الجنسية الاسلامية » (قسنطينة والجزائر ١٩١٣)

A. Servier. “ Le Nationalisme musulman „

الحضارة التونسية (باريس ١٨٩٨)

P. Lapie, “ Les Civilezations tunisienne „

« الجزائر الفتاة » (تشرين الثاني ١٩١٣)

P. Millet, “ Les Jeunes — Algeriens „

“ Revue de Paris „

أما المتجه الذي تتجه هـذه الاقوام في نهضتها فهو بغايته أميل الى انشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم الى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا ، منه الى انشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية . ولا يغربن عن البال ان جميع هذه الشعوب والأمم انما هي على صلات شديدة وروابط متواثقة تواثقاً كبيراً مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية .

واذ استوفينا الكلام على النهضات الوطنية والحركات القومية للدور الاول في مختلف الاقطار العربية والمتعربة ، بقي علينا ان نبسط الكلام على مركز خطير آخر من مراكز العصبية الجنسية في العالم الاسلامى ألا وهو بلاد ايران أو فارس أو العجم . ايران انما هي البلاد التي يتوقع فيها نشوء النهضة القومية الصحيحة توقعاً عظيما لأن الايرانيين ما برحوا منذ اجيال متطاولة يعرفون بشدة حب الوطن ، فائقين في ذلك كل شعب سواهم من شعوب الشرق الادنى .

وقد انحطت ايران خلال القرن التاسع عشر انحطاطاً كبيراً وتدلت تدلياً عظيما حتى غدا تشتت حالها الظاهر وتبدد حولها وقوتها ، واستغراقها في الوهن والضعف ، هائجاً فعالا هاج من روسية القيصرية في المقام الأول ومن بريطانية في المقام الثاني جشعهما الاستعماري الهائل ونهمتهما الكابية في حب التوسع والفتح . غير أن قادة الفكر من الايرانيين قد انتبهوا انتباهاً صحيحاً لما سيحل بالبلاد من ضروب البلاء ويحوق بها من الدواهي الدهماء من جراء استفحال الخطب واشتداد الوهن والانحطاط في الدولة ودنو المخاطر الآتية من خارج ، فشرعوا يجاهدون في سبيل الاصلاح داعين موقظين ، ومحذرين منذرين ، فحدثت الفتن الاصلاحية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وأولها الحركة البابية (البهائية) في أوائل القرن التاسع عشر ، وما

انفكت البلاد تتمخض في الفتن والاضطرابات حتى شبت ثورة سنة ١٩٠٨ (١)
وقد كان السبب الأكبر في شبوب نار هذه الثورة واندلاع السنتها هو المعاهدة « الروسية البريطانية » المعقودة سنة ١٩٠٧ التي اتفقت بموجبها الدولتان المتعاقدتان على قسمة ايران بينهما الى منطقتي سيطرة ، الأولى لروسية في الشمال والأخرى لبريطانية في الجنوب ، يتوسط بينهما منطقة حياد . لذلك كانت الثورة في غالبها ثورة القنوط والاستماتة قام بها رجال الوطنية الايرانية الأشداء الأبطال ، كيما يصلحوا شأن بلادهم وينظموا أمر حكومتهم ودولتهم ، ويدفعوا عنهم ، ولكن بعد استئخار كبير ، شبح السيطرة الأوروبية الهائل الذي أخذ يدب وينتشر فى البلاد انتشاراً وجفت منه القلوب فرقاً ورعباً . ولم تقصر غاية الثورة على الوقوف في وجه الاعتداء الأوروبى ودرء المطامع الأجنبية الكاشرة عن الأنياب ، بل انها امتدت الى أبعد من ذلك وهو نزع الملك من السلالة القاجارية الغريبة الأصل وهى الحاكمة فى البلاد حكما سيئاً فاسداً منذ حقب مديدة ، والتي ليست بايرانية الأصل بل تركمانية ، فانها معها طال من جلوسها على عرش المملكة ، لم تمتزج قط بالايرانيين وهم أهل البلاد ، نسباً ورحماً ، كما تدل على هذا حقيقة الأمر من كون لغة البلاط هى تركمانية فارسية . وعلى الجملة فان مقام السلالة القاجارية

(١) لزيادة الاطلاع على الحركات الاصلاحية الثورية في العجم اقرأ : — « الحال السياسية في ايران للمستشرق العلامة الكبير « X » حزيران ١٩١٤

" La Situation Politique de la Perse "
" Revue du Monde Musulman "

« التهذيب الغربي في الاقطار الشرقية » للمستشرق العلامة الكبير ارمينوس فباري
" Western Culture in Eastern Lands "

« الحركة الاصلاحية في العجم » للجنرال السر غوردون في كتاب « اعمال جمعية اسية الوسطى » ١٣ آذار ١٩٠٧

General Sir T. E. Gordon. " The Reform Movement in Persia" . " Proceedings of the Central Asia Society "

في ايران كان مماثلاً كل المماثلة للسلالة المانشوية التي كانت على عرش الصين قبل الثورة . فالثورة الفارسية كانت بماهيتها وجوهرها شبوب نار الوطنية الايرانية شبوباً مقاوماً لجميع القوات الغريبة القاضية على الوطن سواء أكانت شرقية دخيلة أم غربية طارئة .

وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نزل التدخل الممقوت في شؤون ايران ، التدخل الناشيء عن نهمة أوروبة في التوسع الاستعماري الوحشي ، نزول الصاعقة القاضية على النهضة الوطنية الايرانية فسحقتها سحقاً . وفي سنة ١٩١٢ كانت روسية وبريطانية قد غدتا قابضتين على أزمة السيطرة الحقيقية النافذة تتصرفان فيها كيفما شاءتا تحقيقاً لمطامعهما الشائنة ، فاضطهد رجال النهضة اضطهاداً ، وعذبوا تعذيباً ، وأبعدوا من البلاد ، وظلت ايران تصعد زفراتها مصطبرة على اعتلاج النار بين جوانحها ، مكرهة مكعومة ، ساكنة لا تستطيع شيئاً . وقد قال كاتب انكليزي في هذا الشأن قولا بليغاً هذا بعضه : « ان روسية وبريطانية العظمى هما المتحملتان كل التحمل لجميع التبعة فى تمزيق الآمال الايرانية ، مناهضة للروح الوطنية وقضاء على النهضة القومية ، وأيضاً لتبعة هذه الفوضى المنتشرة فى كل ناحية وجانب فى المملكة ، اذ لا بد من أن يأتي يوم تقف فيه هاتان الدولتان الطامعتان لتناقشا الحساب فى جميع ما جنته أيديهما ولتنالا جزاء وفاقا على مافعلتا . ان الأمل فى تحسين الحال وأيم الحق لضربٌ من المهزأة والباطل ، ما دامت الحكومة فى ايران مؤلفة من وزارة لا تملك ضراً ولا نفعاً ، وليست بنائلة شيئاً من ثقة الشعب بل ان الحكومة فى ايران إن هي الا وزارة قد قذفت روسية كل روع شديد فى قلبها وكل عرق من عروقها ، وأرتها الموت أشكالا والعذاب ضروباً ، وفوق جميع هذا تريد الدولتان روسية وبريطانية ان تقضيا عليها القضاء الاخير ذلك بجرهما اياها الى أزمة مالية ، وهاهي الحكومة الايرانية تستصرخ الملأ فلا تناولها الدولتان المسيطرتان سوى بعض اللقيمات

المالية التي لا تدفع غرثاً ، والجريعات التي لا تنقع غلاً ولا تبرّد صدى .
وذلك على شرائط هي غاية في الربا الفاحش المهلك ، وتمنعانها عن استخدام النزهاء الكفاة من الخبراء الاجانب مثل المستر شصطر. فكيف يرجى الاصلاح في بلاد متى ما كان ملكها صبياً ووكيله متخلفاً أبداً عن القيام بواجباته .
وكان مجلسها النيابي معطلاً دائماً ، ورجال الوطنية الاكرمون الاشجعون الاشرفون ، يقتلون تقتيلا أو ينفون نفياً بينما الذئاب المفترسة من الماليين وأرباب الامتيازات التجارية والزراعية ينهشون الفريسة نهشاً ، ويغلغلون في احشائها الأنياب . حقا اذا ما قيض لايران الخلاص الحقيقي وكتب لها النجاة فان ذلك لن يكون الا بأعجوبة سماوية ومعجزة عظيمة [1]

هنا ينتهي كلامنا العام الشامل لوصف أكبر النهضات القومية الوطنية ويقظات العصبية الجنسية في العالم الاسلامي . على أنه يجب ألاّ ننسى ان النهضة القومية الجنسية في الهند متمشية وسائر النهضات الاسلامية جنباً الى جنب ، ولكنها مضطربة في أفق مختلف عما سواه من آفاق النهضات في سائر العالم الاسلامي . ويجب ان نعلم أيضا ان هناك نهضات أصغر نطاقاً وأضيق مضطربا ، قائمة في الشعوب والامم الاسلامية غير التي أتينا على ذكرها ، كالتتر في روسية ومسلمي الصين ومسلمي جاوة في الجزائر الهولندية . وعلينا ان نضع في البال فوق جميع ما تقدم ان هذه النهضات القومية الجنسية جميعها متصل قليلا أو كثيراً بمجرى الحركة العامة الرامية الى الجامعة الاسلامية وبالدور الثاني للعصبيات الجنسية ، وهي العصبيات النزاعة الى التئام العروق الجنسية المتفرعة من أرومة واحدة ، وهانحن شارعون الآن في الكلام على هذا .

---

(١) و . مورغان شصطر كتابه : « خنق العجم »

— ٢ —

قد بينا في مقدم هذا الفصل ان في مطلع القرن العشرين شهد العالم اجتياز العصبيات الجنسية لدورها الأول وبلوغها الدور الثاني في الشعوب الاسيوية ولا سيما في الامتين التركية والعربية ، ونحن نرى الآن العصبية الجنسية في الترك قد اتسع نطاقها الاتساع الأكبر وامتد أفقها الامتداد الأعظم حتى أدركت أرقى اطوارها واسمى حالاتها ، متخذة شكلين بينين جليين يعرفان « بالجامعة التركية » و « الجامعة الطورانية » . وقد أتينا فيما تقدم من الكلام على بيان اجتياز العصبية التركية لدورها الاول وهي اذ ذاك لم تجاوز نطاقها العثماني المحدود كما علمنا ذلك في موضعه ، وظلت كذلك حتى ختام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢-١٩١٣ . ومنذ ذلك الحين بدأت العصبية الجنسية التركية تدخل في دورها الثانى ، دور العصبية النزاعة الى عروق الارومة ، وطفقت تشغل مكانها الخطير الهائل في العالم .

في هذا الحين اي في أوائل الدور الثانى للعصبية أخذ الترك العثمانيون يوقنون انهم ليسوا بالامة الفذة المنفردة المنقطعة عن كل نسيب وقريب في العالم ، بل انهم في الصحيح الواقع ، العرق الغربي الاقصى المتفرع من أرومة عظيمة تمتد سائر فروعها وعروقها العديدة مالئة شرقي أوروبة وآسية ، من البلطيك حتى الباسفيك ، ومن البحر المتوسط حتى القطب الشمالي . وقد أطلق الاثنولوجيون ، علماء البحث في أصول الاجناس البشرية ، على هذه الشعوب اسم (الاورالو ـ ألطايك) ولكن الاسم الاغلب والاشهر لهذه الشعوب المذكورة شاع تعبيره « بالجنس الطورانى » ، وهو يشتمل على شعوب عديدة متفرقة ـ الترك العثمانيون في القسطنطينية والاناضول ، والتركمان في ايران واسية الوسطى ، والتتر في جنوب روسية وعبر القوقاس ، والمجر في هنغارية ، والفنلنديين فى فنلندة وولايات البلطيك ، وقبائل السكان

الاصليين فى سيبيريا ، حتى والمغول والمنشوس فى شرقى اسية . فهذه الشعوب على ما بين بعضها والبعض الآخر من الاختلاف فى التهذيب والتقاليد حتى وفى السحن الخلقيـة ، هى مشتركة اشتراكاً عاماً فى طبائع وسجايا معلومة متشابهة فى كل منها تشابها بينا ولغات هذه الشعوب متشابهة أيضاً ، من حيث ان التركيب الطبيعي والمزاج العقلي فى كل شعب منها يدلان دلالة بينة على النسابة الاصلية العامة الجامعة بين جميع هذه الشعوب الطورانية المشهورة برشاقة البنية وشدة الاعصاب ، وهي وان كانت على بعض من النقص فى سعة المدارك وبعدها وعلوالتصور ، وامتلاك حاسة الشعور الفني ، الشعور الذاهب الى الابداع والابتكار ، فهى موهوبة جليل مواهب الصبر والجلد وشدة البأس الى حد الغلظة ، وفوق جميع هذا قد اشتهرت هذه الشعوب اشتهاراً منقطع النظير بالصبر على القتال والجلاد وخوض غمرات الحروب ، وبالاقتدار الفائق على سيادة من يخضع لها من الشعوب . ومما لامراء فى صحته ان الطورانيين هم أعظم من شهد الورى وعرف التأريخ من المدوخين والفاتحين . فأتلا والهنز ، وارپاد والمجريون ، واسبريتش والبلغاريون . والب ارسلان والسلجوقيون ، وارطغرل والعثمانيون ، وجنكيرخان وتيمورلنك ، وجيوش المغول التي « لا تغلب » وبابر فى الهند حتى وقبلاي خان ونورهاشو فى كاشاي ، انما جميعهم من نسيج واحـد . وصور الآثار لسنابك خيول الفرسان الطورانيين ما برحت منقوشة فى رقوق التاريخ القديم الى ما شاء الله .

على انه سواء كان تاريخ الطورانيين مجيداً أم محزنا ، فهو على كل حال هائل عظيم . والقارىء قد يتساءل ، أحقا شتيت هـذه الشعوب الطورانية المتفرقة المبعثرة متحدرة من أصل واحد بين ، وجنس ثبت لاهل العلم معرفة منشأه الاول ومتفرعه الاقدم ، وأرومة صحيحة معلومة ؟ اننا قد علمنا علم اليقين فى مقدم هذا الفصل ان هذا الامر قد بات مما ليس كبير شأن له عند الشعوب الثملة بخمرة العصبية الجنسية ما دامت السياسة العلمية مسيرة تسييراً

على الصفة التي اسلفنا الكلام عليها في موضعه . فلذلك ان ما بين هذه الشعوب الطورانية بعضها مع بعض من النسابة اللغوية والخلقية الغريزية ، وما هي عليه من التقاليد التاريخية الجمة الحية ، الهائجة منها نفوسها ايما هياج ، كاف ان يحملها على الاعتقاد انها متحدرة من أصل واحد ؛ فيدفعها ذلك الى التعاطف فالتشاكي فالتنبه الجنسي فانشاء بناء العصبية الجنسية البعيدة الآفاق ، الشديدة الصولة والمنعة .

من قبل ثلاثة عقود الى أربعة عقود من السنين ، لم يكن هناك شيء من طوالع هذه الحركة ، ولا مما يدل على ظهورها ، اذ كانت جميع هذه الشعوب الطورانية المتباعدة المتفرقة ، تجهل وحدة ارومتها الطورانية العامة ، جهلاً تاما ، ولم يكن هذا الجهل مقصوراً أمره على العروق التي شتان ما بينها من الصلة والقرابة مثل الفنلنديين في فنلندة وولايات البلطيك والمنشوسيين في آسية الشرقية ، بل ان العروق المتقاربة الاقاليم ، الظاهرة النسابة بعضها مع بعض كالترك العثمانيين في القسطنطينية والاناضول وتركان أواسط آسية ، كان كل عرق منها على جهل من نسابته للآخر ، لا بل يعده غريبا عنه جنسا ، وأدنى وأحط منه شأنا . في ذلك الحين كان الترك العثمانيون لم يزالوا بعداء من روح العصبية الجنسية كبعدهم عن روح القومية والشعور العنصري . وقد أخبرنا ارمينيوس ڤمباري انه لما زار القسطنطينية لاول مرة سنة ١٨٥٦ « كانت كلمة « تركلك » (ترك) تفهم وتعد من مترادفات الفظاظة والشكاسة والهمجية . » ولما كنت أقدم على تنبيه الناس الى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدّر الجنس التركي (المنتشر من أدرنة حتى الباسفيك) كانوا يجيبوني : ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف الكيرغيز وجفاة التتر . . . . وكدت لا أرى الا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية »

وظلت الحقائق وراء الحجاب حتى انبرى الاثنولوجيون الغربيون

يستقصون ويحققون وفي طليعتهم مثل أرمينيوس ڤمباري الهنغاري وليون كوهين الفرنسي ، اللذين يرجع اليهما كبير الفضل في كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الارومة الطورانية . فظهر العالم الطوراني من أقصاه الى أقصاه هائلا بعيد الآفاق . وكان لاعمال هذين العالمين القطبين ڤمباري وكوهين أكبر دوي في انحاء العالم . فطفقت كتب ڤمباري وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني الجديد انتشاراً سريعاً كبيراً ، فاقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للأخذ عنها والاقتباس منها ، العقول الهائجة المتأهبة للتجدد والارتقاء ، ثم سرعان ما أنشأت طوالع الحركة الطورانية تظهر وتتكاثر في اقطار مختلفة ، وكان ظهورها باديء الامر في مركزين منفصل كل منهما عن الآخر ، وهما القسطنطينية التركية على ضفاف البوسفور ، وبلاد التتر الروسية على ضفاف الفولكا . غير ان الباكورة السابقة قد كانت في هذا المركز الاخير قبلما بدت على ضفاف البوسفور . ان هذه النهضة التترية ، وان كانت أقل شهرة من غيرها ، لهي احدى الخوارق في تاريخ العصبيات الجنسية . فالتتر الذين كانوا فيما مضى سادة روسية وحكامها ، وقد طال ما طال من العهد على تلاشي حكمهم وانهيار دولتهم وسلطانهم، قد استطاعوا البقاء والكينونة ، فلم تبتلعهم مبتلمات الاوقيانوس السلافي ، ومع ان بعضهم قد أمسوا خاضعين للحكم الروسي منذ أربعة قرون فما انفكوا مع ذلك محتفظين بوحدتهم في الدين والجنس والتهذيب ، وقد استطاعوا ان يظلوا ، وغالب مزدحم قطينهم في ولايات الفولكا ولا سيما في قطري « قازان واستراخان » ، وفي أيديهم غالب بلاد القريم ، ويؤلفون أقلية عظيمة في عبر القوقاس ؛ مستمسكين بمستقل وحدتهم ومجموعهم بمنجاة من ان يبتلعوا في يم الامبراطورية السلافية . وانهم على تفرقهم في هذه الاقطار العديدة ، لم يبرحوا الاشداء النشطاء في المناطق التي هم حالون بها ، ولا عيب فيهم سوى انهم شم الانوف أباة الضيم فلا ينال منهم ولا تغمز قناتهم .

كان تبدي تباشير اليقظة القومية واستفاقة العصبية الجنسية في تتر روسية

سنة ١٨٩٥ ومنذ ذلك الحين أخذت النهضة الجنسية تنمو نمواً هائلا عجيباً . وكان من شأن الثورة الروسية سنة ١٩٠٤ انها حطمت الاغلال الاستبدادية ، فكانت من بعد ذلك حقبة زاهرة اشرقت فيها شموس الآداب ايما اشراق . فكثر نشر الكتب والنشرات وانشاء الصحف والمجلات العديدة مما ساعد النهضة التترية على النمو المطرد ، فاعتزت اعتزازاً كبيراً . ولما كان التتر في روسية على جانب كبير من الاثراء فقد كان من السهل اعداد جميع ما يقتضى من الوسائل والذرائع المادية في سبيل النهضة . وحقاً قد قام المتمولون التتر ذوو الملايين في باكو بقسط وافر عظيم من العمل لتنمية العصبية فكان لهم بذلك شأن خطير ومنزلة علية ، اذ ما عرفوا التردد قط في بذل المقادير العظمى من الاموال عن جود وسخاء في سبيل الغاية المباركة . وقد ابدى التتر الروسيون حنكة ومهارة فائقتين في عالم السياسة . فغدوا للحال موضع ثقة ابناء اعمامهم التركمان في أواسط آسية الروسية الذين كانوا قد دبت فيهم أيضاً نشوة العصبية الجنسية ، واشتمل مجلس « الدوما » الاول في روسية على عدد كبير من المسلمين الذين كانوا في جهادهم السياسي عصبة متحدة متعاضدة يشد بعضها بعضاً ، لا يني لها جهد ولا همة لاعزاز النهضة التترية ، فغالبوا الصعاب مغالبة غاية في بذل النفس والدهاء والحنكة ، حتى غدا الرأي العام الروسي على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على ان تقلل من عدد النواب المسلمين التتر كيما يقل بذلك نفاذهم في دور الحياة الدستورية الجديدة (١)

(١) لزيادة الاطلاع على النهضة التترية اقرأ : ـ
« المسلمون في روسية » (كانون الاول ١٩١١)
S. Brobovnikov, " Moslems in Russia,, The Moslem World,.
« تتر القريم » (اب ١٩٠٧)
Févret , " Les Tatars de Crimée,, " Revue du Mond musulman,,
كتاب « التهذيب الغربي في الاقطار الشرقية » ذكر قبلا

وقد كان المسلمون في روسية حكماء في السعي وراء مبتغاهم فصارحوا الدولة الروسية باخلاصهم لها ومحضهم اياها صادق الطاعة ، غير ان بعضهم كانوا اشداء الغيرة شدة كشفت معها المطامح التترية الخفية وصرحت عن الآمال التي كان التتر يدأبون جاهدين في سبيل تحقيقها ، ذلك انهم أخذوا في السعي وراء الغاية سعياً حراً في جوّ أنقى هواء وبيئة أخصب مرعى وأرحب منزلا أعني في القسطنطينية حيث قد قيض حقاً لتتر روسية ان يكون لهم شأن عظيم في أفق الجامعة التركية والجامعة الطورانية داخل الامبراطورية العثمانية . وفي الواقع ان أول منشيء لجمية الجامعة الطورانية الأولى من نوعها في القسطنطينية هو يوسف بك اقشورة أوغلي ، المسلم التتري من أهالي الفولكا . وكتابه القيم المشهور الموسوم ب « الانظمة السياسية الثلاثة » غدا اساساً عند معشر الكتاب المسلمين يعولون عليه ، ومناراً يهتدون به في جميع ما كتبوا الى اليوم في شأن الجامعة الطورانية (١)

وظلت الجامعة الطورانية تكتنفها بعض الغمامات في القسطنطينية حتى ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ اذ ان السلطان عبد الحميد كان ، كما علمنا في غير موضع من هذا الكتاب ، مجاهداً كبيراً في سبيل الجامعة الاسلامية ، ومقاوماً شديداً لجميع الحركات الرامية الى العصبيات الجنسية ، فلذلك لم يكن رجال الجامعة الطورانية ، قبل زوال الاضطهاد بهم ، ليلقوا شيئاً من الحظوة

« الجامعة الاسلامية والجامعة التركية » (اذار ١٩١٣)

" X "," Le Pan - Islamisme et le Pan - Turquisme,,
" Revue du Monde musulman "

« المسلمون الروسيون » (شباط ١٩١٤)

H. Williams , " The Russian Mohammedans "
" Russian Review "

(١) لزيادة الاطلاع على الجهود الطورانية اقرأ مقالة « X » المذكورة آنفاً وكتاب احمد امين بالانكليزية (نيويورك ١٩١٤) :

The Development of Modern Turkey- as Measured by its Press

عند السلطان عبد الحميد . فلما ظهرت العصبية الجنسية التركية ظهورها الجلي من القوة الى الفعل بعد انقضاء الدور الحميدي ، تبدلت الحال غير الحال ، فغدا رجال الحكومة الجديدة وهم عشاق عقيدة تتريك العناصر في المملكة، يصيخون كل الاصاخة لدعوة الجامعة الطورانية ويجدّون في سبيل نشرها والتبشير بها انجيلا جديداً ، حتى خرج منهم بالتالي ابطال وقادة يدعون الى هذه العصبية . وجدير بنا في هذا المقام ان لا ننسى ان تتر روسية قد استمروا على جهادهم الأكبر في سبيل العصبية ، فكان زعيم الدعوة للجامعة الطورانية الكاتب القدير المشهور أحمد بك آغايف ، مسلم من تتر الفولكا ، وله جريدته الذائعة الصيت (تورك يوردي) ـ « الوطن التركي » ، التي انتشرت في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني ، وحازت أكبر شأن حتى غدت مستولية على نفوس قرائها نازلة منهم منزلة المقيم المقعد .

على ان قادة الدعوة الطورانية مثل أحمد بك آغايف واضرابه الذين امتدت اطماعهم ووضعوا خطتهم لتوحيد العالم الطوراني طراً من فنلندة الى منشورية توحيداً تاماً ، وأخذوا يجهدون الجهد الكبير في سبيل نشر الدعوة للجامعة الطورانية ، انما كانت جهودهم العملية مقصورة في مبادىء الأمر على توثيق العرى بين الترك والتتر الاصقاء ، أعني بين الترك العثمانيين والتتر الروسيين والتركمان في أواسط آسية وايران . ولما كانت هذه الشعوب جميعها اسلامية فلم يكن من الغريب ان الدعوة الطورانية كان لها ماعدا صفتها الجنسية صفة دينية أيضاً تجعلها متجهة نحو الجامعة الاسلامية في اعتبارات عديدة . ولكننا على وسع لنقول ، مع عدم اعتبار هذا العامل الديني ، ان الحركة التي كانت حاصلة بالفعل عهدئذ بالقياس الى نظرية الجامعة الطورانيـة لم يعدُ امتدادها نطاق الجامعة التركية الا قليلا .

وجاءت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ـ١٣ فكانت هائجاً كبيراً هاج الجامعة الطورانية ودفعها الى الامام دفعة شديدة ، ولم تكن نتيجة هـذه الحروب البلقانية أن أخرج الترك من البلقان فتقلص ظلهم عن تلك الديار فأخذوا

بسبب ذلك يتلفتون فقط نحو آسية ، بل كانت النتيجة الكبرى هياج هائج الغضب الشديد في صدور الهنغاريين والبلغاريين [1] على الصربيين النصارى ، فطفق الاولون يجاهرون بتحدرهم من الارومة الطورانيـة ويذودون عن وحدة الجامعة الطورانية ، ازاء التهديد الذي بدا من ناحية الجامعة السلافية الصربية الروسية [2]

وطفق رجال الفكر العاملون في سبيل الجامعة الطورانية يجدون عن ثقة وايقان في نشر التعاليم والعقائد البعيـدة في الاغراق والمغالاة ، سعياً وراء تحقيق مطامعهم الكبرى وآمالهم العظمى ، وباتوا يعظمون كل الاعظام شدة البأس والروع والبسالة المتجلية في جميع الشعوب الطورانيـة الى حد غدوا عنده يوقنون ايقاناً تاماً ان الجنس الطوراني انما هو الجنس الذي سيسود غداً العالم قاطبة سيادة كاملة دون منازع ، وهب الاقطاب الغير فيهم الراسخون علما في الفلسفة الغربية وفي النشوء والارتقاء والبحث في أصول الشعوب ، يبسطون آراءهم ونظرياتهم المخصوصة بهم في كيفية ارتقاء الشعوب واعتزازها ، واسباب انحطاطها وتدليها ، وعلى حسب التعاليم التي يجاهر بها علماء الجامعة الطورانية بأن الشعوب والأمم التاريخية في جنوبي آسية ـ العرب والفرس والهند ـ انما هي شعوب على جانب كبير من الانحطاط ، وان الشعوب والأمم الاوروبية قد أخذت تنحدر عن الاوج الذي بلغتـه منهوكة القوى خائرة العزم مأكولة الحشى بنار الصناعة الحديثة . لذلك على رأي هؤلاء العلماء

(١) كون البلغاريين او قسم منهم ينتسبون الى اصل طوراني هذا لاريب فيه . اما كونهم يتمسكون بالجامعة الطورانية ففيه نظر ، فان كانت بدرت من هـذا القبيل بعض كلمات اثناء الحروب التي وقعت بين البلغاريين والصربيين حنقاً على الروس الذين كانوا يفضلون الصرب على البلغار دائما فلم يكن ذلك بالدرجـة التي تجعل البلغار عضوا عاملا فى الجمعية الطورانية وقلما سمعنا الاتراك يعتمدون فى هذه الجامعة على البلغار كما يعتمدون على المجر الذين منهم من يجاهر بالاستمساك بحبل الطورانية . (ش)

(٢) للوقوف على المنازع الهنغارية والبلغارية للجامعة الطورانية اقرأ مقال « الجامعة الطورانية » (شباط ١٩١٧)

" Pan - Turanism"," American Political Science Review "

يجب على الطورانيين الاشداء الاقوياء الذين لم ينغمسوا في الحضارة الغربية ولا دبّت فيهم مفاسدها ولا رتعوا مآثمها ،ان يكونوا هم قادة الأمم والشعوب في المستقبل . وبعض رجال الفكر من الطورانيين يستغرقون الغاية بمصارحتهم ان من أقدس واجبات الجنس الطوراني اعادة احياء هذا العالم الهرم المتضعضع ، وذلك انما يتم بتلقيحه بالملقحات الطورانية الدموية ، المصلحة المجدّدة ، التي تبعث فيه صحة وورعاً [1] .

وقد أيقن رجال الجامعة الطورانية انه اذا كان مقدّراً لهم التأليف في شيء من مطامحهم التي ذهبوا بها الى ما فوق الاغراق والمغالاة ، فلن يكون ذلك مستطاعاً الا بانهيار الامبراطورية الروسية وتزلزلها ، لهذا بات رجال الحركة الطورانية يرون روسية بقاطنيها من التتر والتركمان والكيرغيز والفنلنديين والقبائل العديدة الجامعة صلات الانساب بعضها مع بعض ، ان هي الا بلاد طورانية بحتة يغشى تربتها طبقة من الراسب السلافي متفاوت الرقة والكثافة ، ولذلك كانت الغاية التي رامها الطورانيون ، وهي جعل روسية موطناً طورانياً ، غاية هائلة حقاً . ومع هذا فان دعاة الجامعة الطورانية قد حسبوا انهم يلقون عونا على بلوغ غرضهم وتحقيق أمنيتهم من بعض الدول الغربية العظمى فايقنوا ان المانية وأوسترية ـ هنغارية انما كانتا تقتربان ـ أكثر فأكثر من ولوج حرب مع روسية ، وانه متى ما اشتدت جائحة هذه الحرب وكشرت عن انيابها ، سنحت اذ ذاك الفرص الكبرى لادراك الغاية ونيل المبتغى .

ومما لا ريب فيه ان قد كان لهـذه المطامح الدائرة حول محور الجامعة الطورانية شأن كبير في انجذاب تركية الى جانب الدول المركزية وخوضها

(١) اقرأ المقالة المذكورة قبلا للمستشرق « X » . واخرى عنوانها « السياسة الجارية في تركية المعاصرة (كانون الاول ١٩١٢)

" Les Courants Politiques dans La Turquie Contemporaine ,,
" Revue du Monde musulman ,,

معهن ممعمعان الحروب، ومن المؤكد ان أنور باشا قد كان منذ عهد بعيد يجهد في سبيل الجامعة الطورانية ويذود عن حوضها ما استطاع [1] . ومن المقرر المعلوم أيضاً ان الحكومة التركية كان لقوسها وتران أرادت أن ترمي عنهما سهاماً لنيل غرضين معاً ، وذلك انها حاولت ان تسوق الجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية معاً في طريق واحد ، عامدة الى استنفار جميع المسلمين الغُير الحمس في كل قطر من أقطار العالم الاسلامي للجهاد المقدس ، من حيث هي لاجئة في الوقت عينه الى مضاعفة نشر دعوتها للجامعة الطورانية في الشعوب التركية التترية . وقد بين « تكين الب » الكاتب المشهور هذه المطامح الكبرى التي امتدت اليها انظار دعاة الجامعة الطورانية في أوائل كتاب له موسوم ب « التركي وغاية الجامعة التركية » نشره ١٩١٥ ، ومما قال فيه : « متى ما سحقت بسل الجيوش الالمانية والأوسترية والتركية الاستبداد الروسي الغاشم سحقاً ، استطاع ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ الى ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ من الطورانيين نيل الاستقلال والحرية . ثم يضاف الى هذا العدد ١٠،٠٠٠،٠٠٠ من الترك العثمانيين ، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ

---

(١) كان أشد رجال تركيا الفتاة تمسكا بالقضية الطورانية ايام الحرب العامة جمال باشا ؛ ويليه طلعت باشا ، والدكتور ناظم ، وضياء كوك آلب ، وشكري بك ناظر المعارف ، وغيرهم. وكان أقل الناس اهتماما بها هو انور باشا ، وكان جهاده في الاتحاد مع الاتراك الذين بالروسية والحرب التي اصلاها في اذربيجان سنة ١٩١٨ وجلى بها الانكليز عن باكو ، وكسر بها شوكة الارمن ، واسس للآذريين دولة مستقلة استمرت مستقلة عدة سنوات ، وارسل ضباطا قادوا مقاتلة الطاغستان الثائرين في وجه الروس الى حربه الاخير سنة ١٩٢٢ مع الروس في بخارى وهي الحرب التي سقط فيها رحمه الله شهيدا في بولجوان شرقي بخارى بعد ان كان اشعل الثورة العامة من سواحل بحر الخزر الى حدود كاشغر واضطر الروس البولشفيين الى تسيير مئات الوف من العساكر لاخماد هذه الثورة الكبرى كل ذلك كان منه حركة اسلامية محضة من قبيل جهاده في طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ثم ارساله اليها اخاه نوري اثناء الحرب العامة مع ان اهالى طرابلس الغرب ليسوا اتراكا ولا طورانيين وانما يربطه بهم الاسلام لاغير . وكان يقول لي مرارا ان انفس الترك والتتر الذين يحنون الينا في تركستان ويعقدون آمالهم بنا انما يحنون الينا لكوننا مسلمين لا لكوننا اتراكاً . فلو كنا من الترك الباقين على الوثنية في سيبيريا ما عرفونا ولاسألوا عنا .

(ش)

عددها ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوي مع الحضارة الالمانية فتغدو هذه الأمة اذ ذاك شديدة القوة والبأس ، مستسهلة كل صعب لتوالي الصعود بمراج الارتقاء ، وستفوق هذه الحضارة الحديثة في بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانكليزية المنحطتين »

ولما انهارت الدولة الروسية بعد الثورة البولشفية ختام سنة ١٩١٧ ثارت المطامح الطورانية وامتدت في كل جهة جائزة كل حد . وبات رجال الدعوة الطورانية موقنين أشد الايقان باستطاعتهم نيل مبتغاهم حتى غدوا من شدة ذلك يصعرون خدودهم على حلفائهم الالمان وسائر الأوروبيين ، كاشفين بهذا عن حفائظ صدورهم تلك الحفائظ التي يكنونها ابداً للغربيين . وقد ذكر ضابط الماني من اركان الحرب (١) ، حديثاً جرى على المائدة بينه وبين خليل باشا قائد الجيش التركي في جهة الحرب العراقية ، وهو عم لانور باشا ، والى القارىء بعض ذلك الحديث : « يجب في المقام الاول ان يغدو كل عرق يتكلم احدى اللغات التركية أمة ذات وحدة مستقلة ، ويجب ان تكون قاعدة العنصرية والعصبية الجنسية مقدسة ، فلذلك يبيت فتح تركستان ضرباً من الضرورة التي لا منتدح عنها ، وهي فوق ذلك مهد القوة التركية ومنبت المجد ، فاذا ما تم هذا كان أساساً منيعاً يبنى عليه صرح فخم ، ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل « الياقوت » في سيبيرية ، الذين انما يعدون بسبب نسابتهم اللغوية أبعد العروق التركية الضاربة شرقاً ، ويجب على قبائل التتر الغربية اللصيقة المجاورة في القوقاس ان تندمج في الأمة التركستانية اندماجاً تاماً . وذلك يتمّ بطبيعة الحال . ويجب على الأرمن والكرج الذين منهم تتألف الاقليـة في كل قطر من قطريهم ان يندغموا أيضاً في هذه الأمة ، سواء كان ذلك منهم عن طوع أم كره . فان امبراطوريةً تركيةً ، ضخمةً

---

(١) كان رئيس اركان الحرب في الجيش العثماني « ارنست پارا كوين » من مقال له نشر في « برلنر تاجبلاط » (كانون الثاني ١٩٢٠)

Ernest Paraquin — "Berliner Tageblatt,,

منيعة ، مترامية الاطراف مثل هذه ، ولها سيادة على جميع العالم الاسلامي يكون في استطاعتها حينئذ ان تسيطر بنفوذها وتأثيرها على افغانستان وايران .... وفي كانون الاول سنة ١٩١٧ لما اشتدت رحى الحرب في الجهة العراقية وضويق الجيش التركي مضايقة شديدة حتى بات على وشك التسليم ، قال لي خليل باشا مازحاً جاداً : وافرض مزحاً اننا نحن الترك قد غادرنا هذه الصحراء المهلكة وتخلينا عنها لجاء اليها الانكليز ، وذهبنا نحن الى تركستان حيث منشأنا القديم وحيث نستطيع ان ننشيء امبراطورية جديدة ، لابني هذا الاصغر ، وكان قد سمى ابنه باسم الفاتح المخرب — جنكيزخان (١) » (٢)

وفي صيف ١٩١٨ اجتاحت العساكر التركية عبر القوقاس وشمالي ايران متخذة آسية الوسطى وجهتها . ثم بعيد ذلك نزلت النازلة الكبرى بالمانية

(١) لزيادة الإطلاع على الجهود التى بذلها الترك خلال الحرب العامة في سبيل عصبيتهم الجنسية اقرأ : —

« رسالة في الطورانيين والجامعة الطورانية » جمعها الفرع الجغرافي في قسم الاستخبارات البحرية لاركان الحرب في امارة البحر العامة (لندن ١٩١٩)

" A Manual on the Turanians and Pan-Turanianism „ " Compiled By the Geographical Section of the Naval Intelligence Division, Naval Staff. Admiralty „

وكتاب « الهلال والصليب الحديدي» (لندن ١٩١٨)

E. F. Benson, " Crescent and Iron Cross „

وكتاب « ترك آسية الوسطى : أو بحث في الجامعة الطورانية » (اكسفورد ١٩١٨)

M. A, Czaplicka, " The Turks of Central Asia: An Inquiry into the Pan - Turanian Problem „

وكتاب « قصة السفير مورغنتو » (نيويورك ١٩١٨)

H. Morgenthau, "Ambassador Morgenthau's Story„

ومقال « الروح التركية » نيسان ١٩٢٠

A. Mandelstam, " The Turkish Spirit "," New Europe „

(٢) صادفت خليل باشا مرة بالاستانة عند محسين بك والي الشام السابق فسمعته ينادى ابنه الصغير باسم جنكيز . فقلت له : ألم تجد له اسماً غير هذا . فقال لي : سميناه محمد جنكيز ، فجمعنا بين الامرين . يريد ان يقول بين الاسلام والطورانية . فهززت رأسي لهذا الجواب . (ش)

فتضعضعت وتزلزلت ، وانتهت الحرب العامة انتهاء جلب على تركية الخراب والتلاشي ، فصرع رجال الجامعة الطورانية صرعة كبيرة ، وحلت بساحتهم الحيرة ، غير انه قد قيض لآمالهم الانتعاش من بعد ذلك بمدة قريبة كما ترى كيفية ذلك في موضع قريب من هذا الفصل [١] .

يجدر بنا قبل ان نأتي على البيان والوصف لمجاري الحوادث في الشرق الادنى منذ سنة ١٩١٨ ، الحوادث التي يجب ان تعتبر سلسلة متصلة الحلقات ، ان نسوق الكلام على الدور الثاني لترقيات العصبيات الجنسية والنهضات القومية في سائر العالم الاسلامي . وقد سبق لنا العلم بانه لما كانت العصبية الجنسية التركية تنمو مجتازة دورها الثاني كانت العصبية العربية تنمو معها جنباً الى جنباً مجتازة دورها الثاني كتلك ، رامية الى انشاء امبراطورية الجامعة العربية المشتملة ليس على البلدان العربية المعدودة الموطن الاثنولوجي للعرب من شبه الجزيرة وسورية والعراق فحسب بل أيضاً على الاقطار المتعربة من مصر وطرابلس وسائر بلدان افريقية الشمالي الخاضعة لفرنسا وعلى السودان .

على ان الجامعة العربية لم ترقّ الترقية الادبية كما رقيت الجامعة الطورانية، مع ان متجهها العام شبيه بمتجه تلك شبها يغنينا عن تفصيل مباديها وتعاليمها . انما هناك فرق كبير بين مجرى العصبيتين ، وهو ان الجامعة العربية قد ظهر في صفاتها وحالاتها من صبغة الدين والجامعة الاسلامية أكثر مما ظهر في تلك . لان العرب يفخرون بأن مبعث النبي كان فيهم ، ويعدون أنفسهم « أمة الرسالة » التي قدر لها من قبل السيادة على جميع العالم الاسلامي . وينقص الجامعة العربية التنظيم ووحدة السير والمتجه ، تلك الوحدة التي عرفت في الجامعة الطورانية . ولم تبرح سورية ومصر المركزين المعروفين اللذين تنبعث منهما قوة الحركة للجامعة العربية [٢] . وفي الواقع الصحيح ان التدابير

(١) راجع التعليق الباحث في العصبية التركية ص ١٥ من هذا الكتاب (المعرب)

(٢) المركز الوحيد الذي يمكن ان تؤسس به الآن دولة كبرى تجمع بين جانب كبير من افريقية وجانب آخر عظيم من آسية ويستأنف به مجد العرب والشرق اجمع وتحفظ به الموازنة

والخطط الكبرى للجامعة العربية قد نظمت تنظيماً وأنضجت في مصر . وأما البرنامج المصري للجامعة فهو يرمي الى توحيد جميع الاقطار العربية وعلى رأسها الخديوي – وربما صارت هذه الاقطار العربية المتحدة خاضعة للوصاية البريطانية أول العهد ثم بالتالي تنفض عنها هذه الوصاية وتمزقها بمقاومة عامة تقوم بها جميع أقطار الجامعة العربية . ويعزى الى الخديوي عباس حلمي الذي خلعه الانكليز سنة ١٩١٤ تشجيعه لهذه الحركة [1] .

ومما لا ريب فيه ان الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجاً شديداً ، وبعثت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من انشاء مملكة عربية مستقلة في الحجاز ، مدلية بحقوق لها في سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاضطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك ، وثارت تطلب الاستقلال ، متطلعة نحو اسقاط السيادة الاجنبية ومحوها محواً تاماً ، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والايطالية المنتشرة فيمصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الاقطار العربية . وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقاً جعل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية ، وان كانت لم تبرح عاملاً شديداً ، غير ظاهرة

الضرورية لتمكين السلام بين الشرق والغرب هو مصر القاهرة . اذ بمصر جميع ما يلزم من مواد بناء الدول الضخمة من وفرة الاهالي، وخصب الاراضي ، وثروة البلاد ، وتوسط الاقليم وآثار المدنيتين الشرقية والغربية ، وكثرة المباني الاميرية والمعاهد العلمية والخيرية ، الى غير ذلك من اشراط قيام الدول المعظم . وبمصر كانت دول يفتخر بوجودها التاريخ قبل الاسلام وبعده، ولمصر من الوسائل لتحقيق أمل العرب ماليس لغيرها ولا ينقص مصراً سوى الاستقلال الحقيقي وحسن نية المستعمرين . (ش)

(١) لزيادة الاطلاع على سير الجامعة العربية وترقيها اقرأ : —

A Musil, " Zur Zeitgeschichte von Arabieu, (Leipzig 1918).

M. Pickthall « تركية وانكلترة والازمة اليوم » اكتوبر ١٩١٤

"Turkey, England and The Present Crisis, (Asiatic Review)

الشيخ عبد العزيز جاويش — مقاله

"Das Machtgebiet der Arabischen sprache

Preussische Jahrbücher سبتمبر ١٩١٦

كما كانت من قبل ، في صـدر البرامج التي في أيدي رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية الذائدين عن حوض العصبية الجنسية العربية .

زد على ذلك ان الجامعة العربية مشتبكة النسيج ، كما قلنا قبلاً ، بمبدأين عامين شاملين ، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبـدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، ولعل هـذا المبدأ الاخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب ، من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين . ان الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وافكارنا في الجنسية والوطنية ، وانتحل ما انتحل من عقائدنا فيهما ، فهـذه المبادىء والافكار والعقائد اذا انتقلت الى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملأى بصنف آخر من المبادىء والعقائد الراميـة الى الوحدة الاسلامية وتآخي جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق ، بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف الى حد غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التي نستعملها نحن مثـل « الجنسـية » و« الجنس » ، ذهبوا في فهم معنييهما مذهباً مخالفاً لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التي بيننا وبين الشرقيين ، ما هو شائع في أفق جميع المبادىء والعقائد السـياسية . خذ لك مثلا كلمة « الدولة » ، فان الدولة الاسلامية التي يصح اتخاذها مثالا للمقارنة ، ليست كالدولة الغربيـة المشتمل تحديدها على وحدة معينة من الناس ، وأرض يسكنونها مقررة الحدود ، وسلطان ممارس نافذ تمـام النفاذ في كل مكان داخل حدود الدولة . بل ان الدولة في الشرق الاسلامي انمـا هي كناية عن كتلة ، قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبعثة منها ، انبعاثاً مشتملاً على معنى الاسـتقلال المبهم التحديد ، تعتوره آفات الفوضى ويشوبه الاختلال . ومن المعلوم ان غالب الدول الاسلامية مابرحت منذ نصف قرن تجدّ في تنظيم حكوماتها ، واصلاح

شؤونها وسائر أحوالها ، ناسجة في ذلك على منوال الدول الغربية . غير ان المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما في افغانستان حيث القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهي قبائل افغانية متملكة استقلالا عملياً صحيحاً ، كانت تقوم من تلقاء نفسها في المدة بعد الاخرى بشن غارات عنيفة على الانكليز ، غارات حروب استطاع أمير افغانستان ان يتنصل من تبعتها تنصلاً انقطع عنده دهاء الانكليز .

والامر كذلك في الجنسية عند المسلمين . ليست الولادة في البلاد ولا التجنس على الاصول الرسمية شرطاً لمن يريد ان يكون فرداً من افراد أمة اسلامية في قطر من الاقطار ، متمتعاً حق التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية. فوطن المسلم هو العالم الاسلامي من أقصاه الى اقصاه ، لذلك يستطيع المابط أية بلاد اسلامية ان ينال للحال أي وقت شاء حقوق الوطني المكرّم، ذي المقام والمنزلة بين ظهراني القوم . فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلاً لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي نتصوره نحن في الجاري المعتاد . فاذا ما أقام مسلم جزائري أو دمشقي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره « مصرياً وطنياً حراً » بصحيح معنى العبارة . والسبب في ذلك ان من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية ، فجميع الاقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الاسلام » (وضدها دار الحرب) وهي المواطن التي قاطنها مسلمون ، يجب عليهم باعتبارهم أمةً واحدةً متحدةً ، الذب عن سياجها والذياد عن حياضها وهذا هو السبب في اننا نرى انه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرفاً من العالم الاسلامي ، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد ، على غير ان يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك ، كأنما المعمور الاسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتلّ سائر الاعضاء .

ترانا بعد جميع ما تقدم نستطيع ان نعلم كم هناك من المفكرين المسلمين

الجامعين لمبدإ الجنسية الغربية وسنة «دارالاسلام» التقليدية ، الذين قد ألفوا بين هذا وتلك تأليفاً مشتركاً نجم عنه مزيج فكري جديد ومعتقد عام عرفا بجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، وقد بين مسلم هندي متجه هذا المعتقد بقوله : « ان جميع علوم الغرب في فن الحكومات قائم على قاعدة ان الفروق الجوهرية في بني الانسان مقررة على اعتبارات جنسية وجغرافية . على ان هذه القاعدة ليست بمعروفة هكذا عند الشرقيين ، فعندهم ان الفروق الانسانية هي قائمة على اختلاف في المعتقدات الدينية ، فليست الوحدة لعمري في الامة ولا في الدولة بل في الملة . ويرى الأوروبيون في مثل هذه الحال في الشرق اليوم مثيلاً لتلك الحال التي اجتازتها أوروبة في القرون الوسطى ، اذ أن العالم الاسلامي ليجتاز دوراً لا مندوحة له عن اجتيازه وهو دور التجدد السليم والانتقال الصحيح . وعلى هذا فما أسوأ فهم الغربيين لتلك الصورة الجامعة المتجلية للمسلم في دينه ! ! ان الغربيين لينسون ان الاسلام ليس مقصوراً على كونه ديناً فحسب ، بل انما هو نظام اجتماعي ، ونهج تهذيبي ، تضاف اليهما الجنسية . ان قاعدة التآخي الاسلامي ، وان شئت فقل الجامعة الاسلامية ، هي مقارنة « للوطنية » ومماثلة لها ولكن بينهما فروقاً : وهي ان هذه الجامعة الاسلامية وان أدت الحال الى التحاكي في الشرائع والقوانين والعادات ، فانها ليست (كالجنسية الغربية) قائمةً على الوحدة في الجنس والاقليم والتاريخ ، بل انها قد تلقيت من الله تلقيناً تواً على حسب معتقدنا » [1] .

ان جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، لظاهرة حديثة النشأة ، لم تقرر تعاليمها بعد ، غير انها بادية جلية في العالم الاسلامي قاطبةً ، وهي أبداً تزداد اعتزازاً ومنعةً ولا سيما في اقطار شمالي افريقية والهند حيث لم تكن هناك

(١) محمد علي رئيس «وفد الخلافة» الوفد الذي اوفده مسلمو الهند الى بريطانيا سنة ١٩١٩ ليحتج على تقسيم الامبراطورية العثمانية بمقتضى معاهدات الصلح — من مقال لهذا الرئيس. « الحركة الاسلامية في الهند » (كانون الثاني ١٩١٤)
" Le Mouvement Musulman dans l'Inde "
(Revue Politique Internationale)

الوطنية الاقليمية الشديدة لسبب ما مترقية ترقي غيرها في سائر الاقطار. قال كاتب فرنسي في هذا الصدد : « ان العصبية الجنسية الاسلامية ليست هياجاً موضعياً قائماً في قطر معدوماً في آخر ، أو اضطراباً موضعياً غير منظم ، بل انما هي تيار جارف بعيد الافق ، وطوفان طام العالم الاسلامي طراً من آسية والهند وافريقية ؛ فالعصبية الجنسية انما هي شكل حديث للاسلام له منعة في ذاته لا يقوى على زعزعتها الاصطدام بالحضارة الغربية . وهذه العصبية سائرة سيرها مستعينة بكل عامل شديد من الغيرة الدينية ، ومستمدة للامتداد والانتشار وردّ الناس الى دين الرسالة ، ونزاعة الى تحقيق وحدتها باشعال تعصب العامة من المسلمين وبالسيطرة على المرامي السياسية التي تدير دفتها الخاصة ، وببذر بذور الهياج الهائل في كل صقع وقطر [١] » فجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ستكون في المستقبل عاملا أكبر وركناً أعظم ، يقام له ويقعد في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه [٢] .

— ٣ —

هنا ينتهي وصفنا للعصبيات الجنسية في العالم الاسلامي . ولعمر الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق ، وقد ارتوت نفوس شعوبه وأممه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فصيرتها ناراً ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب

(١) كتاب « العصبية الجنسية الاسلامية » المذكور قبلا لسرفيه .

(٢) لزيادة الاطلاع على جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اقرأ بعد سرفيه ومحمد على :—

« الاسلام في القرن التاسع عشر » (باريس ١٨٨٨)

A. Le Chatelier, " L'islam au dix - Neuvième Siècle "

« انكلترا والاسلام » (حزيران ١٩١٩) Sir T. Morison

" England and Islam" - " Nineteenth Centur and after "

« القضية الايرانية » (باريس١٩١٦)

G. Démorgny, " La Question Persanne "

« عبر القوقاس ماضيا وحاضراً » (اكتوبر ١٩٢٠)

W. E. D. Allen, " Transcaucasia. Past and Present "

" Quarterly Review "

التي نزلت عليه وبلاءً عميماً وبلاء شاملا ، مرجلا شديد الغليان فوّاراً ، وبركاناً ثائراً . من المعلوم البين انه قد كان من المستطاع عقد مصالحات سليمة من النقائص والمشاين ، وذلك بالجري على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج . لكن مؤتمر فرسايل السلمي كان وياللأسف الشديد متجرداً عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة في الرأي ، ونظر بالعواقب فنجم عن ذلك ان تلك « التسويات » الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شر حبوط ، ليس في ضمان السلم لأوروبة فحسبُ بل كان من شأنه اماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب الحقيقي ازاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذي عادت فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت ما قبل الحرب ، روح التوسع الأمبراطوري والجشع الاستعماري ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، وانتهاب ما بين أيديها وما خلفها ، واستنزاف دمائها ، وشد الاخنقة على ما حول رقابها . زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشد العمه ، غير معتبرين شيئاً التطورات النفسانية الهائلة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب ، فلم يلجأوا الى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، والى انتهاج نهج سياسي خير من ذلك الذي انتهجوه قبلاً ، بل ظلوا على المضي في معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التي أنّ من فدح عبئها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية ، ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسية ما برحت ذلك الجبار المستغرق في هجعته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها اسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى ، في تقرير المصير ، خلال المعمعان الاكبر ، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض

منهم في الحين الذي كانوا فيه يصرحون بالذياد عن الحرية وتقرير المصير)
وأرادوا بمقتضاها تقسيم الامبراطورية العثمانية ، اشباعاً لشرههم الكلبي
ونهمتهم الوحشية ، ممتهنين شر امتهان ارادة أهالي البلاد ورغبتهم فيما يشتهون
أن يكونوا عليه من الحكومة . وكان مؤتمر فرسايل كشافاً عن واقع
المقاصد السيئة والاغراض الخبيثة التي انطوى عليها الحلفاء ، اذ تجلى ذلك
بتلك الطريقة الخدّاعة التي التزم جانبها المؤتمر في رفضه قبول وفد ايران الذي
أوفدته حكومته لبسط القضية الايرانية (وايران كانت ما برحت مستقلة
استقلالاً اسمياً ظاهراً) . فكان من الأمر أن حمل المؤتمرُ الوفدَ على البقاء في
باريس مدة جعل يملله خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء ،
بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الخناق على عنق حكومة الشاه في
طهران الى أن أكرهتها اكراهاً على ابرام « اتفاق » باتت ايران كلها بمقتضاه
بلاداً محمية في كنف الامبراطورية البريطانية . وأما المصريون ـ الذين كان
دأبهم وديدنهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التي اعلنتها بريطانية
منفردة ، من تلقاء نفسها ، في مصر سنة ١٩١٤ ـ فقد اوفدوا الى باريس
وفداً ليبسط قضيتهم فرفض مؤتمر فرسايل الاصاخة لأقوال الوفد ، بل افهم
رجاله أن المؤتمر انما يعتبر الحماية البريطانية في مصر أمراً قضى وحكماً أبرم .
فنجم عن جميع ذلك ما عدّ نتيجة من نتائج الحرب ، وهو أن السيطرة
الأوروبية على الشرقين الادنى والاوسط قد شدت أطنابها ، وتوطدت عمدها
واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

على ان الأمر الاغرب والاعجب في جميع القضية لم نبسطه بعد . قد
يخال بعضهم ان قادة الحلفاء ماكانوا الا ليدركوا انهم كانوا في نهجهم هذا
النهج يركبون مركباً خشناً ، ويعانون صعباً في سبيل أمر لايستطيعون بلوغ
الغاية منه الا بصف الجانب الى الجانب ، وتعاقد الأيدي على التعاون ،
وتقارض شد الأزر ، وسرعة الامضاء . غير ان الواقع كان الضد كل الضد

من هذا . اذ انهم لم يكادوا يمدون أيديهم بعضهم الى بعض حتى ذعر الشرق ايما ذعر ، واجفل ايما اجفال ، متقداً حنقاً وغضباً وبأساً . فما كانوا ليقيموا لهذا شيئاً من الوزن والاعتبار ، بل ركبوا رؤوسهم في طريق السوء وشرعوا يتخاصمون ويتقاتلون على اقتسام الغنيمة ، بحيث صار كل منهم يتجهم للآخر ، ويريد ان يفوز على سائر شركائه بالسهم الأربح والنصيب الاوفر . فانقضت سنتان دون ان تستطيع بريطانية وفرنسة وايطاليــة الوصول الى ابرام اتفاق بينهن ولو ظاهراً ، يرتضين بمقتضاه خطةً في تقسيم الامبراطورية العثمانية ، بل ظللن طول هــذه المدة ينهش بعضهم اقفية بعض ، وتكيد الواحدة المكايد وتلقي الأحابيل والاشراك في سبيل الأخرى . وكذلك كان شأنهن في جميع الشرق الادنى . قل الحق ولا تخش لوماً . انما ذلك كان خفةً وطيشاً وجنوناً ، فباتت الشعوب التي قضي عليها بأن تكون ضحايا بريئةً ، تمزقها مخالب الاستعمار ، تدرك جيداً من وراء ذلك التطاحن الذي شرع يتطاحنه الحلفاء على مشهد منها في سبيل امتصاص دمائها ، ان السيطرة الاورويبــة قائمة ليس فقط على « الافلاس » في الآداب الصحيحة والاخلاق الكريمة بل في السياسة أيضاً ، واضحت النتيجة جليةً ، وهي ان سيطرة متهدجة مثل هذه السيطرة القائمــة على أساس المفاسد والعيوب ، لعجلان ما تزلزل شر زلزلة ، وتقوض تقويضاً يصيرها أثراً بعد عين .

هذه هي الحالة العامة التي يفقهها الشرقيون اليوم ، على ان شعورهم بحولهم وقوتهم ، وبتضعضع الغرب وتقاطعه وتفكك أوصاله ، لم يكن الهائج الفذ الذي هاج منهم هذه النفوس الثائرة ، بل ظهر لهم هناك حليف جديد وقف من ورائهم وما فتىء يجدّ في تشجيعهم على القيام في وجه الغرب ، يؤرث نار العداء بينهم وبينه ـ ألا وهو الروسية البلشفية ، التي قد قلبت لاوروبة ظهر المجن وانبرت تبتغي زوال الحضارة الغربية . فلما اشتد الخطب واستحكمت حلقاته ، وحرج المأزق بين الشعوب الشرقيــة والدول الغربية ، وجد القادة

البلشفيون الفرص الكثيرة قد لاحت في الشرق آخذاً بعضها برقاب بعض، ممهدة لهم سبل الوصول الى غاياتهم ، فهللوا لها فرحاً وسروراً ، وشرعوا يبثون دعوتهم المعروفة ، وسنفصل الكلام على المساعي البلشفية والاعمال التي قام بها قادتها في الشرق في فصل « القلق الاجتماعي » من هذا الكتاب . غير ان مايعنينا عليه الآن هو ان الدعوة البلشفية انما هي عامل كبير في هذا الغليان الشديد البعيد الغور ، والثوران الشامل المنتشر في الشرقين الادنى والاوسط ، الذي جر فادح البلايا الى بعض الاقطار وجلب عليها الخراب والدمار ، ومازال منذراً بالتزايد والتفاقم في المستقبل القريب .

اننا لو شئنا التفصيل في شأن هذا الاضطراب المشهود اليوم في الشرق لاستغرق ذلك اسفاراً ضخاماً . لذلك نقصر الكلام في هذا المقام على المراكز الكبرى التي هي مناشيء هذا الاضطراب ومبعثه ومصدره ، عالمين ان هذا الغليان عام الطوفان ، مطبق الطمو في جميع العالم الاسلامي ، من الاقطار الافريقية الشمالية الفرنسية الى أواسط آسية والجزائر الهولندية . واما المراكز التي نبسط الكلام عليها الآن فهي مصر وايران وتركية والاقطار العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية . وهناك غير هذه المراكز مركز خامس كبير — هو الهند . غير اننا سنبسط الكلام على هذا المركز الاخير في الفصل الذي يتلو .

أن العاصفة الأولى قد عصفت في مصر . ظلت مصر مدة الحرب وهي مغمورة بطوفان الجيوش البريطانية ، ومصفدة شر تصفيد بالاغلال العسكرية (العرفية) ساكنة هادئة ، ولكن تحت ضغط الجور الهائل وارهاق الحد والقسوة العسكرية ، لا عن طاعة مختارة ولا عن طيب نفس ، وقد علمنا فيما سلف من الكلام في غير موضع كيف أضحى جمهور متهذبة المصريين عند مطلع القرن العشرين ، متشربين قليلاً أو كثيراً لمباديء القومية والعصبية الجنسية ، من حيث كان جانب كبير منهم يعتقدون نهج مناهج الارتقاء

المتدرج ، لا نهج العنف والثورة . وكان المعتدلون من المصريين أقوياء الامل بحسن العقبى ، والسبب في ذلك كون الحكم البريطاني ذا صفة موقتة لا دائمة . كما أن بريطانية قد أعلنت من ذاتها مراراً انها محتلة مصر « احتلالاً موقتاً »، مما جعل المصريين يعتقدون ان جميع ما يرجون نيله لمستطاع . غير ان اعلان الحماية سنة ١٩١٤ اعلاناً جعلت مصر بمقتضاه قسما من الامبراطورية البريطانية ، كان من شأنه انه بدل صورة القضية تبديلا تاماً ، ونقض شكلها نقضاً كلياً ، فايقن جميع أهل مصر حتى اكثر الوطنيين اعتدالا ان قد قضي على مستقبل مصر بالويل قضاء مبرماً ، وسبق السيف العذل ، وان الابواب قد أغلقت دون النجح شر اغلاق ، وأوصدت دون بلوغ آمالهم ونيل مطامحهم ، وحيل بينهم وبين ما يبتغون . فنجم عن ذلك ان انحاز المعتدلون الى جانب الغلاة وباتوا جميعاً من بعد ما كانوا شتى ، على استعداد للقيام باعمال الشدة والعنف والمقاومة والمشاكسة عند سنوح الفرصة ولوح النهزة .

وكان غلاة الوطنيين ما فتئوا منذ بدء الامر يوالون احتجاجاتهم على اعلان الحماية ، فعند ختام الحرب العامة أوفدت مصر وفداً مؤلفاً من المعتدلين والغلاة الى باريس ليقوم ببسط القضية المصرية لدى مؤتمر فرسايل، فخيب المؤتمر الوفد كما ذكرنا ذلك في موضع قريب ، وأبى الاصاخة لاقواله واستماع شكواه ، معترفاً بالحماية البريطانية في مصر جزءاً مندمجاً في التسويات التي بني عليها عقد الصلح . فرفع الوفد المصري احتجاجاً رسمياً منذراً فيه الحلفاء بنشوء الاضطراب في مصر ، جاء فيه : —

« لقد قرعنا الباب اثر الباب لكن على غير طائل . وانه بالرغم من العهود المؤكدة والوعود الموثقة ، التي قطعها رجال السياسة الذين كانوا على رأس الأمم التي جنت ثمار الظفر ، بأن فوز الحلفاء انما هو نتيجة لنصر الحق على القوة ، ولتأييد مبدأ « تقرير المصير » بحيث تترك الامم الصغيرة وشأنها تختار لنفسها من انواع الحكم ما تراه موافقاً لمصلحتها ، — بالرغم من جميع ذلك —

فان الحماية الانكليزية على مصر قد أدخلت في نص معاهدتي « فرسايل » و « سان جرمن » ، دون الوقوف على رأي الشعب المصري في أمر موقفه السياسي .

« فنحن ازاء هذه الجريمة الواقعة على أمتنا ، والتي هي في الواقع خيس بالعهود من قبل الدول التي أعلنت الملأ كافة انها واضحة في تلك المعاهدة نفسها بناء « عصبة الامم » ، لا بدّ لنا من التحذير الشديد الى ان الشعب المصري ليعتبر هذا الحكم الصادر عليه في باريز باطلا لا وزن له البتة . . . . واذا لم يسمع تحذيرنا هذا فانما ذلك لأن الدماء التي أهرقت من قبل في سبيل حرية الامم لا تزال غير كافية لقلب النظام العالمي القديم ، واحلال نظام عالمي جديد محله ».

فما كاد حبر هذا الاحتجاج يجف حتي أخذ الاضطراب ينشأ وينتشر في مصر . وفي الحين الذي فيه وصل الوفد الى باريس ليبسط القضية ، رفع الوطنيون في مصر مطالبهم الى السلطة البريطانية ، واشتمل برنامج الوطنيين على مطلب الحكومة الذاتية الناجزة لمصر مبقياً لبريطانية حق المشارفة على الديون العامة وقناة السويس . وظهرت قوة الوطنيين مظهراً شديداً مؤيداً ، وذلك ان مطالب البرنامج بجملتها هي مما وافقت عليه الوزارة المصرية التي عينها الخديوي قبيل ذلك تعييناً نائلا لرضى الحكومة البريطانية . فطلب رئيس الوزارة المصرية رشدي باشا ان يؤذن له ولبعض زملائه في الشخوص الى لندن للمفاوضة مع حكومتها ، فأمست السلطة البريطانية عند هذا الطلب في موقف حرج ، لكنها اختارت ان تعتزم التصلب في موقفها ، وعلى ذلك أجابت ان الحكومة البريطانية ليس في وسعها ان تتخلى عن التبعة الملقاة على عاتقها وهي التبعة المقتضية استمرار الأمن والنظام والحكومة الصالحة في مصر ؛ وهي البلاد التي أصبحت تحت حماية بريطانية وصارت جزءاً متمما للامبراطورية لا ينفصل عنها ، وان ليس هناك عائد خير يستفاد من السماح

زعماء المصريين بالذهاب الى لندن حيث يبسطون مطالب غير معتدلة لا يستطاع الاصغاء اليها ولا مما يحتمل وضعه على بساط البحث والاعتبار .

ان موقف الانكليز في مصر كان شديداً صلباً ولكن ما كان موقف الأمة المصرية بأقل منه شدة وصلابة . فاستقالت الوزارة للحال ولم يكن من المستطاع تأليف وزارة تخلفها ، الأمر الذي اكره المندوب السامى البريطاني الجنرال اللنبي على الأخذ بأزمة الحال بيد شديدة على غير هيبة ولا وجل . وفي هذه الغضون جاهر رجال النهضة انهم انما يريدون استفتاء الأمة المصرية استفتاء تعرب فيه عن مقرر موقفها في ذلك البرزخ . فأبت السلطة البريطانية على الوطنيين ذلك وشرعت تحول دون نيل مرادهم ، ولكن على جميع هذا قد استطيع الاستفتاء وان كان غير قانوني ، فكانت نتيجته على ماأراد رجال النهضة ، وهي تأييد الشعب تأييداً عاماً للمطالب الوطنية . فحمل ذلك الموقف ـ الذي وقفته الأمة متضامنة يشد بعضها بعضاً ـ الحكومةَ البريطانية على ارهاف الحد والاستعانة بوسائل القسوة والعنف، فقبضت السلطة البريطانية في مصر على أكثر القادة الوطنيين وأبعدتهم الى مالطة في ربيع ١٩١٩ وزعقت في آذان الأمة المصرية زعقة ما كان أشدها .

على أن مصر أجابت المرعب المهدّد بالانفجار الهائل فالتهبت نار الثورة في البلاد من أولها الى آخرها وما كان شبوب النار فى موضع أقل منه في آخر تخربت المسالك الحديدية تخريباً ، وقطعت الاسلاك البرقية تقطيعاً ، وهوجمت القطر واستلبت استلاباً ، وقتل الضباط والجنود البريطانيون حيث كانوا يثقفون على انفراد تقتيلا ، وفي القاهرة وحدها نهب الغوغاء ألوفاً من البيوتات والمنازل ، وزاد الخوف واشتد البلاء بتدفق عرب البادية مغيرين للغنيمة والسلب ، فظلت مصر في هرج ومرج تتهدج على شفا جرف الفوضى ، واعترفت الحكومة البريطانية أن مصر انما كانت فى فتنة صماء .

فاستقبلت السلطة البريطانية المأزق الحرج برباطة جأش وشدة مضاء وكان

عدد الجنود البريطانية في مصر كثيراً ، واستقدمت الكتائب السوداء الامينة من السودان . وقام الشرط الوطنيون المصريون ، المدربون تدريباً حسناً ، بطاعة الامر في الساعة العصيبة . وكانت بضعة اسابيع اشتد فيها الاضطراب واستحر القتال ، وعظمت الخسارة في النفوس والثمرات ، ثم سكنت مصر واقتيدت تحت جناح الحكم .

وأعيد النظام ، غير ان البلاد ظلت ظاهرة مظهراً غاية في التشاؤم مملوءاً بنذر السوء وشر العقبى ، وما كان حفظ النظام مستطاعاً البتة لولا العدد الكبير من العساكر البريطانية والسودانية ، وما كان التشدد الهائل بتطبيق الأحكام المسكرية (العرفية) الجائرة بحائل لاهل مصر دون القيام بالتظاهرات الوطنية بعضها يتلو بعضاً ، مما كان ينتهي أحياناً بالهرج والمرج ، والاختلال والقتال ، وازهاق الأرواح العديدة : غير أن الأمر الاهم في جميع هذه الحالة هو أن أهل الطبقات العليا في الأمة لم يكونوا وحدهم المشتعلين بنار الوطنية والمتعاقدين بعضهم مع بعض على الذياد عن حوض العصبية المصرية ، بل كانت من ورائهم الملايين العديدة من الفلاحين الذين كانوا من قبل معروفين بصدق طاعتهم والاخلاد الى السكينة ، لكن الحرب العامة كانت ألقت بجرانها عليهم وعانوا من جرائها الويل الأكبر ، اذ حملت الضرورات العسكرية الدولة البريطانية على تجنيد مليون واف من المصريين الذين ساقتهم للقيام بالأعمال الاجبارية في الشرق الأدنى حتى وفي أوروبة ، وجمعت بريطانية من مصر المقادير العظيمة من أنواع الحبوب والاعلاف والميرة اللازمة للجيوش ، الامر الذي هاج نقمة الفلاحين ايما هياج ، واضرم فيهم في الباطن الشنأة الكبرى للحكم البريطاني ، مما أخذ يظهر بالفعل والحس والعمل . فبات ثقات خبراء الانكايز المتضلعين من شؤون مصر يتشاءمون من الحال شديد التشاؤم . قال السر وليم ويلكوكس المهندس المشهور ، بعيد الفتنة ، في بيان عام له : « ان الفلاحين في مصر كانوا حجر الزاوية التي قام عليها الاحتلال البريطاني ، وأما الشيوخ

ورجال العمد وأهل الاحكام ورجال الدين فقد كان شأنهم من حيث زعزعة الاحتلال لا يؤبه له ، لانه سواء ناصبنا هؤلاء العداء أم لا فقد كان وراءنا ملايين من الفلاحين سنداً للاحتلال كبيرا . بيد انه مما لا ريب فيه البتة اليوم أن الحكومة البريطانية قد اضاعت ولاء هذه الملايين لها وفقدت ثقتهم بها » . وقال السر فالنتين تشيرول في مقال له نشره في « التيمس » اللندنية: « ان هناك حقيقة جارحة امسينا اليوم نراها مصرحة عن محضها ، الا وهي قيام سواد الفلاحين المصريين للمرة الاولى منذ أول عهد الاحتلال ، وهم مدينون لنا بنعمتهم وحسن حالهم اكثر من سائر طبقات الشعب ، ينتقضون علينا وينقلبون لهبة من النار مندلعة يريدون التهامنا . اني اعتقد أن الواقفين حق الوقوف من أبناء قومي حتى من أهل الحل والعقد من أرباب المقامات الرسمية على حقيقة حرج الموقف واشتداد المأزق في مصر لقليلون جدا . فقد طفح الكيل ونحن عن ذلك غافلون »

وقد راع الشعور الوطني الشديد اربابَ النظر والاستقصاء روعاً كبيرا ، وهالتهم ثورة العصبية الجنسية المصرية هولاً عظيماً ، تلك الثورة التي كان من شأنها أن وحّدت جميع طبقات الامة والّفت بين الاسلام والنصرانية . قال كاتب ايطالي في شأن التظاهرات الكبرى الهائلة التي اقيمت في مصر خلال سنة ١٩١٩ معظماً مكبرا : « ان هذه المرة لهي الاولى في التاريخ رأينا فيها الرايات خفاقة والاعلام خطارة في مصر وقد نُسجت خيوطها أهلة وصلبانا ظهرت في وادى النيل ، فقد ظل العنصران الاسلامي والنصراني في مصر حتى العهد القريب متقاطعين متدابرين ، ينفر كلاهما من الآخر كما يُنفر من اليهود ، أما اليوم فقد حدث في مصر كما حدث في الهند بين المسلمين والهندويين ، من امحاء آثار التعصب وزوال الانشقاقات الدينية المختلفة . ان المصريين قاطبة قد غدوا يتظللون علماً وطنيا واحدا ، وبات كل منهم متقدا بروح التآخي والتصافي ، شديد الثقة بأنه متحدا مع اخيه وبنى

قومه لا بد له من ادراك الفوز واحراز الفلاح [1] » وقالت سيدة فرنسية قضت فى مصر غالب حياتها « اننا وأيم الله قد اصبحنا نشهد العجائب والغرائب في هذه البلاد التي كانت فيما مضى موطن الانشقاقات المذهبية ومباءة المشاحنات الدينية : فما هذا لعمر الحق ! ! قسيسون اقباط يعظون فى المساجد الاسلامية وعلماء شيوخ مسلمون يعظون فى الكنائس النصرانية، طلبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات ، جميعا على وئام وثيق واتحاد مكين فى سبيل القضية الوطنية . كل فرد من الامة يتشوق متلهباً غيرةً وطنية الى رؤية بلاده حرة ينبلج عليها الاستقلال انبلاج الصبح المبين ، مفيضاً عليها الخيرات والبركات . ان مثلي ممن عرف مصر فى عهد توفيق ليهوله كل الهول ما يشهد اليوم بعينه من تطور شأن المرأة المصرية هذه السنوات الاخيرة ، هذا التطور الاعجب فى جميع ما حدث من ضروب الانقلاب والترقي في وادي النيل . ان من كان يعرف صفات حياة المرأة فى مصر ، حياة الاهمال والانقباع في اكسار البيوت والمنازل بمعزل عن أي شأن تشتم منه رائحة سياسية ، ليدهش دهشا كبيرا حيال ما قد حدث من التطور في هذه الاشهر الاخيرة . خذلك مثلا . قامت السيدات في مصر الصيف الماضي بتظاهر كبير . فاحتشدن وسرن في القاهرة مواكب جليلة ، فهرعت فرق الجنود البريطانية للحال ، واصطفت نطاقا من حول الموكب مصوبة نحو النساء البنادق وفى رؤوسها الحراب المسددة اللامعة ، واذ هدد جندي سيدة لسرعان ما دارت اليه زائرة زأرة اللبوءة تحمي أشبالها وكشفت عن صدرها وصاحت به : اغرس ياجندي حربة بندقيتك فى صدري فيعرف العالم أن هناك غير واحدة من النساء امثال الآنسة كافيل » [2]

(١) ٣٠ دسمبر ١٩١٩ G. Civimini, in the "Corriere della Sera"

(٢) مدام جهان دي فراي من مقال لها : « في مصر » ١٥ سبتمبر ١٩٢٠ .
Madame Jehan d'Ivray, "En Egypte", "Revue de Paris"
ووصفت هذه السيدة طائفة من الحوادث الرائعة على هذا الطراز . ولزيادة الاطلاع اقرأ

لحمل اشتداد هذه الثورة الوطنية التي لم يسبق لها مثيل في مصر ، رجال الانكليز على الانقسام فريقين مختلفين : فريق مثل السر وليم ولكوكس والسر فالنتين تشيرول وانداده‌ما ، ينادون بوجوب الاذعان العاجل ، للمطالب الوطنية التي ينادي بها أهـل مصر . وفريق آخر من أرباب الاستقصاء يؤكدون ان الاذعان للمطالب المصرية انمـا هو دليل الضـعف ومجلبة البلاء . قال السر م . مكئيلرايث . « اذا انتقل الحـكم من أيدينا الى أيدى الحكومة الوطنية فلا يمضي على ذلك اكثر من خمس سـنوات حتى ينتشر الاختلال ويعم الاضطراب .... اننا اذا شئنا ألا ندع مصر تنقلب مستغرقة في حمأة الافلاس وبؤرة الفوضى اللتين نجيناها منهما سنة ١٨٨٢ وهي الآن محاطة باهوال البلشفية كما تؤيد هـذا الأدلة المشؤومة الآخـذة في الازدياد ، وجب على بريطانية ألاَّ تترك أعنة الحـكم في مصر ولو على وجه الارخاء» [١] ثم اشتدت حالة مصر اشتداداً عظيما قلقت من اجله بريطانية قلقاً كبيراً ، ففي صيف سنة ١٩١٩ اعلنت الحـكومة البريطانية انها قد عينت لجنة تحقيق برأسها اللورد ملنر لتشخص الى مصر وتتولى القيام بالتحقيق التام في الشؤون المصرية .

فكان أمر تعيين اللجنة التحقيقية الحـكمة عينها . اما اللورد ملنر فهو من اعاظم الرجال الانكليز في عالم السياسة البريطانية ، كثير الاختبار والحنكة في معالجة معضلات الامبراطورية ومن جملتها معضلة مصر . وهو ذو مزاج خلقي يبعده من آراء الاحرار الخيالية القليلة التحقيق ، ويقصيه عن التشدد تشدد المحافظين بقواعد مذهبهم ، بحيث يجعله وسطا بين المذهبين على مذهب أهل

« الملحقات للكتاب المصري الابيض » المشتملة على شواهد عديدة معززة بالصور والرسوم مما يدل على المظالم والفواحش والكبائر التي اقترفتها الجنود الانكليزية .

(١) « العصبية الجنسية المصرية » يوليو ١٩١٩

Sir M. Mc Ilwraith, "Egyptian Nationalism„ "Edingberg Review„

« مستقبل مصر » ٦ نوفمبر ١٩١٩

Hon. W. Ormsby-Gore, " The Future in Egypt „
" New Europe „

الحقيقة ، الذين يقولون بأنه لايصح الا الصحيح . هذه هي صفة الرجل كما دل عمله على ذلك بعيد حين . فلما وصل وزملاءوه الى مصر في اوائل سنة ١٩٢٠ رأوا انهم ازاء حالة من أكثر الحالات حرجاً ، ومأزق من أشد المآزق عناء ، اذ قبل وصولهم كانت الاذاعات قد انتشرت في وادي النيل تدعو الأمة لايجاب مقاطعة اللجنة . واجمع الساسة الوطنيون وفيهم رجال الدين على رأسهم مفتي الديار المصرية ، على رفض الدخول في المفاوضة والمناقشة في أى شـأن من الشؤون ما لم توافق اللجنة مقدماً على اسـتقلال مصر . فظهر ذلك بجملته عقبة كأداء ، ومعضلة شديدة ، غير ان اللورد ملنر قد استطاع على كل هذا بوافر الحنكة وشديد الصبر ان يفاوض سعد باشا وغيره من القادة الوطنيين اهل الحل والعقد ، مفاوضة حرة ، ويباحثهم مباحثة صريحة طلقة .

ومما لاريب فيه ان بعض تطورات الحال التي حـدثت في مصر في تلك الغضون قدكان من شـأنها انها كانت للورد ملنر معواناً في مجاهيده . اذ في مصر كما في سائر الاقطار الشرقية كانت الأعراض والظواهر اخـذت تبدو جلية دالّة ليس على الاضطراب السـياسي فحسب ، بل على الاجتماعي ايضاً ، فانبرى كثير من الهائجين وأهل السجس ، اهل الطراز الجديد في مصر ، ينظرون في عامة الشعب الآراء والمبـادىء الثورية على منتهى الغلو ، فاقلق هؤلاء الفتيان الهـائجون بال القادة الوطنيين المتمشين على الخطط المعينة ، والناهجين المناهج المنظمة ، حتى باتوا مهددين من ناحيتين : الأولى من حيث هم زعماء احزاب سياسـية ، والأخرى من حيث هم من ارباب الشأن والمـكانة الاجتماعية وعلية القوم . فنجم في خريف سنة ١٩٢٠ ان اللورد وزغلول باشا توصلا الى الاتفاق على قواعد اساسية دلت على التراضي المتبادل الصحيح . وكانت خلاصة هذا الاتفاق الممهد لما يتلو ، على حسب ما بلغته الصحف وأيدته صفة البيان الرسمي الذي وضعه اللورد ملنر مايأتي : ان ترفع بريطانية الحماية عن مصر وتعلن ان مصر هى مستقلة ، ان يكون الاستقلال

الذي تملكه مصر مساوياً بكفايته لاستقلال « كوبا » ازاء الولايات المتحدة الاميركية ، ان تمنح مصر حكومة ذاتية ناجزة ، ان تسحب بريطانية الحامية البريطانية والموظفين الملكيين ، ان تعقد مصر على كل حال معاهدة محالفة مع بريطانية العظمى ، ان تتعهد مصر ألا تعقد هي معاهدات مع الدول الاخرى الا برضى بريطانية وموافقتها ، واخيراً ان تمنح مصر بريطانية موقعاً عسكرياً وبحرياً بحيث تستطيع هذه الأخيرة حماية قناة السويس ومصر في حالة هجوم مفاجىء يقوم به عدو أجنبي على حين غرة. اما قضية السودان المشكلة فقد تركت معلقة موقتاً غير مبتوت في شأنها .

فهذه المقترحات كانت تحمل الأدلة البينة على الوفاق المرجو له الخير ، ولكنها لسوء الطالع لم تقترن بنفاذ للحال [1] . فنشأت الاعتراضات الشديدة عليها وكثرت المقاومة لها في كلا بريطانية ومصر . اما في بريطانية فقد ضبط المقاومون السياسيون من أهل السلطة الرسمية تقرير اللجنة حتى شباط (فبراير) سنة ١٩٢١، واما في مصر فهب الوطنيون الغلاة وقالوا: سعد باشا خائن ، من حيث كان المعتدلون يبدون ارتياحاً تاماً الى الذي اتفق عليه . ولما نشر تقرير اللجنة الملنرية بالتالي جاء فيه على التبيين والتصريح ان منح مصر حكومة ذاتية لما لا يستطاع ارجاؤه ارجاء تكفل معه سلامة العقبى، وان الروح الوطنية والعصبية القومية لمن المستحيل محوها والقضاء عليها ، وان محاولة حكم مصر حكماً ممزوجاً بالعداء المر لهو « أمر صعب شائن » ، وان التقاعس عن انتهاز الفرصة لاجراء التسوية المرضية هو من الشؤم ونكد الطالع . غير ان الحكومة البريطانية لم توافق على التقرير بجميع مشتملاته ومضامينه ، الامر الذي حمل اللورد ملنر على الاستقالة للحال . اما زغلول باشا فما برح على مقامه من

(١) للاطلاع على ما نجم عن هذا التأخر من سوء العقبى اقرأ مقالة السر فالنتين تشيرول « السياسات المتضاربة في الشرق » اول يوليو ١٩٢٠

Sir Valentine Chirol " Conflicting Policies in the East "
(New Europe)

زعامة الامة ، وان تكن سلطته قد تزعزعت . هذه هي صفة الحال في مصر ونحن نكتب هذه السطور ، حال والحق يقال ليس فيها من الفأل ما كان فيه السنة الخالية .

على انه في تلك الاثناء امتد تيار العاصفة التي هبت هبوبها الاول في مصر الى كل رقعة من رقاع الشرق الأدنى فطبقها . ففي أوائل سنة ١٩٢٠ انتقل مركز العاصفة الى الامبراطورية العثمانية حيث الحلفاء هم أنفسهم الملومون وأهل الجناية في هذا الخطب الكبير . أجل لا ينكر ان التوصل الى وضع تسوية ايجابية في شؤون هذه الاقطار الهائجة المضطربة لم يكن من السهل الهين ، غير انه مع جميع ذلك لم يكن وضع هذه التسوية من المستحيل الذي لا يدرك لو كانت سياسة الحلفاء ملتزمة جانب الصحة والحكمة والعدل . فعند ختام الحرب الكبرى أمست الشعوب المختلفة في الامبراطورية العثمانية راجية رجاءً كبيراً في ان الغايات والمقاصد الحرة التي صرح بها علناً ساسة الحلفاء ستحقق تحقيقاً لاريب فيه . اما العرب خاصة فقد كانوا أشد الجميع رجاء والسبب في ذلك ان الحلفاء كانوا قد اشبعوهم من براق الوعود وخلاب العهود ما اشبعوهم ، ومنوهم بأن يمنحوهم جميع نعمة الاستقلال (جميع ذلك انما قد شجب فيما بعد شجباً شائناً كما سترى في موضعه القريب) من حيث ان الترك في ذلك الحين لم يكن رجاؤهم في خير المستقبل قد انقطع انقطاعاً تاماً ، اذ كان لديهم ، الى جانب التصريحات العامة الضامنة لحرية الأمم والشعوب المصوغة في برنامج « الاربع عشرة مادة » للرئيس ولسون والتي وافق عليها الحلفاء موافقة تامة ، تصريحات أخرى أضمن للغاية وأكفل للقصد ، من ذلك ما قد صرّحه رئيس الوزارة البريطانية المستر لويد جورج في ٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٨ اذ قال « ... ولسنا بخائضين غمرات هذه الحرب لننتزع من تركية عاصمتها واقطارها الغنية المشهورة في آسية الصغرى وتراقية ، تلك الاقطار التي غالبها من العنصر التركي » وذلك بعبارة أخرى ان الترك قد فهموا

تفهيما بيناً باتاً انه في الحين الذى لابد لحكمهم من التقلص والزوال عن الاقطار غير التركية كالبلاد العربية ، فان البلاد التركية في الامبراطورية لن يراد اخضاعها لسيادة أجنبية ، بل يتألف منها دولة تركية وطنية . ولكن الترك لم يطلعوا على سلسلة من المعاهدات السرية التي عقدها الحلفاء فيما بينهم منذ سنة ١٩١٥ واتفقوا بمقتضاها على تقسيم جميع آسية الصغرى بين الدول المتحالفة . واذ لم تنشر سلسلة هذه المعاهدات الا بعد زمن ، فقد ظل الترك هذه المدة راجين خيراً ومرتقبين عدلاً وفراً .

أما العرب فقد كان المجال لمطالبهم القومية أرحب ، ولثوران عصبيتهم الجنسية أدعى ، من حيث كان الحلفاء في سياستهم معهم أشد مخاتلة وخداعاً ، وأفظع مكراً ورياء . وقد قدمنا الكلام على الثورة العربية التي شبت نارها سنة ١٩١٦ في الحجاز بامرة شريف مكة ، ثم أخذت ألسنتها تندلع وتنتشر في جميع الاقطار العربية في الامبراطورية العثمانية ، فكانت في الواقع من اكبر العوامل في هزيمة الجيوش التركية وتمزيقها . ولم تكن الثورة العربية طفرة على غير هدى ، ولا وثبة غير معدة لها الاسباب والوسائل ، بل قامت على خطط محكمة ، ومناهج موثقة ، مستندة في غالبها الى مظاهرة الحلفاء وتلقي عضدهم ، ومعتمدة على وعودهم وعهودهم . فمنذ أول نشوب الحرب العامة بات رجال العرب الساخطين في سبيل قوميتهم ، الغاضبين لعصبيتهم ، على صلة مع السلطة البريطانية في مصر ، التي تلقتهم بالترحيب والكرامة ، وأقبلت عليهم تشجعهم على المضي في امضاء التدابير وتمهيد الطرق للانشقاق والقيام بالفتنة ، اذ أن بريطانية أيقنت اذ ذاك ايقاناً ان ثورة العرب اذا شبت نارها كانت بلا ريب سنداً وعوناً لها في الذياد عن مصر وقناة السويس ، دع عنك ما تنيل تلك الثورة الجيوش البريطانية من ذرائع القوة . وتكسبها من وسائل القدرة على الزحف والفتح في البلاد العثمانية .

فالعرب اذاً لم يطلبوا المساعدة المادية فقط ، بل طلبوا قطع العهود

والوعود البائنة التي لا ريب فيها بأن ثورتهم هذه التي يشبون نارها سيكافأون عليها بانشاء دولة عربية ، يرفع لواؤها على جميع الاقطار العربية في المملكة العثمانية. غير انه لمن نكد الطالع ، على ما شرحت اليه نفوسهم من نيل المطامح الجنسية وتحقيق الآمال القومية ، كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية تنويان في شأن مستقبل الاقطار العربية الخاضعة لتركية ، أمراً آخر غير ذاك الذي استماتوا هم في سبيله ، اذ كانت كلتا الحكومتين منذ عهد من الزمن حائزة « منطقة سيطرة أو نفوذ » [1] في هذه الاقطار ، فكانت المنطقة البريطانية مشتملة على جنوب العراق عند رأس خليج العجم ، وكانت المنطقة الفرنسية مشتملة على لبنان وهو كور جبلية في شمال سورية ممتدة على ساحل البحر المتوسط ، حيث غالب الاهلين من الكاثوليك المعروفين بالموارنة الذين شملتهم فرنسة حقبة مديدة بالحماية السياسية . ومن المعلوم ان هاتين المنطقتين كانتا من بلاد الدولة العثمانية بالاعتبار القانوني ، مساحة كل منهما قليلة ، بيد ان «مناطق النفوذ» من شأنها ان تكون متمغطة متمططة ، قابلة للامتداد والاتساع فجأة الى ما لا حدّ له ولا نهاية عند الحالات المناسبة . لذلك قد كانت الحرب العامة خير فرصة وأفضل نهزة ، فبادرت وزارتا الخارجية ، البريطانية والفرنسية في عقد المواثقات والمصافقات على السلع ، فوقعت الحكومتان في ٥ آذار (مارس) ١٩١٥ معاهدة سرية ، خولت فرنسا بمقتضى شرائطها وبنودها حق التمتع بالتقدم على سواها في سورية ، وخولت بريطانية مثل ذلك في العراق . ولم تقرر الحكومتان اذ ذاك حدوداً معينة ، بل اكتفتا بالتراضي على مطامعهما التي عولتا على تحقيقها باقتسام الاقطار العربية الخاضعة لتركية

على ان عقد هذه المعاهدة السرية قد أوقع رجال السلطة البريطانية الذين كانوا في مصر يفاوضون العرب لايقاد نار الثورة ، في الحيرة والارتباك .

(١) منذ اكثر من عشرين سنة نشرت في بعض المجلات جملاً وخواطر منها « لا يوجد شيء اشبه بالسل في جسم ، من منطقة نفوذ في بلاد » (ش)

وقد أيقن هؤلاء المفاوضون البريطانيون ان الثورة العربية هي نهزة ثمينه ، ترجو بريطانية من ورائها عوناً كبيراً ، ورفقاً عظيماً ، فيكون من الخرق ان لم تهتبلها ، بل ان أضاعتها فقد أضاعت سنداً قوياً وخسرت خسارة لا تقدر ، فاستطاعت السلطة البريطانية في مصر بالتالي وضع خطة مصوغة صوغاً كافلاً لارضاء قادة العرب وزعمائهم . وفي ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ سلم حاكم مصر العام السر هنري مكماهون ممثل شريف مكة في القاهرة صك عهد تعهدت بموجبه بريطانية العظمى ، على شريطة قيام العرب بالثورة ، الاعتراف باستقلال العرب في الامبراطورية العثمانية ، فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانية تقتضي اتخاذ تدابير مخصوصة في شأن السلطة الادارية ، وأيضاً فيما عدا المناطق التي ليست بريطانية العظمى « حرة في التصرف بشؤونها تصرفاً منافياً لمصالح فرنسة » . فكانت هذه العبارة الأخيرة على كل حال ضرباً من المزاح والرقاعة لكنها قد وفت بالغرض الذي قصد منها ، واذ كان العرب غير واقفين البتة على المعاهدة السرية ، خالوا ان هذه العبارة الاستثنائية في صك عهد السر هنري مكماهون انما يعنى بها منطقة لبنان الضيقة ، فتهللوا فرحاً وانتشوا سروراً [١] ، ثم انتشروا يبتغون اعداد العدد ، واستكمال الذرائع والوسائل لقدح زناد الثورة التي شبت نارها السنة التي تلت .

أجل ، نشبت الثورة العربية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ ، بيد أنه لو كان العرب قد علموا من قبل ما قد تمّ من عقد المعاهدة السرية في شهر أيار (مايو) من السنة الخالية بين بريطانية وفرنسة ، لما قدحوا لثورتهم زناداً ، ولا أضرموا لها ناراً . وفي ذلك الشهر الذي شبت فيه الثورة العربية ، عقدت الدولتان المذكورتان معاهدة سرية أخرى ، هي معاهدة سايكس ـ پيكو

(١) هؤلاء الذين آمنوا وصدقوا وانتشوا وفرحوا ليسوا كل العرب . . . بل ان قسماً من العرب كانوا يعرفون ما وراء الاكمة وطالما نبهوا وحذروا قومهم من الوقوع في الشرك فلم يجد تحذيرهم فتيلاً . وما لنا وما للتذكير بما كل أحد يعرفه ؟ فما يوم حليمة بسر (ش)

المشهورة ، اتفقتا بمقتضاها اتفاقاً باتاً على تقسيم الاقطار العربية في الامبراطورية العثمانية ، تقسيما مبرماً قائماً على الأساس المبين في المعاهدة السرية التمهيدية المعقودة بينهما في السنة التي قبل ، فباتت العراق على مقتضى معاهدة سايكس - بيكو هذه ، عراقاً بريطانياً لا شك في أمره ، وباتت سورية من صور حتى اسكندرونة سورية فرنسية لا ريب في شأنها تتبعها الأقاليم الأرمنية وأقاليم شمالية أخرى من آسية الصغرى . أما فلسطين فقد اعتبرت دولية واعتبرت حيفا مع مينائها البحري لبريطانية ، بحيث أن هذه المطوحة كانت نهايتها صيرورة فلسطين تابعة للمنطقة البريطانية . وأما البلاد الداخلية الواقعة بين العراق وسواحل سورية فقد اعتبرت « بلاداً عربية مستقلة تقسم الى منطقتي سيطرة » بريطانية وفرنسية ، فالمنطقة الفرنسية تشتمل على سائر سورية من حلب حتى دمشق ، والمنطقة البريطانية تشتمل على سائر العراق حتى اقليم الموصل. وبعبارة أخرى أن الاستقلال الذي وعد العربَ به السر هنري مكماهون انما غدا بين سمع الأرض وبصرها .

من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التي قامت بها بريطانية وفرنسة على مسرح المكر من وراء الستار ، لم يكن للعرب علم بها ولا وُقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم ، من حيث أن بريطانية جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لهياج الآمال الاستقلالية في صدور العرب واثارة العصبية والمطامح القومية في نفوسهم . فكان ذلك خير وسيلة وانجع ذريعة لاستثارة نخوتهم في الثورة فجعلوا يتسارعون الى مجال الحرب وينبعثون الى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم . وأنفذت الحكومة البريطانية الى العرب عدداً من نخبة الضباط المختارين ، أشهرهم الأمير آلاي لورانس الفتى اللوذعي النابه الشأن ، الذي ما أسرع ما نال من نفاذ الكلمة والساطة على امراء العرب وزعمائهم [1] ، مما لا حدّ

(١) سماه لويد جورج ملك العرب غير المتوّج. (ش)

لله ولاغاية ، حتى دعي « روح الثورة العربية » [١] لكن هؤلاء الضباط الأكفياء العارفين شؤون العرب والمعروفين بميلهم اليهم وعطفهم عليهم ، انما قد اختيروا ليقوموا بما انتدبوا اليه ، من حيث لم يكونوا هم انفسهم قد وقفوا ولا اطلعوا على المعاهدات السرية التي عقدت خفية عن العرب . وكان القصد من ذلك في الواقع أن لا يعرو همة هؤلاء المستثيرين فتور ، ولا انكسار ، ولا ينثلم وفاؤهم للعرب بينما هم يستثيرونهم همتهم ويستوقدونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لا ينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة في المنشورات والتصريحات التي كانوا يذيعونها آخذاً بعضها برقاب بعض [٢] ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فاصدرت الحكومتان البريطانيه والفرنسية مشتركتين معاً منشوراً اذاعتاه في جميع الاقطار العربية جاء فيه : « ان الغاية التي من أجلها خاضت فرنسة وبريطانية في معمعان الحرب في الشرق ، الحرب التي أثارتها على العالم المطامع الألمانية ، هي أن تضمنا لجميع الشعوب التي طال عليها عهد الجور من الترك ، تحريرهم من الاستعباد تحريراً تاماً باقياً ، وان تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب وارادته المطلقة دون منازع » .

فلم يلبث أن برح الخفاء وانجلى المستور وبان الصبح لذي عينين ، فتبدلت الحال غير الحال . عند ماوضعت الحرب اوزارها ورجعت السيوف الى أغمادها ومزق العدو شر ممزق ، وانتهت الرواية وأرخي الستار ـ الستار الذي تبدت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشاً جلياً ، فقرأها العرب وعلموا

---

(١) لزيادة الاطلاع على الاعمال التي قام بها لورانس اقرأ سلسلة مقالات « لورانس : روح الثورة العربية » نشرت تباعا في مجلة « آسية » نيسان (ابريل) ايار (مايو) حزيران (يونيو) تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠

L. Thomas, " Lawrence : The Soul of the Arab revolution ,, Asia

(٢) من ذلك على سبيل المثال منشور اذاعه الجنرال مود General Maud في عرب العراق في آذار (مارس) ١٩١٧

الأسرار ووقفوا على بواطن الأمور بعد أن أخذوا بظواهرها، وظهرت الجنود الفرنسية تحتلُّ شاطىء سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا وغشوا ، فذعروا واجفلوا، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجات الثورة في نفوسهم . ولولا أهل الحصافة والروية من زعمائهم ولاسيا الامير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذي برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال في الحروب ، والذي استطاع الآن أن ينزل من بني قومه منزلة لا ينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان ، لربما انفجر بركان العرب وتطاير من حممه ما الهب البلاد جميعها . لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية، فأيقن أن ركوب الحرب معهم انما هو مركب خشن وغاية في الاستهداف والمخاطرة ولا سيما في آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حق الادراك قوة العرب المعنوية والأدبية في ذلك الموقف الذي كانوا فيه ، طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوم ببسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذي كان على وشك الانعقاد .

فقام بهذا الامر راجياً تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب والنار تحت الرماد

بسط الامير فيصل لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى ، وفصيح منطق، يحف بموقفه الوقار ، لكنه لقي خيبة في المسعى . اذ اشتمل عهد عصبة الامم على بيان دال على « الرفق والعطف » ، وذلك : « ان الاقوام المعلومة التي كانت من قبلُ في الحكم التركي وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أمماً مستقلة استقلالاً معلقاً ، عليها ان تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتي يوم تصبح فيه هذه الاقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها اذ ذاك على غاربها [1] »

ثم فقه العرب معنى « الانتداب » واكتنهوا ماهيته وسره . وقد كان

(١) المادة الثانية والعشرون من عهد عصبة الامم

من شأن لويد جورج ان يجود ببعض العبارات المنمقة والجمل الرائقة مثل قوله : « ان العرب قد وفوا حقاً بعهودهم وبروا بوعودهم لبريطانية العظمى فيجب علينا اذاً ان نقابل الاحسان بمثله فنفي بعهودنا ونبر بوعودنا لهم [1] ». غير ان العرب كانوا قد قرؤا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعدُ، محاولة اصطيادهم بالأشراك والاحابيل مرة أخرى، اذ عاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى الخدع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالي علم العرب علماً مكيناً ، انه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة سواعدهم ، ومساعيهم ومجاهيدهم ، وذلك اما في مجال السياسة واما في مجال الحرب .

أما فيصل فظل يؤثر المساعي السلمية على التهور في الحرب . ولعل الباعث له على هذا ليس ما رأى من الاستهداف وركوب المخاطر في المقاومة فحسب ، بل ان الحلفاء كانوا حينئذ على حال من التنازع الشديد والمشادة الكبيرة في كل قطر من اقطار الشرق الادنى، مما حمل فيصلا على ان يرجو نيل النجح على يد السياسة . وكان التنازع الامرّ الاشدّ في جميع ذلك ، هو الذي نشأ بين بريطانية وفرنسة عند ما جاءتا تقتسمان غنيمة الاقطار العربية . والسبب في هذا الخلاف العظيم منشأوه السخط الذي سخطه الفرنسيون من أجل المعاهدات السرية . اذ لم يكد يكشف الغطاء عن معاهدة سايكس - بيكو فانتشرت وذاعت ، حتى هب جانب كبير ذو بأس من الرأي العام الفرنسي يصرخ أشد الصراخ ان فرنسة انما غبنت في الصفقة غبناً فاحشاً فلذلك ليست هي بالراضية بهذه القسمة الضيزى . فقد ظل انصار التوسع الاستعماري من الفرنسيين - قروناً طويلة - يحدجون سورية بانظارهم ويهوون اليها بقلوبهم [2] . فلما نشبت الحرب العامة طفقت الصحف الاستعمارية

(١) من خطاب القاه في ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩

(٢) للاطلاع على ما قام به انصار التوسع الاستعماري قبل الحرب من نشر الدعاية في هذا سبيل مقالة ج بوانيان « المصالح الفرنسية في سورية » آذار (مارس) ١ - ١٦ ، ١٩١٣

G. Poignant, " Les Intérêts Français en Syrie ..

الفرنسية تقوم بنشر دعوة شديدة تحريضاً على استلحاق بعض اقطار الشرق الأدنى بفرنسة ، وكانت «سورية كلها» موضوع الصراخ وغاية الدعوة ، ولم يكن معنى « كلها » مقصوراً عند المستعمرين الفرنسيين على شاطىء سورية الذي اصاب فرنسة على مقتضى معاهدة سايكس بيكو ، بل أرادوا ان يشمل معنى هذه الكلمة فلسطين والبلاد الداخلية من حلب الى دمشق ، ممتدة حتى أقاليم الموصل الغنية بالزيت . وشرع أهل التوسع الاستعماري ينادون ويصرخون ان لفرنسة « حقوقاً تاريخية ثابتة يرجع منشأوها الى عهد الحروب الصليبية ، بل الى عهد شرلمان » تتعلق بهذا القطر الكامل الذي بات يعرف في المحافل والاندية الاستعمارية « بفرنسة المشرقية » فغدت سورية « الزاساً ثانية » في هذا الاعتبار ، ومستنداً شديداً لا ينفصل بوجه من الوجوه عن سياسة فرنسة الخارجية ، وقد ظاهرت دوائر الحكومة الفرنسية هذه المطامع الاستعمارية مظاهرة عظيمة وعضدتها عضداً كبيراً . مثال ذلك ماصرحه المسيو ليغ في مجلس النواب سنة ١٩١٥ اذ قال : « ان محور السياسة الفرنسية لهو في البحر المتوسط ، قطبه الواحد في المغرب المشتمل على الجزائر وتونس

. . . .

" Question diplomatiques et Coloniales ,,

ومما جاء على ذكره صاحب هذا المقال تصريح لرئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاره فاه به في مجلس النواب في ٢١ كانون الاول (دسمبر) ١٩١٢ منه : « ولست اراني بحاج الى بيان مالنا في لبنان وسورية خاصة من المصالح التقليدية ، وما يجب علينا القيام به لاعزاز هذه المصالح واعلاء شأنها »

واقرأ مقالة ج عطاء الله : « التسويات الثلاث للقضية السورية » تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٣

" Les Trois Solutions de la Question syrienne ,,

" Questions diplomatiques et Coloniales ,,

واقرأ كتاب ل . لي . فير « حماية فرنسة للكاثولك في الشرق » (باريس ١٩١٤)

L. Le Fur , " Le Protectorat de la France sur les Catholiques d'Orient "

بمراكش وقطبه الآخر في المشرق المشتمل على سورية ولبنان وفلسطين [1]

بعد الوقوف على هذه المطامع الكبرى التي قد قضي على جانب منها بالخيبة والفشل يمكننا ان نتصور مبلغ التأثير السيء الشديد الذي أثرته معاهدة سايكس - بيكو في نفوس رجال التوسع الاستعماري من الفرنسيين ، فارتدوا بغضبهم المشتعل ، وذلك بطبيعة الحال على البريطانيين ، فأخذوا في النيل منهم والقدح بهم وذمهم على جميع الأمور الجارية اذ ذاك في الشرق ، قائلين ان هياج المطامح العربية وثورة آمالهم وعصبيتهم الجنسية انما ذلك جميعه ناشيء عن السياسة البريطانية ، بل ضرب من ضروب الدعاية الانكليزية . قال كاتب فرنسي في هذا الصدد : « يحتاج بعض أطباء الامراض الدماغية الى كتابة الفصول الطويلة في شأن هؤلاء الموظفين البريطانيين الاستعماريين المنطوية جوانحهم على الأحقاد والضغائن ، المتبجحين المتعظمين ، الذين لا ينفكون بياض نهارهم وسواد ليلهم يجدّون في سبيل خدمة بلادهم ، راكبين رؤوسهم دون ان يبالوا باستشارة حكومة لندن ، والذين دأبهم دوماً القضاء

(١) ذكر هذا فلاندرين العضو في مجلس الشيوخ الفرنسي في مقال له « حقوقنا في سورية وفلسطين» ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٥

Senator E. Flandrin. " Nos droits en Syrie et en Palestine „ " Revue Hebdomadaire „

ولزيادة الاطلاع على الدعاية الاستعمارية الفرنسية اقرأ غير ما ذكر : -

« سورية أو ميدان الحرب السياسية » (شباط « فبراير» ١ - ١٥ ، ١٩٢٠)

H, Baudouin. " La Syrie : Champ de Bataille Politique " (La Revue Mondiale)

« قضية لبنان » (باريس ١٩١٥)

C. G, Bassim. " La Question du Liban "

« سورية الفرنسية » (باريس ١٩١٦)

Comte Cressaty. " La Syrie Française "

« فرنسه المشرقية » (اذار «مارس» ١٩١٩)

F. Laudet. " La France du Levant "." Revue Hebdomadaire "

على التفوق الفرنسي في سورية كما قضوا من قبلُ على مثله في مصر [1]. فأجاب الكتاب الانكليز على هذا السخط والقذف مستهجنين استهجاناً « جشع فرنسة ونهمتها الوحشية وخبلها » ونهجها نهجاً من شأنه تعريض مكانة بريطانية للخطر والانهيار ، والانذار بالهاب الشرق اجمع الهاباً لا يبقى ولا يذر [2] . وعلى الايجاز ان الدولتين بريطانية وفرنسة اللتين قد كانتا من قبل بسنة محالفتين (محالفة مقدسة) باقية ، انقلبتا الى المطاحنة والمشاحنة وكيد المكايد وايقاع النكاية . فكان للعرب من وراء ذلك كله دروس قيمة وعظات بليغة ، فاستقوت آمالهم واشتدت مطامحهم ، وصلبت قناتهم ، ومثل هذا حدث أيضاً لسائر الشعوب والأمم الشرقية .

فكان هذا التشاحن الشديد السبب الأكبر فى ابطاء الحلفاء طول سنة ١٩١٩ عن القيام بالعمل على الخطة التى كانوا قد وضعوها من قبل بالاتفاق على اقتسام الشرق الأدنى ولكن قد توصلوا فى ربيع سنة ١٩٢٠ الى تدبير محدود ، اذ عقد رؤساء وزارات الحلفاء مؤتمراً في سان ريمو وضعوا فيه شروط معاهدة الصلح التى راموا حمل تركية على توقيعها ، وبموجبها اتفقوا على اقتسام آسية الصغرى مناطق سيطرة واستثمار ، وعلى اقتسام الأقطار العربية بمقتضى معاهدة سايكس ـ پيكو تلك المعاهدة التي غدت مزخرفة العبارات

(١) لزيادة الاطلاع اقرأ مقالة « سورية : أو مَيدان الحرب السياسية » المذكورة قبلا

(٢) لزيادة الاطلاع على الحملات الانتقادية الشديدة التي حملها الأنكليز على فرنسة في سورية اقرأ : ـ

« مجازفتنا الهائلة فيسورية » (ايلول « سبتمبر » ١٩٢٠)

Beckles Wilson, "Our Amazing Syrian Adventure" (Nation Review)

« القضية العربية » (ايلول « سبتمبر » ١٩٢٠)

W. Urinowski, "The Arab Cause" Balkan Review

كاتبا هذين المقالين كانا ضابطين فى الجيش البريطاني فى الاقطار العربية .

واقرأ أيضاً مقالات اخرى فيغاية الشدة نشرت فيآب (اوغستوس) وايلول(سبتمبر) ١٩٢٠ في مجلة " The Balkan Review " بتوقيع " Taira "

تذكر هاتين الدولتين فيهما انهما بطبيعة الحال « منتدبتان » من قبل عصبة الأمم [1] ثم شرعت كل من بريطانية وفرنسة واليونان الشريكة اللاحقة ، في التأهب والاستعداد للعمل ، فساقت بريطانية القوات العسكرية الى العراق وفلسطين وساقت فرنسة القوات العسكرية أيضاً الى سورية ، وأعدت حملة مشتركة مؤلفة من قوات « بريطانية وفرنسية ويونانية » لاحتلال القسطنطينية ، ووعد فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية باعداد جيش يوناني لغزو آسية الصغرى عند ماتدعو الحال . ولم تلق ايطالية دلوها بين الدلاء لأنها رأت خلل الرماد وميض نار ، فاعتزمت على ألا تشترك في الأمر مباشرة. قال « نيتي » رئيس الوزارة الايطالية لصحافي بريطاني عقب مؤتمر سان ريمو : « انكم ستنغمسون في حرب في آسية الصغرى ، فايطالية لن ترسل جندياً واحداً ولن تدفع « ليرا » واحدة . انكم قد انتزعتم من الترك ادرنة مدينتهم المقدسة ، وجعلتم سلامة عاصمتهم معلقة علي رحمة السلطة الأجنبية وأخذتم منهم جميع موانيهم البحرية والجانب الأكبر من بلادهم ، وأولئك المندوبون الخمسة الذين ستختارونهم سيوقعون معاهدة لن ترضى بها الأمة التركية ولا البرلمان العثماني » .

كان نيتي رئيس الوزارة الايطالية في الواقع متكهنا صادقاً . فقضي رجال الوطنية من الترك عدة أشهر ، وقد علموا بما خبأه الحلفاء لأمتهم وبلادهم ، يتأهبون الأهب ويعدون العدد وينشئون الأسباب في داخل آسية الصغرى للقيام بالمقاومة . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين الأول مثل أنور باشا وزملائه كانوا قد لاذوا بالفرار الى بلاد سحيقة ، كعبر القوقاس وروسية البلشفية . غير أن قادة وطنيين جدداً قد ظهروا في الأمة ، أشهرهم القائد المقدام المجرب والعسكري المحنك مصطفى كمال باشا ، البطل المتوقد العزم ،

(١) ولم تكن عصبة الامم قررت يومئذ أدنى شيء بشأن الانتداب فافتأتوا على عصبة الامم قبل ان تقرر بل قبل ان تجتمع . (ش)

الذي قد استطاع حقاً أن ينظم جيشاً ويثقفه ويدربه ، حتى قويت شوكته ، ثم اتخذ انقرة الواقعة في قلب آسية الصغرى مقره ، وشرع يناوىء الحلفاء ويناصبهم العداء فأخذت حركته تشتد وتقوى وتشتهر بهجومه على العساكر الفرنسية في كيليكية (وهي منطقة ساحلية في آسية الصغرى للشمال من سورية) مبلياً بلاء حسناً ومنزلاً بالعدو خسائر فادحة .

وكان العرب أيضاً يتأهبون للقيام بالمناوأة والمقاومة ، فعقدوا في شهر آذار (مارس) « مؤتمراً سورياً عاماً » وأعلنوا فيه بالاتفاق استقلال سورية وملكوا عليهم فيصلاً ، فتكهربت للحال جميع الأقطار العربية من جراء اعلان هذا الاستقلال ، فنشبت الاضطرابات الشديدة عداء للفرنسيين في المنطقة الساحلية التي يحتلها الفرنسيس ، وشبت الفتن في فلسطين يقوم بها العرب المسلمون والنصارى عداء لليهود الصهيونيين ، وأخذت قبائل العراق توقد نار الثورة غير المنظمة .

فبات موقف الدولتين «المنتدبتين » حرجاً مشؤوماً منذراً بعظيم الشر ، فلجئتا الى الضرب بسيف القوة العسكرية وتسكين الحال بالحديد والنار ، ولا سيا فرنسة فانها فاقت سواها باتخاذ ذرائع العنف والقسوة . وفي ذلك الحين كان لديها نحو من ١٠٠٠٠٠ جندي في سورية وكيليكية بقيادة الجنرال غورو القائد المجرب في كثير من ميادين الحروب الاستعمارية ، وصاحب الاعتقاد بوسائل « السلاح والحديد والنار »

ففي ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ بعث غورو ببلاغ أخير الى فيصل طالباً منه تسليماً تاماً ، فاجابه فيصل الى ذلك في الواقع بعد فراغ جهده السياسي ، معرباً عن قبوله بالبلاغ ، غير ان غورو قد أنكر هذا فجاء انكاره خدعة حربية ، ومشى نحو دمشق بجيش عدده ٦٠،٠٠٠ مقاتل ، فلم يحاول فيصل مقاومة حقيقية ، بل قاتل قتالاً طفيفاً بعد أوانه ، ثم تسحب الى

الصحراء . وفى ٢٥ تموز (يوليو) دخـل الفرنسيون دمشق عاصمة ملك العرب ، وخلعوا فيصلا وأسسوا حكما فرنسياً تاماً وجازوا العرب على المقاومة التي قاموا بها مجازاة أهول ما كانت من الشـدة والعنف ، وغرموا دمشق ١٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ فرنك غرامة حربية ، ناسجين في عملهم هـذا في سورية على منوال الألمان في بلجيكا ، وزجوا في غيابات السجون وقتلوا كثيراً من القادة الوطنيين ، وأعلن غورو ان موت « فرنسي واحـد أو نصراني واحد » يعقبه « أخذ الثار الاهول والانتقام الافحش » ، بالطيارات الحربية ذات القنابل (١)

فامست سورية من جراء هذه الصاعقة « النابليونية » مهيضة الجناح تضطرب من أثر الرعب . أما الانكليز في العراق فما كانوا على كل حال ليلقوا إلاّ حظاً مشؤوماً وجداً عاثراً ، اذ ظلت الفتنة دائرة الرحى عدة شهور . وفى شهر آذار (مارس) صرح القائد البريطاني مبيناً « شدة دهشـته من استعداد البلاد للانفجار البركاني » . وفى شهر تموز (يوليو) التهبت العراق من أولها الى آخرها بنار الثورة الآكلة ، ومع ان عدد الجيوش البريطانية كان ينيف على ١٠٠ ، ٠٠٠ مقاتل ، فقد ذاقت بريطانية الامرين في تسكين الحال واخماد نار الثورة .

وفي غضون ذلك احتـل الحلفاء القسطنطينية يبتغون اكراه تركية على قبول الصيغة التي كانوا قد وضعوها لمعاهدة الصلح . فكان الاحتلال بطبيعة الحال سهلاً دون مقاومة ، ولا غرابة في ذلك فان القسطنطينية انما كانت تحت رحمة أساطيل الحلفاء . غير ان السكون الذي ساد أهل العاصمة الذين كانوا بالالوف المؤلفة متجمهرين بغية شهود الجنود المحتلة نازلة الى البر ، كان أبلغ وأفصح من ألسنة المفاويه من الخطباء . وقد راقب بعض أرباب

(١) للاطلاع على مظالم الفرنسيين وقسوتهم اقرأ المقالات المذكورة اخيراً .

الاستقصاء من الحلفاء هذه الحالة ، فاوجسوا خيفة وقلقوا بالا منها . قال صحافي فرنسي في هذا الصدد : « ان سكوت الجماهير من الخلق كان وايم الحق أشد تأثيراً من صخب الاحتجاجات البالغة أصواتها عنان السماء . كان الناس صامتين كأن على رؤوسهم الطير ، غير ان عيونهم كانت تقدح شرر العداء والبغضاء . وكان بعض القوم من الذين أخذ اليأس من نفوسهم كل مأخذ ورأوا الذل مخيما فوق مدينتهم ، منبثين في أفواج الناس ، يرسلون الرسل ويبعثون الدعاة الى جميع الأمم الاسلامية في اقطار العالم الاسلامي لينقلوا اليهم نبأ النازلة الكبرى والداهية الدهماء ، ففي بضع ساعات تصل الانباء الى الاناضول ، وبعد ذلك بيومين تنتشر في قونية وأنقرة وسيواس ، وبعد مدة وجيزة تجوب أنباء هذه الفجيعة جميع الاقطار التي تشملها السيطرة البلشفية حتى القوقاس وعبر القوقاس ، وبعد عدة أسابيع تمسي جميع هذه الاقطار الوسطية ملتهبة استعداداً لاخذ الثار ، فان آسية وأفريقية ستعودان فتوثقان عرى الاسلام توثيقاً لم يعرف مثله من قبل ، وسيقوم هؤلاء الرسل النجباء البلغاء بنقش انباء هذه الغزوة التي قمنا بها ، في نفوس العامة والكافة من المسلمين الذين لا يقرأون ولا يكتبون . فهؤلاء الرسل هم دعاة الثورة وهاجة التعصب الديني ، متجندون للقيام بهذه الدعاية ، متألفون من كل جنس وطبقة من طبقات المجتمع ، منهم المتعلمون المتهذبون يتنكرون فيرتدون خلقان الأثواب ويتظاهرون سؤالا ومتشردين ومطرودين ومنفيين ، كيما يتسنى لهم بذلك نشر الانباء في جميع الآفاق واستثارة الهمم والغيرة ابتغاء ايقاد الثورة ذياداً عن بيضة الاسلام »[1]

جرت الامور في تركية مجاريها التي سبق لنيتي رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها . فأكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة (مصافية) ، ففعل السلطان ذلك فشجبت هذه الوزارة حركة

(١) ٢٤ نيسان (افريل) ١٩٢٠ „ B. G. Gaulis. " L'Opinion

مصطفى كمال و (رجاله العصاة) وأوفدت وفداً اختير اعضاءوه اختياراً الى مؤتمر سان ريمو في فرنسة حيث وقعوا بالرضى والتسليم المعاهدة التي أعدها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك (تأييد مرادهم) على قصاصات الورق لاغير ، وما كان ذلك بالأمر الغريب لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن ان جميع هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها انما هي ضرب من الخبل والجنون ، وان كل فرد من افراد الحكومة (المصافية) ، من السلطان حتى أحقر الكتبة ماهو الا كمصطفى كمال يتلهب غيرة وطنية ، وان العاصمة التركية الحقيقية انما باتت انقرة لا القسطنطينية ، وان قوة الحلفاء لا تجاوز في الواقع غاية مرامي مدافعهم ، اما مصطفى كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر : « أمعاهدة صلح تلك ؟ اني مستعد لقتال العالم باسره مشرقاً ومغرباً » .

فبات الحلفاء في مأزق حرج لاريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانية وفرنسة لا غير . اما ايطالية فلم تشترك في القاء دلوها في الدلاء بل فعلت كما قال نيتي ، ولم « ترسل جندياً واحداً ولم تدفع ليرا واحدة » . لذلك لم تستطع فرنسة ولا بريطانية حشد الجيوش الكافية لسحق مصطفى كمال ، في الحين الذي تتكبدان فيه نفقة ٢٠٠،٠٠٠ جندي لتسكين الحال في الاقطار العربية الهائجة وغيرها ، وما كان سحق القوى الكمالية بالأمر السهل ، اذ قدر اركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك ب ٣٠٠،٠٠٠ مقاتل تام العدة . على انه قد بقي في ايدي الحلفاء سلاح آخر — هو اليونان . فتقدم فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة ان تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسية الصغرى ، فقبل ذلك منه وبعد حين نزل جيش يوناني الى بر ازمير عدده ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، غير ان هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل اذ ان المئة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغثاء واجتنب مصطفى كمال الاشتباك مع اليونان في معركة فاصلة ، ولكنه ثابر على

مضايقتهم وايقاع الحيف بهم بالحرب غير النظامية ، كما كان شأنه أيضاً مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان . فتوغل اليونان في البلاد توغلاً فاحشاً وتورطوا تورطاً شديداً كاد يقضي عليهم عن بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا وإشكالاً ، وعلى ما ظهر ان فنزيلوس ظل يبتغي نزال الترك والمضي معهم في الحرب وذلك بصفة كونه « المنتدَب » الثاني من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليوناني أبى عليه ذلك ، لان اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان الى آخر ، حتى نهكت قواهم أشد النهك ، فراموا الاستراحة ولو قليلا . فلما كانت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) اسقطوا فنزيلوس بنحو ٩٩٠،٠٠٠ صوت ازاء ١٠،٠٠٠ صوت ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذي كان الحلفاء قد خلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوأ العرش . فكانت النتيجة الصافية ان اليونان باتت كايطالية خارجة عن ارباب الصفقة . اما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه[1] ، فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضاً لذلك الموقف الذي وقفوه في عهد فنزيلوس . وعلى الجملة فان الحلفاء باءُوا بالخسران فردُ كيدهم في نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التي حسبوها من الهنات الهينات .

في ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته في آسية الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج . ففي المقام الاول كان ينشىء علاقات وثيقة مع العرب ، الامر الذي قد يبدو لاول وهلة من الغرابة بمكان ، اذ يرى ان العرب والترك وهما العدوان بعضهم لبعض ينقلبون من العداوة المرة الى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب البتة لأن السياسة الفرنسية البريطانية هي التي قد خلقت هذه الاعجوبة وأتته

---

(١) قسطنطين لم يكن ليريد الحرب مع الاتراك ، بل كان صرح اولا بان سياسته هي المصالحة معهم ، ولكن اشترطت عليه احدى دول الحلفاء متابعة هذه الحرب ان كان يريد ان تساعده في تبوء العرش ، فاضطر الى ذلك مكرها لا بطلا. (ش)

بهذه الخارقة . والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » حق الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية ، في بيان له نشر في الصحف البريطانيـة : « ان العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العامة ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فساداً شديداً [1] ، بل لانهم ابتغوا نيل الحرية وراموا ادراك الاستقلال فلم يخوضوا المعمعة لـكي يستبدلوا سادة بسادة ، كأن يخضعوا لبريطانيـة أو فرنسة ، كلا ، بل لـكي ينشئوا لهم دولة عربية » . على ان هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب ، وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية [2] ؛ في قالب أبين عن القصد وأفصح عن الغرض ، وذلك في مقال نشره في صحيفة فرنسية راديكالية مقاومـة للمطوحـة السورية جاء فيه : « ينبغي لفرنسة وبريطانية ان تعلما علم اليقين ان العرب انما هم للترك اخوان في الدين ، توحدوا واياهم توحداً سياسياً قروناً عديدة ، بحيث هم لا يرغبون البتة في الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين وشركائهم المسلمين وأترابهم المجاهدين الذين واياهم كانوا في الحروب الخالية يقاتلون العدو جنباً الى جنب وصفاً الى صف ، انشقاقاً ليس من ورائه سوى خضوع اعناقهم لنير دولة أوروبية ، مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تتقلده هـذه الدولة .... فلذلك أي جدوى يا ترى من القول الذي يقوله المسيو ميلران : « لم يدر في خلدنا قط ان نعتدي بوجه من الوجوه على استقلال الامة العربية » فليس أحد من العرب

(١) ليس من محل احتله الاوروبيون بعد الحرب العامة في الشرق الادنى واتوا فيه بادارة تفوق الادارة العثمانية التي كانت قبل الحرب ، بل اتوا فيه بادارة ترتقي الى درجـة محاكاة الادارة العثمانية ، التي وان لم تكن المثل الاعلى فقد ثبت عند الجميع انها كانت اعـدل واحكم واعف واضبط من ادارة الحلفاء في البلدان التي جاءوا لتنظيم امورها بزعمهم . . . . فخدموا الاتراك بادارتهم هذه أجل خدمة من حيث لا يشعرون . (ش)

(٢) هـذه المقالة هي احدى المقالات التي كنت نشرتها في جريدة (البوبولار) الاشتراكية الفرنسوية سنة ١٩٢٠ . (ش)

اليوم بمكن اضلاله بمثل هذا التمويه وأخذه بمثل هذا الخداع . ان الهدنة قد وقعت على حسب الشروط والمبادىء التي أعلنها الرئيس ولسون ، ولكن لما تضعضعت المانية وتضعضع احلافها معها ، ديست شروط الهدنة وعهودها ، كما ديست الاربع عشرة مادة ، بالاقدام . على ان النكث الذي اصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جازماً لازماً في منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكررة المؤكدة عشرات من المرار ، قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الاخاء ، فعاد حبل الولاء بينهم بعد التصرم موصولا ، بحيث لم تمض الا أشهر معدودات حتى تم ذلك بين الامتين ٠٠٠٠ قد تستطيع فرنسة بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠،٠٠٠ جندي في سورية ، وبتكبدها انفاق البلايين من الفرنكات ، ان تخضع عرب سورية الى ميقات ، بيد ان ذلك ليس جميع ما في الأمر ولا الضامن لسلامة العقبى ، فحدود سورية مترامية الى ما يليها من البلاد التي قطينها عرب وكرد وترك ، وممتدة الى الصحراء الكبيرة . فاذا ما شرعت فرنسة في قتال الأربعة الملايين من عرب سورية ، لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء فحسبُ بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥،٠٠٠،٠٠٠ عربي ، منتشرين في جميع الاقطار المشرقية ، غالبهم من القبائل المسلحة ، الشديدة الشكيمة الحمية الانف الصلبة القناة ، هذا ما عدا الأمم الاسلامية الاخرى ، المتداينة لهم ، الداخلة في الوحدة المتراصة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك انما هو ارهاق الحلفاء وتوالي ضرباتهم الساحقة على غير رحمة ولا شفقة . فان قال قائل ان في هذا غلواً ، فما عليه الا ان يواقع الحقائق مواقعة ويراها عن كثب مستبصراً مستقصياً ، ولكن لعمري أي نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد ان تجرى الدماءُ في الاقطار العربية انهراً وغدراناً [1] » .

وفي الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركي العربي مشهودة جلية في مواضع

(١) نشر هذا المقال في Le Populaire في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٠

عديدة . غير ان هـذا الوفاق القاضي بمعاونة هؤلاء لهؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذي أنزل عن عرشه وجاء من بعد خروجه من دمشق الى ايطالية حيث طفق يوالي القيام بمثاقفات سياسية ، مع هذا فقد اصطف العرب مع الترك جنباً الى جنب في كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك والـكرد مع العرب السوريين في ايقاد الفتن السورية التي ظلت تشب في موضع موضع . واما ماكان لمصطفى كمال من اليد في اشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً يغني عن البيان .

وان هذا الوفاق العربي التركي لم يكن جميع مارمت اليه السياسة الخارجية التي اتبعها مصطفى كمال ، فهو في ذاك الحين عينه كان يبعد بمرمى سياسته الى الشمال الشرقي ، ليتناول الترفي عبر القوقاس والتركمان في اذربيجان الفارسية وكانت القوقاس في هذا الوقت ميداناً لنزاع شديد وخصام عنيف بين فريق التتر والتركمان المسـلمين ، وبين فريق الأرمن والـكرج النصارى ، وبين طائفة من الاحزاب الروسية البلاشفة ، مما كاد يحوّل ذلك القطر الى بؤر شديدة السعير . وقد لقي مصطفى كمال في التتر التركمان ، المختمرين جدّ الاختمار بالدعوة الطورانية ، أعواناً حمساً وأنصاراً غيراً ، ثم لقي نصيراً ثالثاً مد اليه يد العون وهو روسية البلشفية . فالسياسة البلشفية التي قد سبق لنا بيان غرضها وغايتها ، والتي كانت تجهد لاشعال الفتن والثورات في وجه الدول الغربية في جميع أقطار الشرق ، قد ارتاحت كل الارتياح لثورة مصطفى كمال وأعظمتها وأكبرتها . أما في بدء الأمر فلم يكن باستطاعة البلاشفة القيام بعون كبير لرجال الثورة الوطنية التركية ، لأنهم لم يكونوا على صلة مباشرة مع القائمين بها . غير أن الدائرة التامة التي دارت على جيش « ورانجل » الأبيض في شهر تشرين الثاني (نوفبر) ١٩٢٠ ، واجتياح الجيوش الحمراء على أثر ذلك لروسـية الجنوبية بحذافيرها ، قد مهد طريق الصلات المباشرة بين موسكو وأنقرة على طريق القوقاس ، ومن ذلك الحين بات مصطفى كمال مشدود الازر

من قبل البلاشفة بالسلاح والمال وقليل من الرجال .

زد على ذلك أن كمالا والبلاشفة كانوا جميعاً يوقدون نار الفتن في ايران تلك البلاد التي كانت وايم الحق في حالة يرثى لها . فقد ظلت هذه البلاد خلال الحرب العامة ، على كونها محايدة تمام الحياد ، ميدان نزاع بين البريطانيين والروسيين من جانب ، والترك والالمان من جانب آخر . فلما انهارت الروسية انهيارها الأكبر سنة ١٩١٧ حملها ذلك على أن تجلو جلاء عسكرياً عن ايران ، فاهتبلت بريطانية الفرصة اذ ذاك ، فأعزت سيطرتها وأعلت شأن نفوذها وأيدت كلمتها وكسبت موقفها صفة قانونية بذلك « الاتفاق » المشهور الذي دبرته مع حكومة الشاه في شهر آب (اوغستوس) سنة ١٩١٩ [1] ولكن هذ الاتفاق مع كونه مبرماً وموقعاً على الوجه المرضيّ قد استنكرته الأمة الايرانية استنكاراً وحسبت من جرائه الف حساب . فانقلبت الحال بذلك فرصة ثمينة لعود الدعوة البلشفية الى العمل والانتشار . فأعلنت الحكومة البلشفية نزولها عن جميع الحقوق التي كانت الحكومة الروسية القيصرية قد اكتسبتها في ايران ، وجاهرت بولائها ومصافاتها للأمة الايرانية ووقفت في جانبها لمقاومة التوسع الاستعماري الغربي . فأفلح المسعى حقاً بطبيعة الحال ، فباتت ايران مضطرباً يكثر فيه نشوب الفتن العسكرية . وفي أوائل صيف سنة ١٩٢٠ عبرت قوة بلشفية بحر قزبين ونزلت الى الساحل الايراني. غير أن هذه القوة لم توغل ايغالاً بعيداً في البلاد اذ لم تكن بحاجة الى هذا لأن البلاد بدأت تمور في بحر من الارغاء والازباد ، مما جعل الموقف البريطاني متزلزلا زلزالاشديداً . فانقضت عدة شهور والاضطراب سائد في طول ايران وعرضها وما برحت هكذا حتى الحين الذي نكتب فيه هذه السطور . على أنه ليس هناك من ريب أن موقف بريطانية في ايران صار بجملته وشيك الانهيار، وأن

(١) لزيادة الاطلاع على مجاري هذه الوقعات اقرأ مقالة للمؤلف نشرت (كانون الثاني ـ دسمبر ١٩٢٠) في مجلة The Century

بريطانية ستكره لذلك عما قريب حتى تجلو عن البلاد كلها ما عدا القسم الجنوبي الأقصى الذي يمكنها فيه احتفاظ موقفها .

نعود الآن الى خريف سنة ١٩٢٠ حيث موقف بريطانية وفرنسة في الشرق الأدنى بات ينقلب على التوالي من سيء الى أسوأ . فالدولتان غدا موقفهما منذراً بالويل والثبور ، ولا سيما من بعد ما تخلت عنهما ايطالية واليونان ، وزحمهما الترك زحمة شديدة ، وثار في وجههما العرب ، وانتقض عليهما المصريون والفرس ، وانتشرت الدعوات البلشفية ضدهما في سائر الأقطار ، فبهظ العبء وثقل الحمل ، ونهكت القوى وشقت الأنفس . ففي العراق وحدها بلغت النفقة التي تكبدتها بريطانية ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية . والحالة لم تبرح متجهمة الجو لا تدل على كثير من الانفراج .

لذلك ليس من الغرابة في شيء في مثل هذا الأوان العصيب ان غدت السياستان المتبعتان في الشرق الأدنى هدفاً لسهام الانتقاد المر والقذف الشديد ، ولانصباب جام الغضب عليهما من كل قوم وناد في كل من بلاد بريطانية وفرنسة . أما في بريطانية على الخصوص فقد بات الانتقاد طوفاناً أعمى يجرف في سبيله كل شيء حتى عدت المحاولة التي تحاولها بريطانية في العراق جناية وخطراً ما انزل الله بهما من سلطان . مثال من ذلك الانتقاد ما قاله الأمير آلاي لورانس : « لقد غدونا على مقربة من الداهية الدهياء وصارت حكومتنا أسوأ وشراً من الحكومة التركية البائدة ، فان الترك قد استطاعوا أن يحكموا في البلاد ويوطدوا الأحكام بنحو ١٤،٠٠٠ جندي من أهل البلاد ، وبقتل عدد من العرب لا يزيد على المئتين كل سنة أما نحن فاننا نحفظ جيشاً عدده ٩٠،٠٠٠ مقاتل ، تام العدة مجهز بالطيارات الحربية والدبابات المسلحة والسفن الحربية والقطر المصفحة ، وقد قتلنا نحواً من ١٠،٠٠٠ عربي في ثورة هذا الصيف (١) » فحملت هذه الانتقادات المرة

(١) من بيان له نشر في الصحف آب (اغستوس) ١٩٢٠ .

المؤثرة ، والصفة العامة لمجاري الأمور ، الحكومةَ البريطانية على تقويم موقفها ، فانفذت الى العراق السر برسي كوكس للمفاوضة مع العرب ، وهو ند للمنر ومن طرازه ، لا يقيم وزناً الا للحقائق ، كثير الخبرة والحنكة في معالجة الشؤون الشرقية. ولما كان قد فُوض اليه القيام بالمناقشة والمفاوضة في شأن اتفاقات كبيرة فقد اجتمع بالقادة الوطنيين على انبساط وحرية ، فكان له في نفوسهم تأثير كبير . وعند كتابة هذه السطور كانت الحال لم تزل قلقة ، غير أنها تدل على أن بريطانية عاملة على اختطاط خطة جديدة يكون لها بموجبها الحكم المباشر على الطرف الجنوبي الأقصى من العراق حيث رأس الخليج الفارسي ، اعني على منطقة سيطرتها القديمة المعروفة قبل سنة ١٩١٤ .

وفي تلك الغضون استطاعت فرنسة ان تحفظ شيئاً من النظام في سورية لكن بطرق السلاح والنار ، ومع هذا لم يزل الموقف متزعزعاً ، فقد نفت السلطة الفرنسية كثيراً من ابناء البلاد على اختلاف الطبقات فغدا جميع أهالي البلاد ، حتى الموارنة الكاثوليك الذين كانوا يميلون الى فرنسا ميلا تقليدياً ، يهيجون ويصخبون ، فسكن الجنرال غورو بسرعة هذه الحركة بنفيه القادة والزعماء الى كورسكا . وعلى الجملة فالحقيقة الراهنة التي يجب ان تقال وتعلم هي أن أصدقاء فرنسة الاوفياء في سورية قد غدوا على فرنسة ساخطين ولها مبغضين . وكل هذا لم يكن ليحمل فرنسة على تقويم سياستها حتى اليوم . قال المسيو ليغ رئيس الوزارة الفرنسية منذ عهد قريب في شأن سورية : « ان فرنسة ستحتل سورية باجمعها احتلالا دائماً » وصرح الجنرال غورو منذ عهد أقرب : « يجب على فرنسة ان تبقى في سورية لاسباب سياسية واقتصادية ، فلو تخلينا عن البلاد لجرّت علينا النتائج السياسية التي تنجم عن ذلك الرزيئة الفاجعة ، ولقضي القضاء الاخير على مكانتنا وسيطرتنا في الشرق والبحر المتوسط . زد على ذلك ان المطامح الفرنسية الاقتصادية تدعونا للبقاء في تلك البلاد ، ومتى ما وفر العمران وعم التقدم والفلاح في

سورية وكيليكية كان لهذين القطرين شأن اقتصادي يضاهي الذي لمصر ».

بيدانه ، مع تصلب الحكومة الفرنسية الشديد ، لا تزال حملات الانتقاد على « المطوحة السورية » ، من الرأي العام الفرنسي في ازدياد . وليس الذين يقومون بهذه الحملات هم الغلاة المقاومين للتوسع الاستعماري فحسب ، بل أيضاً منهم المحافظون الابرياء من كل تهمة وغرض . قالت الصحف السياسية الفرنسية في هذا الصدد : « ان العرب ، وهم يغارون أشد الغيرة على الاستقلال والحكم الذاتي ، قد تحرروا من النير التركي ، لكن لا يبتغون حكما أجنبياً جديداً . فالقول اذاً ان سورية تطلب حمايتنا لها ، انما هو كذب واختلاق . ان سورية تريد الاستقلال التام وتطلبه ». ومن عهد ليس ببعيد وقف فكتور برار خطيباً في مجلس الأعيان وهو من أعضائه ويعد من ثقات فرنسة المشهود لهم بالاضطلاع والخبرة في الشؤون الشرقية فانتقد سياسة حكومته في سورية انتقاداً شديداً مراً وكشف الغطاء عن معايبها ومشاينها وصرح تصريحاً ان « سورية الحرة » قد أمست قضيتها « قضية مصلحة وشرف معاً ».

وبالرغم من هذا كله فالحكومة الفرنسية باقية لم يلن جانبها للعرب ، من حيث انها قد فعلت ذلك ازاء الترك ، فبدلت موقفها عندهم تبديلا تاماً ، فضربت بمعاهدة سيفر عرض الحائط ، وأبرمت منذ عهد قريب شروط صلح موقت مع الترك ، موافقة كل الموافقة في الواقع على اخلاء كيليكية . وقد باتت بريطانية وفرنسة تعلمان جيداً ان معاهدة سيفر صارت عقيمة لايستطاع العمل بمقتضاها ، وان امتلاك الترك لآسية الصغرى من أقصاها الى أقصاها أمر لا بد منه ولا منتدح لهم عن الاعتراف به .

ان فرنسة باتفاقها مع مصطفى كمال لترجو بلا ريب رجاء كبيراً ، ألا وهو حفز مصطفى كمال ان يكر على العرب يوماً ، بيد ان ذلك بعيد ، فان مرامي جميع الحوادث والواقعات تشير اشارة بينة الى صيرورة الوحدة متراصة

الجوانب موثقة العرى بين شعوب الشرق الادنى لمقاومة التسلط الغربي السياسي . وأقوى الادلة وأعظمها على سير الوحدة هـذا واتجاهها متجها تتدانى به الشعوب في جميع اقطار الشرق الادنى بعضها من بعض ، هو المؤتمر الاسلامي العام الذي عقد في سيواس في أوائل سـنة ١٩٢١ . وكان الغرض من عقده وضع خطة راهنة باتة يستطاع بها توثيق عرى التآخي الاسلامي في العالم الاسلامي مشارق ومغارب. وقد حضره الامراء ،والقادة السياسيون السنيون من المسلمين ، وأمراء من سائر الملة الاسلامية مثـل أمير كربلاء الشيعي ، والامام يحيى [1] ، أمير الزيدية في اليمن ـ الزعماء الذين لم يكن التعاضد والتقارب مستطاعاً بينهم وبين السنيين من قبل ، وأعظم ما في الامر هو ما أذاعته الصحف من ان الامير السنوسي الكبير هو الذي قد ترأس هذا المؤتمر . ولا جرم فاننا قد عرفنا مما تقـدم من الكلام ان السنوسي لم يبرح دائباً جاداً في سبيل اعزاز الجامعة الاسلامية والوحدة المحمدية الكبرى في المعمور الاسلامي ، لمقاومة التسلط الغربي . هذه هي صفة الحال اليوم في الشرق الادنى ـ حالة عصيبة كلها اضطراب ، ومحفوفة بنذر السوء . الا أن هناك أمراً فيه علامات حسنة ، الا وهو انتباه الحكومة البريطانية لحرج الساعة واشتداد المأزق ، انتباهاً يحملها بالتالي على تقويم موقفها . فلذلك ان جهداً يبذله مثل اللورد ملنر والسربرسي كوكس ، ولو اعترض سبيله كثير من المصاعب والمشاق ، يستبعد ان لا يكون مثمراً ولو بعض الثمار . ان هذين الرجلين لظاهر فيهما التحدر السياسي من نشا تام ودر هام ، الداهيتين اللذين رفعا عمـاد تلك التقاليد السياسية الكبرى التي وسمت جميع شؤون الامبراطوزية البريطانية حزماً وتدبيراً في مآزق مستحكمة الحلقات وأزمات مربدة الجواء .

أما من الجهة الاخرى فلا تزال الحالة مؤذنة الخطر في الشرق الادنى حيث

---

(١) الامام يحيى لم يحضر مؤتمراً كهذا ولعل اناسا من جهته حضروا . (ش)

فرنسة لم تبرح على عنادها السياسي راكبة فيه رأسها منقادة لهواها ، وما دامت فرنسة مستغرقة في بحر تقاليدها القديمة ، فهي على هذه الحال معرضة بسياستها عن مواقعة الحقائق التي لا بد لها ان ترغم على الوقوف عندها بعد حين معتبرة مستبصرة . فلذلك اذا ما انفجر البركان وملأت حممه الجو ، وهو الذي لا مناص من انفجاره ، مالم تقدم فرنسة في الواقع على تقويم سياستها ، واذا جاء ذلك اليوم الاسود الذي تلتهم فيه سموم العرب الهابة من الصحراء ثلاثين الى أربعين كتيبة من الكتائب الفرنسية ، يقضي حينئذ الكثيرون من المضطلعين بالشؤون الشرقية قضاء عدلا ، بأن : « السياسة الفرنسية قد نالت جزاءً وفاقاً ».

ندع قضية الشرق الادنى في هذه الحزّة الى أن تبدي لك الايام ما كنت جاهلا ، وندخل في الكلام على المعضلة السياسية الكبرى في الشرق المتوسط ـ الا وهي العصبية الجنسية والنهضة القومية في الهند .



الفصل السادس

في

العصبيّة الجنسيّة في الهند

الهند بلاد الغرائب والمتناقضات . تشتمل على وحدةٍ جغرافية طبيعية ، من حيث انها لم يتألف فيها شيء من الوحدة السياسية في عصرٍ من خاليات عصورها ، اللهم الا ما حصل لها من صبغة الوحـدة حديثاً على يد حكم « الراجوات » في العهد البريطاني . ولما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الاقوام المتحدرة من الأروم المتنازعـة والعروق المتقاطعة في كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهباً لحولها وقوتها ، فعجزت عن صد الفاتحين ، ولم تقوَ على الوقوف في وجه أهل الغلب والاجتياح الذين توالوا عليها دوراً بعد دور . وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد المتباينون عرقاً وأرومة لم يختلطوا بعضاً ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لا تحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهم على ما لا نهاية له من الفوارق دماً ولغةً وتهذيباً وديناً . فالهند ، وهي تستوي بمساحتها وساكنها مع أوروبة أو الصين ، لم يتألف فيها كما في هذه الأخيرة من وحدةٍ جنسية عنصرية عامة ذات مستقر ونصاب ، ولا كما في الأولى من وحدات وطنية تامة الصورة ، مستقلة متمايزة ، بل قـد غبر عليها ما غبر من الدهر وهي مبعثرة الحال مشتتة الشأن لا تعرف اطمئناناً ولا سكوناً ، وجل ما استطاعت ان تملك هو شيء من المنزع نحو الوحدة التي لم تدركها قط .

يشتمل تاريخ الهند على ثلاثة فتوح كبيرة : الفتح الآري وأوله حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . ، والفتح الاسلامي من سنة ١٠٠٠ ب . م . الى سنة ١٧٠٠ ب . م . ، والفتح البريطاني أوائله سنة ١٧٠٥ ب . م . ثم ما انفك يمتد ويتسع ، وينتشر ويرسخ مدة قرن تالٍ حتى طبق الهند بأسرها ولم يزل قائماً الى اليوم .

اما الآريون فشعب صبح البشرة ، من اليقين انهم على الجملة يتحدرون من الاصل الذي نتحدر منه نحن . نزحوا من أواسط آسية مجتازين المعابر الشمالية الغربية ، وهي المعابر الوحيدة المفضية الى الهند من تلك الجهة وليس هناك من سواها ، لأن جبال حملايا الشامخة العالية الذرى ، هي فاصل للبلاد عما يليها . ولما بلغ الآريون الهند على طريق تلك المعابر فاتحين مجتاحين ، أخذوا يتغلبون على أهل البلاد الأصليين الدرافيديين السمر البشرة ، ويخضعونهم ، ويقيمون هم في البلاد سادةً حكاماً . غير ان هذا الفتح كان فاشياً رقيق الظل من حيث كان غير مطبق للبلاد . فاستقر غالب الآريين في الشمال الغربي ، واما سائرهم وهم أكثر إقداماً وأركب للاهوال فقد انتشروا في سائر شبه الجزيرة بعض الانتشار . واعلمْ فوق هذا ان قد بقي حتى في الشمال كُوَر جبلية كبيرة وآجام عظيمة في ايدي أهل البلاد الأصليين ، بينما الذين توغلوا من الآريين في جنوب البلاد كانوا نزراً . وعلى الجملة فقد كان الآريون في غالب الهند الطبقة القليلة ولكن كانوا أصحاب الغلب والحكم على سائر شعوب البلاد وان كانت هذه أكثر عدداً . واذ خشي هؤلاء الآريون لقلتهم ان يبتلعهم الدرافيديون لكثرتهم ، فقد ابتغوا احتفاظ تفوقهم السياسي وصروحة تحدرهم الجنسي بانشاء نظام الطوائف أو الطبقات ، النظام الذي لم يبرح منذ ذلك العهد حتى اليوم قاعدة الحياة الاجتماعية في الهند . فانقسم المجتمع الى ثلاث طوائف : البراهمة أو الكهنة ، والمحاربين ، والسفلة أو العملة المعروفين « بالسدراز » واحتاز الآريون الطبقتين الأوليين . واما الطبقة الثالثة ، السدراز فقد قصرت على الدرافيديين الخاضعين المحكومين . وظلت هذه الطوائف والطبقات بعيدة بعضها من بعض بفوارق عديدة شديدة ، ثم هذه الفوارق ازدادت تأيداً وتمكناً بسلسلة من النواهي والمحرمات الدينية . فغدا التزاوج والاشتراك في المآكل والمشارب حتى في الجوار ، وصار اقتراب شخص من آخر بين أهل الطوائف المختلفة والطبقات المتباينة يعد نجاسة لاتزول عن

صاحبها في بعض الاحيان ولو كفر عنها أشد التكفير . وكانت المعصية في خرق هذه النواهي والمحرمات تقتضي ازال العقاب الهائل بالمرتكب فينبذ نبذاً من مرتبته الطائفية ويدنى ليس الى مرتبة أدنى منها من المراتب المتسلسلة النظام ، بل الى طبقة أدنى من السدراز ، فيعرف اذ ذاك بالعاصي المنبوذ المجرد من المرتبة الطائفية ، ثم يكره على القيام باحط اعمال الخدمة وليس له من الحقوق حتى ولا ماللك التي عليها السدراز . فنجم عن ذلك ، ان الشريعة الدينية ذات الطقوس ، لا الشريعة المدنية ، هي التي سادت المجتمع الهندي سيادة تامة ، فبات الدين الهندي الوليد (أعني البرهمية) صبغته اجتماعية لا أدبية اخلاقية .

فنتجت عن جميع هذه الأمور النتائج الكبرى . أما في أفق النسل فان نظام الطوائف لم يكن له كبير شأن يحمل على احتفاظ الدم واللون والسلالة ، اذ أن البرهميين أنفسهم أخذوا على التوالي يختلطون اختلاطاً دموياً ، قليلا أو كثيراً ، بالدرافيديين(١) وذلك على شدة النواهي والمحرمات . وأما في أفق المجتمع فقد ظل نظام الطوائف يعمل عمله ويسير سيراً غريباً ، فدرجت الطوائف الثلاث الأولى تنقسم ثم تنقسم حتى أصبحت الطبقات الثانوية والتي ما دونها على التتابع مئات وألوفاً ، ففقدت أو كادت تفقد ما كانت عليه في أول العهد من العزة القومية . ثم أن جميع هذه الطوائف الثانوية أخذت تحتفظ بمراتبها وحقوق مراتبها تشبهاً بالطوائف الثلاث الكبرى ومحاكاة لها ، فنتج عن ذلك ان المجتمع الهندي قد تناثر تناثراً ، وتمزقت وحدانه تمزقاً بات معه التعاون بل التفاهم بين أهل البلاد ضرباً من المستحيل . فعدت على التاريخ الهندي

---

(١) يقول بعض المؤرخين أن هذا الاختلاط في الدم والانساب لم يتم ان ظهر بعيد الفتح الآري ، والرأي المبني عليه هذا القول هو أن الآريين الفاتحين لم يكن فيهم ما يكفيهم من النساء من بنات جنسهم وهم لم يزالوا خارج البلاد الشمالية الغربية ، لذا طفقوا يتخذون من النساء الدرافيديات أزواجاً وحظايا ، ثم يثبتون حقهم في تبنيهم أبنائهم غير الشرعيين ، بحيث جعلت ذراريهم تنشأ طائفة واحدة مؤلفة من الاقحاح والاخلاط على التحام في العرق وامتزاج في الدم . ثم منعت زيادة الاختلاط ولكن من بعد أن ذهبت بحوتة الأصول والانساب الآرية

من جراء ذلك عادة لا تزال حتى اليوم . قال مؤرخ ثقة من البريطانيين : ـ «كان عاقبة التنابذ والتقاطع الدائبين والاعتزال الاجتماعي المستمر ، أن غدا الشعب بأجمعه مؤلفاً من عناصر متناكرة كل التناكر ، ولم يقف الأمر عند حد غني وفقير ، وأمير وصعلوك ، ومدينة ورستاق ، وخادم ومخدوم ، وسيد ومسود ، بل بلغ أكثر من هذا ، اذ بات سكان كل مقاطعة من المقاطعات أو مدينة من المدن مجموعاً من مختلف الجنسيات ـ وغالباً من مختلف الأنواع الانسانية ـ لا يتزاوجون ولا يشترك بعضهم مع بعض في مأكل ولا في مشرب وفي الخطير من شؤونهم الحيوية تحكم فيهم لجان من قومهم تدبر لهم امورهم وتقيم أحكامهم . وليس من المغالاة في شيء أن نقول ان أهل الهند قد غدوا بسبب نظام الطوائف منقسمين الى ما فوق الألفي طائفة وطبقة ليس بين بعضها مع بعض من الألفة أكثر مما بين ضروب البهائم المتآلفة في حدائق الحيوانات . »

لذلك لا عجب اذا غدت الهند ، وقد تمزق مجتمعها هذا التمزق وتناثرت وحدتها السياسية الى امارات عديدة ، لا تستطيع الوقوف في وجه أول فاتح عظيم يكر عليها فتسقط بين يديه متضعضعةً متلاشية ، وكيف لا يكون ذلك وقد كان هذا الفاتح هو الاسلام . ان المسلمين أخذوا يكرّون على الهند من بعد ما تم لهم فتح فارس ، كرات لم يكن لها من الشأن والخطورة في أول الأمر أكثر من الذي يكون للغارت التي تُشنّ على العدو عند الحدود دون أن يكون لها أثر باق . على أن الفتح الاسلامي الخطير قد قام به محمود الغزني الأمير الافغاني[1] سنة ١٠٠١ ب . م . ، فسار محمود في الطريق التي سار فيها من قبله الآريون منذ أجيال وحقب متطاولة ، ودوّخ بلاد الهند الشمالية الغربية المعروفة بالبنجاب حيث رسخت قدم الاسلام رسوخاً ، ثم طفق القواد المسلمون يوالون توسيع الفتح اكثر فاكثر من جهة الشرق حتى غدا

(١) اقرأ تعليقاً كبيراً في تاريخ الممالك الاسلامية الهندية في آخر هذا الجزء ـ المعرب

غالب الهند الشمالية في قبضة أيدي المسلمين . وقد كان لهؤلاء الفاتحين المسلمين عاملان قويان ساعداهم على هذا الفتح الذي قاموا به ، أولاً انهم كانوا متحدين اتحاداً مشوباً بالتعصب الديني لقتال عبدة الاوثان ، ثانياً انهم استطاعوا ان يحملوا الكثير من أهالي البلاد على الديانة بالاسلام . فان الاسـلام المعطل للبرهمية الجاعل جميع المؤمنين اخوة قد فاز حقاً في هداية الناس اليه فدخلوا فيه أفواجاً من أهل الطبقات الحقيرة والمنبوذة ، الذين كانوا بعد ذلك يرتقون الى مستوى الفاتحين . وهذا هو السبب الكبير في ان المسلمين الذين في الهند اليوم ليربون على السبعين مليوناً . بحيث ينيفون على خمس مجموع السكان . وهم يتحدرون ليس من الفاتحين الافغان والترك والعرب والفرس فحسب بل أيضاً من ملايين الهنود الذين دانوا بالاسلام بعد الفتح .

وقد انقضت أجيال عديدة وحكم المسلمين في الهند مقصور على الشمالي من البلاد . ففي أوائل القرن السادس عشر زحف القائد بابر التركي المغولي الى الهند وأنشأ المملكة المغولية ، ثم دوّخ بابر ثم خلفاؤه من بعده جنوبي البلاد ووحدوا الهند توحيداً سياسياً غير مسبوق المثيل . ولكن هذا التدويخ كان فاشياً كالفتح الآري من قبل ، ثم اذ شعر البراهمة بانهم مهددون بالخراب والاندثار ، شرعوا يبشرون بدعوة لليقظة الهندية فآل الأمر الى تضعضع سلطان السلالة المغوليـة ، وفي أوائل القرن الثامن عشر انقرضت المملكة المغولية .

عند هذه الفوضى الشاملة ظهرت بريطانية الى عالم السلطان صاحبة الحول والطول . ولم تكن في بدء الامر هي وحدها في حلبة الميدان بل كانت في عداد الدول الأوروبية - من البرتوغال وهولندة وفرنسة - صاحبات الطارئات الصغيرة المنتشرة على السواحل الهندية وهذه الدول الأوروبية لم تكن لتنوي القيام بفتح الهنـد اذ ذاك ما دامت الدولة المغولية في عالم الكيان . لهذا السبب ما كانت علاقة بريطانية بالهند في أول العهـد سوى

مجازفة تجارية عُرفت « بشركة الهند الشرقية » . ولكن لما استفحلت الفوضى في البلاد اضطر الأوروبيون للحال ، الى أن تكون في أيديهم سلطة محلية يستطيعون بها حماية مصالحهم ومصانعهم ، ثم من بعد ذلك جعلوا يوسعون مطامحهم ويجترئون على وضع المشروعات التي هي أبعد مرمى وأكبر غرضاً ، وانما كان وهن الحكام الوطنيين هو الباعث لهم على هذا الامر ، وتضعضع سلطان هؤلاء وفقدانهم الحول والقوة هيئا لهم الاسباب فاخذت بريطانية على التوالي تقهر مزاحماتها الأوروبيات عنوةً حتى استوسق لها الامر وتمّ لها الغلب السياسي ، فوطدت قدمها وأعزت سيطرتها ، وكان لا بد لها ، كلما نشب اختلال وغلى مرجل اضطراب ، من ان تبسط سيطرتها وتوسع سلطانها ، وقد كانت تقوم بهذا في أول الامر على الهونى والتوءدة اذ ظلت شركة الهند الشرقية عهداً طويلاً ساعيةً السعي الاكبر وراءَ غاية تجارية . مدارها جنى الارباح واكتساب الاموال فكانت في هذا السبيل أبذل جهداً منها في سبيل احراز السيطرة والسلطة . بيد انها شرعت تتحول من بعد ذلك الى حكومة تامة الشرط ذات سياسة طاحة ترمي الى الفتح والاستلحاق ، فكان من شأن هذا التحول والانقلاب ان ايقظ الكثير من أهل الهند وأحمى انوفهم احماءً كان السبب في انفجار بركان الثورة سنة ١٨٥٧ . ثم اخمدت بريطانية هذه الثورة والغت شركة الهند الشرقية وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطاني ، ونودى بعد ذلك بالملكة فكتوريا امبراطورة الهند . فلم ينجم عن جميع هذه التطورات تقوية السلطة السياسية البريطانية فقط ، بل زيادة تغلغل النفوذ الغربي على كل نوع وصفة ، فأنشئت الطرق والمسالك الحديدية والاقنية ، وربطت اجزاء الهند بعضها ببعض فتدانت اطراف البلاد ، وقربت الأبعاد ، وسهل افتتاح ترعة السويس التواصل مع أوروبة ، من حيث بات التعليم والتهذيب على الاصول الحديثة وسيلة لانتشار الآراء والمبادىء الغربية .

ثم بعد هذا الانقلاب الهندي السريع والتطور الحثيث جاء حكم «الراجا» البريطاني فطبق البلاد قاطبة ، وهو ضربٌ من الانظمة الحكومية فريد النوع في جميع العالم ، اذ هو حكومة يقوم باعبائها بضع مئات من الخبراء المدربين أهل الدربة والحنكة ، يعضدهم جيش صغير مدرب في حكم تلك المئات من الملايين المختلفة ، على ان حكومة « الراجوات » هـذه هي ارثية مطلقة ، تنهج في سلطانها النهج الذي تستصلحه وتراه ،ملائماً لهـا وموافقاً ، غير متخـذة من التبعة ازاء الشعب أكثر من تلك التي كان يتخذها الحـكام الوطنيون المستبدون من قبل . فهذه الحكومة المنشأة على هذا الطراز المحدث قد حكمت حكماً حسناً صحيحاً ، وربما كانت حكومة الهند هذه من حيث اعتبار الأمانة والكفاية والشعور بواجب الوظيفة خير مثال من أمثلة الحكومات « المستبدة العادلة » التي عرفها العالم ، فقد نشرت هذه الحكومة في ربوع الهنـد الراحة والأمن مكينين ، وترفعت عن المحاباة والغرض ، وأقامت قسطاس العدل بين جميع الاقوام والطوائف والطبقات المتباينة في الاعتقاد المختلفة في المزاج ، وفوق جميع هذا جعلت للهند كينونة سياسية حقيقية لم تعرفها الهنـد في جميع ماضي ادوارها . فتوحدت ممالك الهند توحداً وثيقاً للمرة الأولى في جميع تاريخها في ظل حكم واحد ـ هو حكم « السلام البريطاني » .

على ان حسنات الحكم البريطاني هي هي التي بذرت بذور الاضطراب التي قد نمت نمواً هائلاً ، فوفر الساكن وحمر النسل ونشأت طوائف الناس من أهل البلاد تعيش متسالمةً متحابةً ، متعارفةً بعد التقاطع والتدابر تعارفاً لم تذق طعمه فيما غبر من الدهر ، ناسية ما كان بين بعضها والبعض الآخر من الأحن والشحناء ، قوامة على شؤونها ، غير غافلة عن النقائص الأوروبية . وفوق جميع هذا صارت الهند إلفاً شديداً للآراء الغربية كالحكومة الذاتية والحرية والجنسية . وفي الهند ، شأن سائر اقطار الشرق ، كان لا بد حتماً من

نشوء حركة المقاومة للحكم الغربي والسخط عليه سخطاً متفاوت الدرجات ، من المطالب المعتدلة للحكم الذاتي ، الى مطالب الغلو الناحية منحى الاستقلال التام .

دامت الحال هكذا حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والمقاومة السياسية المنظمة لحكم « الراجوات » البريطاني غير معروفة بتة سوى ما كان يقوم به بعض الافراد القلائل والجماعات النزرة ، من رفع بعض الاحتجاجات المنخفضة الصوت دون ان تلقى صدى مرجعا من الشعب . اذ ان معظم سواد الهنود ، الدائبين ابداً في طلب الرزق ابتغاء الاقوات مما لا يزيد على الكفاف والمؤونة ، قد ارتاحوا الى هذه الحكومة غير الجائرة ولا المستبدة ، والتي هي أعظم كفاية وأقوم على شؤون الرعية من سابقتها البائدة . وعلى الجملة ان ظهور العصبية الجنسية الهندية لم يكن له من أثر قط ، حتى ولا مما يدل عليه ، حتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر .

على ان أول أمارة من أمارات المقاومة المنظمة ظهرت في تأليف « المؤتمر الهندي الوطني » سنة ١٨٨٥ (١) ومجرد اسم هذا المؤتمر يدل على ان « الراجا » البريطاني المطبق حكمه الهند انما كان هو نفسه الداعي لاستيقاظ العناصر الهندية المختلفة وتنبهها ، ثم تطلعها نحو غايات معينة ومطامح وطنية معروفة . ولكن هذا المؤتمر ما كان ليمثل الرأي العام الهندي تمثيلاً صحيحاً بالمعنى المعروف ، اذ لم يشتمل الاّ على جانب قليل من الشعب كأرباب الصناعات العالية والصحافيين والساسة ، ممن تمّ لهم الوقوف الكامل على الآراء الغربية والمناهج الأوروبية ، لأن أساليب التهذيب الغربية التي أتى بها البريطانيون الى البلاد قد أثمرت أطيب الثمار ، فنشأت في الهند طبقة

(١) بلغنا مؤخراً من احد اعضاء هذا المؤتمر الوطني من البراهمة ان عدد اعضاء هذا المؤتمر ستة آلاف شخص يمثلون جميع الهند وان من هؤلاء الفين هم من المسلمين (ش)

متهذبة راقية شديدة التضلع من اللغة الانكليزية ، بالغة الارتواء من الروح الغربية .

ولما كان أهل هذه الطبقة الراقية الجديدة على اعتقاد حسن في الاعمال والغايات الغربية ، وكانوا يقدرون ما لذلك من الشأن والقيمة حق قدره لم يكن لهم مندوحة بطبيعة الحال عن السخط والتغضب على الكثير من صور الحياة الهندية وشؤونها . فلذلك لم يكن الجهد الذي بذله أهل هذه الطبقة أول عهد اليقظة موجهاً نحو غاية سياسية بمقدار ما كان موجهاً نحو غاية الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ، كقضية منع الزواج الباكر ، وتزوج الارامل ، ونشر التعليم والتهذيب . غير انه على توالي الأيام طفقت قضايا الاصلاح السياسي تتكاثر وتشغل مكاناً خطيراً . ولما كان أرباب الفكر من الهنود هم من ذوي الاطلاع الواسع على التاريخ الانكليزي والفلسفة السياسية ، أخذ شعورهم يزداد بما ينقص بلادهم من الحكومة الذاتية ، وشرعوا يطمحون الى منح الهند بركات الحرية التي يعظمها حكام البلاد الانكليز ويعلون قدرها وينزلونها المنزلة الفريدة . فنشأت في الهند للحال الصحف الوطنية الصادقة العزم والغيرة تنهج مناهج الارتقاء والتقدم، مبشرة بانجيل الوطنية الجديد ، حاملة جميع أرباب الفكر على الاتحاد عصبة واحدة ، عصبة الايقاظ والتنبيه ، ومكونة في البلاد رأياً عاماً متماسك الاطراف مشدود الاركان . وقبيل اختتام القرن التاسع عشر أصبحت الطبقة الهندية الراقية تملأ الفضاء صياحاً وتجهر علانية في سبيل نيل النظم السياسية الحديثة كالمجالس النيابية ، والاستزادة من السلطة التنفيذية ، والاشتراك في وضع قوانين الضرائب ، وتوسيع المجال لاهل البلاد كيما يتسنى لهم القيام بالخدمة المدنية وغير ذلك . وعند اختتام القرن كان الجاهدون في سبيل هذه المطالب والمطامح ، كما قلنا قبلاً ، هم رجال الطبقة المنورة المتشبعين بالآراء والمباديء الغربية ، الذين مع انتحالهم اسم الوطنيين كانوا لم يدركوا بعد

المستوى الذين يستحقون به ان يطلق عليهم اسم القائمين بالعصبية الجنسية بالمعنى الصحيح . ولم تكن غايتهم ، اللهم الا في بعض المواضع ، الاستقلال ، ولا محو السيطرة البريطانية الفعالة ، بل بالاكثر القيام بالاصلاح في أفق الحياة الهندية على المناهج الغربية . وينطوي تحت ذلك توسيع المجال للحكومة الذاتية الخاضعة لمشارفة السلطة البريطانية .

على انه عند نهاية القرن التاسع عشر تطورت الحال تطوراً كبيراً . فطفقت الهند شأن سائر الشرق تضطرب اضطراباً شديداً وتهيج فيها عوامل الانقلاب والانتقال وتتمخض عن حركات عنيفة ، واستيقظت روح جديدة تدل على التنبه السياسي واليقظة الجنسية والنهضة القومية . وظهرت أدلة وأمائر تؤيد منشأ هذا تأييداً لا ريب فيه . فانكب العلماء والبحثة الهنديون على خزائن الأسفار من تواريخهم البالية وكتبهم المقدسة ينقبون في بطونها تنقيباً ، ويحيون من بين دفاتها انباء عن عز الهند التليد ومجدها الغابر وماضيها المجيد ، وقامت بعض الطوائف المصلحة مثل « الآرياسوماج » توجب القيام بالاصلاح ايجاباً دينياً ، ثم انضم الى جماعات أهل الفكر والروية المتشربين الروح الغربية ، عناصر أخرى ، فاتحد الجميع معاً وانبروا يدبرون الذرائع والوسائل ليس لبلوغ الاصلاح المتدرج على المناهج الغربية ، بل لاحياء الهند كلها ، الهند الجديدة ، احياء حديثاً من شأنه ان يجدد قواها النفسانية الحيوية تجديدا ، ويحررها من اغلالها وقيودها تحريراً ، فتسير اذ ذاك في سبيلها وراء مقاديرها تسوق نفسها بنفسها. ومنذ ذلك الحين ارتفعت الاصوات من جوانب طبقات الوطنيين وهي تردد ترديداً بالغاً عنان السماء « بانديمتارام » ــ ليحيى الوطن ! !

بيد ان هناك أمراً أحرى بالاعتبار وهو ان هذه النهضة الجنسية الهندية انما كانت لأول عهدها حركة قام بها ابناء الهندويين اما المسلمون فقد حذروا منها ونظروا اليها بعين الريب أو العداء . وانهم في الواقع كانوا على حق في

هذا ، لأن غاية أولئك الوطنيين الجدد كانت « الهند الآرية » « هند العصور الذهبية » ، وبات شعارهم : « رجوعاً في الفيدا ! رجوعاً الى الفيدا ! » وهذا بطبيعته يقتضي احياء ذكريات الأيام الخالية احياء تندرج تحته يقظة البرهمية الغاشمة . فتطورت حال أهل الطبقة الراقية تطوراً هائلاً اذ ان الرجال الذين كانوا منذ بضع سنوات ينادون بتفوق الآراء الغربية وسمو المبادىء الأوروبية ، ويسخرون من أباطيل عبادة الأوثان وسواها ، باتوا اليوم يشنأون كل شيء غربي ، ثم انقلبوا يقربون القرابين ويقدمون الذبائح للآلهة الهندية ، وأمست « تربة الهند المقدسة » في نظرهم يجب ان تطهر تطهيراً من الأجانب (١) . والأجانب الذين قد عناهم الوطنيون لم يكونوا الانكليز فقط بل أيضاً المسلمين ، الأمر الذي هاجت بسببه الذكريات العتيقة وثارت لأجله روح الانتقام فقد ظل الخلاف الهندوي الاسلامي اجيالاً طويلةً شقاً لا يستطاع حوصه وصدعاً لا يمكن رأبه ، وما كانت تلك الجروح لتلتئم ، لكن تغشت بغشاء لطيف هو سيادة « الراجا » البريطانية لجميع أهل البلاد الهندية سيادةً غير محابية ولا متحيزة . اما الآن فقد تمزق هذا الغشاء فاذا بالمسلمين يرون أنفسهم مهددين بعداء الهندويين عداء متجدداً وهو العداء الذي كان سبباً في اضمحلال الدولة المغولية بعد موت الامبراطور « اورنغزيب » منذ مئتي سنة خلت ، ولم يحمل هذا العداء المسلمين على الحذر والخشية فقط ، بل أشعلهم غضباً وحنقاً ، فطفقوا يتذكرون مجد المملكة المغولية ، كدأب الهنود يتذكرون مجد الهند الآرية ، وشرعوا يحسبون أنفسهم سادةَ البلاد بحق ، ويأبون الخنوع بتةً لحكم « عبدة الاوثان » المزدرى بهم . وما كانوا اذ ذاك ليحبوا البريطانيين ، بيد انهم اضطروا الى محبتهم بسبب عود العداء بينهم وبين الهندويين ، فوجدوا في الراجا البريطاني حرزاً حريزاً يتقون به شر تلك

(١) سبق لنا الكلام على « العصور الذهبية » الهندية ومنازعها في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

العداوة المزمنة الكامنة في الرماد ، وفوق هذا فالهندويون يفوقونهم عدداً كخمسة الى واحد . لهذا السبب أخذ المسلمون يقاومون النهضة الجنسية الهندية ، ويقبلون على موالاة الراجوات موالاةً شديدةً . وكانوا في هذا الدور قد أصبحوا على حال من التأثر بروح الاضطراب والقلق المنتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، فدبت فيهم روح العصبية الشديدة التي بسبب كونهم الأقلين عدداً لم تتخذ لها شكل الوطنية الاقليمية ، بل نزعت الى تلك العواطف الاسلامية المتلاطمة الرامية الى الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اللتين قدمنا الكلام عليهما .

فالعصبية الجنسية الهندية في أول عهدها لم تكن ذات صفة هندوية فقط بل أيضاً برهمية يلابسها النزوع الى العرق ، فجعل البراهمة يزدادون حولاً وقوةً في تسيير الحركة وسوقها في مجراها يبتغون من وراء ذلك تشييد عزهم ورفع لواء تفوقهم ، في هند الغد ، حتى يستطيعوا بذلك ان يعيدوا سيرتهم الأولى ، فأثار ذلك خوفَ جانب كبير من المجتمع الهندوي ، فشرعت طوائف كثيرة من الطوائف السفلى والبارياه تخشى ان الهند اذا ما استقلت أو نالت حكومة ذاتيةً يعود الحكم البرهمي الاوليغارقي الطاغي الى الوجود ، ويكون ذلك سبباً في ان تفقد تلك الطوائف المنافع والفوائد التي هي حاصلة عليها الآن في ظل الحكم البريطاني [1] . وفوق ذلك فقد هب كثير من الامراء الهندويين يقاومون فكرة الرجوع الى الحكم التيوقراطي بعامل الوجل من انهم سيسلبون باستقلال الهند جميع ما في أيديهم من السلطة . لذلك باتت الحركة الوطنية الهندية أشبه بتواثق بين البراهمة والطبقة الراقية المتشبعة تهذيباً غربياً ، وهؤلاء جميعاً وضعوا خطةً وجعلوها تشتمل على مطامحهم الرامية الى غاية حكم الهند حكماً مشتركاً .

---

(١) ان شأن الطبقات المضطهدة في الهند قد بيناه في الفصل الثالث ، واننا نزيد في بيانه في هذا الفصل .

واذ غدت الحركة الوطنية تهيجها هذه المطامح وتشعلها الغيرة الدينية فقد كان من شأنها في هذه الحال ان اكتسبت طبائع التعصب واتصفت بشدة المقت والشنأة للغربيين وكل شيء غربي . وقد كانت الحرب الروسية اليابانية العامل الاكبر في نفخ هذه الروح ، ففي السنة التي تلت تلك الحرب (١٩٠٥) ظهرت الأدلة منذرةً بقرب هبوب العاصفة ، وكان ذلك على أثر قرارٍ وضعته الحكومة في تقسيم البنغال ذلك التقسيم الذي كانت الغاية منه ادارية صرفة مجردة عن كل صبغة سياسية ، فرجال الحركة الوطنية حسبوه أمراً مقيماً مقعداً ، فطفقوا يشعلون نار دعوة كبيرة الهبت الهند كلها ، فعم الاضطراب وساد القلق . وكان زعيم هذه الدعوة الباعثة على الهياج والفتنة « بال غانفدرهار تيلاك » الذي دُعي بأبي الاضطراب الهندي . فان تيلاك هذا وهو برهمي كان روح الحركة وعرقها النابض ولسانها الناطق ، نال حظاً وافراً من التهذيب والعلوم الغربية ، وكان عدواً شديداً للحكم البريطاني والحضارة الاوروبية ، وداعياً عظيماً يتسلط على القلوب فتنقاد اليه ، وخطيباً بليغاً واري الزند تثير خطبه سواكن النفوس . وكانت صحيفته « ياغنتار » في كلكتا تقذف حمم المقت والشنأة للغربيين قذفاً وتحمل الشعب على الهياج والاغتيال والثورة . فانتجت طائفة تلك العوامل التي اثارها تيلاك النتائج المحسوسة الأثر للحال ، فاشتد الهرج والمرج وكثرت الفتن وحوادث قتل الانكليز واغتيالهم ، وما كانت « ياغنتار » الا واحدة من عديد الصحف الوطنية التي نهجت هذا المنهج وكان بعضها يكتب بلغة أهل البلاد والبعض الآخر بالانكليزية وجميعها متبار في حلبة الهياج والاثارة .

والى القارىء مثال مما كانت تنشره الصحف الوطنية تتبين منه شدة النقمة وهول الشنأة . قالت « ياغنتار » : « ان الثورة انما هي الذريعة الوحيدة التي تستطيع بها الأمم المستعبدة المقودة بأغلال الذل والقهر الدفاع عن كيانها والذياد عن ذمارها . ان كنت لا تستطيع يا ابن الهند ان تكون رجلاً كل

الرجل في الحياة فاستطع ان تكونهُ بالموت في سبيل الوطن . ان الأجانب الدخلاء ، يا ابن الهند ، قد هبطوا بلادنا وجاسوا خلال ديارنا ، وحتموا عليك كيف يجب ان تعيش ذليلاً وشددوا في ذلك ما استطاعوا ، اما كيف يجب ان تموت فذلك أمره في يدك فاختر الموت موت الابطال فداء لهذا الوطن ، هيا بنا ابناء الهند ! اعدوا عددكم وامشوا لاضرام نيران الثورة العامة التي لا تبقي ولا تذر ، تلهب الهند من جانب الى جانب ! ان هـذه الشراذم من الشرط والجنود لهي أعجز عن الوقوف في وجه الثوار يتمورون تمور البحر الزاخر المتلاطم الاحج ، ويملأون الهند السهل منها والجبل . قد يزج الثوار في المحابس والسجون ، ويحتسون كؤوس الحمام ضروباً وألواناً غير ان ذلك كله ليس بالموهن من عزمنا وحزمنا ولا بالمضعف من شدتنا وبأسنا . يقتل ألف فتنبري من بعـدهم الآلاف المؤلفة للقيام بواجب الوطن . ايه ابناء هندسـتان ! عضوا على النواجذ ولا ترهبوا ! ان تربة هندستان مريعة المرابع أبداً بدماء الابطال . لا تيأسوا ولا تقنطوا ، هذه ابطالنا وهذه اموالنا فالمجد المجد اقتطفوا ثماره يانعة طيبة . اعلموا ان طائفةً من القذائف رميتم بها العدو قـد شقت كبده شقاً . هو الهول والظلم مما ملأ الجواء وغطى السماء فسيروا قُدُماً وخوضوا بصادق الغشمشمة عباب بحر من الدماء القانية ! »

وقد كثرت حوادث الاغتيال كثرةً هائلة فقال « س. كريشنافارما » في صحيفة « انديان صوسيولجيست » *Indian Sociologist*. : « ان الاغتيال السياسي لا يعد قتلا البتة . اذ ان الاستعمال الحق لمثل هذه القوة انما هو دفاع تجاه قوة معتدية » وقالت « ياغنتار » في موضع آخر : « انما بدل الاشتراك الواجب على جميع قراء هذه الجريدة هو ان يأتي الينا كل منهم برأس أوروبي » وما كانت النساء والاولاد من الانكليز مستثنيات من الرجال اذ قالت « ياغنتار » فرحة مبتهجة في تعليق لها على مقتل سـيدة انكليزية وابنتها : « يجب ان تقتل على توالي الأيام عفاريت عديدة من هؤلاء النساء

ذوات الارواح الشريرة الخبيثة ، وتجتث شأفتهن كما تجتث شأفة جنس « الاسوراز » من على وجه الارض » . واليك كلمة تدل على مبلغ تعصب الرجال الذين طفقوا يدأبون على القتل والاغتيال (وغالبهم من الشبان) قالها شاب هندي قتل موظفاً انكليزياً كبيراً هو السر كرزن ديلي ؛ وهو على دكة المشنقة : « اني أيها الملأ لاعتقد ان أمة يتحكم فيها الأجانب الغرباء بالحراب اللوامع انما هي على حرب مشبوبة النار ابداً . ولما كانت الحرب المنظمة التي تعبأ فيها الصفوف ليست بالامر المستطاع عند أمة عزلاء من السلاح ، فاني لم أجد بداً من الهجوم على حين غرة . ولما لم يكن لدي مدافع أصلي بها العدو صواعق نارية فقد لجأت الى مسدسي وأطلقت منه بعض العيارات . اني بصفة كوني هندياً لاشعر ان الاساءة الى بلادي هي الاساءة الى الآلهة ، وان مصلحة الوطن هي مصلحة « شريرام » ، وخدمة الهند هي خدمة « شري كريشنا » . على ان من كان مثلي صفر اليدين خالي الوطاب ليس عنده كثير مال ولا غزير علم ، فليس بوسعه ان يجود لامه بشيء سوى دمه الهندي الجاري في عروقه ، فلذلك اني أسفك دمي هذا قرباناً على مذبحها المقدس . وليعلم سائر بني أمي ان العظة التي يجب تلقينها في الهند اليوم انما هي معرفة كيف يجب على الهندي ان يموت ، والوسيلة الوحيدة الفضلى لتلقن هذه العظة هو ان أشرب أنا وأمثالي كأس الردى ، فرحباً بهذا الموت الذي ألقاه الآن شهيداً . وهذه الحرب القائمة في ديارنا اليوم ستظل مشتعلة في ربوع الهند ما دام الجنسان الهندي والانكليزي على هذا العداء وما لم تتبدل هذه الحالة بأفضل منها »

على ان جواب الحكومة على شبوب هذه الفتنة الهائلة المملوءة بحوادث القتل والاغتيال ، قد كان المبادرة في الأخذ بأسباب الاخماد بيد من حديد ونار . فعطلت الحكومة الصحف الوطنية ، وسجنت رجال الفتنة وقتلتهم تقتيلاً ، وجعلت ترهف الحد بسن قوانين جزائية شديدة ، وكانت بسبب

الفتنة قد هاجت الجماعات الأوروبية أيما هياج وقامت وقعدت لما يقوم به الوطنيون من ازهاق الأرواح وسلب النفوس ، فحمل الامر كثيراً من الانكليز على ان يطلبوا شديداً استرداد الامتيازات السياسية ، وجعل التعليم الجاري على الطراز الغربي لا يعدو حدوداً معلومة ، ولا يتخطى حكماً مطلقاً شديد الاستبداد ، فلما رأى الوطنيون هذا انباعوا الى الفتنة فعادوا يشعلونها في كل موضع ، فلقوا الجزاء الأهول والعقاب الاشد . وفي الواقع ، ان الغلاة من الفريقين ، فريق الوطنيين وفريق الانكليز ، كانوا بغلوهم يزيدون النار وقوداً ، فعمت البلوى وشملت المحنة ، وظلت الهند بضع سنوات تضطرم في جوانبها الفتن ، وما كانت السجون ولا اعواد المشانق ولا النفي ولا الابعاد بالذريعة الكافية لتسكين الحال ومنع الفوران .

ثم هدأت العاصفة هدوءاً غير طويل الأمد فتحسنت الحال وجرت مجرى حسناً ، اذ قل عدد الغلاة ، من حيث أخذ أرباب الحصافة والروية من البريطانيين والهنود يبتغون مخرجاً من ذلك المأزق الحرج . وقام القادة المحافظون من الهنود مثل المستر غوكهال وانداده يشجبون الهول والرعب ، ويدعون ابناء وطنهم للسعي وراء تحقيق امانيهم الوطنية على المناهج السلمية . ثم ان احرار الانكليز وهم لم يزالوا اذ ذاك يأبون الأوبة بالفشل والخسران شرعوا يبتغون الوصول الى خطة يتمّ بها الاتفاق والوئام ، فندب السياسي الحر الكبير جون مورلي وفوض اليه مهمة القيام بتسوية شؤون الهند فاخذ يجهد حتى توصل بالتالي الى وضع « لائحة المجالس الهندية لسنة ١٩٠٩ » وكان مشتمل هذه اللائحة الاقلاع التام عن الحكم البريطاني في الهند ذلك الحكم الشبيه بالمطلق الشديد ، وتوسيع المجال بالتدريج لأهل الاعتراض من الهنود بحيث يستطيعون بذلك ابداء الرأي والمشورة والاقدام على النقد والمناقشة . وكان من محتوى اللائحة ايضاً وضع نظام ذي قيود وحدود لانتخاب الهيئات الاشتراعية التي تنشأ على مقتضى هذه اللائحة . فكانت النتيجة ان الوطنيين

المعتدلين ، على كونهم غير مرتضين الارتضاء كله ، قبلوا باللائحة وحسبوها باكورة تتلوها المنح الاستقلالية ، وبرهاناً على حسن نية بريطانيـة ، من حيث ان اعمال الغلاة القائمة على الرعب والهول والـكيد اصابتها صدمة كبيرة ولـكنها لم تنقطع انقطاعاً كلياً . وكانت زيارة الملك جورج للهند سنة ١٩١١ سبباً في مد حبل الولاء والاخلاص ، فارتاحت شـبه جزيرة الهند الى هذه الزيارة واتخذتها فألا تيمنت به .

ولـكن كانت سنة ١٩١١ منتهى الفترة التي ساد فيها السكون بعد العواصف التي توالى هبوبها من سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ . ثم عاد الاضطراب يتجدد شيئاً فشيئاً بعد سنة ١٩١١ لأن التأثير الذي كان قد حصل في بدء الامر بسبب لائحة المجلس ، قد ذهب الآن وعفا . فغدا الشعور بالخيبة حاملا على التوسع في المطامح والتطوح في الآمال . والحقيقة ان العصبية الجنسية كانت هذه السنوات مطردة الاشتداد ومتوالية الاتساع ، فبعد أفقها ورحب مضطربها ، فرسخ مستقرها واعتز نصابها ، فغدت الحركة الوطنية غير مقصورة الشأن على الفئة القليلة المؤلفة من الغـلاة ، بل انضوى تحت لوائها القادة المعتدلون مثل المستر غوكهال وامثاله الذين اعتزموا العمل في سبيل ادراك الغاية الوطنية على طرق متدرجة ومناهج على مقتضى الحال ، ولـكن على كل حال كان من امر هؤلاء المعتدلين الالحاح على الحـكومة بمساعدات جديدة يتسع بها المجال للوطنيين في تقلد الأحكام وولاية الامور . وكانت العلامة الـكبرى من علامات تعالي النهضة الهندية هو جنوح جانب من الرأي الاسلامي العام الى الأخذ بنصرة الحركة الوطنية . اذ ان المسلمين كانوا من قبل ذلك الحين انشأوا « الميثاق الاسلامي الهندي العام » الذي كان يختلف بطبيعته عن منهاج الحركة الوطنية ، لأن الغرض من انشائه في المقام الاول هو الدفاع عن مصالح المسلمين ازاء ما كان يقدر عهدئذ من تفوق الهندويين واستفحال سلطانهم . ولـكن على توالي الأيام طفق بعض المسلمين يرتجعون

عن موقف المقاومة للهندويين ، ويقلعون عن المشادّة معهم خلافاً لمقتضى الميثاق الاسلامي ، وانقلبوا ينضمون الى معتدلة الوطنيين لكن دون الاشتراك في ايقاد الفتن والعبث بالامن ، وكان ذلك الانضمام منهم من بعدما قطع لهم معتدلة الهندويين الوعود والعهود وأكدوا لهم وقوفهم الى جانبهم موقف الصديق الصفي . وفي ذلك الحين كان رجال النهضة الوطنية قد انقسموا قسمين : المعتدلين والغلاة . اما الغلاة ، وقد نقم عليهم نظراءوهم ، فقد استمروا على الهياج والاثارة والقيام بحملات العنف والشدة ، وكان أكبر المديرين لوسائل هذه الحركات والاعمال هم القادة الغلاة المنفيين الذين كانوا لا يفتأون ، وهم في البلاد الاجنبية ، يبعثون دعاة الشغب والفتنة الى الهند فيقوم هؤلاء بتحريض أبناء بلادهم واستثارتهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

هكذا كانت الحالة في الهند عند نشوب الحرب العامة ، وهي والحق يقال حالة ليس قليلاً ما فيها من الشؤم والخطر ، ولكنها على كل هذا كانت اذ ذاك خيراً منها منذ عدة سنوات خلت . ومن المعلوم ان الحرب قد كانت سبباً في زيادة القلاقل والأهوال ولكن على مقدار معلوم ، فظلت الهند على الجملة مدة الحرب العامّة تجود برجالها واموالهـا على غير انقطاع في سبيل نصر الامبراطورية البريطانية ، فملأت الجيوش الهندية ميادين أوروبة وآسية وافريقية .

على أنه وان كانت الحرب العامة قد انقضت والهند لم تنشب فيهـا الفتن والثورات المصطلمة العامة ، فلا يؤخذن من هذا ان الحركة الوطنيـة كانت خامدة ساكنة تماماً أو انه قل السعي وراء توسيع نطاق الحكومة الذاتية ، كلا ثم كلا ، فان الحرب الكبرى ما كانت الا لتكسب الحركة الوطنية صولةً وبأساً ، وشـدة وعنفاً ، فطفق الصراخ يتعالى واللجاج يتزايد طلباً لانشاء حكومة ليس يجب ان تكون صالحة فقط بل ان تكون بماهيتها وصفتها عند رضى رجال الحركة الوطنية وتنتهي اليهم . ولمـا كانت الهند قد برهنت في الواقع على حسن ولائها للامبراطورية البريطانية ببذلها في سبيلها النفوس والثمرات

عن جود وسخاء ، فقد كان ذلك باعثاً على عود البحث في منح الهند قسطاً أكبر وقدراً أوفر في الحكومة الذاتيـة ، فطفق الرأي العام الهندوي على اختلاف اقسامه وطبقاته يرفع البرامج العديدة الى الحكومة البريطانية في هذا الشأن ، فكانت جميع هذه البرامج المتنوعة أشبه بمنعكس ظهرت فيـه صور العصبية الجنسية الهندية أجلى ظهور ، وكانت غاية الغايات التي رمى اليها الجميع واحدة : هي التحرر من الوصاية البريطانية تحرراً تاماً ، غير ان الاختلاف قد شجر بين أهل البلاد في كيف ومتى يدرك هذا التحرر . اما أشـد المحافظين فقد قصروا أمرهم على طلب حكومة ذاتية خاضعة للارشاد البريطاني ، بينما غيرهم من الذين هم أوسع مطامح وآمالاً طلبوا نظام الحكم التام المعطى للاملاك المستقلة في الامبراطورية البريطانية مثل أوستراليـة وكندا . واما أصحاب العنصر الثوري فقد ظلوا بعداً مصرين على ان العنف والشدة هما الوسيلة خير الوسيلة لادراك الغاية الوطنية أعني بها الاستقلال التام .

ومن مقتضى مطالب المعتدلين القيام بتغييرات كبيرة في نظام الحكومة الحالي ، والتقليل من السلطة البريطانية الى حد معلوم في المواضع التي لم تغد عندها الحكومة الهندية الوطنية ناضجة كل النضج . وقد قبلت الحكومة البريطانية هـذه المطالب بروح العطف الدال على ابتغاء الاجابة والتوفيق ، والمنبيء باهداء المنح الاستقلالية في المستقبل القريب . في هـذا الصدد قال نائب الملك في الهند اللورد هاردنغ سنة ١٩١٦ : « انني لأود الاخذ بنصرة هذا المطلب الذي تطلبونه من حكومة ذاتية في الهند ، لأن هـذا هو غاية وطنية شريفة . ان الحكومة الذاتية لهي مطلب حق صريح يعطف عليه ويشترك فيـه جميع المعتدلين ، غير ان الحالة اليوم في الهند تقتضي بطبيعتها النهج على سياسة عملية بعيدة من الغاية القصية . لذلك ينبغي لنا ان نستمسك جهدنا بما هو واقع محسوس ونعرض عن متطوح الآمال التي ليس من نتيجة التشجيع عليها سوى الابطاء والتأخير عوضاً عن سرعة التوفيق والفلاح في

ميدان السياسة . ومعلوم عندي ان هذا هو رأي العقلاء وارباب الحصافة والروية من رجال الهند . وليس هناك من هو أرغب مني في رؤية آمال الهند الحقة الصريحة محققة عما قريب ، من حيث اني أحاذر كل خطر ينجم عنه رد الفعل بانشاء النظم الجديدة التي يدل الاختبار على كونها سابقة لأوانها » .

وفي أواخر سنة ١٩١٧ قدم الهند من بريطانية المستر مونتاغو وزير الهند مبتغياً الوقوف التام على الرأي العام في الهند بشأن قضية الاصلاح الدستوري ، فصرف عدة أشهر يباحث ويناقش ويكتنه ويستبطن ، ويعقد المؤتمرات الممثلة لجميع الاجناس والطبقات والأديان ، وبالتالي وضع تقريراً أودعه نتائج هذا الاستطلاع المدقق ، وقعه هو ونائب الملك في الهند اللورد « شلمزفورد » ، ونشر في تموز (يوليو) سنة ١٩١٨ .

واشتمل هذا التقرير على بيان ميثاق يوضح جدارة أهل الهند لنيل المنح الاستقلالية مما يفوق جميع ما قد منحته بريطانية الهند من قبل ، ويبين صريحاً ان تمنح الهند الحكم المعروف « بالحكم الوطني » (Home Rule هوم رول) في المستقبل القريب ، وان هذه المنحة ليست تعد النتيجة الناشئة عن الاضطرابات الهندية ، بل عملا بمقتضى « الاعتقاد والوجدان المستقرين فينا » . ثم يتلو ذلك كلمات حق ان تكتب بماء الذهب ، ألا وهي : « اننا نعتقد اعتقاداً راسخاً ان قد حان الوقت الذي أصبحت فيه اطالة حمايتنا للهند لا يستطاع القيام بها دون ان نصيب حياة الهند ، الحياة القومية الوطنية بضرر وخطر ، وان لدينا الآن منحة لأهل الهند هي أثمن من جميع المنح المتقدمة منا لهم ، فان حياة أهل الهند باعتبارهم أمة صحيحة البنيان ، في كنف الامبراطورية ، ليتمثل فيها شيء هو أنفس حقاً من سائر ما قد اكتسبته الهند في الماضي ، وان السكون البادي على السواد الأعظم اليوم ليس بالتربة الصالحة التي تنمو فيها حياة الهند الجديدة ، فاستحثاثنا القوم من تلقاء أنفسنا ليتأهبوا للقاء عصر جديد انما هو الخير كل الخير للهند » .

وصفوة التقرير بيانٌ في ان طراز « الحكومة المشتركة » يصلح اتخاذه قاعدة ومبدأ لتسوية القضية الهندية ، وهذا الطراز انما هو ضربٌ من الحكومة تقسم بمقتضاه التبعة الحكومية بين مستشارين تعينهم السلطة التنفيذية البريطانية وبين وزراء تنتخبهم الهيئات الانتخابية الاشتراعية ، وعلى هذا الشكل والنظام تتكون الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم . اما السلطة الاشتراعية فينتخب اعضاءوها انتخاباً على نطاق تغدو فيه حقوق الانتخابات رحبة وافية الى حد لم يعرف من قبل ، وتخول المجالس الاشتراعية سلطة كبيرة واسعة ، اذ في الماضي لم تكن سلطة هـذه المجالس لتزيد الا القليل على سلطة المجالس الاستشارية ، اما الآن فانها معتبرة بمقتضى التقرير اشتراعية تامة الصفة بالمعنى الغربي الصحيح ، على كون سلطتها لم تزل محدودة في مواضع أخصها المالية التي ظلت القوة التنفيذية تحتفظها احتفاظاً يكسبها الكلمة العليا والقول الفصل في بعض الشؤون ، وبهذا لا يكون هناك شيء من توازن السلطات ، بل تكون كفة الراجا البريطاني هي الراجحة أبداً على ما سواها . ثم يبين التقرير ان هذا المنهاج الحكومي لن يكون أبدياً ، بل انما هو بدليل شكله وظاهره وسيلة يتم بها انتقال السلطة من الحكومة الراجوية الى الحكومة الوطنية ، أو هو أشبه بمدرسة يتخرج فيها الشعب الهندي المدة المقتضاة ، حتى اذا ما نال قسطه من الخبرة والمران ، واستوفى ما ينبغي ان يكون عليه من الحنكة والمراس ، واقتبس ما فيه الكفاية من هذه الدروس الأولية في الحكومة الذاتية ، منح حكومة نيابية تامة الجهاز كاملة الشرط بوسعها وطاقتها ليس الاقتدار على المباشرة والانشاء والاشتراع فحسبُ ، بل أيضاً القبض التام على أزمة السلطة التنفيذية وتسيير دفتها .

ثم بات التقرير موضوع البحث والمناقشة المدققة في الهند وبريطانية . وبالوقوف على ما دار حول شأنه من مختلف المباحثات وضروب الاقوال ، تتجلى لنا ماهيـة القضية الهندية مع ما هي عليـه من التناقض والتباين . اما

رجال النهضة الوطنية فقد ذهبوا حينئذ مذهبين مختلفين الأول مذهب المعتدلة الذين ارتاحوا الى التقرير ارتياحاً ووافقوا على محتواه ومقترحاته ، وأبدوا ما تضمنه من المنهاج الحكومي وشرعوا يعضدونه عضد المعاونة والولاء ، والآخر مذهب الغلاة الذين مالبثوا ان فندوا التقرير تفنيداً شديداً وقالوا ان مقترحاته ليست الا احبولة وشركا . وصرح المعتدلة صفة حالهم ببيان أصدروه موقعاً من زعمائهم وقادتهم ، وفي طليعتهم الاقتصادي الهندي المشهور « السر دانشوواشا » ، ومما جاء في هذا البيان : « ان المنهاج المقترح في التقرير هو أشبه بصورة مركبة الاجزاء بعضها قابل للتحسين والترقية ولا سيما القسم الاعلى منها ، والمنهاج مع ذلك يحسب مشروعاً ظاهراً فيه التقدم والتحسن ، ومن شأن الاصلاحات المقترحة فيه ان تمهد السبل للأقاليم الهندية للوصول يوماً الى غاية الحكومة النيابية التامة . وعلى الجملة ففي هذه المقترحات من صدق النظر وروح العطف على الآمال الهندية مايستحق به صاحبا التقرير الكفيان الاشهران ، شكر أهل الهند وامتنانهم » . وكان تفنيد الغلاة للتقرير شديداً جداً ، وقد جهد بهذا زعماؤهم وقادتهم ، فقال المستر تيلاك : « الاعتصام الاعتصام بالغاية التي وضعها نصب عينيه المؤتمر الهندي الوطني » . وقال المستر بين شنذربال : « لن أحول عن رأيي الصريح وهو ان ماقبل بهذا المشروع المقترح ونفذ فان الحكومة ستصبح يومذاك أشد عنفاً واستبداداً منها اليوم » .

ومما هو احرى بالاطلاع عليه هو اعتراضات الاحزاب المقاومة للحركة الوطنية ، ولا سيما الاحزاب الاسلامية والطوائف الهندوية الدنيا ، اذ أن من الامور الدالة على شدة تعقد القضية الهندية ومناقضة بعض وجوهها لبعض هو خشية الملايين العديدة من الهنود للحركة الوطنية أشد خشية ، واتخاذهم حكم الراجا البريطاني مجناً يتقون به اضطهاد رجال الوطنية وعسفهم وتسلطهم . أما المسلمون الهنود فكانوا لم يبرحوا على خلاف شديد فيما بينهم

في شأن قضية الحكومة الذاتية . وكانت الفئة الكبيرة فيهم تمقت الحركة الوطنية وتحذرها لما اكتسبته بالتالي من الصبغة الهندوية الحاملة على التعصب، غير ان جانباً منهم أي من المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً يجنحون الى مناصرة الحركة والجهد في سبيلها ، كما سبق لنا بيان هذا ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً فاحشاً طول الحرب العامة ، فجعلت العرى بين المنصرين تتوثق ، ولكن ما كان السبب في هذا التآخي الاسلامي الهندوي مقصوراً على رغبة المسلمين في نيل الحكومة الذاتية بل لأنهم فوق ذلك قد ابتغوا مقاومة دول الحلفاء في سياستها التي وضعتها وطفقت تتمشى عليها لاقتسام الامبراطورية العثمانية واشمال الشرقين الادنى والاوسط [١] ، لذلك أمسى الوطنيون الهندويون على استعداد شديد لمقاسمة المسلمين شعورهم في الشؤون الاسلامية الخارجية فنجم عن جميع هذا ان استحكمت عرى الولاء بين الهندويين والمسلمين استحكاماً ، وتأكدت روابط الاتحاد بين العنصرين تأكداً ما عرف له من شبه من قبل .

وتدل الحال التي بلغ عندها اعتزاز الطوائف البرهمية بالحركة الوطنية اعظم مبلغ ، على ان المقاومة التي قامت بها الطوائف الهندوية الدنيا للحكم الهندي الوطني (هومرول) هي في الواقع عظيمة . فاشتد وجل هذه الطوائف حتى حسب أهلها انهم كادوا يخسرون الحماية التي هم حاصلون عليها اليوم في ظل الراجا البريطاني ، فتقضي بهم الحال اذ ذاك الى معاناة الذل والاقامة على الضيم والقهر ، وذلك مما لا ريب فيه متى ما عاد الاستبداد البرهمي الى الكيان وهو كما لا يخفى استبداد الطوائف العليا . فدعاهم ذلك كله الى اتخاذ وسائل الذياد عن حماهم ، فالفوا جمعية دعوها « الناماسودرا » وسلموا زعامتها والقيام على شأنها الى رجل كبير مشهور من آحاد رجالهم هو الدكتور نابر [٢] ، فاخذت

(١) كما سبق لنا بيان هذا في الفصل الخامس .

(٢) ذكر في الفصل الرابع .

هذه الجمعية تبين وتوضح ما سيقع من البغي والاستبداد البرهمي اذا ما تسنى لاهل الطوائف البرهمية العليا القبض على أزمة الاحكام في البلاد ، مستدلةً بما هو واقع في الحال على ما هو متوقع حدوثه في المستقبل ، مثال ذلك قولها : « ان البرهميين قد أخشوا في رعب المنتخبين (بكسر الخاء) من الطوائف الدنيا في عدة مواسم انتخابية وهددوهم شر تهديد بان ينبذوهم من مراتبهم الطائفية نبذاً ان تقاعسوا عن انتخاب المرشحين البرهميين من الطوائف العليا ، فاذا كانت هذه صفة الحال اليوم فكيف تكون غداً اذا ما تمّ للبراهمة الاستبداد في مجال أوسع ونطاق أرحب ، فيفقد « الپارياه » المنبوذون اذ ذاك كل حق في المجتمع الهندوي » .

فهذه الاعتراضات التي قام بها اقسام كبيرة من أهالي الهند مقاومة للحكم الوطني « هومرول » المقترح في التقرير ، كان من شأنها انها استرعت انتباه عدد كبير من الانكليز أهل الاضطلاع في القضية الهندية الذين كانوا قد كشفوا عن قناعتهم واعتقادهم في استعداد الهند للحكم الوطني ، من حيث انها قوّت حجج طائفة عظيمة من الانكليز ، ولا سيما أولئك المتهندين [انجلواندیان] القائلين بأن الهند ليست الى الآن ناضجةً نضجاً كافياً لنيل الحكومة الذاتية. قال أحد أصحاب هذا الرأي في مجلة (Round Table) « روندتايبل » : « ان الحشوة من أهل الهند لا يحفلون البتة بشؤون السياسة ولا يفقهون شيئاً من الحكم الوطني . بل انهم يؤثرون البقاء في ظل قضاة الصلح الانكليز على كل شيء سواه وهذا الامر هو مبتغاهم ابداً ، وهم واثقون كل الثقة بالانكليزي لأنه كان دوماً « حامي الضعفاء » لا يحابي هندوياً ولا مسلماً وقد عرف بالنزاهة والأمانة » . وقال اللورد سيدنهام في نقد مسهب فند فيه مقترحات تقرير مونتاغو شلمزفورد : « ان هناك نقائص عديدة في منهاج حكومتنا في الهند يحمل على الاصلاح الواجب ان يقدم على قاعدة

المصلحة لجميع سكان الهند بدون تمييز . ولكن اذا ما نفذت سياسة « استحثاث القوم من تلقاء أنفسنا لكي يتأهبوا للقاء عصر جديد » ، كما يقول نائب الملك في الهند ووزيرها في بريطانية ، واذا ما انتشر النبأ في الزوايا المتهامسة في الشرق ان تلك السلطة الوحيدة الكافلة لسير القانون والنظام والآخذة للأمة الهندية بيد المعونة في سبيل الارتقاء المتدرج ، قد وهنت وتضعضعت ، قضي بذلك على المصالح العامة القضاء المبرم ، فعادت الاحن والأحقاد تشتعل جديداً ، ثم يكون على الأثر رد فعل عظيم تقوى به البراهمة — وتذهب به جميع الترقيات والاعمال الشريفة التي قام بها الانكليز في الهند » .

على ان هناك كثيراً من ثقات الانكليز المضطلعين في الشؤون الهندية ، ذهبوا يؤيدون مقترحات التقرير ويبينون ما هي عليه من الحكمة الصادقة ويلحون على الحكومة طالبين ان يشترع البرلمان قانوناً لها ويضع نظاماً لتنفيذها ، هذا اذا رامت بريطانية حقاً اتقاء الأخطار العظمى والبلايا الكبرى . وكان زعماء هذا الرأي والمذهب هم مثل ليونل كرتس والسر ڤالنتين تشيرول [1] فقال هذا الأخير : « انه لمن عزم الامور ألا يؤخر العمل على مقتضى مقترحات التقرير ، فلنتعظ ولنعتبر بما قد جرى حتى اليوم فذلك لعمري كاف ان يحملنا على الانتباه لمخاطر التسويف والارجاء . أيا ترى يغيب عنا بعد جميع الذي جرى ان الزمان اليوم في الهند كما في سائر المشرق أصبح اكبر معين وأعظم عامل على انفجار براكين الفتن ؟ . . . ليس بوسعنا البتة ان نأمل التوصل الى توفيق مُرضٍ بيننا وبين الغلاة ، فجل ما نستطيع الامل فيه هو ان نطلق لأهل الهند قواهم الحيوية من اغلالها ، تلك القوى المرتقبة يوماً فيوماً الافلات من اسرها ، فتنطلق في سبيلها وحبلها على غاربها ، فتأخذ بالجد والانكماش في العمل ولها من نفسها مسيطر عليها » .

(1) Lionel Curtis, Sir Valentine Chirol.

وبالتالي قبل البرلمان البريطاني بتقرير مونتاغو شلمز فورد قاعدة للبحث والمناقشة وفي أواخر سنة ١٩١٩ اشترع البرلمان مقترحاته قانوناً رسمياً ، بيد انه خلال المدة المنقضية منذ نشر التقرير الى اشتراع مقترحاته ، وهي ثمانية عشر شهراً ، قد تبدلت الحال في الهند لنكد الطالع تبدلا هائلا وانقلبت انقلاباً عظيماً فاربدّ الجوّ وعادت الفتن والثورات تنفجر ونيران الكوارث تندلع في طول البلاد وعرضها ، ففاقت جميع ما عرف من هذا القبيل منذ سنة ١٩٠٩ .

والاسباب في ذلك جمة . ففي المقام الاول شرعت جميع العناصر الوطنية الشديدة السخط على التقرير تستثير أصحاب المنازع الثورية وتحرضهم على استئناف اعمال الهول والرعب ، ولعل الغرض من هـذا كان حمل البرلمان البريطـاني على التوسع في المنح الاستقلالية ونطاق الحـكم الذاتي فوق ما اشتمل عليه التقرير من المقترحات والمرامي . وهناك من الاسباب ما هو أعم صفة . ذلك ان سنة ١٩١٨ انما كانت سنة بلايا ورزايا طبقت الهند من أقصاها الى أقصاها ، فاجتاح وباء الحمى الصدرية الهند اجتياحاً ، وفتك باهلها فتكا ذريعاً وجرف نحواً من ٧،٠٠٠،٠٠٠ نفس . ثم قحطت الهند قحطاً شديداً باحتباس الامطار عنها ، فاضمحلت الحاصلات والغـلال ، فانتشرت المجاعة وطغت شقوتها على البلاد . ثم جاءت سنة ١٩١٩ فكانت شراً من أختها الغابرة ، وافدح بلوى وأشدّ قحطاً وسغباً ، وقرر أهل الخبرة صيف السنة الماضية ان خلقـاً عظيما ذهبوا فريسة المجاعة وان ملايين من الناس سواهم أمسوا على شفا جرف الهلاك . ثم جاءت الحرب الافغانية تزيد البلاء بلاء ، فالتهبت البلاد عند الحدود الشمالية الغربية ، وانقلبت بثورة شديدة السعير ، فازداد هياج المسلمين وعظمت نقمتهم الى حد يقصر دونه الوصف .

فكانت نتيجة جميع ذلك ان طبقت الهند عواصف الفتن ، وعانت السلطة البريطانية الامرين من هذه الاحوال . فعينت بريطانية لجنة للقيام بالتحقيق

في ماهية الهياج الهندي المظيم ، فقامت اللجنة بمهمتها ووضعت تقريراً في صفة الحال موقعاً من رئيس اللجنة القاضي « رولاط » صور فيه عظمة الاضطراب الظاهر مظهر الثورة تصويراً جامعاً مانعاً . ومما ذكر فيه ان العدو الاكبر لبريطانية ليس هم شبان الطبقات العليا المتهذبين المتواثقين بعضهم مع بعض في اشمال الحركة الفوضوية ، بل ان معظم الجنـد قد أضحى يخالطهم رجال عسكريون وغير عسكريين يدأبون على القيام بالاعمـال الوطنية تحت ستار الجندية ، وذكر أيضاً ان الامر الاخطر هو ان هناك دلالة واضحة على جعـل القوى الجندية الوطنية تخرج من طاعة الانكليز فتنحاز الى جانب الوطنيين . ثم بين صاحب التقرير في النهاية ان جميع ذلك يقتضي سنّ قوانين جديدة تكون غاية في الحزم والشدة تداركا للخطر واتقاء للويل .

واذ أيقنت حكومة الهند باهمية البيان الذي اشتمل عليه تقرير اللجنة ، وضـعت مشروعاً لسن قانون سمته رسمياً « بقانون الجنـايات الثورية والفوضوية » ولكن شاع ذكره باسم « لائحة اولاط » . وخول هذا القانون الحـكومة البريطانية سلطة فائقة عظيمة ، كحق التفتيش في المنازل والبيوت والقبض على من يشتبه بهم أقل اشتباه انهم من أهل السجس والاضطراب على غير مبالاة بالتثبت أو اجراء التحقيق .

فهاجت لائحة رولاط هائج الوطنيين فهبوا يقاومونها فزاد المرجل غلياناً وبحر الهرج والمرج ارغاء وازباداً . وقام الغلاة والمعتدلون يفندون اللائحة تفنيـداً ويحسبونها رجوع القهقرى وباءاً على ازدياد الفتنة . ولما جيء باللائحة للبحث فيهـا في المجلس الاشتراعي الهندي ، أي المجلس الاشتراعي الامبراطوري ، هب جميع الاعضاء الوطنيين يعارضون اجازة اللائحة أشـد المعارضة ، ولكن الحـكومة تمكنت بالتالي من اجازتها بعد احتدام الخلاف مستعينة باصوات الاكثرية الانكليزية المعينين تعييناً . وحسبت الحـكومة اجازة هذه اللائحة ضربة لازب لا مناص لها منها ، لكي يتسنى لها بهـا حفظ

النظام والأمن . وفي ربيع سنة ١٩١٩ اشترعت اللائحة وصيغت قانوناً رسمياً.

فازدادت الحال شدة . ودعا الوطنيون هـذا القانون « بقانون الأفاعي السوداء » ، واشتعل السخط من كل جانب . وطفق الفلاة يقومون بحملات الاحتجاج المستطير من لهب النقمة والعداء . وارّخ أهل الهند اليوم الذي اشترعت فيه هذه اللائحة قانوناً ، وهو السادس من نيسان (افريل) سـنة ١٩١٩ ، بأنه « يوم الذل الوطني » . وفيـه اجتمعت الخلائق الوفاً مؤلفة لا يحصيها عد اجتماعات كبيرة ، وقام في الجموع المتراصة الخطباء الوطنيون يستثيرون الناس بالخطب الهائجة المفزعة ويشعلون صـدورهم بنار حماسية مستعرة . فكان «يوم الذل» في الواقع شر يوم عرف باستفحال الفتن الشديدة منذ ثورة العصيان سنة ١٨٥٧ . فعاد الرعب والهول يطبقان الهند ولا سيما في الاقاليم الشمالية ، فاغتيل الموظفون ورجال الخدمة المدنية من الانكليز ، وانتشر التخريب والتدمير ،كأن ليس لمرجل الهند الغالي من سكون .

ومضت الحكومة تستقبل الخطوب تترى والفتن المتوالية رابطة الجأش . تخمد وتسكن بيد من حديد ونار . فانطلقت بنادق الحـكومة البريطانية ومدافعها الرشاشة تحصد الخلائق حصداً ، وطفقت اسراب الطيارات تملأ الفضاء سابحة جيئة وذهاباً تمطر الجماهير سحب القذائف ومزن المفرقعات . ومن أشهر هذه الحوادث الهائلة « مذبحة أمرتسار » حيث هجمت الجنود الانكليزية بالمدافع الرشاشة على جمهور كان محتشداً احتشاد القائمين بالفتنة فحصـدت منه النيران ٥٠٠ نفس وجرحت ١٥٠٠ نفس في لمحـة بصر . ولم تستطع الحكومة تهدئة الحال الا بشق الانفس، فعاد النظام الي مجراه وزجت الحـكومة قادة الفتنة في السجون ، فباتت الفتنة ساكنة ولكن سكون النار تحت الرماد . وكان اشتراع البرلمـان البريطاني لتقرير مونتاغو شلمز فورد الاصلاحي أواخر السنة عاملا في استرخاء حلقات الضيق والشدة ومسكناً من نيران الغضب والسخط ، ومع ذلك فقد ظلت الحال عصيبة اذ لم تعد جميع

المياه الى مجاريها ، لأن الحوادث المشؤومة التي حدثت أوائل سنة ١٩١٩ كان من شأنها ان هاجت الاحن والشحناء والأحقاد هياجاً شديداً لا انطفاء له ، فباتت العناصر الثورية من تحت الغطاء أشد عنفاً ومراساً ، وظل المعارضون المقاومون للحكم الوطني مستمسكين باعتقادهم ان الهند ليست بالجديرة لذلك الحكم اذ متى ما تقلص ظل الحكومة الراجوية المطلقة عادت الفوضى الى الانتشار .

لهذا انقلبت الحال غير صالحة للقيام بتنفيذ الاصلاح المقترح في تقرير مونتاغوشلمز فورد . فهب الغلاة يقاومون تنفيذ مقترحات التقرير قائلين ان الاصلاح انما هو شرك يجب اتقاؤه ولو عانت الهند في سبيل ذلك ما عانت . ثم أخذوا يبتغون ادراك الغرض ، ولما كانوا يعلمون ان الثورة المسلحة غير مستطاعة لديهم ولا سيما في حال مثل تلك الحال ، عمدوا الى الذريعة الجديدة المعروفة « باللاتعاون » ، وهي في حقيقة معناها مقاطعة شاملة باتة «هائلة» لكل شيء بريطاني أو عليه سمة بريطانية . ولم تقف المقاطعة عند هذا الحد ، اذ تجند لها المنتخبون فقاطعوا الانتخاب للمجالس الجديدة ، والمحامون وارباب القضايا فقاطعوا المحاكم والمكلفون فامتنعوا عن تأدية الضرائب ، والعمال فاضربوا عن العمل ، والتجار فرفضوا تعاطي البيع والشراء بالبضاعات الانكليزية ، والطلاب فانقطعوا عن المداومة على المدارس والكليات . وكان الغرض من هذه المقاطعة مضايقة الانكليز على هذه الطريقة حتى تتدلى منزلتهم في الهند فيصبحوا ضرباً من « البارياه » المنبوذين ؛ فيضيق الأمر بالحكومة البريطانية والجماعات البريطانية من شدة الاعتزال ، ويغدو الراجوات ضعاف القوة والسلطة قليلين بأنفسهم ، فيضطرون الى اجابة الغلاة الى مطالبهم وينزلون على حكمهم في شأن الحكومة الذاتية التامة .

هذه غاية اللاتعاون . ثم سرعان ما انبرى للسعي وراءها والجهد في سبيل نشرها زعيم كبير مقتدر هو (موهانداس كارامشودغاندي) الذائع الصيت

والذكر المشهور بشدة ورعه وتقواه . فقد استطاع هـذا الزعيم المظيم ان الهب الطوائف الهندوية بأسرها ناراً دينية ، ممـا اعتاد اضرام مثله نساك الهنود ومتقشفتهم الذين على هذا الطراز . ويمكن القارىء ان يقف على ماهية الدعوة التي قام بها غاندي بالاطلاع على هـذا المقتبس التالي وهو من احدى خطبه التي خطبها في الناس : « انه لمن العجب المجاب بقدر ماهو داع للذل والصغارة ، ان يستطيع أقل من ٤٠٠،٠٠٠ من الرجال البيض ان يتحكموا في ٣١٥،٠٠٠،٠٠٠ من الهنود . أجل ان البريطانيين يستطيعون هذا بالقوة الغاشمة العمياء ، ولـكن على الاغلب بمـا ينالونه منا من التعاون الذي يستفيدونه بالوف الذرائع والوسائل ، وباستنفاد حولنا وقوتنا كيما نصبح عالة عليهم في كل أمر من أمورنا وشأن من شؤوننا على مضي الأيام وكر السنين. اياكم ثم اياكم الوقوع في أشراك هذا الاصلاح فتحسبونه بمناوهو ورم وماء وهو سراب . اياكم ثم اياكم الوثوق بهذه المجالس الأشتراعية والمحاكم القضائية وكراسي الأحكام فتبيعون بذلك سلطتكم الحقيقية التي هي نصاب حريتكم واستقلالـكم . ان جميع هذه الذرائع التي يتوسل بها الانكليز معنا إن هي الا مستدرجات لاحتلاب قوتكم وأيدكم ، واستنزاف دمائكم وامتكاك عظمكم . ان البريطانيين لا عجز عن ان يحكمونا بعد بالقوة ، فلذلك ترونهم يلجأون من وسيلة الى أختها سواء" كانت شريفة أم شائنة ، لـكي يتسنى لهم البقاء في الهند . اعلموا أن الانكليز يبتغون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا والتلذذ بثمراتنا والانتفاع بقوة رجالنا واولادنا كل ذلك في سبيل جشعهم الامبراطوري ونهمتهم الاسـتعمارية . فاذا كنا ما يجب علينا ان نكون من العصبة المستمسك بعضها ببعض ، وأبينا ثم أبينا امدادهم بمـا يريدون منا من المـال والرجال ، استطعنا ادراك غايتنا الـكبرى الا وهي : السوراج [1] والمساواة القائمة على صدق المروءة .

(١) معناها الحكومة الذاتية في مراد الفلاة ثم شاع استعمالها في الهند بمعنى الاستقلال .

على ان الغايات التي قد ابتغاها الغلاة من حركة اللاتعاون لم تتحقق كلها فشرع في تنفيذ الاصلاح المقترح في تقرير مونتاغورشلمز فورد، وأجريت الانتخابات الاولية على مقتضى التقرير أوائل سنة ١٩٢١ . غير ان الظواهر بعيدة بعداً كبيراً من الدلالة على استقرار نصاب الحال ؛ اذ لم يكد يشرع في الانتخابات حتى طفقت مؤثرات الحركة اللاتعاونية تظهر عاملة عملها بآلاف من مختلف الوسائل، تبتدىء باضراب العمال في المعامل وتنتهي باضراب الطلاب عن المدارس والمعاهد العلمية . فالهند اليوم انما هي في مخاض شديد ليس فيها الا الفتنة والاضطراب . والامر الاحرى بالاعتبار ان ليس هذا الغليان الهائل مقصوراً على الأفق السياسي فقط، بل يتناول الأفق الاجتماعي كذلك . فان التطورات الاقتصادية الكبرى التي لم تنفك تزداد وتنتشر في الهند منذ نصف قرن الى اليوم، قد نقضت هيكل المجتمع الهندي نقضاً عاماً فتبدلت الأرض غير الارض . وسنتكلم على هـذه التطورات في ما يلي من الفصول، والأمر الذي ينبغي لنا استيعابه في هذا المقام هو ان القادة الغلاة لعلى جد في اضرام الثورة الاجتماعية وبلا ريب على صلة بروسية البلشفية، زد على ذلك ان عوامل الانشقاق القديمة الأصل لم تضمحل بعد ولا تلاشت، فان المذبحـة الأخيرة التي ذبح فيها المتعصبة من طائفـة السيخ أهل الجماعة حجاج السيخ المنشقين عن الجماعة، والفتنة المثلثة التي نشبت في تلك الآونة بين الهندويين والمسلمين والنصارى الوطنيين في الهند الجنوبيـة، جميع ذلك يدل على ان نار التعصب الديني والجنسي لم تبرح كامنة . وصفوة الـكلام ان الهند اليوم هي أشبه بميدان تتصارع فيـه قوى التطورات والانقلابات : النشوئية المتدرجة، والثورية الهائلة . القديم يموت ويفنى، والجديد يظهر الى الوجود ولـكن لم يتكامل بعد . هذه صفة الحال العامة في الهند اليوم، جو مربد وانقلاب عظيم، فول وجهك شطر المستقبل فسبحان علام الغيوب .

الفصل السابع

في

التطوّر الاقتصادي

من أعظم الواقعات وأدعاها للعجب في تاريخ العالم الحديث ، هو فتح الغرب للشرق فتحاً مزدوجاً . فكلمة « فتح » قد شاع استعمالها بالمعنى السياسيّ بحيث يتصور من ذلك زحف واستيلاء ، وجيوش معبأة وعساكر منظمة تدوخ بلاداً أجنبية وتخضعها لسلطان غريب . وظاهر لا يحتاج الى بيان ان مثل هذه الفتوح السياسية قد تكررت في الشرق وتعددّت ، وقد رأينا فيما تقدم من الكلام كيف كانت الممالك المنحطة في الشرقين الأدنى والأوسط تتساقط خلال القرن الماضي الواحدة تلو الأخرى أمام الدول الغربية ذات الحول والطول والقوى القاهرة المسلحة .

على ان الأمر الذي يجب النظر فيه هو ان هذا الفتح السياسي قد كان يماشيه جنباً الى جنب فتح اقتصادي أتمّ عدة من ذلك وأوسع مضطرباً وحدوداً ، وقد قدر له ان يكون سبباً في تطورات جمة أشد فعلا وأرسخ حالاً وصبغة .

واما السبب الأصلي في هذا الفتح الاقتصادي فهو بلا مراء الثورة الصناعية في أوروبة في القرن الماضي . فانه مثلما اكسبت الاسفار البحرية التي قام بها كولومبوس ودي غاما أوروبة السيادة على الاقيانوس ثم تلت ذلك السيادة السياسية على العالم طراً ، فهكذا قد كان شأن الاختراعات الفنيــة التي كانت ما بعد القرن الثامن عشر علة الثورة الصناعية ، فانها قد اكسبت أوروبة السيادة الاقتصادية على العالم بأسره . وقد كانت هــذه الاختراعات في الواقع بشيراً بعصر جديد من عصور الرياد والاستكشاف ، ولكن ليس في مجاهل الأرضين

وأبكار الأقطار ، بل في آفاق العلوم وممالك الفنون . فكانت النتائج في هذا العصر عصر الاختراعات أعظم وأجل من تلك التي حصلت في عصر الاستكشافات الجغرافية منذ ثلاثة قرون خلت ، لانها جعلت بني عرقنا وقومنا ذوي سيادة فوق قوى الطبيعة بحيث كان من شأن الانقلابات الكبرى التي حدثت في الحياة الاقتصادية على الأثر ان بدلت وجه العمران تبديلا تاماً وغيرت صورته من حال الى حال .

ان هذه الانقلابات العظمى هي بلا ريب مما لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . فان ارتقاء الانسان المادي كان لم يبرح حتى ذلك العهد سائراً سيراً متدرجاً بطيئاً ، واذا استثنينا البارود الذي كان معروفاً من قبل نرى الانسان كان لم يزل على حال تكاد لم تتغير منذ عصور متطاولة وأحقاب مديدة ، اذ لم يكن هو قد شد الى تذليل القوى الطبيعية رحاله بعد ، ولا استطاع ان يفوق أجداده الاقدمين في التسلط على قوى المادة ، فالمركبات والعجلات التي كانت شائعة في عصر اجدادنا لم تكن لتختلف عن تلك التي كانت في عصور المصريين الاولين ، وأيضاً السفن الشراعية كانت كالسفن التي كانت معروفة في العالم القديم من قبل الحرب الترواديه ، فالصناعة الاوروبية قبل القرن الماضي كانت قائمة على قوة عضل الانسان والحيوان ، وعلى الريح وقوة انحدار الماء ، واذا بالحال تطورت فجأة تطوراً تاماً هائلا ، فظهر البخار والكهربائية والبترول واللاسلكي ، فبدأ الانسان يكون جباراً يسخر القوى الطبيعية المخبوءة ، ويقرب الابعاد ، ويضع يده على مناكب الكرة الارضية ، ويخرق جبالها ويتغلغل في احشائها ، ويذللها ويروضها في سبيل مصالحه ومنافعه ، ولم يزل يصارع قوى الطبيعة حتى ظهر على الكثير منها ، ثم رأى نفسه فاذا هو بعالم مادي جديد ما كان ليعرفه من قبل ، يختلف عن ذاك السابق اختلافاً لم ينحصر في الحيز والحد بل جاوز ذلك الى النوع والصفة.

نقول الانسان انما بات في عالم مادي جديد ، ونعني به انسان القرن

التاسع عشر ، أو الرجل الابيض ابن أوروبة هو وجالياته التي انتشرت في الارض وجعلت تنشىء لها طوارىء ماوراء البحار ، اذ ان المبتدع لاسباب هذا الانقلاب والتطور والاختراع هو ثم هو دماغ الانسان الاوروبي الابيض الذي كان المجلي في حلبة هذا الميدان والجاني للطيبات والخيرات قبل غيره من سائر الانسان ، على انه قد كان لهذا العصر الجديد ميزتان هائلتان : هما نشوء الصناعة الآلية التي طفقت بها المنتجات الصناعيّة تتدفق تدفقاً جاوز الغاية واستغرق الحد ، وترقي وسائل النقل وشيوعها ورخص أجورها . فهذان العاملان قد زادا زيادة فاحشة في القوة الاقتصادية واستفحال الثروة في أوروبة التي غدت منذ ذلك العهد مصنع العالم غير منازع . وفي الواقع انما كانت أوروبة خلال القرن التاسع عشر تنتقل من عهد كانت فيه القارة شبه زراعية الى آخر أصبحت فيه معملاً صناعياً هائلاً ملؤه الارزاق ورؤوس المال والعمال ، منه أخذت تصدر البضاعات والسلع والامتعة على اختلافها مقادير عظيمة الى كل حدب وجهة في الأرض ، واليه تجلب ارزاق جديدة من المواد الخام لتحوّل وتصنع وتبادل .

هكذا كانت حالة الغرب الثائر ثورته الصناعية لما وقف ازاء الشرق المتقهقر المتضعضع ، الساكن الحركة في حياته الاقتصادية فضلاً عن السياسية وفنون الحرب . ولا عجب فالشرق كان اذ ذاك فاقداً للصناعة والتجارة بمعنييهما المعروفين عندنا اليوم ، وما كان له من حياة اقتصادية على الجملة فانما كان قائماً على الزراعة . وبهذا الاعتبار كانت الوحدة الاقتصادية هي القرية أو البلدة القائمة على عول نفسها بنفسها حتى كادت تكون في عزلة عن غالب جوارها . واما الصناعات والمهن والحرف في الشرق فقد كانت يدوية ، يقوم بها قليل من ابناء الفن أو الصنعة يشتغلون في الأكثر كل بمفرده في نطاق ضيق المحدود . وكان الجانب الأكبر من منتجاتهم النفيسة النوع في الغالب ، حاجات كمالية تستنفد في سبيل التنعم والترف ، تصنع على طرق بطيئة وأساليب

قديمة بحيث ان الكم المنتج كان على مقدار معروف ، وأسعاره في السوق غالية بالاضافة اليه . لهذا السبب ما كانت المنتجات الاسيوية ، على نزارة الاجور وقلة النفقة ، لتستطيع مباراة البضاعات الاوروبية والاميركية المصنوعة بوسائل الآلات والزاخرة في اسواق العالم المختلفة ، بل كانت فوق جميع هذا مخسرة وكاسدة في الاسواق الشرقية الوطنية .

على أن عدم استطاعة الشرق مباراة الغرب مباراة صناعية لم يكن كل السبب فيه قلة كفاية في طرق الانتاج وجمود في أساليب الصناعة ، بل ان ذلك ليشتمل على أسباب اخرى ، وعوامل ليس شأنها بقليل ، كحالة العمال العقلية وقلة رؤوس المال ، اذ أن الحياة الاقتصادية في جميع الشرقين الادنى والاوسط كانت قائمة على قاعدة الارتضاء بهذا الحال وابقاء القديم على قدمه . أما القواعد الاقتصادية الغربية في العقود الكبرى ، وفي المنافسة والمزاحمة لم تكن في الواقع معروفة ، فالزارع وذو الحرفة والمتفنن والصانع جميعاً كانوا لا يجيدون مصنوعاتهم زيادة على القدر الذي أخذوه عن معلميهم بحيث وهم هذا شأنهم لا يحيدون قيد فتر عن طريق القفو لآثار أسلافهم ومتقدميهم ، مرددين القول انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . لذلك لم يكن هناك من عامل المزاحمة ولا من داعي التفوق ما يحمل على الاجادة والتحسين وزيادة التعشق والابداع . وقد كادت الاجور تكون دوماً لازمة مضطربا لا تعدوه ، فلم يكن من رغبة فى ترقية أساليب الحياة ولا فى طلب المزيد من الرخاء والرفاهية ، وكانت الصناعات جميعها غطيه متماثلة النهج لا تخرج عن حد المشابهة والمحاكاة ، بحيث كان جميع هم الصانع المتخرج أن ينسج عن منوال مخرجه دون أن يشحذ فكره في تحسين آلة او اختراع اخرى أو ترقية أسلوب أو استنباط جديد حتى يتسنى له بذلك تسهيل عمله وتوفير انتاجه ، بل كان عوضاً عن أن يجد ايجني المرابح والمكاسب مما يمهد له طريق التقدم والترقي ، منكباً على

اتباع السبيل الذي اتبعه آباؤه وأجداده من قبل ، وفوق جميع هذا كان في غالب أمره على نزوع الى تقديس هذه السبيل الموروثة تقديساً يكاد يكون دينياً اقتداء بأسلافه الذين هكذا كانت حالهم أعصراً وقروناً ، غير مريد الحيدة عن أخذ اخذتهم ، ولا متحولاً عن قفو سبيلهم لا زيادة ولا نقصان ، راعياً وكائناً لأساليب صنعته أو فنه حاسباً ذلك كأنه من مقدسات الاسرار ومحرمات الاستار .

أما الفئة القليلة التي اشتملت على الأشداء الاجرئاء المقاديم الذين كانوا من الهمة والنشاط بحيث لا يبالون بنسخ العادات العتيقة والاوضاع القديمة البالية ، ويبتغون الخروج مما تقيدوا به حقباً وأجيالاً ؛ فكانت قلة رؤوس المال تحول بينهم وبين مبتغاهم ، وتثنيهم عن ولوج الباب الذي يرومونه لأن رؤوس المال الفياضة ؛ السهلة الانتقال من موضع الى آخر ، المرْصَدَة للأعمال المدرارة خيراً ، والمشروعات الوافرة ريعاً ، لم تكن في الشرق . لأن الشرقي على اختلاف طبقته ، أميراً كان أم صعلوكاً ، كان لا يحسب المال وسيلة للجني والكسب ، أو ذريعة لتقارض المنافع والتعاوض بالارزاق ، بل كان يحسبه كنزاً ينبغي لصاحبه أن يحرص على خزنه ليوم عصيب يضطر هو فيه فيكون « هذا الدرهم الأبيض لذلك اليوم الأسود » . لهذه العلة الحرية بالاعتبار لم يبرح الشرق مستودعاً للمعادن الثمينة والجواهر الكريمة منذ قدمى العصور حتى اليوم . ففي الهند وحدها مقادير عظيمة من الذهب والفضة والجواهر ، بعضها مكنوز في الصناديق الدفينة في جوف الارض وبعضها الآخر مما تتشنف به النساء الهنديات أقراطاً ويتحلين به عقوداً ، مما تبلغ قيمته على اليقين ملايين من الدنانير . في هذا الشأن قال كاتب حديث : « قيض لي سانحة فأخذت لكي أشاهد السراديب التي فيها الخزائن والدفائن من الجواهر لأحد المهارجات ، فأرسلت ذراعي حتى المنكب في وعاء ذهبي مملوء بالالماس واللآلىء والزمرّد واليواقيت ، ورأيت الجدران مرصعة بالكلاليب

الذهبية ، وعلى كل كلا بين حزمة من قضبان الذهب طول كل واحد من ثلاثة الى أربعة أقدام وقطره قيراطان وبعض القيراط . ثم رأيت وعاء آخر مملوءاً ألماساً فاحتفنت منه بكلتا كفي حفنة وطفقت أنثرها من بين فرج أصابعي فكانت قطع الالماس تتناثر مؤتلقة ائتلاق قطرات السحاب وقد انعكس عليها نور الشمس . ففي الهند نحو من سبع مئة امارة وطنية على رأس كل منها أمير ، كل أمير له سراديب على طراز هذه السراديب وكنوز على صفة هذه الكنوز زد على هذا أن كل دهقان [زمندار] وهندي وطني اذا ما رام توفير شيء فلا يرومه الا معدناً كريماً ، من حيث أن الهندي لا يثق بقيمة الأوراق النقدية ولا يحب التعامل بها . أما النقود المعدنية فتارة يسبكها خلاخيل لزوجته وطوراً يكنزها تحت لبنة متزعزعة في الحائط أو حجر مبسوط من أحجار التنور الأرضية ، أو في حفرة في موضع معين ».

على أن هذا الوصف انما هو لثراء الهند المعاصرة ، من بعد ما انقضى عليها أكثر من قرن وهي في الحكم البريطاني ، وبعد أن انتشرت فيها الآراء والمباديء الغربية التي كما سنرى قد سببت كثيراً من التطور في البلاد . وينبغي أن لا نغفل أن شنشنة كنز المال لم تكن مخصوصة بأهل الهند دون غيرهم بل هي شاملة لجميع الشعوب المشرقية . فيسهل علينا بعد الوقوف على هذه الحقيقة أن ندرك السبب في ذلك الافتقار الشديد الذي كان عليه المشارقة الى رؤس المال الكافية للقيام باستثمار المشروعات الحيوية مما كان الى حد مئة سنة خلت . ونزداد علماً بالسبب متى ماعرفنا أيضاً ان الاضطرابات السياسية والنواهي الدينية الحائلة دون ادانة المال بالفائدة ، قد وقفت حجر عثرة في سبيل الافراد الطامحين من ذوي الهمة والنشاط الذين يبتغون استدرار القناطير المقنطرة من أموالهم بوسائل المشروعات الكبرى ذات الريع الجزيل . فلم يبق هناك من وسيلة مستطاعة لاستدرار الأموال غير المراباة التي عمت بها البلوى فأصبحت جميع رؤوس المال الشرقية النزرة تستدر على هذه

الطريقة ولكن البلية هي أن رؤوس مال كهذه ، لم تدن للقيام بالأعمال المنتجة الرابحة والمشروعات القيمة بل للانغماس في الترف والاسترسال الى الملاذ البدنية ولسد الحاجة ، لكن مع الاسراف والتبذير ، فكانت مضرة قاتلة ، لا محيية منجحة ، وزادت رؤوس المال على اختلافها اجحافاً .

هكذا كانت حياة الشرق الاقتصادية منذ قرن ومن المحقق أن هذه الحياة المتضعضعة ذات النظام المعتل قد أفضت بالشرق على التوالي الى العجز وفقد القوة والحول امام تيار المزاحمة الهائل الذي اندفع به الغرب الثائر ثورته الصناعية ، فغدا طوفان البضاعات الغربية ، الآلية الصنع ، الرخيصة الاسعار ، يطمو على كل قطر عن اقطار المشرق ، جارفاً ما كان أمامه من البضاعات والمصنوعات الوطنية جرفاً . وماكانت الطريقة التي لاشت بها المزاحمة الغربية العظيمة ، الصناعات اليدوية الشرقية القديمة ملاشاة تامة ، كما لاشى قطن « لنكشير » صناعة النسيج اليدوية الا مثالاً يقاس عليه انهيار كل ركن من اركان الحياة الاقتصادية في الشرق . على انه قد قام بعض الكتاب الشرقيين وقالوا ان هذه الغلبة التي قد نالتها المصنوعات الغربية في الاسواق الشرقية كانت الأسباب فيها سياسية اكثر منها اقتصادية ، ويستشهد رجال النهضة الوطنية في الهند على صدق كلامهم في هذا الشأن بالمساعي التي تبذلها حكومة الهند في سبيل توفير الوسائل وتمهيد الطرق لتفوق أقطان « لنكشير » المذكورة ، ويؤكدون القول ان هذا وليس سوى هذا من سبب لاضمحلال صناعة النسج في بلادهم . على ان هذا القول ليس بصحيح . فان المساعي التي قامت بها السلطة البريطانية قد تكون عجلت في حصول ما قد حصل من تفوق المصنوعات البريطانية على تلك الوطنية في الهند ، ولكن هذا التفوق كان بطبيعة الحال والزمن مما لا بد منه بوجه من الوجوه . وخير دليل على انه لم يكن بد لتيار المصنوعات الغربية من التغلب انما هو الطريقة التي تلاشت بها صناعات النسج في بعض الممالك الشرقية

المستقلة مثل تركية وايران ، تلاشياً شبيهاً بذاك الذي حصل في الهند امام تيار المزاحمة الغربية الجارف .

ونزيد برهاناً آخر على هذا ، وهو تلك الحقيقة الراهنة بأن الشعوب الشرقية اجمالاً كان من عجيب أمرها انها طفقت تقبل كل الاقبال على شراء المنتجات والمصنوعات الغربية ، مُؤثرةً اياها على تلك الوطنية المصنوعة صنعاً يدوياً متقناً . وقد حمل هـذا الأمر الذي لا مراء فيه كثيراً من أهـل الغرب على الدهش والاستغراب ، اذ كادوا لا يفقهون كيف ان الشرقيين يقبلون على شراء الرخيص الرديء من البضاعات الغربية المصنوعة صنعاً على طرز مخصوص بالاسواق الشرقية ، يرونها أفضل من بضاعاتهم الوطنية من حيث ان هذه بالحق أجود وأجمل . فالجواب على هذا ان الشرقي بالجملة ليس بالخبير الفني الماهر ، وانما هو رجل رقيق الحالة ادركته الخصاصة ، فبات يجدّ جداً ليتوفر على عيالة أهله اذ لو توانى بعض التواني في السعي وطلب الرزق كادت تنشب به مخالب المسغبة . فهو بهذا السبب ليس يقصد الاسترخاص فقط بل لا مفرّ له من ذلك سواءٌ شاء أم أبى ، لأن رخص الأسعار هو العامل القاهر الذي يسوقه الى ذلك . ولا شك ان جـدة البضاعة هي أيضاً سبب من الاسباب التي تحمل الشرقي على ايثار تلك البضاعـة الجديدة . اضف الى هذا ان البضاعات الغربيـة من حيث الكمّ والمقدار لم تقف عند حـد الحاجات والادوات الشرقية التي كان قد اعتاد الشرقي استعمالها حقباً واجيالاً بل أخذت تزداد ضروباً وأنواعاً مما لم يعرفه الشرقي من قبل . ثم ان ما هي عليه هذه الضروب والانواع الحديثة من التفنن المقترن بسهولة الاستعمال كان مما يدعو الشرقي لشرائها والارتفاق بها واستنفادها ، فصارت بطبيعـة الحال تندمج في مجموع حاجاته الاقتصادية اندماجاً لا غنى له عنه . وقد ذكرنا في موضع تقدم كيف قد شاعت المطارز ومصابيح غاز الاستصباح في الشرق بلداً بلداً ، فقس على ذلك سائر الحاجات التي اخضعتها السنن الاقتصادية فشاعت

مثل ذلك الشيوع . ان انتشار البضاعات والمصنوعات الغربية كان بلا ريب علة في تطورات جمة في كل صورة من صور الحياة الاقتصادية الشرقية فنشأت بطبيعة هذه التطورات حاجات اقتصادية حديثة لم تكن لتعرف من قبل بتةً ، وتحسن مستوى الحياة تحسناً بيناً ، وترقى مقياس النيقة والذوق ترقياً كبيراً . قال عالم اميركي اقام في الشرق غالب حياته : « ان الاطلاع على المخترعات العصرية ، وانواع الاغذية والآنية الحديثة مما لم يكن له وجود من قبل ، قد دعا الى نشوء حاجات جديدة مالبثت ان ساوقت المنازع النفسانية حتى رسخت واستقرت في أفق الحياة ، فالفلاح الصيني بات لا يرتضي بعد ان يسهر ليله على مصباح زيته المستخرج من اللوبياء والفول ، بل يبغي غاز الاستصباح بديلا . والاسيوي على الجملة لا ينفك يتطلب المصابيح الحديثة الطراز تطلباً شديداً ورغبته لا تقل في ذلك عن رغبته في تطلب الساعات الحديثة أيضاً . وخذ لك مثلاً ، السوري الطموح الذي بات يستنكف السكنى ببيت سكنه آباؤه واجداده من قبله مسقوفاً بالروافد والطين وأصبح لا يرتضيه بعد اليوم الا بسقف من الآجر الصقيل الوارد من فرنسة . وفي كل مكان ترى القوم يتطلبون الأدوات والمصنوعات الاجنبية . . . . فالاطلاع يخلق الحاجة والشرقي لم يزل يزداد اطلاعاً ومعرفة ، لذلك بات يتطلب اليوم مئات الحاجات التي ماكان اسلافه يعرفونها أو يسمعون بها »

وحيثما تقلبت في أقطار المشرق رأيت هذا التطور والانقلاب على هذه الصفة . قال كاتب اقتصادي هندي ، وهو عدو شديد للحضارة الصناعية الغربية يندب كون ذوي الفنون والمهن باتت أعمالهم لا تجدي نفعاً فطفقوا ينقلبون الى القيام على الزراعة ، وان غاز الاستصباح الوارد من باكو أو نيويورك امسى يهدد حياة باعة الزيت الوطني (المستخرج من طائفة من انواع الخضروات الوطنية) ، وان المصنوعات الحديدية الرخيصة الأثمان ،

الصقيلة المزخرفة من الخارج ، الواردة من أوروبة ، قد أخذت تلاشي التجارة الوطنية في الأواني والأوعية النحاسية التي ظلت معروفة في البلاد منذ الحقب القدمى . . . . زد على ذلك ان هنالك تطوراً كبيراً في اذواق المستهلكين على ترق متعال مستمر . فان أهل البلاد قد أقلعوا عن استعمال « الغير » (ضرب من الحلواء) الى السكر الأوروبي ، وعن الأقمشة المصنوعة من النسيج الوطني الخشن الصفيق الى تلك الغربية الناعمة ، وان جميع الصناعات الأهلية أصبحت على شفا جرف البوار حتى قضي على كثير من أربابها ، وان القرى التي ظلت قروناً عديدةً على مطرد عاداتها ومنساق عرفها انبرت تقلع عن ذلك إقلاعاً سريعاً ، وكثر تعاملها مع كل سوق من أسواق العالم ، وان السفن والقطر الحديدية التي ربطت انحاء البلاد بعضها ببعض قد أمست في البلاد شبه شبكة أو عروق واشجة فتدانت القرى وصارت كل قرية على صلة من الاخرى . وصفوة القول ان المزاحمة الغربية التي ظهرت وانتشرت هذا الانتشار الهائل في عهد ماأقله من عهد، إنما كانت علة تطورات عظيمة تغيرت بها صورة الحياة .

ولم يكن السبب في هذه التطورات العظيمة هو تدفق البضاعات الغربية فحسب ، بل أيضاً تدفق رؤوس المال الغربية . ذلك لأن الفرص الطيبة لاستدرار الاموال كانت عديدة فاخذت رؤوس المال الغربية تفيض فيضاناً مطبقاً كل قطر من أقطار الشرق . ولما لم يكن للشرق من وليجة عن الاستعانة برؤوس الاموال الاوروبية لمباشرة جميع الأعمال الاقتصادية والمشروعات النافعة بالمعنى المعروف اليوم، فقد كثرت القطر الحديدة واستخرجت المعادن ، وأحييت الزراعة على الاساليب الحديثة ، وأنشئت مشروعات أخرى تنمي الثروة . ولامراء ان أعظم ما أنشىء هو تأسيس معامل صناعية عديدة منتشرة من أفريقية الشمالية حتى الصين ، فازداد عمران « المدن الصناعية » ازدياداً حتى بات دوي أصوات الآلات ودخان المعامل الصاعد في الفضاء يبشران بان

الشرق قد شرع يحذو حذو الغرب في الحياة الصناعية .

أما النتائج الاجتماعية العظيمة التي حصلت من دبيب روح الصناعة في الشرق دبيباً منتشراً في كل عرق من عروقه فسنتكلم عليها في الفصول التالية . لذلك نقصر – في هذا الفصل – كلامنا على شأن التطور الاقتصادي ونتائجه . زد على ذلك ان هذا الكتاب انما جعلنا موضوعاته مقصورة على شؤون الشرقين الأدنى والأوسط بحيث لا نستطيع التوسع فيه حتى نتناول الكلام على الصين واليابان ، فينبغي للقارىء الكريم ان لا ينسى كون تطورات الشرق الأقصى وانقلاباته غالبها سبل ودهاليز لما نحن آتون على ذكره في هذا المقام .

ان المستحدثات والمنشآت الصناعية جميعها كانت في باديء الأمر أشبه بمغروسات غريبة صرفة في تربة شرقية ، قائمة على رؤوس المال الغربية ، تدبر أمورها وتدير شؤونها أدمغة أوروبية ، ذلك الواقع الذي لا ريب فيه . وما كان الغربي ذو رأس المال ليغرر بنفسه ولا ليجازف بماله ويضعه في ايدي ابن الشرق الفاقد معرفة اسرار الصناعة وخفاياها ، الدائب على الاسراف والتبذير ، الجانح أبداً الى المراعاة والمحاباة ، اللجوج في مراد جني الثمار قبل أوانها ، القليل الحنكة في سبل الاجادة والخبرة في طرق المنافسة . بيد انه على ممر الزمن أصبح للمشروعات الغربية التي ضربت من النجح والفلاح بسهم تأثير شديد في نفوس الشرقيين مما حمل الطامحين منهم وذوي النظر البعيد فيهم على ابراز رؤوس مالهم والمنافسة بها في عالم الصناعة ، وقادهم الأمر الى الاطلاع على وسائل النجاح واكتناه أسرار الفلاح . وقد وصفنا في أواخر الفصل الأول من هذا الكتاب ترقي الأعمال التجارية على الطراز الحديث في العالم الاسلامي وفي الهند عند المسلمين وغير المسلمين . ففي الهند عناصر عديدة مثل المجوس والمرابين الهندويين الذين غدوا اليوم جميعاً غائصين في لجة الاعمال المالية والصناعية بالمعنى الحديث . والسبب في ذلك ان هذه العناصر

الوطنية انما كانت من قبل قائمة على تعاطي الربا وضروب الفائدة . فاكتسبت بذلك على توالي الأيام خبرةً في طبائع الأعمال أهلتها لو لوج هذه الأبواب الحديثة . ومن غالب هذه الطوائف ظهرت الجماعات القائمة اليوم بمشروعات الاعمال الوطنية في الهند وأكبر هذه الأعمال وأعظمها معامل نسج الاقمشة في كلكتا وبومبيء ، ومعامل صنع الأواني والادوات الحديدية في بنغال . وهذه الاعمال جميعها قائمة على رؤوس مالٍ وطنية يديرها وطنيون خبراء . على انه لا ينكر ان هذه المشروعات كانت تلقى في ابتداء سبيلها كثيراً من المشقة والعناء . ولكن مما لا ريب فيه البتة ان مغروسات الصناعة الغربية في تربة الشرق أخذت تتلاشى تلاشياً سيستمر حتى يختفي ظلها الاجنبي من على وجه المشرق من حيث ان الصناعات الوطنية أخذت تتأصل وتعرق في كل تربة صالحة .

ثم نتج عن جميع المشروعات والأعمال الغربية والشرقية ، ان نشأت مراكز صناعية خطيرة في مختلف الأقطار الشرقية . قال كاتب فرنسي في شأن مصر (سنة ١٩١٠) : « باتت ضفتا النيل مرصعتين بخطوط مؤلفة من معامل السكر والقطن الباسقة المداخن فوق أخصاص الفلاحين واكواخهم » . وقال السر ثيودور موريسون في شأن الهند : « في مدينة بومبيء قد بلغت الثورة الصناعية حد النجاز والاكمال . بومبيء مدينة صناعية حديثة ، ترى فيها حسنات الحضارة الصناعية الحديثة وسيآتها : فيها الاسواق والازقة المزدحمة غير الجيدة الهواء كما هو الحال في كل مدينة وحاضرة أوروبية . وفيها طبقات من أهل الثراء ذوي الملايين قد زينوا شوارع المدينة بما انشأوه وشيدوه من بيوت البر والاحسان . فالزائر القادم من الاقاليم ليدهش حقاً من جميع ما يراه في بومبيء من مظاهر الابهة المنطوية على الاسراف والافراط ، ويفتتن افتتاناً بترقي المقاييس الذوقية . اما القرى التي نشأ فيها وترعرع ، والحقول الرحبة الواسعة الارجاء التي تظلل سماءها وشرب ماءها ، فانها في نظره اليوم

هي الهند الآخذة في التطور والانقلاب . بومبيء بشير المستقبل الزاهر والغد الباهر » .

على ان قرب متناول الثروة الطبيعية وكثرة العمال ونزارة أجورهم جميع ذلك قد حمل أرباب النظر من الشرقيين على التوسع في المطامح الكبرى والآمال البعيدة ، حتى قامت طائفة منهم تأمل أن تضم رؤوس المال الغربية الى الايدي الشرقية العاملة ، كما أوضح هذا أحد أكابر الاقتصاديين الهنود بقوله : « الاموال الانكليزية والايدي العاملة الهندية هما أرخص ما في العالم » . وقامت طائفة أخرى أشد مطمحاً وأبعد غرضاً وغاية تفكر في تحويل المشرق من اقصاه الى اقصاه ، الى معمل صناعي ، فتنبذ المصنوعات الغربية نبذاً ويحرم الغرب حرماناً من هذه النعم التي يجتنيها في الاقطار الشرقية . وقد بين هذا المطمح كاتب هندوي في مقال نشره في احدى المجلات الهندية قال فيه : « ان الشرق ليهدد الغرب ويناوئه مناوءة مرة غير هياب ولا وجل . لان الشرقيين قد انبروا الى الميدان الصناعي ينازلون ويكافحون ، وقد قدر لآسية الجبارة منذ الآن ان تقوم بحرب تجارية عوان ، لها مثار وليس لها ختام ، تطبق أقطار المشرق قطراً قطراً . فهذه الحالة الشاقة لن تدوم ما دام الغربي يركب من الهول ما يركب لكيما يظل قابضاً على أزمة التجارة في الاسواق الشرقية ، اذ ان الشرقي غدا لا قبل له باحتمال ذلك فانبرى لنزال الغربي وصدامه ، وهو لا ينفك يصارعه حتى يجندله في معركة كان الشرقي من قبل يسقط فيها للأجنبي غنيمة باردة ... زد على ذلك ان الشرق في زحامه التجارة الغربية اليوم قد ايقن كل الايقان ان الوسائل التي كانت في يده فيما مضى كانت عقيمة لا تجدي أقل نفع ، فاقلع عن استعمال تلك الآلات والاساليب القديمة واقام مقامها الآلات الغربية الحديثة الطراز حتى يتسنى له بذلك قهر عدوه وطعن منازله في كبده ، لذلك اشتدت والحق يقال عزيمته وعاد لا يرتضي اليوم لنفسه ما كان يرتضيه بالامس ، وطفق يدرس العلوم والفنون التي هي للغرب ذريعة

فلاحه المادي ونجحه الكبير ، وما انفك يقرن العلم بالعمل ويتمشى على نتائج استقصائه واكتناهه تمشياً صحيحاً مطرداً ، ويفرغ الاساليب الغربية في قالب شرقي على مايلائم مطلبه ويوافق شأنه ، ويتفنن في ترقية هذه الاساليب ترقيةً حسنةً .

ثم هب كثير من أهل الاستقصاء الغربيين يؤكدون هذه اليقظة الصناعية الكبيرة في الشرق . وفي الحين الذي كان فيه الكاتب الآنف الذكر يدبج مقاله هذا كان كاتب اقتصادي أميركي مشهور يقوم برحلة استقصاء في ربوع الشرق ومما كتبه في الحالة الاقتصادية قوله : « ان السبب الجوهري في فاقة آسية وخصاصتها انما هو ناشيء عن أمرين لا ثالث لهما : عجز الحكومات الشرقية عن تعليم شعوبها ، وعجز هذه الشعوب نفسها عن توسيع طاقتها لزيادة الانتاج باستعمال الآلات والأدوات الحديثة . فالجهل اذن وقلة الآلات هما وحدهما علة افتقار آسية وانحطاطها ، كما ان العلم والآلات الحديثة هما وحدهما علة فلاح أمريكا وارتقائها أوج السعادة والعمران » . ثم يسوق الكاتب كلامه مبيناً انه يجب علينا ان نرتقب نهضة آسية ارتقاباً شديداً ، فان آسية مذ باتت ترى هذه الحقائق الواقعة بعينها انطلقت تجدّ جداً هائلاً لترقية شؤونها وأحوالها ، لذلك « من الواجب علينا ان نستعد اكثر فاكثر لمباراة هذه الشعوب المستيقظة ، الشديدة البأس والأيد بسبب انها تغالب الخصاصة وانها معتادة تذليل الصعاب ، وهي التي قد شمرت عن السواعد للتذرع بجميع ذرائعنا ، وأعدت العدة للاطلاع على جميع اسرار قوتنا وفلاحنا ، متأهبة للاستفادة من العراك الذي سيكون في سبيل التفوق الصناعي والاصلاح الجنسي » . وقال مستقصر أميركي آخر في كلامه على الشؤون الاقتصادية في آسية (سنة ١٩١٤) : « ان جميع آسية من شرقها الى غربها قد امتدت فيها عروق الصناعة الحديثة واسباب الفلاح الصناعي الحديث» . وقال السر ثيودور موريسون في شأن مستقبل الهند الاقتصادي:

« ان الانقلاب الصناعي الهائل في الهند قد أمسى على قاب قوسين أو أدنى ، فقد اضمحلت العقبات التي كانت الى اليوم حائلاً دون نهج المناهج الحديثة في الصناعة المصرية ، وانتشرت وسائل النقل انتشاراً عاماً في طول البلاد وعرضها ، وبات استقراض رؤوس المال لشراء الآلات وتشييد المعامل والمصانع أمراً ميسوراً ، اذ يمكن أرباب المشروعات ان يجلبوا الادوات والمواعين ، واستئجار المهندسين ورجال الادارة والتدبير من أهل الغرب ليقوموا بتخريج ربابنة بحر الصناعة لهند المستقبل . وباتت اللغة الانكليزية وسيلة سهلة للتعامل التجاري في الأقاليم الهندية بعضها مع بعض ، وبين الهند وغالب العالم الغربي . وما دامت الهند آمنة من ان تفاجأ بفتح أجنبي أو ثورة داخليــة فلها من الزمن نصيب على القيام بالمشروعات الكبرى على اختلافها . فجميع الأحوال المحيطة ملائمة كل الملائمة لثورة صناعية عظيمة اذا قيض لها الاكتمال وبلوغ الحد زادت في ثروة الهند كل سنة زيادة فاحشة لم يحلم بمثلها من قبل » .

على ان العامل الكبير الذي ينبغي الاستفادة منه حق الاستفادة لاكمال عدة الشرق في المواضع التي لم تزل تنقصها الخبرة والحذاقة في عالم الصناعة ، انما هو كثرة العمال ونزارة اجورهم ، الأمر الذي يبدو لأهل الاستقصاء من الغربيين بالغاً منتهى الغرابة . فلنعتبر هذا في شأن مصر والهنــد على سبيل المثال الذي يصح ان تقاس عليه في سائر أقطار الشرقين الأدنى والأوسط . كتب الاقتصادي الانكليزي هـ . ن برايلسفورد سـنة ١٩٠٨ فى أمر مصر يقول : « ولم يكن اذ ذاك قانون للمعامل والعمال فى مصر ، من حيث ان في البـلاد معامل لحلج القطن تستخدم العملة مياومة ليقوموا باعداد القطن للشحن والاصـدار ، ويستغرق هذا العمل أربعة الى خمسة أشهر كل سنة . وكانت أجور هؤلاء العمال نزرة تتراوح بين ½ ٧ و ١٠ بنسات للبالغ و ٦ بنسات للحدث ، وكان البالغون والأحداث يشتغلون في بعض الاحايين

اثنتي عشرة ساعة وفي الغالب خمس عشرة ساعة ، وعند اختلاف المعتاد ست عشرة الى ثماني عشرة ساعة في اليوم . وفي بعض فصول السنة كان العمال حتى الأحداث يشتغلون اثنتي عشرة ساعة في المساء فضلاً عن النهار » . والحالة في الهند شبيهة بهذه الحالة في مصر . فان أول تحقيق في شؤون المعامل الصناعية في الهند قد قامت به لجنة من لجان العمال الصناعية سنة ١٩٠٧ واليك بعض الحقائق التي اشتمل عليها تقرير هذه اللجنة : ان ساعات العمل في معامل القطن في بومبيء هي من ثلاث عشرة ساعة الى أربع عشرة ساعة على اطراد وانتظام . وفي معامل القنب في كلكتا يشتغل بعض العمال غالباً خمس عشرة ساعة وفي معامل القطن يجب على العمال ان يشتغلوا سبع عشرة ساعة الى ثماني عشرة ساعة في اليوم . وفي معامل الارز والمطاحن يشتغل العمال عشرين الى اثنتين وعشرين ساعة ، وفي المطابع يشتغل العمال عند اختلاف المعتاد اثنتين وعشرين ساعة سبعة أيام متوالية . أما الاجور فكانت للعامل البالغ الذي يشتغل ثلاث عشرة ساعة الى خمس عشرة ساعة في اليوم ١٥ ـ ٢٠ روبية في الشهر . وكان العمال الأحداث كثيري العدد لم تجاوز اسنانهم السادسة والسابعة ويشتغلون في أحيان عديدة ثماني ساعات في اليوم . وكانت نتيجة هذا التقرير ان حكومة الهند سنت قانوناً حسنت به حالة العمال بعض التحسين ولا سيما حالة النساء والأحداث . بيد انه في سنة ١٩١٤ كتب الاقتصادي الفرنسي « البرت ماتان » بعد استقصاء مدقق قام به يقول : ان حالة عمال المعامل لم تتحسن تحسناً مذكوراً اذ فقد القانون الذي وضعته الحكومة مفعوله وما روعي مراعاة صحيحة ، فعاد عدد ساعات العمل فزاد والاجور فنزرت ، وبات العمال الرجال في بومبيء لا يتناولون أكثر من ١٠ الى ٢٠ سنتاً في اليوم ولم يتجاوز الحد الاعلى لاجورهم ٣٠ سنتاً والحد الاعلى لاجور النساء والاحداث لم يجاوز ١٠ سنتات في اليوم .

وقد يخيل الى المفكر المتدبر لأول وهلة هذا الحد الذي تبلغه نزارة

الاجور ، والمتأمل هذا المدد الكبير لساعات العمل ، أن الشرق لو يسر له رؤوس المال الكافية والآلات والأدوات الحديثة لاستطاع ليس منافسة المصنوعات والمنتجات الغربية في الاسواق الشرقية منافسة الاغراق فحسب ، بل ربما استطاع غزو الاسواق الغربية في مواطنها . وقد حمل هذا الامر كثيراً من كتاب الغرب على الخشية والحذر ، اذ منذ ثلاثة ارباع القرن (سنة ١٨٥٨) تنبأ غوبينو بان آسية ستفتح أوروبة فتحاً اقتصادياً هائلاً . ثم قام من بعده كثير من الاقتصاديين مثل برايلسفورد وغيره ينذرون العالم الغربي بسوء العقبى من جراء تسرب رؤوس المال الغربية الى الاقطار الشرقية حيث جو الاستثمار والعمل جذاب مستهو للنفوس ، على ان هذا الامر من حيث علاقته بالشرق الأدنى والاوسط لم يتحقق عملياً بعد ولا يوجد ما يدل على ان خبره على قدر خُبره . فالصين قد يكون مكتوباً لها في اللوح المسطور ان تقوم بمفاجأة الغرب مفاجأة كريهة يقام لها حقاً ويقعد . وأما العالم الاسلامي والهند فلم تبلغ الصناعة الحديثة فيهما من الترقي مبلغاً رفيع المستوى ظهر فيه الحذق الصحيح والحزامة والمثابرة الى حد يستطاع به اشلال صناعة أوروبة وأمريكة . ففي الهند مثلاً ، البلاد الزاخرة بالسكان المحاويج ، لم تبرح المعامل ينقصها العمال الخبراء الحذّق ممن يتعشقون الصنعة ويبحثون عن اسرار الآلة . قال البرت ماتان : « قد يظن بعض القوم متى ما رأوا ساعات العمل عديدة طويلةً والاجور نزرةً ان الصناعة الهندية ستنقلب عما قريب منافسةً شديدةً ومنازعةً قاهرةً للصناعة الغربية ، فالامر في الواقع بخلاف ما يظنون ، والسبب الحائل دون صدق وهمهم هذا انما هو رداءة النوع . فان العمال الذين يتناولون نزر الاجور ويعيشون العيش الشظف ويأكلون الطعام القشف يغدون بسبب ذلك ضعاف المنة قلال الهمة ، فثلاثة منهم يكادون يعجزون عن القيام بعمل يقوم به أوروبي واحد . زد على هذا ان العمال الهنود لا تنقصهم قوة العزم والحزم فحسب بل يعوزهم الحذق ، وشدة

الاعتناء ، وحسن القيام والتوفر على العمل ، وتعشق الصنعة . . . واذ الهندي يؤثر القيام بأي عمل آخر على ان يكون عاملاً داخل جدران المعمل . فلهذا ترى الذين يئمون المعامل هم من حثالة الطبقة العاملة ، ولا يدخلون في حظيرة المعمل الا بعد ان تسد في وجوههم سبل الرزق وتغلق عليهم أبوابه ولا تبقى الا تلك السبيل فيضطرون اذ ذاك الى اللجوء الى المعمل، ومتى مافتح له باب الرزق في مطلب أقرب متناولاً وأدرّ خيراً ونفعاً ، برح المعمل الى حيث ابتغى . لذلك لا يتيسر للمعامل الاعتماد على قدر من العمال منتظم ترقى به الحال وتتوفق . وقد أخذ بعض الكتاب يتساءلون أبزيادة الاجور يستطاع ياترى تحسين الحال ؟ فيجيب كثير من المستخدمين . كلا . فان العمال متى ماراًوا حالهم قد تحسنت قليلاً اسرعوا الى مزايلة المعامل اما الى أجل قصير حتى ينفد موفر دراهمهم وتنضب جيوبهم فيعودون الى المعمل ويكررون شأنهم الأول ، واما الى أجل لا رجوع بعده اذا وفقوا الى عمل أفضل وأفيد . وقد كتب اقتصادي هندي يؤيد هذه الحقيقة فقال : «ان من أكبر الآفات والنقائص التي تعتور انشاء المعامل الصناعية الكبرى في الهند هو قلة الايدي العاملة وكفايتها للقيام بالعمل . فالعمل لقاء نزر الاجور اذا كان خالياً من آثار الثبات والحذق والتفنن والمهارة هو خسر لا مربح بدون ريب . فالعامل الهندي على الغالب جاهل لم يتناوله التهذيب ولا الثقافة ، فليس هو مكتنهاً لأسرار العمل ولا على صلة قريبة بمستخدمه . وعمال المدن دأبهم التنقل من عمل الى آخر ، وهم على ميلهم الى تعاطي المهن والحرف والفنون قليلو الثبات والمثابرة على العمل » (من مقال ليوسف علي سنة ١٩٠٧)

فلهذا السبب ترى الصناعة في الهند على نموها هذا النمو الفائق لم تكن عند جميع الآمال التي أملها أرباب النظر لها . فقد ورد في « الكتاب السنوي » الرسمي عبارة صريحة : أن الهند بالاختصار انما هي بلاد غنية بالمواد الخام كثيرة الاستعداد للحياة الصناعية ولكن تنقصها المثابرة وحسن القيام على

العمل . » ويرى بعض أهل الاستقصاء أن مستقبل الهند الصناعي لن يكون ذلك المستقبل الباهر الزاهر . فقد كتب في المدة الأخيرة عالم انكليزي خبير في شؤون الهند يقول (سنة ١٩٢٠) : « قد كان ممكناً منذ عدة سنوات أن الهند تستطيع بتشربها العلوم الغربية واقتباسها وسائل المهارة الفنية في أجل قريب أن تمارس أساليب الصناعة الحديثة على ما يلائم شؤونها وأحوالها فترتقي ذروة عالية من التقدم الاقتصادي . ولم يبرح بعضهم الى الآن ينذر العالم الغربي بالرؤيا الشرقية وهي نهضة الهند والصين نهضة جليلة قائمة على أفضل التنظيم وأجود التدبير ، مستعينة بالمصادر الكبرى للثروة الطبيعية وباجور العمال النزرة ، بحيث اذا ما تم هذا استطاعت آسية منازعة الغرب وخلعت عليه أسمال الفقر بعد أن جر مطارف الاثراء الفاحش . ان كاتب هذه السطور لا يحسب هذه الرؤيا سوى حديث خرافة . فالخطر الاسيوي انما يراه من نوع آخر ليست هذه صفته ، فهو يرى اتساعاً مزداداً في شقة البون من حيث لا يرى ارتقاء مفضياً الى التساوي في أفق واحد ، ويعتقد أنه كلما خطت الهند خطوة في سبيل الترقي والكفاية في عالم الآلة ، خطا الغرب خطوتين ، ومتى ماشرعت الهند تستعمل الدراجات والسيارات (دون أن تصنعهما) يكون الغرب قد انجز اصطناع الطيارة والمنطاد وأبلغ فن الطيران حد الكمال وقس على هذا . ان الحرب العامة قد عجلت تعجيلا كبيراً في ازدياد الاختراعات الجهازية ، كما نعلم هذا حق العلم ، فاجتاز الغرب بذلك مرحلة طويلة ، بينما الهند لم تبرح مكانها منذ الحرب دون أن تعرج في سلم هذا الارتقاء حتى كأنها اليوم ، بالقياس الى أوروبة في الأجيال الوسطى ، بلاد لم تنشب صناعاتها وفنونها يدوية محضة . زد على هذا أن الهند لم تستعمل بعد أبسط القوات الآلية وأحقرها في أعمالها الزراعية . نعم ان عصر العزلة قد انقضى على كل حال ، ولكن شقة المستوى بين الشرق والغرب لم تزل بعيدة ، فما هو مصير أهل الهند الذين يبلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة مليون يا ترى ؟ اننا في

الشرق بازاء خطر خطير الا وهو استفحال الآفات الصناعية التجارية مما يقف عنده الباحث مدهوشاً ، ان أهل الهند باتوا حقاً على طريق التهلكة بسبب هذا الخطر الكبير ، والشرق بالجملة يصير في هذا العصر مزدحماً مختلطاً يستغرق فيه الصحيح والفاسد (كتاب « الهند في سنة ١٩١٧ و١٩١٨ »)

وسواء أأصاب هذا الكاتب المتشائم أم أخطأ ، فما لا ريب فيه أن ليس الهند وحدها بل الشرق كله هو في دور التطور الهائل والانقلاب العظيم وان هذا الدور حقاً لعصيب ضنك . وقد استوفينا الكلام الى الآن على شؤون العمال الصناعيين من الطبقات المدقعة في المدن والحواضر ، غير أن الطبقات الاجتماعية الأخرى قد تأثرت بعامل هذا التطور عينه ، وكان فيها من الانقلاب والتبدل مثلما كان في غيرها ، ذلك بسنة المجتمع التي لا مدفع لانتشار عواملها . فالتجار وأهل الحرف القديمة والمهن العتيقة الطراز راحوا لا حول لهم ولا قوة عند ظهور الأساليب المحدثة في التجارة والصناعة ، ولكن غدا سواد الفلاحين أحسن حالاً وأفضل شأناً . ثم لم يكن هذا التطور قاصراً على اكتناه اسرار العمل والوقوف على طرقه الحديثة المؤدية الى الاتقان والتجويد ، بل هو في الواقع أكثر من ذلك : هو انقلاب محض من الأصل في وجهة النظر واعتبار صور الحياة وفهم ماهيتها وادراك حقيقة شؤونها وأسرارها في كل أفق من آفاقها . كان من عادة التاجر فيما مضى أن يجلس محتبياً في حانوته بين طائفة قليلة من البضاعة المبعثرة حواليه ، متكاسلاً خاملاً ، يفني الوقت في مساومة عميله مساومة فارغة ، سيان عنده راجت السوق أم بارت . وكان المتفنن الصناع اليد يشتغل منفرداً عدداً من الساعات على قدر ما تمده طاقته المتوانية ثم يترك عمله ويذهب الى حيث شاء . وكان الفلاح ينهض مع الفجر لمباشرة عمله فاذا ما جاءت الظهيرة استنام هو وحيواناته الى قيلولة طويلة الى أن يهب نسيم العصر فيستيقظ ويتمطى ثم يستأنف شغله متراخياً بطيئاً .

لذلك ليس من الغريب فى شيء أن يبدو لأهل الشرق في باديء الأمر جميع ما هو معروف في حياتنا الاقتصادية من النظام والسرعة والرقابة والانكماش في العمل اموراً مستكرهة ممقوتة ، لا قبل لهم باحتمالها كلها معاً والمثابرة عليها ، لأن امر اكتساب هذه الصفات الجوهرية فى النفس ورعايتها والتمشي عليها في مجال العمل لا يتم الا على بطء وتؤدة ، يرافق ذلك سائق الضرورة والقهر الناجم عن طبيعة الانقلاب . زد على ذلك ان المشارقة ليتألمون حقاً شديد التألم من مزاحمة الأجانب لهم ، وهؤلاء لم يبرحوا منتشرين بين ظهرانيهم بعدة أفضل وذخيرة أوفر وحنكة أشد في الميدان الاقتصادي الهائل . وقد وصف السر وليم رمزي وصفاً أجاد فيه كل الاجادة ، كيف طفق الترك في آسية الصغرى على اختلاف طبقاتهم من السادة والكبراء حتى الفلاحين ومن دونهم ، يتدلون وينحطون طيلة الخمسين سنة الأخيرة ازاء الزحام الاقتصادي الذي أخذوا يعانونه ليس من الاوروبيين خاصة ، بل من قبل العناصر الوطنية النصرانية كالأرمن واليونان الذين قد تشربوا قدراً من حديث الأصول والطرق والاساليب في فن التجارة الغربية . ففي الأيام القديمة : قال السر وليم رمزي ، لم يكن في آسية الصغرى « شيء من التقدم الاقتصادي والترقي التجاري ، بل كانت شؤون الأعمال على اختلاف ضروبها منحطة جارية اطراداً مجراها القديم المعروف منذ الحقب المتطاولة . على انه لمن المعلوم أن حياة اقتصادية على هذه الصفة لم تكن لتقف في وجه النظام التجاري الغربي البالغ من الترقي مبلغاً عظيماً ، أو تعارض معارضة فعلية تيار الحضارة الغربية الحديثة ، ولكن تلك الحياة وهي على نمطها القديم ما كانت بشاقة على أهل البلاد ولا بالثقيلة كما انه لم يكن أمر الاثراء وادخار المال مستطاعاً في عهد مثل ذلك العهد ، ولا كانت الفرص الطيبة سانحة لمثل هذا وكان من المستحيل على الفرد أن يستميل اليه عدداً كبيراً من الناس ويستخدمهم في عمله ثم يأخذ بالمثابرة على هذا العمل فيوسع نطاقه على التوالي

حتى يزداد هو بذلك نجحاً وفلاحاً ، فيجني من وراء ذلك ثماراً شهية . وانما كان هناك عدد من أرباب الأعمال الفردية يشتغلون في حيز ضيق لا يحدي صاحبه كبير نفع » (١٩١٨) . ثم يسوق السر وليم رمزي كلامه واصفاً كيف قد تمزق ذلك النظام الاقتصادي القديم المختل كل ممزق . فتبدلت الحال غير الحال وتغير الشأن غير الشأن ، وأخذت تظهر الأساليب التجارية الحديثة المنظمة على الطرز الحديثة ، فشرع العنصر التركي يرقي مستواه ويتقدم في مضمار التزاحم متفوقاً على من سواه تفوقاً بيناً .

ولأجل الوقوف التام على كيفية ما عانته الطبقات المشتغلة بالزراعة ، من فلاحين ومزارعين وملاكين وأصحاب أرضين من مر الشدائد من جراء هذا التطور الاقتصادي ، عليك بالاطلاع على تاريخ الهند للعهد الحديث المشتمل على أحسن بيان في هذا الباب . قال الكاتب الفرنسي شلي ، وهو من العلماء الثقات في الشؤون الهندية : « لم تبرح أقسام كبيرة من أهل الطبقات المشتغلة بالزراعة طوال الخمسة العقود الأخيرة تسلب منها أراضيها أو تضطر هي قهراً الى ان تزارع في أرض غيرها على خصاصة وضيق ذات يد ثم بانحطاط الطبقات الزراعية هذا الانحطاط نشأت طبقات جديدة أخذت تستولي على الارضين . . . ان الفلاحين المزارعين والملاك لسواء حقاً في المصيبة والشقاء ، لأنهم قصروا عن مجاراة التقدم الزراعي على ممر الزمن بل قعدوا عن ذلك وانقلبوا مكاسيل مضاييع للمال ، هذا من حيث ان الفلاح المزارع ، الغريق في بحر من التقاليد الحية منذ أقدم الاجيال : هو جاهل لا يحسن التدبير ، ولا يعرف الثبات ولا ينظر في العواقب . واعتبر من وجهة أخرى ان الحال الاقتصادية في الهند البريطانية كانت في الواقع علة في نشوء طبقة من المتمولين الذين طفقوا يبتغون مستثمراً لاموالهم ، فنشأ العراك يشتد بينهم وبين أصحاب الأرضين القدماء ، وكان هذا متوقعاً ونتيجته لا بد منها . فجعلت الثروة تتسرب اكثر فاكثر الى أهل الطبقة الذين

هم أذكى وأنبه ، والأرضين تستولي عليها أيدي سادة جدد ، فكان ذلك على الجملة أشبه بسهم أصاب أهل الطبقات الزراعية في أشرف مقاتلهم ، فغدا جانب كبير منهم حراثين وعمالاً مأجورين ، من بعد ما كانوا سادة الارضين وأساطين المزارعين (١٩١٠) .

وقد وصف الاقتصادي الهندي « موكرجي » كيف تشتت حال القرية الهندية وتفرق ساكنها في البلاد فقال: « آراء وافكار اقتصادية جديدة شرعت تستولي على عقول القرويين وتبلغ من نفوسهم مبلغاً كبيراً ، فطفقوا يتركون صناعاتهم واعمالهم ويضربون في البلاد ، اما بسبب المزاحمة الأجنبية القاتلة ، واما بغير هذا السبب فيذرون أشغالهم من تلقاء أنفسهم ويطوفون الجهات . فالبراهمة يهبطون المدن ليطلبوا أسباب معايشهم من وراء الاعمال في الحكومة أو الاحتراف الحرّ ، وأهل الطبقات الوسطى يبرحون قراهم ويتشتتون في طول البلاد وعرضها لتحصيل القوت وطروق باب الرزق على ما يكفي سد الخلة ، والفلاحون يزايلون أراضيهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم فتتألف منهم ، وهم عطل عن العمل ، طبقة من العمال الزراعيين الذين لا أرض لهم . فأصبحت القرى وقد امتصت دماءها وجفت عروقها خربةً منحطةً الى العدم . على ان هذه الهجرة من القرى الى المدن ليست أهميتها مقصورة على كونها هي السبب في حصول ثورة اجتماعية في العادات والافكار ، بل ان نتائج هذه الهجرة الاقتصادية لا خطر وأجل مما يتصور المتصور لأول وهلة ، فقد جرّت أهل الطبقات الوسطى من أهل بلادنا الى انتحال الخدمة حتى صاروا لها عبداناً أقناناً ، وقتلت استقلال الفلاح المزارع قتلاً ذريعاً حتى سلبته جميع حوله وقوته ، وفوق جميع هذا فانها قد عرقلت الأسباب والوسائل التي على يدها تجتنى أقواتنا وهددتها تهديداً عظيما . وعلى الجملة فالهجرة هي مشحونة بأشد المخاطر القاضية على مهننا وحرفنا ولا سيما الزراعة ــ وهي صناعتنا الوطنية » .

على ان هناك بعض الدلائل الحسنة ، في عالم الزراعة الهندية على الأقل ، تدل على ان دور الانتقال والتطور أخذت حاله تستقر ، و مفعوله يصطبغ بالصبغة الوطنية ، وان الحالة على الجملة متحسنة عن قريب ومتجهة الى الخير والصلاح . فقد تعاضدت الحكومة البريطانية والأمراء الوطنيون على نشر الاساليب والطرق الفنية الحديثة للزراعة ، ومنذ شرعوا بذلك أخذ يظهر ان المزارع الهنـدي هو اكثر استعداداً من سواه من أهل الحرف والفنون والصناعات ، للأخذ والاقتباس . ثم بدأت طبقة جديدة من المزارعين تنشأ على هذا الطراز الحديث وتنمو ، وهي اكثر حذقاً وأشد قدرة على مماشاة الزمن والاستفادة الصحيحة من المستحدثات الفنية . وخير مثال على هذا قيام الجمعيات الزراعية التعاونية التي شرعت الحكومة البريطانية في انشائها وترقيتها منذ سنة ١٩٠٤ ، وقد افلحت هذه الجمعيات كبيراً وبلغ عددها في الهند سنة ١٩١٥ نحو ١٧،٠٠٠ جمعية مجموع اعداد اعضائها ٨٢٥،٠٠٠ عضو وبلغ ما لديها من مجموع رؤوس المال ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ ريال . ومن دأب هذه الجمعيات ان تقرض أرباب الاعمال الزراعية قروضاً ماليـة يستعينون بها على شراء الحيوانات والاعلاف والحبوب والاسمدة وحفر الآبار وابتياع المواعين والأدوات الزراعية الغربية ، وأن تمدّ المحتاجين وأهل العوز للقيام بأسباب معايشهم عند الأزمة . ومن اعمال هذه الجمعيات التي في المقاطعات والرساتيق مكافحتها وباء الربا حق المكافحة ، فهبط من جراء ذلك معدل الفائدة الذي كان ٢٠ — ٧٥ بالمئة الى ٩ — ١٨ بالمئة . وانه وان كان لم يزل في البـلاد مقدار من الضيق فالدلائل الظاهرة تدل على مستقبل حسن وافر النعمة والخير .

بيد ان هذا المستقبل الزراعي الباهر لم يزل بعيداً وأبعد منه المستقبل الصناعي ، بينما الشرق لهذا العهد يتطور تطوراً ملؤه الألم والشدة ، والامر الغريب في كل هـذا ان كثيرين من الشرقيين يقولون ان السبب في شقائهم وبلائهم ليس منشؤه التطور الاقتصادي الحادث بل الحكم السياسي الآتي من

قبل الحكومات الأوروبية مقترناً بالاستثمار الاقتصادي القائم على رؤوس المال الغربية. أما النتيجة التي تنتج عن جميع هذا فاضطراب وقلق وهيجان، وقيام وقعود، وارغاء وازباد جميع ذلك للتحرر من ربقة الحكم الغربي اقتصادياً وسياسياً. وقد سبق لنا فبينا في أواخر الفصل الثاني من هذا الكتاب شأن الحركة المتمشية اليوم في الأمم والشعوب الاسلامية، ونعني بها حركة الجامعة الاسلامية الاقتصادية، اذ قد نشأت حركة شبيهة بهذه في الهندويين في الهند وعرفت بالحركة « السوادشية » [1] ويقول اتباع هذه الحركة والقائمون بها ان العلل الاقتصادية في الهند سببها استنزاف بريطانية العظمى وغيرها من الحكومات الغربية لثروة الهند استنزافاً لا يبقي ولا يذر. وغايتهم التحريض على مقاطعة البضاعات البريطانية مقاطعة ترغم بريطانية بالتالي على ان تمنح الهند حكومة ذاتية، ومتى ما تم ذلك وضعت هذه الحكومة الهندية الوطنية الضرائب الحامية للاقتصاديات الهندية، ولاشت رؤوس المال البريطانية، وتبدلت بالموظفين البريطانيين الذين يتناولون فاحش المرتبات موظفين وطنيين، فاستطاعت حينئذ حفظ ثروة الهند للهند

ولو تدبرنا الحجج والبراهين التي يدلي بها أرباب الحركة السوادشية لرأيناها ليست بالصحيحة كل الصحة بل الأولى أن تبنى عليها أسباب علل الهند وأمراضها الاقتصادية، مما هو في الواقع ناشيء عن طبائع السير الاقتصادي العام الخاضع لعوامل الدور وسنة الانقلاب أكثر مما هو ناشيء عن النقائص والاضرار التي أتى بها الحكم البريطاني. أجل، ان الحكم البريطاني ورأس المال البريطاني ليكلفان نفقة باهظة، غير أن ما هما عليه من الجدارة في حفظ الأمن والنظام وفي الترقية يعد موازياً لتلك النفقة التي يقتضيها الحكم الوطني لا جدال في هذا. قال السر ثيودور موريسون: « ان ما تناله الهند من

(١) « سوادشي » كلمة بنغالية معناها لاصلي المنتجات الوطنية ومدلولها الشائع اليوم مقاطعة البضاعات الاجنبية. وأول ما ظهرت حركة المقاطعة في أقاليم البنغال. « المعرب »

المنافع والفوائد على يد الأسطول البريطاني ورأس المال البريطاني يعدل ما يتناوله الموظفون البريطانيون من مرتبات العجز والمكافئات المالية . . . . ان الهند تتناول فوائد مادية من علاقتها وارتباطها بالامبراطورية البريطانية . وما هي تلك الفوائد الاقتصادية التي تنالها الهند موازية لما تتكبده من النفقة المالية التي تؤديها الى الأجانب مرتبات ومكافئات ؟ فالجواب على هذا هو أن الهند تنال عدداً وأجهزة للصناعة الحديثة ، وادارة منعطفة على الترقية الاقتصادية بثمن ونفقة أقل مما لو كانت الهند هي المباشرة لذلك بنفسها لنفسها » . زد على هذا أن المقارنة بين شأن الهند واليابان في نفقة الحماية والدفاع ومعدل فوائد رؤوس المال العامة والخاصة كافل لنا جلاء الحقيقة في حال الهند جلاءً مانعاً للشك .

وهناك من الهنود من يعترفون بفساد الحجج والبراهين السوادشية . فقد قال أحد هؤلاء المفندين (سنة ١٩٠٨) : « ان ما يدعونه استنزافاً اقتصادياً قول فارغ من المعنى ، لأن منشأ أكثر الشقاء في هذه السنوات الاخيرة هو غلاء المعيشة واستحكام حلقات الضيق - وذلك لعمري طامة مطبقة العالم من المشرق الى المغرب » . ثم يأتي الكاتب على وصف الحالة الاقتصادية في اليابان للبرهنة على هذه الحقيقة . وقال « رمزي مكدونلد » صديق الهنود الحميم ، وزعيم العمال في بريطانية (سنة ١٩٢٠) : « هناك أمر جلي لا مراء فيه ، وهو أن تعرفة الضرائب لن يكون من شأنها ايجاد الوسيلة لتجديد الصناعات اليدوية القديمة الأصل في الهند ، ولا المساعدة على احياء الصناعات القروية ، اذ ان المعامل والأدوات الصناعية الحديثة بوسعها أن تتغلب على جميع الصناعات القديمة ، بحيث يحدث في الهند مثلما حدث في لنكشير وبرمنهام من قبل » .

وأبين مما تقدم هو الانتقاد الذي نشره الكاتب الهندوي « براماثا ناث بوز » اذ قال ان الاستنزاف يسوق الهند الى درك الخراب سوقاً ، ولكن

هل يجدى الهند مع هذا برنامج « الحكم الوطني » (هومرول) الذي يبتغيه سواد السوادشيين، جداء كبيراً ويبرئها من عللها وأسقامها الاقتصادية ؟ ليعلم من يريد العلم انه متى ما تم أمر الحكم الوطني واستتب حاله فعل هؤلاء القوم ما يلي : (١) يتبدلون الهنود البريطانيين في الحكومة . (٢) ويضعون الضرائب الحامية للمنتجات الهندية . (٣) ويحملون الحكومة على أن تقوم بتنشيط الصناعات الهندية والأخذ بنصرتها وشد أزرها . (٤) وأن تشرع في نشر التعليم الفني في البلاد . وعلى تسليم ان كان جميع هذا فاذا عساه أن يحسن في الحالة العامة شيئاً يذكر . أما التبديل بالموظفين البريطانيين واقامة موظفين من البلاد فلن يكون السبب في تناقص الاستنزاف وتقلصه على مقدار مايتصور القوم أشياع الحكم الوطني وأنصاره ، اذ ان الموظفين الهنود أرباب المناصب العالية والخطط السنية قد اعتادوا أساليب المعيشة ومرافقها الحديثة على المستوى الأوروبي والطراز الغربي ، فاذا حلوا محل البريطانيين لزم لهم من النفقة ما لا يقل عن النفقة التي تؤدى الى البريطانيين اليوم ، ثم يأخذ إخذهم غيرهم ويقلدهم سواهم ، فيزداد تطلب المواد والبضاعات الغربية على نسبة مايفشو وينتشر في أفق المجتمع من العادات الجديدة بطبيعة الحال . وعلى هذا الاعتبار فالاستثمار التجاري الذي يقوم به الأجانب لا يبقى على قدره الحالي بل يزداد ويستفحل . وأما الضرائب الحامية فسيكون من شأنها اجتذاب رؤوس المال الأوروبية الى الهند ، فيتسنى للاجانب بهذه الذريعة الاستيلاء على المشروعات والأعمال ويلتهمون الأرباح دون أن يكون للهند نصيب فيها . واعتبر من وجهة أخرى أن الهند لم تظهر الى اليوم من الجدارة لترقية الصناعات الوطنية الا قليلاً . نعم لا ينكر أن جانباً من أهل البلاد ليستطيعون ، حتى في مثل هذا العهد المعروف بنزارة الأجور ، أن يستثمروا الموارد ويؤثلوا الثروات ولكنهم بالاضافة الى سائر قطين البلاد هم أقل من عشر معشار الملايين الناشئة بهم مخالب المجاعة اليوم . وفوق جميع هذا فان الانغماس في بحر الصناعة

سيجر على البلاد بلايا وشروراً اجتماعية قتالة . وأما قيام الحكومة بتنشيط الصناعات الوطنية فسيكون أكثر اجتذاباً لرؤوس المال الأجنبية من الضرائب الحامية مما يفضي الى النتائج التي ذكرناها . وأما نشر التعليم الفني فمشروع وايم الحق ذو شأن خطير ، ولكن جاء متأخراً بعد فوات الميقات ، فان الغربيين واليابانيين قد سبقونا أشواطاً ومراحل شاسعة في عالم الصناعة بحيث أننا لو رمنا الآن اللحاق بهم فادراكهم فزاحمتهم بالمناكب شق علينا ذلك أولاً ثم ازداد الامر صعوبة على التوالي بسبب شقة البون بيننا وبينهم .

ثم يسوق المستر بوز الكلام منتقداً جميع نظام التعليم الغربي الذي اتبع في الهند ، ومبيناً ان ليس التعليم العالي ولا الابتدائي هو الدواء الناجع في سقم البلاد . اما العالي فقد أفضى الى النجح المادي ولكن على نطاق ضيق لم يتناول أكثر من جانب من جمهور الأمة فيهم عدة آلاف من المحامين والاطباء وأصحاب الوظائف في الحكومة . ولكن لما كانت اعمال هؤلاء القوم وصناعاتهم وفنونهم عالة بطبيعة التعاون العمراني على ما سواها ، وليست على جملتها مما يُحسب من موارد الانتاج الكبيرة في ترقي البلاد ، فقد ظلت قاصرةً عن ان تكون عاملا حيوياً كبيراً في عداد العوامل التي يقوم عليها ترقي الهند بصفة عامة . لذلك جاءت النتيجة على ضد المراد ، لأنه لما كان هؤلاء القوم يتشبهون بالغربيين ذوقاً ورغبة في اقتناء البضاعات الأجنبية والمرافق الغربية التي يكثر النزوع اليها وتعمّ بها البلوى على مقدار ازدياد التبسط في رفاهية العيش وانتشار الرخاء ، فقد كان ذلك كله سبباً في ازدياد الاستنزاف لا في تناقصه وفي افتقار البلاد لا في ارتياشها . واما التعليم الأولي فلم يكن منه تثقيف العقول لسواد الناس ولا تحسين مرفق من مرافق الحياة الزراعية ، بل أفقد أهل الفلح والحراثة ما كان فيهم من حزم وكفاية وجدّ ، كما انه أشبع نفوس أهل الطبقات العاملة المتدلية الذين يتألف منهم جانب

كبير من الأمة ، صفات تبعثهم على النقمة والتذمر ، ومقت ما هم عليه من تراث آبائهم واجدادهم المشتمل على طراز المعيشة والصنعة والحرفة ، وتجعلهم ينزعون الى تطلب المزيد من كل جديد ، ويشتدون سعياً وراء الزخارف والاعراض ، وينصرفون الى الحرف والمهن التي هي بطبيعتها عالة على سواها من الصناعات والاعمال البشرية . فانحطت بسبب هؤلاء الصناعات الوطنية مباشرة وغير مباشرة ، وكانوا هم بلا ريب علة استفحال الضيق الاقتصادي الذي عمهم وسائر الامة معهم . ومن البلية ان ماكان يبتغيه هؤلاء في أول الأمر هو زيادة الاقوات والاغذية ـ ولكن الهند الجديدة وحكومتها قد اجابتاهم الى مبتغاهم بتجهيزهم بهذا الضرب من غذاء « التعليم » الذي لم يكن له تأثير ولا شأن في توفير الوسائل التي يستطاع بها التماس العيش وطلب اسباب الرزق ، بل غرس في نفوسهم صفات وعادات فسد بها مزاجهم وكانت السبب في انقلابهم شعباً كسولاً ، تستنزفه رؤوس المال الاجنبية وتمتص دماء عروقه المتمصات الغربية عرقاً فعرقاً . وبهذا الاعتبار لم تكن الاسباب السياسية والاقتصادية هي وحدها الفاعلة في ملاشاة الصناعات الوطنية لو لم يقترن بها التطور في العادات والاذواق ، ذلك التطور الذي نشأ عن البيئة الغربية التي كان من أهم عواملها ومؤثراتها « التعليم الاوروبي على هذه الصفة التي ارادها الانكليز » .

وصفوة أقوال المستربوز وآرائه أن ليس في برنامج الحكم الوطني من سبيل من سبل الاصلاح المنشود والترقية المبتغاة ما يكفل حقاً شفاء الهند من عللها وابراءها من أوجاعها ، « بل ان الهند ستزداد تورطاً في أشراك المدنية الغربية وأحابيلها الخداعة ، دون ان تلقى من النفع والفائدة ما يعدل معاناتها المشقة والنصب ، وسيشتد خناق الغرب على عنق الهند اشتداداً يضيق انفاسها تضييقاً » ، فالذريعة الوحيدة للهند ، على ما يذهب اليه المستربوز ، هي ان تدابر كل شيء غربي ، وتولي وجهها شطر ماضيها فتنقلب سابحة في

لجج من تقاليدها وسننها التاريخية ، وتوضح معالم حضارتها المطوية في سجل الدهر ، وتستثير دفائنها ثم تخلع عليها ثوب البهاء والرونق . وفي هذا الصدد قال المستربوز : « ان نجاة الهند ليست مرتجاةً في أفق السياسة ولا في مطمحنا الى ان نصير أمة من أمم الأرض العظمى ذات الحول والطول ، والقوة والأيد ، بل في رجوع الهند الى ماكانت عليه قبلاً من منزلة الاتضاع ـ تلك المنزلة الحافلة بجلال العزلة مع العظموت والهيبة . لسنا بالمدركين غايتنا بنحونا نحو الحضارة الغربية ، بل بالاعراض عنها ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، ولسنا بالبالغين غرضنا بزيادة الاشتباك بأشراك تلك الحضارة المزركشة ذات الخيوط اللماعة من الدمقس والابريسم ، بل في الادبار عنها واجتنابها في كل طريق تراءت لنا فيه » .

هذه خلاصة ما أوضحه المستربوز ، وله من المناصرين في آرائه عدة رهط من المفكرين الخياليين مثل رابند رانات طاغور ومن نسج على منواله .

غير ان الأمر الذي لامراء فيه هو ان هذه الآراء على ما اشتملت عليه من ملذوذ الخيال وبديع التصور ، هي ضرب من العبث والباطل ، اذ ان شعباً باجمعه يعد بمئات الملايين لسن يستطيع بعد اليوم الانقطاع عنوةً عن سائر العالم ، ويتجلبب جلباب العزلة على نحو ماكان هكذا في غابر الدهر ، منكراً ما هنالك من الصلات والروابط بينه وبين المجتمع الانساني ، ومنفرداً انفراد النساك في الصوامع والغيران . ان زمن «عزلة الشعوب» قد انقضي وطويت صفحته ، فلن يعود الى الوجود ولا سيما في بلاد مترامية الأطراف كالهند وهي ملتقى طرق الشرق يحيط بها البحر من أكثر جهاتها . وزد في الاعتبار ان هذه البلاد قد تغلغلت فيها الآراء الغربية تغلغلاً بعيداً وانتشرت في أهلها الافكار الاوروبية انتشاراً كبيراً

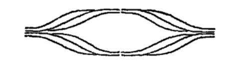
وكان لتلك الاقوال المضروبة على اوتار التقشف ، الاوتار الحساسة الكامنة أبداً في مزاج الهندي وطبائعه ، أكبر تأثير في نفوس العدد العديد

من أهل الهند حرك من نفوسهم السا كنات ، فباتوا وقد أدركوا امتناع تحقيق آمالهم كلها ، يحاولون أمرين أولهما اتخاذ سبيل وسط يستطيعون به احتفاظ كل شيء ورثوه من النظام القديم مما لا بستهم على كرور الايام صبغته ومازجتهم بفعل العادة طبيعتـه . والآخر اقتباس الاحسن واختيار الصالح الملائم من الحضارة الغربية ، ثم افراغ ذلك في القالب الذي يوافق شأنهم ويجاري مستوى حالهم ، موسوماً بميسم هندي ومعلقاً عليه شارة الوطنية الهندية . وعلى هذا الرأي وضع ارباب هذا المذهب برامج لانشاء نظام جديد قائم على مزيج من التصوف الهندى ، ونظام الطوائف ، والصناعة الغربية ، والاشتراكية .

ولـكن هذه البرامج على ما فيها من فائق البراعـة وثقوب الرأي ليست بالجامعة المانعة ، اذ لو استبصر واضعوها لعلموا المثل الغربي انه « لايستطاع أكل الحلواء واحتفاظها معاً » . ومتى مافقهنا شأن الطبائع المتضادة ، والصفات المتخالفة بين الشرق القديم والغرب الحديث في نظامهما الاقتصادي ، تبدى لنا ان كل محاولة يبتغى بها التوفيق بين وجوه النظامين توفيقاً مقصوراً على المواضع التي كثر التشابه في صفاتها والتجانس في طبائعها ومزاياها ، مع عدم النظر في مواقع النقص وفي الـكثير من الاختلافات والمتناقضات ، هي محاولة للتأليف بين الممتنع تأليفه أو الملائمة بين لونين متخالفين ، لا يجدي ذلك نفعاً أكثر مما تجدي محاولة المريد تربيع الدائرة أو تدوير المربع . وقد قال لويس دكنسن في هذا الشأن قولاً حكيماً (سنة ١٩١٤) : « ان الحضارة انما هي جهاز تام كامل ، وكل ما فيها من فن وأسلوب ودين جميعه معلق على صفة النوع الذي يكون به ترقيها في الاقتصاد وأصول الصناعات . اني لا أكاد أصدق ان أمة من أمم الأرض تستطيع الترقي بأن تأخذ من هذا عند ما تريد وتعرض عن ذاك عند ما تأبى ، كما هو شأن الشرق الذي قد يقول ، اني لآخذ من الغرب سفنه الحربية ، وجواريه المنشآت ، ومعامله الصناعية ، وعلومه الطبية ، ولن آخذ عنه اختلاط مجتمعه، وانكماشه وهرعه ونصبه ، وشناعته وقبحه ،

وافراطه وطمعه .... كلا اني لا أكاد أصدق هذا ، بل أرجو ان الشرق يقتفي سبلنا ويتبع مناهجنا ، اشاء أم أبى ، وهو سيجتاز ما قد اجتزناه نحن من مشقة وعناء ، وسيسير القدمية لا يلوي على شيء ، ولا يعرج بين السبيلين حتى يدرك مستوى من الحضارة رفيعاً » .

هذا هو القول الصحيح . فان الشرق باعتبار ما لا يحصى من الشواهد والأدلة الظاهرة على شأنه اليوم ، سيقتفي آثار الغرب في سبيل هذا التطور الذي سيقف عند حد ، وقد يعرض عن بعض نقائصنا وعيوبنا الظاهرة ، ولكن في غالب الامر سيمشي على صراط شبيه بصراطنا . وهذا التطور كما قلنا في شأنه في مواضع تقدمت انما هو مكيف لكل أفق من آفاق الحياة الشرقية ، وقد بينا مجاري هذا التطور المظيم من وجهاته الدينية والسياسية والاقتصادية ، وبقي الكلام على الوجهة الاجتماعية التي انتهينا اليها في الفصل التالي .



الفصل الثامن

في

التطور الاجتماعي

كفى دليلاً على ما لهذا التطور الذي نشهده اليوم في الشرق من الشأن والعظمة ، ما هو متجلٍّ في أفق الحياة الشرقيـة من ضروب الانقلاب ، وتجدد المنازع والانتقال من هيئة الى هيئة ، اذ ان المؤثرات الغربية الفاعلة فعلها العظيم في تحول اشكال الحكومات ، والأوضاع السياسية ، والمعتقدات الدينية ، والتطورات الاقتصادية ، هي فاعلة أيضاً في اطوار النظام الاجتماعي ، وليس شأنها في هذا المقام بأقل منه في سائر مواضع الانقلاب الشرقي . وقد أتينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب على بيان موجز عما للمؤثرات الغربية من الشأن في الاطوار والتارات التي تقدم الكلام عليها . وغايتنا في هذا الفصل ان نبسط الكلام على التطور الاجتماعي الحادث اليوم في العالم الاسلامي .

لا مراءَ في ان هذا التبدّل خطير عظيم ، على كونه لا يخلو من غموض يظهر في بعض المواضع ، خلافاً لسائر آفاق الانقـلاب الآذنة بكل جلاء ووضوح . والسبب في هـذا الاستبهام هو ان للعادات المتأصلة والتقاليد المتمكنة في حياة الفرد والاسرة والجماعة في المشرق سلطاناً قوياً وشوكة نافذة ، يحملان غير المتعمقين من أهل الاستقصاء في شؤون الشرق على ان يجنحوا الى القول المؤكد بأن هذه العادات والتقاليد لم تبرح على حالها القديمة من الرسوخ وشدة التأثير ، بحيث على زعمهم ، لم يتناول التطور الحقيقي داخلها مثلما تناول خارجها ، ولا تغلغلت روح الانقلاب في باطنها كما أحاطت بظاهرها ، ولو بلغ الانقلاب المادي وتحول ظاهر الحياة ما بلغا . على ان

هـذا الرأي الذي يقول به هؤلاء القوم الذين لا يعولون على التحقيق في المسائل ، هو مما لا يجيزه أهل العلم والبحث ذوو النظر النافذ في اسرار الانقلابات ، وان الشرقيين أنفسهم ليستهزؤن بهذا القول وامثاله ، ويفندونه بالحجة والبرهان ، ويؤيدون حدوث التطور الاجتماعي ونتائجه بسنة التحول التي لن يجد لها الناس تبديلاً .

وأهل الشرق لعمري على حق فيما يقولون ويبينون ؛ فان قيل ان الشرق صاعد بمعراج الترقي مادياً ، من حيث هو لم يزل على حاله من السكون والجمود والفرارة من الجهة الاجتماعية فانما ذلك تجاهل وتعام عن الواقع ، ومكابرة في الحقيقة التي بات لا يختلف في ثبوتها من أهل الاستقصاء الصحيح اثنان ، اذ أن الانظمة الاجتماعية تتبدل أبداً بالمؤثرات المادية الحسية ، تبدلا لا يقل عن ذاك الذي يتم بقوة المؤثرات الأدبية المعنوية ، والآراء والمجردات . أيستطيع من ينظر في ما دون العرض الغاشي ، نظر المتأمل المستبصر ، ان ينكر ما للقطر الحديدية والبرُد والاسلاك البرقية من قوة العمل والتأثير في سير الترقي الاجتماعي والأدبي والحضاري ؟ أما من شأن ، اجتماعي ومادي يأترى ، لما يقتبسه الشرق من الغرب ويأخذ عنه من مئات المحدثات والمخترعات ، بين ثمين وتافه ، وخطير وحقير ، وضار ونافع ؟ . أيخلو من معنى كون قبر صاحب الرسالة الاسلامية في المدينة المنورة غدا كالكوكب تتلألأ فيه المصابيح والأضواء الكهربائية ، وان الرقاع البريدية المصورة صارت تباع على أبواب الكعبة المقدسة في مكة المكرمة ؟ أجل ، قد يستغرب المدقق أول الأمر من أن المؤَذّن أضحى يذهب الى المسجد راكباً قطاراً كهربائياً ، وان التاجر المسلم أخذ يخرج من مخدع حرمه فيتناول صحف الصباح فيقف على أنبائها وأخبارها ، ثم يمتطي سيارةً الى بيت تجارته ومعه سجادة الصلاة . ثم اذا ما فرغ من إقامة الصلاة انقلب تارة الى تلفونه وطوراً الى آلة الاملاء يفرغ فيها نصوص الرسائل والكتب التجارية . فماذا

نحن نسلم بأن للمسجد ومخدع الحرم وسجادة الصلاة شأناً مؤثراً في حياة المسلم وتكييف معيشته على الجملة ، حينما نتكر ما لجميع المحدثات والمخترعات التي أخذها الشرق عن الغرب من التأثير في تكييف حياة المسلم الاجتماعية ؟ أضف الى هذه الاسباب الحسية المادية ، الاسباب الادبية المعنوية مثل العلوم الطبيعية ، والوسائل الغربية الحديثة ، التي جعلت للتلهي والراحة ، وتحرر المرأة نوعاً ما ، فتبدو لك للحال أهمية التطور الاجتماعي الحادث اليوم ، واتساع أفقه .

على ان هذا التطور الاجتماعي قد اتسع نطاقه في الاقطار الشرقية التي هي أكثر تعرضاً من سواها لتيار المؤثرات الغربية وكان مبدأ ذلك منذ نحو من نصف قرن . لما عاد المستشرق الهنغاري ڤمباري الى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ بعد غيبة من الزمن طالت أربعين سنة ، دهش حقاً مما شاهده من عظيم التحول والانقلاب ، والاستانة عهدئذ راسفة بالأغلال الحميدية ، فقال : « عند ذلك طفقتُ أسائل نفسي أهؤلاء ياترى هم الترك الذين رأيتهم سنة ١٨٥٦ ، وكيف قد تمت جميع هذه التطورات الكبرى ؟ ولشد ما كان عجبي لما أخذت أقلب نظري في مظاهر المدنية وصورها فرأيت المباني الحجرية الجديدة ، قد قامت مقام الخشبية القديمة ، والاسواق ، والشوارع ، دبت فيها عوامل الحياة دبيباً ، فجرت فيها المركبات المزينة تجرها الجياد المطهمة ، والقطر الكهربائية تنساب في جميع الأنحاء ، كل ذلك مما لم أره في مثل هذه الاسواق والشوارع وهي اذ ذاك مختلط تزدحم فيه الدواب والعجلات القديمة الطراز . وسمعت جلجلة الآلات المتحركة تخالطها اصوات المؤذنين الذين يجأرون الى الله من على رؤوس المآذن . فظهرلي من جميع ما شاهدت وسمعت ، وعرفت وخبرت ، ما هو مناقض للقول المأثور ان « لا بدعة في الاسلام » . وقد كان دهشي أشد وعجبي أبلغ لما دخلت المنازل والبيوت فلم يكن يوسعي سوى الاعظام والاكبار ، ليس لما شاهدته من كيفيات

التحول الظاهرة فقط ، بل أيضاً لما هو أجل قدراً من التطور المعنوي الكبير . فبدا لي ان طبقة الافندية (أي المتهذبة) في الاستانة قد تبدلت من حال الى حال، وانتقلت من دور الى دور ، في مجتمعها وطرازها الخارجي وطرق اتصالها بالغربيين » .

ويعظم ڤمباري شأن الارتقاء الداخلي كما يعظم شأن الارتقاء الخارجي ، في الطبقات التركية التي تناولها التهذيب والتعليم ، فقال في هذا المعنى : « قد غدا التركي اليوم يرتاح الى العادات والآداب الغربية ارتياحاً كبيراً مشهوداً ليس في المظاهر والصور الخارجية فقط ، بل في أسلوب المعيشة المنزلية أيضاً ، وذلك من صفة الأثاث والمتاع ، وآداب المائدة ، واحترام المرأة ، وغير ذلك . ان هذا الطور الجديد لجليل الشأن ، لأنه معلوم ان الشعب الذي يقبل على تشرب العوامل وقبول المؤثرات الغربية السائقة الى الترقي العقلي ، عند ما يصفو اعتقاده بأن هذه المؤثرات انما هي صالحة له ، لا يستطيع الاقلاع عن مألوف عاداته الثابتة الصبغة ، المتأصلة في مزاجه وطبيعته ، الا بشق الانفس . والترك قد لقوا الشدائد في هذه السبيل ، فذللوا العقبات ، وتغلبوا على المكاره ، حتى ضربوا من التجدد بسهم وافر . ورأيت ان الشعور الشديد بضرورة ملابسة الحضارة الغربية والتحقق بها ، قد عم المجتمع التركي بأسره حتى رجال الدين . ولكن جماعة أهل الرأي على اختلاف في كيفية التطبع وأساوبه ؛ فبعضهم يبتغون اعطاء ما يودون أخذه عن الحضارة الغربية صفة وطنية وصبغة قومية ؛ والبعض الآخر على الضد من هؤلاء ، اذ يبتغون انتحال تهذيبنا العقلي على علاته ، ويأبون كل تكييف له ولو قليلاً » .

والامر الاهم هو ما شاهده ڤمباري من شأن النساء المخدرات القابعات في أكسار بيوتهن ، وقد تغيرت الآن حالهن وتحولت صور حياتهن الى حد يقضي بالعجب . قال ڤمباري : « وأزيد القول تأكيداً ان المرأة التركية قد

تبدلت أساليب حياتها تبدلاً شاملاً عفا معه كل أصل قديم خلال الاربعين سنة الاخيرة . ثم ان هذا التطور قد تمّ أمره بسببين : الاول اعتقاد الترك بأن التجدد ضروري لهم في هذا العصر ، والثاني الضغط الشديد الطاريء من الخارج » . واذ لاحظ ڤمبارى انتشار تعليم البنات وزيادة نصيب المرأة في القيام بتدبير الحركات الاصلاحية وتنظيم الدعوات وبثها في هـذه السبيل ، قال : « ان هذا لامر حيويّ للأمة لأنه متى ما شرعت المرأة تقوم بواجباتها في الحياة المنزلية بصفة كونها عاملاً من عوامل الارتقاء الحديث ، فان الاصلاح الحقيقي لابدّ له من أن يثمر ثمره في المجتمع والدولة والحكومة » .

ويبين « خوجه بوخش » ، المسلم الهندي الحر ، وهو من أهل الاطلاع الصحيح على شؤون بلاده ، ان الحياة الاجتماعية في الهنـد غدت في تطور كبير وذلك بسبب ما تشربته من المؤثرات والعوامل الغربية ، كما هي الحال في تركية ، ويوضح خطورة هذه الأدوار الشديدة التي لا بد من اجتيازها ، أدوار الانتقال من حال الى حال ، والخروج من القديم والولوج في الجديد . وهو متشائم من هذا ، لأنه يعترف بأن « دور التطور انما هو بحكم الضرورة الى حد معـلوم ، دور فساد في الآداب ، وانحطاط في الاخلاق ، وعبث بالدين ، ممـا قد يحسبونه عرضاً ويزول ، ومرضاً ويبرأ ، ولكن لا مبريء لهذا سوى كرور الأيام » ولكن هذا الخبير الكبير ، مع علمه بجميع ما ذكر فانه لا يقالي من خطورة الدور الحالي الذي أقل ما يقال فيه انه هادم لاركان النظام الاجتماعي القديم هدماً فقد قال : « ان أوضح نتيجة لهذا التطور هي تزلزل نظامنا القديم القائمة عليه حياتنا المنزلية ، وعاداتنا الاجتماعية ، وسبب هذا التزلزل انما هو تيار الحضارة الغربية ، وهذا الأمر الواقع أظهر ما يكون في موضعين : معتقداتنا الدينية ، وحياتنا الاجتماعية . ان النظام القديم ، على جميع عيوبه كان مشتملا على فضائل جمة واقية » . أما اليوم فقد انهار هذا النظام القائم على ضيق المدارك لا بل على التظاهر بخوف الله وطاعته ، وحلّ

محله « استقلال فكري عملي غريب . فمفت صفة احترام الماضي ، واكرام الكبار والشيوخ ، واعتبار قال فلان وروى فلان . كان الأب في ظل النظام القديم ربّ الاسرة ووليها الحميم ، وكانت كلمته فيها شريعة مطاعة وأمراً مقضياً ، وكان حارس بناتها وراعي حرمتها ، وحافظ شأنها . أما الآن فقد أصبح مجرداً من جميع المنزلة التي كان عليها من قبل ، وراح أصغر فرد من افراد الأسرة يبتغي الاستواء معه في كل شأن من الشؤون ، وينازعه السيادة في كل أمر من الامور » .

ويأسف المستر بوخش أسفاً لما هو منتشر من تيار الاسراف والتبذير والانغماس في الترف ، وذلك ولاشك ناشيء عن اقتباس عادات الأوروبيين وتقليدهم في جميع أساليب المعيشة تقليداً أعمى جامعاً للضار والفاسد والغث والسمين . ثم يسائل المستر بوخش نفسه : « ماذا لعمري ثم في الهند ؟ اننا قد اتخذنا ازياء أوروبية في لباسنا ، وأساليب أوروبية في معيشتنا ، ولم نكتف بذلك بل جاوزناه الى عادات شرب الخمر والمقامرة والميسر ، ولكننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الغربية ، فيجب مداواة العلة قبل استفحالها وتطبيب السقم قبل الاعضال . يجب علينا أن نتعلم من أوروبة ولكن دون ان نهدر في سبيل ذلك كينونتنا الأدبية ووجودنا المعنوي . اننا لم ننتبه الى الخطر الذي حاق بنا فسرنا في التقليد سير ضلال ، وجلّ ما حصلناه اننا خضنا خوضة قليلة في التاريخ الانكليزي والأوروبي ، ثم طفقنا نزدري ديننا وآدابنا وتاريخنا وتقاليدنا . ولم ندرس ماضينا ولا اطلعنا على انباء حضارتنا ولا بنينا ركناً جديداً ، ولا شيدنا لمجتمعنا قواماً قوياً حديثاً يثبت به غير متزعزع على صروف الدهر وتقلبات الازمان . وعلى الجملة فاننا قد افسدنا حياتنا افساداً من حيث لم نباشر لذلك اصلاحاً » .

ويؤكد المستر بوخش القول مثل ڤمباري ، ان المرأة الهندية سائرة في سبيل التحرر ، اذ انقضى العصر الذي كانت هي فيه سلعة تباع وتشترى

« فصارت المرأة المسلمة اليوم في الهنـد تعلم وتهذب على ازدياد . وغدت تعرف حقوقها وتحسن الدفاع عنها . نعم ان نظام « البردة [1] » لم يزل شائعاً ولـكنه ليس من الشدة وايجاب العزلة كما كان منذ خمسين سنة خلت ، بل انه أوشك يسقط ويندثر ، وشرعت النساء يتدرجن في نيل حقوقهن الى أن يبلغن اليوم الذي يدركن فيه السوي الـكامل لتحرر المرأة الشرقية . كانت نساء بلادنا منذ أربعين سنة موضوع الاحتقار بل خشونة المعاملة من أزواجهن . أما اليوم فقـد تبدلت حالهن كثيراً ، وبتن يعملن لنيل جميع حقوقهن ، واعزاز مقامهن .

بهذين البيانين ـ الموصوف بهما التطور الاجتماعي في الشرقين الأدنى والأوسط ـ ندرك ماهية الانقلاب الحادث اليوم في الشرق . ثم ينبغي لنا أن نذكر أن هذين الـكاتبين قد وصفا حال الطبقات الراقية المتهذبة في المدن والحواضر الـكبرى ، والحقيقه أن الاختمار سار سرياناً عظيماً ومنبث انبثاثاً شاملاً ، في جميع آفاق المجتمع ، متناولاً طبقات الأمة الواحدة بعد الاخرى ، وتراه دائماً على اتساع وامتداد .

ان انتشار التعليم الغربي في الأقطار الشرقية خلال بضعة العقود الأخيرة ليدعو للاعتبار لأنه قد نقض ما هو معهود في الشرق منذ القـديم من نظم التهذيب والتعليم . فقد كانت أصول فن التعليم الجارية على سنن التقليد في جميع الشرق ، من مراكش حتى الصين ، لا تخرج عن حد تحفيظ الـكتب الدينية والأسفار المقدسة تحفيظاً مقروناً بتعليم فروض الدين وممارسة شعائره . وكان الطالب المسـلم أو الهندوي يقضي سـنين عديدة يتلو على معلمه أو مدرسـه فصولاً من الـكتب الموضوعة بالعربية الفصحى أو السنسكريتية ، الـكتب التي لا يسـتطيع ادراك معاني عباراتها وتراكيبها ، ولا فهم اغراضها ومدلولاتها ، فكان نظام التعليم على هذا النمط حائلاً شديداً دون اتساع

(١) البردة بلغة أهل الهند معناها الستر يمد للمخدرة في ناحية من المنزل.

المدارك العقلية ، فتتبلد القوى الدماغية جميعها ماعدا قوة الذاكرة ، وتذهب قوة الابتكار العقلي .

ولم يبرح هذا النظام الفاسد متبعاً حتى اليوم في بعض الشرق ، وما انفكت الملايين من النشء الشرقي تفني الاوقات الثمينة في معاناة التعليم على هذا المنوال الحائل دون نمو القوى العقلية والادراكية . على أن نظاماً جديداً شرع يماشي ذاك القديم منازعاً له وملاشياً اياه وهو يشيع وينتشر في جميع المحيط التعليمي ، من كتاتيب الأطفال حتى الجامعات والكليات الكبرى ، فصار الناشيء الشرقي يرتضع أفاويق العلوم على مناهج غربية صحيحة ، وهذه المنشآت العلمية الحديثة الطراز هي على ضروب مختلفة . فهناك الى جانب المدارس والكليات والجامعات ـ التي تعلم تعليماً حراً وتعد الطلاب للقيام بالخدمة الحكومية أو المهن الحرة ـ عدد كبير من المدارس الصناعية والزراعية تخرج للشرق حذاق الفنيين والزراعيين والمهندسين ، ومدارس دور المعلمين تعد المعلمين اعداداً حسناً يتأهلون به لتعليم النشء المقبل وتثقيف عقولهم على الأصول الصحيحة والاساليب السليمة . والمدارس الاميرية والخاصة لا تني في توسيع التعليم على الطراز الغربي وفي زيادة نشره في الشرق . وقد كان من شأن جميع الحكومات الاوروبية الأخذ بنصرة التعليم الغربي في الأقطار الداخلة في سيطرتها وحكمها ، ولا سيما الحكومة البريطانية في الهند ومصر ، بينما هناك البعثات التبشيرية النصرانية المختلفة قد انتشرت وانبثت في آفاق المشرق ، وأنشأت عدداً كبيراً من المدارس والكليات ، وبينما كثير من الحكومات الشرقية مثل تركية والحكومات الوطنية في الهند باذلة غاية المستطاع لنشر التعليم الغربي في شعوبها ورعاياها نشراً متوالياً مباركاً .

على أن النتائج الحاصلة الى اليوم ليست غاية في الكمال المطلوب . ولا غرابة في ذلك لأن الدور دور تطور وانقلاب ، وتغير وتبدل ، ولأن التقاليد

الفاسدة المتسلسلة من ماضي الاجيال ما انفكت تعترض جهد الأقوام الساعية بجد في سبيل تحرير التعليم من جميع النقائص التي لم تزل عالقة به .
لهذا السبب الجدير بالاعتبار نرى سواد الطلاب الشرقيين الى اليوم ، أميل الى الاعتماد على ذاكرتهم وحافظتهم ، منهم الى الاعتماد على عقولهم وقوى مداركهم ، يؤثرون اجتياز عهد الطلب سرعاناً حتى يدركوا ما تشره اليه نفوسهم من تقلد الوظائف والأعمال الحكومية ، على التضلع من العلوم والتمكن في المعارف مما يكسبهم الجدارة للاختصاص بمختلف الفنون والصناعات التي لا بد أن تكون بمقتضى سنة الترقي الصحيح . ولما كانوا على هذه الصفة المتقدمة كانت النتيجة ان اخذ كثير منهم يحبطون دون الوصول الى الغاية فيحل بهم الابتئاس ، ويخفقون سعياً وراء امانيهم فتشق عليهم الحال ، هذا وقد اجتزأوا ببعض العلم اجتزاء لا يكسبهم القدرة على ضروب الأعمال النافعة والمهن المنتجة . فتراهم يسيرون في الحياة على غير هدى لا يسعون الى غاية مقصودة ولا ينشدون غرضاً بعينه . كل ذلك يحملهم على الانقلاب اعداء مبغضين للروح الغربية ، ثم يسوقهم هذا الى بث اسباب الثورة وبذر بذور القلق الفوضوي . في هذا الصدد أجاد « السرألفرد ليل » في وصفه سيئات التعليم الغربي في ربوع الشرق فقال في شأن الهند : « لامراء أن الجهل انما هو علة شرور كثيرة وبلايا عديدة في دائرة المجتمع ، وقد قام كثير من الفلاسفة وحملة العلم في القرن الماضي ينادون أن التعليم الكافل لتثقيف العقول وتنوير الأذهان هو انجع دواء وأفضل ذريعة لشفاء العالم ونجاته مما هو غارق فيه من بحر الضلال والجهل» ، وقام ساسة خبراء مثل « ماكولي » يبينون للملأ أن التعليم على هذه الصفة هو السبيل الفضلى لخلاص العالم بأسره من المعضلات السياسية ، ومن الحال التي قد استفحل فيها امتهان حرمة القوانين والانظمة والأحكام . فلذلك بات ضربة لازب على الحكومة البريطانية أن تجرب القيام بتحرير الهند تحريراً عقلياً ، حاسبة هذا

العمل خير مبرر لحكمها تلك البلاد . « على اننا قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا نقوم بذلك أن التعليم ، مع كونه الدواء الشافي لامراض عديدة وكونه ضرورياً لا بد منه لاتمام الارتقاء الاجتماعي الصحيح ، فانه اذا لم تحسن ادارته كل الاحسان وتوفى وسائل تدبيره القسط الأكبر من الاجادة والاحكام ، انقلب بقوة فعله وعمله سماً قاتلاً تتولد منه جراثيم الفساد والاضطراب ، بعد أن كان خير دواء يرجى به الشفاء . ولا غرابة في ذلك لأن التعليم على هذه الحال أخذ مفعوله يسري وفواعله تشتد اختماراً في مجتمع متزلزل الأركان متداعي الجوانب . ثم من شأن هذا التعليم أن ينقض ما ينقض ويجرف ما يجرف ، ويهيج ضعاف الادمغة ، ويستثير مساريع الاطماع وبعيدي الآمال بما لا يستطاع تحقيقه في الحال ، فيحمل الاخفاق أهل البلاد على السخط والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراماً » .

غير أن بعضاً من الغربيين أهل العناية بشؤون الشرق ، نخص بالذكر منهم رجال الاستعمار ، أخذوا يقومون ويقعدون للمخاطر السياسية والاجتماعية المنبعثة من جانب هذه الطبقات المشتملة على الذين أتينا على ذكرهم من ذوي العلم الناقص (١) وأنشأ المستعمرون يعزون السبب في انتشار روح المقاومة للغرب الى التعليم الذي جاءوا بمناهجه وأساليبه . فاللورد كرومر على سبيل المثال ، يرتاب شديد الارتياب في شأن المصريين الذين تلقوا العلوم

---

(١) كثير من مؤلفي الاوربيين ورجال سياستهم يحذرون حكوماتهم من اتقان التعليم في المستعمرات ، بحجة ان الغالب على النشء المتعلم هو النزوع الى الثورة ، اذ كانوا يقرأون اموراً « تسيء عقولهم هضمها » ويقيسون اقيسة فاسدة فيتعبون ويتعبون . ومن جملة شواهد ذلك تلك المقالة التي عربناها عن « مجلة باريز » والتي صاحبها يشير باماتة اللغة العربية من المغرب واقامة الفرنسوية مقامها بشرط أن يكون التعليم قاصراً على مايلزم لاماتة هذه واحياء تلك لاغير . والحاصل انهم يريدون قلع العلوم الشرعية من بين المسلمين ، ولكن يضنون ان يجعلوا مكانها العلوم العصرية ، لئلا تحيي بها نفوس هذه الامم ، اذ يعلمون انه لايجتمع العلم والذل في محيط واحد سواء كان علماً شرعياً اسلامياً أو علماً اوربيا عصرياً أو علماً جامعا للامرين . (ش)

الغربية . وقال موظف بريطاني هندي شهير ان علة الاضطراب في الهند ناشئة عن « نظام التعليم الذي نشرته بريطانية في البلاد ».

وهؤلاء المرتابون المتشاءون المستعمرون ، الذين يقولون ما يقولون من أن التعليم هو سبب نشوء الاضطراب في الشرق ، يغفلون عن انه لابدّ لادوار التطور والانقلاب من ان يصحبها شرور وآفات ، وعوارض فاسدة ، بطبيعة الحال دون مردّ . ولكن هذه الحقيقة الكبرى لم تخف على الحكماء من أهل الاستقصاء ، فكان شأنهم في درس تطور الشرق خلاف شأن أولئك المرتابين ؛ اذ قالوا ان التبدل والتغير في انظمة هذا المجتمع الانساني لا يكون خالياً من نقائص تعتوره وعيوب تصاحبه ، ومن هؤلاء الحكماء ڤمباري الثقة الكبير الذي احاط بالشرق وشؤونه علماً ، وادرك ان في الشرق اليوم مستوىً علياً تتجلى فيه جدارة الموظفين الوطنيين ، وبه يظهر صدق امانتهم ، وهم الموظفون القائمون باعمال الخدمة المدنية في حكومة الهند البريطانيه وحكومة افريقية الشمالية الفرنسية (وجل هؤلاء الموظفين من الذين تلقوا العلوم الغربية) ؛ ففي هذا المعنى قال ڤمباري :« ان الشرقيين المحافظين المتشددين والاوربيين المتعصبين ، ليخالون ان الاتيان بتهذيبنا الغربي الى الشرق قد ذهب بفضائل الاسيويين ، تلك الفضائل الساذجة الفطرية ، حتى غدا الشرقي غير المهذب أكثر امانةً واعز شرفاً وأشد اباءً ، واجدر بالثقة من الاسيوي المهذب على الاساليب الغربية . ان هذا الخيال لأفن وخبال فلعل هذه الاوهام تصدق على أولئك النائلين قسطاً قليلا من التعليم والتهذيب ، ولكن لا تصدق على الاسيوى التام التهذيب الذي وقر في نفسه ان الارتقاء العقلي قائم بجملته على الاساس المكين ، وهو التعليم الوافي الصحيح ، والتهذيب المنظم الطريقة ، والتثقيف السليم الاسلوب والمنهج » .

ثم مهما كان شأن النقص الذي صاحب أساليب التعليم الغربي في الشرق ، فالتعليم هو المنهاج الذي لا يستطاع الا نهجه ، والباب الذي لا حيدة عن

ولوجه . وعلى كل فان ما قد بلغته الروح الغربية في الشرق من سعة الانتشار وشدة التأثير ، هما من الاهمية بحيث لو أردنا الكلام عليه تفصيلاً استغرق ذلك المجلدات الضخام . ولو سلمنا جدلاً ان الحكومات الاستعمارية قد كان في وسعها ان تحول دون التعليم الغربي الصحيح ، أفلم يكن الشرقي على كل حال قادراً ان يتعلم ما يتعلمه على طرق أخرى ومناهج شتى . اذن خير للشرقي وأفضل ان يتلقى العلوم والمعارف في كتب مفيدة صحيحة الاسلوب برعاية الاكفياء من المدرسين والمعلمين ، من ان يترك وشأنه يتتبع الأساليب الفاسدة والطرق الملتوية ويخبط خبط عشواء .

وتتضح لنا خطورة التعليم الغربي في الشرق أحسن اتضاح بما هو ظاهر ومشهود من النتائج الاجتماعية الكبرى ، الا وهي ترقية شأن المرأة واعلاء مقامها ورفعها من تلك الحالة التي كانت عليها . ومعلوم ان تلك الحالة التاعسة التي كانت تنزل بمقامها في جميع البلدان الشرقية تحتاج الى الاصلاح الحقيقي الذي هو قوام المجتمع الناجح. ان هذه الحالة السيئة في الاقطار الاسلامية هي اسوأمنها عند الهند وبين القوم المنتشرفيهم الزواج الباكر واستعباد الارامل والأيامى (اللواتي كان من العادة ان يحرقن أحياء وظلت هذه العادة شائعة حتىقضى عليها الانكليز بسيف القانون) وتحجب المرأة تحجباً أشد من تحجب المسلمات واثقل وطأة . قال كاتب انكليزي : « نحن في الغرب نقول السيدات أولاً والرجال ثانياً ، وفي الشرق يقولون الرجال أولا والسيدات ثانياً . ولعل هذا كاف لتبيين مبلغ الاختلاف في صفات البيئة المنزلية بين الحضارتين الشرقية والغربية » .

وقد يبدو للمتأمل لأول وهلة ان حالة المرأة على هذه الصفة لم تزل تحت تأثير بحيث لم تفش فيها لحد الآن المؤثرات الغربية التي تبعث في مجتمع النساء روح اصلاح حقيقي . كلا ، فان الأمر على خلاف ما يتبادر الى الذهن ، اذ ان المؤثرات الغربية قد انبثت وذاعت ، وكان لها ما كان من بالغ التأثير في افق

نساء الطبقات العليا ، فانتشر تعليم الاناث انتشاراً كبيراً ، ولكن على نطاق أضيق من نطاق تعليم الذكور . وقد ظهر في الاقطار الشرقية التي هي أسبق من غيرها ترقياً وعمرانا اجتماعياً مثل القسطنطينية والقاهرة ومدن الهند ، طراز جديد من النساء المصريات ، المتهذبات الراقيات ، ولا سيما من معلمات المدارس اللواتي نزلن منزلة رفيعة في المجتمع الذي أخذن يعملن فيه .

وقد جاء تطور المرأة المسلمة في الشرق بنتائج حسنة لم يكن نفعها مقصوراً على النساء فحسب ، بل تناول المجتمع بأسره . وكيف لا يكون هذا التطور خطيراً والمرأة الشرقية ، كما قال ڤمباري ، مستغرقة في الجهل والغباوة ، واذا كانت هكذا ، فما اسوأ التربية التي تنشيء بها أولادها الذين على صدرها وبين ذراعيها . وهل من بلية أعظم من هذه البلية التي تحول دون ارتقاء الفتى الشرقي والفتاة الشرقية ارتقاء عقلياً ، وهما يشبان في مخادع الحرم على جهل شديد يتضاءل به الاستعداد الفطري ، وتضيق المدارك ، فهذا الأمر أخذ يحمل الآباء الشرقيين أولي الرأي والمعرفة ، على ارسال ابنائهم الى المدارس أبكر ما يكونون سناً للطلب والتحصيل ، انتشالاً لهم من تلك الحياة التي اذا طالت عليهم وهم في مخادع الحرم ، أفضت عليهم بالخمول وفتور كل قوة حيوية فيهم . ولكن هذه الوسيلة على الجملة لم يكن من شأنها سوى تخفيف الوطأة الواقرة ، لأن ما ينطبع في نفس الابن ويرتسم في لوح ذهنه وهو يرتضع ثدي أمه في السن التي يكون هو فيها أكثر طواعية ولينة منه في سائر العمر لأبقى أثراً من جميع ما يتلقاه الابن فيما بعد عن المعلم . فبهذا الاعتبار ، ما دام نصف الشرق لم تعمل فيه عوامل الارتقاء على الدوام ، فنهضة الشرق الاسلامي على الجملة تظل ناقصة بتراء ، ولا سبيل الى اكمالها مالم يشمل التهذيب الصحيح المرأة والرجل معاً في هذا الدور وكل دور مقبل .

ولكن ازدياد عدد النساء الشرقيات المهذبات ازدياداً متوالياً في كل قطر من الأقطار الاسلامية ، هو الدواء الناجع المبرىء من هذه العلة الكبرى

والمتمم للنهضة الشرقية . قال كاتب غربي في هذا الصدد : « علموا الامهات وهذبوهن تتبدل حالة المشرق تبدلاً تاماً من أقصاه الى اقصاه ، فان الفتيات متى ماتلقين معارف وعلوماً صحيحة مع مايحفظنه من السور والآي القرآنية استطعن أن يقمن بتدبير المنزل قياماً حسناً ، سواء كن بنات أم اخوات أم أمهات . ولاشك في أن النساء اللواتي تعلمن القبالة وأصول الطبخ والخياطة وقواعد عامة في علم الصحة في مدارس الاقتصاد المنزلي ، كانت حياة المنزل الذي يكونن فيه حياة طيبةً هنيئة ، في جو تذاق فيه لذة السعادة البيتية . ان الحياة القديمة التي كانت تقضيها المرأة فيما مضى جالسة على الديون لاهية ، لا تعرف شيئاً أكثر من تناول ضروب الحلواء آونة بعد أخرى ، وماجنةً مع الخوادم اللواتي حواليها تارةً ، وطوراً مع صواحبها الجاهلات مثلها ، قد انقضت وجاءت من بعدها حياة جديدة ، ترى فيها المرأة المهذبة رفيقاً لزوجها وشريكا اميناً ، لا عبدة له ولاسلعة بين يديه . وشأن الزوج آخذ في التبدل من كونه تجارة خسيسة لتماوض النساء كما تتماوض الأمتعة والعروض في الاسواق ، الى اتحاد زوجي وثيق العروة قائم على احترام المرأة من قبل زوجها وابنائها ، وهي صائرة في ظل هذه الحياة الجديدة الى أن تكون ربة مقام رفيع وشأن اجتماعي كبير » .

وفي هذا العصر الجديد ترى الرجل والمرأة تتبدل أفكارهما وآراؤهما تبدلاً ظاهر الأثر في انقلاب مستوى المعيشة ، المستوى الآخذ في الارتقاء تبعاً لتطور الآراء والافكار بطبيعة الحال . وهذا جميعه وان كان اظهر ما يكون في أهل الطبقات المثرية في المدن والحواضر ، فهو جار مجراه من الشيوع في جميع طبقات الشعب . فالشرقيون كافةً ، من غني وفقير ، وقروي ومدني ، آخذون في تبديل نمط معايشهم تحدياً بالغربيين ومحاكاةً لهم . وهذا التبديل يصحبه تطور اجتماعي بعيد الافق واسع الميدان . والسبب في ذلك ن بعض وجوه التباين والاختلاف بين الحالتين المقلع عنها والمنتقل اليها ،

لأشد تأثراً ومفعولاً من جاري الحالات المعتادة في طريق الحياة ، ذلك حق لا ريب فيه سواء كان في العالم الشرقي الحافل بالتقاليد الموروثة ، أم في العالم الغربي الحديث . وهذا التباين والاختلاف ليسا ناشئين كل النشوء عن أمر الغنى وبسطة الحال (لأن الشرق مثل الغرب من حيث الغنى الفاحش والفقر المدقع) بل بالأكثر عن وسائل الرغادة والرفاهية بمعنيهما عند أهل الغرب فالشرقي المثري في سالف العهد لم يكن غالب دأبه الا في تبذير ماله في سبيل الترف الشرقي المشتمل على الأثواب الفاخرة والألبسة الثمينة والجواهر الكريمة والنساء الغواني ، والخيول المهطمة ، والخدم والحاشية وغير ذلك ، وما كان ليعرف شيئاً من أسباب الرغادة الغربية الحديثة ، لهذا يصح القول في هذا المعنى ان الشرقي المثري فيما مضى كانت عيشته المنزلية على مستوى أقل مما يرضى به سواد الغربيين اهل الحرف والصناعات .

غير ان الشرقي اليوم طفق يعتاد أسباب الرغادة الغربية ، ويقبل على هذه الاسباب ما استطاع الى الاقبال سبيلاً . فالأشياء العديدة التي جرينا نحن على استعمالها ترفيهاً لحالنا وتوفيراً لراحتنا وهنائنا ، وهي شائعة في حياتنا شيوعاً لا غنية لنا عنه ، كالمصابيح ، والانوار الكهربائية ، والمطارز ، والساعات ، والجعة ، والمظلات ، وأدوات الصحة ، وكثير سواها ، باتت جميعها عند الشرقي اليوم من ضرورياته الجديدة التي لا يطيب له عيش بعدُ الا بها ، وهو لا ينفك يبتغي التمتع بضروبها واشكالها ويطلب المزيد منها . لكن اقباله عليها الى هذا الحد قد أفضى به بالتالي الى الوقوع في ضنك شديد ، وان رمت الوقوف على العلة فاعلم ان الشرقي ليس الاقتصاد من شنشنته ، ولا التوفير من طبعه ؛ فلما أخذت حاله تتبدل منتقلاً الى دور طافح بالحاجات الجديدة المستطابة والاسباب المستلذة ، كان لا بد بالضرورة من ارتفاع سويّ معيشته ارتفاعاً كبيراً ، فكيف يستطيع والحالة هذه ان يتوفر له المال الذي يكفيه نفقته الجديدة ؟ فاذا كان فقيراً تعين عليه ان يقتر

على نفسه تقتيراً ، لكي يتسنى له بذلك الحصول على قدر ما يستطيع من حاجاته الجديدة ؛ واذا كان غنياً شق عليه الاقلاع عن الترف الذي اعتاده ، وصعبت عليه مزايلة ذلك الطراز الذي ورثه من آبائه واجداده ، فنجم عن جميع ذلك زيادة في السرف وغلو في الترف . وفي هذا المقام ينبغي لنا ألا نغفل الحقيقه الراهنة وهي ان شعوب الشرق الادنى والاوسط على الجملة لم تكن يوماً بعارفة للاقتصاد من غاية ولا للتوفير من معنى . فالعامة من المشارقة ولو كانوا فقراء الى حد هم مكرهون به على رعاية الاقتصاد في النفقة ، هم والحق يقال مبذرون مسرفون متى ما تيسر لهم شيء من السعة والوفر . والطريقة التي يبذر بها الفلاح التركي أو الهندوي دراهمه الموفرة لاقامة الاعياد والمهرجانات والاعراس والمآتم وما أشبه ذلك ، تبذيراً يجره الى الرزوح تحت اعباء الديون ، مما يدهش له الغربي أيما دهش . أضف الى هذه الحقيقة ان نفقة الضروريات التي لا يستغنى عنها أهل الشرق ولا الغرب ، كالطعام واللباس والدفء والكن ، قد ارتفع مقدارها خلال العقدين الماضيين ارتفاعاً كبيراً ، نستطيع ان نتصور به مبلغ ما انتهت اليه الحال من الضيق والأزمة ، بما يقتضيه ارتفاع نسبة المعيشة في هذا الدور .

يتضح لنا من جميع ما تقدم ان التنازع في سبيل البقاء يتضاعف شدة ، والتناحر تزداد حلقاته استحكاماً ، بحيث ان الفلاح في حقله والعامل في معمله ، باق في هذه الحال التي قد ارتفعت فيها أثمان الضروريات المعدودة قوام الحياة ارتفاعاً لا قبل لهما باحتماله ، وأمسيا بعد ما اعتادا صنوفاً من الحاجات العديدة المستحدثة التي ما كانا يعرفانها منذ عدة عقود خلت اعتياداً جعلها لديهما من الضروريات ، يقاسيان أعظم ما يكون من القلة وضيق ذات اليد ، مماشاةً للحال وجرياً مع الدور . قال أحد الكتاب في هذا الشأن : « ان الاحوال الإقتصادية قد تطورت في الشرق تطوراً كبيراً لم يستطع معه المشارقة حتى اليوم القيام باعباء جميع الحاجات المستجدة عندهم بسبب هذا

التحول ، فازداد غلاء المعيشة ازدياداً أسرع سيراً من نمو الثروة فاتسع البون وطالت الشقة » .

ومن الاسباب الكبيرة في هذا البحران الاقتصادي السياسي الذي يجتازه الشرق اليوم ، تعاظم عدد القطين (وان كان هذا السبب غير متفق عليه لدى الجميع) فان الشعوب الشرقية مضروب المثل بميلها وبكور قابليتها للتناسل والتوالد . وهذا ليس ناشئاً عن شدة العاطفة الجنسية فحسبُ ، بل له اسباب اقتصادية كالانتفاع من شغل النساء والاولاد شغلاً قاسياً اداً ، وأسباب ناجمة عن التعاليم الدينية الحاملة على الزواج الباكر وكثرة النسل . لهذه العلة كانت الشعوب الشرقية دائماً في همٍ ناصبٍ من الدأب وراء مواد المعيشة ولو لم تنل منها سوى الكفاف . وقد كانت في الزمن الماضي طائفة من العلل الفاعلة من ذاتها في تقليل عدد القطين ، كالحرب وجور الحكومات ، والاوبئة ، والمجاعات ، جميع ذلك مما كان يجتاح البلاد اجتياحاً فيجرف في سبيله الخلق الكثير ، بحيث أن عدد الساكن كان على الجملة ، مع ارتفاع عدد المواليد ارتفاعاً كبيراً ، على نسبة كادت تكون سوية . ولكن لما كان للمؤثرات الغربية عمل عظيم في هذا الافق من الحياة الشرقية ، فقد تغيرت الحال من اساسها . فان امتداد التسلط الأوروبي السياسي فوق الاقطار الشرقية قد كان سبباً في وضع حد للمنازعات الاهلية ، وتقليل ظلم الحاكم ، وكفاح الأوبئة والامراض ، وتدارك وسائل دزء المجاعات [1] . وبعبارة أخرى ان

---

(١) على ان المجاعات المتعددة التي اجتاحت الهند منذ دخلها الانكليز بل في ايامنا نحن فضلاً عن المائة سنة التى خلت من زمان استيلائهم ، هي فوق كل تصور بشري . وقد نشرت احدى المجلات الايطالية منذ سنوات احصاء عن مجاعات الهند بهذا العصر ، وما جرفته من عشرات الملايين من الاناسي ، وتناقلته عنها الجرائد ، فكان شيئاً تورث قراءته القشعريرة والتياث النفس . واكثر السبب في ذلك هو سياسة الاستعمار المبنية على استئثار المستعمرين بالارباح والمكاسب واستنزافهم منابع الثروة الوطنية ببضاعاتهم وادواتهم ، وتركهم السواد الاعظم من الهنود حالةَ عليهم بحيث اذا احتبس المطر قليلاً ، او هبت على الزروع لافحة سموم فقلّ المحصول ، وارتفعت اسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الاهالي سوى الموت جوعاً أو بالامراض

العوامل التي كادت تكون من قبل سبباً في استواء عدد القطين مستوىً معلوماً ، قد تخففت أو تلاشت ، فكانت نتيجة جهد الحكومات الغربية في درء العوادي الطامة ووقاية الانفس من الهلاك ، ان قد هبط مستوى عدد الوفيات الذي كان هائلاً فيما مضى وحائلاً دون نمو عدد الساكن نمواً مطرداً ، الى حد قريب من مستوى عدد الوفيات ، بحيث صار المستويان متقاربين كما في أحوال الامم الغربية . على ان الطريقة الى اهباط عدد المواليد الذي ينمو ذلك النمو الفاحش لا علاقة له بمسئلة الوفيات ، لذا ما برح مستوى المواليد يتصاعد ويتعاظم حتى ضاقت الارض بقطينها على رحبها في غالب اقطار المشرق الممتد فوقها التسلط الغربي السياسي . ثم ان سائر الاقطار الشرقية التي احتفظت باستقلالها ، وأخذت من الوسائل الغربيــة بنصيب لوقاية الانفس وصيانة الحياة ، قد زاد عدد ساكنها زيادةً كبيرةً في قليل من الزمن كما هو الامر في غيرها من الاقطار [1] .

والبــلاد التي زخر فيها عدد القطين اكثر من غيرها هي الهند . فهذه

التي سببها سوء الغذاء ، لان الذي يأخذونه بدل عملهم لايعود كافياً لشراء قوتهم الضروري . ولو فحصنا في تاريخ مجاعات الهند ، أو مجاعات الجزائر التي منها المجاعة الحاضرة المستمرة منذ ثلاث سنوات ، لا تجد انكليزياً في الهند ولا فرنسوياً في الجزائر مسه الجوع أو مات سغباً ، فهو دليل كاف على ان الاستعمار هو من أعظم العوامل في مساغب المستعمرات . (ش)

(١) طالما زعم المستعمرون ان البرهان الساطع على عدم الظلم ، وعلى انتظام الادارة وتوفر الاحتياطات الصحية في مستعمراتهم ، هو ازدياد عدد الاهالي ، فهذه هي الهند قد ازداد سكانها كثيراً على ما كانوا قبل الحكم البريطاني ، وها هي جزائر الغرب كان اهلها مليوناً ونصف مليون يوم فتح فرنسا لها ، فصار فيها اليوم خمسة ملايين وهلم جراً . والحقيقة في هذه الزيادة انها نتيجة الشرائع والطبائع واساليب العيشة التي عليها الاهالي ، بدليل ان هــذه الزيادة جرى مثلها واعظم منها في تركية ومصر وبلاد العرب والافغان وغيرها من الممالك التي لم تتمتع « بنعمة الاستعمار » ولاعلا فوقها بساط تلك الرحمة .. فكل احد يعلم ان مصر لاول حكم محمد علي لم يكن فيها اكثر مما كان في الجزائر من السكان وها اهلها اليوم ١٤ مليوناً . فدعاوي المستعمرين من هذه الجهة ساقطة من ذاتها ، وهي من جملة تمويهاتهم العديدة لتغفل الناس عن حقيقة ادارتهم الغاشمة هناك ، ومما لاجدال فيه ان اهالي الجزائر لولا الاستعمار كان عددهم ضعف ماهو اليوم ، وقل ان تقول مثل ذلك عن سائر المستعمرات . (ش)

البلاد لم يبرح غالبها خاضعاً للتسلط البريطاني مدة تقرب من قرن . وكانت كلها من قبل ذلك العهد كثيفة الساكن ، ثم ازدادوا خلال القرن الاخير ضعفين أو ثلاثة [1] . ومن المعلوم البين ان هناك عوامل كالزراعة الحديثة والري والقطر الحديدية والآلات الصناعية الحديثة ، كان من شأنها توفير استعداد الهند لكيلا تضيق بزيادة أهلها هذه الزيادة الفاحشة ، وهذا هو السبب الذي جعلها ارحب لقبول الزيادة بعد الفتح البريطاني منها قبله ، ولكن النتيجة واقعة على كل حال وهي هذا التعاظم الهائل . وكاد جميع العلماء من أهل الخبرة والثقة يتفقون على هذه الحقيقة التي لا ريب فيها . قال « دوق ارغيل » منذ أربعين سنة : « ليست كثرة النسل والولد في البلاد التي أهلها على قلة بصر بادخار المؤن والأقوات وليس فيها غنى ولا ثروة ، ويعيش أهلها على الكفاف من فصل الى آخر ، دليلاً على الدعة ورخاء العيش » . وعند آخر القرن الماضي تكلم السر وليم هنطر على قضية تزايد الساكن في الهند فاطلق عليها اسم « القضية الاساسية الكبرى » وفي هذا الصدد قال : « من نتائج الحكم المدني في الهند تعاظم عدد الساكن الى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، حتى بات من الحقيقة التي يؤيدها الاحصاء الهندي كل التأييد ان ازالة النوائب المجتاحة والنوازل الفادحة التي كانت تنتاب الشعوب الاسيوية على التوالي لهو كل البركة والخير » . وقال اللورد كرومر في كلام له على فاقة الهند : « وليس الامر كله مقصوراً على ان الفاقة لا تستطاع ملاشاتها بسلاح حب الانسانية فحسب ، اذ من الثابت ان حب الانسانية على الاطلاق هو سبب في تعاظم الشر واستفحال البلوى (ولو بدا هذا القول غليظاً متناقضاً ما بدا) . ففي عهد « اكبر » و« شاه جهان » كانت الأوبئة من الهواء الأصفر والمجاعات سبباً في تناقص القطين تناقصاً جعل الحياة عهدئذ حياة تنازع في سبيل بقاء

---

(١) في أوائل القرن التاسع عشر كان مقدر قطين الهند ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فبلغ ٣١٥،٠٠٠،٠٠٠ على ما افاد احصاء سنة ١٩١١

الأنسب . أما الآن فقد قضي على هذا التنازع والتناحر ، ثم جاء سلاح حب الانسانية ونزل منزلةً من عمران البلاد امتنع معها ذهاب ضحايا الانفس وهراقة الدماء ، فازداد عدد الساكن زيادةً فائقةً ، حتى بات جانب كبير من أهل البلاد يعيشون على الكفاف بجهد وعناء [1] . الحقيقة أولى ان تعلم ، وهي ان الصعوبة في حكم الشعوب الشرقية الكثيرة التوالد والتناسل لناشئة عن الحكومة الصالحة المشتملة على عاطفة حب الانسانية ولا ريب في هذا الامر الذي تجاهلناه من قبل غير مرة » .

وقد اجاد « ولبم اليشر » في تبيان القضية في جوابه على المسألة : ما هي العلة في ان ترقّي الأحوال الظاهرة لم يفض بالهند الى محجة النجح والفلاح ؟ اذ قال : العلة في رأيي انما هي بسيطة لا تدعو الى كثير استقصاء . فان المنافع الحاصلة والفوائد المجتناة من الحكومة الصالحة هي اشياء لا قيمة لها البتة في بعض المواضع ، اذ شأن الشعب الذي تكون فيه تلك الحكومة ، ان يستعين بها لا لترقية مستوى معيشته وتحسين أسلوب حياته ، بل للاكثار من النسل والذرية حتى يغدو ذو العائلة مستغرقاً في العيلة والفقر ، لا يصيب من الرزق سوى ما يسدّ الرمق . نعم ، ابان هنري جورج ان كل فم واحد يخلق في هذا العالم يخلق معه يدان اثنتان . ولكن مع ان هذه الحقيقة الفسيولوجية لا تنكر ، فان الاستنتاج الذي يستنتجه الاقتصادي من هذا القول ، وهو ان مقدار انتاج اليدين يقتضي ان يفوق مقدار ما يستهلكه الفم ، لا يصدق من الوجهة الاقتصادية الاّ في المواضع التي تنطلق فيها اليدان عاملتين عملاً مثمراً نافعاً .... ولكن ان زادت الافواه الآكلة على الايدي العاملة فالمصير هو لامحالة الى فقر مدقع ومسغبة شديدة » .

---

(١) فتش في معيشة الكفاف هذه ـ في بلاد غنية في طبيعتها كبلاد الهند ـ عن آفة الاستعمار، وسحب ثروة البلاد الى الخارج ، لاعن وفرة حب الانسانية ..... الذي امتاز به المستعمرون.. والذي لو قدرنا وجوده من جهة لم يسد شيئاً من الخرق الذي تخرقه سياسة الاستعمار في الثروة الوطنية . وهل يوزن الخردل بالجندل ! (ش)

على انه من نكد الطالع ان المفكرين الذين يوقنون بأن زيادة القطين هذه الزيادة الفاحشة هي السبب الاشدّ في فاقة الشرق والضيق النازل به ، هم عدد قليل بل جميع ارباب النظر، يردون السبب المذكور الى العوامل السياسية وبالأخص الى السيطرة الغربية السياسية . ولم نعرف الى اليوم سوى مفكر شرقي واحد أزاح النقاب عن محيا هذه الحقيقة فجلاها لبني قومه بدون محاباة، وخاض في هـذا الحديث مقترحاً بالحاح ان ينشأ نظام يتعين به مستوى المواليد ، وهذا الـكاتب الحـكيم هو ب . ك . وطال الهندي ، أحد الموظفين الوطنيين في ديوان المالية في حكومة الهند ، وضع كتاباً ، هو باكورة المؤلفات الشرقيـة من هذا النوع ، ووسمه « بقضية القطين في الهند [1] » ونهج فيه منهجاً دلّ على اقتداره وطول باعه وبعد بصره بالأمور . فجاء الـكتاب دليلاً على ان المشارقة شرعوا ينتبهون الى قضيـة هي من جلالة الشأن بمكان ، بل هي من أعظم قضاياهم الحيوية .

استهل المستر وطال كتابه بنداء بني قومه ان يعيروا الامر اهتماماً ويقدموا على علاجه علاجاً صحيحاً لا تحيف فيه ولا اضرار ، ومما قاله : « أريد ان يعلم كل قارىء ان الغرض المتوخى في هـذا الـكتاب ليس الطعن في حضارتنا الروحية الشرقية ، ولا اعلاء شأن الحضارة المادية الغربية ، سواء أكان مباشرة أم ضمناً ، بل ان الغاية المقصودة هي انه يجب علينا ان ننتبه جد الانتباه الى مسئلة اساسية فنستبطنها ونتحرها علماً ، ونكتنه باطنها ونجلو غامضها ، ألا وهي قضية المعيشة ، وكيف نبتغي اسباب الرزق في هذه الدنيا . لاينكر اننا شعب فقير ، ولفقرنا هذا الذي نعانيه أسباب عديدة أريد ايضاحها ايضاحاً شافياً كيما يطلع عليها كل مواطن من بني بلادي ، سواء أكان ممن لم تصبهم النائبات يوماً ولا ذاقوا من العذاب في سبيل المعيشة ، أم ممن قد نالهم الضنك

---

(١) المستر وطال هو من موظفي ديوان المالية فى الهند يشغل منصب معاون المحاسب العام. نشر كتابه سنة ١٩١٦ وطبع فى بومبيء .

بهذا السبب وعضهم الفقر بنابه ، ولكن ذلك لحسن الطالع ما كان بالعقبة الكأداء الحائلة دون ادراك النجح والفلاح لاسباب دربتها العناية . ان هذه القضية لقائمة بذاتها ، وهي حقيقة مشهودة وواقع محسوس ، ولا علاقة لها البتة في شأن من شؤون السياسة أوالدين . ياقوم ! أاذا كنا قد عانينا الامرين من جراء نتائج تلك الخطيئة ، أليس من الواجب علينا بعد ذلك كله ان نبادر للتخفيف من وخامة العاقبة وتدارك الشر قبل استفحاله وقاية لنا ولاولادنا من بعدنا ؟ ان أكبر بلية في الأرض لهي الفقر والفقر أبو البلايا [1] . أقول هذا صريحاً ، على اجلال وتعظيم لحضارتنا الروحية ، وغير مزيد تنقص الحياة الزوجية على الاطلاق ، بل انما غاية غاياتي في هذا الكتاب ان انادي بني قومي ان يحفلوا بهذه القضية الخطيرة الحيوية ، وقد حملني على ذلك وقوفي التام على ما هو منتشر في البلاد من ضروب الشقاء والعذاب الناشئين على كثرة النسل والولد ، وشعوري العميق بما يقاسيه جانب كبير من بني وطني ذوي الشأن والمكانة ، من النصب والمضض في ابتغاء اسباب الرزق ، لهذا كان من الواجب عليّ ان أبين الكلام بدون محاباة ولا تردد وأوضح اسباب شقاء الناشيء الهندي وما ينتابه من الضيق الخانق والعسر المستحكم ، وهو على هذه الحال لا يسعى في النجاة من ذلك سعياً يرجى به الخير القريب ودرء البلاء » .

ثم يشرع المستر وطال بعد هذا النداء ، بالبحث فيقول ان السبب الكبير في تعاظم عدد القطين في الهند هو الزواج الباكر . ففي البلاد الأوروبية لا يبلغ هذا التعاظم مثله في الهند لأن الزواج الباكر ليس معروفاً في تلك البلاد ، ولأن لنسبة المواليد متراوحاً معلوماً . « اما الزواج عند الهندويين فواجب ديني مقدس لا مفر منه ، سواء أكان الزوجان أهلاً له وللقيام بتبعته ، أم كانا غير ذلك دون ان يدركا للحياة الزوجية من معنى ، فالابن الهندوي يجب عليه أن يتزوج وينسل الاولاد العديدة لكي يقوموا

(١) من الاحاديث النبوية الشريفة : «الفقر الموت الاكبر.» و«كاد الفقر يكون كفراً ».(ش)

بالشعائر الدينية عن نفسه عند موته ، فاذا لم يكن ذلك ، راحت نفسه بأنسة شقية تهيم في القفر . فان مجرد اسم الابن وهو « بوترا » معناه المخلص لنفس أبيه من جهنم التي اسمها « بوثا » . والبنت الهندوية العذراء اذا أدركت سن البلوغ فلم تتزوج بعد ، كانت عاراً وشناراً اجتماعياً على أهلها ولعنةً ابديةً حلت باجدادها واسلافها . وهـذه الحالة في أمر الزواج تكاد تكون عند المسلمين الذين وان كانوا لا يعرفون شيئاً من مثل هذه التعبدات والاعتقادات فانهم يقتدون بالهندويين . وهناك سبب آخر ناشيء منذ زمن بعيدعما كانت قد اقتضته الحالة الاجتماعية أيام الفتوحات الاسلامية اذ كانت الزوجة عهدئذ ضرورة من الضرورات لتقوم بالخدمـة البيتية ولتساعد زوجها في حرث الحقول والاشغال اليدوية » . وشر البلية ان الزواج الباكر ، أعني زواج الاولاد دون سن الرشد ، لم يزل شائعاً ومتزايداً حتى اليوم ، على جميع مابذل من الجهد الكبير في الاصلاح الاجتماعي . فقد افادت ارقام الاحصاء لسنة ١٩١١ ان خلال العقد الأول من القرن العشرين زاد عـدد الزوجات الاناث ذوات الاسنان ٠ — ٥ من ١٣ الى ١٤ بالالف ، وذوات الاسنان ١٠ ـ ١٥ من ٤٢٣ الى ٤٣٠ بالالف وذوات الاسنان ١٥ ـ ٢٠ من ٧٧٠ الى ٨٠٠ بالالف . وبعبارة أخرى ان في سـنة ١٩١١ كان أكثر من العشر من كل ألف من بنات الهنود متزوجات دون سن العاشرة ، ونحو النصف متزوجات دون الخامسة عشرة وأربعة اخماس متزوجات دون العشرين » .

لهذا السبب ارتفع مستوى المواليد ارتفاعا هائلا . قال وطال : « غـير أن هـذا الارتفاع ما كان للبلاد أمراً تغبط عليه ولا تسر له . اننا قد عرفنا أسـباب ارتفاع مستوى الوفيات فجعلنا نتداركه بوسائل التخفيف ، ولـكن هل يعقل أننا نستطيع احتمال هذه الحال طويلا ما دامت جارية هذا المجرى بحيث أن مستوى المواليد يبلغ ٣٠ بالالف ومستوى الوفيات هابط الى حدّ يقرب من ذاك الذي في انجلندة وسـكوتلندة ؟ أترحب بلاد الهند بزيادة

الساكن ٢٠ بالالف كل سنة ؟ اننا بلا ريب نلقي جزاء مراً على جلبنا الى هذا العالم نسلاً أكثر مما نستطيع حقا القيام بعوله وتربيته . فان رمنا ارتفاع مستوى الوفيات في البلاد وجب علينا إهباط مستوى المواليد الى الحد الذي يتساوى عنده مع السويات النازلة في البلدان الاخرى . من هذا يعلم أن ارتفاع مستوى المواليد في الهند هو علة بلائنا وأصل شقائنا ، وسبب هذا الخطر الاجتماعي الهائل الحائق بنا . فارتفاع مستوى الوفيات وان كان من دواعي الاسف فهو ناشيء بطبيعة الحال على ارتفاع مستوى المواليد ».

ثم يصف المستر وطال مستوى الوفيات الهائل ، ولا سيما وفيات الاناث مما غالبه ناشيء عن الولادة الباكرة . ويصف أيضا وفيات الاطفال التي تقشعر منها الابدان اذ نحو ٥٠ بالمئة منها سببه الاسقاط والاجهاض . هذا جزاء الزواج الباكر ، الجزاء الوفاق ولا بد منه .

« اذ يجب على كل شخص في الهند ذكراً كان أم انثى أن يتزوج سواء كان صالحاً لذلك أم لم يكن .. لهذا ترى الصبيان والبنات يصبحون آباء وامهات ابكر ما يكون » . على أنه من المعلوم أن الزواج الباكر هو غاية ما بعدها غاية في الضرر ، ومفسدة لضلاعة الجنس وصحة الجرثومة وقاض على سلامة المزاج . وهذا الزواج الباكر هو أشيع ما يكون في العناصر الدنيا من أهل البلاد الاصليين « كالبارياه » والمنبوذين . وقد بات من الواقع أن حيوية أهل الهند على الجملة أخذت تنحط وتتدلى . وتفيد أرقام الاحصاء أن عدد المسنين والشيوخ في تناقص وهبوط . وتؤيد ظواهر الحال هذه الحقيقة ، اذ غدا من يعمرون ويهرمون أقل من القليل في بلاد يبلغ عدد ساكنها مئات الملايين ، قال وطال : « ان الجيل المقبل تعتوره آفات شديدة وهو في طلائع الحياة ، فالاعمار تقصر ، وحبال الحياة تتصرم ، وشيوخنا اليوم أقل منهم بكثير منذ ثلاثين أو أربعين سنة . فهل تأملنا في جسامة الخطر الحائق بحياة الامة جمعاء ، وتبصرنا في اعداد الوسائل التي

نستطيع بها درء ذلك ؟ ان الوطنيين الشيوخ الذي هم وحدهم يستطيعون بطول خبرتهم وواسع حكمتهم وسديد رأيهم ، تولي مناصب الامر والنهي ، والقيام بالشؤون العامة الكبرى في البلاد ، بات الموت يختطفهم الواحد تلو الآخر . ففقدت مصالح التدبير والقيادة والزعامة والارشاد في بلادنا ، المصالح التي لا يقوم بها في بلاد الغرب غالباً الا اخو النهى الراجحة واصحاب الحنكة العظيمة ، يتولاها عندنا فتية لم تصقلهم التجربة والخبرة ولا كسبتهم الايام حنكة صادقة ولا بصيرة نافذة ».

وبعد ان أنذر المستر وطال ابناء بلاده بأن ترقية الطرق الزراعية ، ونمو الصناعة والهجرة من مقاطعة الى أخرى ، كل ذلك ليس من شأنه انقاذ البلاد من شر هذه الزيادة في عدد القطين ، الزيادة التي بات بسببها غالب أهل البلاد لا ينالون من الرزق اكثر مما يسد خلتهم وينتشلهم من انياب المسغبة ، أشار الى ظهور بعض التباشير الحسنة الدالة ، مع شدة رسوخ الدين والعادات ، على ان أهل البلاد شرعوا يدركون خطر الحالة ، وعلى ان هناك أمارات في بعض البلاد تنبىء بأن مستوى المواليد أخذ يكون عند حد . ومثال لذلك فقد اقتطف المستر وطال من البيان الرسمي لاحصاء سنة ١٩٠١ هذه العبارة المشيرة الى شيء من الهبوط في مستوى المواليد في بنغال : « ليس تأخير الزواج هو كل السبب في تناقص المواليد ، بل من جملة الاسباب الرغبة في تقليل النسل رغبة ناشئة عن تبصر وروية . . . . ومما هو جدير بالملاحظة ان بعض الطوائف في « أسام » قد شاعت فيهم عادة استعمال الوسائل لاسقاط الحمل » . وجاء في تقرير اللجنة الصحية في « أسام » سنة ١٩١٣ : « يظهر ان السبب الخطير في هبوط مستوى المواليد ناشيء عن اختيار ورغبة في تقليل النسل » .

على ان هذه التباشير واللوائح الدالة على صيرورة مستوى المواليد

متراوحاً في حدود محتملة انما هي موضعية ، فليست بالوسيلة الكافية لانقاذ الهند من خطر جاوز الحد . فالحالة تدعو الى مزيد التبصر بالعاقبة وتقتضي السرعة في اتخاذ الذرائع الناجعة . قال المستر وطال : « ان النتيجة لواقعة دون مردّ ، فلا نستطيع بعد التغاضي عن هذه الآفات الاجتماعية التي تقرض جسم الأمة . فلنعلم ان الآلة المحركة قد حلت محل عجلة الثيران في بلادنا بحيث بتنا بسبب هذا التغير نتنازع البقاء مع الشعوب الأوروبية وهي أشد منا حولاً وأرقى سوياً ، فلا نستطيع بعد ان نقول لهذه الشعوب ما قال ديوجينوس للاسكندر « حدْ من شمسي » . ومن الراجح ان سيعود أهل العلم بعد ان تضع هذه الحرب العالمية اوزارها فيبحثون في مسئلة زيادة السكان ، وربما ذهبوا في آرائهم الى الرغبة في تحبيذ الزواج الباكر وتكثير النسل تعويضاً عما اجتاحته الحرب من الانفس ، ولكن ذلك أولاً ليس من طبيعته تسوية قضية الساكن في بلادنا ، وثانياً سيكون رد الفعل الذي يدعو اليه أهل العلم قريب الاجل » .

والكتاب حافل بمثل هذه الحقائق الجلية . وعدا ذلك فلا نغفل عن ان الهند وان كانت اكثر البلدان عناءً من زيادة عدد الساكن فالحالة في سائر الاقطار الشرقية مثلها في الهند ، اذ ان التبصرّ في تحديد مستوى للمواليد مفقود من الشرق كله . وهناك الى جانب هذا الازدياد في عدد الاهلين ، تلك الشرور الاجتماعية والاقتصادية التي تقدم الكلام عليها . لهذا نرى فقراً شديداً ، وضعفاً بيناً مرافقين هذا الدور دور التطور والانقلاب في جميع اقطار المشرق .

على ان المشارقة جميعاً ، سواء كانوا من سكان المدن أم من أهل الرساتيق والقرى يكادون لا يجاوزون في ابتغاء الرزق حد الكفاف . قال الاقتصادي الانكليزي برا يلسفورد يصف حالة الفلاح المصري : « ان مناظر الفاقة التي

رأيتها في القرى لم أشاهد مثلها قط في جبال مكدونية ولا في بقاع دونيغال . . . فهذه القرى في مصر انما هي ركام من الاكواخ المبنية من الطين ، لا يتخللها اشجار ولا ازهار ولا غياض ولا جنان ، والاكواخ من الداخل ليست مستوية الارض وليس لها نوافذ فهي أشبه بالسراديب الصغيرة مؤلفة في الغالب من غرفتين صغيرتين غير مشيدتين بالجص ولا مفروشتين بالبسط والطنافس . اما الاكواخ التي دخلت اليها فلم يكن فيها من الأثاث والماعون سوى بعض أدوات الطبخ وحصير يقوم مقام الفراش وجرة مملوءة من طعام الذرة » . وقال موظف بريطاني من موظفي مصلحة الصحة في الهند يصف حالة الفلاح الهندي : « لا بد للرائي ان يرى كل عائلة تسكن مخدعاً صغيراً جدرانه وأرضه من الطين ، مشتملاً على ساحة صغيرة امامه ، فيها الاقذار كوماً هنا وهناك ، وزريبة الماشية ، وبئر تملأه الامطار والمياه الجارية اليه من على وجه الساحة الوضرة . وهذه الاكواخ لصيق بعضها ببعض بحيث تتألف منها قرى ومدن كبيرة على هذه الصفة » .

والحالة في المدن شر منها في الاقاليم ، لأن مزدحمات المساكن في مدن الشرق تفوق تلك التي في مدن الغرب . وقد وصف الكاتب الفرنسي لويس برتران هذه المزدحمات في بعض مدن الشرق مثل القاهرة والقسطنطينية وبيت المقدس وصفاً وافياً يضيق المقام عن ايراده كله فنجتزيء بذكر بعضه. قال الكاتب في شأن مزدحم المساكن في القاهرة : « لعل الخصاصة والفاقة في بيوت الطبقة الفقيرة في القاهرة وسائر بلاد مصر أشد منها في سائر الاقطار الشرقية ، فمثل هذه البيوت مؤلف في الغالب من غرفتين أو ثلاث لا نوافذ لها لدخول نور الشمس والهواء النقي ، متصلة بايوان لا يقل ظلمة عنها ، وترى الدمام يتساقط من السقوف ومن الواح الجدران الخشبية النخرة على أرض المسكن الوسخة . والهوام والحشرات مستقرة على الحصر والفرش » .

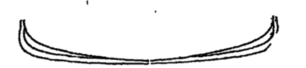
وهكذا الحالة في الهند . قال فيشر : « كانت قد نشأت قضية ازدحام السكان وقد اشتد التشاح على السكنى في مدن الهند قبلما أخذت الصناعة في النشوء والنمو المطرد. فلما انتشرت المعامل الصناعية باتت الوف من العمال والعاملات ، يشتغلون ليل نهار ، بحيث لايستطيعون بعد الفراغ من عملهم الابتعاد كثيراً من المعمل للمبيت بسبب نهاكة قواهم وشدة اعيائهم ، فلذلك تراهم يعيشون في البيوت والمساكن القريبة المطبقة بعضها فوق بعض وهم يزدحمون فيها ازدحاماً شديداً ، واذ لامتسع لسكنى الجميع فمن منهم لايتيسر لهم المبيت في هذه البيوت القريبة ، ينتشرون في الاسواق ويتخذونها بيوتاً ومساكن . وقد بلغ ثمن الفدان الواحد من الارض حيث الاماكن الغاصة في كلكتا منذ عشرين سنة (اى منذ سنة ١٩٠٠) ٢٠٠،٠٠٠ ريال » وقال كاتب غربي يصف كلكتا بانها منقطعة النظير في سوء الحال في الشرق « العمال على اختلافهم يعيشون في المزدحمات الفاسدة الهواء عيشة أشبه بعيشة الخنازير . فالبيوت انما هي منتشر الأبخرة الضارة ، والبلاليع والأفنية ملأى بسوائل الأوضار والفضلات . والطرق متدمنة بما ارتمى فوقها من الأقذار . والابقار تشرب من الآبار المستقرة فيها تلك الأوساخ. وليست الافران والتنانير باقل سوءاً من سائر مرافق المساكن » . والحالة في سائر المدن والمراكز الصناعية في الهند على غرار واحد . فقد ذكر موظف وطني من موظفي مصلحة الصحة في تقرير له بشأن مزدحمات المساكن في بومبيء سنة ١٩٠٤ ما يأتي : « في هذه البيوت والمساكن التي هي منشأ الجرائم المختلفة ، ومرتكب الجرائم ؛ ومستقر الامراض والاوبئة والفاقة والرذيلة ، يعيش اناس فيهم المارض والفاجر ومدمن الخمرة والجاهل والغبي ، قطعاناً أشبه بقطعان الحيوانات في زرائبها ، يزحم بعضهم بعضاً ».

زد على ذلك ان الحالة في المدن تزداد سوءاً لاتحسناً كما هو ظاهر . يتضح

من جميع هذا ان قضية ازدحام الساكن تعظم شأناً أكثر من اية قضية سواها في الشرق . ففي مفتتح هذا القرن كان الازدحام في المدن التي هي اليوم مراكز صناعية في الهند مثل كلكتا وبومبيء ولكناو ، على نسبة تفوق نسبة ازدحام لندن ثلاثة اضعاف . ثم جاءت الحرب الكونية العامة فاقامت وأقعدت . وزادت ضائقة السكنى شدةً . وقد كان من شأن هذه الحرب العامة في الشرق كما في الغرب أن سببت استحكام حلقات الضيق حتى تلاشت به اسباب الكسب وضاقت ابواب الرزق ، فتغيرت الحال . ، فباتت الألوف المؤلفة من الخلق تؤم المدن والحواضر ابتغاء وسائل المعيشة فاكتظت هذه بمن لجأ اليها ، ووقفت أعمال تشييد المنازل والبيوت والمساكن بسبب غلاء الاجور والاثمان والنفقة غلاء فاحشاً غير مسبوق المثيل ، فنجم عن جميع ذلك ارتفاع أجور السكنى الى حد غير محتمل مما وافق هوى اصحاب العقار ، فانطلقوا يستنزفون اموال الناس بهذه الوسيلة وامثالها . قال فيشر : « قد ارتفعت أجور المساكن ٣٠٠ بالمئة ، ولم تر الحكومة من ذريعة للقضاء على ذلك فاضطرت الى مماشاته بما سنته من القوانين ووضعته من الانظمة . فاجتمعت الوف الناس في بومبيء يحتجون على هذه الحال ، الامر الذي حمل الحكومة على اتخاذ التدابير المانعة لزيادة استفحال الاجور ، فعينت الحد الاعلى لها فيما يتعلق بمساكن العمال واهل الحرف والمهن . ولكن هذا العمل ان هو الا من قبيل تخفيف الوطأة وليس من شأنه ان يزيد عدد المساكن والمنازل » .

ولا يندّن عن البال ان غلاء أجور السكنى هذا الغلاء الفاحش انما هو جزء من جملة الضيق الذى عمت بلواه الحياة باسرها وهو ماانفك يتصاعد في الاقطار الشرقية منذ عشرات من السنين ثم شرع يستفحل منذ سنة ١٩١٤ . كتب برّان في وصف الحال في الشرق الادنى منذ بضع عشرة سنة فقال : « اينما كنت أسير في الشرق الادنى ، في القسطنطينيه أو ازمير أو دمشق أو

بيروت كنت اسمع التذمر من شدة غـلاء المعيشـة من جميع الجمهور وطنيين وأجانب » . اما الحالة اليوم فادهى وأمر . قال السرڤالنتين تشيرول في وصفه الحالة في مصر منذ الحرب : « ان ارتفاع أجور العمال هـذا الارتفاع الهائل لم يكن على مقدار متناسب مع غـلاء الاسعار ، بحيث ان العامل غـدا لايستطيع مماشاة السوق واصبح عاجزاً عن تحصيل ضروريات المعيشة ، وهذه الحال هي اشدمايكون في المـدن والمراكز الصناعية ، حيث اهـل الطبقات الدنيا من عملة وساقة وحوذيين وباعة وغيرهم لاطاقة لهم البتة على احتمالها » . فنشأت عن هذه الحالة العامة البلوى ، الشادة للخناق ، المستحكمة عرى الضيق ، مظاهر فساد الاخلاق كشرب الخمر وانتشار الفجور وارتكاب الاجرام والجنايات . وقامت دلائل عـديدة على نشوء القلق الاجتماعي والاضطرابات الثورية والهيـاج الفكري ، مما نبسـط الـكلام عليـه في الفصل الآتي .



الفصل التاسع

في

القلق الاجتماعي والبُلشفيّة

ان القلق والاضطراب ، هما المصاحبان الطبيعيان للتطورات والانقلابات. لا سيما الفجائية منها . فكل انتقال من حالة قديمة الى أخرى جديدة ، وان كان ذلك من القسم المعتاد ومما لا بد منه ولا مندوحة عنه ، من شأنه ان يتكيف بالضرورة على مقتضى تلك الحالة الجديدة التي من خصائصها الشعور بالاختلال والاضطراب الى أجل ما ، الى أن يجري التكيف الى مستقر له وتستحكم صبغته ويثبت لونه . فلذلك ليس في القلق المرافق للتطور شيء من الغرابة ، ولا ذلك التطور بجملته خارج عن السنة الطبيعية ، بل القلق مستقر في طبائع كل مجتمع من المجتمعات البشرية التي لم تنته الى الدرك الاسفل من الانحطاط والتدلي بعد . ثم ان هذا القلق اذا كان على مقدار قليل اعتبر دليلاً على الارتقاء الاجتماعي الصحيح ، وبرهاناً على النمو العمراني السليم . ولا يصح أخذه أمارةً من أمارات الاعتلال ولا علة من علل السقم . واعتبر فوق جميع هذا انه اذا كان هذا القلق ضيق الدائرة بحيث لم يجاوز الحد الأدنى ، فلا يعرف في الغالب هذه المعرفة التي ذكرناها ، ولا يفهم على هذه الصفة ، بل يعتبر عارضاً من جملة العوارض المسببة عن النشوء الطبيعي والارتقاء المعتاد . وفي مثل هذه الحالات يعمل الجهاز الحي في الجسم الاجتماعي عمله ويقوم بوظيفته ، على حد ما يعمل الجهاز الحي في جسم الفرد الانساني ، وهي ابداً دون انقطاع في دثور وتجدد واضمحلال وظهور ، ايلافاً لتطورات الحياة ، وملائمة لبيئتها على ما يقتضيه عامل التكيف . ولهذه التحولات على الجملة شأن خطير . وهي من التدرج والسير شيئاً فشيئاً بحيث انها تحدث وتتم

على صورة يكاد لا يشعر بها ، ووجه لا يدركه الا المستبطن الحكيم والعارف اللبيب . فالعضوية الحية السليمة ، الصحيحة العنصر من حيث هي ، الملائمة لمقتضى البيئة ، انما هي على الدوام قابلة للتكيف والتبدل ، ومستعدة استعداداً طبيعياً لاتخاذ شكل جديد واكتساب صورة غير صورتها المعهودة ، وهي بسائق السنة والهداية تسير في سبيلها متلمسة بمشاعرها التطورات التي تقضي بها عليها البيئة ، وتستوي معها بالملائمة وتجانسها بالايلاف ، حتى تكون سالمةً من شائبة الاختلال ، ناجية من الفوضى وعواقبها الضارة ونتائجها المفسدة .

ولكن ليست كذلك صفة القلق الناشيء عن التبدل العنيف والتغير المفاجيء . فان التبدل والتغير اللذين من هذا النوع يدلان على تطور سريع ، يحدث ويجري مجراه ساحيا جارفاً ما هو امامه ، وانقلابٍ بديه من القديم الفاني الى الجديد الواقع ، فيعتل التكيف ويختل التلاؤم ، اللذان تقتضيهما عوامل البيئة الجديدة ، لقصر مابين الاضمحلال والفناء ، والظهور والكيان. ذلك بعبارة أخرى ، ان القلق العنيف ، الشديد الحركة ، دليل لا مشاحة في صحته على الاعتلال الاجتماعي ، المنذر بامكان وقوع البحران ، والذي يظهر في المجتمع على حين غفلة ، ذلك البحران المعروف « بالثورة » .

ان تاريخ الشرق الاسلامي ليصح أن يتمثل فيه معنى المفاجأة الذي تقدم فقد كان عصر تكوّن الحضارة العربية ونشوئها متصفاً بسرعة التطور والانقلاب الفكري العظيم ، وتلك فرقة المعتزلة قد اشتملت تعاليمها [1] على ضروب عديدة من منازع الافكار والآراء ، حتى ذهب الغلاة من هذه الفرقة في تعاليمهم الدينية والسياسية والاجتماعية مذهبا تجلت فيه خصائص الانتقال الفجائي ، والاستحالة الثورية العنيفة . غير أن ذلك العصر ، عصر الانقلاب والتغير ، والتطور الى حد بعيد ، قد كان قصير الامد . فلما

(١) اقرأ التعليق الوارد على المعتزلة في آخر هذا الكتاب. (المعرب)

تستطع الحيوية العربية والروح الاسلامية بما فيهما من العوامل ، أن تخمرا ما كان في الشرق القديم عهدئذ من القوى النامية المكتنفة بطبائع وأمزجة مختلفة تخميراً باقي الاثر طويلا . لهذا لم تلبث السنن التقليدية أن عادت فانتشرت وتمكنت ، وعليها غشاء من أثر التطور العرضي ؛ والعناصر الاصلية لتلك السنن ظلت على صفتها دون أن يتناولها مؤثر يغير من جوهرها . ثم أخذت الحضارة العربية ، وقد عراها جمود وكهامة ، وفشا فيها الانحلال ، تتقلص وتنقبض ، فتلاشت بواعث التطور وسكنت عوامل التغير وضعفت روح التجدد ، واضمحلت العلامات الدالة على سير الانقلاب ، ولم يبق بعد طموس معالم تلك الحضارة الا تقاليد الغلاة ، تلك السنن التي احتفظ بها في بعض المواضع العربية ، وكانت تتحدر تحدراً خفياً في بعض الاقوام كفرق الخوارج [1] الناهضة من قلب شبه الجزيرة ، ودراويش البكطاشية [2] غير أن هذا جميعه لم يزد على كونه من العوارض المستترة ، دون أن يكون لها أهمية كلية .

فلما تبدت تباشير اليقظة الاسلامية في مفتتح القرن التاسع عشر ، طفقت الدلائل تكثر على تجدد الحركة الاجتماعية ، وظهور ما في الهيئة الاسلامية من القوى بعد هجعتها الطويلة . فنشأت الوهابية ولم يكن غرضها الاصلاح الديني فحسب ، بل الاجتماعي أيضا ، فشرعت تنعي على المجتمع الاسلامي المعاصر انحطاطه وتدليه ، وتنزع منزعا شديداً الى القيام بالاصلاحين معاً . وفي كثير من حالاتها اتخذت الوهابية الفتنة أو الثورة الاهلية شكلا لخروجها على الحكومات الحاضرة . ومثل هذا كان غرض الحركة البابية [3] في ايران الحركة المشابهة للوهابية في الغاية ؛ وبين منشأ الحركتين عهد قريب .

(١) اقرأ التعليق الوارد على الخوارج في آخر هذا الكتاب . (المعرب)
(٢) اقرأ التعليق الوارد على البكطاشية في آخر هذا الكتاب . (المعرب)
(٣) اقرأ التعليق الوارد على البابية في آخر هذا الكتاب . (المعرب)

ومن المعلوم أن هـذا القلق المتجدد في العالم الاسلامي كان الباعث له والسبب فيه هو تدفق المؤثرات الغربية من آراء وأفكار وأساليب في كل أفق من آفاق الحياة ، وهذه المؤثرات لم تفتأ طيلة القرن التاسع عشر تنتشر في الشرق وتنبث في جميع أقطاره بدون انقطاع . ومن أراد البرهان فليعلم أن ليس هناك من باعث على الاضطراب أشد واقوى ، وهائج للقلق امضى وأفعل ، مما هو حاصل اليوم من التطوّر والانقلاب في الشرق — التطور والانقلاب اللذين هما من السرعة والاهمية ، واقتضاء التكيف ، بحيث أن ماهيتهما تدل دلالة صريحة على انهما أطبق على صفة الانقلاب الثوري المفاجيء ، مما هما على شكل النشوء والترقي . وقد بسطنا الكلام وافياً على مجاري هذه التطورات العميقة من جميع وجوهها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى ما يصاحبها بطبيعة الحال من الهياج والحركة في الخواطر ، ومن الازمة والبحران في كل طبقة من طبقات المجتمع الاسلامي ، في هذا الدور العصيب .

وقد وصف اقتصادي بريطاني كيفية الانقلاب الثوري الحادث في الهند وصفاً شافياً ، وأوضح سعة الشقة بين سوي المدن والحواضر ، والسوي القروي فقال : « ان أقاليم الهند لم تبرح على حال من بساطة العمران والتأخر المدني كالتي عرفت في القرون الوسطى . فالمدن والحواضر قد انتشرت فيها أساليب هذا العصر وفنونه حتى باتت أشبه بمدن الغرب وحواضره » . وفي هذه المدن والحواضر الهندية تجد الحياة على الطراز الغربي « مستوفية كل نسق جديد ، مع جميع المرافق المستحدثة ، وذلك ظاهر في حياة ارباب المصارف والمعامل حتى باعة الحلوى والماعون ، فعظم الاختلاف وطالت شقة التباين بين الحياتين ، حياة المدينة وحياة الاقاليم . ومن المؤكد الذي لامراء فيه ان هذا البون لم يكن له مثيل قط في جميع التاريخ الاقتصادي المعروف الى اليوم ، اذ لا تجد بلاداً سوى الهند قد جمعت بين هاتين الحالتين المختلفتين ،

حالة المدن والحواضر، وحالة القرى والأقاليم ، في أي عصر من عصور التاريخ الاقتصادي في العالم » . تصور لك دوراً مثل هـذا في أوروبة فيما لو قدر اجتماع أوروبي حديث مع آخر قديم من القرون الوسطى ، وكلاهما نقيض الآخر رأياً وفكراً ، فما أوسع المغايرة بينهما وما أعظم الاختلاف . لكن هذا لا يقع في أوروبة اذ كان تقدمها الاقتصادي ناشئاً بالتدريج يرتقي ارتقاء طبيعياً » . وقد دامت هذه الحال قروناً . وليس كذلك التدرج الاقتصادي في الهند ، فانه ثوري فجائي .

ومن يستقصي طبائع هذا الانقلاب في الهند اليوم يعلم حق العلم مبلغه من المواثبة والسرعة ويدرك انه حركة ثورية .

« ان أقاليم الهند وان كانت لم تزل على حال السذاجة ، فقد انتشر فيها كثير من الآراء والافكار والمبادىء الناقضة لتلك الصبغة الباقية منذ القديم. فلما نشأت الصناعة في البلاد صارت أجور المنافسة تباري الاجور المحدودة في البلاد منذ ازمان طويلة ، واضحت الاثمان تارة يحددها العرف والعادة ، وتارة تحددها العوامل والأسباب الاقتصادية الحرة . وأخذ العمال الذين لم يكن من شأنهم ولا شأن آبائهم واجدادهم من قبل ، الانتقال والهجرة ابتغاء اسباب المعيشة ، ينزحون من اقليم الى اقليم سعياً وراء الأجور الحسنة . ثم انتشرت اسباب وعوامل اقتصادية فجأة في موضع موضع ، وشرعت تعمل عملها في مجتمع لم تبرحه صبغة السذاجة منذ قرون . هذه هي الحالة في الأقاليم . اما الحالة في المدن والحواضر فتكاد لا تختلف عنها من حيث انتشار العوامل الاقتصادية ، ولكنّ هنالك اختلافاً في بعض الوجوه . . . ان هذا الانتشار في المدن والحواضر لم يكن من شأنه الامتزاج بتلك الهيئة القديمة امتزاجاً تاماً . فبات النظامان القديم والجديد يتناحران أشدّ التناحر .

« فالهند ، وهذه حالها اليوم ، تجتاز ثورة اقتصادية هائلة ، وهذه الثورة متناولة كل طبقة من طبقات المجتمع المتعدد الاوصاف . واعلم فوق هذا ان

الدور الوحيد الماضي ، الذي تشبه فيه أوروبة الهند الجديدة ببعض الشبه انما هو دور ثورتنا الصناعية التي لم يهدأ ثائرها في الغرب حتى اليوم ، ولا استقرت حالها استقراراً مكيناً . ولما لم يكن حدوث الحركة الفكرية العقلية التي ظهرت في الثورة الفرنسية معاصراً لحدوث الثورة الصناعية ، فقد حصل لأوروبة من ذلك لطف عظيم ، اذ لو حدثت الثورتان معاً لكان من المحتمل ان المجتمع الأوروبي قد انهار ودُكت اركانه دكاً حتى الاساس . ولكن بعد ان اضحت الثورة الفرنسية خائرة القوى مسلوبة المنة ، بسبب كثرة الحروب النابليونية ، نشبت الثورة الصناعية فألهبت المجتمع نار سخط مستطيرة . انه لمن المعلوم الذى لاريب فيه ، انه متى قضى التطور الاقتصادي على شعب كامل ، بأن يبدّل على اختلاف طبقاته معيشته تبديلاً رامياً الى التحسين والترقية ، كان لابد لجانب من هذا الشعب من ان يعاني الألم والضنك فيشتعل غضبه اشتعالاً . ثم تظهر على أثر ذلك الحركات السياسية العنيفة ، وتنتشر عوامل الخراب والبوار في المجتمع . فما نشأ عن الثورة الصناعية ليس ثورة سنة ٤٨ ، فحسبُ ، بل نشأ الحزب الاشتراكي أيضاً .

« على ان تلك الثورة في أوروبة ، ماكانت جارفة مثل الثورة القائمة اليوم في الهند . فان استكشاف البخار واختراع الآلات المحركة في اوروبة ، كان يتدرج الى الكمال شيئاً فشيئاً طيلة قرون . وخلال هذه المدة كانت التجارة والصناعة على امتداد وانتشار دون انقطاع ، وكانت رؤوس المال تنمو وتتراكم ، وكانت القواعد والأصول الاقتصادية تزداد ثباتاً ورسوخاً ... اما الثورة الاقتصادية في الهند فهي أعظم شأناً ، وكان مثارها أوسع مضطرباً من ثورتنا الصناعية . فالمسالك الحديدية قد أنشئت في طول البلاد وعرضها حتى وصلت بين الاقاليم التي كانت الاسفار فيها من قبل غير مستطاعة والطرق غير معروفة . وشيدت المعامل وملئت بعمال لم يسبق لهم مران على القيام بالأعمال الصناعية . وطفقت رؤوس المال تتدفق على الهند ، البلاد التي لم

تكن على استعداد لأن تستحثّ هذا الاستحثاث الهائل في سبيل التقدم والترقي. فماذا كانت نتائج جميع هذا ترى ؟ تفككت أوصال النظام الاجتماعي في الهند تفككاً تاماً وتقوّض بنيانه تقوضاً. وانقضى الزمن الذي كان فيه البراهمة كهنة وسادة، وفلاحو الهندويين عبيد الأرض وارقاءها، والمرابون الهندويون ارباب رؤوس المال المحتجنة بين أيديهم. وباتت الآلات المستحدثة تهدد الحاكة اليدويين بالقضاء على صناعتهم، وصار النحاسون لا يستطيعون جني المكاسب من وراء مهنهم، فما أعظم هذا الانحلال الذي سببه التطور الفجائي، وما أكثر الذين حال التطور بينهم وبين الانكماش والجد في حرفهم الموروثة، ثم قارن ذلك بما حصل من نوعه في أوروبة، والثورة الصناعية في أوروبة كانت أضيق نطاقاً، تعلم للحال حق العلم ماهية العوامل الكبرى والبواعث العظمى في هذا الاضطراب السياسي. وليس هذا بداعي العجب بل داعي العجب كون الاضطراب لم يكن أشد وأقوى. انه لو لم تكن الهند لعمري بلاداً شرقية اسيوية لكانت ثورتها هذه قد اشتعلت نارها من قبل هذا العهد بزمن طويل. »

ان هذه السطور قد دبجها كاتبها الاقتصادي في مفتتح القرن العشرين قبلما اربدّ جو العالم بسحب الكارثة العظمى، وزلزلت الارض زلزالها بهذه الحرب الجارفة، ونشبت الثورات الاجتماعية الآكلة في روسية الآسيوية. على أن بعض علماء الشرق الأعلام كانوا قبل الحرب ينذرون العالم بنشوب ثورات اجتماعية لا تبقي ولا تذر في اقطار المشرق. قال الزعيم الهندوي الوطني الكبير بين شتدرابال: « ان هذا الاضطراب ليس في الحقيقة سياسياً، ولكنه بحقيقة جوهره نهضة فكرية عقلية روحانية، تُعدّ بشير ثورة اجتماعية عظيمة، يتلوها نظام جديد وفلسفة جديدة في الحياة ». وقال الكاتب الفرنسي شلي في شأن الهند أيضاً: « ستحدث سلسلة من الثورات الاقتصادية آخذاً بعضها برقاب بعض، وسيصحبها بالضرورة شدة هائلة وألم

عظيم يعانيهما الشعب » .

وكأنما الضيق المزداد في احوال المعيشة قبل الحرب ، مع الاقبال الكثير على انتحال الأساليب الغربية في الرغادة والنزوع الى ضروب المرافق الجديدة على حسب ما يقتضيه المستوى الجديد ، كل ذلك كان باعثاً على اشتداد المزاحمة بين طبقات كل شعب من الشعوب الشرقية . فقد كتب خبير صحي بريطاني سنة ١٩١١ يقول : « الفاقة والشقاء هما علة العلل في الاضطراب السياسي في الهند » . وبعد ان وصف الكاتب ما تعانيه عامة الهند من البؤس الشديد قال : « ورب قائل يبتدر القول ان هذه الحالة ليست بحديثة في الهند بل هذه صفتها منذ الازمان الطويلة ، فلذا ليس من شأنها ان تكون اليوم أبعث على القلق والاضطراب منها فيما مضى . غير ان الحقيقة على ما أرى هي بخلاف ذلك . اذ ان القلق والاضطراب كانا ثائرين على الدوام ثوراناً مستتراً يستبينه كل من تدبر سير الانقلاب قليلاً . زد على ذلك ان عامة الطبقات الدنيئة كانت فيما مضى ، من رقة الحال وشدة الفاقة ، بحيث كادت تكون النسبة بينها وبين غيرها من الطبقات السعيدة ، مفقودةً . اما اليوم فتستطيع هذه الطبقات ان تفخر بشأنها وتقارن بين حال مزدحمات ساكنها ومحلاتها الوطنية التي تقيم فيها وبين محلات سكنى البريطانيين وأكثر منازلهم ترتيباً ، بل وبين منازل الموسرين والوجهاء من سائر ابناء البلاد . فتلك الفاقة كانت أبداً سبب الاسباب في نشوء القلق العام ••• وما الاجتماعات التي يظهر فيها الهرج والمرج ، والثرثرة السياسية وتصعد منها نفثات الصدور ، الا مظاهر ابتدائية يتلوها اضطراب عميق الغور بعيد المرمى وقلق راسي الجذور رحب الافق » .

لا ريب ان من الاسباب الكبيرة في حصول هذا التزاحم والتكالب الاجتماعيين الآخذين في الازدياد والتماظم ، هو ما ينقص المشارقة على العموم من حب التعاون الاجتماعي ، وقلة اكثراتهم بمقاسمة بعضهم بعضاً الضراء ،

وبعدهم من التساهم في تحمل البلاء ، واعراض كل جانب منهم عن مد يد النصرة الى الجانب الآخر ، وشأنهم هذا معروف لاسيا حيث لا تجمع أواصر القربى وصلات الارحام بين فريق وفريق ، ولا تربط بينهما مرتبة او طائفة أو عرف أو عادة . فالتعاون الاجتماعي بمعناه الغربي يكاد يكون مفقوداً في جميع البلدان الشرقية . على ان بعض العلماء الشرقيين ما كانوا ليغيب عنهم العلم بهذا النقص الذي في مجتمعهم ، فقد قال كاتب هندي في كلام له على حياة الهندي في المدن والحواضر : « ان التعاون الاجتماعي ليس معروفاً عندنا على مقدار يصح القياس عليه . . . ان الاصلاح الاجتماعي في الهند لم يبرح حتى اليوم مقصوراً على نطاق حياة الفرد او الأسرة ، اما الاصلاح الذي يجب ان يتناول سواد الجمهور بصفة كونه مجتمعاً انسانياً ، وان يتناول أهل المدن على الخصوص وهم أقل أهل البلاد مروءة صحيحة ، فلم يبشر بانجيله بعد » (من كلام ليوسف علي في كتابه « الحياة والعمل في الهند » لندن سنة ١٩٠٧) .
وقال عالم أميركي من علماء العمران الاجتماعي يشير الى تزايد الشرور الناشئة عن حال مزدحمات الساكن في جميع الاقطار الشرقية التي انتشرت فيها الثورة الصناعية : « ان الخطر الاكبر ناشىء بلا ريب عن عدم شعور الشرقيين شعوراً مثل شعور الغربيين بما لحياة الفرد مجتمعاً مع غيره من الشأن وما عليه من الواجب . فمجتمع الشرقيين على الجملة فاقد لتلك الصفات التي يشتمل عليها جمهورنا الراقي الذي ايقظه وهذبه استمرار التنازع الصناعي في الغرب طيلة قرن • وما دام الشرقيون يجهلون هذا النقص ولا يتلافونه بالدواء الناجع فان الشرور لمستفحلة استفحالاً ما عرف مثله في الغرب .

ان جميع هذا القلق الاجتماعي المنتشر في الشرق مستقر في موضعين حديثي الظهور : الأول الطبقة الراقية المهذبة على الاساليب الغربية ، والآخر الطبقات الدنيا التي منها عمال المعامل الصناعية في المدن . وقد أسلفنا الكلام على المنازع الثورية التي عرفت بها الطبقات الراقية ولا سيا منها الجانب

الناقص العلم ، وهو الجانب ذو الشأن الكبير في ايقاد نار الثورات والاضطرابات في الشرق الجديد من شمال افريقية حتى الصين . أما طبقات عمال الصناعة فقد يرى فريق من الكتاب ان ليس هناك كبير أمل في صيرورتها عاملاً ثورياً مهماً لما هي عليه من الاستمساك بسنن التقاليد والجهل والبلادة ، ولأنه ليس هناك صلات حقيقية تصل بينها و بين أهل الطبقات الراقية ، المنبعث منهم القلق الاجتماعي على قدر جسيم . وممن يذهبون هذا المذهب في الرأي ، « البرت ماتان » الاقتصادي الفرنسي ، فانه قد أبان هذا ابانةً حسنةً في شأن الهند فقال : « انما قوام النهضة الوطنية هو الطبقات الوسطى ، وهذه الطبقات لا تقوم بشيء يذكر من المقاومة لاصحاب رؤوس المال وأهل المشروعات وأرباب الاملاك ، الذين جميعاً لا ينالهم ضرر من الوجهة الاقتصادية » وأما طبقات العمال الصناعيين : « فلا يأملون ترقية حالهم وتحسين شأنهم بل هم مثل عمال الزراعة ، لا تلمح فيهم أمارة من أمارات الثورة . فالى من يلجأون ترى ؟ أما المراتب الاجتماعية القائمة على سنن التقاليد فمغلقة في وجوههم ولا مطمح لهم في الارتقاء اليها . فتراهم اذ لا أمل لهم بمنصب قومي ، يحتقرون من فوقهم من أرباب الحرف والمهن الذين يعتزون بمراتبهم الطائفية ، ولكن قد قضت الصناعة الآلية على صناعتهم اليدوية . أما الهندوي فيرى ان من اكبر العار عليه ان ينزل الى مهنة العامل الصناعي ، وعمال المعامل لم يبلغوا بعد من عددهم حداً يستطيعون عنده التواثق فيما بينهم على صيانة مصالحهم واعزاز شأنهم ازاء المجتمع القديم . ولا عبرة لما يقومون به من الاعتصاب والاضراب فانهم لم يزالوا بعداء من ان ينهجوا منهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، بُعدَهم من الطوائف العليا التي يستحيل عليهم الارتقاء اليها . وهم بعد كل هذا لا يستطيعون القبض على أزمة مجموعهم وربط بعض حلقاتهم ببعض بحيث يتألف منهم قوة أدبية معنوية لها شأن ومكانة ، لأن النهضة الوطنية ليست قائمة على الطبقات الوضيعة ، وهي ابداً

تستفيد قوة من أرباب رؤوس المال .

« يعلم من هـذا ان الصناعة الهندية لم تزل وليدة في المهد . فالارتقاء المادي الذي تظهر آثاره بتشييد المعامل والمصانع ، والارتقاء الاجتماعي الذي تميز به طبقات العمال ، لم يبرح في أول دور من أدوار الظهور ، بحيث ان الارتقاء العقلي الذي من شأنه ان يبعث على وضع الخطط المنظمة لنيل المطالب الاجتماعية لم يظهر بعد » .

على ان كثيراً من أهل العلم في الشؤون الصناعية الهندية لا يتفقون مع ألبرت ماتان فيما ذهب اليه . فقـد قال زعيم العمال البريطاني ج . رمزي مكدونلد : « أما التصور الذي يتصوره بعضهم من ان العمال الهنود المنحطين سائرون اليوم في سبيـل الارتقاء الى مصاف الطبقات العليا فهو ضرب من الوهم ، غير اني لا أصدق بتةً ان الحال هذه تدوم طويلاً ، والسبب في ذلك : ان تقدم صـناعة المعامل في الهند قد نشأت بسببه طبقات من العمال الذين لا أرض لهم يملكونها ولا موطن يستقرون فيه ، فاذا تدبرت شأنهم وجدتهم لا مثيل لهم بهذا الاعتبار في أي بلد اقتصادي قامت فيه رؤوس المال . وأما التصور بأن عمال المعامل الصناعية في الهند سيظلون هكذا بعـداء عن ان يكون لهم شأن مذكور ووزن مقام في السياسة الهندية ، فليس الى احتمال ذلك من سبيـل . فالعمال قد أخذوا يجنحون الى انتهاج مناهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، وانشاء جمعيات من هذا النوع ، فاعتادوا القيام بالاعتصاب والاضراب ، ومن مرامي بعض حركات الاصلاح الاجتماعي التي يقوم بها أهل الفكر من الهنود ، انشاء نقابات صناعية وتجارية متواثقة ، ونشر الآراء والافكار الشبيهة بآراء دعوة التضامن الصناعي عندنا. فلو قام أرباب رؤوس المـال بسياسة ماليـة لمناهضة العمال ، لم يكن ذلك مستحثاً شديداً لجمعيات التضامن الصناعي فقط ، كما جرى مثل ذلك في اليابان من قبل ، بل لعجزت سياسة مثل هذه السياسة في الهند عن القضاء على نقابات العملة ، ولن تفلح

كما أفلحت في اليابان على يد القوانين المسنونة . فالعمال في الهند حالتهم آخذة بالتبدل والارتقاء ، ولن يمضي ردح من الزمن طويل حتى ينظموا شؤونهم تنظيماً صحيحاً ينهجون فيه مناهج العمال في البلاد الاقتصادية الراقية . ومتى ما يقظ العمال يقظتهم السياسية كان ذلك بدء السبيل الذي لن يكون لهم وليجة عن سلوكه ، فيدبرون أحوالهم تدبيراً حسناً ويشرعون في اعزاز شأنهم اعزازاً كبيراً » .

ونعود الآن الى الشرق الأدنى . فمنذ اكثر من عقد قال كاتب اشتراكي فرنسي مشيراً الى شدة الوطأة التي يعانيها سواد المصريين في أحوال المعيشة ، ومنبهاً الى ظواهر القلق الاجتماعي ، ومنذراً باضطراب هائل ، ما يأتي : « قد نشأت طبقات من العمال بنشوء الصناعة واتساع نطاقها اتساعاً سريعاً صحبه النجح العاجل ، أما غلاء المعيشة فقد بلغ مبلغاً ما عرفت مصر مثله من قبل . بينما الاجور لم ترتفع الا قليلاً . فاشتدت الفاقة وعمت بلوى الحاجة . فاذا ظلت الحال سائرة هذا السير فسيأتي يوم تثور فيه سواكن هذا الشعب من جراء هذه الشدة المستولية عليه ثوراناً أعمى ، حتى تغدو ذلتا النيل الظاهرة عليها آثار الرخاء والنجح في حالٍ غير حال . من الممكن ان تدفق الاجانب على البلاد وتدفق أموالهم معهم يبعد قليلاً تلك الساعة من الدنوّ ، وهي الساعة التي يدرك فيها العامل المصري، في كل مدينة وريف ، الحال التي سبق اليها ، وهو لعله اليوم لا يدري ما للاشتراكية من القوة التهذيبية . على أن استيقاظه وانتباهه سيكونان في عهد أقرب مما يخاله بعضهم . اذ ليس ذلك الجانب من المصريين أرباب النجاح والفلاح ، هم وحدهم ذوي العقول الزكية والمدارك العالية ، بل ان العمال المصريين أيضاً ، الآخذة اجورهم بالتناقص المتوالي ، لا يقلون ذكاء وفطنة عن سائر أبناء بلادهم ، ولذا قد بات من المتوقع الذي لا ريب فيه مجيء الساعة لانبثاق الاشتراكية الاسلامية في

بلاد المسلمين لأول مرة [1] » . وقال رحالة بلجيكي قبيل الحرب العامة يشير الى تباشير الصباح ليقظة طبقات العمال في الجزائر ، وسرعة انتشار الآراء والافكار الغربية : « ان الاسلام ليرى متمزقاً تمزق الثوب البالي على أرصفة ثغر الجزائر : فعمال المرفأ ، ونقلة الفحم ، وساقة الآلات البخارية ، على اختلاف جنسيتهم ، عادوا لا يبالون بالاسلام ، بل ترى فيهم صبغة آداب العمال الأوروبيين راسخة ، وهم يشتركون مع زملائهم العمال الغربيين في السعي وراء الغرض ونيل الغاية ، اشتراكاً قائماً على أساس واحد هو وجوب مقاومة أرباب رؤوس المال ونزاعهم نزاعاً اقتصادياً مراً . فلو كان في الجزائر معامل مثل تلك التي في أوروبة ، لاختفى الاسلام السني من تلك الديار المغربية اختفاء الكاثوليكية القديمة من ديارنا امام تيار الصناعة وثورتها الكبرى [2] . »

على ان هناك أمراً لا مراء فيه ، على اختلاف ماهية المطامح التي ترمي اليها حركات العمال المنظمة ، الحديثة الظهور ، السريعة النشوء في الشرق ، هو ان القلق الذي قد انتشر في غالب اقطار الشرق في السنوات التي قبل الحرب العامة ، كان اجتماعياً لا سياسياً فقط . قالت صحيفة بريطانية هندية من كبريات صحف الهند أواخر سنة ١٩١٣ متشائمة : « قد هبطنا مهبطاً

---

(١) اقرأ التعليق الوارد على المبادىء الاشتراكية في الاسلام، في آخر هذا الكتاب ـ المعرب

(٢) من قبل الحرب العامة بكثير كان الاشتراكيون الفرنسيس لاسيما الغلاة منهم ينتصرون لاهل الجزائر وتونس وسكان المستعمرات ، وكان للزعيم الاشتراكي جوريس منزلة عالية في قلوب اهالي تلك الاقطار . ولكن اشتدت هذه الرابطة بعد الحرب العامة كثيراً عن ذى قبل لاسيما بين الشيوعيين الفرنسيس والعملة والفلاحين من المغاربة لأن العملة والاكرة في المغرب الاوسط هم في مستوى واحد من الشقاء بسبب تسلط المستعمرين . وقد تأسست نقابات لهؤلاء العملة تجمع الذين منهم فرنسيس الى الذين منهم مغاربة وكذلك ظهرت لهم جرائد في تونس والجزائر كثيراً ما تعطلها الحكومة الفرنسية وتحذر كبار المغاربة من سوء مغبة الشيوعية ولكنها تتغافل عن ان اليأس الذى يدفع فقراء الجزائر وتونس الى الانضمام الى الفرقة الشيوعية انما هو اثر ظلم الادارة الفرنسوية ونتيجة تحكم المستعمرين في الاهالي وانه لا يمكن الجمع بين هذه الادارة الغاشمة الاستعمارية وبين منع المبادىء الثورية. (ش)

سافلا أفضى بنا الى الانهيار والخراب . فقد غدت بعض الأقاليم التي كانت من قبل اكثر أقاليم البلاد الهندية قطيناً ، يهجرها الاغنياء اليوم لقلة الأمن على متاعهم وحطامهم . وقد اشتد مقت الناس للقانون اشتداداً هائلاً لأنه أصبح ذريعة يستعين بها أهل السجس للاعتداء على الابرياء . وباتت القبائل الافغانية عنـد الحدود تقترف أهول الفظائع . وكثرت اجتماعات الجماهير ، وانتشر الهرج والمرج بداعي التدخل في شؤون ليس من شأن الشعب المخلد الى السكينة التدخل فيها . فليس هناك من قضـية تدخل في نطاق السياسة الاجنبية فضـلاً عن الوطنية الا ويهب الناس أفواجاً للحال ، يريدون ان يكون لهم فيها يد مشتركة ، على حين ذلك بجملته لا يعنيهم . وصار أحقر شأن يؤخذ سبباً للاشتكاء والسخط . وغدا الموظفون في الأقاليم يعانون الشدائد المرة بسبب كثرة الاختلال الناشيء عن اباء الأهالي لطاعة القانون . وقد تألفت جمعيات التضامن المختلفة لصيانة المصالح الأهلية . ويشكو ضباط الجيش والشرط من أن صنف المجندين الجدد أقل طاعة من الصنف الذي كان قبلهم وأعند عند التدريب وأكثر تعنتاً وسخطاً .

ثم جاءت الحرب العامة فزادت في هياج الشرق زيادةً عظيمةً . فجمعت الحال في جميع الاقطار ولا سيما غالب الشرق الأدنى ، بين استحكام حلقات الشدة والضيق ، والمطامح الوطنية الكبيرة ، والسخط المشتعل ؛ فظهر المجتمع الشرقي كأنه على شفا جرف هار . وبينما الشرق هذه مراجله غالية تفور ، اذا بالباشفية الروسية تدب وتنتشر في الشرق ، وتمتـد الى اقطاره المربدّة الجواء بالسحب السوداء ، وطفقت تهيمن وتسيطر على هذه الحالة ، وتنظم حركات القلق والاضطراب ، وتدبر أسباب الشغب والهياج ، بطرق متسقة وأساليب منظمة ، ابتغاء الوصول الى غرض هو نصب عينها وادراك غاية تتوخاها . ولا غرو فالباشفية قد انبرت الى الميدان على رؤوس الاشهاد تريد ايقاد ثورة عالمية ، ودك اركان الحضارة الغربية دكاً يبقيها أثراً بعـد عين .

ولتحقيق هـذا الغرض لم يكتف قادة البلشفية بإثارة الحملات الشعواء على الغرب مباشرةً فحسب ، بل قاموا باكثر من ذلك ، اذ دبروا أمر القيام بحركات التفاف في آسية وافريقية ، لانهم اعتقدوا ان الشرق اذا استطيع الهابه بنار الثورات الآكلة ، كانت نتيجة ذلك ليس زيادة اعزاز البلشفية ورسوخ قدمها واشتداد بأسها فقط ، بل أيضاً القضاء على حياة الغرب الاقتصادية المتزعزعة الجوانب المنهوكة القوى بسبب الحرب العامة ، وذلك قضاءً أخيراً يعقبه تلاشي صناعة الغرب واضمحلالها ، ثم تتقد نار الثورة العمياء في أوروبة مندلعة الألسنة الى كل جانب من جوانب القارة .

وانتشرت مساعي الدعوة البلشفية في العالم كله ، فعم نطاقها وانبثت تعاليمها في كل رقعة من رقاع الكرة الأرضية ، فلم تخلُ زاوية من زوايا الأرض من مكايد دعاة البلشفية ودسائسهم ، وهؤلاء لم يغادروا وسيلةً الا استعانوا بها لبلوغ المأرب الذي اتخذوه قبلةً يركبون في سبيلها كل مركب . وما كانت تعاليم « الحمر » الرامية الى انهاض طبقات العمال الدنيا الى مستوى السيادة والحكم في كل بلاد ، سوى ذريعة من ذرائعهم التي لا تحصى ونوع من أنواع أسلحتهم التي لا تعدّ . ولما كان مرادهم في المقام الأول قلب نظام العالم الحالي ، فقد بات كل عمل ، ولو كان بعيداً من التعاليم البلشفية بمقدار ، ولكن من مقتضاه مقاومة ذلك النظام ، أداةً من أدوات البلاشفة يلجأون اليها ويستعينون بها . ثم راح دعاة البلشفية يبثون في كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية في آسية وافريقية واسترالية والامارِكتين فضلاً عن أوروبة ، يهمسون في آذان الشعوب المغلوبة على أمرها ، الناقمة الساخطة ، انجيل البلشفية الجديد وآياته الحديثة ، حملاً لهذه الشعوب على الهياج والشغب ، ثم الانتقاض والثورة . فكل حركة وطنية ، ومطمح قومي ، وسخط سياسي ، ومظلمة اجتماعيـة ، وتحكم جنس في جنس ، جميع ذلك من الوسائل التي يتخذها البلاشفة وقيداً لنار الهياج ، فالانتقاض ، فالحرب .

وقد كانت تربة افطار الشرق الادنى والاوسط أخصب الاقطار لزراعة البلشفية ، واكثرها استعداداً لها ، فنمت البلشفية في هـذه الاقطار نمواً كبيراً ، ولبيان ذلك نقول : لما كانت هذه الاقطار الشبيهة بالمرجل الغالي ، والتي تتقد فيها نيران الفتن والثورات على اختلافها ، مرامي للاطماع الاستعمارية التي ابتغتها روسية القيصرية منذ عهد طويل ، فقـد سبق للدعاة الروسيين من قبل فدرسوا شؤونها درساً وافياً مشتملا على سر الفتح السلمي . فلما انهارت اركان روسية القيصرية وقامت البلشفية على انقاضها ، لقيت البلشفية امامها مهيعاً معبداً ، وطريقاً ممهداً ، لبلوغ اغراضها . فلما قام تروتسكي ولنين يضرمان نار الهياج والثورة في تركية وايران وافغانستان والهند ، تقويضاً لمكانة بريطانية على الأخص ، لم يحتاجا الى خطط التوطئة وطرق التمهيـد ، لأن روسـية القيصرية كانت قد سعت في هذا السبيل عقوداً من السنين طويلة ، فكان من نتائج هذا السعي جمع المعلومات الوافية في هذا الموضوع وايداعها سجلات الحكومة السابقة في بتروغراد ، وكان عدد كبير من رجال الحكومة القيصرية الذين انقلبوا للحال يستأنفون أعمالهم السابقة بعد ذهاب روسية القيصرية وانشاء البلشفية ، لم يزالوا يعلمون كثيراً من أمور البلدان المذكورة التي كانت تحوم حولها وفوقها المطامح القيصرية .

على انه يجب علينا عند اعتبار الدعوة البلشفية المنتشرة في الشرق قاصيه ودانيه ان نفرق بين الغرضين الاكبرين اللذين يجدّ دعاة البلشفية في سبيلهما اليوم غاية المستطاع : الغرض العاجـل وهو محو التفوق الغربي سياسياً واقتصادياً محواً تاماً . والغرض الآجل وهو بلشفة الشعوب الشرقيـة ، وما يتلو ذلك من القضاء الاخير على الطبقات العليا والوسطى من أهل كل بلاد ، على نحو ما قد تم في روسية وما هو مدبر للممالك الغربية . اما في الدور الاول فالبلشفية مستعدة تمـام الاستعداد لاحترام الاديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والاخذ بنصرة الحركات الوطنية في الشرق . وأما في الدور الآخر

فالاديان ، مثل الاسلام ، فستقوض تقويضاً . واما قادة النهضات الوطنية ، مثل مصطفى كمال ، فسيرمون من حالق الى رتبة العمال ويوسمون بميسمهم . وها نحن نبين للقارئ الكريم كيف تقوم السياسة البلشفية بمساعيها المتنوعة في سبيل الغاية التي ترمي اليها .

لما قامت الحكومة البلشفية في روسية وقبضت على أزمة الاحكام أواخر سنة ١٩١٧ ، سرعان ما بادرت الى وضع الخطط والبرامج لسياستها التي اعتزمت اتباعها في الشرق . ثم انقضت سنة ١٩١٨ وكانت سنة اعداد وتجهيز . فنظم البلاشفة مشروع الدعوة تنظيماً تاماً وافياً ، قوامه الخبراءُ على صنوف مختلفة . وأُتي بعدد من رجال الحكومة القيصرية البائدة من دعاة وساسة راسخين علماً بالشؤون الشرقية ، وحُملوا على ان ينتظموا في سلك الدعوة وقد أمدّ المسلمون الروس ، مثل التتر في روسية الجنوبية والتركمان في آسية الوسطى ، الحكومة البلشفية بكثير من الخبراء العارفين . وكان انفع الجميع وأخدمهم للغاية ، أولئك الذين فروا الى روسية من تركية وايران والهند عند ختام الحرب العامة ، وفيهم قادة الحكومة التركية الحليفة للدول المركزية ، مثل أنور وجمال وطلعت وكثير غيرهم [1] ، فانهم لجأوا الى روسية هرباً من ان يقعوا في ايدي دول الحلفاء الظافرة . وكذلك فقد فر الى حكومة لينين عظماء القادة الهنود الذين كانوا مشايعين لألمانية خلال الحرب ويتلقون منها الاموال للقيام بالدعوة . وعند أواخر سنة ١٩١٨ كان ديوان الدعوة الشرقية في الحكومة البلشفية قد نظم أحسن تنظيم ، فقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية : الأول للاقطار الاسلامية ، والثاني للهند ، والثالث للشرق الأقصى . اما مساعي البلاشفة واعمالهم وكيفية نشر دعوتهم في الشرق الاقصى فليس من غرضنا البحث في ذلك في هذا الكتاب ، ولكن على القارئ ان

---

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن الوارد في آخر هذا الكتاب على الشهيد أنور ورفقائه — المعرب

يعلم خطورة الاعمـال التي قام بها البلاشفة في تلك الاقطار ، وعظم الدور الذي لعبه الصينيون في تاريخ روسية في المدة الحديثة . اما القسمان الأولان من اقسام ديوان الدعوة المختصان بالاقطار الاسلاميـة والهند ، فقد طفق أربابهما يجهدون في سبيل الغاية جهداً كبيراً ، فترجموا مئات الكتب الباشفية الى مختلف اللغات الشرقية ، ودربوا عدداً كبيراً من الرواد السريين والدعاة والرسل للقيام بالأمر العظيم ، وانطلقوا يتوسلون بما استطاعوا لاستثارة العناصر الثورية في تلك الأقطار .

وفي أوائل سنة ١٩١٩ باتت مساعي البلاشفة واعمالهم منتشرة في جميع الشرق الأدنى والاوسط انتشاراً كبيراً لاخفاء فيه . وليعلم الحكيم المنصف ان انكار الحلفاء على شعوب الشرق الادنى حقها في مصالحها القوميـة [١] ، ووقوفهم في وجه نهضاتها الوطنية موقف الصادّ المقاوم ، قد كان وسيلةً من خير الوسائل التي اعتضدت بهـا الدعوة البلشفية . وقد أسلفنا الكلام في موضع تقدم كيف أخذت حكومة موسكو تمد يد النصرة والعون الى مصطفى كمال وسائر القادة الوطنيين في تركية وايران ومصر وغيرها . على انـ نجح البلاشفة في الشرق الأدنى لم يكن أقل منـه في الشرق الاوسط . ولا غرو فقد كانت يد حكومة موسكو ظاهرةً أجلى ظهور في فوران ذلك التيار من الفتن والانتقاضات ، مما طبق شمالي الهند في ربيع سنة ١٩١٩ [٢] وليس ذلك جميع ما قامت به الدعوة البلشفية بل قد امتدت الى أكثر من ذلك ، فأنزلت الضربة العظمى ببريطانية ، تلك الضربة التي قصمت ظهر الانكليز في افغانستان. فان هذه البلاد التي من شنشنة قطينها الجبليين الشغب والهياج ، والتي هي بجملتها أشبـه بالصاعقة المتوقع نزولها أبداً على الحدود الشمالية الغربية ، قد ظلت خلال الحرب هادئةً ساكنةً . وغالب السبب في هذا السكون وقوف

---

(١) راجع الفصل الخامس .

(٢) راجع الفصل السادس .

حاكمها الامير حبيب الله خان موقف الموالاة لبريطانية . بيد ان هـذا الامير اغتيل في سـنة ١٩١٩ اغتيالاً لم يعرف حتى اليوم هل كان للبلشفيين يد فيه أم لا ولـكن على كل فقد طفق هؤلاء البلاشفة ينتهزون الفرصة التي سنحت لهم بعد ذلك ، اذ خلف حبيب الله خان أحد انجاله وهو الامير امان الله خان المشهور بشدة عداوته وشنأته لبريطانية ، والذي كان له صلات بدعاة الترك والالمان خلال الحرب العامة . فلما استلم أزمة الحكم ، واستقام له الامر ، جعل يباشر انشاء الصلات بينـه وبين موسكو [1] ، فلم ينقض سوى اليسير من الزمن حتى اهتبل السانحة عند ما طبق الاضطراب وعمت الفتنة في بلاد البنجاب الهندية ، فأعلن الحرب على بريطانية ، ثم أخذت جيوشه المؤلفة من

(١) سنة ١٩٢٠ كان جمال باشا ذهب الى موسكو ومعه بدري بك وذلك اثناء ما كانت اسرى الروس تعاد من المانيا الى الروسية ، فاندسا بين اولئك الاسرى متنكرين خوفاً من ان يعرف امرهما فيقبض عليهما الانكليز الذين كانت لهم سفائن تفتش عن الركاب الذين يمرون من بحر البلطيك الى جهة الروسية . ولما وصلا الى موسكو اجتمعا فيها مع انور باشا واتفق الجميع على مفاوضة البلاشفة في عقد محالفة بين هؤلاء من جهة والاسلام من جهة اخرى، وان يكون مرمى تلك المحالفة مقاومة دول الحلفاء لاسيما انكلترة في آسية . وكان سبق للبلاشفة مداخلات مع امير الافغان لعقد اتفاق معه ولـكن لم يكن تم شيء منه . فارسلت حكومة السوفيت جمال باشا الى افغانستان ممهداً لسياسة الاتفاق مع الاسلام وانجاز المعاهدة التي كان سبق السعي فيها بين الروسية وافغانستان . فذهب اولاً الى طاشقند في التركستان ومنها قصد كابول عن طريق هرات ، ولما وصل الى كابول حظي لدى الامير وبعد وصوله بمدة وجيزة وفق الى تعجيل البت في أمر المعاهدة مع الروس على شروط ، من جملتها امداد البلاشفة للافغان بمقدار من الاسلحة ، وان تعاد مقاطعة كوشكه الافغانية التي كان الروس اغتصبوها من يد الافغان منذ ٤٠ سنة اذا رضي اهلها بالرجوع الى دولتهم الاصلية ، وان تخول الروسية حق تعيين معتمد في كابول كما يكون معتمد للافغان بموسكو ، وكذلك تعين الروسية اربعة قناصل في اربع مدن من افغانستان ، وتعين افغانستان قناصل في طاشقند وغيرها من المدن التي في حوزة الروسية ، وان تعترف الروسية باستقلال امارتي بخارى وخيوه داخلاً وخارجاً وغير ذلك من الشروط المهمة . وقد كان لهذه المعاهدة بين الروس والافغان وقع عظيم في انكلترة ، فحسب لها الانكليز الف حساب وافادت امير الافغان كثيراً بحيث اسرع الانكليز الى مصالحته وقبول اكثر مطالبه ، كما انها افادت البولشفيك في مفاوضتهم السياسـية والتجارية مع انكلترة اذ قد رضيت انكلترة بعقد معاهدة تجارية معهم ، اشترطت فيها ان يمتنع الروس عن تسريب السلاح الى الافغان أو غيرها من العالم الاسلامي ، وعن بث الدعوة الشيوعية في آسية . (ش)

رجال القبائل الشديدة الشكيمة الحمية الأنف ، تتدفق على الحدود الشمالية الغربية فألهبت جميع تلك البلاد نار حرب ضروس . وبعد ان دارت رحى القتال شديداً مدة من الزمن ، استطاعت بريطانيـة ان تصد تيار الاجتياح الافغاني ، فردت جيوش القبائل على اعقابها . فاضطر من بعد ذلك امان الله خان الى الـكف عن القتال ، ثم لم يكن له من وليجة عن عقد الصلح . ولـكن ماكانت بريطانيـة لتجسر قط على التشدد مع الأمير ، بل وافقت على ان له الحق بمقتضي شروط الصلح ان يكون في حل من القيد الذي كان مقيداً به من قبل ، وهو ألا ينشيء صلات سياسية مع أمـة أجنبية ّما سوى الهند البريطانية. اما الآن فشرع الامير يعتز بالاستقلال ويتباهي به ذائداً عنه بقوة تلك الصلات التي عقد عروتها بينه وبين موسكو . وقد كان البلاشفة في ذلك الوقت قد انشأوا لهم مركزاً آخر خطيراً في تركستان الروسية لنشر دعوتهم ، وهو لا يبعد كثيراً من الحدود الافغانية ، وكان مرمى هـذا المركز الجديد وغاية اعماله، ليس بلشفة افغانستان فحسب بل أيضاً بلاد الهند المترامية الاطراف.

وخلال سنة ١٩٢٠ غدت اعمال البلاشفة ومجاهيدهم الـكبرى أكثر انتشاراً ، وأظهر للعيان ، وأعز شأناً في جميع الشرقين الادنى والاوسط . وقد اطلعنا في موضع تقدم على كيف أخذت روسـية البلشفية تقوم بعضد الحركات الوطنية والنهضات القومية في تركية وايران عضداً شديداً . وفي الواقع ان سياسة الحلفاء القائمة على الطيش والخفة وقصر النظر ، قد كان من شأنها ان حملت العدد الـكبير من القادة الوطنيين على الجنوح والانحياز الى لينين ، في حين ان هؤلاء القادة أنفسهم ماكانوا ليروا غايات حكومة موسكو ومنازعها ومراميها البعيدة فيما يتعلق بمستقبل الأمم والشعوب رائقة لهم . مثال ذلك ان رئيس البعثة الافغانية التي شخصت الى موسكو ، قد صرح حقيقة الاسباب التي حملت حكومته على التعاهد مع روسية السوفياتية على الصداقة والولاء تصريحاً بيناً ، في مقابلة رسميـة ، كما نشرت هذا جريدة

« ازفستيا » لسان حال الحكومة السوفياتية ، فقال رئيس البعثة : « اني لست على مذهب الشيوعية ولا الاشتراكية ، انما خطتي السياسية هي طرد الانكليز من آسية ، واني لعدو عنيد لرؤوس المال الاوروبية الاستعمارية في آسية ، التي اعظمها وأشدها استنزافاً هي البريطانية . فمن هذا القبيل اوافق الشيوعيين على مبدإهم وأصرح لهم اننا محالفوهم في هذا السبيل . . . ان افغانستان ، وشأنها شأن الهند ، ليست بدولة في حوزتها رؤوس المال الاستعمارية ، ومن البعيد ان تستقر الانظمة النيابية فيها في عهد قريب . ومن الصعب الشديد التكهن بكيفية تقلب الشؤون واختلاف مجاريها في المستقبل. انما أعلم حق العلم ان النداء المشهور الذي وجهته الحكومة السوفياتية الى جميع الأمم والشعوب مستصرخة اياها لمقاومة رؤوس المال الاستعمارية ودك صروحها دكا (ومعنى كلمة رأس المال عندنا بات مرادفاً لمعنى كلمة الاجنبي أو بالاحرى الانكليزي) قد كان له عندنا وقع عظيم وشأن كبير . غير ان هنالك قضية أحللناها المحل الارفع ألا وهي الغاء روسية السوفياتية لجميع المعاهدات السرية التي عقدتها حكومات التوسع الاستعماري ، واعلانها الحق واعترافها به لجميع الأمم والشعوب ، دون اعتبار القلة مهما كانت ، في اختيار حكمها وتقرير مصيرها . هذا هو السبب الذي حمل جميع الشعوب المستعمرة المستنزفة في آسية ، حتى الشعوب البعيدة من مذهب الاشتراكية ، على الالتفاف من حول روسية السوفياتية » . [1] ولكننا لما كنا نعلم مبلغ ماهم عليه دعاة البلشفية من المهارة والتفنن في النشر والبث ، فلا يسعنا التسليم بأن السياسي الافغاني قد صرح حقاً مثل هذا التصريح كما نشرته صحيفة « ازفستيا » البلشفية . ولكن على فرض ان في هذه المقابلة كذباً واختلاقاً ، فان هذا البيان المعزو على صورته هذه الى رئيس البعثة ، انما يفصح عن

(١) اقرأ التعليق الوارد في آخر هذا الكتاب على الامم الاسلامية ازاء البلاشفة والدعوة البلشفية . المعرب

شعور العدد الكبير من الشرقيين ، ويجلو السبب الاكبر في نجاح الدعوة البلشفية النجاح العظيم في الاقطار الشرقية .

ولا غرو البتة ان لقيت الدعوة البلشفية هذا النجاح الكبير حتى غدا الزعماء البلاشفة يجدّون في سبيل غايتهم وادراك مبتغاهم ، وينادون البدار البدار جهراً وعلانية . فان موسكو في باديء الأمر قد وقفت موقف المعين الناصر للشعوب الشرقية لمقاومة التوسع الاستعماري الغربي ، وكانت توجه صرخاتها الواحدة تلو الأخرى الى أمم تمدها على مستوى لا تفاوت فيه ، وتولي وجه صيحاتها شطر اقوام هي عند البلاشفة لا اختلاف منازل وطبقات فيها ، وقد اعترفت مراراً بحق كل أمة لتقرير مصيرها ، ووعدت باحترام الآراء والمنازع والأنظمة والقوانين الوطنية . مثال ذلك فقد جاء في منشور بلشفي بعث به الى الترك أواخر سنة ١٩١٩ موقعاً من لنين ، ما يلي : « يامسلمي العالم ! ! الذاهبين ضحايا الاستعمار استيقظوا استيقظوا ! ! ان روسية قد اقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية ، تلك السياسة الضارة الخبيثة التي كانت تتمشى عليها الحكومة السابقة . ان روسية اليوم تمد يدها اليكم لتعينكم وتنصركم على تحطيم اغلال الاستبداد البريطاني . ان روسية تطلق لكم الحرية الدينية وحق الحكم الاستقلالي ، وتعترف بحدود بلادكم الحدود المعروفة قبل الحرب ، ولن توافق على اعطاء قطعة من البلاد التركية الى الارمن ، وتبقى مضايق الدردنيل في ايديكم ، وتظل القسطنطينية عاصمة العالم الاسلامي . ويمنح المسلمون في روسية الحكم الذاتي التام . انما جميع ما نطلبه منكم لقاء هذا هو قيامكم لمقاتلة المستعمرين الغاشمين الذين دأبهم ومبتغاهم ابداً استنزاف بلادكم وجعلها مستعمرةً لبوناً يحتلبون ضروعها احتلاباً » .

هكذا كان شأن روسية في توجيهها النداء بعد النداء الى الشعوب الاسيوية ، حتى الى شعبها الذي في بلادها ، فقد كانت تسمعه هذه النغمات

عينها على مسمع من أهل الشرق ، فقد جاء في أمر أصدر الى الجنود الروسية المرابطة في « بامير » ما يلي : « ياجنود فرقة بامير ! ! اعلموا انكم قد انتدبتم للقيام بعمل جليل وأمر خطير . فان الجمهورية السوفياتية قد أرسلتكم حراساً الى بامير التي عند حدود البلادين المواليتين وهما افغانستان والهند . ان بامير وسهولها المرتفعة وصمدانها الرحبة هي البلاد الفاصلة بين روسية الثورية ، والهند تلك البلاد التي فيها أكثر من ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من القطين تستعمرهم فئة قليلة من رجال الانكليز وتذلهم بجميع وسائل القهر . فعلى تلك الانجاد يجب على رواد الثورة منكم ان يرفعوا الراية الحمراء ، راية الجيش المحرر من رق العبودية . سيعلم أهل الهند الذين يقاتلون الانكليز المعتدين المغتصبين ، انكم أهل النجدة والغوث على مقربة منهم . طيبوا أنفساً وقروا عيوناً بحبكم لقبائل الهند الشمالية عاشقة الحرية والاستقلال . . . قوّوا روحها بأقوالكم وانصروا حركتها بأعمالكم حتى تنطلق في سبيل الثورة . وأعرضوا عن الاراجيف التي يشيعها عنا واللمزات التي يلمزنا بها رواد التحكم واللوردية والصيارفة البريطانيون . ليحيى التحالف الوثيق العرى ، تحالف الشعوب الثورية في أوروبة وآسية ! ! » .

على هذا المنوال كانت تنسج الدعوة البلشفية في دورها الأول . ثم شرعت تختلف صبغة ولوناً ، داخلة دوراً جديداً . وقد كان من شأنها في دورها الجديد هذا اثارة الحملات على الاستعمار والاستنزاف الغربي كما في الدور الأول . ولكن هناك صرخات مفرغة في قالب حديث أخذت تسمع ، من حيث كانت هناك صرخات شبيهة بها توجه الى سواد الأمم الأوروبية ؛ مشتملة على تحريض الحكومة السوفياتية لاهل الشرق حتى يهبوا لمقاومة أرباب رؤوس المال والطبقات العليا والوسطى ، سواء كانوا من الوطنيين أم من الأجانب ، وعلى وعد البلاشفة المكرر للطبقات العاملة الدنيا بتحسين حالهم ورفع شأنهم واعزاز مقامهم . والى القاريء بعض ما جاء في منشور

بلشفي وجه الى سواد الترك وعامتهم في صيف ١٩٢٠ وهو كما يظهر يختلف عن ذاك الذي وجه اليهم السنة التي قبل اختلافاً كبيراً : « ان العمال على اختلاف طبقاتهم وهم أهل النصب والعناء ، ليقاتلون اليوم الاغنياء والمتمولين قتالاً شديداً في كل قطر وبلاد . فان أرباب رؤوس المال والى جانبهم الأشراف والأعيان يحاولون الآن جهدهم لتصفيد العامل التركي الناصب اللاغب باغلالهم الثقيلة وقيودهم المرهقة. ان الاغنياء والسراة الاوروبيين هم هم الذين قد جروا الويل والبوار على تركية . فيا أيها الزملاء الرفقاء ! هلموا بنا توحد الغاية والغرض ، ونسعى وراءهما سعياً متحداً في جميع اقطار العالم . فان لم تفعل ذلك اليوم قضي علينا بالخيبة الدائمة والسقوط الى الدرك الاسفل . أي أبطال الثورة التركية ! البلشفية تمد اليكم يد الاتحاد فمدوا يدكم اليها فتجتمع الكلمة ويقوى البنيان . ليحي المؤتمر الشعوبي الثالث ، وان الله على كل شيء قدير ! ! » .

ولما بلغ شأن موسكو هذا المبلغ ، عادت هي لا تكتفي بالاقوال ، بل شرعت في انفاذ خطتها الى حيز العمل . وقد كان أهل تركستان الروسية أول أمة شرقية تبلشفت ولبست الحلة السوفياتية . وخبر ذلك ان البلاشفة لما استلموا أزمة الحكم أواخر سنة ١٩١٧ منحوا تركستان الحق التام في تقرير المصير ، فولى أهل البلاد الأمراء الوطنيين حكاماً عليهم ، وجددوا انشاء وحدات دولتهم السابقة تجديداً فيه شيء من الصلة الاتحادية الواهية التي تربطهم بروسية . وفي سنة ١٩٢٠ وجدت الحكومة السوفياتية ان تركستان قد غدت ناضجة تمام النضوج لالهابها نار الثورة الاجتماعية ، فخلعت الأمراء الوطنيين ونصبت مكانهم حكاماً من متبلشفة أهل البلاد ونقلت اليهم جميع السلطة السياسية بعد ان جعلت عليهم مراقبين ومشرفين من الروس ، وسلبت الملكية من ايدي الطبقتين العليا والوسطى ، وخضدت شوكة المقاومين الذين كانوا يقاومون بصورة غير منظمة وذلك بأن قتلت بعضاً وعذبت بعضاً ،

بحيث قد تجلى في ذلك كل ضرب من ضروب المحن المشتملة على اهول الفظائع البلشفية . ثم اتقدت نار الثورة الاجتماعية في القوقاس كما في تركستان عند ما شرعت حكومة موسكو تبلشف اذربيجان . فان جمهورية اذربيجان التترية هذه كانت من قبل جزءاً من بلاد عبر القوقاس الروسية التي أعلنت استقلالها عند تلاشي الامبراطورية القيصرية سنة ١٩١٧. ولما كانت اذربيجان واقعة موقعاً جغرافياً في شرقي عبر القوقاس بالقرب من بحر قزوين ، فقد كانت عاصمتها مدينة باكو المشهورة بينابيع زيت البترول ؛ فتقدمت صناعة هذه المدينة تقدماً كبيراً حتى صارت مركزاً صناعياً على الطراز الغربي . فكثر ساكنها وعمالها وهم من اصول اسيوية وروسية مختلطة ، واذ وجد البلاشفة متسعاً لانفاذ خطتهم هناك حيث نشأت طبقات من المتمولين والعمال ، قلبوا الحكومة الوطنية في ربيع سنة ١٩٢٠ وأتوا بقوة روسية بلشفية استعانوا بها على بلشفة اذربيجان وتحويلها جمهورية سوفياتية ، ثم جرى ما يصاحب الثورة الاجتماعية بطبيعة الحال : من سلب ونهب وتقتيل لاهل الطبقتين الوسطى والعليا ، ومن نشر الرعب والهول وضبط الاملاك ومصادرة الارزاق والتصرف بها في سبيل منفعة العمال الصناعيين والزراعيين . على هذا المنوال شرعت البلشفية أوائل سنة ١٩٢٠ تدخل دور العمل في اقطار الشرقين الأدنى والأوسط .

ولما رسخت قدم البلشفية في الشرق ، وجد السوفياتيون ان قد حان الوقت لحسر اللثام ، والانبراء الى الميدان بدون خوف ولا وجل . ففي خريف سنة ١٩٢٠ عقدت الحكومة السوفياتية الروسية مؤتمراً في باكو دعته « مؤتمر الشعوب الشرقية » كان الغرض منه ليس تحرير الشرق من رق الغرب فحسب بل بلشفته أيضاً دون مرد . ولم يكن السعي وراء هذه الغاية الكبرى على شيء من الاستتار بل كانت الوسائل المتوسل بها لبلوغ الغرض من الغرابة بمكان ، فيجدر بنا الوقوف على بعض منها .

ففي المقام الأول أصدر « المؤتمر الثالث في موسكو » منشوراً عاماً دعا فيه الشعوب الشرقية الى حضور هذا المؤتمر، مؤتمر الشعوب الشرقية، وكان توجيه المنشور هذا الى الفلاحين والعمال في الاقطار الشرقية، وهذه صورته :ـ

« أيها الفلاحون والعمال في ايران ! ان رجال الحكومة القاجارية في طهران، وحكامها وامراءها « الخانات »، مابرحوا جميعاً يستلبون اموالكم وامتعتكم واغذيتكم طيلة قرون عديدة. فان الأرضين التي هي ملككم بحق صريح على مقتضى الشريعة الاسلامية قد امتلكها لصوص حكومة طهران، وهم الآن يتصرفون بها ويتجرون على مايهوون ويشاؤون ويرهقونكم بالضرائب الباهظة والمكوس الواقرة. ولما بلغوا من افساد التدبير والادارة والحكم بحيث عادوا لايستطيعون احتلاب البلاد وامتكاك عظمها، باعوا ايران السنة الماضية من ارباب رؤوس المال البريطانيين بمبلغ ٢،٠٠٠:٠٠٠ ليرة بيعاً من مقتضاه ان تقوم بريطانية بتنظيم جيش في البلاد لزيادة استذلالكم واستعبادكم واستنزاف قواكم واستلاب اموالكم بحجة الضرائب اللازمة لحكومة طهران و« خاناتها ». وقد باعوا ينابيع الزيت في جنوبي ايران حتى ينزلوا بالبلاد الضربة القاضية لا قيام لكم من بعدها.

« أيها الفلاحون في العراق ! ! قد أعلن البريطانيون ان بلادكم مستقلة، ولكن هناك ٨٠،٠٠٠ جندي انكليزي يحتلون بلادكم، وينهبون ويسلبون، ويقتلون ويجوسون خلال دياركم، ويهتكون حرمات نسائكم.

« أيها الفلاحون في الاناضول ! ! ان الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية قد احتلت القسطنطينية وجعلتها تحت افواه المدافع، وطفقت تمتهن كرامة السلطان وتعامله معاملة أسير رقيق، وتكرهه اكراهاً شديداً على النزول على ارادتها ورغبتها في تجزئة البلاد التركية البحتة، وفي تسليم مالية البلاد الى أيدي ارباب رؤوس المال الأجانب، الذين يسهل عليهم اذ

ذاك استنزاف دم الأمة التركية المنهوكة القوى من جراء خطوب الحرب التي خضتم غمارها ست سنوات ، وقد وضعت هذه الحكومات أيديها على مناجم هرقلية ، واحتلت موانئكم ، وهي الآن تسوق الجيوش الى بلادكم للاجتياح والتدويخ .

أيها الفلاحون والعمال في أرمينيـة ! كم من الضحايا البشرية التي ذهبت منكم خلال هذه العقود الأخيرة من السنين بسبب مكايد المتمولين الأجانب ودسائسهم ، الذين كانوا يداهنونكم باقوال واحتجاجات يظهرون بها استهجانهم لقيام الكرد بتعذيبكم وتقتيلكم ، من حيث كانوا يحرضونكم على الانتقاض على السلطان لكيما يتسنى لهم بهراقة دمائكم الحصول على الامتيازات الجديدة والمنافع الاقتصـادية الدائمة من السلطان . وقد وعدوكم خلال الحرب العامة بمنحكم الحكم الذاتي ثم جعلوا يحرضون تجاركم واساتيذكم وقسيسيكم لتطلبوا ضم جانب من بلاد الفلاح التركي الى بلادكم ، والغرض من ذلك انما هو ادامة النزاع بين العنصرين الترك والأرمن ، فيستطيعون بذلك أبداً جني الثمار والاستفادة من هذا العداء ، الذي مادامت ناره مشتعلة بينكم وبين الترك ، استطاع ارباب رؤوس المال البريطانيون والفرنسيس والاميريكيون عرقلة النهضة التركية ، بتهديدهم الحكومة التركيه بانتقاضكم عليها ، كما انهم يتخذونكم مطيـة لهم في سبيل مطامعهم الاستعمارية ، بتهديدكم بقيام الكرد عليكم .

« أيهـا الفلاحون في سورية وبلاد العرب ! ان بريطانية وفرنسة قد وعدتاكم بالاستقلال التام وهـذه جيوشهما اليوم تحتل بلادكم ، والانكليز والفرنسيس يحكمونكم ويسنون لكم الانظمة والقوانين كما يشاءون ، وأنتم الذين تحررتم من السلطان التركي وحكومة القسطنطينية ، قـد غدوتم عبيداً ارقاء لحكومتي باريس ولندن اللتين انمـا تختلفان عن حكومة السلطان بكونهما أشد حولاً وأعظم هولاً وأقدر على استعمار بلادكم واستعبادكم .

« انكم جميعاً أيها الملأ لتعرفون هـذا حق المعرفة . فالعمال والفلاحون في ايران قـد انتقضوا على حكومة طهران الغاشمة الخائنـة ودكوها دكا ، والفلاحون في العراق يشعلون نار الثورة على غير انقطاع ، ويقاتلون الجنود البريطانية أشد قتال ، وانكم يافلاحي الانضول الذين قد انضوى بعضكم الى بعض تحت راية كمال باشا لتقاتلوا المجتاح الأجنبي أصدق القتال ، قد سمعنا انكم تبذلون وسعكم لانشاء حزب لـكم هو حزب العامة والفلاحين ، يكون على استعداد لمقاتلة كل راسمالي مستنزف حتى « الباشوات » أنفسهم اذا ما أقدموا على عقد صلح مع المستنزفين الأجانب . ان سورية قائمة قاعدة لا أمن فيها ولا سلم .

وأنتم يافلاحي الأرمن ، الذين نكث الحلفاء بالوعود التي قطعوها لـكم فتركوكم وشأنكم تذهبون فريسة المجاعات والمساغب الفتاكة بكم فتكا ذريعاً حتى ينيلوكم حكما أصلح ! ! اعلموا وثقوا بأن خلاصكم الذي ترجونه على يد أرباب رؤوس المال الاجانب انما هو ضرب من المستحيل الذي لايدرك . واعلموا زيادة على جميع ذلك أن حكومتكم الطاشناقية ، التي هي صنيعة الحلفاء لتستغيث بحكومة العمال والفلاحين في روسية وتستمد منها الرفد والسلام .

« أيها الفلاحون والعمال في الشرق الادنى ! انكم اذا نظمتم شـؤونكم وأنشـأتم حكوماتكم ، حكومة العمال والفلاحـين ، وذدتم عن حياضكم بسلاحكم ، واتحدتم بالجيش الروسي الاحمر ، جيش العمال والفلاحين ، استطعتم أن تقضوا على المستنزفين البريطانيين والفرنسيس والاميركان القضاء الاخير ، وان تناقشوا من بعـد ذلك المستنزفين الوطنيين الحساب ، ووجدتم متسعا رحباً وانتم اذ ذاك احرار أن تتحدوا مع جمهوريات العمال في العالم ، لصيانة مصالحـكم وترقيتها ، هـذا اذا عرفتم كيفية استثمار بلادكم بأيديكم في سبيل منافعكم ومنافع الطبقات العـاملة في العالم بأسره تلك الطبقات التي تبادلـكم حاصلات بلادكم ومنتجاتها مبادلة النظير مع نظيره والندّ مع ندّه .

« وبعــد ، فاننا نود التباحث والتناقش معكم في جميع هــذه القضايا والشؤون ، في مؤتمر باكو ، فابذلوا غاية مستطاعــكم وجهدكم للحضور الى باكو عدداً كبيراً بحيث تكونون فيه في اليوم الاول من أيلول (سبتمبر) فاسـتحثوا مطاياكم واسـتخفوا بمصاعب السفر ومشقة الانتقال ، وجوبوا الصحاري والفيافي ، والاغوار والانجاد ، وامُّوا هذا المـكان المقدس الذي فيه تستطيعون العمل في سـبيل احياء ماضيكم واحترام شرائع أديانكم . فاسلـكوا السباسب والقفار ، وتسلقوا الجبال ، واعبروا الانهار ، واقدموا علينا فاننا نرتقب مقدمكم لنعمل معاً يداً واحدةً في سبيل نجاتكم وخلاصكم من رق العبودية المرة ، ان كنتم تريدون أن تحيوا حياة الحرية والعــدل والمساواة » .

من هذا الخطاب يفهم المتدبر صفة مؤتمر باكو وماهيته . المؤتمر الذي انمــا كان في الواقع مؤتمرا لايقاد نار الثورة الاجتماعية أكثر منه لتحقيق الغايات القومية والآمال الوطنية . وقد بلغ عدد أعضاء الوفود التي أمت باكو لحضور هذا المؤتمر ١٩٠٠ عضو ، فيهم ما يقرب من ١٣٠٠ من الشيوعيين . وأكبر الوفود هي التي قدمت من تركية وفارس وأرمينية والاقطار القوقاسية ، ولم تكن وفود بلاد العرب والهند ، حتى وبلاد الشرق الاقصى بالقليلة . وعلى كل فقد كانت الحـكومة الروسية السوفياتية هي سيدة المؤتمر تنظم الجلسات وتضبط الواقعات . وقد تضمن الخطاب الذي ألقاه الزعيم البلشفي الـكبير زينوفيف ، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الشعوبي الثالث في موســكو ، خلاصــة موضوع المؤتمر ، فقد وقف في الوفود خطيبا ، وقال : —

« اننا نعتقد أن هذا المؤتمر هو حقاً من الواقعات الـكبرى التي يدونها التاريخ لانه ليس برهانا فقط على أن دعوة الايقاظ متمشية الآن في عالم العمال والفلاحين في أوربة واماركة ؛ بل على ان الاسـتيقاظ الذي شرع يستيقظه

هؤلاء لمظيم ، ونحن نرى ذلك لعهدنا هـذا بلا ريب ، وليس عدد هؤلاء الناهضـين من اهل طبقات العمال بالقليل ، بل هم يعدون بمئات الالوف والملايين في جميع الامم والشعوب الشرقية ، منهم تتألف الكثرة الساحقة باعتبار مجموع سـكان العالم ، وهم من القوة والبأس بحيث يستطيعون ان يشعـلوا بينهم و بين المتمولين حرباً ضروساً يكون بها القضاء الاخير على رأس المال . . .

« ان المؤتمر الدولي الشيوعي قد صرح للملأ منذ أول انشائه : أن قطين أسـية يفوقون بعددهم قطـين أوربة أربعة أضعاف وان قد وضـعنا نصب أعيننا تحرير جميع الشـعوب وجميع العمال . . . اننا نعلم أن اهل الطبقات العاملة في الشرق على انحطاط بمقدار ، لـكنهم ليسوا بالملومين في ذلك ، فهم لا يقرأون ولا يكتبون ، يعتقدون بالاساطير والخرافات والارواح الشريرة ، لا يقفون على الصحف ولا يعلمون ماجريات العالم ، ولا يفقهون شيئاً من أصول حفظ الصحة . أيهـا الرفاق ! قد بحث مؤتمرنا الذي عقد في موسكو في امكان القيام بثورة اجتماعيـة في جميع اقطار المشرق قبلما تدخل هذه الاقطار في دور سلطان المـال ، وتغدو فريسة تمزّقها مخالب المتمولين . ومن معلومكم ان هناك اعتقاداً طويلاً في الناس ماهيته ان لابد لـكل بلاد من ان تجتاز دور سلطان المـال في حياتها . . . قبلما تولد الاشتراكية وتحيا حق الحياة . اننا على يقين انـ هذا الاعتقاد أمسى فاسداً باطلاً . والبرهان على يقيننا في ذلك انمـا هو روسية التي امتهدت للعالم السبيل ليقفو أثرها ، ومذ انشأنا نظامنا الحديث أخـذنا نتحقق ان الصين والهند وتركيـة وفارس وأرمينيه جميعها قادرة على النسج على منوال النظام السوفياتي من حيث ان ذلك واجب عليها ولو تكبدت في سبيله ما تكبدت . فعلى هـذه البلاد ان تتأهب وتستعد لتكون جمهوريات سوفياتية .

« واني أقول اننا آخذون بنصرة كل جماعة من الناس وان لم يعتقدوا

آراءنا ، بل لو كانوا من مخالفينا في بعض الأمور والقضايا . وفي مثل هذه الحال قامت الحكومة السوفياتية بعضد كمال في تركية ، مع اننا لم نكن بالجاهلين ان هذه الحركة التي على رأسها مصطفى كمال ليست شيوعية . هذا نعرفه حق المعرفة . ولدي طائفة من صور المقررات التي وضعت في الجلسة الأولى من جلسات المجلس الوطني في انقرة ، وقد قال كمال نفسه « شخص الخليفة مقدس معصوم » ، والقصد الذي ترمي اليه الحركة الكمالية هو تنجية « الخليفة المقدس » من ايدي العدو . هذه غاية الوطنيين الترك في الاناضول ولكن هل تلتئم مع المبدإ السوفياتي ؟ كلاّ . اننا نحترم للجمهور والعامة معتقداتهم الدينية ، ونعلم الطرق التي يجدر بنا اتباعها في انتشالهم من متخبط الجهل والغباوة ولكن ذلك لا يتم الاّ على توالي الأيام وكر السنين .

« اننا نحذر أشد الحذر ونبلغ من العناية الغاية ، متى ما أمسينا على مقربة من المعتقدات الدينية المستقرة في طبقة العمال في الشرق كما في غيره . ولكن نرانا في هذا المؤتمر لا مفر لنا من القول انه يجب عليكم الا تفعلوا ما تفعله الحكومة الكمالية في تركية . يجب عليكم الا تأخذوا بنصرة السلطان حتى ولو دعتكم الى ذلك داعيات دينية . يجب عليكم ان تقووا ساعدكم ولا تكونوا من الانقياد الى عدوكم بحيث يجعلكم تسيرون القهقرى رغم أنوفكم . اننا على يقين ان ساعة السلطان قد دنت [1] . فيجب عليكم ان تقاوموا كل سلطة أوتوقراطية في بلادكم . وان تقلعوا عن كل ثقة لكم بالسلطان . وان تجاهدوا حق الجهاد حتى تنالوا نظام الحكم على الطراز السوفياتي . ان الروسيين كانوا مثلكم فيما مضى اشداء الايمان بالقيصر ، ولكن لما فتقت

(١) من اجل هذا قد قيل ان فصل الخلافة عن السلطنة والغاء مقام السلطنة في تركية هو منزع بلشفي ، وقد رأيت البلاشفة مغتبطين بهذا الأمر . لكنني لا اعتقد اصلا ان حكومة انقرة اقتلعت السلطنة من بني عثمان لمجرد الاقتداء بحكومة موسكو ، بدليل ان حكومة انقرة لا تزال تعارض المبادىء البلشفية ، وتمنع نشرها في تركية . فمسئلة الغاء السلطنة هي مسئلة قائمة بذاتها ، ليس لها ادنى تعلق بالدعوة الشيوعية . (ش)

ريح الفتنة وهب الشعب بسلاحه تبدّد ذلك الايمان ايما تبدد واضمحل حتى لم يبق منه ذرة . ومثلما حدث في روسية سيحدث في تركية وفي سائر المشرق متى ما شرعت ثورة الفلاحين تقذف حمماً فتنشق الارض ويقول الانسان مالها . عند ذلك يفنى ايمان الشعب بالسلطان وبسادته القابضين منه على الرقاب . ثم نؤكد لكم القول ان السياسة التي تتمشى عليها حكومة الشعب في تركية اليوم ليست متفقة مع سياسة المؤتمر الشيوعي الدولي التي هي سياستنا وقد اتخذناها قبلةً لنا . وعلى هذا كله فاننا نصرح اننا على استعدادٍ لعضد كل حركة ثورية يقام بها مقاومةً للحكومة البريطانية .

« أجل ! اننا ننظم جنودنا ونعبىء صفوفنا لصراع متمولة الانكليز حتى نأخذ برقابهم تحت مواطىء الاقدام . ان الضربة الكبرى يجب ان تنزل بهؤلاء المتمولة قضاء مبرماً يجعلهم أثراً بعد عين . ثقوا بهذا وايقنوا ولكن يجب علينا في الحين نفسه ان نورد طبقة العمال في الشرق موارد العلم والتهذيب حتى يهبوا جميعاً لمقاتلة أهل الثروة على اختلافهم لا فرق بين طبقاتهم وجنسياتهم . وليعلم مريد العلم ان الغاية في هذه الثورة القائمة سوقها اليوم في الشرق ليست هي طرد متمولة الانكليز بحيث تحل محلهم متمولة الترك ، كلا ، ان غايتنا هي تطهير البلاد من كل متمول مستنزف حتى يتلاشى المترفون فينا وأهل الظلم والطغيان ، فيتحرر الشعب ويسود العمال انفسهم »

وقد كان مؤتمر باكو السهم الأول الذي اطلقه البلاشفة منذراً بشروعهم في بلشفة الشرق توصلا للغاية التي جعلوا يشدّون اليها الرحال في كل سبيل وقد تلا ذلك كثير من المساعي السوفياتية المشتملة على ضروب الوسائل ومختلف الذرائع . واكثر ذلك كان في بلاد القوقاس حيث تمت باشفة بلاد الكرج وأرمينيا في ربيع سنة ١٩٢٠ .

على ان هذا النجاح الذي لقيه البلاشفة في هذه الاقطار ، قد كان من شأنه حمل تلك الاقوام الوطنية الداخلة في حماية روسية السوفياتية على زيادة

السخط والغضب . فان جميع الاحزاب الوطنية الشرقية التي كانت قد تاقت نصرة موسكو لها بمظيم الحماسة والغيرة نكاية بالدول المتحالفة ، شرعت تتحقق الآن ان البلشفية الروسية لايبعد ان تكون ويلاً عليها بل أشد من ويل الاستعمار الغربي ، وكلاهما قاض على المطامح الوطنية والمنازع القومية شرقضاء . ومن المعلوم ان القادة الوطنيين لم يبرحوا منذ أول الامر يدركون الغاية الكبرى التي ترمي اليها حكومة موسكو اذ كانوا من القوة والحزامة بحيث جعلوا يتناولون نصرة روسية بلا ثمن يؤدونه لموسكو . ولكن تبدلت الحال الآن غير الحال . ان تنبه العمال في الشرق قد يكون على مقدار وقد تكون الفلسفة الشيوعية مما لاتفقهه عقول العمال الشرقيين ولا تعي كنهه مهما كان بسيطا . على ان وجود روسية السوفياتية لخطر يقام له ويقعد ولا عجب ، مادامت الاقلية الشيوعية التي لاتزيد عددها حسب اقرارها على ٦٠٠،٠٠٠ تتحكم في ١٧٠،٠٠٠،٠٠٠ من الناس تحكم القهر والاستبداد . اما البلاد الاوروبية الغربية فانها تعوّل في مقاومة البلشفية على مبلغ التهذيب الذي عليه شعوبها وعلى شدة استمساكهم بتقاليدهم النامية فى ظل الحرية المنظمة وليس للشرق سلاح مثل هذا السلاح ، وهو اشبه بروسية من حيث استعداده لقبول البلشفية وتخييم الجهل فوق ربوعه وفقده الطبقات الوسطى القوية الشكيمة ، وايلافهُ تقاليد الاستبداد ، وانقياده لحكم الاقلية المرهقة وخنوعه لها خنوعا اعمى . وقد كان لنا ببلشفة تركستان واذربيجان مصداق لذلك . وبالتالي ايقن القادة الوطنيون وزعماء النهضات في الشرق ان مصيدة البلاشفة جرارة غرّارة يجب الحذر منها كل الحذر .

وترى الحال على هذه الصفة في سائر المشرق . ففي اسية الصغرى قبضت حكومة مصطفى كمال على رسل الدعوة البلشفية (١) بينما الجنود التركية

(١) تقدم لنا ذكر قصة مصطفى صبحي البلشفيكي التركي ورفاقه ، ومؤخراً قبضت الحكومة التركية في استانبول على بعض اتراك بتهمة البلشفة وزجتهم في السجن . (ش)

اخذت تتناوش مع الجنود الروسية عند حدود القوقاس المختلف فيها . وقد مرّ معنا في الكلام على مصر كيف كان وجل القادة الوطنيين من ثورة اجتماعية يوقد نارها المحرضون واهل السجس في طبقة الفلاحين سبباً في تسهيل التفاهم بين اللورد ملنر والزعماء الوطنيين ، تفاهماً قائماً على حبّ الوفاق . وكتب السر فالنتين تشيرول ربيع سنة ١٩١٨ يبين مبلغ العبرة التي اعتبرها الرأي العام الهندي في انهيار روسية القيصرية وظهور البلشفية ظهورها الرائع ، ومما قاله : « ان عقلاء الهنود ليعجبون كيف عجزت الطبقة الراقية في روسية (وهي تفوق الطبقة الراقية في الهند عدداً واستعداداً) عن تدبير شؤون الطبقة الجاهلة وحكمها حتى الحكم بعد تمزق الحكومة شر ممزق » . وفي افغانستان أخذ الامير يبدل محبته لحليفه السوفياتي بنفرة متزايدة . فان تدفق سيل المهاجرين من تركستان السوفياتية على افغانستان هرباً من ويل البلاشفة وجورهم ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أمير بخارى ، وهو نسيب لأمان الله خان ، جعل أمان الله يفكر في سوء العقبى ، وزاد الأمر خطراً عصيان الجنود الافغانية عصياناً شديداً على الحدود الروسية طالبين ان يمنحوا الحق بانشاء مجالس عسكرية على الطراز الروسي . قد يبذل البلاشفة جهدهم في اغراء الأمير والتسويل له بأن يقوم بغزو الهند غزوة كبيرة ، ولكنه يكون من الحكمة والبصر بالعواقب ان يعلم ان غزوة الهند اذا قام بها لا تجديه نفعاً ما دام هو نفسه معرضاً لغزو رعيته العاصية التي ستفتك حينئذ به . يتضح من جميع ما تقدم ان القادة والزعماء الوطنيين الشرقيين ، وفيهم المحافظون وسواهم ، أخذوا على توالي الأيام بالتعاقد معاً والاصطفاف جنباً الى جنب للوقوف في وجه البلشفية والحذر الشديد منها . ولو لم تكن الاقطار الشرقية معرضة لخطر الاستعمار الغربي أي لو كانت بمأمن من غوائل الحلفاء ، لكانت صدت تقدم الجيوش الحمراء صداً ، ولقنت رسل الدعوة البلشفية درساً ملؤه العبر الكبرى .

ولكن من سوء الطالع ان القادة الشرقيين يرون أنفسهم في برزخ مربد الجوّ طرفه الأول متصل بهول البلاشفة والآخر بهول الاستعمار الغربي المنقطع النظير (١) ، فكانت النتيجة انهم جعلوا يقاتلون كل فريق بالآخر ، تارة يولون وجوههم شطر موسكو اذ استفحل جور المستعمرين ، وطوراً ينظرون الى الدول الغربية اذ قاب لهم لينين ظهر المجنّ . هذه حقيقة لا ريب فيها . فعلى ساسة الغرب ان يتحققوها ويعلموا العلم اليقين ان ليس زعيم رسل الدعوة البلشفية هو زينوفيف وهو يخطب في جماهير الوفود في مؤتمر باكو ، ولكنه هو الجنرال غورو قائد الكتائب السنغالية الذي يحكم في سورية والبلاد العربية الداخلية حكماً قائماً على طرق « القوة والحديد والنار » . (٢)

ومن المعلوم ان انتشار البلشفية في الشرق انتشاراً واسع النطاق بعيد الأفق ، سيكون بلا ريب جائحةً رائعةً يتزلزل الشرق بها وسائر العالم معاً . فاذا كان انتصار البلشفية في الغرب معناه انتصار البربرية ، فهو في الشرق الهمجية المطبقة لا تبقي ولا تذر . وان تحرر الطبقات العامة في الشرق ممن لم يبرحوا في الجهل والغباوة طفرةً بدون تدريج ، من ربق التقاليد الدينية والعادات القديمة وسائر القيود القاعدة بهم عن النهوض الصحيح ، واغتمار

---

(١) راجع التعليق الذي أشير اليه في موضع قريب متقدم وهو يبحث في موقف الأمم الاسلامية ازاء البلاشفة ودعوتهم . (المعرب)

(٢) طالما نصح عقلاء الشرق الدول المستعمرة بأن يقلعوا عن سياسة الفتح والغزو في الشرق بعد الحرب العامة ، فلم يعر رجال هذه الدول كلامهم آذاناً واعية ، حرصاً على الفتوحات وطمعاً وشرهاً وجرياً على السياسة القديمة الاستعمارية ، ومن تعود شيئاً صعب عليه الاقلاع عنه . ولولا كون الشرقيين لم يزالوا يأملون الخلاص من الاستعمار رأساً بدون واسطة لمد جميعهم ايديهم الى مصافحة السوفييت المسكوفيين ، واقتدوا في ذلك بالترك والعجم والافغان ، الذين اعتضدوا بالروس بدون اقتباس نار البلشفة . ولكن الشرقيين ولا سيما العرب فضلوا المطالبة والمراجعة والتوسل بالتدابير القانونية والطرق السياسية ، على المبادرة الى التدابير القصوى . على ان المثل السائر « آخر الدواء الكي » هو عربي . (ش)

الطبقتين العليا والوسطى في الثورة الاجتماعية الآكلة الحاطمة من كل جانب ، ذلك من شأنه نسف الحضارة الشرقية والتهذيب الشرقي نسفاً ينزل بالشرق أفدح النوازل فيستغرق في الفوضى استغراقاً لا يستقر به على حال أعصراً وقروناً .

خاتمة

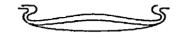
هنا ينتهي وصفنا العام للتطور الحادث اليوم في الشرقين الأدنى والأوسط . فهل هناك شيء أحرى بالتدبر وأجدر بالاعتبار ، مما جاء في هذا الوصف الذي أتينا عليه من جميع وجوهه ؟ لا جرم انه تبدل وتغير ، واستحالة وانقلاب . فقد تحرك « الشرق الجامد » أخيراً حتى القرارة القصوى من اعماقه ، وهو اليوم في أشد ما يكون من الانفعال والهياج والفوران ، وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يخال الخائل ويتصور المتصور . فالعالم الاسلامي الذي ظلت قواه العقلية والروحانية هاجعةً ما يقرب من الف سنة ، قد استيقظ مرةً أخرى وطفقت قواه تعمل عملها العجيب ـ وغدا المسلمون يعظمون شأناً من جديد ويعلون منزلة في الأرض .

أما ماذا سيكون ؟ والى أين المصير ؟ ذلك لا يعلمه الا علام الغيوب . فليس منا من يستطيع التنبوء ماذا عسى يكون نتاج هذا التطور الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وغير ذلك من اطوار الحياة . بل كل ما نستطيع الجهر به هو ان نعلم علماً صحيحاً ونصف وصفاً سليماً مطابقاً ، ونحلل مختلف العناصر التي يتألف منها هذا الانقلاب العظيم تحليلاً لا نعرف فيه غير الصدق ولا نبغي منه سوى الحق .

وهذا حقاً ليس بالقليل . فان النظر بعين التدبر والعقل في هذا التحول الحادث الذي لا مثيل له ، وربط مظاهره وصفحاته المتنوعة بعضها ببعض

وجمعها تحت صورة عامة تظهر بها الاسباب والنتائج سلسلة آخذاً بعضها برقاب بعض ، وتتبع الطرق المديدة التي يسير فيها هذا الانقلاب تتبعاً نقف به على اصول كل حالة من حالاته ، ووجه من وجوهه ، انما الغرض منه هو العلم الصحيح بالواقع ، والادراك التام لاهمية ما ينجم عن هذا التبدل في المستقبل .

فالمعرفة تأملٌ وأملٌ ، فاذا عرفتَ فتأملْ وأملْ ـ أمّل ان هذا المخاض الشديد الذي لا يفهم كنهه الا من أوتي علماً كبيراً ، ورزق عقلاً صافياً ، وقلباً واعياً ، ان هو الا مولد لشرق جديد في عالم جديد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .



التعليق على تاريخ الممالك الاسلامية الهندية

(راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صفحة ١٩٧)

يمين الدولة وامين الملة محمود الغزني الذي يقول له مؤرخونا محمود بن سبكتكين ، لم يكن افغانياً بل تركياً ، وبين الجنسين فرق لايخفى ، لأن الترك تورانيون والافغان ايرانيون ، وانما يمكن ان يعد افغانيا باعتبار مملكته لأنه أسس ملكه في غزنة من بلادالافغان ، واصل هذه القضية ان جد محمود ، وهو المسمى آلب تكين ، وهو بطل تركي ، كان شأنه الغزو والقتال وكان في خدمة الملوك السامانيين الفرس الذين تولوا خراسان وما وراء النهر ، فحصلت وحشة أوجبت انفصاله عنهم ، فقدم الى مدينة غزنة وهي من احصن مدن العالم موقعاً ، عدا مالها من الاسوار ، وفيها من الحصون ، وحولها من الخنادق ، وتبوأها نحو سنة ٩٦٢ وتبعه شرذمة من احلاس الخيل ومغاوير الحروب ، ممن جاءوا معه مما وراء النهر ، فكانوا نواة جيشه ، ثم انضم اليهم جند وافر من الافغان الذين يشبهون الترك كثيراً في الغرام بالقتال ، فانبسطت بهم مملكة البتكين ، ثم ملكها ولده سبتكين الذى خلفه (٩٧٦) وفتح كابول التي هي مفتاح معابر جبال الهندكوش وقندهار قلعة الاسكندر ، واتم فتح البلادالافغانية واستظهر على مغازيه بهذا الشعب الافغاني الباسل الذي لم يخضع لشعب في العالم . وساعد على اتحاد الاتراك والافغان كون الفريقين على عقيدة السنة والجماعة ، حال كون الفرس شيعة متعصبين. ثم انه في سنة ٩٩٧ اقطع السامانيون سبكتكين بلاد ماوراء النهر ، مكافأة له على نجدته اياهم في ثورة ثارت عليهم في بلادهم ، فقوي سلطان سبكتكين وطمع في غزو الهند مطمح نظره ، وشن الغارات على البنجاب مقدمة الهند ، وما زال يتحرش بالهند حتى احتشدت راجوات لاهور ، ودلهي ، واجمير ، وقنوج ، وكالنجار ، ومشت صوب الافغان بجميع افيالها و ١٠٠ الف من فرسانها ، فنصر الله سبكتكين ومزق الهنود شر ممزق ، ولم يكن للهنود ان يملكوا نظام الترك في الحروب ، والترك هم الذين الف على مزاياهم العسكرية الامام الجاحظ شيخ كتاب العرب كتابه المسمى « فضائل الاتراك » في ايام المأمون ولا أن يقاوموا الافغان وهم هم الذين لم يوجد قوم مثلهم للحرب والضرب ، ثم خلف سبكتكين ولده محمود المعدود من اشهر ابطال الاسلام وهوالفاتح الاعظم للهند .

وبدأ غزواته بفتح ملتان سنة ١٠٠٥ مسيحية ، وأراد ان يوغل في الهند فحشد راجا لاهور عليه جميع عساكر الهند ، متحداً مع راجوات دلهي واجمير وقنوج وكفاليور وكاليجار واوجايين ، فقام العالم البرهمي من أوله الى آخره ، وانتظرهم محمود في سهل « باتنداه » ودارت رحى الحرب فقضى الله بكسر الهنود بالرغم من تفوقهم في العدد ، وفرت افيالهم لاتلوي على شيء ، وغنم محمود بعد هذه المعركة مالايحصى ولا يستقصى من كنوز الهند ، ونهب هيكل « ناغاركوت » (١٠٠٩) وسنة ١٠١٤ فتح بلاد دواب وسنة ١٠١٩ فتح قنوج وطرد اميرها ووضع مكانه اميراً تابعاً له . وسنة ١٠٢١ فتح كشمير ، وما زال يوالي

مغازيه ويلقي الرعب في قلوب الهنود الى ان تألب عليه ملوك البراهمة مرة اخرى سنة ١٠٢٤ فاستأنف فيهم صولته المعهودة ، ودخل لاهور وخلع سلطانها ستبال بن دانتبال ، وضم جميع البنجاب الى سلطنته فكانت المحطة الاولى من طريق الاسلام الى الهند . ثم هاجم كاليجار وكفاليور فالتزم ملوكها ان يؤدوا له الجزية . وقال في صبح الاعشى : انه فتح بهاضية سنة ٣٩٦ وسار الى بيدا ملك الهند ، فهرب منه الى مدينته المعروفة بكاليجار ، فحاصره فيها حتى صالحه على مال فاخذ المال والبسه خلعته ، واستعفى من شد وسطه بالمنطقة فلم يعفه من ذلك فشدها على كره . وسنة ١٠٢٥ مسيحية غزا ساحل الكوجرات وهدم صنم سومنات الشهير . وبهذه الفتوحات كلها التي فتحت للاسلام ابواب الهند اطلق عليه الخليفة العباسي القادر بالله لقب سلطان وسماه يمين الدولة وامين الملة . قال بعض مؤرخي الافرنجة ان محموداً كان اسكندر الاسلام ، فانه فتح الهند كما فتحها اسكندر ، الا ان فتوحات اسكندر ذهبت بذهابه أما فتوحات ابن سبكتكين فبقيت الى اليوم . وكان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد فيه ، وقلع عبادة الاصنام منه ، الا انه مع هذا الفوز المعنوي فاز بغنائم من الذهب والفضة والحجارة الكريمة لم تدخل في حوزة أحد من قبله .

ويعترف مؤرخو الافرنجة بان محمود الغزني لم يكن فاتحاً غازياً عالي المكانة من الجهة العسكرية فقط ، بل انه كان سلطاناً عاقلاً اديباً كيساً ، ناظماً بين حاشيتي المادة والمعنى ، جامعاً بين دواتي السيف والقلم ، ويعللون ذلك بأنه بفتحه العراق العجمي واستيلائه على اصبهان والري التي انتزعها من بني بويه ، وعلى نيسابور وطوس وهراة ، فضلا عما كان بيده من ملك خراسان وافغانستان ، قد قام بتمثيل درر مدني يليق بملوك العجم ، وانه اعطى ابهة الملك حقها ، وفي زمانه حصلت نهضة فارس العقلية وصارت غزنة هذه التي كانت عبارة عن قلعة حربية ، مركزاً للعلم والعرفان ومشرقاً لاشعة الحكمة والآداب ، وامتلأت مدارس وجوامع ومكاتب ، واليها شدت رحالها الحكماء والعلماء والشعراء ، ان لم يكن منهم الا الفيلسوف الاعظم أبو نصر الفارابي ، والشاعر الاكبر هوميروس العجم الفردوسي لكفى . وقد كان السلطان محمود هو المقترح على الفردوسي نظم الشاهنامه ووعده بأن يكافئه على كل دوبيت (بيتين) بقطعة من الذهب ، الا ان ذلك اثار حسد الحساد ، فوشوا به الى السلطان فبدل له الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسي وفر خفية بعد ان فرق الفضة على عبيده وهجا السلطان هجواً مراً . وذهب الى بغداد ثم الى شيراز ، وكان محمود قد ارسل في اثره من يستعطفه ويبين له ندم السلطان على مافرط منه فكان الفردوسي قد مات . ولزم باب الغزني من شعراء الفرس أيضاً العنصري والفروخي والاسجودي ، وكان هناك العلامة الكبير ابو الريحان البيروني صاحب الجغرافية ، وفي ايامه نبغ الكاتبان الاعظمان فرقدا سماء البلاغة ابو الفضل بديع الزمان الهمذاني ، وابو بكر الخوارزمي ، وكان الهمذاني عامل السلطان على هراة . ومن الذين اشتهروا في ذلك الدور ، وكان اليد اليمنى لابن سبكتكين في المآثر والمبار ، والمفاخر الكبار ، وزيره الاسفرائيني . وقد الف الكاتب العتبي تاريخا خاصاً بمحمود بن سبكتكين ، كما انه مترجم في تآليف كثيرة من أشهرها وفيات الاعيان لابن خلكان .

وخلف محموداً الغزني بعد وفاته ابنه مسعود (١٠٣٠ الى ١٠٤٠) وفتح من الهند بلاد

الأرض ودخل بنارس . وورد في صبح الاعشى ان ابراهيم بن مسعود فتح ايضاً حصوناً كثيرة في سنة احدى وخمسين وأربعمائة .

وسنة وفاة محمود على مافي صبح الاعشى بالتاريخ الهجري هي ٤١١ قال : وملك بعده ابنه محمد بن محمود بعهد من ابيه ، ثم قدم أهل المملكة عليه اخاه مسعود بن محمود وملكوه عليهم وبقي حتى قتل في سنة ٤٣٢ ثم ملك بعده اخوه محمد المقدم ذكره وقتل في عامه ، وملك بعده ابن اخيه مودود بن مسعود وتوفي سنة ٤٤١ وملك بعده عمه عبد الرشيد بن محمود وقتل سنة ٤٤٤ وملك بعده فرخذاد بن مسعود بن محمود وتوفي سنة ٤٥١ وملك بعده أخوه الملك المؤيد ابراهيم بن مسعود (السابق ذكره في الفتوحات) وتوفي سنة ٤٨١ وملك بعده ابنه مسعود بن ابراهيم وتوفي سنة ٥٠٨ وملك بعده ارسلان شاه بن مسعود ثم ملك بعده بهرام شاه بن مسعود ، وملك بعده ابنه خسرو شاه بن بهرام وتوفي سنة ٥٥٥ وملك بعده ابنه ملكشاه بن خسرو شاه بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سبكتكين. ثم انتقل الملك الى الغورية . انتهى

وبعد وفاة محمود بن سبكتكين ظهرت الاتراك السلجوقية على خراسان وانتقصوا ملك ابناء سبكتكين ، فانتقلوا من غزنة الى لاهور في الهند وما زالت امورهم في انحطاط الى ان غلب على ملكهم الغوريون الافغان ، والله وارث الارض ومن عليها .

وهؤلاء الغوريون هم امراء فيروزكوه أو بيروزكوه وهي قاعدة بلاد الغور على مافي كتاب « تقويم البلدان » والغور (بضم المعجمة) ــ على ما في (اللباب) ــ هي بلاد في الجبال بقرب هراة . وقال في « المشترك » : ان بيرزكوه هي دار مملكة جبال الغور وهي قلعة حصينة وبها كان مستقراً بنو سام خان ملوك الغور . وقال في « معجم البلدان » : بناها بنو سام ملوك الغورية . وقال في صبح الاعشى : وبلاد الغور وغزنة وما والاها وان عدها في « مسالك الامصار » من مملكة التورانيين فانها ليست من أصل مملكة توران وانما تغلب عليها ملوكها من مملكة ايران فلذلك أثبتها في مملكة ايران » . انتهى

وقال في « المشترك » : معنى بيروزكوه الجبل الازرق .

وأول من ملك من الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين ، ملك عند انقراض الدولة الغزنية واستضاف غزنة وما جاورها الى الغور سنة ٥٥٥ ولقب بالملك المعظم . وملك بعده غياث الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين ، ثم ملك أخوه شهاب الدين وفي أيام هذا ، أي في عهد الستمائة للهجرة ، كان الامام حجة الاسلام فخر الدين الرازي ، وكان يذهب الى هذا السلطان ويعظه . وملك بعده علاء الدين محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين . أما الفاتح الاعظم من هؤلاء والذي مكانه في التاريخ العام عين مكان ابن سبكتكين فهو السلطان محمد أبو المظفر بن الحسين الغوري .

قال « رينه غروسه » صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من التواريخ : « ان الغوريين استولوا على جميع ما كان يملكه الغزنيون ، ومن ثمة كان بديهياً أن يجروا على أثرهم في غزو الهند . فبعد أن أزال محمد الغوري ملك آل سبكتكين ، زحف نحو الهند فجمع له ملوك البراهمة ثلاثمائة الف فارس ، وثلاثة آلاف فيل ، ففرق شملها ودخل الهند ، وكانت معركة فاصلة

وفتحاً قلّ أن اتسق مثله للاسلام (١١٩٣ مسيحية) ضمن للاسلام بعدها سلطنة الهند مدة خمسة قرون متوالية ، وأدال الله لمحمد (ص) من براهما . فدخل محمد دلهي وميرات وآغرا واستضافها الى ملكه رأساً. وفي السنة التالية فتح قنو ج (١١٩٤)ومملوكه ايبك فتح بنارس وبلاد أوض ، وسنة ١١٩٦ ضرب الجزية على مملكة كفاليور ، وسنة ١١٩٧ استلحق بلاد كوجرات ، وسنة ١٢٠٢ خلع راجا كاليجار واستضاف الى المملكة الغورية بلاد بوندكهاند . وان أحد رفاق ايبك بختيار قاجي الافغاني انتزع من يد دولة « ما غدها » البوذية بلاد بهار والبنغاله سنة ١٢٠٢ » انتهى قول غروسه ملخصاً .

وقال في صبح الاعشى : فتح أبو المظفر محمد بن الحسين الغوري مدينة لهاور (أي لاهور) سنة ٥٤٧ (وابن الاثير يقول ٥٧٩ وهو أصح لان ذلك في زمان ابن الاثير) واتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، وبلغ من النكاية في ملوكهم ما لم يبلغه أحد من ملوك الاسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دهلي (يقال دهلي ودلهي ودلي) التي هي قاعدة الهند . وبعث ايبك عساكره فلكت من الهند أماكن مادخلها مسلم قبله حتى قاربت جهة الصين . ثم قال : ثم فتح سنة ٥٩٧ نهر واله . وتوالت ملوك الاسلام وفتوحاتهم في الهند الى ان كان محمد بن طغلقشاه في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية ، قوى سلطانه بالهند وكثرت عساكره وأخذ في الفتوح حتى فتح معظم الهند . انتهى

قال غروسه ان محمود الغوري أسس ملكاً عظيماً ثابتاً وطيداً ، تعاقبت عليه الدول لاسلامية التي جاءت بعده من ترك وافغان وطاغلاقيين وسادات ولوديين وتيموريين ، وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة وحق الاسلام في السلطنة العامة على الهند مما بقي الى زمان استيلاء البريطانيين . وهو الذي نقل كرسي السلطنة من لاهور الى دلهي لأن لاهور لاتضمن الا ملك البنجاب ، حال كون دلهي تدعو الى ملك جميع سهول القنج وأقاليم الدكان ، ولما كان الغزنيون في لاهور لم يكونوا الا نظير راجاوات في أحد أقاليم الهند أما الغوريون في دلهي ومن ورثهم من آل طاغلاق وآل السيد وسلالة تيمور فكانوا بالفعل سلاطين الهند بأسرها .

ثم قال ما محصله : ان امبراطورية الغوريين كانت لم تزل قائمة بالسيف ، وكان الهنود الوطنيون غير دائنين الا بسبب توالي الزحوف من الشمال ، وكان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد كثير من المماليك . وكان شأن هؤلاء المماليك في الهند شأنهم بمصر حذو القذة بالقذة . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة اندمجوا في الجيش فامتازوا بالبسالة والاقدام وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة الى درجة الى أن ينال الامارة وأحياناً السلطنة كما كان يقع بمصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون ابقاء المآثر والطمع في تخليد الذكر ، فكما ان سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات شريفة ، كذلك سلاطين المماليك بالهند كانوا على هذه الطريقة ، فالسلطان المملوك في الاصل ايبك الذي خلف محمد الغوري ، بنى في دلهي الجامع المسمى « جامع مسجد » والمنارة المسماة « قطب منار » وبنى في اجمير الجامع المنسوب اليه . وكما هو الشأن في دول المماليك قلما كان يتولى الابن مكان أبيه بل كان يغلب على الملك مملوك آخر يكون أوفر حزماً ، وأشد عزماً من الولد الذي كان يجب أن يرث أباه ، لهذا لما مات ايبك تغلب على سلطنة الهند مملوك تركي اسمه آلتامش (١٢١١ -

١٢٣٦) فكان من عظام السلاطين المدبرين ، وطد أركان السلطنة وأكمل فتح الهند الشمالية بأخذ بلاد المالفا . وأعلى من هذا كله انه حفظ الهند من جائحة المغول ، لانه في زمان التامش هذا زحف الجنكيزيون على ايران وأزالوا سلطنة خوارزم العظيمة ، وفر الامير جلال الدين مانكبردي الخوارزمي شريداً ملتجئاً الى التامش ، فكان من حسن تدبير هـذا انه رد غارة المغول على البنجاب ولكنه لم يتهور في اصراخ جلال الدين الى محاولة اعادة ملكه له وشن الغارة على المغول ، مما لم تكن تؤمن عاقبته . الا أن المغول كروا أيضاً على البنجاب بعد موت التامش فردهم مملوك تركي آخر كان التامش رقاه تدريجاً الى امارة الجيش اسمه « بالبان » فحفظ بالبان الهند من غارة المغول فكافأته الامة بأن رقته الى السلطنة (١٢٦٦ - ١٢٨٧) .

وسنة ١٢٩٠ مسيحية انتقلت سلطنة الهند من أيدي المماليك الى آل قيلجي الافغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان علاء الدين الذي كسب المسلمين فتوحات جديدة فاخضع بهوبال واجتاح بلاد المهرات (في بلاد بمباي الحاضرة) وضرب على راجا المهرات الجزية ، وفتح مدناً وقفل بغنائم كثيرة . وعام ١٢٩٧ زحف ١٠٠ الف مغولي مما وراء النهر يقودهم امير من ذرية جنكيز قاصدين البنجاب فالتقاهم علاء الدين وهزمهم شر هزيمة بقرب لاهور فعادوا سنة ١٣٠٥ وتقدموا نحو دلهي فكسرهم علاء الدين كسرة اشنع من الاولى ، واسر منهم جانباً رماهم تحت ارجل الفيلة فداستهم . ثم عاد علاء الدين الى اتمام فتح الهند الوسطى ، فاستولى على مملكة كوجرات ، ثم غزا مملكة تشيتور ، وبعد حرب ضروس التجأ ملكها الى جبال آراقالي ، فلم يرجع علاء الدين عنه الا بعد ان اقر له بالطاعة. وسنة ١٣٠٨ سير علاء الدين احد قواده الملك كافور لغزو مملكة دكان ، وامتنع راجا مملكة المهرات عن دفع الجزية ، فغزا بلاده وغزا مملكة تلينغانا وفتح عنوة عاصمتها فارانغال ، واستولى على خزائن ملكها . وسنة ١٣١٠ غزا مملكة مايسور واجتاح مدينة هاليبيد العظيمة . ثم في اثناء ايابه الى دلهي قتل راجا المهرات الذي عاود العصيان ، وضم المهرات الى سلطنة دلهي . اما فتح الدكان فلم يتيسر لا للاسكندر ولا لمحمود الغزنوي ولا لمحمد الغوري وكل من هؤلاء الفاتحين العظام لم يصل الى بلاد الدكان في غزواته .

الا انه في عام ١٣٢١ نزى على سلطنة دلهي بنو طغلق الاتراك ، وازالوا الدولة الافغانية من هناك ، وظهر من بني طغلق هؤلاء سلطان اسمه محمد اشتهر بالعنف والعسف ، فغاظ بسياسته الهنود والمسلمين معاً ، فانتبذ كل امير في مملكة واعلن انفصاله عن سلطنة دلهي . فملك في الدكان ، وملك في مالفا ، وملك في البنغال ، وملك في كوجرات ، وملك في أوض . وكلهم اصبحوا مستقلين بانفسهم ولم يبق بيد حكومة دلهي سوى دواب والبنجاب ، وهـذه ايضاً تعرضت لفادحة كبرى وهي غارة المغول . انتهى .

قال في صبح الاعشى . ثم بعد محمد شاه ولي هذه المملكة سلطان من اقاربه اسمه فيروزشاه وبقي في الملك نحو اربعين سنة ثم تنقلت المملكة في بيتهم الى ان كان من تمرلنك ما كان من فتح دلهي ونهبها . انتهى .

فان المغول كان قصدوا الهند مراراً وصدتهم الهند وانكفأوا عنها خاسرين ، الا انهم لما دخلوا في الاسلام ، وتوطد ملكهم في فارس والعراق وافغانستان ، وبعد ان كانوا اعداء

الاسلام صاروا حماته - ولولا ذلك مارسخت قدمهم في هـذه البلدان خلافاً لما يظن بعضهم - جددوا العزم على غزو الهند اقتفاء لاثر غيرهم ممن ملكوا افغانستان كالغزنيين والغوريين وفي سنة ١٣٩٨ مسيحية زحف تمرلنك بعساكر جرارة على الهند ، فدخل البنجاب ، وصمد الى دلهي فالتقاه سلطانها محمود الثالث في بانيبات ، فدارت الدائرة على محمود ، ودخل تمرلنك دلهي ظافراً فاتحاً ، واعلن نفسه سلطاناً على الهند كلها في الجامع الاعظم ، ولكنه استبقى سلاطين دلهي الاصليين بصفة تبع له ، فسقطت مكانتهم وصاروا كسائر ملوك الهند . فصارت ممالك الهند الاسلامية هي سلطنة دلهي ومملكة الدكان ومملكة البنغالة ومملكة جاونبور ومملكة مالفا ومملكة كوجرات . اما مملكة البنغالة فأسسها بختيار قيلجي الافغاني على انقاض دولة « مافادها » البوذية وبقى كيانها محفوظاً مع تعاقب الدول الافغانية والتركية والمغولية على الهند الى اواسط القرن السادس عشر للمسيح . واما مملكة جاونبور فقد انشأها احد وزراء محمود الثالث سلطان دلهي في اثناء غزوة تمرلنك ، وكان لها بلاد أوض وولاية بنارس ، وقد تركت مآثر باهرة مثل جامع « اتالا » المبنى سنة ١٤٠٨ والمسجد الاعظم المبنى سنة ١٤٥٠ ولكن لم يطل عمر هـذه الدولة ، اذ كان تأسيسها سنة ١٣٩٤ وانقراضها سنه ١٤٧٧ بحرب وقعت مع سلطنة دلهي التي استلحقتها رأساً . وأما مملكة مالفا التي قاعدتها مدينة ماندو ، فقد وضع اساسها رجل افغاني كان والياً هناك سنة ١٤٠١ في خلال غارة المغول ، فعاشت الى سنة ١٥٣٤ اذ استولى عليها ملك كوجرات . واما مملكة كوجرات وعاصمتها احمد آباد فقد اسسها أيضاً واليها في تضاعيف زحفة تمرلنك . وفي الربع الاول من القرن السادس عشر كان قد وصل البرتغاليون الى الهند بعد ان اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، فحاولوا النزول بكوتكان فاستصرخ ملوك كوجرات الأتراك العثمانيين سنة ١٥٠٨ فارسلوا اسطولهم لينضم الى اسطول كوجرات في حرب البرتغال ، فكانت الغلبة للاميرال البرتغالي « فرانسز كودالمايده » ونزل البرتغاليون بساحل ديو سنة ١٥١٣ . واعظم مملكة انشقت عن امبراطورية دلهي هي الدكان ، اسسها الباهمانيون وهم افغان ، وكانت قاعدتها « كولبارغه » بقرب حيدر آباد ، وتشتمل على ملك نظام حيدر آباد الحالى مضافاً اليه برار وبلاد المهرات . وكان بجانبها مملكتان هنديتان قويتان احداهما « فارانفال » والثانية « فيجاياناغار » الى الطرف الجنوبي من الدكان . فكانت سلطنة الدكان عبارة عن جهاد دائم مع هاتين المملكتين . وسنة ١٤٢٤ افتتح احمد الاول الباهماني صاحب الدكان فارانفال ودمرها تدميراً . وكان معظم شوكة الباهمانيين في زمان محمد الثانى (١٤٦٣ - ١٤٨٢) بهمة وزيره محمود قاوان الذى افتتح بلد « غوا » من مملكة فيجاياناغار وسواحل سيركار من ملك راجا أوريسا . وفي ايامه امتدت سلطة الدكان من خليج البنغالة الى بحر عمان . ولكن بعد موت محمد الثاني الباهماني تقسمت هذه السلطنة ايدي سبا ، فتشعبت منها خمس دول مستقلة كل عن الاخرى : الاولى دولة باريدشاه في بيدار (١٤٩٠ - ١٦٥٧) واصل ملوكها كرج . الثانية دولة عماد شاه في بيرار (١٤٨٤ - ١٥٧٢) اصلهم هنود واسلموا . الثالثة دولة نظام شاه في احمد ناغار (١٤٩٦ - ١٦٠٠) وهـذه أيضاً اصل مؤسسيها من الهنود المهتدين . الرابعة دولة قطب شاه في غولكوند (١٥١٢ - ١٦٨٧) وهذه اصلها فارسي . الخامسة دولة عادل شاه في بيجابور (١٤٨٩ - ١٦٨٦) ويقال ان

مؤسسها يوسف عادل كان من اولاد السلطان مراد الثاني العثماني ، ساقته الاقدار بعد اقامة طويلة بفارس الى بلاد الهند حيث استقل بامارة بيجابور ، وكان متعصباً للفرس وللشيعة بخلاف اهله آل عثمان . فنشر الادب الفارسي في مملكته وجعل التشيع دين الدولة الرسمي وخلفه ولده اسماعيل فاحتذى على مثاله .

ومما لايخفى على الناقد البصير ان خمس دول كهذه ، متشعبة من مملكة واحده اشبه بملوك الطوائف بالاندلس ، أو ملوك مصر والشام بعد صلاح الدين ، أو ملوك ايطالية قبل وحدتها الاخيرة الخ كان بعضها مع بعض في نزاع مستمر ، والحروب بينهم لاتكاد تنقطع . فكانت الفائدة من ذلك لجيرانهم الهندوس ، وتقوى بخلافهم راجا « فيجاياناغار » واشتدت جرأته مرة الى ان اجتاح مملكة احمد ناغار بحجة الصريخ لمملكة بيجابور . فغلبت على الملكين المتنازعين حمية الاسلام وتصالحا وانضم اليهما ملكا بيدار ، وغولكوند ، وزحف الاربعة على فيجاياناغار ، ونبذوا هذه المملكة العظيمة ، وقتلوا الراجا في واقعة تاليكوت ، وأتوا على عاصمته من القواعد (١٥٦٥) . قال المؤرخ رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من منابع التاريخ وعليه اعتمدنا في اكثر هذا النقل : ان الجهاد الاسلامي الذي بدأه محمود الغزني في نحو سنة الف للمسيح في الهند ، انتهى في أواخر القرن السادس عشر على حدود مايسور ، ولمع الهلال من ثلوج هملايا الى ساحل كرنات» .

ونعود الى سلطنة المغول في دلهي ، فنقول ان احد احفاد تمرلنك الشهير واسمه بابر ولقبه ظهير الدين محمد ، قد انتهز فرصة بعض الحوادث التي وقعت بدلهي ، فزحف من كابول ، حيث كان اميراً الى عاصمة الهند . وكان بابر هذا ابن المسمى عمر الشيخ ملك فرغانه ، وبذلك ابن حفيد ميرانشاه ثالث أولاد تيمورلنك وكانت أمه الاميرة قوتلق نيغار آخر من بقي من سلالة جنتاي الجنكيزية ، كما انه ينتسب الى جنكيز فاتح الدنيا من جهة الاب ايضاً . ومعلوم ان الانتساب الى جنكيز هو في العالم الطوراني اقصى ماتخيله الاماني لملك أو سلطان أو امير أو خان من الخانات ، كما هو الشأن عند العرب في الانتساب الى آل البيت . بل كل منسوب في المغول أو الترك الى جنكيز أو تيمور يرى لنفسه حقاً شرعياً في الملك . فكان بابر من ورثة ذلك الحق الشرعي والمجد الاثيل . وبعد وفاة والده سنة ١٤٩٤ (٥ رمضان ٨٩٩) آل اليه ملك فرغانة وكان عمره ١٢ سنة ، وسنة ١٤٩٧ ضم اليه مملكة ماوراء النهر ، ولكن غلب عليه محمد الشيباني خان الاوزبك مؤسس الدولة الشيبانية في بخارى ، فانهزم الى افغانستان يحاول ملكاً أو يموت فيعذر . فوفق الى امارة كابول سنة ١٥٠٤ واستولى على قندهار سنة ١٥٠٧ وكان نظير محمود بن سبكتكين قد تبعه جماعة من الاتراك من مساعير الحروب ، واعصوصب حوله فئام من الافغان الذين احلى شيء عندهم القتال والنزال ، فأول شيء كان يخطر ببال مثل هؤلاء وهم في كابول وقندهار ، هبوط الهند كما هبطها من قبلهم محمود الغزني ومحمد الغوري . وبينما هم يحفزون بابر على هذه الغزاة التي وراءها الصيت البعيد وخزائن الهند ، اذ لاحت لذلك الغرة فان السلطان ابراهيم الثاني صاحب دلهي وهو من السلاطين اللوديين من سلالة افغانية كان اختلف مع عمه اعلم فالتجأ هذا الى كابول ، وبهذا تسنى لبابر ان يشن الغارة على البنجاب (١٥٢٥) بجيش لايتجاوز ١٣ الف مقاتل لكنهم جميعاً من المنجذين في الحروب

ذوي البصائر في القتال ، وقد جر بابر معه المدافع التي لم تكن معروفة يومئذ في الهند ، فنهد اليه السلطان ابراهيم بمائة الف مقاتل والف فيل ، ودارت رحى الحرب في سهل بانيبات في ٢١ ابريل (نيسان) عام ١٥٢٦ اونهار الجمعة ٨ رجب سنة ٩٣٢ فاقام بابر في وجه الفيلة حواجز من العجلات المسلسلة بينها المدافع ، بحيث ابطل عمل الافيال ومن الجهة الاخرى كان عنده رماة بالمدافع يتقنون الرمي على نمط العثمانيين في القرن السادس عشر . فالقت قذائفهم الرعب في قلوب الهنود فهلك ابراهيم في الواقعة وهلك معه ٢٥ الفا من جنوده وتشتت الباقي . ودخل بابر دلهي ظافراً ونودي به ملك ملوك الهند في جامع دلهي الاعظم ، وسار ولده همايون فاحتل آغرا العاصمة الثانية وغيرها من الحواضر .

فقامت قيامة الهند لهذه الواقعة ، واخذ راجوات الهندوس يتأهبون للقتال بدعوة رانا (لقب اكبر من راجا) سانغا ملك تشيتور لحشد معه راجا مارفار ، وراجا آمبر ، وراجا أجير ، وراجا كفاليور ، وراجا تشنديري ، وانضم اليهم محمود اللودي اخو السلطان المقتول فبلغت جيوش الحلفاء مائة الف مقاتل من أفرس خيالة الشرق والتقى الجمعان في سهل كانفاها على مقربة من آغرا ، فانتهت المعركة بدبرة الهنود ، وكانت الكلمة للمدفع كما في المعركة السابقة فمات رانا تشيتور غماً . وزحف بابر يستصفي الممالك فحصر قلعة تشنديري ، وضيق عليها ، فلما ايقن اهلها بقرب سقوطها كان منهم أن ذبحوا نساءهم وأولادهم أولاً ، ثم قتل بعضهم بعضاً ، بحيث عند ما دخلها بابر (سنة ١٥٢٨) لم يجد الا جثثا وأشلاء . اما السلطان محمود اللودي فكان لا يزال في مملكة أوض فقصده بابر فانهزم الى البنغالة ، فانتصر له ملك البنغالة وهو افغاني مثله فتغلب عليه بابر وأجبره على الدخول في طاعته . وهكذا بقي بابر خمسة اعوام يجالد ويجاهد حتى دوخ الهند وأسس فيها السلطنة المغولية التي استمرت قرنين في الهند وكان لها تاريخ طويل عريض .

ومات بابر (سنة ١٥٣٠) بعد أن أبقى ذكراً خالداً ولم يكن بابر سلطانا فاتحا فقط ، بل كان على طراز كثير من سلاطين آل عثمان محمد الفاتح أو سليم واحد يجمع بين السيف والقلم ولا يكتفي بالحكم دون الحكم . فكان فيه صلابة اجداده الجنكيزيين ، وغرام الترك بالفتوح ، ودماثة اخلاق الفرس وشغفهم بالآداب ، وبالجملة فقد جمع بين شدة البأس ورقة الادب ، وحرر خاطراته بقلمه فكان لها شهرة عظيمة وترجمت الى اللغات الاوربية فقال فيها رنان الفليسوف الفرنساوي ما يأتي :

« ان هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق في الرواية ، وعند مايفكر الانسان ان محرر تلك الوقائع بذلك البيان السليقي هو مؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لا يعود قادراً على ترك الكتاب من يده ، لانه يحس بذلك تلك الحالة النفسية التي كانت تجيش بتلك السلائل التترية المالكة التي ملأت آسيا وقائعها منذ القرون الوسطى الى أيامنا هذه . فتجد في تلك الاسطر كلاما معقولاً مع اصالة الرأي ، ورقة الطبع ، وشدة الجلد بدون تعصب ديني ، ومع عدم اهتمام زائد بالاسلام (مما لا ينبغي أن ينساه القارىء أن من الصفات التي ترتاح اليها نفس أكثر الاوربيين هو أن يروا الملك المسلم غير شديد التمسك بدينه هذا هو مقياس الحب عندهم) الا في احايين يظهر عليه فيها أثر التدين . وبالاجمال يتجلى من كلامه حرية الفكر .

والدهاء ، والعدل ، وعدم الانقياد للاوهام ، مما لا تجده في فاتح آخر من الفاتحين المسلمين ، فكان أول اولئك السلاطين الحكماء الذين لمع ملكهم كثيراً في الهند بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر » انتهى كلام رنان .

وكان من حفاظ شعر عمر الخيام ، والحافظ الشيرازي ، وكان هو بنفسه شاعراً فمن قوله :

« ما الطف دخول النيروز وما أطلى كأس الطلاء ولكن أحلى منهما نغمة الحب » .

وفي دائرة المعارف الاسلامية : ان شجاعة بابر واقدامه كانا فوق وصف الواصفين ، وانه لما فتح سمرقند ثاني مرة تسلق السور بمائتين واربعين رجلا لا غير وقطع الهندكوش في وسط الشتاء وهو امر خارق العادة . وكان شاعراً له ديوان بالتركي ، وكتب خاطرات حياته « بابرنامه » وقد طبعت هذه في قازان سنة ١٨٥٧ وترجمها الى الفارسي عبد الرحيم ميرزا خان ومن النسخة الفارسية نقلت الى اللغات الاوربية .

ولما استقر همايون بن بابر على كرسي السلطنة صمد الى محمود اللودي الافغاني صاحب اوض فقهره في معركة لوكنو (١٥٣١) ولكنه عجز عن قهر امير افغاني آخر كان في قلعة تشونار حاكما على ولاية بنارس ، فترك حصار هذه القلعة وانقلب على عقبيه قاصداً قتال بهادر شاه ملك كوجرات ومالفا . فبينما هو في هذه العزمة اذ بلغه ان صاحب قلعة تشونار هذا ، وكان اسمه شير خان ، قد استولى على البنغالة وعلى بهار واوض وصار ذا دولة وصولة ، يقدر فيها ان يجاذب الدولة التيمورية بحبل . فأغذّ السير الى البنغالة ، وهزم شيرخان وتراجع الى مكانه ، لكن شير خان عاد فاسترد جميع المدن التي كان اخلاها ، فعاد همايون اليه وانتصب الميزان بينهما في بوكسار على القنج شرقي بنارس ، فانكسر همايون (١٥٣٥) ثم جدد الحملة على شير خان سنة ١٥٤٠ فالتقيا في قنوج فانهزم ثانية ، وخسر مدافعه ورجاله وكنوزه وفر من الهند شريداً قاصداً جبال افغانستان التي انحدر منها ابوه قبل هذه الواقعة بثلاث عشرة سنة فحاول هناك أن يملك كما كان أولا ، فاذا باخوته يأبون النزول له عن شيء ، فوقعت بينه وبينهم وقائع اضطر ان يلتجيء بسببها الى شاه العجم فسير الشاه معه جيشا أعانه على فتح قندهار (١٥٤٥) وفتح كابول (١٥٥٠) .

أما شير خان الافغاني فدخل دلهي وآغرا ، واستصفى ملك بابر واعاد الدولة الافغانية الهندية ، واستوسق له الامر الى أن مات (١٥٤٥) فوقع النزاع بين أولاده ، وأخذ كل يجذب الحبل من جهة ، فرأى همايون صيده سانحاً وحشد ١٥ الف فارس وهبط بها البنجاب. وكان خليفة شيرخان في دلهي هو اسكندر شاه ، فصمد اليه بثمانين الف مقاتل وبضع مئات من الفيلة ، فكان اللقاء في سهل سيرهند ، بين دلهي ولاهور ، وقضى الله بالنصر لهمايون (١٥٥٥) ودخل دلهي مسترجعاً ملكه الذي كان فقده قبل ذلك العهد بثلاث عشرة سنة . ثم بعد ظفره هذا لم يلبث ان مات ، فدفن بالقبة التي كان بناها لنفسه في دلهي ، والتي تعد من اعاجيب الدنيا ، وخلف همايون ولده اكبر ابو الفتح جلال الدين محمد وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من العمر ، ولكنه كان قد نبغ قبل بلوغ اشده وكان مولده في السند في ١٥ اكتوبر سنة ١٥٤٢ وتتويجه في البنجاب سنة ١٦٥٦ ووفقه الله بوزير مجرب اسمه بيرم . وكان الافغان لم يفقدوا في الهند جميع ملكهم بل كان باقياً بايديهم نصيب صالح مثل اوض وبهار والبنغالة

وكان لدى ملكهم محمد عادل قائد فائق الاقران اسمه هيمو . ففي سنة ١٥٥٦ تمكن هيمو هذا من استرداد دلهي ، ومطاردة اكبر الى البنجاب . وكان مع هيمومائة الف فارس وخمسمائة فيل ، على حين لم يكن بقي مع اكبر ووزيره بيرم الا ٢٠ الف مقاتل . فالتقى الجمعان في سهل « بانيبات » الذي اشتهر بعدة معارك فاصلة . فكان من مساعدة القدر لاكبر أن وقع هيمو صريعا ، فوقع الرعب في قلوب رجاله التي كانت تتقوى بشخصه وولوا الأدبار على حين كان المظنون ان الدائرة ستدور على اكبر . فعاد هذا الى بلاد « دواب » ودخل دلهي ثم والى الهزائم على الافغان ، فانتزع من ايديهم اوض وبهار ، وحمل الملك الافغاني صاحب البنغالة على طاعته . ولكن بقي عليه تدويخ راجاوات الهندوس الاباة للضيم المعروفين بالشمم العظيم . وكان الفاتحون المسلمون طالما هزموا ملوك الهند ، وضربوا عليهم الجزى ، ولكن لم يقدروا في وقت من الاوقات على ملاشاتهم ، ولا على كسب قلوبهم . ففكر اكبر في اتقاء خطر هؤلاء القوم باستصلاح قلوبهم ونيل مودتهم ، وحمل من يعاند منهم على السيف . فجرت بينه وبينهم وقائع استولى بعدها على جناليور (١٥٥٨) وعلى اجمير (١٥٦٠) وهاجم سنة ١٥٦٧ رانا ميفار واسطة عقد الراجاوات ، فانهزم الرانا الى جبال « آرافالى » تاركا الدفاع عن عاصمته تشيتور لقائد بطل من قواده اسمه « جاي مال » . وجاء اكبر بنفسه يضيق الخناق بالمدينة فسدده الله الى سهم رماه هو بيده من جبهته فاصاب من نفس جاي مال مقتلا ، واختلط بعده امر المحصورين فذبحوا نساءهم واولادهم بايديهم ، وجعلوا منهم ركاماً اشعلوا فيه النار ، ثم اصطفوا حول تلك النار وفتحوا ابواب المدينة ينتظرون دخول العدو حتى يبلوا فيه الى آخر نفس من انفاسهم ، فتذهب ارواحهم غالية . وكان اكبر بحكمته ادرك مرادهم فبدلاً من ان يرميهم برجاله ، ويعرض من هؤلاء للقتل الوفاً ساق عليهم افياله فجعلتهم اشلاء واجزاء وفتح المدينة (١٥٦٨) . وسنة ١٥٦٩ فتح رانتابور ثم كالنجار . وسنة ١٥٧٠ قدم له الطاعة راجا مارفار ثم راجا بيكانير . وبعد ذلك ببضع سنين انتقض راجا مارفار ، فزحفت اليه جيوش دلهي وفتحت قلعة بلاده سيفانا (١٥٧٦) فانضم كثير من الراجاوات الى رانا تشيتور ، وناشبوا سلطان دهلي الحرب ولم تبرح نارها متقدة الى سنة ١٦١٤ اذ قدم « آمرا سينغ » بن « برتاب سينغ » رانا تشيتور الطاعة لسلطان الاسلام فاعيد اليه ملكه . واعقابه مالكون هناك الى اليوم .

ويقول مؤرخو الهند من الافرنجة ان سلطان دلهي عرف كيف يستولي على راجاوات الهند ويستأسر قلوبهم لأنه كان شهماً وفيًّا عالي الجناب ، تام المروءة ، حفيظاً للعهود ، ملأ كأ للافئدة بشرف خصاله ونبل فعاله . وكانت هذه البيوتات المالكة في آمبر ومارفار وبيكانير ، الامثلة العليا في النبالة والاصالة وحب المجد ووفاء الذمة ، فلما شاهدوا من السلطان اكبر ما شاهدوه من المكارم والمعالي ، محضوه خالص الود ، وبايعوه من صميم القلب ، وبذلوا من دونه ارواحهم ، ووقفوا على مناصحته غدوهم ورواحهم ، فاستخلصهم هو لنفسه ، وعول عليهم في مهماته ، وانتدب منهم للمناصب العلية ، وعمر بهم وبابنائهم الابواب السلطانية ورجحهم على رهطه المغول ، وجعلهم ردءا له في المواقف لاسيما راجا آمبر المسمى « بيهاري مال » وولده « بإخفان داس » وحفيده « مان سينغ » الذي كان اخاً لاكبر في الرضاع . وكان راجا آخر اسمه « تودار

مال » لاكبر اليد اليمنى في اعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنغالة . ولما مات بكاه بكاء الاخ لاخيه . ولاجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول اشار اكبر بزواج بعضهم من بعض . وبدأ في ذلك بنفسه ، فعقد لنفسه نكاح اخت الراجا باخفان داس ، ولولده جهانكير على حفيدة راجا مارفار . وازوج كثيرين من امراء المغول اميرات من الأسر المالكة في بيكانير واجمير . ووشج علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية . فتوطدت دولته وامن شر العواقب وبسبب راحة فكره من جهة الهنود ، امكنه ان يستصفي ماكان بقي في الهند من ممالك الاسلام فاسر شاه كوجرات (١٥٧٣) وضم ملكه الى سلطنة دلهي . واستلحق ايضاً البنغالة (١٥٨٠) وكشمير (١٥٨٦) والسند (١٥٩٢) وكانت الدكان لاتزال مقسمة الى خمس ممالك كما سبق الذكر ، الا أن ملك احمد ناغار فتح مملكة بيدار سنة ١٥٧٢ وضمها الى ملكه ، فنزل عدد تلك الممالك الى اربع ، وصارت مملكة احمد ناغار قوة خطيرة . فاعتزم اكبر فتحها سنة ١٥٩٥ وكان على رأس هذه المملكة ملكة من خوارق الدهر في العزم والحزم والاقدام ، وهي السلطانة « شانده » الملقبة « بيضاء الدكان » وهي بالفعل بيضة الزمان ، فردته عن مملكتها مكفوحاً واذهبت جميع حملاته سدى ولم يقدر اكبر على احمد ناغار الا بعد موت هذه السلطانة القهرمانة فاستلحق مملكة احمد ناغار (١٦٠٠) واضطرب سائر ملوك الدكان خوفاً فاهرعوا الى دلهي مقدمين الطاعة .

وكانت نهاية اكبر سنة ١٦٠٥ بعد أن ملأ الهند مآثر ومفاخر ، وادار السلطنة ادارة قل من سدد لمثلها في الاوائل والاواخر ، لأنه الى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير متركنة على قواعد ثابتة ، ولا سائرة بأنظمة مقررة ؛ بل كان السيف وحده حكماً ، وكانت الثورات متصلة ، واهواء الاشخاص هي الغالبة . فسير اكبر دولته هذه على اصول ادارة جديدة ، فارسية مغولية ، غاية في الضبط والدقة ، ورفع استبداد الامراء ، وازال الفوضى من البلاد ، وجذب الى الابواب السلطانية اولئك الامراء والملوك الذين كانوا يستبدون بالرعايا فارضاهم واراح الرعايا من ضررهم ، صنيع لويس الرابع عشر في فرنسا . وشكل الدولة على النسق الحالي المتبع بهذا الوقت في العالم فهناك الوكيل أي رئيس النظار (والاتراك الى اليوم يسمون الناظر وكيلا والصدر الاعظم رئيس الوكلاء) ثم الوزير وهو ناظر المالية وخان قانان أي ناظر الحربية . وكان عنده ناظر البلاط السلطاني (نظير مشير المابين الهمايوني عند آل عثمان) وناظر العدلية وكان اسمه الصدر ، وغير ذلك من المناصب . واما البلاد فكانت ١٨ ولاية كبرى كل منها تنقسم الى مايشبه اليوم الالوية وهلم جرّاً . وكانت الادارة الملكية في ايدي الفرس كما ان الجيش كان بايدي المغول والهنود . وكان عدد الجيش الدائم ١٤٠ الفاً وهذا شيء غير معهود في ذلك الوقت واما دخل الخزانة السلطانية فكان نحو مليارين أي ١٠٠ مليون جنيه ، وهذا أيضاً شيء هائل بالنسبة الى ذلك الزمن . وعامل اكبر الهنود برفق عظيم ، ورفع عنهم ضروب الاهانات . ويقول مؤرخو الافرنجة ان اكبر لم يبال بما يفرضه الاسلام من اهانة الكافر واذلاله وامتهانه ، وانه نسخ تلك العادات ولم يعامل الهنود معاملة الغالب للمغلوب . ومن جملة من غمزوا الاسلام من هذه الجهة رينه غروسه صاحب تاريخ آسية . ونحن نقول ان اكبر احسن صنعاً ، لأنه مايخدم ملك من ملوك الاسلام ملته بمثل العدل والله

تعالى يقول « لايجرمنكم شنآن قوم ان لاتعدلوا » ويقول « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وظاهر انه ينهى عن ظلم العدو لكونه عدواً ولايخصص العدل بالحكم بين المسلمين وحدهم ، بل جعل الحكم بالعدل بين الناس . وكلمة الناس تشمل المسلم وغيرالمسلم كما لايخفى. فان كان من امراء المسلمين من لم يعمل بهذه المبادىء فهو اما عن جهل بروح الاسلام ، أو عن هوى واستخفاف باوامر الله ونواهيه ، كما يوجد في كل الملل . وانما نحن نود لوكان رينيه غروسه وامثاله ينصحون حكوماتهم الاوربية ومن جملتها فرنسا ، بأن لايعاملوا اهالي المستعمرات معاملة الغالب للمغلوب ، ولا يرهقوا الجزائريين ، والتونسيين ، والسودانيين الخ بضروب الاهانة ، ويحرموهم المساواة في الحقوق مع الاوربيين ، كما لايقدر احد ان ينكره . فان فاتحي الهند من ملوك الاسلام وقواده كان عذرهم ممهداً نوعاً في الازدراء بالهنود بعد ماراوا من عبادتهم للاصنام ، واحراق النساء انفسهن لموت بعولتهن ، وغير ذلك مما تقشعر له ابدان الذين أشربوا توحيد الحي القيوم ، ولم تتسع لهضمه عقولهم اتساع عقل السلطان اكبر . ولكن ياليت شعري ماهو عذر الامم الاوربية في تحقير اهالي المستعمرات كالعرب والبربر الذين هم من اكرم الامم ، ومن أشرف الاعراق الى الحد الذي نراه ، وسن قوانين خاصه بهم كانهم طبقات دنيا لايليق ان تسوى مع الاوربيين في امر من الامور حتى قد قتل اوربي اوربيا آخر في الجزائر ، فعند المحاكمة سئل عن سبب قتله ، فقال كان يرود حول بيتي مساء فظننته لصاً واشتبهت بكونه عربياً . فعد القضاة الفرنسيس ذلك من الاسباب المخففة للجرم . فياليت الحكومات الاوربية المتمدنة العصرية السابقة في حلبة المدنية والهذب والادب في القرن العشرين ، تقتدي باكبر الذي كان سلطان الهند في القرن السابع عشر ، وهو ذلك السلطان الآسيوي المغولي ، فتعامل مغلوبيها كما كان ذلك العاهل يعامل مغلوبيه . وياليت منتقدي الاسلام من مؤرخي الافرنجة يتأملون قايلا في رد الفيلسوف الفرنساوي غستاف لوبون على المسيو لوروا بوليو Leroy-Beaulieu احد اساتذة كلية « كوليج دوفرانس » الذي يشير بحمل عرب الجزائر على التفرنس بجميع الوسائل القاهرة . قال غستاف لوبون : وهذه هي الافكار السائدة في فرنسا فيما يتعلق بالجزائر . ثم قال : وان الطريقة السياسية المتبعة الى هذا اليوم لاجل تفرنس المسلمين أو اكتسابهم من الوجهة الادبية هي من البربرية بمكان لا يقل عن طريقة الاميركيين الاولين مع قبائل الجلود الحمراء التي كانوا ينتزعون منها اراضيها ، ويتركون لها الحرية أن تموت جوعا . وقد وصف المسيو فينيون Vignion طريقة دحر العرب التي اتخذتها الحكومة الفرنسوية طريقتها الادارية في الجزائرفقال : ان ولاة الفرنسيس كانوا عند كل ثورة في الجزائر يستولون على اراضي الاهالي ويسلمونها للمستعمرين (الكولون) ويطاردون الاهالي دحراً نحو الصحراء. فكان يتكاثر عدد الاوربيين في تلك النواحي ، ويضطر الاهالي أن يهجروا تلك الاراضي التي هي مساقط رؤوسهم ، ومواطن اجدادهم ، ويتفرقوا . فكانت نتيجة هذه السياسة التي استمرت ثلاثين سنة ان العرب الذين لم يعودوا آمنين على اراضيهم واملاكهم تركوا الحرث والزرع وهاموا في البراري . وكيف يمكنهم أن يزرعوا وقد طردوا من الاراضي الجيدة التي تسيل فيها العيون والغدران ، ودحروا الى الاماكن التي لايأمنون فيها ان زرعوا أن يسترجعوا الحب الذي يذروه فحرموا بالسكنى في تلك البراري الزرع والضرع ، وازدادت بذلك البغضاء

والاحنة بين العرب والكولون ، وصارت بين الفريقين هوة يتعذر سدها . وكانوا يسمون هذه الطريقة بطريقة المطاردة أولا ، ثم اطلقوا عليها بالتالي اسما آخر وهو « التملك لاجل المنفعة العمومية » وهذا الاسلوب يمتاز بعلامتين : الاولى انه لايملك الكولون أرضاً الا من املاك العرب ، والثانية انه يوجد دوائر يجب ان تستخلص جميعها للاوربيين حتى من يبقى من الاهالى مالكا يقصى عن تلك الجهات ، بحيث كل ذلك يعود بفقر الاهلين الخ . ثم يعود الاستاذ غستاف لوبون فيقول : وان من اغرب استبدادات الحكومة في الجزائر مايسمونه بالاستعمار الرسمي ، وذلك أنهم ينتزعون الاراضى من ايدي العرب ويوزعونها مجاناً على سفلة سقاط من جميع الاجناس ، بدعوى انهم سيحيونها بالزراعة ، وهم اقرب أن يدرسوا لغة السنسكريت من أن يحسنوا حرثاً أو زرعا . فلم تمض مدة على ذلك حتى رأيت تلك المسماة بالقرى الرسمية خاوية على عروشها ، بعد ان كلفت الاموال الطائلة . ولم يكف ذلك رجال ادارتنا درساً حتى قام بعضهم منذ سنوات يقترح التفويض باعطاء ٥٠ مليوناً لنزع املاك العرب ، وتأسيس قرى أخرى غير التي اخفق مشروعها . فلحسن الحظ رد المجلس (البارلمان) هذا الاقتراح الذي كان لونفذ يحفز المسلمين على الثورة ، عدا مايجشم الحكومة من انفاق الملايين الخ . ثم قال : منذ فتحنا للجزائر لم تبرح سياستنا فيها سائرة بعاملين احدهما نزع املاك العرب واقصاؤهم الى الصحراء ، والثاني حملهم على التفرنس باجبارهم على قبول شرائعنا . فلم نفلح لا في ذا ولا في ذا . أولا لأن العرب لم يمكنهم الرحيل الى الصحراء حيث لايوجد شيء يقتاتون به فيها ، ولا شك في ان عدة ملايين لايرضون أن يموتوا جوعاً بدون مقاومة . ثانياً لانهم لايقبلون ان يتفرنسوا اذ لم يعهد ان امة نبذت قواعدها العقلية الاساسية واتخذت قواعد امة غريبة عنها الخ . لا اقدر ان استوفي تعريب جميع ماقاله بهذا المقام غستاف لوبون المؤلف الفيلسوف الشهير في كتابه المسمى علم النفس في السياسة Psychologie Politique وما اوردت الذي اوردته هنا الا من قبيل التمثيل مذكراً اولئك الذين يطرون السلطان اكبر من مؤلفي الانكليز والفرنسيس على تسويته بين المسلمين والهنود في كل الحقوق ، واقامته العدل في رعيته كلها ، لماذا لاينصحون هم حكوماتهم باتباع ذلك السنن ؟ وهل مايعمله الانكليز في الهند اليوم ، وما عملوه من قبل ، مطابق لما كان يعمله اكبر ؟ وهل ائتم بسياسة اكبر ذلك القائد الانكليزي الذي رمي منذ ثلاث أو اربع سنوات جماعة من المتظاهرين في الشوارع بنيران القنابر فقتل منهم مئات أو الوفاً ثم اجبر الآخرين على الدبيب على ايديهم بين يديه كما تدب الحيوانات ؟ فهل هذه هي سياسة الامم التي يطنب مؤرخوها بكيفية احتقار المسلمين للهنود ؟ عليك بما عدّده من هذا القبيل مؤخراً الاستاذ العلامة الكاتب الشهير الشيخ عبد العزيز جاويش في رده على جريدة المورنن بوست الانكليزية التي انتقدت الشرع الاسلامي بعدم انطباقه على العدالة الاوربية .

عود الى تاريخ اكبر خان * وصدرت الاوامر الى جباة الخراج بأن يصبروا على الفلاحين في استئداء الاموال الاميرية ، بل يقوّوهم من بيت المال فى سني القحط . كذلك توسل اكبر بوسائل ناجعة فى قتال المجاعات التي تكثر فى الهند فى الاعوام التي يحتبس فيها الغيث . وكان يعاقب الامراء الذين يظلمون الاكرة الذين هم قائمون بخدمة اراضيهم . ومع شدة

ميله الى البراهمة ، ومراعاته لهم ، عارضهم في قضية احراق النساء اللاتي مات بعولتهن ، وعادة ابقاء النسوة اللاتي تموت ازواجهن وهن في سن العاشرة ارامل طول الحياة لايحق لهن ان يتزوجن . ثم منع التبكير في الزواج فكان لايسمح بزواج الشاب قبل سن ١٦ ولا بزواج الفتاة قبل سن ١٣ .

وكانت اللغات المعروفة في الهند ، غدا لغات الهنود الاصليين ، ثلاثاً : العربية لغة الدين الاسلامي ، والتركية لغة الأسرة التيمورية ، والفارسية لغة البلاط والدولة . فوضع اكبر لغة « الاوردو » التي تشتمل على كثير من العربي والفارسي والتركي مع الهندي ، فسهل التفاهم بين الامم الهندية واتسعت هذه اللغة تدريجاً حتى انه ليتكلم بها اليوم مائة مليون نسمة .
وقالوا ان اكبر فيلسوفاً كان اعظم منه سلطانا ، مع ان اكبر كان من اكبر سلاطين العالم واحقهم بمكانة عليا في التاريخ . واطرى مؤرخو الافرنجة تحوله عن مذهب السنة الى مذهب الشيعة وشدة وطأته على علماء السنة ، والغاءه اللسان العربي من البلاط ، واقامة الفارسي مقامه ، وعدوا ذلك من معالي افكار اكبر ومنزعه الى الحرية . وقالوا انه كان ميالاً الى التصوف ، وان التصوف هو أرق طريقة اسلامية . وذكروا انه قرب اليه فتح الله الشيرازي من اكابر علماء الشيعة ، جاء من فارس وأوطن في بيجابور ، فاستدعاه اكبر اليه وصار مستشاره الشرعي . وكذلك حظي عنده العالم الشيعي المسمى مبارك وولداه ابو الفائز ، وكان شاعراً متصوفاً ، وابو الفضل وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية عظيما ، من جملة مايروى عنه انه هتف قائلا : يارب من رأى حكماء المغول ، ونساك جبل لبنان ، ولاماوات التبت ، وقسوس البرتغال ، وكهنة المجوس ، وعلماء الزندافستا (معناه الكلمة الحية وهي كتب ديانة الفرس والعرب يقولون الايستاكتاب زرادشت) رأى الناس في جميع الهياكل تطلبك ، وبجميع الالسنة تستعين بك . التوحيد هو انت . الاسلام هو انت . وكل ديانة في الدنيا تقول : انت وحدك لاشريك لك . ان كان جامع كانت هناك جماعة تناجيك بالصلاة . أو كنيسة كانت اجراس تقرع لشرفك . ازور احياناً الجامع وآونة الكنيسة وفي كل معبد لا انشد الاك . واصفياؤك ليس لهم علاقة بالسنة ولا بالبدعة لأنه ولا واحدة منهما ملكت قدسية الحق . فانا اترك الديانة لاهل الجماعة ، والبدعة لاهل الفرقة ، ونظير تاجر الطيب ، ترتاح نفسي الى شم جميع الورود»
ويظهر ان اكبر كان على هذه الطريقة . وكانت له عقائد اخرى منها عدم خلود الانفس بالنار ، اذ كان يرى ذلك مخالفاً للعدل الالهي . ومنها تناسخ الارواح الذي اخذه عن البراهمة. وقيل انه كان يبيح الخمر واكل الخنزير (فلا عجب اذا رضى الاوربيون عنه كل هذا الرضى) وانه انكر قدم القرآن ومعجزات الرسول (ص) وابطل كون الاسلام هو الدين الرسمي للدولة . ثم انه في سنة ١٠٩٣ اصدر امراً بأن كل من أجبر من الهنود على الاسلام في مدة اسلافه يمكنه الرجوع الى دينه . وذكر رينيه غروسيه الفرنساوي في هذا الباب جملة فيها شيء من الانصاف فقال « لايمكن مقايسة هذا الامر بالامر المعروف بامر نانت » يشير الى الامر الذي اصدره لويس الرابع عشر مانعاً أي دين كان في فرنسا غير دين الكثلكة . الا ان رينيه غروسه لايعلم ان اكبرخان بهذا الامر لم يخرج عن الاسلام لأن الشرع يمنع دخول الناس في الاسلام قسراً (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وان الاسلام ليس

فيه ديوان تفتيش كما كان باسبانية ... هذا وقد قال الكونت نوير مؤلف تاريخ اكبر « ان اكبر لم يخلق اكبر منه في الشعور الحقيقي بالانسانية » .

وامر اكبر بترجمة كتب البراهمة الفيدا ، والرامايانه ، والماهباراته ، الى الفارسية وسائر اصول الفلسفة الهندية . وكان يقضي ساعات طوالاً من الليل يستفسر البراهمي العظيم « دابي » احد اعلام الحكمة الهندية عن عقائد « تريمورتي » وكان ميله الى عقيدة الاشراق الصوفية يحبب اليه فلسفة البراهمة . كذلك تبحر كثيراً في مذهب بوذا وكان يجله ويعظمه والمظنون ان ما كان عليه اكبر من عقيدة المساواة بين جميع الناس وبره بالمخلوقات كلها وتحرجه من اكل لحوم الحيوانات نظير ابي العلاء المعري انما كان مما رشح الى دماغه من التعاليم البوذية . ولم يغفل اكبر عن النصرانية ففي سنة ١٥٨٠ ارسل الى رهبان البرتغال الذين كانوا في « غوا » يستقدم منهم من يفقهه في عقيدتهم فلبوا دعوته ، وارسلوا اليه بانجيل أمر بنقله الى الفارسية ليفهمه . وبعد ذلك عهد الى الرهبان اليسوعيين بتثقيف ابنه مراد . ثم اذن للجزويت بفتح مدارس في آغرا ولاهور وكامباي . وكان يذهب الى كنائسهم ويقول مؤرخوهم انه كان يجثو فيها على ركبه . وكذلك وفق الجزويت الى تنصير اناس كثيرين في كامباي في ايامه . ويقال ان تهافت اكبر على كل دين واخذه بكل عقيدة ونزوعه الى كل فلسفة كانت فيه حالة نفسية فطرية ناشئة عن شغوف صفحة طبيعته وسرعة انفعاله وكون روحه الى النفس الاخير نظير روح « غوته » شاعر الالمان بقيت تتطلب زيادة الانوار وتتلمس اكتناه الاسرار . وانه كان يعتقد باشراق الالوهية على كامل الوجود وبأن كل دين من الاديان هو عبارة عن بارقة من هذا الحق المنبث في الكون . ولم يبعد عن عقله امكان التأليف بين المذاهب قاطبة ، وتصور عقد مجمع ديني لهذه الغاية ، وأمل ان يوحد بين جميع العقائد الدينية في نقطة عامة ، وهذه النقطة العامة كانت عنده على مايقال مجوسية فارس . هكذا روى رينه غروسه في الفصل الثالث من تاريخ آسية الذي لخصه من ستة وثلاثين تاريخاً على الهند اكثرها بالانكليزية ، وبعضها بالفرنساوية ، ومن هذا البعض كتاب « مدنية الهند » لغستاف لوبون و « آثار الهند » للعلامة المشار اليه . وجاء في دائرة المعارف الاسلامية الفرنساوية بشأن عقيدة اكبر مايأتي :

« يمكن أن تكون محبة أكبر للبحث عن الحق أكثر من عبقريته السياسية قد جعلت له كل هذه الشهرة . فانه مما لا مشاحة فيه كونه ترك الاسلام ووضع عقيدة سماها « التوحيد الالهي » وهي اعتقاد مجرد بالاله مما اتفقت عليه كل المذاهب . ولكن لما كان الناس يريدون رمزا . وأكبر تحقق بنفسه انهم يريدون رمزا فهو يوصيهم بان يجعلوا الشمس رمزاً للاله . وعلى الارض النار التي هي من طبيعة الشمس . فاما مبلغ نجاح هذه الدعوة خارجا عن البلاط السلطاني فلا نعرفه . وانما نعرف من بطانة أكبر ثمانية عشر شخصاً قيدوا اسماءهم في سجل المؤمنين أكثرهم ادباء وشعراء ومنهم امير اسمه عزيز كوكا ، كان سبب خروجه من الاسلام ما رآه وهو في موسم الحج من الاحوال المؤسفة كتبليص الحاج من أموالهم . وذهب بعضهم الى أن مبارك الناقوري وأولاده ممن كانوا على فلسفة الصوفية هم الذين ابعدوا أكبر من مذهب السنة والجماعة . وقيل ان ما رآه من شدة تعنت أهل السنة نفره منهم . وقيل ان

حرية مذهب التصوف اثرت عليه كثيرا وعلى بطانته التي كان فيها كثير من الفرس فكان لهم ميل خاص الى عقيدة الشمس الفارسية . ثم قال في دائرة المعارف الاسلامية : الا انه لم توجد ديانة شرقية جذبته بمثل ما جذبته النصرانية الكاثوليكية . على أن الشيخ نور الحق الذي لم يكن أسيرا للتقليد نظير ابي الفضل العلامي ، وعبد القادر البداعوني يقول في أكبر : ان السلطان اراد أن يمحص الطيب من جميع الاراء المختلفة ، وانه ما كان هدفه في ذلك الا الوصول الى الحق . والذي انتهى اليه أخيرا هو قبول مصاص الاديان كلها ، وعقيدة الانسان الاصلية مضافة اليها طريقة سلوك بسيطة . انتهى . تشير دائرة المعارف بهذا النقل الى الشيخ نور الحق صاحب « زبدة التواريخ » والى عبد القادر البداعوني صاحب « منتخب التواريخ » والى أبي الفضل العلامي صاحب « اكبرنامه » . وممن اخذت عنهم دائرة المعارف ترجمة هذا السلطان محسن فاني صاحب « دابستان المذاهب » وشمس العلماء مولوي محمد حسين صاحب كتاب « در باري أكبر » وغيرهم . ومن غرائب ما روت عن هذا السلطان الذي كانت كل حياته غرائب انه كان يجهل القراءة والكتابة . وقالت ان ذلك عجيب في بيت مثل بيتهم موروثة فيه الكتابة وآداب اللغات خلفا عن سلف . واعجب منه انه كان عشير الاميرتين من أشهر اديبات زمانهما ، احداهما زوجته سليمة سلطان ، والثانية عمته كل بادان ، ويظهر أنه لما كان أبوه معروفا بضعف العزيمة ، ثم مات وهو يافع ، لم يحسنوا تعليمه الكتابة . وانه لما بلغ سن الرشد ثم شب وا كتهل ، أهمل عمدا تعلم الكتابة ، اذ ليس يمكن تعليل ذلك بصورة أخرى ، ولعل أكبر آثر التعلم بالمشافهة والكلمة الحية . انتهى

ولقد ترك هذا العاجز الى القراء الحكم على حقيقة هذا السلطان الذي أخذ الى ذلك الامد بمجامع قلوب الاوربيين ، ولست ممن ينكر انه مع تخبط الوساوس اياه من الجهة الدينية ، وانطباع قلبه بكل مؤثر يطرأ عليه من الخارج ، يجوز أن يكون من اعاظم السلاطين في حزمه وسداد ادارته ، ووفور محبته للرعية . ولكن عند ما يقرأ الانسان انه كان لا يجد بدأ من الرمز لوجود الالوهية ، وان ذلك الرمز يلزم أن يكون الشمس أو النار ، وعند مايروي غروسه أنه استقدم اليه من كوجرات الموبذان أردجير ليعلمه كتاب آفستا ، وانه اتخذ التقويم المجوسي وصار يحتفل بأعيادهم ، وانه جيء اليه في قصره بالنار المقدسة المحفوظة بلهيبها من عصر الى عصر منذ ايام رعاة الايرانيين الاقدمين ، فاستقبلها بالتعظيم الفائق في بلاط الملك الى غير ذلك مما رواه ، يعرف أن الرجل قد تمجس وانتهى النزاع وقضي الامر ، ولكن تجده من جهة اخرى معجبا بالبراهمية ، وبالبوذية ، ثم بالنصرانية ، ثم بالتصوف ، ثم بالتشيع ، وهذا التشيع كما لا يخفى يقتضي الاسلام لان الشيعة لم يخرجوا عن كونهم مسلمين . فتعلم ان الرجل وان كان ساعيا بزعمه وراء الحقيقة ، فهو مختلط العقل في المسئلة الالهية ، والجنون كما قيل فنون . وأما تقييد ١٨ شخصا من حاشيته انفسهم في سجل المؤمنين بدعوته ، فقد ذكرنا بذلك الذي روى عنه الشهرستاني في « الملل والنحل » انه انفرد بمذهب وتبعه سبعة اشخاص لا غير فبينما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه قال له مناظره : اترى الباري تعالى خلق جنة عرضها السموات والارض لك ولهؤلاء السبعة الذين تبعوك . ثم من يدري هل ثمانية عشر أكبر تبعوه اقتناعا أم تزلفا ؟ فان أكثر بطانة السلاطين مملوءة اطوارهم . . . وأما الاعتذار

من أكبر بأنه كان يرى في الشمس والنار رمز الالوهية ، فيا ليت شعري لماذا تخصيص هـذا الرمز بالشمس والنار ، أفليست كل مخلوقات الله تعالى رمزاً وآية ، أو لا يكون تخصيص هـذا الرمز بالشمس والنار مفضيا الى اعتبار ذلك الرمز هو المعبود والمعاذ بالله ؟

اما ابنه سليم الملقب بجهانكير الذي خلفه سـنة ١٦٠٥ واستمر على كرسي الملك الى سـنة ١٦٢٧ فقد نبذ كل ما كان عليه ابوه من التخبط ، واعتصم بمذهب السنة والجماعة ، ولـكنه استبقى الفارسي لسانا رسميا للدولة . وكانت لجهانكير امرأة بارعة الحسن مفرطة الذكاء اسمها « نور محل » فاستولت على قلبه، وتصرفت بالسلطنة كما شاءت فساءت الاحوال،وجارت العمال ، وانتقض ملك اسمه ملك عمبر في الدكان ، ولم يقدروا عليه .ثم خرج على جهانكير ابنه خرّم ومعه قائد اسمه مهابت خان ، وقبضا على السلطان وحجرا عليه ، فانقذته السلطانة الحسناء بدهائها وبهائها ، واصطلحت مع ولده خرم .

وفي تلك الاثناء مات جهانكير فصعد خرم على كرسى السلطنة وتلقب بشاه جهان . و بدأ بتدويخ الثائرين في الدكان،فسير عليهم جيشا عقد لواءه لولده الثالث اورنغزيب. فقهر هذا العصاة ومهد الدكان ، وكان داهية دهياء فاراد محو السلطنات الثلاث التي كانت باقية هناك ؛ وهي غولكوند ، وبيدار ، وبيجابور ، فقصدها الواحدة بعد الاخرى ، ولـكن كان كلما قرب فتح كل منها جاءه الامر من والده بأن يمسك ولا يدخل . وكان الحامل للسلطان على تلك الاوامر هو ولده الاكبر دارا . فوقعت الفتنة بين الاخوة واستمال أورنغزيب اخويه شجاع ومراد فاتحدوا كلهم على دارا الذى كان الاقرب الى قلب أبيه ، وبرزوا للحرب فالتقاهم دارا فانكسر وزحف الاخوة الى آغرا يحاصرونها ، وكان اورنغزيب بدهائه أرسل الى أبيه يؤكد له بأنه اذا مكنهم من دخول البلدة لايتغير عليه شيء فآمن شاه جهان بكلامه،فلما دخل اورنغزيب قبض على والده وجعله في احدى غرف القصر تحت الحجر ، ثم فعل ما هو أفحش من ذلك بأن انقلب على أخيه مراد ، اذ اتهمه بخيانة كذبا ومينا ، وأمر بمحاكمته والحكم عليه بالقتل ، واجرى الحكم وأكمل مكيدته بأن أخذ يبكي على أخيه هذا الذي كان عضداً له.كذلك بعد أن وقع أخوه دارا في قبضته دق عنقه وأرسل برأسه الى والده المسكين المحبوس في قصره (١٦٥٩) ثم طرد اخاه شجاع من ولايته في البنغالة ، ولم يطل الامر ان مات هذا فبقي ذلك الجبار مستبداً بالسلطنة وحده ، وطال سلطانه من سنة ١٦٥٩ الى ١٧٠٧ وكان كما قال مؤرخو الانكليز يقصد غاية قصوى ، وغرضاً بعيد المرمى ، وذلك بجعل حدود السلطنة حدود الهند الطبيعية . وكانت بقيت في الدكان سلطنتان اسلاميتان هما غولكوند ، وبيجابور ، وسلطنة ثالثة هندية براهمية هي سلطنة المهرات ، وكانت هذه الاخيرة تكاشح الاسلام بالعداوة حتى بلغ من جرأة احد ملوكها «سيفاجي بونسلا » أن نهب قافلة الحجاج وهي على وشك الاقلاع من سورات الى مكة . فساق أورنغزيب عليه جيشا فخضع أولا ، ثم خرج ثانية واعتصم بجبال « بونا » حيث بقي عاصيا يقاتل الى أن مات . ففى سنة ١٦٨٥ زحف اورنغزيب بجيش جرار الى الدكان فاستولى على مملكتي غولكوند وبيجابور وأخذ « سمباجي ابن سيفاجي » ملك المهرات أسيرا وضرب عنقه . وسنة ١٦٦٠ كان استولى على آصام وسنة ١٦٦٦ على آراكان وهما ممالك بين الهند والهند الصينية .

(آصام هذه بلاد واقعة في شرقي البنغاله استضافها الانكليز الى الهند منذ عهد غير بعيد أي سنة ١٩٠٥ وجعلوها ولاية باسم شرقي البنغال وآصام . وكان عدد سكانها نحو عشرين سنة ستة ملايين و ١٢٦ الف نسمة من أصلهم مليون وخمسمائة و ٨١ ألفا مسلمون أكثرهم في مقاطعة « سيلهت » وفي سيلهت هذا قبر شاه جلال الذي يعظمونه جداً بكونه هو الفاتح المسلم الاول لتلك البلاد وان اصله من اليمن . أما آراكان فهي مقاطعة في أقصى الشرق من ولاية بيرمانيا من الهند الصينية كان عدد أهلها سنة ١٩٠١ سبعمائة و٧٢ الف نسمة من أصلهم ١٦٢ الف مسلم) .

ولم تبلغ السلطنة الاسلامية المغولية من العز والبسطة ، ما بلغته في أيام اورنغزيب ، فكانت حدودها من كابول الى أراكان ، ومن الحملايا الى الكارنات (أقصى جنوبي الهند) . وزاد ارتفاع الخراج العقاري من ٥٠٠ مليون الى مليار ضعف ماكان في زمان أكبر . وزادت سائر الجبايات والضرائب على مليار . الا أن روايات مؤرخي الافرنجة هي كون أورنغزيب بدأ يخبط الاهالي بعصا عسفه ويفحش في الجبايات والمكوس ، وانه آسف البراهمة بحملهم على الاسلام ، وتحويل كثير من هياكلهم جوامع لاسيما هياكلهم المعظمة مثل هيكل بنارس . فى بنارس الآن المسجد الاعظم ذو القباب البيضاء والمنابر الشاخة البيضاء التي ترى على ضفة النهر، قد بني في مكان هيكل كان معدودا اقدس معبد عند الهنود . وكان أورنغزيب أطلق على بنارس اسم محمد آباد . قالوا وانه حبس ارملة راجا جوهبور واولادها مع أن ذلك الراجا كان من أصدق الامناء لدولة المغول فانتقضت بلاد جوهبور واوديبور وزحف اليها اورنغزيب فاحرق ودمر وقتل وسبي ، وانتهى الامر بأن اولئك الملوك خضعوا له ، ولكنه كان جرحاً التأم على دغل. قال المؤرخون الاوربيون : وكان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشري ، فاطماً للشهوات يصوم ويتقشف ويعيش معيشة الزهاد ويراقب آخرته . وكان أورنغزيب آخر العظام من سلاطين المغول في الهند ، اذ بعد موته استقلت عن امبراطورية دلهي ممالك كثيرة ، فقامت دولة حيدرآباد الدكان (١٧٢٤) ودولة بنغاله (١٧٠٧) ودولة اوض (١٧٢٤) ، ولم يبق للمغول الا دلهي وآغرا وبلاد دواب . وهذه من الدول الاسلامية . كما انها استقلت من امم الهند امة السيك ومملكة المهرات .

أما السيك فهم فرقة من البراهمة يعدهم هؤلاء مبتدعين ، لان رجلا اسمه ناناك (١٤٦٩) كان قد تخرج على المصلح الهندي كابير ، فشرع من بعده في تطهير البراهمية من عبادة الاصنام وتعدد الآلهة ، وقضيا الطبقات في الهيئة الاجتماعية ، وبتقريبها من الاسلام في عقيدة التوحيد . وقد ثار السيك على سلاطين المغول لانهم من اشد امم الارض بأسا . وجرت بين الفريقين محاربات طويلة بطاش فيها المغول بالسيك ولكنهم لم يطيعوا طاعة تامة الى أن ضعف شأن دلهي فاستولى السيك على لاهور والبنجاب (١٧٦٤) .

وأما ثورة المهرات التي استمرت مدة طويلة ، فقد انتهت باعتراف سلطنة دلهي باستقلال هذه الامة. وبعد موت السلطان اورنغزيب توج « ساهوجي بن سامبوجي بن سيفاجي بونسلا» ملكاً على المهرات في « ساتارا » ولكن انتقل ملك المهرات من ايدي هؤلاء الى ايدي آخرين ، يقال لهم « البشفا » كانوا في الاصل وزراء عندهم ، فلك البشفا هؤلاء من سنة

١٧١٢ الى سنة ١٧٩٥ وفي ايام احدهم « باجي راو » انتزعوا من ايدي المسلمين ثلاث ممالك : بيرار ومالفا وكوجرات . فتقاسمها اربعة بيوتات من المهرات وهم « الهولكار » و« السنديا » و « البونسلا »و«الكويكوفار» وتأسست هناك اربع حكومات كلها تعترف بسيادة البشفا الذي كرسيه في مدينة « بونا » وكان بعضها يقاتل بعضا . الا ان الجميع كانوا يصيرون لبدأ على المسلمين بمجرد مايلمع لهؤلاء نجم ، ففي سنة ١٧٦٠ عند مازحف احمد الدراني امير الافغان على الهند وفتح دلهي ، حسب البراهمة حساب دولة اسلامية جديدة تستأنف فيهم عمل الغزنيين والغوريين والتيموريين فتألبوا من كل جهة ولا سيما المهرات ودارت رحى الحرب في بانيبات ، فهذه المرة أيضاً كان الفوز للاسلام ودارت الدائرة على الهنود في ٧ يناير (كانون الثاني) سنة ١٧٦١ .

الا ان الدراني قفل الى افغانستان ولم يكمل فتوحاته ، وابقى نواباً من قبله في دلهي . وكان في ذلك الوقت قد ظهر من الأسرة المالكة في كفاليور واوجايين من بلاد المهرات ملك في غاية الحزم والدهاء اسمه « مادهافاراو » انتبه قبل جميع ملوك الهند الى تنظيم جيشه على النسق الاوربي ، واتخاذ المدافع ، واستجاد لذلك ضباطاً من الفرنسيس والانكليز ، فعظمت شوكته ، واشتدت صولته ، وزحف الى دلهي فطرد منها نواب ملك الافغان ، ومن حسن سياسته انه لم يحاول حيازة هذه السلطنة ، بل اعاد اليها السلطان اعلم الثاني المغولي حفيد اورنغزيب وصار هو القابض على زمام الامور فولاه اعلم امارة الجيوش كلها وأصبحت امبراطورية المغول بكفالته .

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية ان غزوة نادرشاه الى الهند سنة ١٧٣٩ قد قصمت ظهر الدولة المغولية فلم تقم لها من بعدها قائمة . وقد اقتفى اثره احمد الدراني صاحب افغانستان ، وفتح البنجاب ودلهي وكسر المهرات في معركة بانيبات الثالثة سنة ١٧٦١ ولكن السلطنة المغولية كان قد حم أجلها . ولما اراد اعلم شاه فيما بعد أن يسترجع البنغاله ، وقعت الحرب بينه وبين الانكليز ، فاضطر بعد وقائع وأهوال ان يترك لهؤلاء ادارة « الديواني » أي جباية الاموال في البنغاله وبيهار واوريسا ، وان يأخذ عنها مقطوعاً مليونين و ٦٠٠ الف روبية . وسنة ١٧٨٨ حصل له حادث زاده خبالا ، وهو ان احد ضباط جيشه قلع عينيه فاصبح كأنه ألعوبة . واخيراً عين له الانكليز ٩٠ الف روبية شهرياً ، وتركوا له من السلطنة الاسم فقط . ومات سنة ١٨٠٦ وقام بعده محمد اكبر ابنه (١٨٠٦ الى ١٨٣٧) وخلف هذا بهادرشاه (١٨٣٧ الى ١٨٥٧) وكل منهما لم يكن له من السلطنة الا الاسم مع جراية تؤديها له شركة الهند الانكليزية . الا ان بهادرشاه باشتراكه في ثورة سنة ١٨٥٧ قبض عليه الانكليز واعتقلوه في رانغون حيث مات سنة ١٨٦٢ وهو آخر سلاطين دلهي . اما اكثر امراء المسلمين في الهند فاما بغضاً بالهنود وأماحباً بالمنافع المادية ، واما اعتقادا بأن الانكليز لابد أن تكون لهم الغلبة اخيراً فقد عضدوا الانكليز عضداً مبيناً ، ونصروهم نصراً عزيزا ، ويعترف الانكليز بأنه لولاهم كان تحرج مركز الانكليز تحرجا لايعلم احد عاقبته . فلما انتقل الحكم من الشركة الى المملكة رأساً كوفىء كثير من هؤلاء الملوك باقطاعات جديدة ، وكان أكثر من نصروا الانكليز منهم نظام حيدر آباد وصاحب بهوبال وصاحب رامبور .

انه من سنة ١٢٠٦ مسيحية الى سنة ١٥٢٦ تولى سلطنة دلهى ٣٤ سلطاناً ينتسبون الى خمس دول فدولة المماليك من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٩٠ ودولة آل قالجى من سنة ١٢٩٠ الى سنة ١٣٢٠ وآل طغلق من سنة ١٣٢٠ الى سنة ١٤١٣ والسادات من سنة ١٤١٣ الىسنة ١٤٥١ والاوديون من ١٤٥١ الىسنة ١٥٢٦ ثم جاءت دولة المغول فاستمرت من سنة ١٥٢٦ الىسنة ١٨٥٧ وسلاطينها كما رأيناهم بابر ، ثم همايون ، ثم اكبر ، ثم جهانكير ، ثم شاه جهان ، ثم اورنغزيب ، ثم محمد شاه ، ثم شاه أعلم ، ثم محمد اكبر ، ثم بهادرشاه .

اما عظمة تلك السلطنة وما بلغتهمن البسطة والثروة والشوكة فقدتقدم شيء منه في الكلام على اكبر وارنغزيب ومن قبلهما . واقرأ مثالا منه مما جاء في كتب العرب قال في « مسالك الابصار » قال الشيخ مبارك النباتي ـ عند ذكر محمد بن طغلقشاه — وأول مافتح منه مملكة تلنك (تلنغا) وهي واسعة البلاد كثيرة القرى عدة قراها تسعمائة الف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جاجنكر وبها سبعون مدينة جليلة على البحر . ثم فتح بلاد لكنوتي وهي كرسي تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دواكير ولها اربع وثمانون قلعة جليلات . ونقل الشيخ برهان الدين ابو بكر بن الخلال البزي أن بها الف الف قرية ومائتي الف قرية . ثم فتح بلاد المعبر وهو اقليم جليل له تسعون مدينة بنادر على البحر . وذكر انه حصل له من الاموال بسبب الفتوح التى فتحها مالا يكاد السامع يصدقه ، فحكى عن الشيخ برهان الدين المقدم ذكره أنه حاصر ملكا على حد بلاد الدواكير ، فسأله أن يكف عنه على ان يرسل اليه من الدواب مايختار ليحمله مالا ، فسأله عن مقدار ماعنده من المال فقال انه كان قبلي سبعة ملوك جمع كل واحد منهم سبعين الف صهريج متسعة من المال . فاجابه الى ذلك وختم على تلك الصهاريج باسمه .

وجاء في صبح الاعشى نقلا عن الشيخ تاج الدين بن ابي المجاهد السمرقندي انه غضب على بعض خاناته لشربه الخمر فامسكه واخذ ماله ، فكان جملة ماوجد له من الذهب الف الف مثقال وسبعة وثلاثين الف مثقال. وقال نقلا عن ابن الحكيم الطياري أن شخصاً قدم لهذا السلطان كتباً فحثى له حثية من جوهر كان بين يديه قيمتها عشرون الف مثقال من الذهب . الى غير ذلك .

قلنا هذه روايات اشبه بحكايات قصاصي الاسمار أو اقاصيص الف ليلة وليلة منها بالتواريخ . ومثل هذا التى على روايات مؤلفي العرب والشرقيين عموماً شبه المؤرخين الاوربيين الذين محصوا التاريخ وجعلوا النقد معياره . حتى انه لو جاء المؤلف الشرقي بالرواية الصحيحة لاشتبهوا فيها ، من شدة ما اعتادوا مبالغات مؤلفينا الاولين الا من رحم ربك . وقد اطال ابن خلدون امام فلسفة التاريخ في نقد طريقة التقليد الاعمى هذه ، وتلقف أي خبرمهما كان بعيداً عن العقل ، منقوضاً بالادلة المحسوسة . ولو قرأ رحمه الله الروايات المتقدمة لأقطعها من نقده مالا يقل عما شرحه في نقد الروايات التي استشهد بها في مقدمته . فانه ورد هنا مرتين ذكر مليون قرية (الف الف) اوما يقرب منه . وذلك عن بعض اقسام من بلاد الهند . والحال انه لو قدر أن كل قرية لاتحتوى على اكثر من ١٠٠ نسمة كان من ذلك مائتا مليون ، فاذا كان هذا عدد سكان بعض ممالك من الهند فماذا يكون عدد اهل الهند بأسرها يومئذ ؟ مع انه لايعقل ان يكون عدد اهل الهند يومئذ احصى مما هو اليوم . واما عبارة الصهاريج التى هي سبعون الفا

كلها ملأى بالاموال فهذه لاتليق بأن تؤثر في كتب جليلة مثل صبح الأعشى فاما ماورد في مسالك الابصار من كون الجيوش التي كانت عند السلطان محمد بن طغلقشاه عدتها ٩٠٠ الف فارس، منهم من هو بحضرته ومنهم من هو في سائر البلاد يجري عليهم كلهم ديوانه، وان عسكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الاجناس، فهذا ليس ببعيد عن العقل بل ليس بكثير على سلطنة دلهي في ايام تلك المنجهية وباشتمالها على جميع الهند. قلنا على ان المبالغة وما تبعها من الغلو والاغراق لا تتعلق الا بما له اصل متجاوز الحد، ولولا الكثرة الهائلة والعظمة البالغة مالهجت الالسن بالاعداد التي لايقبلها العقل والمقادير التي لاتثبت على معيار النقد. فالسلطنة الاسلامية في الهند قد بلغت من تزخر الجيوش، وامتلاء الخزائن، وسعة الفتوحات، ما يندر ان يعرف مثله التاريخ العام. وان ماقاله قاضي القضاة سراج الدين الهندى من أن السلطان محمد طغلقشاه مع كثرة العطاء، وسعة البذل، وما ينفقه في جيوشه لاينفق نصف دخل بلاده، لايعد من جملة المبالغات. وكذلك مايقال من انه كان في خدمته ثمانون خاناً فأكثر، وان لكل واحد منهم من الاتباع ما يناسبه، للخان عشرة آلاف فارس، وللملك الف فارس، وللامير مائة فارس، وللاصفهسلارية دون ذلك، وان للسلطان عشرة آلاف مملوك اتراك، وعشرة آلاف خادم خصي وانه له مائتي الف عبد ركابية تلبس السلاح، وتمشي في ركابه وتقاتل رجالة بين يديه، وان له الفا ومائتي طبيب، والف بازدار تحمل الطيور الجوارح للصيد راكبة الخيل، وثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد، وخمسمائة نديم، والف مملوك لتعليم الغناء، والف شاعر بالعربية والفارسية والهندية من ذوي الذوق اللطيف، يجري على جميع ذلك ديوانه مع طهارة الذيل والعفة في الظاهر والباطن. هكذا في صبح الاعشى بالحرف فليس في هذا شيء مستحيل عرفا ولا يستبعد ذلك الا من لم يتصور عظمة الهند ولا سعة أقاليمها ولا وفور كنوزها وخيراتها، ولقد عرفنا ان بعض الامراء في بلادنا كان عندهم عدد عديد من حملة البزان وكانوا اذا ذهبوا الى الصيد مشى معهم عدة مئات لتحصيل الصيد. وهم لو قيسوا بسلطان الهند لكانوا له من بعض الاتباع والخول فما ظنك بسلطان عدد رعيته مئتان او ثلاثمائة مليون نسمة. فليس بكثير أن يكون عنده الف بازدار ولا ثلاثة آلاف رجل ينشون الصيد واذا وقع في مخالب البازي يحصلونه.

بعد ايرادنا هذه الامثلة على عظمة سلطنة الاسلام في الهند، لنعد الى موضوع الحكومات الاسلامية الحاضرة وقد تقدم لنا في حواشي كتاب ستودارد هذا لمحة فيها من ذلك شدو. ثم آثرنا أن نوضحه هنا قليلا نقلا عن بعض المؤلفات الخاصة بالهند فنقول: انه يعدل اليوم مقدار الممالك الهندية التي تديرها امراؤها، وليست بتابعة للادارة البريطانية رأساً، بنحو خمسي الهند، حال كون الذي تديره انكلترة رأساً هو ثلاثة اخماس الهند. هذا هو قول الانكليز الذين قد يعدون اقل ادارة وطنية امارة ذات حكم ذاتي مهما كان من استئثارهم بجميع امورها. لذلك اختلفت روايتهم عن رواية بعض ادباء الهند من البراهمة الذين أكدوا لنا أن الممالك التي يصح أن تعد من ذوات الحكم الذاتي لاتزيد على ربع الامبراطورية الهندية. وقد أحصى المؤلفون الانكليز عدد امارات الهند التي يتولاها الملوك والامراء الوطنيون تحت حماية بريطانيا العظمى ٦٩٣ حكومة من اصلها عدد من الحكومات الاسلامية وهي كما يأتي:

حيدر آباد الدكان وعدد سكانها ١٣ مليونا و ٣٧٤ الف نسمة ، ودخلها السنوي مليون و ٧٦٠ الف ليرة انكليزية ، وعلاقتها هي مع حكومة الهند البريطانية رأساً . وليس لغيرها امتياز كهذا بل جميع الممالك والامارات الاخرى فيها نواب من قبل الانجليز يكونون هم الواسطة بين تلك الحكومات الوطنية وبين حكومة الهند الانكليزية . ثم كلات من بلوجستان عددها ٣٠٩ ألفا ودخلها السنوي ٥١ الف ليرة . ثم لاس بيلا وعددها ٦١ الفا ودخلها ١٥ الف ليرة . ثم خيربور وعددها ٢٢٣ الفا ودخلها ١٠٨٠٠ ليرة . ثم جوناغار وعددها ٤٣٤ الفا ودخلها ١٧٥ الف ليرة . ثم بالانبور وعددها ٢٢٦ الفا ودخلها ٤٨ الف ليرة . ثم كامباي وعددها ٧٢ الفا ودخلها ٣٧ ألف ليرة . ثم جانديرا وعددها ٨٨ الفا ودخلها ٤٠ الف ليرة . ثم راد نهابور وعددها ٦٥ الفا ودخلها ٢٦ الف ليرة . ثم بالاسينور وعددها ٤٠ الفا ودخلها ٨ آلاف ليرة . ثم ساجين وعددها ١٩ الفا ودخلها ٢٠ الف ليرة . ثم سافانور وعددها ١٨ الفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . ثم ثلاث حكومات صغيرة تؤدي مالاً سنويا لمهراج كايكفار وهي « دابها » ودخلها السنوي ٢٦٦ ليرة و « بونادرا » ودخلها الف ليرة . و « راماس » ودخلها ٢٠٠ ليرة . وامراء هذه الحكومات الثلاث هم من سلالة راجا اسمه هارزنجي كان في خدمة محمود بيغارا سلطان كوجرات واسلم سنة ١٤٨٣ .

وفي الهند الوسطى بهوبال فيها ٧٣٠ الفا ودخلها ٢٠٠ الف ليرة . ثم جاورا وعددها ٧٥ الفا والوارد لها ٦٠ الف ليرة . ثم باوني وفيها ٢٠ الفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . وفي الهند الوسطى ١٥٣ حكومة ذاتية بعضها تحت ولاية امراء مسلمين مثل كورفاي التي سكانها ١٨ الفا ودخلها ٢٥٠٠ ليرة . وبازودا التي تتبع مهراج كفاليور لكنها في الواقع لا تدفع له شيئا وكل سكانها ٤٦٣٠ نسمة ودخلها السنوي ١٢٦٦ ليرة (فماذا تقدر أن تدفع لذلك المهراج) . ثم محمد كار واهلها ٢٨٦٣ نسمة ودخلها ٢٦٦ ليرة . ثم باتاري واهلها ٣٨٦٦ نسمة ودخلها ٦٠٠ ليرة . ويوجد امارات اصغر من هذه على ما في دائرة المعارف الاسلامية وياليت شعري ماذا تكون تلك الامارات التي هي اصغر من هذه ؟ وهل يوجد أصغر من هذه الا الميكروبات ؟ فان ما مرّ من هذه الحكومات التي يقول الانكليز انها متمتعة بالحكم الذاتي هو عبارة عن مديريات نواح أو مشيخات قرى . ولهذا كثر عدد الحكومات الوطنية بحسب احصاء الانكليز وما دامت هذه اقدارها فلا عجب أن تعد بالمئات . ومن الغريب أن أكثر أهالي هذه الامارات التي يليها امراء مسلمون هم من البراهمة ، والمسلمون بينهم قلائل أحياناً تراهم نحو الثلث واحيانا الربع وآونةً السدس الى العشر . وأكثر مسلمي الهند بالنسبة الى سائر السكان هم في الحدود الشمالية الغربية ، حيث المسلمون بالنسبة الى مجموع السكان ٩٣ في المائة . كذلك يكثر المسلمون في الجهة المقابلة ، أي بلاد البنغالة ، فهناك مجموع السكان ٤٥ مليونا ونصف المليون ومن أصلهم ٢٤ مليونا مسلمون . ثم كشمير أهلها ٣ ملايين ومائة وخمسون الفا منهم مليونان و ٤٠٠ الف مسلمون ، وأما في البنجاب فالمسلمون أكثر من نصف السكان . وتجد بعكس ذلك في المقاطعات الموحدة التي كانت مركز السلطنة المغولية الاصلي فهناك نيف وسبعة واربعون مليون نسمة المسلمون بينهم ستة ملايين وستمائة وخمسون الفا فقط . وأغرب منه مملكة مايسور التي كان فيها حيدر علي وتيبو سلطان من اعظم المجاهدين

في نشر الاسلام فلا يوجد بين الخمسة الملايين والثمانمائة الف التي تسكن تلك المملكة سوى ٣٠٠ الف و ١٠٥ الف مسلم . وانما استولى على تلك المملكة حيدر علي بفرط بسالته واقدامه وهو رجل ممن يذكر في تاريخ الهند كان مولده سنة ١٧٢٢ وكان أبوه يدعى فتح محمد خان ولما شبّ حيدر دخل في جيش مايسور ، وظهرت شجاعته في حصار مدينة « دفانهالى » التي أخذها راجا مايسور عام ١٧٤٩ فجعله الراجا قائداً لخمسين فارساً ومائتي راجل ، هكذا كان مبدأ ترقيه ثم صار فوجداراً في « دنديغول » ثم جا كردارا في بنغالور . ثم كسب صيتا بعيداً في ظفرته بالمهرات عام ١٧٥٩ وتلقب بعد ذلك بفتح حيدر بهادر ، واستقطع راجا مايسور بلاداً طويلة عريضة من مملكته ، وصار هو السيد المطلق في مايسور ، ولما وقع النزاع بين الانكليز والفرنسيس في الهند انحاز حيدر الى الفرنسيس وجرد جيشه للقتال في صفهم فانتهز تلك الفرصة « خاندراقا » وزير الراجا للتخلص من حيدر وتغلب عليه أولا ، ولكن حيدر بدهائه واقدامه استرجع مكانته ثم قبض على الوزير وصار هو الالف والياء في مايسور . وأبقى على الراجا في الصورة فقط وبعد موت الراجا جعل ابنه في قبضته لا يملك معه شيئا . وضرب حيدر السكة باسم نفسه ، وفتح بلاداً ضمها الى مايسور وأسس دارصنعة لبناء السفن ، وجرت بينه وبين المهرات وقائع كثيرة وكذلك بينه وبين الانكليز اذ كان أكثر الوقت ينتصر للفرنسيس عليهم . ومات في معسكره بأركات في ٧ ديسمبر سنة ١٧٨٢ وخلفه ابنه تيبو صاحب . وكان هذا لا يقلّ عن ابيه في شيء حزما وعزماً وغشمشمية ومضاء ، كان مولده سنة ١٧٤٩ ومات سنة ١٧٩٩ وتثقف في الفنون العسكرية على ايدي ضباط فرنسويين ، واتقن الرياضة البدنية وامتاز في الحروب التي وقعت بين مايسور والمهرات من سنة ١٧٧٥ الى سنة ١٧٧٩ كذلك في الحروب مع الانكليز من سنة ١٧٨٢ الى سنة ١٧٨٤ اذ ظفر بهم في عدة معارك فأحبه ابوه وقومه حبا جاً ، وعند ما خلف اباه عام ١٧٨٢ فتح « بدنور » وبالرغم من ترك الفرنسيس حلفائه قتال الانكليز لم يزل يكافح وينافح حتى انعقد الصلح بينه وبين الانكليز سنة ١٧٨٤ بمعاهدة « مانغالور » وقد رتب أمور بلاده ترتيبا حسنا ، ولاجل أن تدري جلال قدر هذا الرجل يكفي أن تعلم أنه كان أوصل عدد جيشه الى ١٥٠ الف جندي مع الفي مدفع وسبعمائة فيل ، وادخر مقداراً طائلاً جدا من المؤن والعدد والذخائر الحربية ، وكان يخمن بيت ماله بمليارين من الفرنكات . وروى موريس قال صاحب قاموس الاعلام الفرنساوي ان تيبو صاحب حاول حمل المسيحيين والبراهمة على الاسلام وأظهر في ذلك غلظة زائدة ، ولكن أقصى آماله كان طرد الانكليز من الهند ، وكان اللورد كورنفاليس حرك عليه نظام حيدر آباد من جهة والمهرات من اخرى ، فهاجم تيبو مملكة « ترافانكور » سنة ١٧٩٠ فهاجمه الانكليز والمهرات وجيش النظام من اربع جهات فقاتل قتالا نادر المثال في البطش والمهارة وكسر الكولونل الانكليزي فلويد واجتاح المنطقة الانكليزية وبقي موغلا في سيره الى جوار مادراس ، حتى اضطر الانكليز أن يسوقوا عليه جحفلاً جرّارا تحت قيادة اللورد كورنفاليس نفسه فردّوا تيبو صاحب الى الوراء ودخلوا بانغالور وغيرها من المراكز الحصينة ، فالتمس تيبو صاحب الصلح فأجيب اليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ، ويؤدي غرامة قدرها ٧٥ مليون فرنك ، وتم ذلك سنة ١٧٩٢ الا ان تيبو صاحب بقي حاقدا على الانكليز متحفزا للأخذ بالثأر ، ولبث يراسل الفرنسيس . ولما قدم بونابرت الى مصر بعث اليه رسله

فوّجه الانكليز معظم قوتهم لقتاله ، وشهر الوالي الجديد الانكليزي ولسلي عليه الحرب سنة ١٧٩٩ وتقدم الجنرالان هاريس وستوارت لحاصرا مدينة « سرينفاپاتام » فمات تيبو صاحب أثناء الحرب من شدة غمه ، واستولى الانكليز بعده على مايسور وعينوا لاولاده جاريا جزيلا فاقاموا بمدينة « فللور » وكان تيبو صاحب وابوه حيدر علي من اعاظم الرجال الذين أنجبهم الاسلام.

ان المدنية الاسلامية في الهند كانت خلاصة مدنيات عديدة ، اذ اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والمغولية ، والصينية ، والهندية ، والبوذية ، وغيرها . ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقص الاوفر حتى صارت الهند بواسطة الاسلام كأنها قطعة من ايران . واشتهر من شعراء الفارسية في الهند الامير خسرو الدهلوي (١٢٥٣ الى ١٣٢٥) الذي كان يتحدى السعدي والنظامي والشاعر حسن الدهلوي المتوفى عام ١٣٢٦ ، وكان يحذو حذو عمر الخيام والحافظ الشيرازي . ولم يمكن الادب الهندي ان يجاري الادب الفارسي في ميدان ، لاسيما ان ملوك الاسلام لبثوا مترفعين عن الهنود في هيئتهم الاجتماعية ، منفردين بانديتهم ومجالسهم الخاصة ، ولم يكن لسان كلسان الفرس يطيب للمجالس الملوكية واحاديث الخواص ، فاذا استثنيت اللغة العربية لانجد في العالم الاسلامى لغةً وثقافة تضارعان اللغة الفارسية وثقافتها . وان المغول أنفسهم مع كونهم يختلفون عن الفرس اصلاً كانوا بعد ان ولوا بلاد العجم قد تحولوا في لسانهم وآدابهم فرساً . فلما فتحوا الهند نشروا فيها المذهب الفارسي والادب الايراني ، ونبغ في ايامهم ادباء ومؤلفون وشعراء كالباداعوني وابي الفضل وابي فيضي والشاعر عرفي الشيرازي وخوجه حسين وحسني الاصفهاني وقاسم ايكاهي . وكانوا جميعا ينظمون وينثرون بالفارسي ويتحدون الجامي والحافظ والنظامي . ثم أن شعراء لغة الاوردو بهذه اللغة الجديدة كانوا ينسجون ايضاً على منوالهم . وهم مثل فالي ، وساودا ، ومير ، وحاتم ، وحسن وغيرهم . اما من جهة الطرز المعماري ، فكان لمسلمي الهند دوران الدور الاول هو الغزني والغوري ، والدور الثاني هو الدور التيموري . فاما في الدور الاول فكان ملوك الاسلام قد اكتفوا بالطرز الهندي المسمى « جاينا » واضافوا اليه القسيّ الحادة العربية . فكان يوجد في نسق البناء شبه كبير بين جوامع السلاطين ايبك والتامش وعلاء الدين في اجمير ودهلي ، وبين معابد الهنود . الا ان المسلمين لم يلبثوا ان نزعوا الى طرزهم المعماري الاصلي وهو العربي الفارسي ، فان الباب المسمى باب علاء الدين في دهلي هو بناء فارسي تقريباً . اما في زمان بني طغلق فكان الطرز الهندي هو الغالب على الابنية مع منزع ظاهر الى البساطة . ولكن من بعد فتح بابر التيموري تولد اسلوب خليط من الطرز الهندي والطرز الايراني صار قائماً بذاته . وهناك فروق ناشئة من طبيعة البلاد في الهند لم يمكن ايجاد صنعة القاشاني الغالبة في الابنية الفارسية ، فجعلوا مكان القاشاني المرمر والحجر الصلد . فكانت المباني المغولية افخم وامتن واثبت على الدهر ، فبينما جوامع اصبهان تتداعى الى الخراب نجد « تاج محل » فى الهند يغالب بمتانته الزمان ويقاوم الحدثان . وجميع مباني بابر وهمايون كانت على الاسلوب الايرانى وذلك مثل مدفن همايون فى دلهي . اما اكبر فبانيه كانت بين الاسلوبين العجمي والهندي ، ترى ذلك في الجامع الاعظم في فتحبور . ونظيره جامع آغرا وقصر السلطانة التركية . واما مدفن اكبر في سيكوندره فاذا تأملت سطوحه المرصوفة بالحجر

الاحمر ، والمرمر الابيض ، واطنافه وافاريزه والاشكال الهرمية التي فيه تظن انك بازاء اسلوب بوذي مطبق على رسم اسلامي . وفي ايام جهانكير بني مدفن أعتماد الدولة في آغرا ، وجامع لاهور ، وهذا فيه قاشاني كثير كأنه من مساجد أصفهان ، اما مدفن اعتماد الدولة فهو طراز نسيج وحده . وفي ايام شاه جهان بني القصر السلطاني في دلهي ذو البهو الاعظم المسمى « بديوان خاص » الذي قال ارباب الفن من الاوربيين انه آية تبهر الناظرين . وكذلك أنشيء جامع الوزير في لاهور والمسجد الكبير في آغرا والجامع المسمى « جامع مسجد » في دلهي ، وجامع اللؤلؤة في آغرا . وهذا الاخير من اعجب عجائب الهند على كثرة عجائبها ، تدخل اليه من مربع فيه حياض الوضوء ، ثم تفيض منه الى دهليز معقود بالقناطر ، ممتد من ثلاث جهات ، وفي الجهة الرابعة قبالة الباب الاكبر يتجلى لك الجامع بعظمة فائقة الوصف ، قائماً على غاب أشب من المرمر المنقوش الباهر في صنعته ، تعلو من فوقه تلك القبة المنقطعة النظير الضاربة الى العلاء ، تناطح القبة الزرقاء . قال جاكونت : ان هذا العالم الصغير من المرمر الناصع يظهر لك كأنه واحة سلام وسكون في وسط معركة الحياة . اذ لا ترى من العالم الخارجي سوى رأس شجرة فينانة جعلها التصادف في وجه الباب يلعب الهواء بأغصانها تحت أشعة الشمس . فهذا المسجد هو مشهد سكينة تامة وصفاء لطيف ليس في محاسن سائر الآثار العظام التي في آغرا مايضاهيها ، نعم ان جميع هاتيك المباني لما يبهر النواظر ولكن لؤلؤة المساجد تلك شيء آخر

مع هذا « تاج محل » في آغرا اشهر من مسجد اللؤلؤة . وكان السلطان جهان شاه سنة ١٦٣٠ مدفناً لحظيته التي كان قد ملك هواها قلبه « الاميرة ممتاز محل » وكانت قد ماتت وهي نفساء في مقتبل العمر فناشدت السلطان الله ان يخلد اسمها في بناء عظيم الشأن . فبنى لها ذلك المدفن النادر المسمى بالتاج وكله من الخارج من مرمر ناصع البياض ، ومن الداخل منحوت منقوش مخرم مرصع بالصنعة التي تحار لها العقول وتذهب بها الالباب ، مع ماهناك من الفسيفساء واصناف الرخام والمرمر الازرق الصافي ، والعقيق اليماني ، وغير ذلك من الحجارة النفيسة النادرة . وفوقه قبة لطيفة حولها منابر ضاربة في السماء ، وعلى الدائر مشبكات من الحجر تصرفت بها ايدي الصناع بالتخريم تصرف النجارين بالخشب . وهذا باجمعه وسط جنة فيحاء غناء ، فيها من الحياض والنوافر المتصاعدة مياهها بين مخارف السرو ، وتحت ظلال اشجار البرتقال مايتعذر احصاؤه . ومما يذكر من عجائب مآثر الهند الجامع الاعظم في بيجابور في الدكان ، بدأ بعمارته علي الاول سنة ١٥٥٧ وقبة السلطان ابراهيم التي انتهى بناؤها سنة ١٦٢٠ وقصر الطباق السبع الذي بناه السلطان محمد ومدفنه . وطرز هذه الابنية كله فارسي .

وهذه نبذة ضئيلة عما خلفه ملوك الاسلام من المباني المدهشة في الهند فمن شاء التوسع فعليه بكتاب « الهندسة العربية » Architecture des Arabes تأليف غستاف لوبون اذ أتى فيه على جميع المآثر الاسلامية في البناء . وعلى كتاب دراسة الفن المعماري الاسلامي للمسيو سلادين Saladin وعلى تصانيف كثيرة لكتاب الانكليز على الهند . وبالاجمال فمن شاهد تلك الآثار ، وقرأ هاتيك الاخبار ، يعلم ان الاسلام تحقق بحضارة باهرة ، وعاش اعصراً زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للمسلمين ان يباهوا بها سائر الامم ، على شرط ان يقتدوا باوائلهم . هذا ما آثرنا تلخيصه عن دول الاسلام في الهند .

(ش)

التعليق على المعتزلة

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صفحة (٢٨٨)

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صفحة (٢٨٨)

المعتزلة فرقة من مفكري الاسلام ، يرى فيهم علماء أوربا دائما طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تتملص من قيود التقليد المشهور في الاسلام بالشدة ، والباعث بشدته ووقوفه ، غير متقدم ولا متأخر ، الى هذا الجمود الذي رسا عليه المجتمع الاسلامي .

ويقال ان سبب تسميتهم بالمعتزلة ، أن احد أئمتهم واصل بن عطاء كان يقرأ أولاً على الحسن البصري ثم اعتزله لمسئلة خالفه فيها . وهم يسمون أنفسهم « أهل التوحيد والعدل » أما التوحيد فلأنهم نفوا عن الله تعالى الصفات القديمة كالحياة ، والعلم ، والارادة ، والقدرة ، وقالو انه حي بذاته ، عالم بذاته ، مريد بذاته ، قادر بذاته ، ولم يقولوا كالاشاعرة وغيرهم حي بحياة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بارادة ، بحيث أن الصفة هي غير الموصوف . وأما العدل فلكونهم يقولون ان العبد انما يثاب ويعاقب على طاعته ومعصيته ، لانه هو الخالق لافعال نفسه ، دون الله تعالى الذي ينزّه عن ان يضاف اليه خلق الشر . واذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لافعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ؛ بل الامر انف ، يعني مستأنف . ولهذا سماهم الناس « القدرية » . ولما سمعوا الحديث المروي عن النبي (ص) وهو : « القدريّة مجوس هذه الامة » أوّلوا الحديث بأن معناه القائلون بسبق القدر . وكان مرة احد ائمة المعتزلة ، يباحث أحد أئمة أهل السنة ، فقال المعتزلي : « الحمد لله الذي تنزه عن الفحشاء » . فقال السني : « الحمد لله الذي لا يقع في ملكه الا ما يشاء » . فقال المعتزلي : « ايريد ربك ان يعصى ؟ » فقال السني : « ايعصى ربك جبرا ؟ » من هذه النكتة تفهم الفرق بين مذهب السنة ومذهب الاعتزال . هذا وان كان جمهور اهل السنة فرقوا بين الكسب وبين خلق الافعال ، وجعلوا للانسان جزءا اختيارا هو مناط الثواب والعقاب ، وشبهوا العبد الذي يعصي بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملا على بلد كذا وأوصاه بالعدل والتقوى . فذهب الى عمله وظلم الرعية وارتكب المعاصي ، فالسلطان من جهة لم يأمره بالظلم ولا اباح له تلك الاعمال الموبقة ، ومن جهة أخرى هو السبب في وصول اذى ذلك العامل الى الرعية لانه لولا تولية السلطان اياه ما تمكن من ظلمهم . وهذا هو مثل من الامثال ، وان كان البحث دقيقا جداً ، وكان جمهور المتكلمين من المسلمين ، واللاهوتيين من المسيحيين يتفقون على أن الله هو مالك الملك ، خالق الخلق ، يفعل بخلقه ما يشاء ، وانه حر في افعاله لا يسئل عما يفعل .

وقد اشتهر من ائمة المعتزلة واصل بن عطاء ، وابو الهذيل العلاف ، وابراهيم النظّام ، وبشر بن المعتمر ، ومعمر بن عباد ، وابو عثمان الجاحظ ، وابو علي الجبائي ، وابنه ابوهاشم والزمخشري صاحب الكشاف في تفسير القرآن . وممن كان يقول بأقوالهم مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، اخذ ذلك عن الجعد بن درهم من المعتزلة ، فقيل له مروان الجعدي . ويقال

ان الصاحب بن عباد كان يميل الى مذهبهم. ثم ان كثيراً من متكلمي الشيعة تعول على كثير من آراء المعتزلة . ومن جملة اقوال المعتزلة ؛ اذا كان الامر مفروغاً منه فلماذا يسعى الانسان وفيم يجتهد ؟ وهم يأولون قوله تعالى « وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم » والحديث الشريف : « اعملوا فكل امرىء ميسر لما خلق له » .

اما ابو علي الجبائي ، فقد كان حامل لواء الاعتزال في عصره أخذ عن ابي يعقوب يوسف شيخ معتزلة البصرة ، ثم انتهت اليه رئاستهم الى ان مات (سنة ٣٠٣ او ٩١٥) ؛ وصنف كتابا في الاصول، وكانت له مناظرات مع الراوندي ؛ والنظام وغيرهما ، وهو الذي قرأ عليه ابو الحسن الاشعري ، ثم بعد ذلك ناظره الاشعري والف كتابا في الرد على استاذه الجبائي ، واعتزل الاعتزال ، وصار ناصرا للسنة ، حتى صار نصف المسلمين تقريبا أو اكثر اشعرية في علم الكلام . واشتهر ابو هاشم الجبائي اشتهار والده بالاعتزال ، لكنه حاول في مسئلة الصفات الالهية التوفيق بين المعتزلة واهل السنة ، بأن يجعل هذه الصفات احوالا؛ ومعنى ذلك انها صفات اشد اتصالا بالجوهر من العوارض غير اللازمة ، بحيث يكون لها سبق في القضاء والقدر . وقد اراد ابو هاشم بهذا ان يؤلف بين التوحيد الالهي والصفات ، زاعماً ان الكيفيات ليست جواهر بل انواعاً من المظاهر . وقد ردوا عليه في رأيه هذا ورأوه متناقضاً . ومات ابو هاشم عام ٣٢١ .

واما الاشعري — وهو علي بن اسماعيل ، بن اسحق ، بن سالم ، بن اسماعيل ، بن عبدالله ، بن موسى ، بن بلال ، بن ابي بردة الاشعري ، المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ المتوفى ببغداد سنة ٣٢٤ – فقد بقي الى الاربعين من عمره ملازماً للجبائي ، آخذا برأيه ، الا انه لحظ في آخر الامر ان كثيرا من اقوال المعتزلة لاتلتئم مع روح الشرع ، ففارقهم واخذ يرد عليهم، وكتب كتباً كثيرة قيل بلغت ٣٠٠ مصنف ، وعد منها ابن عساكر ٩٠ تأليفاً ، وذكر كثيراً منها بروكلمان Brokelmann الالماني في كتابه « تاريخ الآداب العربية » . وسنة ١٣٢١ هجرية طبع في حيدر آباد من مؤلفات الاشعري « الابانة عن اصول الديانة » . وسنة ١٣٢٣ طبع منها رسالة في استحسان الخوض في الكلام .

ورد في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، انه يعود للاشعري الفضل باستعمال المنطق والجدل في العقيدة ، خلافا لعلماء الاسلام الاولين ، وانه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة ، وسائر البدع ، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الاسلامية أي علم الكلام . قالت : « ولما كان الاشعري شافعياً لم ينتشر مذهبه عند قوم انتشاره عند الشافعية » قلنا : يقول عبدالوهاب السبكي في طبقات الشافعية ان المالكية بأجمعهم واكثر الشافعية هم اشاعرة . اما الحنفية فيرجحون مذهب الماتريدي ، وهو يتفق في الاساس مع الاشعري ، ويباينه في نقاط ثانوية . واما الحنابلة ، فيردون كلام الاشعري ويأخذون العقيدة بمثل ما اخذها السلف أي بدون فلسفة وقد يفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الاشاعرة بالتجسيم . وممن رد على الاشاعرة ابن حزم الظاهري . ومما لامشاحة فيه ان اعظم متكلمي الاسلام وسيوف السنة ؛ هم من الاشاعرة وذلك مثل الباقلاني ، والقشيري ، والاسفرائيني وامام الحرمين ابي المعالي الجويني ، ولو لم يكن منهم الا حجة الاسلام الغزالي لكفى . (ش)

التعليق على الخوارج

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صفحة ٢٨٩

عند ماطال النزاع بين امير المؤمنين عليّ بن ابي طالب ، ومعاوية بن ابي سفيان ،واشتدت الحرب واتسع الخرق ، مل كثير من المسلمين القتال ، وتذاكروا فيما بينهم في طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء . فكانت هذه الطريقة هي التحكيم الذي كثير من عقلاء الاوربيين يجاهدون اليوم فى جعله هو الواسطة لفض المنازعات الدولية ، وان كانوا الى هذه الساعة لم يوفقوا الى جعله المرجع الاول فيما شجر بين الدول ، بل كان لايزال امره ضئيلا واكثر ما يرجعون اليه في المشكلات الخفيفة .

فهذه الفئة التى سئمت الحرب ، حملت علياًرضي الله عنه على قبول التحكيم بينه وبين معاويه، واشارت باقامة ابي موسى الاشعري حكماً عنه في خبر طويل ليس هنا تفصيله ، مع ان عمراً ابن العاص داهية زمانه اقيم حكماً عن معاوية ، فخدع عمرو ابا موسى ، بان اتفق معه على ان يخلعا علياً ومعاوية جميعاً ، ويريحا المسلمين منهذه الحرب الطاحنة ، وانهمبعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه . ولما كان ابو موسى اكبر سناً من عمرو ، كان التقدم له في الكلام ، فقام وأشهد أنه خلعهما . وجاء الدور الى عمرو ، فقام وأشهد على أنهخلع عليا دون معاوية . وكانت لهذه الخدعة رنة في الاسلام لاتزال الناس تتذاكرها الى اليوم . وبطل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين ، فخرجت تلك الفئة من طاعة عليومعاوية معاً ، وانفردت برأي غير رأي الجماعة ، وهو انه لاحكم الا لله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فسماهم الناس من اجل ذلك خوارج . ثم ذهبوا الى النهروان وعسكروا هناك ، وكانوا على ما يروى اربعة آلاف مقاتل ، فصمد اليهم علي وما زال يقاتلهم ويستأصلهم اتقاء الفتنة وانتشار نظام الامة ، الي ان افناهم عن بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قيل ذهب منهم اثنان الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، وواحد الى اليمن . هذا اصل الخوارج ، ويقال لهم ايضاً الشراة لقولهم اننا شرينا انفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة حين خرجنا على الائمة الجائرة .

وعمود مذهبهم انكار الخلافة وان الحكم يستمد من القرآن رأساً فلا حاجة الى الخليفة . وانهم يمنعون التأويل فيه . وبعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هي قصة من القصص . وبعضهم يكفر بالكبائر ، ومنهم من يكفر بالاصرار على الصغائر ، ومنهم من يصوب فعلة عبد الرحمن بن ملجم ذلك الشقي الذي قتل علياً ، وفعل قطام في اشتراطها على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة ، عبداً ، وقينة ، وقتل علي . ومنهم من يجوز نصب الامام ولكن لايشترطون فيه النسب القرشي (وقد ذهب الى مثل ذلك غيرهم ومنهممن كبار علماء السنة مثل ابى بكر الباقلاني) . وهمفرق متعددة منها :

المحكمة ، وهم الذين يمنعون التحكيم .

ثم الازارقة ، وهم اتباع نافع بن الازرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان ايام ابن

الزبير ، وقاتلهم المهلب بن ابي صفرة ، وهم يكفرون علياً مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القاعدين عن القتال مع الامام ولو قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل اطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزاني المحصن وحد القذف عن قاذف المحصن دون المحصنة ، ويكفرون بالكبائر ويقولون ان التقية غير جائزة .

ثم النجدات ، وهم أصحاب نجدة بن عامر ، يكفرون بالاصرار على الصغائر دون فعل الكبائر ، من غير اصرار ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .

ثم البيهسية ، وهم اصحاب ابي بيهس الهيصم بن جابر يرون انه لاحرام الاماوقع عليه النص بقوله تعالى « قل لاأجد فيما اوحي اليّ محرما » الآية ، ويكفرون الرعية بكفر الامام .

ثم العجاردة ، وهم الذين ينفون كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون انما هي قصة من القصص .

ثم الميمونية ، وهم الذين يقولون ان الله مريد الخير دون الشر . ويقال أنهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الاخوة والاخوات . ورد ذلك فى بعض الكتب ومن جملتها « صبح الأعشى » . ولكن عهدنا « صبح الاعشى » ينقل روايات عن كتب زعم اصحابها استباحة ذوات المحارم عند بعض فرق مخالفة لاهل السنة ، وليس في تلك الروايات شيء من الصحة ، بحيث قد ضعفت الثقة فيما ترويه تلك الكتب عن فرق اخرى . والذي يظهر ان اختلاف العقيدة يورث من التباغض والتنافر ما ينتهي بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وبترويجها بين الناس ، حتى تكاد تصير قضية مسلمة . ولهذا شواهد كثيرة ليس هنا موضع ذكرها .

ثم الاباضية ، يرون ان مرتكب الكبيرة كافر للنعمة ، لا كافر بالله ، ويرون أن دار مخالفيهم من الاسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغي . وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، ويقولون أنهم هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة ، ويقال انهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من اصل الثلاث والسبعين فرقة . وهم لايذكرون بعد الرسول (ص) من الخلفاء الا ابا بكر وعمر ، وأما عثمان وعلي فلا يعجبانهم اذ قد خالفا نهج الرسول والصاحبين بزعمهم . ويقولون بوجوب نصب الامام بين المسلمين اذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وان القرشية ليست بشرط في الخلافة ، بل يكفي أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائرا بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته ، فان انحرف عنهما وجب خلعه . ويقولون ان القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى وهو كقول المأمون العباسي . وانه تعالى لا يرى بالابصار في الجنة ، وان الثواب والعقاب ابديان ولافناء للنعيم ولا للجحيم . وان الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر الا بالتوبة . وهم يرجعون الى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالاجماع والقياس ، بل عندهم محلهما الرأي . وهم يقولون : ان كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وان على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا التضامن الديني خسر حقه في حنو اخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظير عدو الى أن يتوب وينيب . هذا ولما كان أكثر فرق الخوارج انتشاراً هم هؤلاء الاباضية ، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الاسلام الكبرى ، فسنعود فى آخر هذا الفصل الى تاريخهم السياسي .

ثم الثعالبة، وهم يرون الولاية على الصغير الى أن يظهر عليه انكار الحق فيتبرأون منه .
ثم الصفرية، ومن رأيهم أن التكفير يقع فيما ليس فيه حد، كترك الصلاة، أما ما كان من الكبائر فيه حد كالزنا، فيكفي فيه الحد ولا يجب فيه التكفير .

هذه أشهر فرق الخوارج، ومن شاء التوسع في هذا الموضوع فعليه « بالملل والنحل » للشهرستاني، وكتاب « الفهرست »، وكتاب « كشف الغمة في أخبار الامة »، وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادي، وكتاب « الملل والنحل » لابن حزم وغيرها.

ونعود الى الاباضية فنقول : هؤلاء ينتسبون الى عبد الله بن اباض، بكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح، وكان أول خروج الاباضية في زمان مروان الثاني الاموي، وكان يقودهم حينئذ عبد الله بن يحيي وأبو حمزة (١٢٩ هجرية) وزحف عبد الله من حضر موت الى صنعا فاستولى عليها، وسير أبا حمزة بجيش الى مكة ثم المدينة فاستولى عليهما، فارسل مروان جيشا عقد لواءه لعبد الملك بن عطية، فقاتل أبا حمزة وهزمه في وادي القرى، فالتجأ الى مكة، فجدّ في أثره وما زال يقاتله حتى قبض عليه وقتله . وكذلك انتهى أمر عبد الله بن يحيي بصنعاء اليمن . وسنة ١٣٤ للهجرة، ثار الاباضية في عمان، فسار اليهم خازم بن خزيمة من قبل بني العباس، فنكل بهم، ولكن المذهب الاباضيّ وجد في بلاد عمان بانفرادها، وشحط مزارها، وحيلولة الفلوات من جهة، والبحار من أخرى، بينها وبين سائر الاقطار أندوحة اتسع بها، وبسط جناحيه بدون زعج في قاصيتها، وما زال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب فى بلاد عمان ومنها امتد الى زنجبار . أما في شمالي افريقية فان مذهب الاباضية ظهر في أواسط القرن الثاني للهجرة، هو ومذهب الصفرية، كلاهما من الخوارج، وقد انتشرا كثيراً بين البربر الذين خرجوا مراراً على الدول العربية . وكان أول دعاتهم في شمالي افريقية أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري الحميري اليماني، خرج في جبل نفوسة، وهو أول امام للاباضية في تلك الاقطار . ويقولون انه احد الدعاة الخمسة الذين يسميهم الاباضيه « حملة العلم »، وكانت مبايعة الاباضية له في جبل نفوسة ونواحي طرابلس سنة ١٤٠ هجرية . وزحفوا بعدها الى مدينة طرابلس، واضطروا العامل الذي كان فيها من قبل بني العباس على الفرار بنفسه . ثم سار منهم ستة آلاف تحت قيادة ابي الخطاب هذا، وافتتحوا قابس، ثم ساروا الى القيروان فحاصروها، وفي صفر سنة ١٤١ فتحوها وذبحوا أهلها. وعاد ابو الخطاب الى طرابلس بعد ان أبقى على القيروان من قبله عبد الرحمن بن رستم . وفي ذي الحجة من سنة ١٤١ ولى الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي محمداً بن الاشعث الخزاعي على مصر، فارسل هذا جيشا تحت قيادة العوام بن عبد العزيز البجلي الى افريقية لتدويخ الخوارج، فزحف أبو الخطاب بنفسه للقاء جيش الخليفة، وارسل من قبله جريدة تسبقه مع مالك بن سهران الحواري فانكسر جيش الخليفة أول مرة في سرت، فارسل ابن الاشعث جيشاً آخر بقيادة ابي الاحوز عمر بن الاحوز العجلي، فانكسر أيضا، فزحف ابن الاشعث بنفسه بأمر من الخليفة، فالتقاه ابو الخطاب بجيش البربر في « تاورغا » في صفر سنة ١٤٤ ودارت معركة تشيب لها الاطفال وانتهت بهلاك ابي الخطاب و١٢ الفا ويقال ١٤ الفا من أشياعه، وفي جمادى دخلت عساكر الخليفة القيروان .

ولكن لم تلبث فتنة الخوارج في تلك الاقطار ان تجددت ، اذ في نحو عام ١٥٦ ظهر أبو حاتم يعقوب بن حبيب المزوزي ، وقيل ان أباه كان اسمه لبيد بن مدين من قبيله هوارة العظيمة ، فجمع أبو حاتم هذا جموعا من الاباضية والصفرية واصناف البرابر ، وجاء يحاصر عامل افريقية عمر بن هزار مرد في بلدة تبنة ، فبعد وقائع شديدة تمكن عمر من الخروج من تبنة والالحاق بالقيروان عاصمة افريقية في ذلك العصر ، ورد جميع مهاجات البربر ، وصبر على الجوع ونفاد الاقوات ، وبينما هو يدافع عن البلدة اذ بلغه كون الخليفة سرح جيشاً تحت قيادة يزيد بن حاتم ، الذي ولاه على افريقية محل عمر ، فبلغ من عمر اليأس مبلغه وخرج فقاتل حتى قتل في ذي الحجة سنة ١٥٤ ، فاستولى البربر على البلدة وجمعوا جيوشهم لملاقاة جيش الخليفة . وكان في هذا عساكر من خراسان ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، ومن بقايا الاجناد التي كانت بافريقية ، ومن الهوارة انفسهم . فالتقى الجمعان في جندوبة ، وانتهت المعركة بانتصار جيش الخلافة ، وهلك أبو حاتم ومعه ٣٠ الف مقاتل من اتباعه ، وذلك في ٢٧ ربيع الاول سنة ١٥٥ (٧ مارس سنة ٧٧٢) ويقال ان هذه الواقعة الكبرى كانت خاتمة ٣٧٥ واقعة نشبت بين الخوارج وجند الخلافة .

ولقد تأسست دولة اباضية في تاهرت استمرت ١٣٠ سنة ، الى ان ازالتها الدولة الفاطمية على يد ابي عبد الله الشيعي (٢٩٦ للهجرة) ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة في الغرب ، وانما منهم اعداد وافرة في وارغلة ، وميزاب ، وجبل نفوسة ، وزوارة ، وجزيرة جربة . وهم مرتبطون بعضهم ببعض ارتباطا شديداً ، ولهم علاقات مع اباضية عمان ، وزنجبار ، وتجدهم يتدارسون تاريخهم وفقههم وادبهم بكل اعتناء . ومن أعيان الاباضيين في زماننا هذا الشيخ سليمان الباروني الذي جاهد في حرب طرابلس الغرب جهاداً عظيما على رأس اباضية الجبل الغربي ، وكان مبعوثا في مجلس الامة بالاستانة ، ثم جعلته الدولة العثمانية عضواً في مجلس الاعيان مكافأة له على جهاده .

ثم نعود الى اباضية عمان فنقول : ان الخروج على الدولة شنشنة قديمة لذلك القطر ، فقد عصى اهالي عمان لعهد بني أمية ، فسير عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي جيشا فهزموه ، وكان عليهم يومئذ سليمان وسعيد من اولاد الجلندي الذي كان يلي عمان عند ظهور الاسلام . فارسل عليهم الحجاج جيشاً آخر فهزمهم ونكل بهم ، وفرّ الاخوان سليمان وسعيد الى بلاد الزنج (زنجبار) ، فكانت الى هذا اليوم منتدحا لاهل عمان . ولكن تنحي بلاد عمان عن الامصار الكبرى كما تقدم الكلام عليه ، هيأ فيها سهولة الانتقاض ، فان العمانيين لم يلبثوا ان ثاروا وبايعوا بالامامة الجلندي بن مسعود . فأرسل ابو العباس السفاح جيشا لقتال الجلندي هذا ، فانهزم العمانيون وهلك امامهم ، ولكن لم تعد عساكر الخليفة الى أوطانها حتى صارت أمور عمان فوضى ، واضطر الاهالي الى عقد اجتماع وانتخاب امام على حسب اصول المذهب الخارجي المنتسب الى عبد الله بن اباض التميمي . فوقع الانتخاب على رجل يقال له محمد بن عفان ، فباشر الامامة نحو سنتين ، فلم يحسن العمل فخلعوه ، واقاموا مكانه الوارث بن كعب. وفي زمان هذا ارسل هارون الرشيد تجريدة على عمان فلم تصنع شيئا . ومات الوارث بن كعب في حادثة غريبة ، وهي انه كان في احدى الوقائع ثقف عدداً من الاسرى ، وصادف

أن جرى سيل في المكان الذى كان الاسرى فيه موثقين ، فذهب بنفسه يجتهد في تخليصهم فاخذه السيل وذهب شهيد مرؤته ، ووجدت جثته ثاني يوم بعد ان انكشفت الارض متعلقة بشجرة . وخلفه غسان بن عبد الله ، وقد طهر تلك البلاد من معرة لصوص البحر ، وتأثرهم على طول الساحل من بلاد العرب الى بلاد العجم الى الهند ومات سنة ٢٠٧ .

فوقع الاختيار على عبد الملك بن حميد ، فلما بلغ من الكبر عتيا أهتر واصبح لا يعقل من الكبر ، فلم يريدوا خلعه ولكنهم وضعوا له مدبراً اسمه الشيخ موسى. ولما مات عبد الملك سنة ٢٦٢ أقاموا مكانه المهنا بن جعفر ، وبعدة هذا استضافت عمان بلاد المهرة ، وكانت من قبل تؤدي اتاوة سنوية . ومات المهنا هذا في سنة ٢٣٧ وخلفه الصلت بن مالك ، ومات سنة ٢٧٣ فخلفه رشيد بن النضر ، فاختلت الامور وانتثر النظام في ايام هذين حتى اضطر الاهالي لمراجعة الخليفة المعتضد العباسي ، وكان رجل اسمه عزان الخاروسي حاول ان يحكم بالقهر والعسف فلم يتسق له الامر وصارت الناس فوضى. فذهب اثنان من الاهالي الى البحرين يتكلمان مع محمد بن نور عامل الخليفة على البحرين في الاستيلاء على عمان وازالة الفوضى التي فيها ، وقد قصد أحدهما بغداد لمخاطبة الديوان في هذا الامر ، فتقرر الزحف الى عمان ، وسار محمد ابن نور بجموع وافرة من نزار وطيّ ، ففتح نزوة عاصمة عمان ، وقتل عزان ، وفر كثير من الاهالي الى البصرة والى شيراز والى مدينة هرمز . ثم ثار بمحمد بن نور بعض القبائل وتكاثروا عليه ، فترك مقره ولحق بالساحل الى ان ادركته نجدة عظيمة من مرتدفة مضر ، فتمكن من قمع الثورة وازهف الحد في الاهالي ، وقطع الايدي وصلم الآذان ، وعطل قني المياه التي يشرب منها الخلق ، واحرق الكتب ، وعمل بالاهالي العمانين ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئا ، اذ ما كاد يرجع الى البحرين محل عمالته ، حتى ثار الاهالي ثانية وقتلوا العامل الذي استخلفه على عمان ، وذهب دم هذا هدرا لان الخلافة عدلت عن ولاية عمان وناءت عن ايدابها . فعاد الاهالي الى انتخاب ائمتهم ، وتوالت عدة ائمة ، مثل محمد بن الحسن الخاروسى ، وعزان بن الحزر ، وعبد الله بن محمد الهداني ، والصلت بن قاسم ، وحسن بن سعيد الحواري ابن مطرف . ولم تطل مدة هؤلاء ، بل استمرت الفتن في البلاد الى ان ظهر القرامطة فافتتحوا عمان مدة من الزمن ثم أخرجوهم منها ، واختير للامامة محمد بن يزيد الكندي . وفي مدته سرحت الخلافة جيشا لاسترداد عمان ففر الكندي من وجهه ، فانتخب العمانيون سعيد ابن عبد الله ، فمات في سنه ٣٢٨ فانتدبوا رشيدا بن الوليد واطاعه الجميع . الا انه في آخر الامر اضطرب حبله ومال جماعة الى حكم الخليفة ، فانهزم الامام وفارقه اصحابه ، وبقيت عمان تحت حكم الخلافة الى سنة ٤٠٠ اذ ضعفت الدولة في بغداد عن ادارة هاتيك البلاد . فتوالت الائمة نوبة ثانية كالخليل بن شدهان ، ورشيد بن سعيد الذى كانت وفاته سنة ٤٤٥ وابنه حفص ، ثم رشيد بن علي ، ثم ابي جابر موسى المتوفى سنة ٥٤٩ ، ثم استولى على القطر بنو نبهان ، وتلقبوا بالملوك واستمر ملكهم مائتين وستين سنة . وفي أيامهم حاول الايرانيون أن يستولوا على عمان ، وجاء فخر الدين أحمد بن الداية بجيش من شيراز ، فاجتاح سواحل عمان ، ثم ان امير هورمز محمود بن احمد الكوسي ، وكان عربي المحتد قد اجتاح بلاد عمان أيضا بمساعدة المغول الذين كان انضم اليهم ، ووصل بجيشه الى ظفار ، الا انه نشب مع

عساكره في رمال تلك الصحراء فهاجه العرب ، وقتلوا من كان باقيا من عساكره ، ولا تزال قبورهم ظاهرة الى هذا اليوم يقال لها قبور الترك ، مما يدل على انه كان في جيشه مرتزقة من الاتراك . وفي ايام بني نبهان ، دخل في عمان غراس شجرة «المانغا » يقال ان الذي ادخلها هو الفلاح بن محسن الذي كانت عاصمته مدينة مقنيات التي خربها الوهابيون سنة ١٨٠٠

ثم اخذ بنو نبهان يظلمون ويعسفون ، فلم يطق الاهالي حكمهم ، وانتخبوا اماماً من قبيلة الازد ، وانتهى ملك بني نبهان في نحو ٨٣٩ للهجرة . وكان بنو نبهان قد ضبطوا املاكاً كثيرة فاستردها عمر بن الخطاب من سلالة شدهان بن الصلت ، ومالم يوجد له اصحاب كأن يكون هؤلاء انقرضوا أو غابوا غيبة منقطعة رده الى بيت المال .

ولم يتأثل الملك وترسخ قواعده الا في ايام ناصر بن مرشد بن سلطان سنة ١٠٣٤ هجرية وفق (١٦٢٤) وهو من نبعة عربية صريحة ومن اقدم الارومات الاباضية .

ولما استلم ناصر الزمام كانت بعض المدن المحصنة في الداخل بايدي زعماء يلقبون انفسهم ملوكاً ، وكانت مدن اخرى يحكم فيها مجالس شيوخ من اهلها . ولم يكن بقي من الثغور البحرية بايدي الاهالي سوى فرضة « لاوة » والباقي كان دخل في حكم امير هرمز ، (يقول ياقوت الحموي ان هرمز بضم الهاء وسكون الراء وضم الميم وبعد هازاي مدينة في اقصى مكران قريبة من ساحل بحر الهند . ولكن المعروف ان هرمز هي جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس، ورد في قاموس موريس قال ان دورها لايتجاوز ٢٠ كيلو متراً ، وهي صخرة جرداء . قال : وكان فيها امراء مسلمون قد حصنوها ففي سنة ١٥١١ هاجمها البرتغاليون بقيادة البوقرق Albuguerke واستولوا عليها ، وصارت من محاطهم المشهورة الى سنة ١٦٢٢ اذ استرجعها الشاه عباس وهدمها ولم يبق فيها الا قرية حقيرة) .

وكان في ذلك الوقت قد استأسد البرتغال ، وظهروا على بلاد الشرق وصارت لاساطيلهم الكلمة العليا ، كما هي كلمة الانكليز اليوم . واشتهر منهم قائد اسمه الفونس البوقرق ، ولد في الهندورة بقرب اشبونة ، وتربى في بلاط الملك الفونس الخامس ، وسنة ١٥٠٣ كانت اولى غزواته الى الهند بثلاث بوارج حربية ، وما زال يغزو ويفتح حتى لقب بحاكم الهند ، واستولى على « غوا » واجتاح ساحل المليبار ، واحتل مدينة « ملقا » مفتاح الهند الصينية ، وهو الذي منع الترك العثمانيين من الدخول في الهند ، ودمر عدن مرتين بالمدافع ، واستولى على جزيرة هرمز ، وبنى في جزيرة سقطرى حصناً ليحافظ على اهلها الذين كانوا نصارى نساطرة ، وعقد محالفة مع ملك الحبشة ، وحدثته نفسه بالاتفاق معه بتحويل مجرى النيل من السودان الى البحر الاحمر ليتمكن من تدمير القطر المصري . وبالجملة فكان في وقته الآفة العظمى على الاسلام ، ومن جملة مغازيه سواحل عمان ، التي كان البرتغاليون فتحوا قسماً من مراسيها ، وتركوا القسم الآخر بايدي الاهالي مكتفين منهم باتاوة يؤدونها اليهم سنوياً . أما المدن البحرية التي كان فيها حاميات برتغالية عظيمة ، فكانت مسقط ، وصحار ، والمطرح ، وقريات . فسار ناصر بن مرشد اولاً الى لاوة ، فاستعان اهلها بالبرتغال ، فامدوهم بالمال والسلاح ، ولكن ناصراً تغلب عليهم وفتح البلدة ، ثم هاجم انفس البرتغال في المدن التي كانوا فيها ، فانتزعها من ايديهم ، وبقيت حامياتهم ممتنعة بقلاعها ، ليس لها ايد تمتد الى البلاد ، ثم طرد البرتغاليين

من راس الخيمة . وكان البرتغاليون قد اضطروا اخيراً لاجل الاستقرار في قلعة مسقط ، ان يؤدوا للامام ناصر جزية ، فبعد ان ادوها مدة امتنعوا من ادائها ، فزحف اليهم ودارت رحى الحرب ، وانتهت بصلح ثقيل الشروط على البرتغاليين ، اذ انتزع من ايديهم عدة حصون ، في المطرح والقلاع الخارجية في مسقط ، واجبرهم على عدم التعرض لحرية التجارة وعلى اداء الجزية . ثم افتتح ناصر مدينتي صور وقريات ، وطرد الاجانب منها . وبالاختصار فانه منذ بداية ملكه وضع نصب عينه تطهير بلاده من المعرة الاجنبية ، وفهم في ذلك الوقت مالم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وامراء الاسلام ، من كون الاجنبي الاوربي اذا انشب براثنه في محل لم ينته منه الا باستخلاص جميع البلاد ، واستعباد من فيها من العباد ، وان الاولى بالعاقل توقي هذا المرض قبل أن ينشب ، والمبادرة الى اقتلاعه بكل الوسائل قبل ان يستفحل .

وجرت ثورات في زمان ناصر ، فاطفأ نائرتها بحزمه وحكمته ، ومات سنة ١٠٥٩ وفق ١٩٤٩ وقد اكمل عملاً عظيماً . وبنى مملكة عمان على بوانيها ، وحررها من السلطة الاجنبية ، الا بقايا بقلعتي مسقط والمطرح وحصن صحار . واستمر ملكه ٢٦ سنة وكان حازماً ، جاداً ، شائماً في الامور ، فاضلاً تقياً ؛ احبه الاهالى لمناقبه هذه ؛ وان كانوا قدعابواشحه وكزازةيده .

وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف ؛ فنسج على طرازه في الاشتغال باجلاء البقية الباقية من حامية البرتغال في سواحل عمان . وكانت له عيون على هؤلاء ؛ يفضون اليه بعوراتهم ، فارسل اليه سراً رجل هندي كان وكيلاً لامورهم ، وموضع ثقتهم ؛ انهم في غفلة لاهون اذا طرقهم العدو اخذهم من حيث لايشعرون . فكبسهم وهم على تلك الحالة واستخلص منهم الحصنين الخارجين ، فبرز احد البرتغاليين المدعو « كابرتيا » ومعه شرذمة من اصحابه ، وحاول استرداد المدينة فاستؤصلوا جميعاً . وكانت بارجتان للبرتغال في البحر تمدان الحامية فقصدهما العرب بالقوارب وذبحوا من فيهما . ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال فى بلاده حتى قصدهم الى بلاد الهند ، فارسل بوارج حربية تغزوهم فى ساحل كوجرات فى الهند ؛ فاجتاحت عساكره « ديو » و « دامان » ، وقفلت بغنائم وافرة ، وآنية كثيرة ، مماكان فى الكنائس . ووجه سلطان بن سيف معظم همته الى ترويج التجارة ، وعمارة اسواق الاخذ والعطاء ، واستجلاب الاسلحة والخيول لتقوية جيشه ، وانفق فى هذه السبيل اموالاً طائلة ، وجدد قلعة نزوة ، وترك آثاراً صالحة ، وتوفي في سنة ١٠٧٩ هجرية الموافقة سنة ١٦٦٨ وكان من افراد الملوك فى حسن سيرته في الرعية ، وسداد آرائه ، وصواب انحائه ، وتوافت الناس بداراً الى مراضيه ، وتسارعت الى امتثال اوامره واجتناب نواهيه ، وكل ذلك بسائق المحبة والامانة ، وجاذب الاخلاص والمناصحة ، اذ كان يخرج كسائر الناس ، ويغشى المجامع ، ويختلط بالعامة ، وهو بدون خفير ولا قرين ، بل خفارته من ثقته بمحبة قومه وصحابته من معرفتهم لفضله واجلالهم لقدره . وخلفه ابنه « بلعرب » وكان هذا محباً للعلم والعلماء ، بنى مدرسة في يبرين ؛ وجعل اقامته بها . وثار على بلعرب اخوه سيف ، و عضد هؤلاء الفقهاء ؛ فانقسمت الرعية الى قسمين متساويين أولاً ؛ ثم جعل حزب سيف يتقوى على حزب بلعرب ، وكان هذا سخياً جواداً مواسياً للفقراء ، فلقبوه « ابا العرب » لكرمه فلما طالت الفتنة بينه وبين اخيه واضطرب حبله صاروا يلقبونه « بلا العرب » ؛

والناس من يلق خيراً قائلون له   مايشتهي ولأم المخطيء الهبل

واخيراً استصفى سيف اكثر البلاد ، ولم يبق للعرب الا ببرين . وبينما اخوه يحاصره اذ قبض ، فاستراح واستراح بموته اخوه ، وصفا الوقت لسيف ، وتوفرت همته كاسلافه على مكافحة البرتغاليين ، فاجلاهم عن مومبازه Mombasa (ثغر من ثغور شرقي افريقية واقع في جزيرة من سواحل زنجبار تملكها البرتغال ، ثم سلطان مسقط ، ثم سلطان زنجبار ، ثم سنة ١٨٩٠ استولى عليها الانكليز الذين هدموا بنيان هذه المملكة وورثوا انقاضها وصارت مومبازه عاصمة لمستعمرة شرقي افريقية الانكليزية وفيها ٣٠ الفاً من السكان) وعن جزيرة بمبا (هذه أيضاً جزيرة من سواحل زنجبار سكانها ٤٠ الفاً صارت أيضاً تحت الحماية الانكليزية مثل زنزيبار) وغيرهما من الجزر والسواحل التي كان العمانيون قد احرزوها في شرقي افريقية ، فجاء البرتغاليون واخذوها من ايديهم في نحو سنة ١٥٠٣ فكان استردادها على يد سيف بن سلطان في سنة ١٦٩٤ .

واجتاح اسطول سيف جزيرة سلزيت ، بقرب بمباي الهند ، وكذلك مدينتي بارسالور ، ومانغالور ، ولم يقدر راجاكارناتيك ان يذب عنهما .

وكان سيف حكيماً ، مدبراً ، محباً للعمران ، بصيراً بالاصلاح ، فانتظم بادارته جمهور المرافق والمصالح ، والتأم بنفاذه شمل المعاون والمناجح ، وهو الذي شرع في بلاده بحفر قني المياه تحت الارض لاجل الري (نظير القني التي بغوطة الشام منها في قصبة دومة ومنها مابين الاشرفية وصحنايا ، ويوجد قناة من هذا القبيل طولها اكثر من ساعتين تفيض على جيرود في القلمون الادنى وغير ذلك) ويسمون ذلك في بلاد عمان فلجاً . (الفلج بضم الفاء واللام في اللغة الساقية التي تجرى الى البستان ، والفلج بفتحتين النهر الصغير) ففاضت الخيرات بهذه القني ، وترقت الزراعة ترقيا بالغاً ، واعتنى سيف اشد الاعتناء بغراس النخيل ، واستجاب اصنافه ، وبلغ في ذلك غاية الاعتزام وامد الالتزام ، وصار ذا ثروة طائلة ، ونعمة لاتحصى ، قيل انه كان يملك ثلث نخيل عمان ، وكانت حاضرة سيف مدينة رستاق ، وتوفي بها في ٣ رمضان سنة ١١٢٣ (١٧١١) وخلفه ابنه سلطان بن سيف وهو المعروف بسلطان الثاني .

فنقل هذا كرسي المملكة الى مدينة الحزم ، وانتزع البحرين من ايدي العجم الذين كانوا استولوا عليها سنة ١٦٢٢ منذ طرد الشاه عباس البرتغاليين من هرمز . ومات سلطان تاركا ولدين : احدهما اسمه سيف ، وكان يافعاً ، والآخر مهنا وكان بالغاً رشيداً . فانقسم الناس في امر الخلف ، اذ بعضهم ارادوا انتخاب سيف اماماً ، والآخرون اعترضوا من جهة حداثة سنه وارادوا مهنا ، وكان هوى العامة مع سيف ، وهوى الخاصة والعلماء مع مهنا . وكان لذلك العهد رجل عظيم الوجاهة ، نافذ القول ، اسمه الشيخ عدي بن سليمان ، تدخل في الامر اتقاء الفتنة ، فنادى بسيف اماماً ، ولكنه كان يلفظ ذلك بفتح الهمزة فيقول « أمام » بدلا من « امام » وسكن بذلك العامة ريثما انقضت تلك الهيعة ، فادخلوا مهنا الى القلعة سراً ، وجعلوه اماماً (١١٣١ ــ ١٧١٨) وكان مهنا على جانب عظيم من الحذق والمهارة ، وطول الباع في الادارة ، فانه بدأ بجعل مسقط مرفأ حراً ، بأن اسقط فيها المكوس وسائر مايؤخذ على البضائع ، مما زاد حركة الاخذ والعطاء ، وبشر بمستقبل عظيم ، الا انه افتلت بأمر لم يكن يفطن له ، وهو

ان اهالي رستاق ونفس عشيرته قاموا يطلبون الامامة ليعروب بن بلعرب ، ورفعوا لواء العصيان ، وزحفوا الى مسقط ودخلوها ، وقعد الآخرون عن نصرة مهنا ، فاعتصم بقلعة رستاق ، ثم داخلوه في الامان ، فامن للثائرين وسلمهم القلعة ، فلما حصل في ايديهم باقوه وقتلوه (١١٣٣) وتولى الامر يعروب في البداية باسم سيف الصغير ، ثم جعل نفسه اماماً أصيلا ، واخذ حكماً شرعياً من قاضي ذلك الوقت ، بأنه احرز الامامة بحق ، وانه ليس بعاص ولا خارج ولا غاصب حتى ان الاموال التي اغتصبها هي حل له بحجة ان التوبة تكفر عن الذنب .

ولكن كان لسيف اشياع وانصار لم يخضعوا لهذه الثورة ، فقام بلعرب بن ناصر بامر سيف الصغير وزحف الى رستاق ، ففر يعروب الى نزوة ، وقتل القاضي عدي بن سليمان وطيف بجثته في الاسواق . وتفاقمت الفتنة ، فتوسط اناس في الامر ، فتحول يعروب الى يبرين واقام بقلعتها . واقيم سيف بن سلطان اماماً بكفالة عمه بلعرب ، وقيل انه لما جاءت وفود القبائل تهنيء الامام الجديد بالملك ، اساء بلعرب هذا مقابلة محمد بن ناصر زعيم بني غافر ، وقيل انه توعده ، فانصرف محمد هذا مغاضباً ، وداخل يعروب في الاتفاق على سيف وعمه بلعرب . ثم انتقض محمد بن ناصر على الامام ظاهراً ، واستولى على رستاق ، ثم اسر الامام واستبقاه رهناً في قبضته . وما زال امره يقوى حتى دخلت جميع عمان في حوزته ، ماعدا مسقط وقلعة برقة . ومات في اثناء ذلك يعروب الذي كان محمد بن ناصر يقاتل باسمه ، فلم يبق رئيس في وجه محمد بن ناصر سوى خلف بن مبارك المسمى « بالقصير » بالتشديد . فوقعت الحرب بينهما والتجأ القصير الى حصن برقة ، فحاصره ابن ناصر فلم يقدر على اخذه . ولست بقين من محرم سنة ١١٣٧ أو ٢ أكطوبر سنة ١٧٢٤ نودي بمحمد بن ناصر اماماً في نزوة . ولكن خلفاً بن مبارك بقي يجاذبه الحبل ، وزحف الى رستاق ، والنخل ، وصحار ، واستولى عليها ، فصمد اليه محمد بن ناصر برجاله ، واشتعلت الحرب ، فوقع خلف قتيلا في حصار صحار . وبينما محمد بن ناصر قد ظن ان الامر قد اتسق له ، وانه تخلص من عدوه ، اذ اصابته رصاصة من جهة القلعة اودت بحياته . فرجع الناس الى سيف بن سلطان وبايعوه في اول رمضان سنة ١١٤٠ أو ٢ ابريل سنة ١٧٢٨ وكان سيف بلغ سن الرشد وحكم القاضي بصحة امامته شرعاً .

وما مضى على ذلك مدة حتى قام اهالي الزاهرة وبايعوا ابن عمه بلعرب بن حمير ، فاشتعلت الحرب بينهما فلم يقدر سيف ان ينال من ابن عمه وطراً ، فالتجأ الى نادرشاه صاحب فارس . وكان سيف بن سلطان محتاجاً الى مشير يعتمد على رأيه ، فاشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفا بالاستقامة اسمه احمد بن سعيد من عترة يقال لها البوسعيد . فتولى هذا مدينة صحار واحسن ادارتها ، وحمد الناس طريقته ، فحسده سيف على المنزلة التي نالها في قلوب الاهالي ، واراد ان يقبض عليه الا ان الناس أصلحوا بينهما . ولكن سيفاً بقي يخشى ابن عمه بلعرب بن حمير ، فاستمد العجم كما تقدم فانجدوه بجيش تقدم الى الزاهرة ومعهم سيف بجماعته ، فتغلبوا على بلعرب وافحشوا في القتل والنكاية ، حتى رجع سيف الى نفسه ، ورأى عداوة ابن عمه اهون من صداقة العجم ، فانحاش الى مسقط . ولبث العجم يجتاحون البلاد ويوقعون بالاهالي ، حتى قام بنو غافر على بلعرب واجبروه على التخلي عن دعواه في الامارة ، ومبايعة سيف بدون منازعة . فلما اتفقت كلمة العمانيين ثقلت الحملة على الاعاجم فجلوا عن البلاد ، الا الجيش الذي

كان امام صحار ، فانه بقي يحاصرها . وفي هاتيك الاثناء قام رجل في مدينه النخل اسمه سلطان ابن مرشد من بني يعروبة ، فادعى الامامة (١١٥٠ — ١٧٣٨) وانتزع اكثر البلاد من يد سيف بن سلطان ، ومن جملتها مسقط . فاستغاث سيف بالعجم ثاني مرة ووعدهم بالتخلي لهم عن صحار ان ضمنوا له الاستقلال بالامامة ، فسرح العجم جيشاً الى مسقط استولى على البلد والحصون ، ولكنهم لم يسلموها الى سيف ، فذهب هذا الى بلدة الحزم ، ومات بعد ذلك بقليل . اما سلطان بن مرشد فمات على اثر جراحة اصابته في قتال العجم على صحار . فلم يبق من الزعماء الا احمد بن سعيد الذي كان له الفضل الاكبر في امتناع صحار ، واجلاء الايرانيين عنها . ثم ان احمد هذا لم يكتف بتخليص صحار حتى استولى على برقه وحاصر مسقط ، فارسل الايرانيون ماجد بن سلطان من ابناء عم سيف الى الشاه يلتمسون منه الامر بتسليم حصون مسقط الى ماجد ، فاصدر الشاه الامر اللازم الى الحامية الفارسية بتسليم الحصون اليه ، فوقع الامر باتفاق غريب في يد احمد بن سعيد ، فابلغه الى الحامية وخرج هؤلاء على انهم سلموا الحصون الى احمد بن سعيد باسم ماجد ، والحقيقة ان احمد تسلمها بالخديعة . وبعد ذلك صنع وليمة عظيمة للايرانيين في برقة ، كانت نهايتها ان الاهالي هجموا عليهم وذبحوهم ، ونجا فلهم بالسفن قاصدين ساحل فارس ، ولما كان ملاحة السفن هم من العرب ، احرقوا السفن لاهلاك الايرانيين الذين كانوا منهزمين بها الى بلادهم ، وقذفوا هم انفسهم في اليم ، ونجوا سباحة الى الشاطي ومهارة العمانيين في السباحة واقتحام البحر معلومة . وهكذا انتهت غزاة الفرس بلاد عمان .

ولما تم استخلاص بلاد عمان على يد احمد بن سعيد ، اجتمع الرؤساء والاعيان ببلدة رستاق ونصبوه اماماً (١١٥٤ — ١٧٤١) فاحسن التدبير ، وسن للمملكة قوانين مالية ، وتجارية واستبقى لنفسه امارة الجيش البري ، وعهد الى رجل من خواصه بنظر الاسطول ، ونظم جيشا دائما . وبينما هو دائب في تدبير الامور اذ برز بلعرب بن حمير ودعا لنفسه ، واعصوصب حوله كثير من الناس ، فاراد احمد بن سعيد ان يمتحن قومه ويعلم هل يثبتون معه الى الآخر ام لا ، فتخبأ في كسر بيت عند احدى العجائز ، وشاع خبر موته فاشتد عزم بلعرب ، وذهب بعشرين الف مقاتل يحاصر نزوة ، فبرز احمد بن سعيد من مخبأه فوجد قومه على ولائهم له ، فزحف الى بلعرب بجيش كثيف وتغلب عليه وسقط بلعرب قتيلاً في المعركة . وسنة ١١٧٠ وفق ١٧٥٦ استولى العجم على البصرة ، فذهب احمد بعشر سفائن حربية تجر عددا كبيرا من القوارب حمل عليها ١٠ آلاف مقاتل ، وهزم الايرانيين ، ونصر الدولة العثمانية نصرا مؤزرا ، فسرت الدولة منه واجرت عليه راتباً سنوياً كان لايزال جارياً على ائمة مسقط الى أواخر القرن التاسع عشر .

وكان من جملة اسطوله طراد اسمه « الرحماني » هو الذي كسر سلسلة الحديد التي وضعها الايرانيون في شط العرب ، لمنع اسطول عمان من الدخول الى البصرة ، فارسله احمد بن سعيد الى مانغالور في جنوبي الهند سائلا عن السبب في حجز مؤونة الارز التي كانت ترد عمان كل سنة ، فاستقبل تيبو صاحب عامل السلطان اعلم في مملكة غرناتيك ، مندوب امام عمان بكل حفاوة ، واخبره ان السبب في ذلك هو من متلصصة البحر الذين بساحل المالابار . فقصدهم

الطراد الى ديارهم وقتل زعيمهم .
وكانت بلاد الزاهرة بمكانها من داخلية البلاد لم تخضع تماماً لاحمد بن سعيد . وكان علو الكلمة فيها لبني غافر ، فثار فيها احدهم ناصر بن محمد واشتعلت الحرب بينه وبين احمد . فساق عليه هذا عساكره من العمانيين ومن المرتزقة من البلوجيين والمكرانيين ، فانكسروا واخيرا تصالح الفريقان على ان تبقى بلاد الزاهرة في يد بني غافر ، ويعترفوا بسيادة اسمية للامام احمد بن سعيد . وكانت قلعتا النخل والحزم لاتزالان في ايدي بني يعروبة ، فحاول انتزاعهما من ايديهم بدون جدوى . ولم يكف كون بني غافر مستقلين بالزاهرة وبني يعروبة ما لكين بعض الحصون حتى ثار على احمد ولداه سيف وسلطان ، واعتصما بقلعة برقة ، ثم تماديا في الجرأة حتى اخذا الحصون التى بظاهر مسقط ، ولكن احمد اخذ هذه المسئلة بالتؤدة وانتهت بينه وبين بنيه بسلام . ومات هو في ذي القعدة سنة ١١٨٨ أو يناير سنة ١٧٧٥ وقد ملك مدة ٣٤ سنة كريتا . وكان خلاص عمان من غارة العجم على يده . وكانت الامامة في عمان من صدر الاسلام تقع دائماً بالانتخاب على حسب مذهب الخوارج . والحقيقة ان الانتخاب هو مذهب السنة والجماعة أيضاً ، ولكن تحول الامر بعد ان صار ملكاً عضوضاً الى مبايعة الوارث الذي يكون عينه المورث من قبل . وقد تحول ذلك في عمان أيضاً ، فبعد احمد بن سعيد تولى ابنه سعيد . وكان بعض الاهالي فضلوا ابنه هلالاً لفضل ذكائه وحذقه ، الا انه كان كفيفاً ، فاقرت اكثر البلاد بامامة سعيد ، ثم غاظ الاهالي من سعيد كثرة ما قارف من الاحتكارات ، واحدث من البدع ، فارادوا خلعه ونصب اخيه قيس الذي كان في صحار ، فلم يتسق لهم ذلك . الا ان حامداً بن سعيد استولى على مسقط وعجز أبوه عنه ، وبقي اماماً بالاسم فقط فجعل حامد مسقط هي العاصمة بدلاً عن رستاق ، وعظمت مسقط في ايامه ، وتولى الامر عشر سنوات ومات في ١٨ رجب سنة ١٢٠٦ وكان وقع خلاف بينه وبين عمه سيف ، وفصل سيف هذا الى مستعمرات عمان في شرقي افريقية ، فتتبعه حامد الى هناك ثم مات سيف وعقب ذلك موت حامد وكان سعيد الامام الاصلي لا يزال حياً ، فاسترجع الامر الى يده بوفاة ابنه المتغلب عليه . ولكن لم يطل الزمن حتى وقعت الفتنة بين اخوته واولاده ، وصار بعضهم يقاتل بعضاً . وانتزع سلطان اخوه مدينة برقة من يد علي بن هلال ، ثم أخذ مسقط واستبد بالامور . وسنة ١٧٩٨ في ١٢ اغسطس انعقدت معاهدة بين شركة الهند الانكليزية وبين سلطان على بعض مسائل تجارية ، وتبعها معاهدة أخرى بينه وبين الانكليز امضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ بموجبها يحق لانكلترة اقامة معتمد بمسقط .

واخذ سلطان يمدّ سلطته في البلاد ، فانتزع من يد أخيه سعيد ثغري السويق والمصنع ، وافتتح جزائر قشم ، وهورمز ، والبحرين في الخليج الفارسي ، وجعل ابنه سالماً أميراً عليها . الا ان قبيلة العتوب التي كانت تلي امور تلك الجزر عادت فاسترجعتها وطردت ابنه منها ، وفي هاتيك الايام غزا الوهابيون عمان ، واجتبوا الزكاة من الزاهرة ومن الجهات الشمالية ، ووقع الخوف من تقدمهم الى الجنوب ، وكان سلطان قد حج تلك السنة فلما عاد من الحج وجد البلاد في المقيم المقعد ، فعقد مجمعاً قرر فيه النفير العام لصد الوهابيين ، فلما بلغ ذلك قائد الحملة الوهابية عجل بالانصراف ، وظهر ان الامر استوسق لسلطان . الا انه بقضاء الله وقدره هلك بعد ذلك بقليل في قصة عجيبة ، وهي انه زار البصرة وبينما هو قافل منها ، نزل من سفينته في

مرسى لنجة وركب قارباً قاصداً بندر عباس ، وكان الوقت ليلا ، فالتقاه ثلاثة قوارب عليها رجال من بني الشويحي سكان رأس موسا نديم ، فارادوا ان يقبضوا عليه ، فتقاتلوا ثم ارجأوا البراز الى الصباح ، فبينما كان سلطان بشدة بأسه وابسال نفسه علي وشك الظفر بهم ، اذ فالته احدهم بضربة كانت القاضية ، وذلك في ١٣ شعبان سنة ١٢١٩ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ .

وكان سعيد لا يزال في رستاق على امامته الاسمية ، وكانت البلاد اشبه بالفوضى ، والامراء كانوا متعددين ، عدا كون الوهابيين لهم جند في « البريمي » . وكان سالم وسعيد ولدا سلطان يجتهدان في لم الشمث ، وجمع الكلمة ؛ فالجأ أخيراً على استصراخ فتح علي شاه صاحب فارس ، وتعهدا له بتقديم المؤونة اللازمة للتجريدة التي يريدانها ، فامدهما بثلاثة آلاف فارس ، ركبت البحر من بندر عباس الى برقة ، وهناك وقع القتال بينها وبين الوهابيين فلم يفز أحد بالآخر.

وكان قرصان رأس الخيمة الذين يقال لهم القواسم ، قد تمادوا في العيث ، وطالما اكتسحوا سواحل الهند ، فارسلت شركة الهند الانجليزية اسطولاً دمر وكرهم في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٠٩ وساقت رئيسهم حسناً بن رحمة أسيراً . وبعد ذلك استعان السيد سعيد بالانكليز على أخذ قلعة شيناس التي كانت تصدر منها الغارات على بلاد صحار ، فتمكن سعيد من القلعة في ١ يناير ١٨١١ وقفل الانكليز الى الهند بعد ان نصحوا سعيداً بالقفول الى بلاده ، فلم يتقبل النصيحة فوافاه مطلق المطيري قائد الوهابيين ، فهزمه والزمه دفع الزكاة السنوية لابن سعود.

ولما خضد ابراهيم باشا ابن محمد علي صاحب مصر شوكة الوهابية ، واخذ الدرعية سنة ١٨١٨ تخلص سيد عمان من حكم هؤلاء ، وغزا جزيرة البحرين فصده العتوب اصحابها عنها وقتلوا أخاه وجمعاً من اصحابه . وكان قرصان رأس الخيمة عادوا الى عيثهم ، فغزاهم الجنرال كير *Keir* الانكليزي من بمباي بقوة ، وظاهره عليهم السيد سعيد ، فانتهى الامر بعقد معاهدة بين الانكليز وحليفهم سيد عمان من جهة ، وبين زعماء رأس الخيمة وجوارها من جهة أخرى . وسار السيد وحلفاؤه الانكليز لقتال عرب جعلان الذين كانوا نبذوا مذهب الاباضية وتوهبوا ، وكان مع السيد ثمانية مدافع والفا بدوي ، فكسرهم الجعلانيون وجرح السيد سعيد في يده (٩ نوفمبر ١٨٢٠) .

وفي ذلك الوقت توفي الامام سعيد بن احمد بن سعيد الذي هو آخر من لقب من رؤساء عمان بالامام ، وهو عم سعيد الذي اصطلحوا على تلقيبه بالسيد وأخيه السيد سلطان الذي كان عضداً لاخيه السيد سعيد . ولم يحدث موت الامام سعيد فراغاً كبيراً لأن أمر عمان كان بيد سعيد منذ مدة طويلة . وتوفرت همته على توسيع مستعمرات عمان في سواحل افريقية الشرقية فذهب الى جزيرة زنزيبار ، وغزا جزيرة مومباسه بقوة عظيمة ، وما زال يشدد عليها القتال حتى افتتحها ، وطالع فتوح بلاد أخرى فاغتنم فرصة غيابه الطويل بعض اعدائه مثل القواسم ، فرفعوا رؤوسهم واستولوا على بعض المراسي ، وأخذ حمود بن عزان صحار وهلال بن محمد بلدة السويق . واضطر السيد سعيد الى استمداد حلفائه الانكليز فارسلوا أسطولاً الى سواحل عمان لتمكين نفوذ حليفهم ؛ ووقع القتال بين السيد سعيد وابن عزان على صحار ، واستعان سعيد على هذا بالوهابيين ، وبعد وقائع يطول شرحها دخل الانكليز بينهما ، وأخذوا من ابن عزان عهداً بأنه لا يأتي بحركة . ولكن لم تمض مدة حتى أراد هذا ان يوسع اطماعه فنصحه

الانكليز بالسكون . وكان ابن عزان قد اعتزل الامر وترك صحار في يد ابنه سيف ، فامتنع هـذا من ايتائه جانباً من الخراج لمعيشته واشتد الجفاء بينهما الى ان ائتمر ابن عزان وبعض خواصه بابنه سيف وقتلوه ، فارسل السيد سعيد الى ابنه تويني بان يقبض على حمود بن عزان ويطلس به في السجن ، فقبض عليه واعتقله في قلعة حيث مات . وخلف حمود على صحار أخوه قيس ، وأراد ان يرفع رأسه فزحفت اليه جموع سعيد ، واضطرته الى الطاعة ، وانما عوضه السيد سعيد من صحار بولاية رستاق على ان ينصح في الخدمة ويقلع عن الجبر والخنزوانة وكان ذلك سنة ١٨٥٢ .

وعام ١٨٥٤ احتل العجم بندر عباس ومواقع أخر من ساحل كرمان ، واجلوا العمانيين عنها بعد ان شغلها هؤلاء نحو مائة سنة بحجة انهم مستأجرون أرضها ، واحيانا بقولهم انهم ينوبون فيها من شاه العجم . فشق ذلك على السيد سعيد وأرسل قوة تحت قيادة ابنه تويني استردت بندر عباس وغيرها ، فارسل ناصر الدين شاه قوة كثيفة من الداخل ومنع الانكليز السيد سعيداً من امرار جنود في البحر من ساحل العرب الى ساحل العجم بحجة انهم لا يسمحون بحركات حربية في ذلك البحر . فسقط في يد السيد سعيد واضطر الى مصالحة العجم في شعبان سنة ١٢٧٢ أوابريل سنة ١٨٥٦ وترك لهم جزيرتي هورمز وقشم وغيرهما . ومات سعيد بعد ذلك على ظهر بارجة كانت ذاهبة به الى زنزيبار (١٩ اكطوبر ١٨٥٦) وقد خلف ١٥ ولداً ، فدعا ماجد الرابع من أولاده لنفسه ، وكان تويني بكر أولاده والي عمان في حياة أبيه ، فوقع الخلاف بينهما وانتهى أول مرة بان يبقى ماجد سلطاناً على زنجبار ويؤدي اتاوة سنوية الى أخيه تويني في مسقط . ثم قطع ماجد دفع الاتاوة فجهز تويني اسطولاً عظيماً لغزو زنجبار ، وبلغ الخبر الحكومة الانجليزية فتوسطت في الامر وحكمت اللورد كانينغ Canning والي الهند الاعظم فيما شجر بين الاخوين ، فتقرر انه لما كان الانتخاب هو أساس السلطة عند الاباضية فان أهالي زنجبار قد اختاروا ماجداً اماماً لهم ، كما ان اهالي عمان قد اختاروا تويني ، فيكون كل منهما سلطاناً في محله . ويؤدي ماجد اتاوة سنوية الى أخيه بدلاً من حقوق عمان على زنجبار وافريقية الشرقية (سنة ١٨٦٢) وهكذا انحسمت هذه الفتنة . ولكن جدّت فتنة ثانية ، وثالثة ، وصار تويني على حد قول القائل : كلما داويت جرحاً سال جرح . فان تركي ولد سعيد الثالث كان والياً في صحار ، فثار باخيه تويني وألجىء هـذا الى استصراخ الوهابيين لقمع ثورته . وسنة ١٨٦٤ تزى عزان بن قيس على تويني واعلن الطاعة لابن سعود ، ولما كان الانكليز يعلمون ان الوهابية دعوة وان الدعوات الدينية لا سيما الى مبادىء السلف من الاسلام يخشى منها ، اهتموا بصدهم عن بلاد عمان ، وامدّوا تويني بالمدافع والاعتاد ، وأشاروا الى رؤساء البلاد بان ينضووا تحت لواء السيد تويني ، على شريطة ان لا يسيروا برجالهم بحراً – قد سبق لانكلترة هذا المنع في النزاع الذى وقع بين ناصر الدين شاه والسيد سعيد ، فكأن انكلترة لا تطيق ان ترى على ثبج ذلك البحر مقاتلاً واحداً ان لم يكن تحت رايتها –

ثم ان تويني بن سعيد وجد مقتولاً ، قيل اغتاله بعضهم وهو نائم بمؤامرة ابنه سالم ، وجلس سالم مكان أبيه وتودد الى الانكليز ، واعترف هؤلاء به أميراً بحجة انه لم تثبت عليه

تهمة قتل أبيه ، وبأن أهالي البلاد قد بايعوه ، فليس للغريب ان يدخل فيما لا يعنيه . اما تركي أخو تويني فانه أخذ بمناوأة ابن أخيه ، واستولى على صحار والمطرح ، وكاد يدخل مسقط لولا كون الانكليز أرسلوا بارجة حربية وقفته عنـد حده ، ثم أخذوه الى الهند حيث أجرى عليه ابن أخيه رزقاً يقوم بأوده . ثم ثار السيد حامد بن سالم من ابناء عمومتهم ، وبعد وقائع بينه وبين سالم جرى الصلح بينهما . ثم انتقض عزان بن قيس ودخل مسقط ، ففر سالم منها والتمس من المعتمد البريطاني في خليج العجم امداده ليعود الى كرسي حكمه ، فأبى المعتمد المشار اليه اجابة طلبه ، فحاول استرداد مركزه بقوته الخاصة ، فلم يفلح وظهر ان الانكليز قد خذلوه ورجحوا عليـه تركي أخا تويني ، الذي كان مقيماً بالهند كما سبق ، فجاء من بمباي الى مسقط وتسـلم زمام الامارة ، وطرد عزان بن قيس ، وكان الوهابيون ردءاً له في حركته هـذه واستوسقت له الامور منذ سـنة ١٨٧٤ وحصلت وقائع بينه وبين أهالي بلاده فتغلب على الثائرين بعضد انكلترة التي صارت هي ذات الحول والطول في القطر العماني . وسنة ١٨٨٨ خلفه ولده السيد فيصل بن تركي ، وذلك بموافقة انكلترة التي أصبح أمير مسقط لا يصدر الا عن رأيها ، وهي منذ سنة ١٨٧٣ أخذت على نفسها دفع الاتاوة السنوية المفروضة على زنجبار لمسقط ، وصارت بمثابة الولي على هذه البلاد .

ولما كانت انكلترة منذ وضعت يدها على مصر طمعت في الاستيلاء على جزيرة العرب باسرها، وعملت لذلك برنامجاً خفياً منذ مـدة مديدة ، تحقق منه قسم والقسم الثاني هي شارعة في تمهيد عقباته ، وكانت ترى ان اعظم عامل في استيلائها على مصر وعجز اهالي هذا القطر عن دفعها عنه بوجه من الوجوه ، هو فقدهم للسـلاح المادي الذي هو واسطة الدفاع الوحيدة ، فقد باشرت مشروع تقليم اظفار العرب ، وحظرت على تجارها بيع الاسلحة من اهالي اليمن ، مع كونهم يومئذ تابعين للدولة العثمانية ، وبديهي ان ذلك ليس لاجـل تسهيل ادارة اليمن على الدولة العثمانية ؛ بل لاجل تسهيل استيلاء انكلترة على اليمن في أول فرصة تقع ، وحرمان قبائل اليمن من اسباب الدفاع عن حوضهم ، عندما تريد العساكر الانكليزية ان توغل من عدن ولحج الى داخل اليمن . وقد ارادت ان تجرد من السلاح ايضاً قبائل العراق التي كانت اطماعها تحوم حوله من قبل الحرب العامة بزمن طويل ، فكانت ترسل من قبلها من يبتاع البنادق من عرب العراق ، ويؤدي الى البدوي عن البندقية الواحـدة ضعف ثمنها ، والبدو لايعلمون ماوراء الاكمة ، ولا يشعرون بمـا هو مخبأ لهم وراء هذه المكايد الخفية من الائتمار بكيانهم ، والعمل لنزع كل وسيلة لحفظ استقلالهم . وقد نبهنا الامة العربية مراراً في مقالاتنا العديـدة منذ بضع عشرة سنة الى السر الحقيقي في منع بيع السلاح من اهـل اليمن ، وفي انتزاع البنادق الحديثة الطرز من أيدي عرب العراق بصورة الشراء . وكان يحول دون سماع النصيحة الجهل الفاشي ، والغفلة المطبقة من جهة ، وسعي اجراء الاجانب في البلاد العربية ، والضاربين على اوتار الانكليز ممن يدعون انهم من مفكري العرب في ترويج السياسة الاجنبية الاستعمارية من جهة اخرى . ولقد كشفت نتيجة الحرب العامة حقائق تلك الدعاوي والحمدلله ، وفضحت اسرار تلك السياسة الخفية ، وعرف كل من عنـده حصاة من عقل مرمى الدول المستعمرة من تجريد العرب من السلاح ، وكونها انما تريد منذ زمن طويل ان تطبق في جزيرة العرب سياستها في مصر ، وان

لم يتسق لها ان تؤسس لخفر السواحل العربية ادارة كادارة خفر السواحل المصرية ، وتفحش في مجازاة من توجد عنده بندقية ممنوعة ، وتجزل مكافأة كل من يخبر بوجود بندقية ممنوعة عند جاره ، فانها كانت ولا تزال تنوي الوصول الى هذه الغاية من سبيل اخرى ، الى أن يتيسر لها فيما بعد تطويق جزيرة العرب كلها بادارة خفر فعلية ، تمنع وصول أي سلاح الى العرب ولو من طريق الجو . ولقد كان من جملة مواد معاهدات الحلفاء فيما بينهم بعد الحرب العامة ، منع تسريب السلاح ، وحظر بيع السلاح الى كل مملكة من ممالك الاعداء بتاتاً ، ولما رأوا انه قد يعترض عليهم بأن مملكة الحجاز مثلا هي من جملة ممالك الحلفاء ، وان مملكة العجم ، ومملكة عمان ، ومملكة افغانستان مثلاً ، وان لم تكن من ممالك الحلفاء فليست من ممالك الاعداء ، والحال أن الدول الاستعمارية تعد جميع البلاد الاسلامية بدون استثناء ممالك اعداء ثم انه يجوز ان هذه الممالك تسعى في شراء اسلحة من اوربا فيصعب فيما بعد ابتلاعها أو كسرها ، فقد احتاط الحلفاء لذلك بوضع مادة في تلك المعاهدة قيل فيها « ويمنع بيع الاسلحة ايضاً من الممالك التي مدنيتها من الدرجة الثانية » فدخلت في حكم هذا المنع جميع الممالك الاسلامية الباقية على الاستقلال تماماً أو نوعا . والمقصود من ذلك غير خاف ولا على الطفل الصغير وهو ان البلاد الاسلامية صديقة للحلفاء أو عدوة لهم محكوم عليها عندهم بالسقوط تحت نير الاستعمار فلا يجوز لها ان تسلح . واما مملكة عمان فقبل الحرب العامة بسنتين حاولت انكلترة تجريد اهلها من سلاحهم حتى تريح بالها من جهتهم ، وتأمن كل انتقاض فيها لو زادت بسط سلطتها عليهم ، فاوعزت الى تيمور امير مسقط بجمع الاسلحة من ايدي الاهالي ، واصرت عليه بذلك . فلما حاول هذا الامر انتقض عليه الاهلون ، وبايعوا غيره وامتدت الثورة وعظم الخطب ، وزحف الثوار الى مسقط وحصروا الامير ، وكادوا يوقعون به لولا أن وردته نجدة انكليزية حفظت له حياته ، وصدت الاهالي عن مسقط ، ولم تنته هذه الفتنة التي استمرت نحو سنتين الا باقلاع الامير عن فكرة جمع السلاح ، واقتناع انكلترة بأن سهمها في هذه القضية طائش عن المرمى ، وانها لا تقدر الا على منع دخول السلاح من طريق البحر ، فأما اخذ الاسلحة من ايدي العرب في ارضهم فليس من الاماني الانكليزية التي يمكن تحقيقها .

هذه مملكة عمان التي كانت اقوى دولة بحرية في آسية ، لا في بلاد العرب وحدها والتي قرأت في بعض المؤلفات الاوربية انها منذ نحو مائة سنة كانت تملك ١٠٠ بارجة حربية ، قد آل امرها بتلاعب انكلترة بامورها الى ان سقطت عن عزها وعاد بدرها عرجوناً وصارت امارة صغيرة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرا ، ولا يقدر اميرها ان يأتي بامر مهما كان تافهاً الا اذا اشار به المعتمد البريطاني . فنزف هذه الحقيقة الى اولئك البله الذين من ابناء جلدتنا لا يزالون يحلمون بأن انكلترة لابد أن تؤسس لهم دولة عربية ......

واما زنجبار والمستعمرات التي كانت لعمان في شرقي افريقية ، فقد تقاسمتها انكلترة مع المانية وايطالية ، ولم تبق لسلطان زنجبار على جزيرة زنزيبار سوى اسم السلطنة فقط . وهذه الجزيرة مساحتها ١٦٢٠ كيلو متراً مربعاً معدودة من اخصب البقاع ، وأكثرها حاصلات ، وفيها معامل السكر ، ومعاصر الزيت ، واهلها ٢٠٠ الف نسمة منهم عرب ومنهم من القوم الذين يقال لهم سواحلية ، ومن الواحاديمو أى اهل الجزيرة الاصليين ، ومن البانيان أى الهنود الشماليين . وكانت زنزيبار مع جزائر بمبا Pemba ومافيه Mafia ولامو Lamou والسواحل

الافريقية المقابلة لها مملكة عربية ، اسسها ملوك عمان سنة ١٨٥٦ منفصلة عن مسقط ، بعد ان كانت مستعمرات لعمان منذ قرون ، فوضعت ايديها الدول المستعمرة على هذه الجزر والسواحل ، ومن سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩٣ تم التقسيم على ان يكون لانكلترة سلطنة زنزيبار التي هي عبارة عن جزيرتي زنزيبار وپمبا ومايقابلهما من الساحل من « اوانغا » Auanga الى كيسمايو Kismayou .

وان يكون لالمانية جزيرة « مافيه » والساحل الذي بين اومبه Oumba ورافومه Ravouma وان يكون لايطالية بعض ثغور في الساحل .

واهم هذه النقاط هي زنزيبار ، وفي الجزيرة مدينة باسم زنزيبار ايضاً اهلها ١٠٠ الف نسمة وهي مدينة تجارية مهمة تقدر حركة صادرها ووارددها بنحو ٦٠ مليون فرنك ، وقد كان سلاطين عمان أسسوا فيها عمراناً واثلوا مدنية وشادوا مدارس . وقرأت بعض اسفار عربية مطبوعة بالمطبعة السلطانية في زنزيبار .

وخاتمة سلاطين زنجبار اسماً وفعلاً ، كان السيد برغش بن سعيد بن سلطان ، تولى الامر في ٧ اكطوبر سنة ١٨٧٠ بعد وفاة اخيه ماجد ، وبقي في الملك الى ان توفي في ٧ مارس سنة ١٨٨٨ ، وكان برغش قد نازع اخاه ماجداً الملك واخذه الانكليز الى بمباي حيث اقام سنتين ثم تصالح مع اخيه وعاد الى زنزيبار . ولما مات ماجد خلفه على كرسي الامارة على شرط الاعتراف بحقوق بريطانية العظمى أي ما ربها الاستعمارية . وفي ٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٥ أجبرته انكلترة على امضاء معاهدة الغاء الرقيق في بلاده ، فامضاها ثم دعاه الانكليز الى زيارة انكلترة فزارها ، وزار فرنسا والبرتغال . وفي سنة ١٨٨٥ القت المانية دلوها في الدلاء وارادت تأسيس مستعمرات لها ، فوجهت نظرها على تلك السواحل التي كانت تخص السلطان برغش بن سعيد ، ووضعت يدها على جانب عظيم منها ، واستبقى برغش لنفسه السلطنة الاسمية . وقبل وفاته بقليل اختلف مع البرتغال على الحدود بين اراضيه ومستعمرتهم الموزامبيق ، واستمر الخلاف الى ما بعد وفاته حتى جرى التحديد بين الالمان من جهة والبرتغال من جهة أخرى . وفي آخر حياته ذهب الى وطنه الاصلي عمان لتبديل الهواء ثم عاد الى زنزيبار ومات وخلفه أخوه خليفة .

وكان برغش متوقد الذهن ، عالي الهمة ، صعب المقادة ، ابيّ النفس ، وكان من أشد الناس عداوة للأوروبيين الذين كانت لا تخفى عليه مقاصدهم ، وكان واسع العلم بأطوارهم واحوالهم . ومن بعده لم يبق للعرب من سلطنة في تلك الجزائر الخصيبة ، والسواحل الطويلة العريضة الا بالاسم ، لأن الاوروبيين لا سيما الانكليز التزموا هدم اركان القوة العربية في تلك الديار ، حتى لا يبقى لهم معارض ولا منازع في استعمارها ، وكما انهم أوهنوا الاصل الذي هو عمان ، فقد اسقطوا الفرع الذي هو زنجبار ، لأن كل دولة عربية عزيزة على جوانب الاوقيانوس الهندي هي قذىً في أعينهم ، وخطر على الهند في نظرهم ، ويجدون انهم لا يقدرون أن يعلوا في تلك الديار الا بسقوط العرب على حد قول القائل : —

وكم قائل مالي رأيتك راجلاً فقلت له من أجل أنك فارس

وسيأتي ذكر سواحل زنجبار ومستعمرة الشرق الافريقية التي كانت لالمانية ثم انتقلت الى يد انكلترة وجزائر القومور مما كان الحكم فيه كله للعرب فابتزته منهم الدول المستعمرة الاوروبية (ش)

التعليق على البكطاشية

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صحيفة ٢٨٩ (رقم ٢)

البكداشية أو البكطاشية ، طريقة من الطرق الاسلامية ، تنسب الى احد الاولياء المسمى « الحاج بكطاش ولي » ، الذي يقولون انه ولد « بنيسابور » وجاء الى الاناضول ، وهدى الانكشارية الى الاسلام ، في زمان السلطان « أرخان » ، وكانت له كرامات وخوارق عظيمة ، وهو الذي اسس الطريقة المعروفة به . ولكن كثيراً من المحققين يرتابون بوجود الحاج بكطاش هذا ، ويقولون ان المؤسس الحقيقي لهذه الطريقة ، هو « باليم بابا » المتوفى سنة ٩٢٢ هجرية ، والذي يلقبه الدراويش البكطاشية بالقطب الثاني . ولقد ثبت وجود هذه الطريقة منذ اوائل القرن السادس عشر للمسيح في الاناضول ، ثم انتشرت في الروملي ، واكثر من مال اليها امة الارناؤوط ، حتى يقال ان اكثر هذه الامة بكطاشيون . وان الفرقة المعروفة بالاناضول ، وببلاد الاكراد بقزل باش أو علي الهي ، هي على عقائد تشابه مذهب البكطاشية وان كان هؤلاء جميعاً يدعون كونهم من اهل السنة والجماعة ، فالحقيقة ليست كذلك ، وهي انهم من غلاة الشيعة ، يعتقدون بامامة الاثنى عشر من آل البيت ، ويعظمون كثيراً جعفر الصادق ، ويقولون بالاربعة عشر ولداً معصوماً ، الذين اكثرهم ماتوا شهداء من اولاد علي . ويزورون قبور الاولياء ، ويصلون ويدعون عندها . ويزعم مؤرخو الافرنج انه لابد ان يكون البكطاشيون في الاصل نصارى ، بحجة ان عندهم التثليث ؛ وذلك بقولهم : « الله . محمد . علي . » وان عندهم نوعاً من الاعتراف بالذنوب ، يذهبون الى مشايخهم ويسردون لديهم ذنوبهم ؛ والشيخ يحل من الذنب نظير القسيس عند النصارى . وهم يبيحون الخمر ، والنساء لايسدلن النقاب ؛ وكثير من البكطاشية يتبتلون ويعيشون مجردين من الازواج ، مما جميعه يدل على كون اصل هذه الطريقة غير اسلامي . واكثر المتبتلين منهم كانوا ينقطعون في تكية « قيزل دلي سلطان » بقرب « ديموطوقة » من ولاية ادرنه . ويعتقد البكطاشية بالعدد لاسيما عدد اربعة ، ويقرأون كتاب فضل الحروفي المسمى « بالجاويدان » ويقولون بالتناسخ ، والشائع عنهم انهم لايقومون بفرائض الدين الاسلامي ، فلا صلاة ، ولا زكاة ، ولا صوم ؛ ولا حج ؛ وانهم قد رفعوا هذه التكاليف ، بحجة انها تجب على المبتدىء لا المنتهي ؛ وانه بعد الوصول يصبح الانسان في حل منها .

والشيخ الاكبر للطريقة يقيم بتكية « بير أوي » أي بيت القطب » ؛ في المحل الذي يقال له « حاجي بكطاش » بين « قير شهر » و « قيصريه » . وليست هذه الرئاسة ارثية في الاصل ، وانما هي منذ ١٥٠ سنة في بيت واحد ، تنتقل من الاب الى الابن ؛ وللبكطاشية المتبتلين شيخ كبير ايضاً ، مركزه التكية المسماة « مجرد بابا سي » أي « أبو المتبتلين » . ويسمى شيخ كل تكية « بابا » ، والدرويش المقيم بالتكية « مريداً » والعامي الذي له تعلق بالطريقة « منتسبا » .

وكان للبكطاشية شأن كبير ، وكانوا على رَباعهم في ايام « وجاق الانكشارية » الذين كان البكطاشية لهم شيوخاً ومرشدين ، حتى اصبح اسم « بكطاشية » يطلق على الانكشارية كلهم . وكان في ثكنة الاورطة الرابعة والتسعين ، وكيل مقيم للطريقة معروف رسمياً ، لذلك كان كلما ثار الانكشارية يشترك مريدو الطريقة البكطاشية معهم في الثورة الى سنة ١٨٢٦ ، اذا استأصل السلطان ، محمود شأفة الانكشارية ، فانقضت صواعق نقمته على جماعة الحاج بكطاش ، فتهدم قسم كبير من تكاياهم ، لاسيما ماجاور منها الاستانة وقتل بعض روسائهم ومريديهم ، ومنهم شيخ تكية « مردفان كوى » .

ثم استأنفت الطريقه البكطاشية بعض ما كان لها من الشأن والحول ، ولها من التكايا في الاناضول غير مركز القطب الاكبر ، وغير تكية المتبتلين تكية « عثمانجق » في الشمال . وتكية قرب ضريح الشيخ بطال ، من جوار اسكيشهر ، ويقال ان لها تكية بجبل المقطم بمصر .

(ش)



التعليق على البابية

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صفحة ٢٨٩ (رقم ٣)

البابية ، نسبة الى « الباب » ، طريقة شهيرة ، ظهرت في بلاد العجم ، بل هي من اشهر الفرق الاسلامية التي ظهرت في العصر الاخير ، وتميزت بكون اتباعها لم ينحصروا في الشرق والعالم الاسلامي ، بل وجد منهم في اوربا واميركا ايضاً . ولفظة الباب متداولة كثيراً عند الصوفية ، وعند بعض الفرق الباطنية ، يطلقونها على بعض اركان دعوتهم ، بمعنى انهم هم واسطة الدخول ، وسبب الوصول ، من قبيل قوله (ص) : « انا مدينة العلم وعلي بابها . » والباب هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة مايوجد في داخل البناء من البدائع والنفائس وحزرات الانفس ، مما كان يبقى مجهولاً عند الناظر الى خارج البيت لولا الباب . فالباب عند المتصوفة وعند هذه النحل ، هو رمز الدخول ، والابتداء ، والواسطة ، والمح ، والمعرفة ، وجميع انواع المقاصد العالية ، وقد شاع استعمال لفظة الباب في هذه المقامات كلها عند جميع الاقوام الذين يعتمدون على اللغة العربية ، وامتد الى غيرهم . « فالباب العالي » هو مكان الوزارة ، لأنها هي الواسطة بين الراعي والرعية . والكتاب المؤلف يقسمونه الى ابواب ، فيقولون الباب الاول ، والباب الثاني ، والباب العاشر ، والباب العشرون ، اذ بهذه الابواب يطلع القارىء على مايتضمنه الكتاب. ويقولون ابواب الرزق ، بمعنى وسائله ، وابواب الخير بمعنى الطرق المؤدية اليه ، وقولهم : « يامفتح الابواب » يعنون به ياميسر الاسباب . والفقراء يقفون عند ابواب الكبار وابواب الملوك ، والسائل الذي يستجدي ويتكدى يقال انه « على باب الله » وقد اخذ الطليان هذه الجملة من العربية ففي لغتهم « Ala Baballa » بمعنى السائل . والحاصل ان الباب من اكثر الالفاظ العربية تداولاً ، وقد كنى بها الكثيرون عن الوسيلة والواسطة ، ولكن لم يشهرها احد بمثل ماشهرها به السيد علي محمد الشيرازي ، الذي سمى نفسه « الباب » ، بمعنى الوسيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية ، وتبعه اناس تلقبوا من اجله بالبابية .

ولد السيد المشار اليه في غرة محرم الحرام سنة ١٢٣٦ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١ وتوفي والده وهو صغير ، فكفله خاله ورباه الى ان بلغ الرشد ، فشرع يشتغل بتجارة والده ، ولكنه منذ نعومة اظفاره كان مغرماً بالبحث في الامور الاعتقادية ، نازعا الى النسك ، حتى قيل انه حمل نفسه على التقشف والتعبد الشاق ، بحيث كان يقعد الساعات الطوال في عين الشمس حاسراً عن رأسه . ثم زار كربلاء ، ولقي هناك بعض رجال الطريقة الشيخية ، فتلقى عنهم ، وسمعت انه اخذ عن رجل يقال له الشيخ البحريني . ولما عاد الى شيراز شرع يقرأ في المساجد ، ويحمل في الجدال على رجال الدين ، فمال كثيرون الى مذهبه ، وحطبوا في حبله ، ثم ذهب الى الحج من طريق ابو شهر ، فسقط ، فالبحر الاحمر . واثناء رحلته الى الحج الف بعض رسائل ، يقال ان اتباعه يعتقدون مافيها وحياً أو الهاماً . ومن جملة مانسب اليه انه قال ان علياً هو قبل نبيل . ونبيل هو عندهم اسم محمد (ص) وقد اطلعني بعض ادباء العجم على مؤلف بالعربية لا اعلم درجة مطابقته لتعاليم البابية ، لأننا تعودنا من اهل الفرق الكبرى شرقاً أو غرباً

وفى الاسلام أو فى النصرانية ' انه كلما خرج عليهم خارج رموه بكل عضيهة . يقول في ذلك المؤلف ان الانبياء أولي العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ' وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم ' وبعد آدم نوح ' وبعد نوح ابراهيم ' وبعدابراهيم موسى ' وبعد موسى عيسى ' وبعد عيسى محمد (صلوات الله عليه وعليهم جميعاً) وبعد محمد الباب مؤسس هـذه النحلة المسماة بالبابية . فـا انتشرت تعاليم الباب حتى ثار الناس وكثرت القالة ، وكرث الامر الحكومة الفارسية ' فارسلت رجلا يقال له يحيى الدارابي للتحقيق عن هـذه العقيدة الجديدة ' فذكروا أنه هو نفسه اعتقد بها وتحوّل بابيا ' ثم ظهر وباء الريح الاصفر في شيراز فبرح أكثر الاهالي المـدينة ' وتحول الباب الى اصفهان ' وكان حاكمها رجـلا يقال له « معتمد الدولة » فالقى الله في قلبه الرحمة على الباب فدفع عنه الاذى بقدر استطاعته ' الا انه توفي بعد ذلك بقليل ' فصدر الامر لخلفه بالقبض على الباب واعتقاله ' فارسلوه الى قلعة « ما كو » باذربيجان .

وكان رجل يسمى حسين البشروي ' قد تبع مذهب الباب ' واخذ يبث له الدعوة ' فكان ممن قبلوا هذه الدعوة فى طهران الاخوان « ميرزا يحيي نوري » الملقب بعـد ذلك « بصبح أزل » و « ميرزا حسين علي نوري » الملقب فيما بعد ببهاء الله ' وهما فرعان من دوحة كريمة وكذلك خاتون اسمها « زرين تاج » ولقبها « قرة العين » كريمة الملا صالح البارا كاني من قزوين ' كانت بارعة في الجمال ' متناهية في الذكاء ' اتبعت المـذهب البابي على اثر مراسـلات سبقت لها مع الباب . واخذ يستفحل شأن الباب شيئا فشيئا حتى اجمع اتباعه على عقد اجتماع للتشاور في بدخت من خراسان ' وعقب هذا الاجتماع اجمعت الحكومة الفارسية على استئصال شأفتهم ' فاجتمعوا وقرروا المدافعة عن انفسهم بالسلاح ' واعتصم الملا حسين البشروي في مقام الشيخ الطبرزي ' لحاصره جند الحكومة ' وهلك في اثناء الحصار ' واشتد الضيق بالبابية المحصورين ' وعضهم الجوع بنابه ' فطلبوا الامان ' ولكن لم يكادوا ينتهون من الاتفاق على التسليم ' حتى غـدر بهم الجند فذبحوهم عن بكرة ابيهم (١٢٦٥ هجرية) . وثاروا في بلدة يقال لها زنجان ' واستولوا على قلعة علي مردن خان ' وجعلوا لانفسهم متاريس ' ولكنهم اخيراً استسلموا الى جند الدولة . وذهب يحيي الدارابي الى تاريز ' وكان اهلها ناقمين على الدولة أموراً فانضموا اليه واعتصموا بالقلعة . ووصل بعض البابيين الى شاه العجم قاصدا قتله ، وكأن الله اراد موته على يد واحد منهم لكن في اجل آخر اما في المرة الاولى فانه اصيب بجرح ، وحماه اجله من الموت ، وعند ذلك صحت عزيمته على النقمة ، واشتغر الامر ، وكان ذلك في ٢٨ شوال سنة ١٢٦٨ الموافق ١٦ اغسطس ١٨٥٢ ' فتعقبوا البابيين في كل سهل وجبل ، وجـدوا في أثرهم الى كل وبر ومدر ، واخرجوا صبح ازل واخاه بهاء الله الى بغداد ، ثم ارسلا الى ادرنه بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ' ثم وقع الخلف بين الاخوين ، فارسلت الدولة بهاء الله الى قلعة عـكا ، وصبح ازل الى جزيرة قبرص . وقيل بل قبض على بهاء الله ثم أطلق سبيله فاستأذن في الذهاب الى كربلاء واقام اولاً ببغداد . وقبضت الحكومة الفارسـية على الملا كاظم بتهمة انه من البابية وقتل في اصفهان ' وقتل ايضاً ميرزا اشرف الآبادي ، وذلك في عهد متأخر (سنة ١٨٨٨) وقتل عدد كبير سوى هؤلاء ، وانهزم كثيرون من البابيين

الى عشق آباد في الاراضي الروسية ، وبنوا هناك جامعاً خاصاً بهم . واما قرة العين فانهم اخرجوها لعهد الباب نفسه الى بغداد ، وانزلوها في بيت الآلوسي مفتي بغداد ، فاقامت مدة طويلة عنده ، وكان من يطعنون في البابية يشنعونها ، ويقولون فيها الاقاويل ، كما هي العادة في حق من فارق الجماعة ، الا ان الآلوسي قال فيما بلغني : « ماعهدت عليها من سوء » وكانت تناظره وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، حتى قال لي المرحوم عباس افندي الملقب بعبد البهاء ، ابن بهاء الله امام البابية ، وابن امامها ، ان قرة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتي الآلوسي على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله . وانشدني الامير فرمان فرما عبد الحسين ابن عم الشاه مظفر الدين وصهره ، والذي تولى الصدارة في فارس ، ابياتاً بديعة من نظم قرة العين على اسلوب غريب ، ومأخذ طريف ، البيت منها ماسداه فارسي ولحمته عربية ، وهي ابيات في مناجاة الحضرة الالهية ، مطلعها عربي كله ، ثم تشفعه بابيات محبوكة من اللغتين ، اما المطلع فهو : —

لمعات وجهك اشرقت وجمال طلعتك اعتلى

وكان الامير فرمان فرما يحفظ شعر قرة العين ولده الامير فيروز خان ، (الذي صار ناظراً للخارجية بعد الحرب العامة) ويستنشده اياه وهو بعد في عهد الطلب عند ماقدم فرمان فرما الى سورية واصطاف بجبل لبنان منذ نحو خمس وعشرين سنة ، واتيح لنا يومئذ حظ معرفته وصحبته.

اما الباب فانه لما تعاظمت فتنة البابية وسالت فيها الدماء جيء به من قلعة ماكو الى تبريز وقررت الحكومة قتله مع صاحبه محمد علي اليزدي ، فرفعوه واوثقوه بحبل ثم رموه بالرصاص ، فاصابت الرصاصة نفس الحبل فانقطع ، وسقط الباب حياً ، فعد ذلك اتباعه من كراماته ، ثم علق ثانية ونفذ فيه امر الله ، وطرحت تجاليده في حفرة ، فجاء اتباعه واخذوا جسده الى طهران ، حيث أبقي مخبأ على مايقال تسعاً وعشرين سنة ، وبعد ذلك دفن بفارس ، وقيل ان بهاء الله بعث فأتوه بالجثة الى عكا ، حيث دفنها هناك وكان قتل الباب في ٢٧ شعبان سنة ١٢٦٦ وفق ٨ تموز سنة ١٨٥٠ .

اما من جهة تعاليم البابية فقد اختلفت الاقوال كثيراً ، وطعن فيها اناس كثيرون ، من جملتهم السيد جمال الدين الافغاني . ولعل وجه الطعن فيها هو بروزها بشكل شريعة جديدة ، حال كون الشرائع كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية . فاما اذا تلقاها الانسان على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشان في الطرق الصوفية المتعددة ، فانه يجد فيها كثيراً من الآداب السامية والمبادىء المعقولة . وعلى كل حال فاننا لانتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديل ، اذ كان ماقرأناه في باب البابية نقلا عما حرره في هذا الباب بعض المؤرخين نأثره كما وجدناه ، تاركين عهدته على رواته . قال المسيو هوارت Huart المستشرق الفرنساوي المشهور ، في فصل له على البابية ، في الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسوية مايأتي : « ان الباب تحت اسم اصلاح في الاسلام وضع ديانة جديدة ذات عقائد ومبادىء ، ورشحها لهيئة اجتماعية جديدة . فالله واحد ، وعلي محمد الباب هو المرآة التي ينعكس بها النور الالهي ، ويمكن كلاً ان يشاهده بها . قال الباب : ينبغي ان تجعلوا من انفسكم ومن اعمالكم مرائي حتى لاتروا في هذه المرائي سوى الشمس التي تحبونها » هكذا ورد في كتابه « البيان العربي » . ثم ان الله خالق العالم

بسبع صفات تسمى « احرف الحق » وهي القدر ، والقضاء ، والارادة ، والمشيئة ، والاذن ، والاجل ، والكتاب . ولحساب الجمل دور عظيم ، وعدد ١٩ هو عدد مقدس ، اذ تجده حاصلاً من كلمة « واحد » وكلمة « وجود » . وبحسب ماورد في بيان الباب تنقسم السنة الى ١٩ شهراً كل شهر منها ١٩ يوماً . ويجب ان تكون ادارة امور الفرقة بيد جمعية مؤلفة من ١٩ شخصاً ، والى هذه الجمعية تدفع سنوياً ضريبة مقدارها خمس الاموال ، هذا اذا لم يطرأ على رأس المال نقص تلك السنة . وواجب على المؤمن ان يؤدي هذه الضريبة ، الا انه لاحق للسلطة الدينية ولا للسلطة الدنيوية ان تجبره على دفعها بالقوة . وجميع اصناف العقوبات ممنوعة الا الغرامة والحيلولة بين الرجل والمرأة فترةً من الزمن . والتجارة حرة ، والعقود في التجارة مرعية ، ودفع فائدة على البضائع التى تباع الى اجل معين مباح . ثم ان الزواج من بعد سن الحادية عشرة امر مفروض (كان يمكن الظن أن الناقل ذكر سن الحادية عشر سهواً لأنه باكر جداً ولكنه ذكر ذلك بالحروف لا بالارقام واشار الى وروده في الصحيفة ١٨٧ من بيان « الباب » والله اعلم) والطلاق مكروه (وهذا من السنة : مامن حلال اشد كرهاً عندالله من الطلاق) ويعطى للزوجين مهلة سنة حتى يتصالحا . والزوجان اللذان تفارقا يمكنهما ان يستأنفا زوجيتهما بعد شهر من الطلاق وذلك الى حد ١٩ مرة . والارامل من الرجال والنساء عليهم ان يتزوجوا بعد الترمل بمدة مضروبة للرجال ٩٠ يوماً وللنساء ٩٥ يوماً والا فالغرامة . ولا يجوز ضرب الصبي في الكتاب قبل سن الخامسة ، واما من بعد هذه السن فيجوز ضربه على شرط ان لايتجاوز ذلك خمس ضربات ، وان يوضع غطاء على محل الضرب . والادب من الوصايا الملتزمة عند البابية . ويسوغ لبس الحلي والجواهر ولو تجاوز ذلك ماحدده الشرع . ويجب كل سنة صيام شهر واحد ١٩ يوماً من مشرق الشمس الى مغربها . والتكليف يقع من سن ١١ الى سن ٤٢ سنة . والوضوء مستحب وليس بفرض . ولا بد من وجود حمام للاغتسال في كل حارة . ويجوز رؤية جميع النساء بدون نقاب ، والكلام معهن بدون حرج ، الا انه لابد من الحشمة والاقتصاد في الكلام معهن ، ويستحب ان لايزيد كلام الرجل مع المرأة الغريبة على ٢٨ كلمة . ويجب ان يزار البيت الذي ولد فيه الباب ويبنى هناك مسجد ، وكذلك البيت الذى اعتقل فيه وبيوت الكبار من اصحابه . ولا يستحب السفر الا في تجارة ، ولا ركوب البحر الا في حج أو اتجار ، ولا تلزم صلاة الجماعة الا على الجنائز ، ولكن الوعظ في الجوامع مندوب . ولا يوجد رجس بعد الايمان بل كل من اتبع هذا المذهب فقد تطهر بمجرد اتباعه اياه ، وكل ماتحوزه يده صار طاهراً واما الماء فهو طاهر ومطهر . ثم يجب على البابي ان يقرأ كل يوم ١٩ آية من بيان « الباب » ، ويذكر اسم الله ٣٦١ مرة . ويدفن الاموات في قبور من البلور أو من حجارة منحوتة ومصقولة . ويوضع في يد الميت اليمنى خاتم منقوش عليه « لكيلا يستوحش الموتى في قبورهم » ولا يجوز لاحد ان يعتدي على احد ولا ان يكسر خاطر احد . واذا خاطبك احد أو كاتبك فلا بد لك من ان تجاوبه . واذا استودعك احد كتاباً لترسله أو توصله فعليك بتأدية هذه الامانة . وان الاشربة المتخمرة والمسكرات غير جائزة . وكلما مضت ١٩ يوماً فلا بد للمؤمن من دعوة ١٩ رجلاً الى طعام أو شراب ، ولو لم يكن سوى الماء القراح . ولا يجوز الاستعطاء ولا اعطاء السائل ، بل التصدق على السائل اثم . اما

تقسيم تركة الميت فيؤخذ منها من رأس الترمة نفقات الجنازة ، ثم يأخذ الاولاد تسعة انصبة والمرأة ثمانية والاب ٧ والام ٦ والاخ ٥ والاخت ٤ والمعلم ٣ ولا يرث وارث غير هؤلاء.

ولعلي محمد الباب عدة كتب منها « البيان » هذا بالعربي والفارسي ، وكتاب « بين الحرمين » و « تفسير سورة يوسف » انتهى.

هذا تعريب كلام المسيو هوارت الذي يقول انه اخذه من بيان الباب مشيراً في كل وصية من هذه الوصايا الى الصحيفة التي قرأها فيها :

ثم ترجم المسيو هوارت نفسه بهاء الله ميرزا حسين علي نوري في حرف ب ه من دائرة المعارف المذكورة فقال : —

« انه ولد في نور من بلاد المازندران في ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان اخوه لأمه ميرزا يحيى الملقب بصبح ازل قد اخذ بهذه العقيدة من قبل . ولم يشاهد بهاء الله الباب بذاته لكنه احبه بالغيب وصار اعظم مريديه بل سبق الجميع في هذه العقيدة ، وشحط الاولين والآخرين في هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جمهور البابية هو خليفة الباب ، والمصلي بعد الامام في المحراب . وفي سنة ١٨٥٢ ابعدته الحكومة الفارسية الى بغداد على أثر محاولة احد البابيين قتل الشاه وتعاظم الفتنة ، فاقام بنواحي السليمانية معتزلاً معتكفاً مشيراً الى انه هو الرجل الذي بشر بمجيئه الباب في قوله « من يظهره الله » ووضع هناك قواعد الدعوة التي قصد جعلها ديانة عامة . ثم نقل الى ادرنه سنة ١٨٦٤ ، ثم الى قلعة عكا في شهر اغسطس سنة ١٨٦٨ حيث ادركته المنية في ٢٩ مايو (ايار) سنة ١٨٩٢ ، تاركا خلافته الروحية الى ولده الاكبر عباس افندي الملقب عبد البهاء .

« واما عقيدته فقائمة بان لا يؤذي الانسان احداً ، وان يحب الخلق بعضهم بعضاً ، ويتحملوا الظلم بدون مقابلته بالمثل ، ولا يشتغلوا الا بالخير ، وان يوطئوا اكنافهم ويعنوا بأمر المرضى . هذه هي مبادىء البهاء وهي كما ترى صدى النصرانية . والغاية من هذه الحياة هي السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهبانية والشعائر (التي يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم ان تؤسس لها معهداً للاجتماع بمجلس فيه لجنة مديرة مؤلفة من تسعة اعضاء يقال لها « بيت العدل » ويكون دخل هذا البيت من التركات التي لا يوجد لها وارث ، ومن متحصل الغرامات ، ورسم ١٩ في المائة على رأس المال ، يؤدى مرة واحدة لا غير . وممنوع في مذهبه التقشف والتبتل ، لأن الله خالق الانسان واحل له الطيبات من الرزق . وللبهاء تآليف اهمها « الكتاب الاقدس » (طبع في بمبي وبطرسبرغ) وكتاب « الايقان » (ترجمه دريفوس وحبيب الله الشيرازي في باريز سنة ١٩٠٤) ، وطرازات كلمات فردوسية واشراقات وتجليات (ترجمت في كتاب قواعد البهائية سنة ١٩٠٦) « وكلمات مكنون » (مطبوع بباريز سنة ١٩٠٥) و « دروس عكا » التي جمعتها مادام كليفورد بارناي Mm. Cliford Barney و « النور الابهى » (مطبوع بلندرة سنة ١٩٠٨) ترجمه عن الاصل الفارسي المسيو دريفوس

واما كلمات البهاء الاخيرة فقد نشرها تومانسكي في بطرسبرج سنة ١٨٩٢ . ولدريفوس المذكور كتاب على البهائية وتاريخها واثرها الاجتماعي . وقد ذكرها براون Eda. G.Brawne في كتابه : « سنة بين العجم » . انتهى .

هذا ما نقله المستشرق هوارت عن البابية والبهائية اثرناه كما هو وعربناه بدون زيادة ولا نقصان ، والعهدة في كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم .

ومما لا جدال فيه أن البهاء وأولاده بمقامهم هذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا بأشخاصهم معروفين لدى أهالي بلادنا المعرفة التامة. بحيث صفا جوهرهم عن أن تتوره الجهالة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصائد الالسنة . فاما البهاء فقد أجمع أهل عكا على أنه كان يقضي وقته معتزلا متنكفا ، وانه ما اطلع له أحد على سوء ، ولا مظنة نقد ، ولا مدعاة شبهة في أحواله الشخصية كلها . وقيل انه عرضت خصومة بين ولده عباس أفندي وبعض المتمولين على حدود أرض فوصلت الى المرافعة فكتب البهاء الى ولده : « يا عباس اتتنازعون وتترافعون على حفنة تراب ؟ » فترك عباس الدعوى من فوره.

وأما أولاده فكانوا أربعة السادة عباس ، ومحمد علي ، وضياء ، وبديع الله . وقد إعتبط منهم ضياء شابا وفي العام الماضي ١٩٢٢ انتقل الى الدار الآخرة عبد البهاء عباس ، وقد ذرّف على الثمانين . وكان آية من آيات الله بما جمع الله فيه من معاني النبالة ، ومنازع الاصالة والمناقب العديدة ، التي قل أن ينال منها أحد مناله ، أو يبلغ فيها كماله ، من كرم عريض وخلق سجيح ، وشغف بالخير ، وولوع باسداء المعروف ، واغاثة الملهوف ، وتعاهد المساكين بالرفد بدون ملل ، وقضاء حاجات القاصدين بدون برم ، هذا مع علو النفس ، وشفوف الطبع ، ومضاء الهمة ، ونفاذ العزيمة ، وسرعة الخاطر وسداد المنطق ، وسعة العلم ووفور الحكمة ، وبلاغة العبارة ، حتى كأن فصاحته صوب الصواب ، وأقواله فصل الخطاب ، وكتاباته الديباج المحبر ، وفصوله الوشي المنمنم ، يفيض بيانه جوامع كلم ، وتسيل عارضته سيل عارض منسجم ، ويود اللبيب لو اقام العمر بمجلسه يجني من زهر أدبه البارع ، ويرد من منهل حكمته الطيبة المشارع استولى من المعقول على الامد الاقصى ، وأصبح في الالهيات المثل الاعلى ، وبلغ من قوة الحجة ، واصالة الرأي ، وبعد النظر ، الغاية التي تفنى دونها المنى حتى لو قال الانسان انه كان اعجوبة عصره ، ونادرة دهره ، لما كان مبالغا ولو حكم بانه من الافذاذ الذين قلما يلدهم الدهر الا في الحقب الطوال ، لكان قوله سائغا ، ولقد كان يمكن أن يكون محيط فضله أوسع ، وافق عمله انأى ، لو عاش في احدى العواصم الكبرى التي يتسع فيها المجال لمثله ، ويكون فيها المحيط على نسبة نباهة قدره ، وسراوة نبله ، ولكن ضاق الميدان على الفارس ، وصغر الكرسي عن الجالس ، واعتاض من سعة المحيط وعظمة المقر ، بحسن اخلاق أهالي عكا وكرم طباعهم وكونهم قدروه وأهله قدرهم ، وعرفوا نبلهم واحلوهم المحل اللائق بهم ، فرفه بذلك عيشهم ، ووفرت حرمتهم وذهبت حرشة غربتهم ، ولانت خشونة نبوتهم ، ورافقهم الى منفاهم هذا نحو مائة وخمسين شخصا من اتباع طريقتهم من الايرانيين ، ليس فيهم الا صاحب صنعة أو عمل ، وهم جميعاً قائمون على خدمة هذا البيت الكريم ، قد هجروا أوطانهم حبا بجواره . وكان عباس افندي يكنفهم بظله ويتعاهد جميعهم بفضله ، وكان احسن الله منقلبه مستوفيا شروط الرئاسة ، ذا وقار في رسوخ الجبال ومهابة يقف عندها الرئبال ، وحشمة لاترى الا في الملوك أو في صناديد الرجال ، ومع هذا كله فكانت مجالس حكمته مطرزة باللطائف ، ومحاضر جده مهلهلة بالرقائق ، وكانت رسائله على كثرتها تتلى وتؤثر ، وتحفظ حفظ النفائس في الخزائن وتدخر ، وانني لاحفظ له

كلمات من كتاب مداعبة بعث به الى احـد اصحابه من شعراء بيروت وهي « من صيدك في صيدا ، وحينك في حيفا ، ونفخك في الصور ، ونقرك في الناقور » تعلم من هـذه الكلمات المعدودة ملكته الادبية ، وقدرته على التصرف بزمام العربية ، مع انها ليست لغته الاصلية . ولو وسع المكان لاوردنا له كثيراً من بدائع الترسل الدالة على تمام ملكته ، وسمو طبقته . وكانت له مع هذا العاجز مراسلات متصلة باتصال حبل المودة ، وعمران جانب الصداقة ، ومراراً قصدت عكا ولا غرض لي فيها سوى الاستمتاع بادبه الغض والاغتراف من علمه الجم ، وداورته مرة على الكلام في موضوع العقيدة البابية بدون ان اسأله عن ذلك رأساً ، بل كنت اجيء اليه من باب المعاريض استطراقاً ، واحاول ان احمله على هذا البيان استطراداً ، فسألته عماذا كان من الممكن تمثيل الصفات الالهية في احد البشر اشارة بدون تصريح ، الى ما يقال من كون الباب أو البهاء هو مجـلى الصفات الربانية على الارض ، فاجابني بأن الصفات معان ، والمعاني لاتتجسم ولا تتشخص ، وان المجردات لاتتجسد ، وافاض في هذا الموضوع بالنفي وتبيين وجوه الاستحالة . فاجبته : « فلماذا يقال اذاً ان بعض البشر يمثلون الصفات الالهية على الارض ، أو انهم مظهر الالوهية في الخلق ؟ » فقال لي : « ليس الامر كذلك ولكن الحديث يستفيض من القديم بقدر استعداده . » وكررها : « بقدر استعداده ، بقدر استعداده » . ففهمت من هـذا ان مقصودهم هو كون بعض النفوس هي مستعدة للكمال اكثر من سواها ، فهي تقتبس من النور القدسي بقدر صفائها . وان هذا مبلغ عقيدتهم في الباب أو البهاء ، أو مبلغ عقيدة عباس افندي نفسه ، الذي كان فيلسوفاً متكلماً فلا يمكن أن تكون عقيدته عقيدة العوام من البابيين . وانني اتذكر انه كان يشرح مرة عقيدة القضاء والقدر فقلت له : « الا ان هناك من يقول في التعريف ماهو كذا وكذا » . فقال « هؤلاء هم العوام » . قلت له : « كلا بل من العلماء من يقول هذا » . فقال : و « العلماء فيهم عوام ايضاً ».

ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البابية ، فمنهم من يقول انهم زهاء مائة الف نسمة في العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥٠ الفاً . ويقال ان منهم بالهنـد ، وبمصر ، بين الايرانيين المقيمين بهذه الحاضرة . ومنذ نحو ٢٠ سنة اخذنا نسمع ان هذا المذهب انتشر باميركا ، وانها قد ترجمت عقيدته الى الانكليزية ، واخـذ بها اناس كثيرون . وان من جملة دعاة هذا المذهب رجلاً مسيحياً من ادباء لبنان من قرية بحمدون . وقيل ان هؤلاء الذين اتبعوا الطريقة البابية باميركا كانوا يراسلون دائماً عبد البهاء عباس أفندى ، ويستفتونه في المسائل ، ويستوضحون رأيه في المشكلات الدينية ، ومنهم من جاء من اميركا حاجاً اليه ليفوز برؤيته . ومما نعلمه ان عباس افندى بعد اعلان الدستور العثماني وانطلاق حريته ان يذهب اين شاء ، سافر الى اميركا ، وتعاهد المريدين الذين له هناك ، وبعد ان اقام بها مدة يخطب ويعظ ويبث الدعوة ، جاء الى اوربا وطاف على المريدين الذين فيها ، ثم قفل الى عكا ، وبقي فيها الى ان لبى دعوة باريه في حيفا سنة ١٩٢٢ .

ولسنا نعلم عدد البابيين الذين باميركا ، فيقال انهم صاروا بضعة عشر الف نسمة . اما في اوربا فانني كنت سنة ١٩١٩ بمدينة برن كرسي حكومة سويسرة ، واثناء ذلك انعقدت في هذه المدينة مؤتمرات اشتراكية وشعوبية ، على أثر الحرب ، من جملتها مجمع اسمه المؤتمر السلمي

الشعوبي ، كنت ممن شهده وخطب فيه مرتين ، وقد حضره اناس من امم مختلفة ، ومن جملتهم رجل الماني اسمه البروفسور بك ، كان يتردد كثيراً الى الاستانة ايام الحرب ، وكان يلزق بامبراطور المانية ، وهو الذي اسس في الاستانة نادياً سموه « نادي الولاء التركي الالماني ». فالاستاذ بك هذا قدم لي رجلاً ليست بطاقة اسمه بين يدي هذه الساعة ، وانما اتذكر انه قنصل حكومة نورويج في شتوتغارت عاصمة ورتمبرغ ، كما ان « بك » هو نفسه من هذه المدينة، فعرفت من القنصل المذكور انه رئيس الجماعة البابية في شتوتغارت ، وكلفني فيما لو كتبت الى عبد البهاء ان اكتب اليه سلامه ، واستعلمت منه عن عدد الفرقة في بلدهم ، فزعم أنهم يناهزون اربعة آلاف نسمة ؛ وان محل اجتماعهم هو في بيته ؛ وان ميعاد اجتماعهم نهار الاحد كل اسبوع. وسألته عما اذا كان يوجد منهم في غير شتوتغارت من المانية ، فقال لي ربما وجد في غيرها شذاذ ، ولكن معظم الفرقة هو في شتوتغرت ، وعلمت منه ان عبد البهاء عباساً زارهم على اثر رجوعه من اميركا .

بقي ثمة شيء لو اهملناه لكان خللا بواجب المؤرخ ؛ وجديراً بان ينسب الى الضلع ؛ وهو انه بعد انتقال بهاء الله الى الدار الباقية ، وقع الخلف بين اولاده عبد البهاء من جهة ، ومحمد علي افندي ، وضياء افندي ؛ وبديع الله افندي ، من جهة ثانية . وهؤلاء الثلاثة هم اشقاء ، فاشتدت الشحناء وعجز الاحياء عن اصلاح ذات البين ، واتخذها من لايخلو منهم مكان من عقارب الشر ، ليحطبوا فيما بينهم بالفساد . وكانت دعوى عبد البهاء ان اخوته نفسوا عليه الرئاسة وهو احق بها واولى ، ودعوى اخوته انه خالف وصايا والدهم في كثير من الامور . ولم يكن يخلو عباس افندي لعظم انفته ، وشفوف حسه ، من حفيظة طبع ، وسرعة انفعال ، تذهبان به الى حد الحدة ، وتنبوان به عن درجة الحلم ؛ كأنما جاء ذلك عوذة لمحاسنه ، وتميمة لتمام نبله ، فأبى في آخر الامر قبول اخوته ؛ وتمكنت النفرة من قلبه ، لما كان صدر منهم بحقه ؛ واصر على الجفاء ، حتى بعد ان سلموا له ، وما زال على الصرم والهجران الى ان توفاه باريه في السنة الماضية ولم يعقب ولداً ذكراً ، فيقال انه لم يستخلف احداً من اخويه الباقيين ، وانه أشف عليهما حفيده من اولاد بناته فوقع الخلاف ايضاً بعد موته ، وانقسمت الفرقة البهائية الى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبد البهاء ، ومنهم من لايرى له حقاً في ذلك ، ويوجب انتقال الزعامة الى اخيه السيد محمد علي افندي ، الذي هو من الرشد ، والعقل ، والعلم ، والفضل ، وسعة الصدر ، وطهارة الاخلاق ، وجميع ادوات الرئاسة - بالمقام الذي يقر به كل من عرفه ، والذي لايدانيه فيه احد من البهائية فيما نعلم . (ش)

التعليق على المبادىء الاشتراكية في الاسلام

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صفحة ٢٩٩ (رقم ١)

في الشريعة الاسلامية مبادىء اشتراكية ، عظيمة ، متينة ، تفترق عن المبادىء الاشتراكية المعروفة في أوربا ، بكون المبادىء الاشتراكية الاسلامية اوثق ، وامتن ، واجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون ، لانها في اوربا اوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم ، حال كونها في الاسلام اوامر الهية لامحيد للمسلم عن انفاذها اذا اراد ان يبقى مسلماً . فان الزكاة الشرعية هي من اركان الاسلام ، وهي اخت الصلاة ، وقد ورد ذكر الزكاة مقروناً بذكر الصلاة مراراً عديدة في القرآن الكريم كما لايخفى . فلو قام المسلمون بايتاء الزكاة على الوجه الشرعي ، وادوا واحداً من عشرة من غلات اراضيهم ، واثنين ونصفا في المائة من نقودهم ، وواحداً من اربعين من حيواناتهم ، أو كما هو مبسوط في كتب الفقه ، لم يبق على وجه الارض مسلم واحد يصح ان يسمى فقيراً . وكان الاولى بمن يدعون المسلمين الى الاشتراكية ، ويبثون هذه الروح فيما بينهم لتكون سبباً للبغض والشحناء واثارة حرب الطبقات ، التأثر عجاجها في اوربا واميركا ، أن يدعوهم الى اقامة هذا الركن العظيم من اركان دينهم الذي هو الزكاة ، بشرط ان ينظموا جمعها وكيفية انفاقها ، وتجعل لها الحكومات الاسلامية نظارة خاصة بها ، وتحمل الامة كافة عليها . فكان ينتفي بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين ، ويقل تفاوت الطبقات في درجات الرفاهية ، وتتوفر وسائل التمريض ، والمؤاساة ، والتعليم ، وتشمل نعماؤها الجميع بدون منة غني على فقير ، ولا اعتداد كبير على صغير . لأنه كما لايجوز لمسلم ان يمن ويعتد بكونه يصلي ، لايقدر ان يمن ويستطيل بكونه يزكي . ولكن نقول مع الاسف الشديد ، ان المسلمين ، الا النادر ، اهملوا الزكاة ، وتهاونوا بفرائض الدين ، ولذلك هم مهددون اليوم بخطر الاشتراكية ، والشيوعية التي لابد من أن تنفذ مبادئها اليهم مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها الى الشرق ، واننا لانرى مجناً تتقي به هيئة الاسلام الاجتماعية هذه الفتنة القادمة عليها لاريب فيها سوى القيام بفرض الزكاة على الوجه الشرعي ، على شريطة ان يكون لها وزارة أو ادارة في كل حكومة اسلامية ، تنظم امر استيفائها ، وطريقة انفاقها ، تنظيماً بحيث اذا دخلت الاشتراكية على بلاد الاسلام ، دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق ، بل كانت سبباً لاحياء فرض من اقدس فروض الدين الا وهو الزكاة . ومما لاينبغي أن ننساه ان الاشتراكية تتفق مع الاسلام في نفي الجنسية والقومية ، اذ كما ان المسلم لابد ان يعترف باخاء المسلم اياً كان اصله وفصله ، فالاشتراكي لابد ان يتضامن مع الاشتراكي في أي وطن كان ، ومن أي امة كان ، وان فضل الوطنية على الاشتراكية ، كان شأنه شأن المسلم الذى يفضل القومية على الاسلام . (ش)

التعليق على الشهيد أنور باشا و رفقائه

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق الخطير الشأن في صفحة ٣٠٣ (رقم ١)

انه لما أخلى الجيش البلغاري جبهة الحرب أواخر صيف عام ١٩١٨ ، طلب البلغار الصلح من الحلفاء ، وتقدمت جيوش هؤلاء نحو البلقان بالفة خمسمائة الف مقاتل ، سقط في يد دولة اوستريا ـ هنكاريا فاسرعت أيضاً بطلب الصلح ، وبلغ ذلك تركيا ، فخافت أن يتحول جانب من تلك الجيوش على الاستانة . فأخذ أنور باشا ناظر الحربية يحشد من بقي من العساكر للدفاع عن العاصمة ، واسترجع اليها اكثر العسكر الذي كان أرسله الى القوقاس ، وفتح به باكو وبلاد اذربيجان وكان من رأيه المقاومة والبقاء بجانب المانية الى ان يتيسر صلح خفيف الوطأة على الأقل . ولكن انهيار الجبهة البلغارية ، ثم النمسوية ، واستيلاء الوهل على القلوب واعتقادمعظم الأتراك بل معظم الناس يومئذ ان الصلح سينعقد على موجب برنامج ويلسون " فتبقى كل أمة مالكة للبلاد التي اكثر سكانها هم منها ، كل ذلك احبط مساعي انور باشا في الاستمرار على المقاومة ، ومال الرأي العام حتى من الاتحاديين انفسهم الى طلب الهدنة . فاستعفت وزارة طلعت باشا ، وحلت محلها وزارة المشير احمد عزة باشاالارناوطي ومعه رؤف بك ناظراً للبحرية ، وفتحي بك ناظراً للداخلية ، والتمس الباب العالي الهدنة ، وكان السلطان وحيد الدين محمد السادس من قبل كارهاً للحرب راغبا في عقد الصلح ، فحمل حكومته على اتمام ذلك بأسرع ما يمكن . فانفذت الوزارة الجديدة وفداً فيه رؤوف بك الى جزيرة مودوروس امام الدردنيل ، لعقد المتاركة مع الانكليز وانعقدت حينئذ على شرائط ظهرت ثقيلة جداً في اول الأمر ، لكنها صارت خفيفة جدا فيما بعد ، عند ما دخل الحلفاء الاستانة واحتلوا البلاد ، وصارت تركية تعد نفسها سعيدة فيما لو اقامت الحلفاء على شروط مودوروس بعينها . وظهر لها ان الحلفاء نسوا كل ما كانوا وعدوا به اثناء الحرب وما تعهدوا به في نص المتاركة ، وان برنامج ويلسون صار نسياً منسياً وكان من جملة ما قرره الاتحاديون اثناء الهدنة برأي رئيسهم طلعت باشا ، الغاء فرقة الاتحاد والترقي وتأليف حزب جديد اسمه « تجدد » ، وكان ذلك من جملة فنون طلعت لأجل حفظ كيان الاتحاديين السياسي ، بدون ابقاء الاسم الذي كان من شأنه تنفير الدول الغالبة ، وتجفل الرأي العام في ذلك الوقت . وكان مرادهم اعتزال الحكومة موقتاً ، الى ان تكون انتهت تلك الازمة ، وانعقد الصلح على وجه من الوجوه . ولكن لما قارب اجل دخول الحلفاء الى البوسفور واستيلاؤهم على الطرق براً وبحراً ، جاء من انبأهم بان السلطان وحيد الدين الذي كان من الاصل ناقما عليهم يتربص بهم الدوائر قد يتفق مع الانكليز ، فيلقي القبض عليهم ، وقد يحاكمون ، ويصلبون ، بحجة قتل الأرمن وما أشبه ذلك . فعقدوا اجتماعاً في بيت أنور حضره اركان جمعية الاتحاد والترقي ،

والذين كان بأيديهم الزمام عند نهاية الحرب ، وبعد المذاكرات الطويلة ، عزم منهم ثمانية نفر على الهجرة . وهم الذين كان عليهم أكثر سخط الحلفاء : طلعت ، وانور ، وجمال ، وعزمي والي بيروت الاسبق ، وبدري مدير البوليس الاسبق ، والدكتور ناظم ، وبهاء الدين شاكر ، ومدحت شكري ناموس جمعية الاتحاد والترقي ، وكان هذا صديقاً حميماً لطلعت الصق الناس به ، فلحظ طلعت منه انه في نفسه لايميل الى السفر وانما اراد ان يرافقه حباً ووفاء فقال له : « ان كنت لاترغب في الباطن في هذه الهجرة فلا تفعل ذلك من اجلي » . فبقي مدحت شكري بك في الاستانة ، وسافر السبعة الآخرون على نسافه المانية ، جاعلين وجهتهم القريم . ووقع ذلك في اوائل نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٨ ، وبلغني من احدهم انهم في الطريق تذاكروا فيما يجب ان يعملوه بعد هذه الطامة الكبرى التي حاقت بهم ، وبالامة العثمانية بسببهم ، اذ كانوا لايشكون في الاهوال التي ستبطش الاتراك وسائر المسلمين على اثر هذه الدائرة العظمى التي دارت على المانية وحلفائها . فذهب انور الى انه يجب ان ينضموا الى البلاشفة ، ويثيروا تركستان ، والقوقاس ، ولا يفتأوا يقاتلون حتى يأتي الله بالفرج أو يموتوا . فخالفه طلعت في هذا الرأي وقال : « نحن قوم قد انتهت حياتنا السياسية واستحققنا غضب الامة ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق . فأقصد الطرق امامنا هو ان نذهب الى اوربا . ونقبع في زوايا العزلة . ولا نأتي بادنى حركة ولا نطمع في شيء . بل ننظر الى مايأتي به الدهر ، فان لاحت لنا فرصة بعد مرور الايام وكر الدهور ، اهتبلناها . ولكننا في الوقت الحاضر لايليق بنا الاالانزواء والاعتزال ، وترك النضال والنزال ، فقد اردنا ان ننقذ أمتنا ونرقي وطننا ، فلم يسعفنا القدر ، فلنترك هذا الامر لغيرنا . ويظهر ان الباقين اجمعوا على رأي طلعت وما زالوا يدوكون في ذلك طول الطريق حتى نزلوا ببر القريم . وكانت الجنود الالمانية محتلة تلك البلاد فهيأوا لهم قطاراً ساروا به قاصدين المانيه ، فوصلوا الى محطة كان لابد لهم ان يبيتوا فيها ، فلما اصبحوا لم يجدوا انور بينهم ، وعلموا انه استقل قطاراً يأخذه الى الشرق ، مصمماً على ما كان اعتزمه من الاستمرار على المقاومة . وكانت وجهة انور القوقاس ، حيث كان اخوه نوري ومعه طائفة صالحة من الجند ، وكان يؤمل اثارة المسلمين الذين في اذربيجان وفي الطاغستان . وقد قال لي عزمي بك والي بيروت : « لو كاشفني انور بما في نفسه من الانفصال عنا ذاهباً الى القوقاس لرافقته ، ولكننا اصبحنا فوجدناه قد مضى » فاما الستة الباقون فجاءوا الى المانية كما سيأتي خبر ذلك في محله .

واما انور فبعد أن سار مسافة في البر ، وصل الى مرسى من مراسي القريم ، ولما لم تكن هناك بواخر ولا سفن شراعية كبيرة ، استقل قاربا بقلع صغير . وسار به قاصدا القوقاس ومعه خدمه : — ففي اثناء الطريق ، ثار البحر وكاد يقلب عليهم ، بحيث اضطروا لصغر الفلك ان يقذفوا في اليم جميع الحقائب التي كانت معهم ، ورجعوا ادراجهم الى ساحل القريم . فنزل انور ملتاث المزاج مما اصابه من الريح والبرد والمطر ، وبقي متخبئا في تلك البلاد الى ان أبل من ذات الرئة التي حصلت له ، فجاء اولا الى المانية لم يعلم به أحد الا اثنان أو ثلاثة ، بل عمس خبره حتى عن رفاقه طلعت وجمال وعزمي الخ . وكان انور كتامة لايوجد اقدر منه على اخفاء مافي نفسه ، وكتم حركته ، وذلك بخلاف طلعت ، الذي وان كان ادهى من انور ، واعلى كعباً منه

في السياسة ، فقد كان فاووهة يبيح بكل مافي نفسه . وبقي انور متخبئاً تارةً ببرلين ، وطوراً باحدى المزارع في ارباضها ، طاع سنة ، والناس لا يعلمون من امره شيئاً وثيقاً . والجرائد الانكليزية تكتب انه ظهر في القوقاس ، واحياناً انه في التركستان ، وآونة انه في كردستان ، وغير ذلك وهو في الحقيقة في المانية لم يبرحها بعد ، الى ان جاء « رادك » الزعيم البولشفيكي المشهور الى برلين ، فعرف به انور وطلعت وتلاقيا معه ، وأجمعا على الحركة مع البولشفيكي .
ولما كانت الطرق يومئذ بين المانية والروسية مسدودة ، استصحب انور الدكتور بهاء الدين شاكراً ، واستقلا طيارة قاصدين الروسية ، فقبل ان وصل بهما ربان الطيارة الى الروسية ضل الحدود ونزل بهما الى الارض ، ظناً بأنه نازل بارض روسية ، فاذا بهم نزلوا بارض «لتونيا» وكان الحلفاء وقتئذ مسيطرين على كل تلك الديار ، فقبضت الحكومة المحلية عليهم ، ووقفتهم، فادعى بهاء الدين شاكر انه طبيب ذاهب الى الروسية من قبل الهلال الاحمر العثماني لمعالجة اسرى الاتراك ، وقال انور انه ممرض من مستخدمي الهلال الاحمر ، فعرّف اولو الامر في لتونيا عنهما المؤتمر الذي كان منعقداً بباريز ، فورد الجواب من المسيو كلمنصو رئيس المؤتمر . بأن يأخذوا صورتيهما بالفوتوغراف ويرسلوا ذلك الى باريز ، فاخذوا الصور والاجوبة التي جاوباها واعتقلوهما منتظرين ورود الجواب من كليمنصو . وفي اثناء ذلك كان انور بعث الى الالمان يخبرهم بما وقع معه ، وكان قسم من العساكر الالمانية لايزال محتلاً بلاد البلطيك ، فاجابوه بأنهم يرسلون اليه طيارة يمكنه ان يفر بها مع رفيقه ، وعينوا لهما المكان والزمان . وكان انور وبهاء شاكر يخرجان كل يوم للنزهة بعد الظهر بخفارة شرطي مسلح . فلما كان اليوم المعين خرجا على عادتهما للنزهة ، وتوجها الى المكان الذي ستأتي اليه الطيارة بحسب تعريف الالمان لهما سراً ، فأبطأت الطيارة في الوصول حتى كادا يقطعان الامل من مجيئها ذلك النهار ويرجعان . واذا بها قد ظهرت في الجو ثم اسفت ولمست الارض فاقبلا عليها هما والشرطي الذي معهما كأنهما ينظران ماخطبها ، ولما قربا منها وجدا فيها جندياً معه بندقية ، ثم اخذا يتأملان في ادواتها ويتخللان داخلها والشرطي لايشك في كونهما محبين للاستطلاع ، الى ان استقلا مقعدها وبدأت تنطاد ، فعرف الشرطي انهما قد فرا وان الامر مدبر . ففي الحال صوب نحوه انور البندقية منذراً اياه بالرمي ان اتى بحركة ، فأبلس الشرطي اولا ، ثم اطلق عليهم فيمابعد بندقيته ، ولكن الطيارة كانت قد علت في الهواء امداً بعيداً . وبهذه الكيفية نجا انور تلك النوبة ، وعادت به وبزميله الطيارة الى المانيه ، ولما وصل خبر فرارهما الى المؤتمر بباريز ، وكانوا قد عرفوا من صورهما انهما انور والبهاء شاكر ، كتموا الخبر جيداً عن الجرائد حتى لايتهم الحلفاء بالتفريط ويهزأ بهم ، مع ان الجرائد كلها كانت قد نشرت الخبر قبل أن تحقق من هما . ثم ركب انور طيارة ثانية قاصداً موسكو ولم يكن معه هذه المرة سوى الطيار ، فحصل للطيارة عرض في الجو ، وكادا يهلكان فأسفا الى الارض . ثم استقل طيارة ثالثة وذهب بها الى موسكو حيث وصل سالماً . وانزله البولشفيك في قصر قبالة « الكرملين » لا أظن يوجد مثله في اوربا فخامة وأبهة . واتفق معهم على العمل يداً واحدة لمقاومة الحلفاء ، لاسيما انكلترة . ثم جاء الى موسكو جمال وبدري فدخلا فيما اتفق عليه انور مع البولشفيك من الألب (التدبير على العدو من حيث لايعلم) على انكلترة . وفي هاتيك الايام جاءت عائلة انور الى برلين من الاستانة ، فجاء هو من موسكو

الى برلين وشاهد حليلته التي هي ابنة اخي السلطان ، ولم يلبث ان عاد الى موسكو ، ولكنه هـذه المرة ذهب في البرّ من طريق Réval عاصمة استونيه . وكان معه رجل روسي شيوعي فقبض عليهما في ريفال وطلس بهما في السجن ' تحت شبهة انهما من دعاة البولشفيك . وادعى انور انه من مأموري الهلال الاحمر التركي ، فلم يثقوا في قوله ، واخذوا رفيقه المسكوبي يضربونه ضرباً أليماً حتى يقر من هو هذا التركي الذي معه فتجلد على كل ذلك الجلد والضرب ولم يقر بشيء ' ولكن كانت نظارة الشرطة ترى من سيماء انور ' وشمائله ، وحسن صورته ، شيئاً ينبئها انه ليس بمأمور بسيط الحال كما يقول . ولذلك كانت تلح عليه في الابانة عن حقيقة امره ، وكان هو مصراً على الكتمان ، الى ان خطر لهم ان يضربوه يوماً كما ضربوا الروسي رفيقه ' وبينما هم يهمون بضربه اعترضهم رجل من البعثة الانكليزية التي كانت هناك ، تفرس فيه النجابة والكرامة فقال لهم : « مثل هذا لايجوز ضربه » . فخلوا بعدذلك سبيله .وكانت مدة اقامته بسجن ريفال نحو شهرين . وجعلوه مع السجناء الآخرين من الجناة والمجرمين ، ولم يكونوا يطعمونهم سوى الخبز اليابس . وجاء الى موسكو فاقام بها مدة ثم عاد الى برلين لصلة الرحم . وتلاقيت به هذه المرة بعد مكاتبة سبقت بيني وبينه حينما كنت في سويسرة . ثم ذهب ايضا الى موسكو ومعه بضعة نفر من الاتراك ' وكانت سفرته هذه في اوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢٠ ثم عاد الى برلين اول مرة ثم ذهب وعاد ثاني مرة وذلك في اواخر يونيو (حزيران) سنة ١٩٢١ ، وهذا آخر عهده رحمه الله بأسرته . وولد له مولود ذكر بعد سفره بنحو ثلاثة اشهر ، وذهب من هذه الدنيا ولم يشاهده . وذلك انه اختلف في آخر الامر مع البولشفيك واثار التركستان عليهم ' واستشهد في هذه الحرب في اوائل اغسطس سنة ١٩٢٢ المنصرمة . وتحرير الخبر انه كان بين انور ومصطفى كمال وحشة من قبل ، فلما اسس مصطفى كمال حكومة انقرة . كان انور بدأ بتشكيل جمعيته بمعاونة الروس وحاول ان يجعل لها فروعاً في الاناضول . فعارض مصطفى كمال في انتشار هـذه الفروع بحجة انها قد تؤدي الى الخلاف والشقاق ' حال كون الدفاع الوطني يقضي بتوحيد الكلمة . فنقم انور عليه هـذه المعارضة وعدها استبداداً ونفاسة ' وازداد الجو بينهما سفوراً بحيث انه لما جاء عمه خليل باشا قائد جيش العراق سابقاً الى طرابزون ، بادر مصطفى كمال باخراجه منها ، وكذلك عند ماورد عزمي بك والي بيروت الاسبق مدينة ارضروم ، ارسل اليه بأن يبرحها حالاً . ثم يقال ان مصطفى كمال اقصى من الجيش القواد المعروفين بالاخلاص لانور ' فكان انور يحتقد عليه هـذه الامور كلها ' وكنا ننصحه ان لايوسع هـذا الخلاف ولايدع للقالة سبيلاً . واحدى المرار كنا عنده مجتمعين بمنزله في غرونفالد بظاهر برلين ' فبينت له وجوب الوئام مع مصطفى كمال مادامت هذه الحرب بين الاتراك والحلفاء قائمة ' وكون خبر هذه المنافسة يسوء وقعه في العالم الاسلامي جميعا ' وأيد كلامي هـذا الدكتور ناظم ' فلم يجاوب انور لاسلباً ولا ايجابا ' وكان من اقدر خلق الله على كتمان ذات صدره كما سبق . ولم يكن انور ممن يستطيره الغضب ' ولا ممن ينطلق لسانه بطعن ولا لعن ، ولا قذيعة ، لم يعهد احد ان رآه غضبان ولا ان سمعه شاتما ' وكان عجيبا في هـذا الامر لايباريه احد فيه ' واذا اراد أن يتشكى لاذ بالمعاريض وعمد الى الاشارات ' بدون ملاطة لسان ، فكان قصارى قوله في مصطفى كمال ان الادارة في الاناضول غير سائرة على مبدأ العدل ولا المساواة '

وان الامة لم تتحمل استبداد السلطان عبد الحميد وهو ابن عثمان حتى تتحمل استبداد غيره . وكان بعض اخصائه يكتبون اليه من هـذا القبيل مايثير حفيظته ، فكنت ابين له دائماً مايلحق مخاصمته لمصطفى كمال من سوء الاحدوثة ، ولو كان على حق في بعض مايشكو منه . ولما فارقته فيموسكو في اوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ لمانس وانا على ثنية الوداع الاخير ، ان احذره من التهور في الخلاف مع مصطفى كمال باشا ، وايقاد فتنة في ذلك الوقت الذي يتحتم فيه الاتحاد التام بين الاتراك ، ويظهر ان مصطفى كمال نفسه ارسل الى حكومة موسكو يشكو من حركات انور ، ويلتمس منها ان لاتمد انور بشيء مما كانت وعدته به من مال وسلاح . فامسك السوفييت بعد ذلك عن اجابة طلبه من هـذه الجهة ، وجعلوا ذلك عذراً لهم بعدم الامداد ، وانا ماصدقت اصلاً منذ البداية ان البولشفيك كانوا يريدون الجذب بضبع انور فعـلاً وتمكينه من القتال والنضال ، وانما كانوا يأخذونه بالروية ويمنونه الاماني ليبقى في يدهم ، وليهددوا به انكلترة ، وينالوا منها وطرهم على ظهر اسمه مع التيقظ التام لحركته وحركة اعوانه ، والحذر من سريانها الى مسلمي الروسية الكثيري العدد . لاسيما ان انور اعلن الحكومة الحمراء مراراً انه هو ومن معه ليسوا شيوعيين ، وان النقطة الجامعة بينه وبين البولشفيك هي مقاومة الحلفاء لاغير . والحال ان البولشفيكيين لايركنون الا الى من كان شيوعيا مثلهم قولا وفعلاً . وكنت نبهته مراراً الى خطر اقامته بموسـكو قائلا له : « ان الحمر لايجهلون انك اكبر دعاة الجامعة الاسلامية اليوم ، وهم يناهضون هذه الجامعة مثل مناهضة الانكليز لها أو اكثر ، لأن في الروسية لا اقل من ٣٥ مليون مسلم جميعهم متصلة بلادهم بعضها ببعض وبسائر بلاد الاسلام ، وهم يذكرون ماضي ملكهم وسابق عزهم ، فلاشك ان الروس يحسبون الف حساب للحركة الاسلامية بين هؤلاء ، ويحذرون منها ومنك بنوع اخص . وهم اذا كانوا يعلنون للعالم الآسيوي استعدادهم لمناصرته وتحفزهم لمعاضدته ، في موقف تحريره هذا ، فلا يعملون ذلك الا على شرط البلشفة ، ولاينصرون الاسلام وهو على قواعده الحاضرة ، اذ يرون فيها من الخطر على التركستان الروسي مايرى الانكليز على الهند ، فكان انور يجاوبني اني انا تعهدت لهم بأن لاآتي بحركة اسـلامية في ارضهم ، واقنعتهم بأن عندنا شغلا آخر مع غيرهم ، وحسبنا ان نخلص انفسنا من سيطرة الانكليز ، ولقد علموا أنه لما ثار بهم اخي نوري في القوقاس وقاتلهم وقاتلوه نهيته عن قتالهم ، واعلنت عدم رضاي عن عمله ، حتى اجهضته عن تلك الثورة . فكنت اقول له « الا أن ذلك لايمنع حـذرهم منك ووقوفهم لك بالمرصاد ، ومن باب الرأي عندي ان تبرح موسكو الى بلاد أخرى قبل أن يقع الخلاف بينك وبينهم ، فاما أن تقيم هـذه المدة بالمانية ، واما أن تذهب الى بلد مثل افغانستان حيث يستقبلك أميرها براً وترحيبا » . وكان الامير امان الله خان قد أرسـل الى انور باعلى رتبة فى مملكته ، مع نفحة مالية ، وكتاب اطلعني هو عليه قد أوسعه به لطفا وتشريفا . فلم اقدر على اقناعه بترك موسكو ، ووقع الذي حذرناه . اذ لما يئس انور من حمل الروس على امداده بالمال والسلاح ، ورأى ان كل ماوعدوه به من هذا الضرب كان برقاً خلبا ، وكانت غايتهم منه ان يهددوا به الانكليز ويجعلوه رقيبا لمصطفى كمال ، حتى اذا خرج هذا من يدهم رموه بأنور ، بدأ انور يضمر العداوة للحمر ، وفتح اذنه لاقوال المسـلمين التتر الذين كانوا يطالعونه بما في انفسهم من السخط من جراء نهب البولشفيك لاملاكهم ، واموالهم ، وسعيهم في بلشفة المسلمين ،

واهدارهم دماء الالوف ، وعشرات الالوف منهم ، في اذربيجان ، وقازان ، وتركستان وطاغستان ، ثم من كونهم بعد جميع تلك المواعيد التي بذلوها باعطاء هذه البلاد الاسلامية استقلالها ، عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به ، واستأنفوا سياسة الروسية القومية ، وبطشوا بمن قاومهم من المسلمين بطشة جبارين ، الى غير ذلك مما وقر في نفس انور ، وحداه على تغيير سياسته ، والرجوع الى سياسة اخيه نوري ، الذي كان يعذله على ممالأته للبولشفيك. فصار انور يترقب فرصة للتملص من موسكو ، وينظر ذلك القصر المنقطع النظير الذي أنزلوه به حبسا . الى ان زحف اليونانيون نحو انقرة ، وصار الأتراك يتقهقرون الى الوراء ، وخيف من دخول اليونان انقرة ، فاستأذن انور البولشفيك بالسفر الى القوقاس قائلاً : « اذا دام تقهقر الاتراك على هذا الشكل ، أوسقطت انقرة ، فلا يسعني الا تجنيد من يمكنني تجنيدهم واستنفارهم من جهات القوقاس ، والزحف بهم لمصادمة اليونانيين » . فساعده البولشفيك بالسفر وانخدعوا بكلامه ، فهبط مدينة باطوم ، واقام بها مترقبا الاخبار من الاناضول ، فلما ورده خبر ظفر الترك في معركة سقاريا ، وارتداد اليونان الى الوراء علم أن لم يبق محل لدخوله الاناضول ، فولى وجهه شطر تركستان ، وذهب الى هناك وهو يعلم انه سينهض بنزلاء ، ويعالج مرتقى عقبة كأداء . اذ لما فصل من باطوم كتب الى جمال عزمي بك والي طرابزون الاسبق (هو الذي اغتاله الارمن مع بهاء الدين شاكر شتاء سنة ١٩٢٢ في برلين) يوصيه بتعهد امور عائلته ببرلين ويقول له انه لا يعلم هل يتيح له القدر الاياب الى أهله أم لا وهذا دليل على أنه كان موطنا نفسه على الموت . وكان ذهابه من باطوم في اواخر اغسطس سنة ١٩٢١ متنكراً ومعه رفيق واحد يدرعان الظلماء ويلتحفان السماء . وأما البولشفيك فلم يحسوا بذهابه الا بعد أيام ، وكان هو اجمع في نفسه على الانفصال عنهم ، وبرئت قائبة من قوب . ولست اعلم ماذا جرى معه في تركستان تفصيلا ، ولا أي طريق سلك الى هناك وقصارى ماعلمت من خبره بعد بلوغه تلك الديار ، انه دخل بخارى وعضد فيها الحزب الاميري ، وبطش بدعاة البلشفة واولئك الذين يقال لهم « مجددي » أي الحزب الجديد الذين يمشون بين ايدي الحمر ، وانها استجمعت له هناك جميع الامور واخذ الامر كله بيده ، وانضم اليه السواد الاعظم من الامة ، وارسل في تلك الاثناء صورته بالزيّ البخاري الى أهله ، وشاهدتها عندهم ببرلين ، وكان في نيته أن يستقدم السلطانة امرأته عن طريق الهندوافغانستان . ولكن لم يكن زال الخوف من كرة البولشفيك ، بل بعد ان استوسقت له امور مملكة بخارى ، وازال البولشفيك واشياعهم منها ، مد الصارخة الى خيوه والى فرغانة التي كانت فتلتها لم تخمد من أول انحلال القيصرية ، فعمت الثورة اكثر التركستان ، وهاجم انور عساكر البلاشفة في مواطن عديدة ، وظفر بهم وغنم منهم مدافع واعتاداً حربية ، ونشرت الجرائد الاوربية أخبار مغازيه وفتوحاته ، وفرح بها أولياؤه وأحبابه ، لابل المسلمون جميعا ، وظن كثيرون ان قد استتب له الفتح ، ولكنني كنت متوجسا عليه خيفة هذه المطوحة ، معتقداً صعوبة موقفه وقلق وضينه. وفي هاتيك الايام شاع ان البولشفيك دعوه الى الصلح ، فقيل انه أبى ، وقيل بل اختلف معهم على الشروط. وعلى كل حال كنت أرى الصلح أولى لعلمي بما ينقصه من السلاح والعتاد ، ولذلك عند ما كنا في جنوى لمراجعة مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٢٢ الماضية ، قابلت تشيتشرين الذي كان رئيس الوفد

الروسي في المؤتمر وكنت عرفته بموسكو وتحادثت معه مراراً ، وبعد أن أبدينا وأعدنا في القضية العربية ، سألته عن خطب انور، ولم اكتم عنه انه لم يكن من الحكمة أن يفلتوا مثل انور من أيديهم ، وانه كان من الممكن ارضاؤه بشيء من الاشياء . فاخذ يشرح لي مما فعله انور من مقاومة مصطفى كمال ، والكيد على حكومة انقره ، وما اقامه واقعده من احوال تركستان ، وكيف التي الفتنة بين المسلمين والروس ، وكان سببا في هذه المصائب التي سالت فيها الدماء الخ فتكلمت معه فيما لو كان ممكنا تأليف ذات البين ، فاجابني انهم هم أحب شيء اليهم الصلح . فقلت له : « ولكن مثل انور لا يرضى بصلح يكون شرطكم فيه عليه ترك البلاد ومجرد الانصراف » . قال : « وماذا يريده انور » . قلت : « والله لا أعلم ماذا يريده ، وليس بيني وبينه مراسلة ، ولا أعلم شيئا من أحواله الراهنة اليوم ، وانما اقرأ أخباره في الجرائد . فكلامي هو رأي من عندي أقدمه لكم حباً بحقن الدماء ، واستبقاء المودة بينكم وبينه لا غير ، وهو : انكم قد اعترفتم لبخارى بالاستقلال داخلاً وخارجاً . فتتركون أنور يصلح امور بخارى ، لأنه رجل عظيم من جهة الادارة والترتيب . ويتم الاتفاق بينكم وبينه على أن لا يتعرض لتركستان الروسي ، وتؤخذ عليه بذلك المواثيق . قال تشيتشرين « وماذا يكون منصبه في بخارى أأميراً أم وزيرا ؟ » . قلت له : « هذا عائد لرأي أهالي بخارى ، فان لم يكن أميرا ، يكون رئيساً للوزارة وقائدا عاما . أو يصطلح أهل بخارى على جمهورية ويكون هو رئيس الجمهورية » . قال : « لا لا . هذا خطر عظيم » . ولم يزد على ذلك . فلم أراجعه من بعدها في هذه القضية . ولكنني سمعت من أحد أصحابي الذين كان لهم معرفة ببعض رجال البولشفيك انهم كانوا يسعون في دعوة انور الى الصلح . ويقال ان بعض الذين توسطوا في هذا الامر كانوا يقولون للحمر في موسكو : « مهما بذلتم في مرضاة أنور فلا يكون كثيراً لأنه هو روح هذه الحركة ، ان شاء سكنها ، وان شاء هيجها ، وهي قائمة به وحده » . وكلام كهذا كان من باب الخرق والحماقة ؛ لأنه جعل البولشفيك يعتقدون أن الاهالي كانوا راضين بحالتهم مهما كانت عليه من السوء وان حركتهم انما جاءت من قبل شخصية أنور ، فلذلك وجهوا معظم قوتهم للقبض على ذلك الشخص الذي تسبب لهم بمجرد ارادته ، بكل هاتيك الخسائر وأخرج اكثر تلك الاقاليم من طاعتهم . ولست على ثقة من خبر القوة التي ساقوها على أنور ، ولكن الناس الذين جاءوا من هنالك بعد الوقائع يبالغون في الكلام على الجحافل الجرارة التي بثها الروس في التركستان لاخماد نار الثورة ، ولخضد شوكة أنور . وما مضت مدة حتى روت الجرائد أن أنور تقهقر الى الوراء أمام القوة الجسيمة التي لم يكن له قبل بها . ولما علم أمير الافغان بوفرة الجيوش الروسية الناهدة الى أنور أسرع بدعوته اليه وبعث يقول له : « أنا محتاج الى مثلك لاجل رئاسة جيشي . فاقدم عليّ فلن تجد عندي أعز ولا أغلى منك » . ولكن أنور كان مغرما بالحرب ، وكما قال علي فؤاد بك رئيس أركان الحرب في سورية ، أثناء الحرب العامة ، وذلك في كتاب له على حملة ترعة السويس عربه الكاتب الاديب نجيب أفندي الارمنازي : « ان حال السلم عند أنور عدد منفي وقصارى حياة المرء عند أنور أن يقوم في ميدان الحرب بحملات باهرة برؤوس الحراب . ويموت فيها شريفا » ولقد أصاب علي فؤاد في قوله هذا كما أصاب في أكثر ما أورده بكتابه . فان أنور كان حلس قتال لا يمله ، ولكنه كان من أقدر

الناس على الادارة والتنظيم ، وكل من شهد ترتيبه في الجبل الاخضر بطرابلس حيث كان مطلق اليد في العمل ، يعلم أنه يندر من يبلغ شأوه ، أو يدرك تبوءه ، في التدبير ، والترتيب ، وأساليب العمارة ، فكان في هذه الساحة فذاً . الا أنه لم يكن سياسياً كبيراً مع فرط ذكائه، وأتذكر انه رغب الي أن اذهب الى المانية لمعرفة حقيقة الحالة سنة ١٩١٧ ، فلما ودعته قال لي : « لا يكفيني أن تخبرني بما هو كائن هناك بل اعطني على ماتشاهده رأيك الخاص ». فكان هو نفسه لا يركن الى نفسه في السياسة . وهذا دليل على ذكائه وعقله ، فانه لا يوجد آفة على العقل مثل الدعوى والغرور .

وفي أوائل اغسطس من عام ١٩٢٢ ، كان انور ، كما سبق القول ، في بلدة يقال لها بالجوان شرقي بخارى ، وكان اكثر جنده تفرقوا عنه بسبب العيد الكبير ، وبقي في شرذمة من اعوانه، فهاجمته خيالة الروس في عسكر مجر ، فخرج بنفسه ، وما زال يقاتل حتى قتل رحمه الله. وكان لم يتجاوز الاربعين من العمر ومن رآه يظن انه في نحو الثلاثين لوضاءة جماله ، ورونق شبابه . وانتشر الخبر في الدنيا كلها ، ولولوع الشرقيين بانور ، وحرصهم على حياته ، لم يريدوا أن يصدقوا الخبر ، ومالوا الى تكذيبه ، لاسيما انه ورد من القوقاس برقية بأن ذلك الخبر كان من اراجيف الروس . وبلغنا ذلك اذ كنا عام أول في رومة ، فقلت لاول وهلة : هذا الذي كنت استوقعه له ، وعزمي بك والي بيروت كان قال لي : انور هذه المرة اما أن يعلو كثيراً أو يموت. على ان موته شهيداً في سبيل تحرير قومه هو اشرف ميتة ، وانوه منية . ثم لما ورد نبأ التكذيب قلت : عسى ذلك صحيحاً . ولكنني كنت غير مطمئن البال . فلما عدت الى برلين سألت اخاه كامل بك واهله ، فوجدتهم مطمئنين ينتظرون البريد الافغاني ، وهم لا يشكون انه آت بمكتوب منه . فسألتهم عن مصدر التكذيب لخبر القتل ، ظاناً انه بني على كتاب جاء من نفس انور بعد تلك الاشاعة ، فعلمت انه لم يرد منه بعد الاشاعة شيء . فعند ذلك هجس في فكري انه لو كان حياً لاسرع بالكتابة الى اهله تكذيباً للاشاعة ، اذ لابد من ان يكون بلغه ماقيل . ثم كلفوني ان استقصي لهم الخبر من سفير افغانستان الذي كانوا سألوه فلم يخبرهم بسوء ، فاحفوني على سؤاله من قبلي انا فلما سألته بصورة خاصة ، قال لي ان الخبر صحيح ولكنه لا يريد ان يصرح لهم به ، ويكون ناعياً لانور . وهو الذي اخبرني عما اصاب الامير امان الله خان ملك الافغان من الحزن لفقد انور ، لاسيما انه كان بعث اليه يستقدمه بالحاح الى كابل فأبى . فلما عادوا يسألونني عما سمعت من سفير الافغان ، اجبتهم ان السفير لا يقول شيئاً ولكنني انا شخصياً في قلق من سكوته المطلق ، وارى انه مادام الباشا لا يكتب كالعادة بخطه الى السلطانة فينبغي ان يكون هلك قضاء واهم . وما زالوا يعللون انفسهم بالآمال ويسمعون لاقوال من يروي لهم عن الجريدة الفلانية ان أنور حي ، وعن القادم الفلاني من تلك الديار بأنه وقع تشابه بينه وبين قتيل آخر ، وان الذي وجدت جثته وكان ظن أولا انه انور ظهر بالتالي انه غير انور الى غير ذلك من الاخبار المبنية على « بشروا ولا تنفروا » الى أن قدم ضابط من القوقاس لقيني في لوزان في هذا الشتاء ، واخبرني بالقصة التي كنت عرفتها من سفارة الافغان ببرلين قبل مجيء هذا الضابط باشهر . ومع هذا فغرام الشرقيين بانور كان يحدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حياً . ومازالوا يلهجون بذلك حتى أعلن أميرالالاي علي رضا

بك نائب أنور بيانا في الجرائد الهندية يقول فيه : « مضى زمن على شهادة الغازي أنور باشا الذي كان يجاهد لتحرير تركستان ، فهو اليوم ليس في افغانستان ولا في ايران ، ولا على حدود الهند ، بل قد انتقل الى جوار ربه الذي جاهد لمرضاته بماله ، ونفسه ، وقد انتقلنا نحن بعد هذه الفاجعة الى كابول ، وعسى أن نرجع قريباً الى انقرة ، فرجاؤنا من مسلمي الهند أن لا يجددوا أحزاننا بنشر الاخبار الكاذبة عنه بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة ».

هكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذي مهما قيل عن هناته وأغلاطه ، فلم تخرجه عن كونه عظيما . وان فيما ختمه الله له من الشهادة في سبيل امته ، ما يكفر عن سيئاته ان كانت هناك سيئات تذكر . لاسيما انه قد دعاه أمير الافغان لاعظم منصب في دولته ، فأبى وآثر الجهاد ، وهو يعلم مقدار قوة الدولة الروسية التي وقف في وجهها . وقد اتفق الناس ، من قصري وعمي ، على كون انور بطلا من الابطال ، ليس في هذا العصر بين المسلمين ، من يدانيه في علو الهمة ، وبعد مرتمى العزم ، واتقاد الحمية ، وكان يعجب جميع من عرفه من جمعه بين البطولة والغشمشمية ، من جهة ، والحياء والرقة والتواضع من جهة اخرى ، جمعاً مستولياً على الأمد ، يتمثل الانسان فيه وداعة الحمام ، في شكاسة الاسد . وقلما عرف احد انور حتى من أشد الناس عداوة لمشربه الا أحبه وهفا قلبه عليه ، وكثيراً ما صرح لنا اناس أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضاً وشنآناً ، فلما شاهدوه وجالسوه عادت تلك النار في صدورهم برداً وسلاما ، وكان أنور يؤثر الفعل على القول ، ويكره التبجح والبأو وكان يقول لي : اكره الكلام الكبير . واكثر مانقم الناس على انور كونه من أعظم أسباب دخول الدولة العثمانية في الحرب العامة ، وكان انور يرى ان الحلفاء تقاسموا بلاد الدولة فيما بينهم شق الابلمة ، قبل الحرب العامة . ففرنسا وانكلترة تقاسمتا سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، كما اعترف بذلك المسيو بوانكاره في مجلس الشيوخ الفرنساوي جوابا على المسيو بيرار في العام الماضي . وكذلك لم يكن بعيداً عن العقل ، انه لو خرجت الروسية من الحرب العامة غالبة لكانت السلطنة العثمانية اثراً بعد عين ، لأنه مما لاينكر أن الاستيلاء على الاستانة كان أول اهداف الروسية في دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الاستانة يذهب الاناضول . ولقد اعترف الحلفاء انه لو لم تدخل تركية الحرب وبقي الدردنيل مفتوحاً بين الروسية وحلفائها لما انهارت الروسية . وكذلك ثبت أن بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على المانية تقسيم السلطنة العثمانية ، وأن تكون حصة هذه الاناضول . فهذه الاسباب كلها ، مع غيرها مما ليس هنا محل شرحه ، جعلت أنور وطلعت أمام هذه القضية يقولان : ان تأبينا الانضمام الى المانية نخشى اما أن تنتهي الحرب بالاتفاق علينا ، والمانية من الجملة بما نكون قد تركناها . واما أن يتم النصر للحلفاء وحينئذ فيقع تقسيمنا بين هؤلاء فيما بينهم هم فلى الحالين نكون من الغابرين . اما اذا انضممنا الى الالمان فنحن بين أمرين : اما أن تفوز المانية فنخلص نحن من الخطر الذي يتهددنا من جهة الحلفاء . واما أن تنكسر المانية فلا يصيبنا شيء اكثر مما سيصيبنا لو أهملنا الانضمام اليها . هذا مع كونهما لم يتوقعا لالمانية الدائرة التي دارت عليها ، اذ لم يكن متوقعا دخول اميركا في الحرب . وربما قيل أن الحلفاء عرضوا على تركية شروطا مفيدة تؤمن لها استقبالها فيما لو لزمت الحياد . والجواب ان تلك الشروط التي عرضها الحلفاء لم يكن فيها شيء

من الاهمية ولا تمهدت الروسية بعدم مهاجمة تركية فوق ثلاثين سنة . ولعمري لو عقد الحلفاء مائة عهد لتركية ، ثم خرجوا من الحرب ظافرين فمن الذي كان في استطاعته اقامتهم على عهودهم؟ افلم يعاهدوا الشريف حسينا على استقلال جميع بلاد العرب ؟ فماذا جرى ؟

كانت معرفتي بأنور يوم التقينا في ظاهر درنة في حرب طرابلس . ويظهر انني لما فصلت من مصر قاصداً طرابلس ، ابرق اناس الى انور ـ ولا يوجد أكثر من السعاة والمفسدين ويا للأسف ـــ يحذرونه مني ، ولا أعلم الى الآن ماذا زينوا له بل علمت فيما بعد انه بناء على هذه البرقيات المتواردة عليه اصدر امره الى ادهم باشا الحلبي قائد معسكر طبرق ، بأن يردني من طبرق الى السلوم . ولما كان أدهم باشا رجلا منجذاً قديما ، اجابه بأنه لا يعتقد انني مظنة سوء . وان ردي اياي بعد ان وصلت الى المعسكر والتفّ حولي العرب ، قد يؤثر على هؤلاء تأثيراً سيئاً ، فالاحسن ان امكن من الوصول الى معسكر انور بعين منصور فأكون هناك تحت مراقبة القائد العام نفسه ، فان رأى هو ما يريبه مني كانت معه سعة من الوقت لاخراجي من هناك . فاقتنع انور بهذا الجواب وتركني اكمل السير الى عين منصور وانا لا علم لي بشيء مما وقع . وبعد ايام من وصولي وملاقاتي به مراراً ، واخذنا بأطراف الاحاديث من كل موضوع ، علم ان الاخبار التي وردته هي دسائس محضة ، او ناشئة عن خدعة وحيلة ، من اناس قصدوا ان يدسّوها لاغراض لهم ، ومن ذلك الوقت انعقدت بيننا صحبة اكيدة ، واستمرت الى ان صار ناظراً للحربية ، فكان كلما علا رتبة ازداد تواضعا بعكس ما عليه كثيرون من قومه . وفي تضاعيف الحرب رغب الي ان اذهب الى المانية اول مرة لمراقبة الاحوال ، وما مضت مدة وجيزة حتى قال انور لأحمد نسيمي بك ناظر الخارجية « كم انفذنا الى المانية رجالا من نخبة رجالنا ليقفوا لنا على حقائق الاحوال واقاموا اشهرا فلم يقم احد منهم ، ولا جميعهم ، بما قام به فلان (يشير اليّ) في ١٥ يوما » ثم لما رأى ما رأى من الحفاوة التي اظهرها الالمان بي عند ما زرت المانية سنة ١٩١٧ اعتقد انني اقدر من غيري على حل المشكلات المتعلقة بينهم وبين الاتراك ؛ فلما وقع الخلاف بين الفريقين من اجل باكو والقوقاس والاسطول الروسي في البحر الاسود قال لي : « ان هؤلاء القوم يجلونك كثيراً ويعتقدون ميلك الخاص اليهم ، فأرجو منك ان تذهب الى برلين ، وتسعى في نظارة الخارجية فيها في اعتراف المانية باستقلال اذربيجان والطاغستان ، كما اعترفت باستقلال كرجستان . واسر اليّ غير ذلك من الامور . فقلت له : « كنت علي اوفاز الى سورية ، ولكن لاجل خاطرك هذا اذهب الى المانية اولاً » . فقال لي : « يكفيك في برلين لهذه المهمة شهر أو عشرون يوما ثم تعود الى هنا وتسافر الى سورية » . ففصلت من الاستانة في أوائل يونيو وأنا عازم على أن لا أمكث في برلين فوق ٣٠ يوما . وها انا ذا في اوربا منذ ذلك الوقت ، وهي مدة تزيد على الخمس سنوات ، لم يتيسر لي فيها أن اضع رجلي في الشرق ، ومجنون من يظن أن المرء في حياته مخير لا مسير . اما قضية الخلاف بين المانية والاتراك ، فكنا على وشك انهائها لا بلقرور الالمان اجابة الترك الى طلبهم من جهة الاعتراف باستقلال اذربيجان . والححت عليهم انا بناء على طلب الوفد الطاغستاني الذي كان اعتمد عليّ في قضية بلاده ، ان يسوّوا في هذا الاعتراف بين كرجستان ، والطاغستان ، واذربيجان بل يعترفوا ايضاً باستقلال جمهورية اريفان الارمنية

وبينما نحن في هذا اذ دهمنا خبر طلب البلغار المتاركة ، وارسالهم وفداً الى معسكر الحلفاء بسلانيك وكان ذلك مبدأ انهيار الجبهات الحربية الالمانية ، والنمسوية ، والعثمانية ، فطلبت كل من أوستريا ـ هنكاريا ، وتركية ، الهدنة وتبدلت الوزارة بالاستانة .

وقبل تبديل الوزارة بقليل جاءني الى برلين برقية رقية من انور ، بواسطة السفارة العثمانية ، يستحث بها رجوعي الى الاستانة ، فلم ابادر الى السفر مترقبا سير الحوادث الهائل يومئذ ، اذ في تلك الايام كان من تتابع النوازل أعظم مشهد تاريخي يتهيأ للانسان . وكان يتم في الأيام مالا يتم في الحقب ، ولا في القرون . ففي نحو خمسة عشر يوماً رأيت سلطنة أوستريا والمجر التي كانت ٥٥ مليون نسمة ، قد تساقطت حتاتا ، وتفرقت اشتاتا ، وبعد مضيّ عشرين يوما على برقية انور قصدت الاستانة من طريق رومانيا وركبت الباخرة من برايلا فلما وصلت بنا الباخرة الى كوستنجه ، وردها الامر بأن لا تكمل سيرها الى الاستانة ، وأن تنقلب على عقبيها قاصدة أودسا : فشق ذلك عليّ ، ولكن عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . فان عدم تمكني وقتئذ من دخول الاستانة ، انقذني مما وقع فيه أكثر زملائي الذين نفوا وغربوا وشربوا مياه مالطة . فلما وصلنا الى أودسا سألنا عن باخرة تذهب الى الاستانة فقيل لنا ان باخرة المانية اشتراها الاتراك ، اتت من الاستانة بعساكر المانية ، كانت بدأت تعود الى بلادها بحسب شروط الهدنة التي انعقدت في مودوروس فهذه الباخرة ستذهب لانزال العساكر المذكورة في نيقولايف ، وتعود الى دار السعادة . فتحولنا الى تلك الباخرة ، ذهبنا بها الى مرسى نيقولايف ، فنزل العسكر الالماني الذي فيها الى البر ، وبقينا هناك على أن نقلع ثاني يوم الى الاستانة . ففي اليوم التالي ، بينما الباخرة على وشك السفر اذ وقع مني نظرة على رصيف الميناء فبصرت بعمائم بيض ، فأسرعت أرى من هناك ، فاذا بالمرحوم الاستاذ الشيخ صالح الشريف التونسي ، والاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والاستاذ الشيخ خضر حسين التونسي وعبد الحميد بك سعيد المصري ، والدكتور أحمد فؤاد المصري ، وابراهيم بك راتب ، ويوسف بك مصطفى ، وغيرهم من مصريين وتوانسة جملتهم ستة عشر شخصا يقصدون المانية وسويسرة منهم من توارى من وجه الحلفاء الذين كان يمكن أن يقبضوا عليه ، ومنهم من كان يعلل نفسه بعقد صلح على مبادىء ويلسون ، اذ لم تكن ظهرت ماهية ذلك الرجل وقتئذ . وقد علمت من بعضهم أن الحكومة الجديدة في الاستانة كانت تعلم سفرهم ، وترى ذلك أحزم وأحوط ، اذ لو تعرض لهم الحلفاء بحجة أن هذا مصري وذاك تونسي ، ما كان يمكن الحكومة العثمانية في هاتيك الايام الصعبة أن تحميهم كما أن واحداً منهم اسرّ اليّ بأشارة من رأس الحكومة الجديدة بأن ابقى في أوربا تلك المدة ، واجاهد في القضية العربية على موجب برنامج ويلسن فأحلت هذا الواحد على برقية انور الواردة اليّ . فقال لي : وأين أنور ؟ قد انسلوا من الاستانة خفيةً : انور وطلعت وجمال الخ .

فبعد هذا الحديث قررت السفر آيبا الى المانية ، ومنها الى سويسرة ، وجئنا جميعا من طريق الروسية الى برلين . ومن برلين قصدنا سويسرة ، فبقيت فيها من أواخر ١٩١٨ الى اوائل سنة ١٩٢٠ . وعدت الى منيخ فبرلين ، وهناك تلاقيت بأنور عائداً من موسكو . وكان يلح عليّ دائما في الذهاب معه الى موسكو وأنا اعتذر له عن مشقة ذلك عليّ الى أن رضيت

أخيراً بان أذهب على شرط أن لا اقيم فوق جمعتين وكان مرادي مشاهدة حالة الجو بنفسي والفحص عما اذا كان يصح الاعتماد عليهم في المسائل التي نحن فيها أم لا ؟ وعما اذا كان هناك من أمل بأن تستفيد منهم البلاد الشرقية والامم المستضعفة أم لا ؟ فأقمت بموسكو شهراً أجريت فيها بنفسي التحقيقات التي أردتها • وفي أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ فارقتها وودعت أنور وهذا آخر عهدي به ،

يودع بعضنا بعضا ويمشي أواخرنا على هام الاوالي

أما خبر طلعت فانه وصل الى برلين ، وتوارى في مصحة (سانانوريوم) بظاهر تلك العاصمة وكان عقب فرارهم من الاستانة حصل هيجان بين الطلبة الاتراك في برلين ، والتمس هؤلاء من الحكومة الالمانية تسليمهم الى الحكومة العثمانية • واخذ هذا الهياج بين الطلبة يتزايد الى أن صاروا يبحثون عنهم ليضربوهم أو يهينوهم . فاما أنور فلم يكن هناك ، وأما طلعت فأرسل الى الطلبة انه حاضر لمقابلتهم ، وجاء فيها بلغني منهم جماعة ليوبخوه على سوء ادارته وأسباب سقوط الدولة على يده وايدي رفاقه ، وكانوا يحرقون عليه الارم ، فلما شاهدوه وسمعوا الدفاع الذي دافعه عن نفسه والاسباب التي بسطها لهم سكتوا ، وكان سريع الدمعة لا سيما اذا تكلم في المسائل الوطنية غلب عليه البكاء ، فلما أجهش امامهم زال ما كان من حدتهم وانصرفوا عنه . وأما الحكومة الالمانية فانها كانت تعلم ان الحلفاء لابدّ أن يطالبوها بتسليم هؤلاء ، فأعلنتهم جميعا وجوب مفارقة المانية ، ولم تستثن الا طلعت وانور . وكنت لقيت تصادفاً كلا من عزمي ، وبدري في منيخ ، فعلمت منهما أن الحكومة في برلين انذرتهم بأنهم ان لم يبرحوا ارضها سلمتهم الى الحلفاء . وسألت عن انور وطلعت فأجابني عزمي : « بونلر مستثني : أي انهما مستثنيان » ويظهر ان الحكومة الالمانية أبلغت جمالاً وعزمي وبدري والدكتور ناظما والدكتور بهاء الدين شاكر اسباب سخطها عليهم ، وعينت لكل واحد ذنوبه فجمال وعزمي بك غضبت عليهما لاجل المسئلة العربية ، لأن عزمي استشهد بي وقال لي : انت كنت في سورية فهل علمتني مسؤولا بشيء فيما اجراه جمال ؟ قلت لا . ولكنني عاتبته على امور اخرى ليست من هذا الباب وكان مرادهم استعمال وسائل يتمكنون بها من دخول سويسرة ويظهر ان جمالا دخل سويسرة متنكراً ، ولم نشعر بذلك وقتئذ ، بل علمناه من خاطراته التي انتشرت مؤخرا . ثم انه رجع الى المانية بعد ان سكنت الزعازع واقام بمنيخ حيث كان بعض قواد الالمان الذين كانوا بمعيته في سورية هم من ذوي الامر والنهي بمنيخ .

وبقي طلعت متواريا عن الانظار مدة ، ثم بدأ يخرج وذهب الى هولانده ومعه نسيم مازلياح من الاتحاديين اليهود ، الذي كان مبعوثاً عن ازمير وكان يلازم طلعت في غربته ثم تلاقى طلعت مع هويمانس الاشتراكي البلجكي وحصل بينهما حديث طويل ، فسأله عن قضية الارمن ، فاجابه طلعت بالواقع ولم يجتهد ان يتنصل مما فعل . فقال له هويمانس Huymans : « كان يجب ان تكتب هذه القصة كلها تنشرها لتنير الرأى العام الاوربي بها لانه لا يعرفها كما تقول » فوقع في نفس طلعت ان يحرر خاطراته فحررها من الاول الى الآخر بالتركية ولم يتهيب في الامور التي قصها ، ولا ستر حتى على اخوانه . ونال فيها من انور ومن جمال في بعض المواضيع . ثم طبع الكتاب . وقيل أن وزّعه كان انور قدم الى برلين فبلغه الامر ، فأخذ عليه

ما كتب . فأجابه طلعت انه هو لم يكتب هاتيك العبارات التي فيها نيل من أنور ، وانما اضافها احد أصحابه ، وطبع الكتاب بدون أن يقف هو عليه ، ومع هذا فانه سيجمع نسخ الكتاب ويحرقها. وجمعها طلعت يومئذ ولم يوزعها . ولكن انور لم يقبل منه ذلك التعليل ووقعت الوحشة بينهما باطنا ، واسرّ اليّ أنور بعض امور عن طلعت علمت منها غيظه منه ، وكنت أهوّن الامر عليه ، ولكن لم تنقطع بينهما الزيارات ، وبقي طلعت يجالس انور ويجالسه . وكان طلعت يراسل مصطفى كمالا ويؤازر سياسته من بعيد ، بخلاف انور . وورده من مصطفى كمال كتاب قبل قتله بقليل يفوض اليه أمر السياسة في اوربا ويؤكد له ثقته فيه . ولم يقصد طلعت بدون حركة في برلين ، فاقام في شارع هاردنبرغ نمرة ٤ و ٥ تحت اسم « ساعي بك » وكان يختلف اليه كثير من أصحابه الالمان ومن رجال السياسة من غيرهم . وكان يأتي احيانا الى سويسرة والى رومة ، ويقابل فيهما من بينه وبينهم موعد . واسس محلاً خاصا أشبه بدار قراءة كان يختلف اليه هو وأصحابه الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر والدكتور رسوخي وغيرهم للمذاكرة والمطالعة ، وكنا نذهب الى هناك أنا والاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والمرحوم محمد الباشهانبه التونسي ، الذي فقدناه احوج ما كنا اليه ، اذ كان من أفراد شبان العالم الاسلامي علماً وذكاء ، وعلو همة ، وطهارة أخلاق ، وكنا قبل ذلك بسنة فقدنا أخاه علي الباشهانبه ، الذي كان رئيس دائرة التشكيلات في نظارة الحربية ، وكان على طراز أخيه في كل مزية . فكان هذان الصنوان من مفاخر تونس ، وماتا في الغربة ، وهما يندبان وطنهما كما ان وطنهما يندبهما .

وكان طلعت قد مال بادىء ذي بدء الى البولشفيك ، وحصلت له صلة مع « رادك » أحد زعمائهم وتفاءل خيراً بالعمل معهم حتى حدثته نفسه أن يذهب الى موسكو . ولكن قبل قتله بقليل رأيته زاهداً في مودتهم وصرح لي قائلا : « ان هؤلاء نقضوا كل ما كانوا وعدوا به المسلمين من الاستقلال والحرية ، واستأنفوا سياسة بلادهم القومية ، ألا ترى كيف فعلوا باذربيجان وضموها ثانية الى الروسية ، بعد أن كانوا اعترفوا باستقلالها . وبناء على اقتراح طلعت تأسس في برلين النادي الشرقي ليكون مجمعاً للشرقيين قاطبة ، بدون تفريق بين الاجناس والاديان ، وعقد طلعت مجلس مؤسسين في البداية واقترح أن يكون هذا العاجز رئيس المؤسسين ؛ ووافقه الجميع .

ثم لما انتظم عقد النادي والتأمت الجمعية العمومية لانتخاب مجلس الادارة بالاقتراع السري ، انتخبت رئيسا باتفاق الآراء ، وكان طلعت ممن سعى في ذلك . ثم اجتمعنا في النادي للمذاكرة في أمر بناء المقبرة الاسلامية ببرلين ، فانتخب الجمهور لجنة وأول من اقترح أن اكون أنا رئيسها كما حصل هو طلعت . وكان لا يصدر عن رأي الا شاورني فيه أثناء مقامنا بعاصمة الالمان .

وكان يختلف الى صاحب بولوني كان ابوه ياوراً اساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان ، واتاح له الزمن المجيء الى سورية ولبنان وتعرف بآل أرسلان منذ اكثر من ٤٥ سنة . فلما شاهدني ببرلين وهو مهاجر اليها من الروسية ، وأنا مهاجر اليها من الشرق ، صار يتردد علي هو وابنه ؛ ثم توفي الوالد وبقي الولد على العهد ، وكان بين هذا وبين بعض رجال البعثة البريطانية ببرلين صحبة وصلة ، فشرع يرغبني في الملاقاة مع بعضهم ويبين لي ما في ذلك من الفوائد لمصلحة بلادي . فكنت اجاوبه : « لا أرى في ذلك مصلحة ولا أعتقد انهم يريدون من مواجهتي سوى الاطلاع

على الاخبار ، وبقيت متأبيا الاجتماع معهم مدة ، والبولوني ينباديني ويراوحني . الى أن شاورت طلعت فاشار عليّ بان أقبل الملاقاة معهم انرى ماذا يريدون ، ولعل هناك خيراً . فلما عاد البولوني الي اجبته الى الملاقاة ، وذلك في الفندق « كونتيننتال » الذي يسكنه البولوني نفسه ، وحصلت المواجهة وطالت نحو ساعتين . وقد جرى البحث في المسئلتين العربية والتركية ، فابديت افكاري في كل منهما ، وصرحت بما يخالج ضميري من التعجب لسياسة بريطانيا العظمى الموصوفة عند الخلق بسداد الآراء ، كيف لم ترنا شيئاً بعد الحرب العامة من هذا السداد ، وكيف انها تخدم بعكس ماتنوي السياسة البولشيفيكية في الشرق . وليس هنا محل سرد مادار بيننا وبينهم من المناقشات ، اذ ذلك يطول ولكن هناك نقطة لابد من تعيينها : كان الانكليز يريدون أن لا يرجعوا الى الوراء في مسئلة معاهدة سيفر التي كانت بنت فكر لويد جورج رئيس الوزارة ، ولكنهم كانوا بدأوا يدركون صعوبة تنفيذها ، فكانوا يحاولون اقناع الترك بقبول المعاهدة مبدأ ثم تعديل مايلزم تعديله منها فيما بعد ، لكن على شكل يقال له تعديل في كيفية التطبيق. فاخذوا يبينون لي استحالة النكول عن معاهدة سيفر ، واصرار انكلترة عليها مع قبول تعديلات كثيرة فيما لو سلمت تركية مبدأ بها . فاجبتهم انني لاأرى امكاناً لامضاء الترك هذه المعاهدة ، اذ لم تبق لهم من أدوات الاستقلال شيئاً وكان يمكن الدول أن تقول للاتراك : ان كنتم لاتمتثلون لهذه المعاهدة فاننا نسلب من يدكم البقية الباقية فعليكم أن تختاروا أهون الشرين . هذا فيما لو كان ثمة بقية باقية ، وكانوا يخافون بعد هذه المعاهدة على شيء تسلبونهم اياه . فاما وقد جردتهم هذه المعاهدة من كل أسباب الملك فلا تقدرون بعد الآن أن تهددوهم ولا أن تنذروهم بخطر أعظم. اذ يكون جوابهم : لن نفقد بالمقاومة شيئاً زيادة على مانفقده بقبول هذه المعاهدة ، لكن بالمقاومة نحفظ على الاقل شرفنا . فكان جواب الانكليز لي « كيف يقال هذا وقد تركنا لهم الاستانة . وكان ممكناً اخراجهم منها » فقلت : « بموجب هذه المعاهدة لايبقى للاتراك حكم حقيقيّ لافي الاستانة ولافي غيرها » . ثم قلت لهم : « انكم تناقشونني في أمر معاهدة سيفر فانا أقول لكم بصراحة تامة انه لما دار البحث على المسئلة العربية ، جاوبتكم جواب رجل ذي علاقة وصلاحية لانني عربي وكثير من العرب يوافقون على ما أقول ، وقد كنت من نواب الامة العربية في الندوة العثمانية . فاما الجواب على المسئلة التركية فمهما كان من ارتباطي مع هؤلاء الجماعة سواء برابطة الاسلام ، أو بالرابطة الشرقية ، فاقول لكم ليس لي أن ابدي فيها رأياً . والرأي فيها انما هو للاتراك انفسهم » . قالوا : « وهل يوجد من نقدر أن نتذاكر معه من الاتراك ذوي الصلاحية للكلام » . قلت : « وهل تريدون ذا صلاحية أكثر من طلعت » ؟ وقد كانوا هم يعرفون انه في برلين ، ويعلمون علاقة احدنا بالآخر . ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك تجاهل العارف « فقالوا : وهل يمكنك أن تجعل بيننا وبينه ملاقاة ؟ » قلت : « ينبغي أن أسأله اولا ثم اجاوبكم » . وبعد ايام دعوتهم ودعوت طلعت الى الغداء عندي ، ودار بحث طويل وسألوا طلعت في نهاية الحديث هل اذا اعيد الى الصدارة العظمى يقدر ان ينفذ معاهدة سيفر ؟ فاجاب : « ان بقي الكلام على معاهدة سيفر هذه فلا انا ولا غيري يقدر على انفاذها . وان كان يمكن تغييرها فلا تبقى حاجة الى عودتي الى الصدارة لاجل تقرير الصلح » نعم وعدهم طلعت انه اذا رضيت انكلترة بتغيير المعاهدة يذهب هو الى انقره ويجتهد في اقناع

الكماليين بالصلح . وأتذكر انه شاورني بعد انصراف الجماعة قائلا . « هل تذهب معي الى انقره فيما لو رضي الانكليز بتغيير المعاهدة ، وتساعدني في اقناع الحكومة الملية بالصلح ؟ » قلت له : « اذهب معك بشرط أن يعطينا الانكليز ورقة رسمية بأنهم أصبحوا راضين بتبديل معاهدة سيفر ، وانهم يدعون تركية الملية الى الصلح ، والا لا يجوز أن نذهب بناء على مجرد القول، لاننا نعلم أن رجال الدولة يفاوضون ويفوضون ثم لاقل سبب يتنصلون مما فوضوا به ، وينكرون ما فعلوه . فليكن بيدنا وثيقة نتوكأ عليها في انقرة فقال « هذا لا ريب فيه » . ويظهر أن الانكليز وقتئذ لم يكونوا قطعوا أملهم من تنفيذ معاهدة سيفر ، وكانوا يظنون أن اليونانيين غالبون للترك لا محالة ، فاويد جورج الذي كان يرى النكوص عن معاهدة سيفر مسقطة له ، كان لا يزال منتظراً نتيجة الحرب الاناضولية فلذلك كتب الانكليز الذين واجهونا كل ما دار بيننا وبينهم الى لندن التي كان منها صدور الامر بمقابلتنا ، ولكن لم يردهم جواب صريح بقبول التعديل لمعاهدة سيفر أما نحن فارسلنا الى مصطفى كمال نخبره بما وقع معنا من المفاوضة . وبقي المأمور الانكليزي يجتهد بابقاء الحبل معنا موصولا ، فتوالت الولائم وتبودلت الزيارات . وارتاح طلعت كثيراً الى هذه العلاقة ، واغتبط بهذه المفارقة . وصادف أثناء ذلك احدى جيئات أنور الى برلين ، فلم يسمعني ولم يسع طلعت الاوقوفه على ما جرى بيننا وبين البعثة البريطانية . فلم يتلق أنور ذلك بالارتياح وقال : « كل هذه المفاوضات خداع في خداع » . واظهر أصراره على العمل بالاتفاق مع الروس . ولما رجع الى موسكو قال للبلشفيك ان طلعت اتصل بالانكليز وعول على صحبتهم . وفعلا كنت أرى طلعت في تلك المدة مقاما تماما عن فكرة البلشفة ، يراها مضرة بالترك والاسلام كضرر الاستعمار لا سيما بعد أن ثبت له أن الجرمانوا فاستردوا الحرية التي كانوا أعطوها للامم التي أعلنت استقلالها عن الروسية . ولم يقنعوا بسلب الحرية السياسية حتى نهبوا معها الاموال وقتلوا الرجال وأهلكوا الحرث والنسل . وكان لطلعت معرفة بمجلس نواب انكلترة محب لتركية منذ القديم يناضل عنها كلما لاحت له فرصة . فلما فرّ طلعت الى المانية بعد الكسرة أرسل الى هذا الصاحب يلتمس ملاقاته في المانية أو هولانده ، املا بحمله على السعي في مصالحة تركية . فاجابه الانكليزي « ان التيار الآن على تركية شديد ، فلا اقدر أن اصنع لكم شيئا ، ولكن بمجرد ما احس استعداد القوم لقبول الكلام ، لا اتأخر عن الدفاع عنكم » فلما رأى طلعت انه قد حصلت بينه وبين الانكليز هذه الصلة كاشف المأمور الانكليزي الذي كان يختلف الينا ان يسبر له غور هذه المسئلة ويعرف له ، هل يمكنه ان يتلاقى بذلك « السير الانكليزي » صاحبه وكان هذا الكلام امامي ، لانه من الاول الى الآخر ما جرى منهم اليه ولا منه اليهم حديث الا كنت حاضره ، والقسيم المشارك لطلعت في الرأي فيه . فأبرق الانكليزي الى نظارة الخارجية بما وقع فاستدعوا ذلك المبعوث واوعزوا اليه بأن يجيز المانش ويقابل طلعت في جهات الرين ، وضربوا موعداً للمقابلة . وابرقوا بالجواب الى الرجل الذي كان الكلام معه في برلين فجاء هذا اليّ وطلب مني ابلاغ مآل البرقية الى طلعت باشا حالا ، اذا كان لا يريد ان يخلف الميعاد . وكان طلعت ذهب الى منيخ لتبديل الهواء ، وابقى عندي عنوانه موصيا اذا جد نبأ مهمّ ان ابرق اليه بالاوبة . فأبرقت اليه بأن صاحبه الانكليزي الذي يبغي هو لقاءه جاء الى مدينة « هام » في الرين ينتظر مجيئه . فخف طلعت الى برلين وجاء رأساً اليّ وذهبنا الى

الانكليزي الذي كان هو الوسيط فكرر له مآل البرقية التي وردته وذهب طلعت الى هام ، وتلاق مع صاحبه المبعوث وعقدا جلستين طويلتين وتفارقا ، وعاد طلعت الى برلين فأعاد عليّ كل ماجرى بينهما من المذاكرات . وكان من جملة كلام المبعوث الانكليزي قوله هذا : انني أنا أشهد ان حكومتي تابعت نحو تركية سياسة خطأ قبل الحرب ، وأثناء الحرب ، وبعد الحرب ؛ وان سياسة انكلترة العوجاء نحو تركية في السنين الاخيرة هي التي ساقت الاتراك رغماً الى محالفة الالمان . ولقد بينت لقومي مراراً خطل هذه السياسة فلم يسمع وياللاسف لقولي ، لأن الاكثرية هي ضد تركية . والآن لست آتياً من قبل حكومتي ، ولا أنا منها ، ولكنني أقدر أن أبلغها مطالبكم ، وان اعضدها بقدر استطاعتي . ولا لزوم لايراد ما نته اليه طلعت لانه معروف انه كان يطلب الغاء معاهدة سيفر ، واعادة استقلال تركية مع تراقية وازمير ، وكل بلاد اكثرية أهلها ترك ، وينزل عن كل حق للدولة العثمانية في مصر وبلاد العرب ، وبعد ذلك تمشي تركية مع انكلترة بحسب مبادىء الصداقة القديمة ، وان لزم عقد محالفة فتركية متهيئة لذلك . ووقعت هذه المقابلة في أواخر فبراير (شباط) سنة ١٩٢١ . وفي ٩ مارس عقد الطلبة المصريون احتفالا كبيراً بتذكار الثورة المصرية ، وكان طلعت فيه ، وخطبت انا خطبة هنأني عليها ولم اشاهده بعدها .

اذ في ١٥ مارس (آذار) نحو الظهيرة تلفن الي أحد اصحابي من رؤساء الدوائر بنظارة الخارجية في برلين قائلاً « ان رجلا ارمنيا قتل الصدر الاعظم الاسبق نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار . وما مضى دقيقة حتى دخل عليّ الشيخ عبد الرحمن سيف الايراني صاحب مجلة « آزادي شرق » ومعه اثنان افغانيان ، ليخبراني بالحادثة ، ثم وصل الشيخ عبد العزيز جاويش ، وذهبنا الى محل الفقيد معاً . وكان لايبعد عن منزلي اكثر من عشر دقائق ، كما ان القتل وقع في نفس الشارع الذي كان يسكن فيه طلعت غير بعيد عن بيته ، اذ كان هو يسكن في نمرة ٤ الى ٥ والقتل حصل امام نمرة ١٧ . وكان لذلك وقع عظيم ببرلين ، فبعض الجرائد المنسوبة للحزب الامبراطوري ندبت طلعت ، وتأسفت عليه وذكرت مزاياه ، وانه كان مع انور السبب في محالفة تركية لالمانية . وأما الجرائد الديموقراطية واليهودية فغمزته ، وعرضت بمسئلة الارمن ونسيت صداقته لالمانية . واقيم له مأتم حافل حضره كثير من الالمان مع الجالية الشرقية ، واودعت جثته محلاً في مقبرة المانية الى أن أكملنا المسجد والابنية التي انشأناها في الجبانة الاسلامية ، تحت نظارة هذا العاجز وبمساعي امام السفارة العثمانية حافظ شكري افندي . فنقلت التجاليد الى مستودع الاجساد الذي بنيناه فيها لاجل ايداع الاجساد التي يراد نقلها الى وطنها الاصلي . فهي هناك مع تجاليد جمال عزمي بك والدكتور بهاء الدين شاكر بك ، اللذين اغتالهما الارمن بعد واقعة طلعت بعدة أشهر عفا الله عنهم جميعاً . أماقتل هؤلاء كلهم فكان كله غيلةً وخلسة من الوراء بحيث لم يكونوا يشعرون الا وهم صرعى . وقد كان طلعت في البدء بلغه ترصد الارمن له ، فكان يداري ويرامق ولا يخرج وحده ، ولكن مامضت اشهر حتى استرسل واستهتر وأخذ يخرج وحده في النهار الواحد مرتين وثلاثاً . فلما بلغ الارمن ذلك ارسلوا اليه شاباً مصاباً بالسل موتوراً فيما يقال بقتل أهله اسمه تاليريان ، فقالوا له انت لاتعيش اكثر من سنة ، فاذا كان لابد من أن تفارق الحياة قريباً فالاحسن أن

لافتارقها قبل أن تقتل طلعت هذا الذي قتل امة بأسرها من الارمن . وقيل انهم تعهدوا له اذا قتل طلعت بتخليصه من القتل بل من الحبس ، وذلك بواسطة احدى الدول الكبرى ذات الكلمة العليا . ومن المحقق انهم سعوا في ذلك لدى تلك الدولة العظمى ، كما انه يقال كثيراً ان سفير هاتيك الدولة سعى بمزيد نفوذه في برلين بتخلية سبيل القاتل المذكور ، وأخلي سبيله لشهرين من حبسه . فنقم الترك ذلك على الالمان الى هذا اليوم ، وعندما طلب الحلفاء في مؤتمر لوزان بهذه الايام تصفية أملاك الالمان التي في تركية لحساب الحلفاء أجابوهم حالا الى طلبهم . ولما عوتبوا على ذلك من جهة الالمان اجابوا : « اننا لم ننس اطلاق سبيل تاليريان قاتل طلعت لشهرين من حبسه . ويكون من باب الفضول أن نقول ان طلعت كان عصاميا ، فكل أحد يعلم انه رقي في مدة عشر سنوات أو أقل من مأمورية تلغراف سلانيك ، بمعاش الف وخمسمائة قرش في الشهر ، الى الصدارة العظمى . ولا جرم ان سرعة هذا الترقي كانت بسبب الانقلاب واعلان الدستور ، ونفوذ جمعية الاتحاد والترقي التي كانت هي سبب الانقلاب ، وكان طلعت من اعضائها . ولكن لو لم يكن محمد طلعت رجلا خارق العادة في ذكائه ، ومضائه ، وحزمه ، وعزمه ، لما أصبح هو رئيس جمعية الاتحاد والترقي بلا منازع ، فقد تصرفت هذه الجمعية بزمام السلطنة العثمانية عشر سنوات تامة ، وتصرف طلعت بزمام هذه الجمعية جميع هذه المدة . وكان هو دائماً روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلي ، ولولم يكن كل الاحيان رئيسها الرسمي . وكان هو المرجع الاول والاخير للدولة من قبل أن يتولى الصدارة ، بل لحظت ان الصدارة لم تزده نفوذاً ، بل بالعكس أظهرت شيئاً من ضعفه ، وخطأت في نفسي رأيه بقبولها . واظن ان الذين حفزوه الى ذلك همرفاقه مدحت شكري ، والدكتور ناظم ، والبهاءشاكر ، وضيا كوك الب ، والدكتور رسوخي هؤلاء الذين كانوا اثناء الحرب عمار المركز العمومي للجمعية . وبالجملة فلو كان في جميع اعضاء هذه الجمعية من يضارع طلعت أو يقادره ، مع كثرة عددهم وطموح الكثيرين منهم الى المعالي ، لما انفرد هو بالرئاسة على جميعهم ، وقد قلت لما مات ان هذه الجمعية ماتت بموته ، والحق انهم لم يجدوا من بعده رئيساً يتفقون عليه ويضم شملهم . ولم يكن طلعت ممن حصلوا العلم في المكاتب العالية ، بل كان جميع عرفانه شدواً من هنا ومن هناك ، والتقاطاً من عشرائه الذين كان منهم عدة نفر من أتم الناس تحصيلا ، ولكن كان طلعت يجبر ما نقصه من العلم المسموع بالعلم المطبوع ، ويسد جورة جهله ، بغزارة فهمه ، وسرعة لحظه . وهناك مزية اخرى ضمنت له حفظ تلك الرئاسة على اقرانه وهي معرفته أن يعصم نفسه من المطامع الدنيئة ، والمطاعم الوبيئة ، وعدم استخدامه شيئا من نفوذه الطائل ، في افادة مال ، أو جمع ثروة ، بحيث سطع له من حالة فقره برهان دائم على نزاهته ، ومكن له ذلك دعائم رئاسته ، بينما كثيرون من زملائه قد غمسوا أصابعهم في أدهان المنافع ، منهم من اشتط ومنهم من اقتصر . وكان يقول : « أفلا يكفي كون هذه الامة تحملتني على جهلي . أفأحملها ايضاً على سرقتي واغلالي ؟ » نعم تولى طلعت امور الدولة العثمانية عشر سنوات ، لم تشبه فيها شائبة اغلال ولا اسلال ، وستر كثيراً من عيوبه وكفر عن كثير من أغلاطه ، بعفة نفسه ، ونزاهة طبعه . ولما وصل الى المانية سنة ١٩١٨ كان في جيبه ٥٠ الف مارك فلما نفدت أرسل اليه أحد أصحابه ممن اثرى بسبب انتسابه الى طلعت مبلغ ٢٠٠ الف مارك ، كان ينفق منها ، فلما مات كان باقياً منها شيء

يسير . ووجدت عنده بعض علب ذهبية وقطع نفيسة ، منها ما أنعم عليه به السلطان ، ومنها تذكارات من بعض اخوانه ، كان قد ادخرها للبيع فيما لو اعوزته أسباب المعيشة . أما الخاطرات طلعت فقد كانت احدى شركات الطبع بالمانيا تقدمت لشرائها بعد موته ، حتى تنشرها بالتركية، وتنقلها الى سائر اللغات ، ولكن أرملة طلعت لم تبت الى اليوم في أمر هذه الخاطرات شيئاً .

أما جمال فقد تقدم شيء من ذكره وكيف كانت حركته بعد الحرب العامة ، وكيف ذهب الى افغانستان وحظي عند ملك الافغان بمنزلة سامية ، وذلك انه تولى تنظيم الجيش الافغاني ، واستجاد لذلك ضباطاً من الجيش العثماني ، وأوامح في ترتيب الجيش وتدريبه ووزعه على الانماط العصرية الحديثة ، بحيث كان عند ظن الملك فيه . وبعد أن أقام بكابول نحو سنة جاء الى اوربا لمشاهدة عائلته التي كان تركها في مونيخ وقضاء بعض المهام المتعلقة بدولة افغانستان ، وكان قد انتدب مايسنر باشا الالماني ، رئيس مهندسي السكة الحجازية سابقاً ، للذهاب الى افغانستان ، ومعه رهط من المهندسين والاخصائيين ، لفحص البلاد فحصاً مدققاً وعمل برامج للطرق الحديدية ، والاعمال الكهربائية ، والمشروعات الزراعية ، وعمليات استخراج المعادن وغير ذلك وقد لبي مايسنر باشا الطلب ، وانتدب لكل فن من أربابه من يوثق بعلمه وعمله . وليس أسهل من وجود هذه الطبقات في المانية ، لاسيما بعد الحرب العامة التي قلت فيها الاعمال وتوفر العمال . ولكن ابت الحكومة الالمانية ان تنفق على هذه البعثة من مالها أو ترسلها من قبلها — ربما كان ذلك خوفاً من انكلترة ، التي تحذر جداً من تثقيف افغانستان على الطرق العصرية — فذهب جمال الى مونيخ واتخذ واسطة للدخول الى فرنسا . وسمحوا له بالذهاب الى باريز ، وقيل انه قابل المسيو بوانكاره وعرض المشروع المذكور على الحكومة الفرنسوية ، بشرط أن ترضى هي بالانفاق على البعثة الفنية من مالها ، ويكون للفرنسيس فيما بعد حق الرجحان على غيرهم في العمل . فرضيت الحكومة الفرنسوية باقتراح جمال ، كما اخبرني هو نفسه حيث لقيته ببرلين بعد ايابه من فرنسا ، وان كنت لم اسمع الى هذا اليوم بأن بعثة فرنسية ذهبت الى كابول لهذا الغرض ، بل سمعت بذهاب بعثة فنية ايطالية . ثم ان جمال عاد قاصداً افغانستان من طريق موسكو ، وكان ذلك بعد أن تولى انور كبر الثورة في تركستان على الروس ، فلم يتوقف جمال عن المرور من الروسية اتكالا على كونه من رجال الحكومة الافغانية، لايقدر الروس أن يمسوه بسوء . ولكن السوفييت وضعوه تحت المراقبة كما كانوا وضعوا الدكتور ناظماً وخليلا عم انور . فتمكن جمال بذكائه أن يقنعهم باستيائه من حركة انور ، وأعلن ذلك في الجرائد وطعن في سياسة انور ثم اتفق معهم على أن يذهب هو الى انقره ، ويتكلم مع الحكومة الملية في عمل قرار يمنع انور من الاستمرار على عداء الروسية . فذهب جمال قاصداً الاناضول ، وهبط أولا تفليس عاصمة كرجستان وأخذ يجول في الشوارع مطمئناً ظاناً انه باستصحابه مرافقين يأمن شر الغيلة فكان الارمن هيأوا له من يغتاله هو وصاحبيه. وجاء خبر قتله الى اوربا في نحو ٢٥ يوليو (تموز) عام ١٩٢٢ على أن قتله وقع في ١٨ أو ١٩ من ذلك الشهر . واتذكر اننا كنا يومئذ في لندن ، نحتج على القرار الذي اصدره مجلس عصبة الأمم بتأييد منطوق المعاهدة السرية التي بين انكلترة وفرنسا ، بشأن سورية وفلسطين تلك المعاهدة التي اعطوها اسم « انتداب » ، فدخل جنرال انكليزي علينا ونحن في فندق

سبيل ، وهو فرح مستبشر قائلا : « قد قتل جمال باشا ، وعسى أن يلحق به انور » فلم أرد أن أعرفه بنفسي لاعلم ماذا يقول ، وانما علمت منه ومن غيره من الانكليز ، ومن لهجة الجرائد انه مع كل بغضاء الانكليز للروس ، وعلى الخصوص للبولشفيك ، كانوا في المصارعة التي وقعت بين انور وموسكو ، يفضلون انتصار البولشفيك على انتصار انور . هذه هي الحقيقة . وبعبارة اخرى يرون في انكلترة الخطر الاسلامي أعظم من الخطر الباشفي ، فيجب على المسلمين والشرقيين أن لا يتجاهلوا هذه الحقيقة ، لأن لها معنى كبيراً . فيكون بين موت جمال وموت انور ، نحو جمعتين فقط ، وبينهما و بين طلعت نحو سنة وأربعة أشهر الى سنة وخمسة أشهر . وهكذا هؤلاء الثلاثة الذين تصرفوا بازمة الدولة العثمانية طوال الحرب العامة ، وكان لهم دور في التاريخ العام كله ، اصبحوا في مدة سنة واشهر كهشيم المحتظر . والبقاء لله وحده . واختلفت الروايات في كيفية غيلة جمال ، فقيل ان البلاشفة وان كانوا اذنوا له بالذهاب الى الاناضول فقد كانوا غير واثقين به ، ويخافون أن ينقلب عليهم كما انقلب انور ، أو أن يقاوم سياستهم في افغانستان بعد رجوعه اليها فاذنوا له بالمسير الى انقرة من جهة ، ودبروا له مكيدة القتل من جهة أخرى بواسطة الارمن الذين لهم علاقة بهم ، وهكذا استراحوا من غوائله . وقيل بل جمعيات الارمن التي قتلت طلعت وجمال عزمي والبهاء شاكراً والامير سعيد حليما الصدر الاعظم الاسبق ، هي التي قتلته . وترى البلاشفة يتنصلون كثيراً من تهمة قتله قائلين : « لماذا نسعى في قتل رجل كان يسعى في مصالحنا » ؟ وقد قبضوا على اناس كثيرين من المتهمين بقتل جمال ، ولكنني ماسمعت انه قتل منهم أحد الى اليوم . وكان جمال ذكي الفؤاد ، متوقد الذهن ، سريع الفهم ، ماضي العزم كالسيف الصارم ، مهاب الطلعة ، لائقاً بأن يكون قائداً عسكرياً كبيراً لمضائه ، وسداد تدابيره . ولكنه كان سريع الانفعال جداً ، متكهرب الاعصاب ، شديد الخنزوانة ، مغرماً بالمجد ، مولعاً باكتساب دوي الذكر ، متنفجاً ، متغطرساً ، جباراً ، مفتوناً بأن يوصف بالجبروت ، محباً للانتقام والبطش ، جنت الدولة جناية كبرى على نفسها وعلى العرب والترك معاً بأن سلمته زمام سورية مدة الحرب تسليما مطلقاً ، مع ما في نحيزته من الاستعداد للاستبداد ، والنشوة بخمرة النهي والامر ، فقضى في شهواته واهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر الى شيء من العواقب . وكان بعض المتملقين له وبعض المتهورين في السياسة التركية الطورانية ، يزينون له اعماله ، ويثيرون من نخوته ، بقولهم له ان الآمال انما هي منعقدة به لابغيره . فكانت تزيده هذه الاماديح طغياناً وجبروتاً ، ولم يكن يشك مع هذا في كون الحرب ستنتهي ان لم يكن بظفر المانية وتركية ، فبصلح يضمن لكل فريق مكانه ولم يكن من غروره يعتقد اصلا بأن بلاد العرب يمكن أن تخرج من يد تركية . فكان ذلك من الاسباب التي حملته على الجور ، والعسف ، وارهاف الحد ، وارهاق الخلق ، ولما خرج الشريف حسين على الدولة بقي مدة ايام وهو لا يصدق الخبر ويظن ان أولاده انما خرجوا من المدينة ، وشنوا الغارة على سكة الحديد ، بدون علمه ، وانه متى بلغ الشريف الخبر يردهم الى الطاعة . وكان يعلل ذلك بكون الشريف لا يجسر على هذا الامر وان رهبة الشريف من جمال تمنعه منه ؛ والحاصل انه كان مغروراً بنفسه ، وقد زاده تمام حريته في العمل وانطلاق يده بما شاء غروراً وسكراً ، ايام كان في سورية . فخرج من دائرة المعقول في كثير من

الامور . ووصل الى أن صار يجمع أعيان بلدة بلدة ، ويحصى عددهم ، وينفي منهم ١٠ في المائة آخذاً اياهم بالقرعة ؛ أو ترتفع الاوراق الى قيمة الذهب . أما كون سياسته هذه هي التى احدثت المسئلة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبارالعرب وادبائهم . لم يكن ثار الشريف على الدولة . ولا انشق العرب عن الترك ، فليس بصحيح . اذ علاقة الشريف بالانكليز وتحفزه للقيام على الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان الى أيام السلطان عبد الحميد نفسه ، الذي كان يعلم ذلك . ولما اخذ الاتحاديون على يد السلطان واجبروه على نصب الشريف حسين اميراً على مكة ، مكان الشريف علي . قال لهم : « انى ابرأ من تبعة كل ماسيعمله هذا الرجل لانى اعرف حقيقته » . وقد كانت مداخلات الشريف لانكلترة في أمر الثورة من قبل الحرب العامة وسنة ١٩١٢ توجه أحد الامراء المصريين الى لندرة مفوضاً اليه أن يسعى فى اتفاق بين الانكليز والعرب على أن انكلترة تقدم للعرب السلاح ، وهم ينتقضون على الدولة ، ويكونون حلفاء لانكلترة فى المستقبل . ولما عرض ذلك الامير المصري — وهو حي يرزق الآن — هذا الاقتراح على الانكليز تلكأت نظارة الخارجية بلندرة عن قبوله ؛ ولم تكتم السبب في رفضها هذا المشروع وهو : « ان انكلترة تريد هى الاستيلاء على بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطي جزيرة العرب سلاحاً . وبالفعل كان الانكليز منذ سنين قد بدأوا يمنعون تجارهم من مبيع السلاح الى عرب اليمن ، وعرب عمان . وعرب العراق ، بل كانوا شرعوا يبثون اناساً يشترون البنادق التي في أيديهم بزيادة على ماتساوي ، وكل هذا حتى اذا أرادت انكلترة احتلال تلك الاقطار ، وجدت أهلها عزلا مقلمي الاظفار . ثم ان الشريف راجع انكلترة في مشروع التحالف العربي الانكليزي لاول الحرب . فلم يجيبوا نداءه أملا باستغنائهم عنه فلما تمطت الحرب عليهم بصابها ، وناءت بكلكلها ، شعر الانكليز بالاحتياج الى العرب ، فعادوا الى قبول اقتراح الشريف وعلى كل حال فليست قسوة جمال في سورية وقتله من قتل هما سبب ثورة الشريف . وعلى فرض ان جمالا لم يفعل مافعله ، فكانت الثورة واقعة ؛ وكان ماظهر من نفور الاهالي من الترك ، وشماتة كثير من العرب بالترك يوم دارت الدائرة على المانية وتركية ، لا بل فرح كثيرين من العرب ، لاسيما فريق الشبان منهم ، بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية ، النصارى الكاثوليك بانتصار فرنسا ، والنصارى الارثوذكس بانتصار انكلترة ، والمسلمين ايضاً من ذلك الحزب الممالىء للشريف بظفر الحلف العربي الانكليزي . كله هذا كان وقع كما وقع سواء قتل جمال من قتلهم أو لم يقتلهم ، ينبغي لنا أن نعترف بذلك ان كنا نتوخى حقيقة وتاريخاً ، ولكن خطأ جمال في رأيه وجنايته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية : —

أولا ان فريقا من الذين قتلهم ابرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم فى الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقي بل السلطنة العثمانية .

ثانياً ان فريقا آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ، ولا قرائن قطعية تذهب في جزائهم الى درجة القتل . وقد برّر جمال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بأنه من باب « القتل السياسي » مع أنه كان الاولى بهؤلاء أن يتركوا الى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس أو نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثا على فرض غير الواقع ، وهو أن هؤلاء مجرمون اعداء للدولة، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأي ، فتح هـذه المسألة أثناء الحرب ومجازاة اناس قد عفي عنهم ونكء القروح التي كانت قد سكنت نوعا ، واثارة عواطف العرب وحفائظهم واظهار كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سنحت لهم للبطش ، وتعزيز النزعة الاجنبية بهذه السياسة .

رابعاً ان الالوف الذين نفاهم الى الاناضول مع عيالهم وخرب بيوتهم ، وأمات كثيرين منهم في الغربة لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة ، فضلا عن أن يكونوا خائنين للدولة فكان تغريبهم عن أوطانهم مجرد عذاب وقهر ، بدون أدنى فائدة ، سوى النفور مع تكاليف الدولة عليهم ١٥٠ الف ليرة شهريا فكان خطأ جمال انه سلح أعداء السلطنة العثمانية وأنصار الشقاق بين العرب والترك ، ورواد السياسة الاجنبية الكثيرين في الشرق ، بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الاتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أعمال جمال وموبقاته فكان الذين يتذكرون فضل الدولة العثمانية اليوم « وبضدها تتبين الاشياء » لا يجدون الاجوبة التي يجاوبها الآن سماة السيطرة الاجنبية ، المديونون بهذه الاسلحة المعنوية لأحد جمال وحده . فجمال خدم الحلفاء في بلاد العرب اثناء الحرب كما أن الحلفاء خدموا الاتراك في بلاد العرب بعد الحرب ....

هذا هو أهم خطأ جمال وجنايته على هاتين الامتين . ولقد خصصنا لهذه المسئلة كتابا عن الحرب العامة نشرنا منه بعض مذكرات مؤخراً تناقلتها الجرائد ، فلا نجدلزوما أن نزيد هنا من هـذا الموضوع على ما ذكرناه . وقد نشر جمال أثناء وجوده بسورية كتابا بالتركي والعربي شرح فيه الاسباب التي دعته الى محاكمة الذين قبض عليهم ، وقتل من قتل منهم ، ونفى من نفى واستظهر على حقية ذلك بالوثائق والشهادات مما رآه كافياً للقصاص ، وان كان من يقرأ الكتاب لا يرى كل تلك البراهين نواصع ، ولا جميع أولئك الشهود مقانع . كما أنه قبل موته بقليل كان نشر خاطراته ، وتكلم فيها على الحرب العامة ، وعلى ثورة ملك الحجاز ومقدماتها ومصايرها وعلى مسئلة سورية ، والاسباب التي حملته على القتل ، والصلب ، والنفي من الارض ، ومآلها خيانة هؤلاء للجامعة الاسلامية ، وتألبهم مع الاجانب اعداء ملتهم على ملتهم ، وتمهيدهم للاجانب الاستيلاء على أوطانهم ، وربما كان بعض ما قاله صحيحاً ان لم يكن كله، وكان هناك من العرب من لم يكن يبالي بجامعة اسلامية ولا شرقية ومن يعتقد أن انتصار انكلترا هو انتصار العرب ولكن ليس للطورانيين الذين هم أنفسهم قد نبذوا هذه الجامعة ظهريا وقالوا بالقومية التركية البحتة ان يعاقبوا بالقتل من من العرب نبذ الجامعة الاسلامية وقال بالقومية العربية البحتة أفتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم .

هذا ما اخترنا ذكره من خبر هؤلاء القوم مما عرفناه بالذات ، وشاهدناه بالعين ، وسمعناه بالاذن . فيكون ذا قيمة عند الخلف الذين يهمهم أن يعرفوا حقائق ما جرى في الحرب العامة وفيما بعدها، لأنه بيان عن عيان . وقد علمت الخلق التجارب ، انه كلما تطاولت الايام وتراخت الآماد على الحوادث ، زيد في الاخبار ، ونقص منها ، وما زالت تعتورها التصورات بالاقاب والابدال ، الى أن تصبح الاخبار في واد ، والحوادث الحقيقية في واد، ويعود التاريخ قصصا موضوعا . فالخبر أمانة في ذمة المعاصر للحادث ، ولا سيما المطلع والمشاهد ، ينبغي أن تؤدى

تلك الامانة على أصلها ، نصحاً بالرواية ، وحرساً على التحقيق ، والله تعالى وحده من وراء العلم .
(ش)

****

بعد تحرير ما حررناه من خبر المرحوم أنور بنحو شهرين أو أكثر ، قدم الى الاستانة الملازم محيي الدين بك أحد مصاحبي (ياورية) انور باشا ، ومعه ضابط آخر اسمه محيي الدين من فرغانه ، فاما الاول فقد عرفته جيداً في موسكو ، عند ما ذهبت اليها بناءً على رجاء انور كما تقدم عن ذلك الخبر في محله .

وقد أفضى الضابطان المذكوران الى جريدة (توحيد أفكار) عددها المؤرخ في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ بالمعلومات الآتية ننشرها تتمة لترجمة ذلك البطل وتصديقا بين يدي ما قدمناه . قالا : —

« ان أنور باشا رحمه الله بعد انتهاء الحرب العامة اتفق مع الروس البولشيفين ، بناء على مواعيدهم له بانقاذ العالم الاسلامي ، ولكنه ما عتم أن لحظ بعد عودته الاخيرة من المانية (وهي التي ألحّ علينا فيها أن نأتي معه الى موسكو) ان الروس كانوا يخدعونه وانهم بدلاً من أن ينقذوا المسلمين ، كانوا يلحقون بهم فنون الأذى ، وأنواع العذاب ، فلحق بتركستان ، وأثار عليهم الاهالي هناك ، وما استقرت قدمه في تلك البلاد ، حتى نظم فيها قوة عصرية الشكل . واشتغل بترقية أحوال الاهلين العامية ، والصحية ، والأدبية ، والمادية ، فانضم اليه الاهالي من كل جانب ، وانسلوا من كل حدب، لا سيما مما كانوا يعانون من قسوة الروس . والتحقت بجيشه خمسة آلاف فارس من فرسان تلك الاقطار ، وأسس معملا لصنع القرطاس الناري (الخرطوش) ، فأزاح بذلك علة عظيمة . ومع نقصان الاعتاد والاسلحة بدأ الحرب ، وهزم الروس في وقائع عديدة ، وغنم منهم ، واحتلت جنوده خمس ولايات من أصل الولايات التسع التي تتركب منها بلاد تركستان . فعند ذلك ارتاعت الحكومة البولشفيه ، وساقت عليه ٨٠ الف مقاتل تحت قيادة قامانيف .

قالا : ولم يكن بامكان الروس مع ذلك أن يتغلبوا على أنور باشا . لو توفرت عنده عدة القرطاس ، فلما نفدت العدة من بين يديه ، اضطر أن يتقهقر الى الوراء ، فبلغ بلد « بالجوان » وهناك وقع في مأزق آخر ، وهو أن جيشه لقلة الضباط أصبح لا يقدر على ادارة جناحيه فتمكن العدو من خرق ميمنة أنور ، فجاء المرحوم بنفسه وتولى قيادتها ، وكان ممتطياً جواده وهو يباشر الحرب والقيادة بنفسه، وكان الروس قد خبأوا رشاشات لم يعلم بها ، ووقعت الواقعة أمام ثكنة (آب دره) في بالجوان فاصابه رصاص من تلك الرشاشات أرداه شهيداً ، وذلك في الساعة التاسعة والدقيقة ٣٠ صباحا من أول يوم من أيام عيد الاضحى سنة ١٣٣٨ وبذلك انهزمت القوة التي كانت معه ، مع أنه الى تلك الدقيقة التي سقط بها كان النصر مرافقا له ، وكان تابور كامل من الروس قد استسلم له ، وبعد الواقعة بأربع وعشرين ساعة اجتمع نحو ٣٠ الفا من الأهالي وعملوا له مأتما حافلاً جداً ، جرت به العبرات سيولا ، وحملوا نعشه على الاكتاف ، وواروه التراب في مكان يقال له « جكن » وبنوا عليه قبة وجعلوا يزورونه افواجا

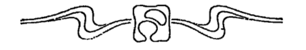
والآن يقرأ القرآن عند قبره ١٢ حافظاً بالتناوب بصورة دائمة . وكان برنامجه الحربي لو لم يقع شهيداً التراجع بانتظام الى (پامير) والاعتصام بجبل قلعة خوم حيث كان يترقب فرصة الكرة على العدو . ولم يكن معه عدد عديد من ضباط الترك بل كان معه ملازمان نافع وخليل خلصا من تلك الوقعة وقريباً يحضران الى تركيا . وقد استمرت حرب أنور للروس ١١ شهراً وأحبه أهالي تلك البلاد حبا جماً لما رأوه من تواضعه ، ودماثة أخلاقه ، وتوطئة كنفه ، لخاصتهم وعامتهم ، وقد أحدثت ثورته هذه انتباها لا يوصف في تلك البلاد . ولا تزال الثورة مشتعلة ، ولا يشك أحد من سكان تلك الأقطار بأنهم لا بد من أن ينالوا استقلالهم »

انتهى كلامهما

وقالت جريدة توحيد أفكار التي يرأس تحريرها وليد بك أبو الضيا من كبار مفكري الاتراك : ان المرحوم أنور باشا لم يحسن الادارة في تركيا ، وألحق بوطنه اضراراً لا تنكر ، ولكن له في جانب تلك المضار منافع عظيمة ، فقد خدم خدمة فائقة في حرب البلقان وفي حرب طرابلس الغرب ، ثم في تنسيق الجيش . وكان شجاعا ، ديّناً ، عفيف المئزر ، حر السجية ، ثم استمطر عليه الوليد رحمة ربه ورضوانه .

ومما ذكروا عنه أنه وجد في جيبه ساعة شهادته كتابان من زوجته الاميرة ناجية ابنة الامير سليمان أخي السلاطين عبد الحميد ، ومحمد الخامس ، ومحمد السادس . ووجد مصحف صغير كان مربوطاً بذراعه تحت القميص . وكان لا يفارقه . رحمه الله وأكرم مثواه .

(ش)



التعليق على الامم الاسلامية ازاء البلاشفة

والدعاية البلشفية

راجع الاشارة الواردة على ذكر هذا التعليق في صفحة ٣٠٧ (رقم ١)

ان الأتراك والأفغان والعجم ، وجميع الامم الاسلامية التي مدّت أيديها لمصالحة البولشفيك ، ليس منها أمة واحدة ترضى ان تتبلشف بالمعنى الذي يريده البلاشفة . فأمير الافغان ، حرص جدّ الحرص على ان لا تنفذ من خلال حدود الافغان دعوة بلشفية ، حتى لا يحصل له ما حصل لأمير بخاري . والعجم لم يهملوا مقاتلة المبادىء البلشفية اثناء ما كانوا يستعينون بالبلشفيك على قلع الانكليز من أرض فارس . والأتراك بالرغم من اتفاقهم مع الروس ، ومن امداد موسكو لانقرة بالسلاح والعدة ، لم يدعوا داعياً بلشفياً يدخل الاناضول ، بل عند ما جاء مصطفى صبحي التركي المتبلشف من الروسية الى طرابزون ، مع اثنين من اصحابه ، قاصدين بث الدعوة بالاناضول ، ابتدروا قتلهم ، وجعلوا ذلك عبرة لغيرهم . كما أنهم منعوا معتمدي موسكو بانقرة من القاء محاضرات على المذهب الشيوعي . وقبضوا مؤخراً في الآستانة على اناس متهمين بتأليف جمعية باشفية . وكان ذلك كله مما يغضب سوفييت موسكو. وانني اتذكر فيها جلسة شهدتها بنظارة الخارجية ، كان تشيتشرين يعاتب فيها أنور باشا ، والدكتور ناظم ، وفخري باشا (سفير تركية في كابل اليوم) ، وبدري بك ، على قتل مصطفى صبحي ورفاقه في طرابزون ، لمجرد كونهم بلاشفة . وكان أنور باشا يصرّح للبولشفيك دائماً : « اننا نحن لسنا شيوعيين ، ولا يمكننا ان نكون كذلك ، وانما نحن نتلاقى واياكم في نقطة المقاومة للاستعمار الغربي ، فتكونون فيها عضداً لنا ، ونكون عضداً لكم » . وفي هذا المعنى عينه كان كلام ممثلي انقره ، وكابل ، وطهران ، في موسكو ، وكان البولشفيك يتظاهرون بقبول ذلك على حد قول القائل :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

لاسيما أنهم هم لم يقطعوا أملهم من نشر البلشفة في العالم الاسلامي ولقد نجحوا في نشرها في تركستان ، واذربيجان ، وقازان ، اذ تجد هناك في كل مكان حزبين أحدهما حزب التصعلك والآخر حزب التملك ، وترى ثورة الصعاليك على رجال الدين وأصحاب الثروة وسادات الأراضي وأبناء بيوتات الحكم ، كما هي في الروسية نفسها . ولكن لم يبلغ بغض البلشفة في العالم الاسلامي ما بلغه في العالم المسيحي ، لأن للبلشفة عند المسلمين شفيعا من الدعوة الى تحرير الضعفاء ، ولأن البولشفيك ظهروا بمظهر العداء لدول الاستعمار التي هي الدول العادية على جميع العالم الاسلامي ، ومن الامثال « ان عدو عدوي هو صديقي » فكان بديهياً أن المسلمين يتمنون فوز البلاشفة . لأنهم أعداء اعدائهم وكان يظن أنه مهما كان من شدة وطأتهم على مسلمي الروسية ، فلا يزالون أخف وطأة عليهم وأقل خطراً من الدور القيصري الذي كان عدواً للاسلام ليس في الروسية ولا في التركستان فقط ، بل في كل آسية . حتى أن

بعض مفكري الاوربيين اليوم يعللون نهضة العالم الاسلامي ، والعالم الاسيوي الحاضرة ، بغياب القيصرية عن الروسية ، ويؤملون برجوعها تخييم السكون على آفاق الاسلام وانطلاق أيدي الاستعمار كما كانت من قبل تعمل بدون معارض ولا منازع . فأنت ترى ان الاسلام وان كانت فيه مبادىء اشتراكية ، فانها لا تصل به الى الشيوعية ، وانه من أجل ذلك لا يقدر أن يقبل المبدأ الشيوعي ، ولا أن يتبلشف بالمعنى المعروف في الروسية . ومع هذا فقد ارتضى أن يحالف البلاشفة استظهاراً بهم على عدو أشد خطراً وأعمق جرحا ، لان البلشفة مرة المذاق ، ولكن العبودية الاستعمارية أدهى وأمر . والمثل يقول : « سئل واحد ماذا الذي أحوجك الى المر . أجاب : الذي هو أمر منه » . وقد سألني رجل من ساسة الانكليز ، عما اذا كان صحيحاً انتشار البلشفية بمصر ، فأجبته « الذي اعلمه انه يوجد هناك حزب اشتراكي ، وحزب شيوعي ، وربما كان حصى الحزبين المتدل والغالي في الاشتراكية من عشرة الى خمسة عشر الف رجل » . قال : « أو هل تفتكر ان هذه الدعوة تزداد انتشاراً في بلاد الاسلام؟ » . قلت له : « ولم لا ؟ » قال : « أفيقبل الاسلام بمبادىء البلشفة ونفي الملكية ؟ » قلت له : « افيقبل الاسلام بالعبودية وتسلط الاجنبي على ابنائه ؟ » قال « لقد بالغت في التشبيه ، اتقيس خطرنا بخطر البولشفيك ؟ » قلت « لم أبالغ أصلا ، بل أنتم أشد خطراً من البولشفيك » وقد سمعت كثيراً من متمولي المسلمين يصرحون قائلين : « اذا كان لا بد من أكلنا فنفضل ان يأكلنا ابناء قومنا من ان يأكلنا الاجانب ، ولتسلط الشيوعي المسلم علينا اخف من تسلط الرأسمالي الاجنبي » . ولو لم يكن الاسلام والشرق اجمع مؤملين التحرر و الخلاص بدون بلشفة ، لكانا رميا بجميع البلاد الشرقية في احضان السوفييت الروسي منذ سنوات ، ولكن الامل لما ينقطع من نيل الحرية بدون بلشفة . وقد طال ما نصحناكم بالعدول عن سياسة العسف والعنف هذه وأنبأناكم بأن استمراركم انتم والفرنسيس وسائر دول الاستعمار على المعارضة في استقلال الشرقيين والمسلمين ، سيلقي هؤلاء في مهواة البولشفية ، ويخسركم وسائل الاستثمار وفوائد الاستعمار ، فلم تريدوا أن تسمعوا ولا ان تكترثوا ، لأن اطماعكم حجبت عقولكم ، واهواءكم أعمت بصائركم . ونرى أن الدرس الذي تلقيتموه من تركية لم يرفع بعد الاقفال التي على قلوبكم ، بل سياستكم في فلسطين ، وفي العراق ، وبلاد العرب ، ومصر ، هي هي . وسياسة فرنسا في سورية وغيرها هي هي . مع أن الدنيا كلها قد تغيرت ، والدعوة البلشفية واقفة لكم بالمرصاد ، وأنتم بأيديكم تهيئون الوقود لنارها ، ولا أراكم مرعوين حتى تمسكم النار وتحسوا بأوارها » . (ش)

فهرس

هذا الجزء

الألف

***

الباء

* * *

التاء

* * *

الثاء

الجيم

* * *

الحاء

* * *

الخاء

* * *

الدال

الراء

* * *

الزاي

* * *

السين

*
* *

الشين

الصاد

* * *

الضاد

* * *

الطاء

* * *

العين

* * *

الغين

* * *

ف

* * *

ق

* * *

ك

***

ل

* * *

م

* * *

ن

* * *

هـ

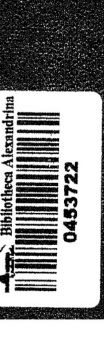
* * *

و

* * *

ي

ملتزم نشر هذا الكتاب
نجيب متري
صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر


Bibliotheca Alexandrina
04453722